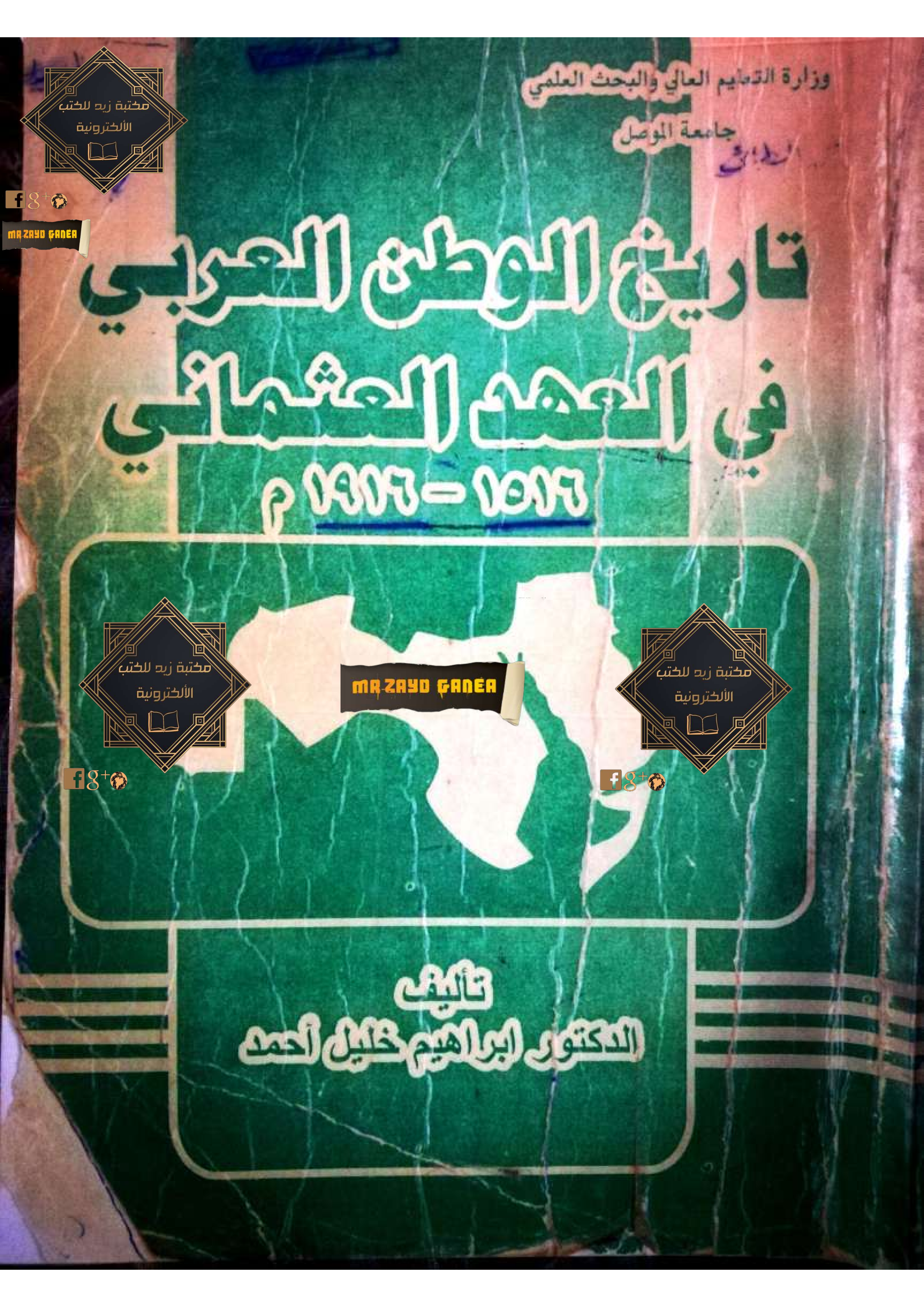


وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة الموصل

تاريخ الوطن العربي في العهد العثماني

١٥١٦ - ١٩١٦ م

تأليف
الدكتور ابراهيم خليل أحمد



مقدمة

— ١ —

ظهرت في السنوات الاخيرة بحوث ودراسات عديدة تناولت تاريخ العرب الحديث منذ التوسع العثماني حتى الحرب العالمية الاولى . كما عقدت ندوات ومؤتمرات علمية على صعيد الوطن العربي والعالمي لمعالجة جوانب مختلفة من هذا التاريخ.وبرز إهتمام كبير بالوثائق ولا سيما،العثمانية منها والمنتشرة في أماكن كثيرة ،وهي نصوص من شأنها القاء الضوء على بعض القضايا السياسية والاقتصادية والاجتماعية .فضلاً عما تقدم به عدد كبير من الباحثين العرب الشباب من رسائل جامعية عن الحقبة العثمانية .وأضرب من نفسي مثلاً على هذه المشاركة العلمية ،إذ يعود إهتمامي بهذا الموضوع إلى بضعة سنوات خلت ،وذلك حين إشتغلت بأعداد رسالتي للماجستير سنة ١٩٧٥ عن «ولاية الموصل» (١) وبعد ذلك شرعت بتدريس مادتي «تاريخ العرب الحديث »و«تاريخ الوطن العربي تحت السيطرة العثمانية »(٢)

---

(١) انظر رسالتنا الموسومة « ولاية الموصل : دراسة في تطوراتها السياسية ١٩٠٨-١٩٢٢ » وهي مقدمة لكلية الآداب/جامعة بغداد سنة ١٩٧٥/.غير منشورة.

(٢) يطلق الدكتور الياس فرح على الفترة العثمانية اصطلاح عهد «السيطرة العثمانية» ويقول : ان هذا المفهوم يتجاوز حدود الاحتلال والاستغلال إلى حدود طمس معالم الشخصية القومية ومقاومة عوامل النهضة . انظر كتابه : مقدمة في دراسة المجتمع العربي والحضارة العربية (بغداد، ١٩٧٩)، ص ١٩٥-١٩٦. وهناك من الباحثين من تحدث عن « الاستعمار التركي» و «الاحتلال العثماني» ومظاهرهما السياسية والثقافية .انظر : د. قاسم سلام. البعث والوطن العربي، (باريس، ١٩٨٢) ص ١٧، ٥٧-٧١. ومما يلحظ ان بعض الكتاب والمؤرخين العرب انتقدوا الكتابات التي عالجت تاريخ العرب خلال العهد العثماني « بمنطق أديولوجي» ورفضوا استعمال اصطلاح «السيطرة العثمانية» على هذا الاساس. وهم يرون ان الاصطلاح المذكور ينطلق من مفاهيم لاتزال الاديولوجيا راسخة فيها، وهي صيغة ارتبطت بمقاومة الاتراك .انظر: وجيه كوثراني ومعن زيادة ورشيد الخالدي ومحمد حرب «الدولة العثمانية بين الاسلام والقومية» ندوة الشهر ،مجلة تاريخ العرب والعالم ، بيروت ، السنة (٢) العدد (١٧)، ١٥ آذار ١٩٨٠، ص٧ وما بعدها.

في كليتي الاداب والتربية بجامعة الموصل .ومنذ ذلك الوقت عزمت على المساهمة في الكتابة عن هذه الحقبة من تأريخنا بعد أن لمست إفتقار المكتبة العربية إلى كتاب شامل لموضوعات التاريخ العربي خلال العهد العثماني. فضلاً عن الاهمال الذي إعتور جوانب معينة من هذا التاريخ على حساب جوانب أخرى في بعض المؤلفات المتداولة .

وحين كلفتني وزارة التربية ،مشكورة ،وزميلي الدكتور محمد مظفر الادهمي والسيد صادق حسن السوداني لتأليف كتاب لطلبة الصف السادس الاعدادي ،الفرع الادبي بعنوان: «التاريخ الحديث والمعاصر للوطن العربي» (١) قمت آنذاك بكتابة الفصول التي تغطي تاريخ العرب منذ مطلع العصور الحديثة حتى الحرب العالمية الاولى .ثم توسعت في كتابة الموضوع ليكون هذا الكتاب .

— ٢ —

إن الغرض من هذا الكتاب ،دراسة أوضاع الوطن العربي خلال الفترة الواقعة بين مطلع القرن السادس عشر ومطلع القرن العشرين ،وهي الفترة التي اصطلح المؤرخون على تسميتها بـ«العهد العثماني» أو «عهد السيطرة العثمانية »،وليس من شك في أن لهذه الفترة الطويلة من تاريخنا الحديث أهمية كبيرة في فهم التكوين السياسي والاقتصادي والاجتماعي والنفسي للمجتمع العربي .وكذلك في فهم الاتجاهات والتيارات الفكرية المعاصرة في الوطن العربي .

— ٣ —

لقد أصبحنا في ضوء الكتابات المتوفرة عن الحقبة العثمانية نتلمس آثار نظرتين مختلفتين إلى الدولة العثمانية. فالنظرة الاولى ترى أن العثمانيين

(١) محمد مظفر الادهمي وصادق حسن السوداني وابراهيم خليل أحمد ، التاريخ الحديث والمعاصر للوطن العربي ، طبعة ٢ ، (بلغراد ، ١٩٨٢) .

مسؤولين عما لحق بالعرب من فقر وتخلف وظلم وإستغلال وجهل وعزلة وجمود (١) .أما النظرة الثانية فتقوم على أساس «إن الدولة العثمانية دولة مفترى عليها » «وإن تاريخها تعرض إلى كثير من حملات التشهير من مصادر متعددة » (٢) و «إن الامبراطور العثمانية ظهرت في ثنايا رد الفعل الاسلامي إزاء أوربا الآخذة في التوسع »وإن من الضروري «وضع التأريخ العثماني في مكانته الصحيحة في إطار التاريخ العالمي » (٣) وهكذا فالتاريخ العثماني «ينتظر من المؤرخين الانصاف »،كما أن إعادة النظر ينبغي أن تركز على مسألة عدم تناقض العرب مع العثمانيين بل مع الاتحاديين الذين إتسمت فترة حكمهم بالاختلاف الجذري عن الفترة التي سبقتها ،لاجل ذلك كله يقتضي الواجب التمييز بين المرحلة الاولى من التاريخ العثماني والمرحلة الاخيرة منه والممتدة من ١٩٠٩ وحتى ١٩١٥ والمرتبطة في ذهن العرب بمشانق بيروت ودمشق . (٤)

— ٤ —

«إن كتابة التاريخ ،كما يقول أستاذنا الدكتور فاضل حسين ، مهمة صعبة جداً تقتضي التثبت من الحقيقة .كل الحقيقة ؛ولا شيء غير الحقيقة

(١) لتفاصيل هذه النظرة راجع : ساطع الحصري ، البلاد العربية والدولة العثمانية ، ط ٢ ، (بيروت ، ١٩٦٥) ؛ جورج انطونيوس ، يقظة العرب ، ترجمة ناصر الدين الاسد واحسان عباس ، ط ٣ ، (بيروت ، ١٩٦٩) ؛ محمد بديع شريف واخرون ، دراسات تاريخية في النهضة العربية الحديثة ،(القاهرة ، ١٩٥٠) ؛ جمال الدين الشيال ، محاضرات في الحركات الاصلاحية ومراكز الثقافة في الشرق الاسلامي الحديث ،ج٢ ،القاهرة ،١٩٥٨) ،ص٨٠

(٢) انظر : عبد العزيز الشناوي ، الدولة العثمانية ، دولة اسلامية مفترى عليها ، جزءان (القاهرة ، ١٩٨٠) ج ١ ، ص٥ - ٧ .

(٣) انظر : احمد عبد الرحيم مصطفى ، في اصول التاريخ العثماني ، (بيروت ، ١٩٨٢) المقدمة .

(٤) انظر : اراء كل من وجيه كوثراني ورشيد خالدي حول (الدولة العثمانية بين الاسلام والقومية) مجلة تاريخ العرب والعالم ، السنة (٢) . العدد (٧) ، ١٥ آذار ١٩٨٠ ، ص٦ - ٨ .

عن الماضي .وتفسير التاريخ مهمة أصعب ومكملة لتثبيت الحقائق » .(١)
ولا شك فان مهمة المؤرخ الرئيسة هي إعادة صياغة الحدث التاريخي وتركيب الصورة من جديد ،بقدر الامكان ،لاسيما وإن التاريخ حافل بالثغرات المجهولة والتحليلات الغامضة والتفسيرات المريبة .(٢) وفي محاولتنا هذه عملنا ،على إستعادة الماضي وبعثه بالصورة التي كان عليها ، قدر الامكان مع الالتزام برؤية قومية تقدمية في العرض والتحليل والتفسير ، ولكن دون قسر للاحداث ،وتحميل للنصوص أكثر مما تتحمل . وحسبنا إن كتابنا هذا كتاب (مدرسي) في التاريخ العام ألف خصيصاً لطلبة التاريخ في مراحل دراستهم الجامعية الاولى ووفق المنهج المقرر لهم تقريباً .

— ٥ —

يقع الكتاب في سبعة فصول : تناولت في الفصل الاول نشأة الدولة العثمانية وتوسعها في الاقطار العربية . واستعرضت ابرز النظريات حول قيام الدولة العثمانية ثم تتبعت مراحل توسعها في الاقطار العربية مشيراً الى أسباب التغير في ستراتيجية التوسع العثماني الذي حدث في عهد السلطان سليم الاول (١٥١٢ — ١٥٢٠) والتي كان من أبرز نتائجها دخول معظم اجزاء الوطن العربي تحت الحكم العثماني .

أما في الفصل الثاني ، فقد درست نظم الحكم والادارة العثمانية في الولايات العربية .. وتطرقت الى عناصر الحكم ، وتناسب القوى التي حكمت الدولة العثمانية ابتداء من السلطان وحتى أصغر مسؤول اداري عثماني . كما بحثت في الاوضاع الاقتصادية والاجتماعية ، ونظم الضرائب والتشكيلات ووقفت عند ظاهرة بروز عدد من القوى العربية والمحلية ووضحت موقفها من العثمانيين .

(١) انظر : فاضل حسين (طبيعة ثورة العشرين) مجلة كلية الآداب ، جامعة بغداد ، العدد (٢٨) ، مايس ١٩٨٠ ، ص٢٢٥ .

(٢) انظر : محمد احمد أنيس «مؤرخ مجهول سبق الجبرتي» مجلة الهلال ، القاهرة ، لسنة (٧٢) — العدد (٧) ، أول يوليو ، تموز ١٩٦٤ ، ص٣٤ .

وفي الفصل الثالث ، تابعت احداث الغزو الفرنسي لمصر سنة ١٧٩٨ وماأحدثه من نتائج في الواقع الاجتماعي والاقتصادي والثقافي ، وماترك من صدى في الاقطار العربية ثم بينت عوامل صعود ونهوض محمد علي ومجهوداته في جعل مصر مركزاً لدولة عربية قوية حديثة موحدة .

وكرست الفصل الرابع لدراسة محاولة الاصلاح العثمانية (التنظيمات) مشيراً الى عواملها وملابساتها وماتركته من آثار في الاقطار العربية ، كان لها دور في التمهيد لقيام نهضة عربية حديثة .

وفي الفصل الخامس ، درست حركات التجديد العربية الاسلامية ومنها الوهابية والسنوسية والمهدية ، مبيناً طبيعتها وموقعها في حركة النهضة العربية الحديثة .

أما في الفصل السادس ، فقد تابعت احداث الغزو الاستعماري الاوربي للوطن العربي ومراحله المبكرة .. ثم تعرضت لأبرز ردود الفعل العربية التي تمثلت بالمقاومة العربية المسلحة والسياسية .

وفي الفصل السابع تطرقت الى اتجاهات حركة النهضة العربية ووقفت ؛ عند محاولات المفكرين والقادة العرب الاجابة على السؤال المتعلق بالبحث عن الهوية القومية ، وأنهيت كتابي بأبرز حدث في تاريخ العرب الحديث، ذلك هو اعلان الثورة العربية الكبرى سنة ١٩١٦ والتي تمثل مرحلة حاسمة ومن مراحل التاريخ العربي اذ بدأ العرب بالسعي للتخلص من الحكم الاجنبي واقامة دولتهم العربية القومية المستقلة الموحدة .

اعتمدت في تأليف الكتاب على الكثير من المصادر والمراجع . وقد ضربت صفحاً عن وضع المصادر في أسفل الصفحات وبالشكل الاكاديمي التقليدي المعروف ، حتى لاأثقل على الطلبة اولاً ، واستجابة لرأي الخبير العلمي الذي اقترح حذف الهوامش والاكتفاء بوضع قائمة بالمصادر الرئيسة المعتمدة في نهاية كل فصل من فصول الكتاب ثانياً ، وذلك لتسهيل مهمة طلبتنا الاعزاء

بالرجوع اليها والافادة منها واعتمادها في كتابة بحوثهم وتقاريرهم الصفية. وقد بنى السيد الخبير اقتراحه هذا على أسس منها «ان الكتاب أُعد خصيصاً ليكون كتاباً مساعداً ، وكذلك توخياً للبساطة ، وحفاظاً على الجهد ضمن اطار الوحدة الكلية للكتاب شكلاً وموضوعاً »

— ٧ —

في هذه المقدمة ، لابد ان نذكر وبكثير من التقدير والاحترام والعرفان جهود من سبقونا من الباحثين والمؤرخين العرب ، ولاسيما جيل الرواد الذين كان لهم فضل كبير في ارساء قواعد مدرسة تاريخية عربية علمية متميزة . وقد افدنا من بحوثهم ودراساتهم فائدة كبيرة ، وبشكل مباشر وغير مباشر . وقد يقتضي الواجب هنا التذكير ببعضهم ممن أشرنا الى مجهوداتهم العلمية ، في خاتمة الكتاب وهم الأساتذة الكبار : محمد شفيق غربال ، ومحمد فؤاد شكري ، واحمد عزت عبد الكريم ، ومكي شبيكة ، وجمال الدين الشيال ، وزكي صالح ، وحسن عثمان ، وعبد الحميد البطريق ، ومحمد انيس ، وعبد الكريم غرايبة ، واحمد عبد الرحيم مصطفى ، وعبد الكريم رافق ، وزين نور الدين زين ، ومحمد مصطفى صفوت ، وعبد الجليل التميمي .

كما تنبغي الاشارة هنا الى اهمية كتابات عدد من المستشرقين والمؤرخين الاتراك ، والتي كان لها أثر كبير في اضاءة جوانب مهمة من التاريخ العثماني ولعل في مقدمة هؤلاء الاساتذة : هامتلون كب Gibb : وهارولد بويون Bowen وبرنارد لويس Lewis وبول ويتك Wittek : وستانفورد شو Shaw ومحمد فؤاد كوبرلي ، وخليل انالجك وعبد الرحمن تشايجي وخليل ساحلي اوغلي وصالح اوزبران .

ولايفوتنا ان نذكر وبكثير من الفخر والاعتزاز مجهودات عدد من المؤرخين الشباب من العرب الذين اختاروا لانفسهم طريق البحث الشاق في جوانب من التاريخ العثماني ويأتي في مقدمتهم : عبد العزيز محمد عوض ،

وليلى الصباغ ومصطفى السيد سالم ، ومحمد عدنان البخيت ، وفاروق عثمان اباظة ، وعبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم ، ورشاد الامام ، ومصطفى كريم ، ومحمد عبد المنعم السيد الراقد ، وعماد عبد السلام رؤوف ، وعلاء موسى كاظم نورس ، وصالح العابد ، وعلي شاكر علي ، وحسين القهواتي ، وجاسم محمد حسن العدول ، وخليل علي مراد وغيرهم ممن اطلعنا على بعض دراساتهم وبحوثهم ، والتي كان لها صدى طيب عند المهتمين بتاريخ العرب الحديث .

— ٨ —

واخيراً ، وقبل ان اختم هذه المقدمة لابد ان اذكر فضل عدد من اساتذتي وزملائي علي والذين كان لهم فضل لاينكر في صدور هذا الكتاب بشكل او بآخر واخص بالذكر كل من الدكتور فاضل حسين ، والدكتور عبد القادر أحمد اليوسف والدكتور ياسين عبد الكريم والدكتور عبد الامير محمد أمين ، والدكتور كمال مظهر أحمد. كما أقدم شكري وتقديري للاخ الدكتور عماد الجواهري والاخ الدكتور عبد الوهاب العدواني لقراءتهما مسودات الكتاب وابداء ملاحظاتهما العلمية واللغوية واشكر السيدة فوزية اسماعيل عزيز التي قامت بنسخ المخطوطة على الالة الكاتبة والسيد محسن حمزة لأعداده فهارس الكتاب .   ومن الله التوفيق

الدكتور ابراهيم خليل أحمد
استاذ مساعد ورئيس قسم التاريخ بكلية التربية
جامعة الموصل



الفصل الاول

نشأة الدولة العثمانية وتوسعها في الاقطار العربية

١ ـ نشأة الدولة العثمانية:

لايزال موضوع نشأة الدولة العثمانية يثير جدلاً ونقاشاً بين المؤرخين المختصين بالتاريخ العثماني . وسبب ذلك يرجع الى عاملين اساسيين يتعلق اولهما بفقدان المصادر والمواد الاولية التي تعود لتلك الفترة. وثانيهما كثرة ماعلق بهذا التاريخ من اساطير وخرافات . لذلك فقد تعددت الروايات في هذا الشأن وابرزها هي الرواية التقليدية التي تتخلص بأن جد العثمانيين الاعلى وهو سليمان شاه ينتمي الى عشيرة تركمانية اسمها قايي . وكان يحكم منطقة ماهان شمال شرق ايران في أواخر القرن الثاني عشر . وقد فر امام الزحف المغولي في مطلع القرن الثالث عشر متجهاً مع جماعة من أتباعه نحو الاناضول . وتشير هذه الرواية الى ان سليمان شاه غرق اثناء عبوره نهر الفرات عند قلعة جعبر فانقسمت اسرته الى قسمين فصل أحدهما ، وكان بقيادة كندبار أحد أبنائه ، العودة من حيث أتى . اما القسم الآخر فكان بقيادة ارطغرل الذي قرر الاستمرار في الاتجاه نحو الاناضول . وبهذا يعد ارطغرل مؤسس الاسرة العثمانية في الاناضول . ومما جاء في الرواية أن أرطغرل شاهد في طريقه جيشين مشتبكين فوقف على مرتفع من

الارض ليمتع نظره بهذا المنظر المألوف لدى العشائر البدوية آنذاك . ولما آنس الضعف في أحد الجيشين وتحقق من انكساره وخذلانه ان لم يمد اليه يد المساعدة دبت فيه النخوة الحربية ونزل هو وفرسانه مسرعين لنجدة اضعف الجيشين ، وهاجم الجيش الغالب وكان فرقة مغوليـــة من جيش الخان اوكتاي ابن جنكيزخان حتى هزمه ، ولم يكن الجانب الضعيف سوى جيش سلطان قونية السلجوقي علاء الدين الاول (١٢١٩ – ١٢٣٥م) . فكافأه علاء الدين على مساعدته له باقطاعه بقعة من دولته في غرب الاناضول وهي سهول سكود والمنحدرات الشرقية من جبال ظومانيج على الحدود البيزنطية . كما منحه لقب (اوج بكى) أى حارس الحدود جرياً على التقاليد التي كانت سائدة في دولة الاتراك السلاجقة .

وتقول الرواية ان عثمان الابن الاكبر لارطغرل تزوج من مال خاتون وهي أبنة رجل صالح متصوف اسمه «ادة بالي» كان يسكن في قرية مجاورة لمدينة اسكي شهر حين قص عليه حلمـــا راه وفيه ان القمر يصعـــد من صدر الشيخ وبعد ان يصبح بدراً ينزل في صدر عثمان، ثم تخرج من صلبه شجرة تغطي الكون بظلها ، وتصبح كل الجبال تحتها ويخرج النيل ودجلة والفرات والدانوب من جذعها وتتوجـه اوراق هذه الشجرة كالسيوف نحو مدينـة القسطنطينية عاصمة الامبراطورية البيزنطية انذاك .

ولما توفي ارطغرل سنة ١٢٨٨م اصبح عثمان اكبر اولاده مكانه ولم يلبث هذا ان حصل على امتيازات جديدة عقب فتحة قلعة (قره حصار) سنة ١٢٨٩ فمنحه السلطان علاء الدين لقب (بك) وأقطعه كافة الاراضي والقلاع التي استولى عليها واجاز له ضرب العملة وذكر اسمه في خطبة الجمعة. وفي سنة ١٣٠٠ توفى علاء الدين فاستأثر عثمان بجميع الاراضي المقطعة له ولقب نفسه (باديشاه آل عثمان)وجعل مقره مدينة (يكي شهر) واخذ في تحصينها . ثم احتل نيقيا ، ولكنه فشل في احتلال نيقوميديا فعاد إلى عاصمته الاولى ليعمل في تنظيم سلطنته .

لقد وردت الرواية التقليدية تلك في الحوليات العثمانية الرسمية وتناقلتها مصادر عديدة ولكن ببعض الاختلافات القليلة ومن ذلك ان لعثمان اثنين وخمسين جداً ينتهون بنوح ، ومنهم اوغوزخان الذي عرف قومه بالغز ، وهم قبائل تركية اشتهرت ببأسها في آسيا الغربية في القرن العاشر. وردد كتاب عرب الرواية الرسمية واضافوا اليها بعامل الزمن كثيراً من الاضافات التي تعكس ازدياد قوة العثمانيين . وكمثال على ذلك نشير الى رواية تطرق فيها علي بن حسن الشهالي الذي عاش في النصف الثاني في القرن السابع عشر إلى خبر يتعلق بانتساب العثمانيين إلى عرب الحجاز .

ويتضح من الرواية العربية انها تهمل ذكر الغز بسبب وثنيتهم ولايعني هذا النيل من العثمانيين وانما اضافة امجاد مهمة لهم حين تنسبهم إلى الاصل العربي . ومهما يكن من امر فالنظرية الرسمية وانعكاساتها تدل على انها محض اساطير وضعت وشاعت في وقت متأخر من قيام الدولة العثمانية وهي تعود غالباً إلى القرن الخامس عشر حين شعر الكتاب الاتراك بان دولة عظيمة مثل الدولة العثمانية ، وخاصة بعد استيلائها على القسطنطينية سنة ١٤٥٣ . تحتاج إلى تاريخ عظيم يتفق والحاضر المجيد الذي وصلت اليه.

لقد توصل الباحثون في السنوات القليلة الماضية إلى حقيقة تاريخية جديدة وهي ان الجد الاعلى للعثمانيين لم يدخل الاناضول في القرن الثالث عشر . وانما في القرن الحادي عشر مع جموع من التركمان الذين انتشروا في هذه المنطقة في اعقاب معركة ملاذكرد صيف ١٠٧١ بين السلطان السلجوقي البارسلان والامبراطور البيزنطي رومان الرابع ديوجين Romain IV Diogene التي انحسمت بهزيمة البيزنطيين واسر الامبراطور . واستناداً لهذه المعلومات فالعثمانيون الاوائل لم يكونوا اكثر من قبائل بدوية ارتبطت بالسلاجقة الاتراك بشكل او بآخر ، لذلك وبعد ان بنى العثمانيه..

دولتهم نشروا الفكرة القائلة بان جدودهم الاوائل دخلوا الاناضول قادة عسكريين في خدمة السلاجقة وهذا بدون شك ، يعزز طموحهم إلى السلطة وانفرادهم بها خاصة بعد انقراض دولة سلاجقة الروم العظام .

لقد كان موضوع نشأة الدولة العثمانية والروايات المتعلقة به مثار نقد وتمحيص عدد من المؤرخين منهم المؤرخ الانكليزي كيبونز والمؤرخ التركي محمد فؤاد كوبرلي ، والمؤرخ الانكليزي بول ويتك والذين وضعوا نظريات حديثة تجاوزت الرواية التقليدية ذات الأسس الواهية وتبنوا أفكاراً جديدة تتوافق مع المنطق العلمي والسياق التاريخي او ضمن رؤية يقررها المنهج الذي يعتمده المؤرخ في دراسة التاريخ .

نظرية كيبونز :

ان المؤرخ الانكليزي كيبونز Gibbons من أوائل الذين تصدوا لموضوع نشأة الدولة العثمانية . وقد اورد أراءه وافكاره في هذا الشأن ضمن كتابة الذي صدر سنة ١٩١٦ بعنوان :

The Foundation of the Ottoman Empire

وتتلخص نظريته بما يلي

١ ـ كان ارطغرل أبو عثمان رئيس عشيرة صغيرة اسمها قايي وفدت على الاناضول في عهد السلطان السلجوقي علاء الدين الاول فراراً من الغزو المغولي لخوارزم .

٢ ـ استقرت هذه العشيرة في سكود شمال غرب الاناضول وهي مقاطعة تابعة لدولة سلاجقة الروم . وتولى عثمان رئاسة العشيرة بعد وفاة والده ارطغرل.

٣ ـ كان عثمان وعشيرته اتراكاً كفاراً يزاولون الرعي ، فلما عاشوا في بيئة اسلامية دخلوا الاسلام شأنهم في ذلك شأن أبناء جلدتهم من السلاجقة وقد أثار فيهم الدين الجديد رغبة في ادخال الناس فيه فأرغموا جيرانهم الاغريق الذين كانوا يعيشون معهم في وفاق على الدخول في حوزة الاسلام كذلك .

٤ ـ لم يكن تحت قيادة عثمان قبل دخول الاسلام غير اربعمائة محارب يقيمون في دورهم ويزاولون حياة بسيطة . لكن عددهم سرعان ماتضاعف بين سنتي ١٢٩٠ و ١٣٠٠ وامتدت حدودهم حتى صاقبت حدود البيزنطيين، وادى ذلك الى ظهور جنس جديد انتسب الى رئيسه «عثمان» ذلك هو الجنس العثماني . ولم يكن هذا الجنس تركياً خالصاً منذ بداية امره ولكنه كان جنساً جديداً مختلطاً ناشئاً من ذوبان العناصر الاصلية وقوامه الاتراك الوثنيون والاغريق المسيحيون .

٥ ـ وزاد عدد العثمانيين بنسبة كبيرة في وقت قصير ، ومن الخطأ تعليل ذلك بالامدادات البدوية الجديدة الوافدة من الشرق ، لان اراضي العثمانيين كانت تقع غرب الاناضول . وكان لابد للكتل البشرية لكي تبلغ ذلك المكان من الالتحاق بخدمة حكام اخرين في شرق الاناضول اولاً ، وان تأخذ منهم اراضي . ومن هنا لايمكن تعليل الزيادة الا بذوبان العنصر المحلي المكون من الاغريق .

٦ ـ ولايمكن كذلك تفسير سرعة تأصل الدولة العثمانية في البلقان بهذه الاسباب المذكورة وحدها فقد ساعدت على ذلك الاوضاع المتدهورة لبيزنطة والبلقان وكل العالم الغربي .

والى جانب هذه العوامل الخارجية تنبغي الاشارة إلى قوة شخصية السلاطين العثمانيين الاوائل .

٧ ـ ولما كان نصارى البلقان الذين دخلوا في حوزة الحكم العثماني لم يعيشوا مثل نصارى الاناضول قروناً طويلة في جوار المسلمين ، فقد ابتدعت في عهد مراد الاول ١٣٥٩ ـ ١٣٨٩ طرق جديدة لادخالهم في الاسلام . ومن ذلك عتق الاسرى في حالة دخولهم في الاسلام ، ولكن لما كانت هذه الطريقة لاتطبق الا في دائرة محددة . فقد كانت نتائجها كذلك محدودة وظهرت عندئذ الضرورة لتأسيس جيش جديد (يني جريه)

او الجيش الانكشاري Jannissaries من ابناء النصارى ولوضع نظام الدوشيرمة (المقطوعين) الذين تتم عملية ادخالهم في الدين الاسلامي لذلك كانت العناصر اليونانية والسلافية في البلقان تفضل دخول الاسلام على تسليم ابنائها للعثمانيين. فان ادخلنا في اعتبارنا ان الجيش الانكشاري لم يكن له حتى في القرن الخامس عشر اهمية عددية ، ولم يكن هو العنصر الاساسي في الجيش رجحنا انه لم يكن تشكيلا يراد به تقوية الجيش وانما كان وسيلة لنشر الاسلام .

نظرية كوبرلي :

بالرغم من أن اراء كيبونز في موضوع نشأة الدولة العثمانية تعد ذات قيمة كبيرة بين المؤرخين المهتمين بالدراسات العثمانية ، وذلك لما عرف عن هذا المؤرخ من مكانه متميزة في حقل اختصاصه ، وللجهد الواضح في كتابه ، الا ان نظريته واجهت بعد سنوات قليلة من نشرها نقداً شديداً من البروفسور محمد فؤاد كوبرلي ، وهو مؤرخ تركي معاصر القى في سنة ١٩٣٤ ثلاث محاضرات في مركز الدراسات التركية في جامعة السوربون بفرنسا ، دارت حول قيام الدولة العثمانية . واشار كوبرلي في تلك المحاضرات إلى ان نظرية كيبونز تبدو له واهية من حيث اساسها العلمي وخاصة في محاولة اعتماد العامل الديني في تفسير نشأة الدولة العثمانية . ولقد قدم كوبرلي لنظريته بدراسة ببليوغرافية نقدية تناول فيها مارجع اليه مؤرخو هذه المشكلة من مصادر وماغفاوا عنه او جهلوه . وتتلخص نظريته بما يلي :

١ - كان قسم صغير من الغزو المعروفين بعشيرة قايي قد وفد على الاناضول أيام الحروب السلجوقية ، وسكن اماكن مختلفة منه ، وظل يعيش في أواخر القرن الثالث عشر في شمال غرب الاناضول على الحدود التركية - البيزنطية ، ويمكن الظن بأن هذا القسم كان يحارب جيرانه من البيزنطيين تحت قيادة أحد الامراء الاقوياء .

٢ ـ أخذ عثمان، وهو رئيس عشيرة ذكي وقوي الارادة يوسع اراضيه بالتدريج مستغلاً الفوضى والاهمال المسيطرين على الاراضي البيزنطينية بالاناضول . وكان اول صدام بين البيزنطيين وعثمان الذي كان يتهدد منطقة نيقيا هو المعركة التي خاضها البيزنطيون في قوين حصار سنة ١٣٠١ .

٣ ـ وكان من حسن حظ العثمانيين ان بيزنطة قد شغلت بكثير من القلاقل والفتن في العاصمة وفي البلقان وبالصدام المستمر مع اعدائها من امارات الثغور الاسلامية الواقعة على حدودها أمثال امارة كرميان وصاروخان ومنتشا وقره سي ، لذا لم تستطيع التحرك ضد عثمان وسقطت في يد العثمانيين أماكن كثيرة ، وكان عليها ان تدافع عن نفسها بقوات محلية ومن ذلك بورصة التي سقطت سنة ١٣٢٦ ونيقيا سنة ١٣٣١ . وفي سنة ١٣٣٧ استولى العثمانيون على نيقوميديا وابتداء من حوالي ١٣٦٠ حكموا اراضي إمارة قرة سي التي تمكنوا من تمزيقها .

٤ ـ ولما كانت بيزنطة قد شغلت بكثير من الفتن بعد وفاة اموربك حاكم ولاية ايدين فقد عنيت كثيراً بان تضمن لنفسها مساعدة اورخان بن عثمان (١٣٢٦ ـ ١٣٥٩) الذي صار يتدخل بقواته في أمور بيزنطه .

٥ ـ وما لبث العثمانيون الذين اجتازوا البحر سنة ١٣٤٥ أن افادوا من زلزال دمر اسوار غاليبولي (جناق قلعة) فدخلوها واستوفد اورخان كثيراً من أتراك الاناضول وخاصة من ولاية قره سي وكذلك بعض العشائر التركية فوطنهم هناك .

٦ ـ ولما كان قسم من أهل تراقيا قد فروا امام الزحف العثماني فقد كان الاتراك القادمون من الاناضول يعمرون اماكنهم الخالية . ولم تكن هذه الحركة التي بدأت سنة ١٣٥٩ مثل حركات العثمانيين ومن سبقهم من امارات الساحل القوية استيلاء مؤقتاً ولكنها كانت حركة من حركات الاستيطان الحقيقي .

٧ـ اما بيزنطة التي احتفظت بمركزها عاصمة قرونا عديدة ، فقد بدأت تحسُن بالخطر العثماني بأوسع معانيه ، ولما ولي مراد الاول (١٣٥٩ — ١٣٨٩) العرش كان الاتراك قد استقروا نهائياً على ساحل اوربا متخذين من غاليبولي نقطة متقدمة لعملياتهم الحربية التي استطاعوا دفعها حتى تراقيا . وقد استولى الاتراك من قادة اورخان ومن اولي الخبرة في غزواتهم سنة ١٣٦٠ — ١٣٦١ على اهم الاماكن الستراتيجية في ترافيا وقد وفق مراد في مدة سلطنته في تحقيق غايته وهي بسط سلطان العثمانيين على البلقان . ثم نقل العثمانيون عاصمتهم الى ادرنه واستولوا على تراقيا ومقدونيا وبلغاريا وملأوها بجماعات كثيفة من الاتراك المهاجرين . وما لبثوا بعد ذلك في معركة قوصوه التي حدثت في سنة ١٣٨٩ ان دكوا بلاد الصرب دكاً . ولما عظمت قوتهم بانتصاراتهم في البلقان استطاعوا توسيع حدودهم داخل الاناضول فاستولوا على أنقرة واطرافها وعلى قسم كبير من الاراضي التابعة لامارات كرميان وحميد وقهروا أمارة قرمان .

٨ـ وفي عهد السلطان بايزيد الاول (١٣٨٩ — ١٤٠٢) صارت الدولة العثمانية امبراطورية راسية القواعد في كل من الاناضول والبلقان ، الا أنها سرعان ماتعرضت لهزيمة منكرة امام القائد المغولي تيمورلنك الذي حقق انتصاراً ساحقاً في معركة أنقرة سنة ١٤٠٢ على بايزيد واوقعه في الاسر وعلى أثر هذه المعركة تنازع أبناء السلطان المذكور على السلطنة ، فاستقل كل واحد منهم في قطر من أقطار الدولة . غير أنه بعد انتهاء هذه الفترة ، التي اسماها المؤرخون العثمانيون باسم «فاصلة السلطنة» بانتصار السلطان محمد الاول (١٤٠٢ — ١٤٢١) ، بدأت مرحلة جديدة من مراحل التوسع العثماني وذلك أثر سقوط القسطنطينية بايديهم سنة ١٤٥٣ . والقضاء على الامبراطورية البيزنطية بصورة نهائية وذلك في عهد السلطان محمد الثاني المعروف بالفاتح (١٤٥١ — ١٤٨١) .

نظرية ويتـــك :

في البدء نقول ان بول ويتك Paul Wittek يعد رائداً في الدراسات العثمانية من خلال سلسلة محاضرات القاها في جامعة لندن سنة ١٩٣٧ ونشرتها الجمعية الاسيوية الملكية سنة ١٩٣٨ بعنوان «قيام الدولة العثمانية» ، The Rise of the Ottoman Empire وقد حاول :ـ

نقد الرواية التقليدية الرسمية والاتيان بنظرية جديدة تعد اليوم من احدث واوثق النظريات المعتمدة في هذا المجال . ومع أنه افاد كثيراً من نظرية كوبرلي الا ان ذلك لم يمنعه من الاشارة الى ان كوبرلي صدق الاسطورة التي تقول بانتماء العثمانيين الى قايي . وقال ويتك ان الامارة العثمانية لم تكن سوى واحدة من بضعة امارات اسلامية تشكلت في القرن الثالث عشر على حدود الدولة البيزنطية وعاشت على غزو الاراضي البيزنطية والسعي الحثيث لنشر الاسلام . اما سكان هذه الامارات فكانوا خليطاً من عناصر مختلفة يجمعهم الدين الاسلامي والحماس في محاربة البيزنطيين .

ولقد ورد ذكر العثمانيين لاول مرة بهذا المعنى في قصيدة للشاعر احمدى نظمها بالفارسية حوالي سنة ١٤٠٠ . اما سليمان شاه ، الذي تقول الراوية الرسمية أنه جد عثمان فهو ليس الا شخصية خرافية وان اسمه وذهابه الى بلاد الروم استعيراً من رواية حقيقية عرفت انذاك عن احتلال التركمان الغزاة (المجاهدين) للاناضول في القرن الحادي عشر وارتباط ذلك باسم الامير السلجوقي سليمان بن قتلمش الذي ارسله السلاجقة الحاكمون في بغداد في الربع الاخير من القرن الحادي عشر لينظم عمليات اولئك الغزاة ، فتمركز في نيقية ثم عاد بعد احتلال نيقيا من قبل الصليبيين في سنة ١٠٩٧ باتجاه بغداد بقصد الاستيلاء عليها وطرد اقربائه السلاجقة منها ، فقتل في طريق عودته وغرق ابنه قليج ارسلان في نهر الخابور .

ولما كانت الامارة العثمانية ، مواجهة للاراضي البيزنطية فضلا عن

وقوعها على الطرق الرئيسة التي تصل بين القسطنطينية و المدن العربية الكبرى في بلاد الشام والعراق فقد استطاعت ان تتفوق على الامارات المجاورة لها وتزداد قوة وتوسعاً لاسباب متعددة : فوقوعها قرب البيزنطيين جعل المجاهدين ويسمون الغزاة ، وهم الذين يحمون الثغور الاسلامية، لايجدون عملاً في الامارات الضعيفة الاخرى التي قامت في النصف الغربي من الاناضول ومنها امارة منتشا على الساحل الجنوبي الغربي وامارة تكه على ساحل الاناضول الجنوبي وامارة سينوب على البحر الاسود ، فهرعوا الى الامارة العثمانية وزادوا قوتها . كما ان موقعها الستراتيجي سهل مجيء العلماء والعناصر المنظمة ، كالتجار والصناع ، من داخل العالم الاسلامي اليها ، وحلت تبعاً لذلك مشكلة موارد الامارة . وقد نشط العلماء المدارس الاسلامية ، وطبقوا تعاليم الدين في نظام الامارة ، واخذوا الجزية ، وكان التجار والصناع منظمين في مايشبه نقابات ، تسمى الاخية او الاخوان يتعاون فيها اصحاب كل مهنة وتنشأ بينهم رابطة ولاء ودفاع عن مصالحهم . واتخذت هذه الرابطة مظهراً عسكرياً . وقد سادت بين الغزاة وبين الحاكمين منهم ومنظمات الاخية مجموعة من التقاليد في الاخلاق والسلوك مبنية ، في الغالب ، على التقى مع مزيج من التصوف . وقد استفادت امارة عثمان من هذه الخصائص ، ومن كثرة العنصر المحارب فيها ، وعلى صغرها فقد اخذت تتوسع ببطء في وجه مقاومة البيزنطيين وكان كل انتصار يجلب اليها غزاة أكثر ، وهكذا ازدادت امكاناتها العسكرية وتحتم عليها متابعة الغزو في كل من الاناضول وشبه جزيرة البلقان .

٢ ــ التوسع العثماني في الاقطار العربية :

ان احتلال العثمانيين لمدينة القسطنطينية في ٢٩آيار سنة ١٤٥٣ واتخاذها عاصمة لهم باسم استانبول (او اسلامبول اي مدينة الاسلام) بعد ان ظلت زهاء الف عام عاصمة لامبراطورية بيزنطة جاء بداية لمرحلة جديدة من التاريخ البشري ، فقد كان العثمانيون طوال القرن الخامس عشر يتوسعون باتجاه اوربا الوسطى والشرقية .

وفي عهد السلطان سليم الاول الذي تولى الحكم سنة ١٥١٢ ، على اثر خلع ابيه بايزيد الثاني (١٤٨١ – ١٥١٢) حدث انقلاب في ستراتيجية الدولة العثمانية . اذ توقف زحفها على حساب الغرب الاوربي اوكاد واتجهت نحو الوطن العربي .

ومهما تعددت الاراء واختلفت في تعليل هذه الظاهرة فان هناك سببين مهمين اولهما ظهور الدولة الصفوية في ايران . وثانيهما الغزو الأوربي للوطن العربي .

يعتقد فريق من المؤرخين وفي مقدمتهم المؤرخ البريطاني ارنولد توينبي Arnold Toynbee ان الاحداث التي وقعت في الشرق اوائل القرن السادس عشر هي التي جذبت الدولة العثمانية الى الوطن العربي . ومن ابرز هذه الاحداث ظهور الدولة الصفوية في ايران . ويضيف ان الغزو العثماني للاقطار العربية ماهو الا مرحلة من مراحل الصراع بين الدولتين العثمانية والصفوية بقصد السيطرة على منطقة الشرق الادنى . لذلك لابد من ذكر نبذة مختصرة عن نشأة الدولة الصفوية ليسهل علينا فهم دوافعها التوسعية واسباب صراعها مع الدولة العثمانية بعد ان تاخمتها.

ظهور الدولة الصفوية في ايران :

نشأت الدولة الصفوية في بلاد فارس اولاً كحركة دينية وسط الاضطراب الذي عم ايران عقب سقوط الدولة المغولية الاولى . ويدعي الصفويون انهم ينتسبون إلى الشيخ صفي الدين اسحاق المتوفى سنة ١٣٢٤ الذي يرجع بنسبه إلى الامام موسى الكاظم الا ان الدراسات الحديثة اسقطت هذا الادعاء ، حيث لم ترد اية اشارة في المصادر والاثار المعتمدة تدل على رجوع نسب هذه الاسرة إلى العلويين بشكل صريح .

كانت هذه الحركة في نشأتها طريقة صوفية كبقية الطرق الصوفية التي شهدها الشرق الاسلامي في اذربيجان حيث اقام صفي الدين . وقد

انتقلت المشيخة الى خوجه علي بن حيدر الذي اتصل بتيمورلنك خلال غزوه للمنطقة فاوقف عليه اردبيل له ولاتباعه . لذلك تمركزت الحركة هناك ثم اخذت في الانتشار . وحين انتقلت مشيخة الحركة إلى جنيد سعى لتحويلها إلى حركة سياسية متخذاً القوة اداة لنشرها . وقد ارتبط جنيد باواصر المصاهرة مع اسرة اوزون حسن مؤسس الامارة الاق قوينلية وهي امارة تركمانية ضمت العراق واذربيجان بين سنتي (١٤٦٧ — ١٥٠٨) فأكتسب بهذا الزواج قوة كبيرة واصبح للحركة الصفوية ابعاداً سياسية واضحة .

اما حفيده حيدر فيعد منظم قوات الصفويين العسكرية وقد اتخذ لاتباعه لباساً مميزاً للرأس وهو عبارة عن قلنسوة حمراء لهذا عرف اتباعه باسم القزلباش بمعنى : ذوى الرؤوس الحمراء . وفي سنة ١٤٨٨ قتل حيدر في احدى المعارك المحلية فتولى قيادة الحركة الصفوية الشيخ اسماعيل بن حيدر الذي استفاد من ضعف الامارة الاق قوينلية في اواخر ايامها ليفرض سيطرته على اذربيجان ويدخل عاصمتها تبريز ويجعلها عاصمة له واتخذ لنفسه لقب الشاه وسط مراسيم مفخمة وقد حكم ايران من ١٥٠٠حتى ١٥٢٤ .

استخدم الشاه اسماعيل الصفوي الدين والتصوف وسيلة لفرض هيمنته على ايران واحتواء مسلميها جميعاً ولو ظاهرياً وذلك بانتهاجه سياسة طائفية مقيتة وحتى يخفي هدفه استند إلى بضعة مظاهر سطحية استحدثها في عصره او بعثها من جديد ، من ذلك اتخاذه سب الخلفاء الراشدين الثلاثة الاول وسيلة لامتحان الايرانيين فمن يسمع السب منهم يجب عليه ، استناداً إلى اوامر الشاه اسماعيل ان يوافق على ذلك ويطلب المزيد منه . اما اذا امتنع السامع عن النطق قطعت رقبته . وقد ازداد عدد ضحاياه على عشرات الالوف من الناس . كما اكد على ضرورة المبالغة في الاحتفالات الدينية .

اصبح التقسيم المذهبي على اساس جغرافي بعد ان فرض الشاه اسماعيل وحدة المذهب في ايران بينما كان سابقاً على اساس اختلاف عقائدي ضمن الجماعات الاسلامية المختلفة ، لذا ففي الوقت الذي بدت ايران فيه موحدة، مذهبياً ، ولو من حيث المظهر ، تمزق شمل العالم الاسلامي حين باتت كل من الدولة الصفوية والدولة العثمانية تدعي احقيتها في تزعم المسلمين وتتستر وراء المذهب لتحقيق اهدافها التوسعية . الامر الذي اتاح المجال للمستعمرين البرتغاليين كي يركزوا اقدامهم في الخليج العربي ويسيطروا على سواحله ويتحكموا في منافذه كما سنرى .

تطلع الشاه اسماعيل إلى ماحوله فكان لابد ان يجذب العراق انظاره فهو مجال التوسع في الغرب . كما ان اوضاع العراق السياسية المتدهورة يومذاك كانت مشجعة للتوسع الصفوي ، والعراق إلى جانب هذا مجال اقتصادي ، ففي منطقة الجزيرة منه اراض زراعية جيدة ، فضلاً عن كونه مركزاً تجارياً مهماً لانه يطل على الخليج العربي . هذا بالاضافة إلى وجود العتبات والمراقد المقدسة فيه .

وعلى هذا الأساس قام الشاه اسماعيل بالسيطرة على العراق سنة ١٥٠٨ وبهذا اصبحت الدولة الصفوية متاخمة للدولة العثمانية . ولم تكن الحدود بين الدولتين مضبوطة بحيث تمنع الاشتباك ، كما كانت مناطق الحدود مأهولة بعناصر مختلفة تتذبذب في ولائها بين الدولتين . كما اخذ الشاه اسماعيل يعمل على اثارة العثمانيين بطرق شتى . فعلى سبيل المثال اصبحت بلاده ملجأ للفارين من وجه السلاطين العثمانيين . وكذلك عمد الشاه اسماعيل الى تشجيع انتشار اعوانه وانصاره في الاناضول .

تفاقم التوتر بين الدولتين الصفوية والعثمانية . واعلن السلطان سليم الاول نفسه حامياً للمسلمين وزعيما لهم واستحصل على فتوى تجيز له محاربة الصفويين وتقرر وجوب قتلهم ووضع خطة لذلك ، فيقتل كل

من كان معروفا بولائه للصفويين : داخل بلاده ، وأسس نمطا من الشرطة السرية . ارسل افرادها في شتى إرجاء الدولة العثمانية وطلب منهم اعداد جريدة باسماء جميع المؤيدين للشاه اسماعيل في بلاده . وقد اشار بعض المؤرخين الى انه قتل اعداد كبيرة منهم .

لم يكن الاختلاف المذهبي سببا للصراع والحرب بين الدولتين العثمانية والصفوية . كما يشير بعض المؤرخين ، وانما يمكن ان نرد ذلك الى موافقة سياسة التعصب المذهبي للنوايا التوسعية لكل من الشاه اسماعيل والسلطان سليم . وليس ادل على ذلك من ان الشاه اسماعيل تعاون مع الدولة المملوكية في مصر والشام وامارة ذي القدر شمال بلاد الشام وملك جورجيا ضد الدولة العثمانية . وتبعد سياسة المحالفات هذه العامل المذهبي ، فالدولة المملوكية كانت تعد نفسها حامية الحرمين الشريفين ، كما ان ملك جورجيا كان مسيحياً . وكان هدف الشاه اسماعيل من سياسة المحالفات عزل الدولة العثمانية عن جاراتها والانفراد بها . ويقال ان السبب الذي ادى الى الصدام بين الدولتين هو تجاهل الشاه اسماعيل مناسبة اعتلاء السلطان سليم العرش ، حيث لم يقدم التهنئة المألوفة مما ولد رد فعل عنيف في نفس السلطان سليم وجعله يتحين الفرصة لاعلان الحرب على ايران . وقد يبدو هذا السبب ضعيفاً خاصة اذا ماعلمنا ان المسألة تتعلق بانقلاب ولاء الامراء في منطقة الحدود المشتركة . كما ان النتائج الحاسمة للصدام هي عودة اولئك الامراء للحضيرة العثمانية .

اعد السلطان سليم جيشاً قوياً لمحاربة الشاه اسماعيل والقضاء على دولته وتولى قيادة هذا الجيش بنفسه . واتجه في ربيع سنة ١٥١٤م صوب الشرق، وكانت خطة الشاه اسماعيل جره الى داخل الاراضي الايرانية بعد ان دمر واحرق كل المناطق التي سيمر منها الجيش العثماني . واحتفظ بقواته الرئيسة للدفاع عن العاصمة . وفي ٢٢ آب سنة ١٥١٤ وعند وادي جالديران قرب

تبريز في منطقة جبلية تقع على الحدود الغربية لايران التحم الجيشان في معركة عرفت باسم معركة جالديران حيث استطاع السلطان سليم احتلال مدينة تبريز عاصمة الدولة الصفوية . ولم يشأ السلطان سليم التغلغل داخل ايران لصعوبات تموينية واخرى ناجمة عن امتناع قواته مواصلة الغزو فقفل عائدا الى بلاده . اما الشاه اسماعيل فقد جرح في كتفه ثم انقذه احد اتباعه ففر الى دركزين في شمال همدان . ومما هو جدير بالذكر ان جرح الشاه وفراره من المعركة كان عاملا مساعداً في ترجيح كفة الحرب لصالح العثمانيين . بالاضافة الى تفوق سلاح المدفعية العثمانية . وقيل ان خسارة الطرفين بلغت خمسة الاف شخص . وعندما علم الشاه اسماعيل بمغادرة العثمانيين لتبريز عاد اليها ثانية ثم باشر في اعادة تنظيم جيشه ودولته.

ان الصراع العثماني – الفارسي لم يحسم بعد معركة جالديران ، فقد كان الموقف العسكري ، كما يشير توينبي ، مائعاً راكداً اذ لم يؤد الى انهيار احدى الدولتين بل اتضح لهما ان سقوط احداهما سقوطا مباشراً امر يتعذر لذا لابد من اللجوء الى وسيلة جديدة ، الا وهي محاولة احدى القوتين الكبيرتين قلب ميزان القوى لصالحها بنقل الصراع الى خارج ايران او الاناضول ، وان يجد هذا الصراع لنفسه مجالا في المناطق الواقعة بينهما ولم تكن تلك المناطق سوى الاقطار العربية .

٣ – الغزو الاستعماري الاوربي للوطن العربي :

شهدت بداية العصور الحديثة في القرنين الخامس عشر والسادس عشر حركة مهمة للتوسع الاوربي شملت مختلف ارجاء الكرة الارضية فقد فتح النشاط الاقتصادي في اواخر القرن الخامس عشر لاوربا افاقاً جديدة للتجارة والرخاء فاندفع الاوربيون بحماس كبير يجوبون بحار العالم ومحيطاته بحثاً عن طرق جديدة توصلهم الى الشرق ، هذا بالاضافة الى رغبتهم بالحصول على التوابل .وكان البرتغاليون والاسبان في مقدمة القوى الاوربية

التي تحملت أعباء حركة الاستكشافات الجغرافية . اذ كانت هاتان الفئتان في اشتباك مزمن مع الغرب وخاصة بعد سقوط غرناطة سنة ١٤٩٢ وطرد العرب من الاندلس والرغبة في ملاحقتهم حتى شمال افريقيا ، والعمل على تحطيم التجارة العربية في البحر المتوسط والمحيط الهندي والحصول على مواقع ستراتيجية في هذه المناطق تساعد اساطيل الدول الغازية على تحقيق اهدافها الاستعمارية .

هذا وقد تركزت نقاط الصدام بين المستعمرين الاوربيين والعرب منذ منتصف القرن الخامس عشر في منطقتين حيويتين الاولى في الطرف الشمالي الغربي من الساحل الافريقي المتمثل بالبحر المتوسط والمحيط الاطلسي والثانية في المياه العربية الجنوبية المتمثلة بالبحر الاحمر والخليج العربي والمحيط الهندي .

١ ـ الغزو البرتغالي للمغرب الاقصى :

تطلع البرتغاليون الى اقطار المغرب الاقصى وعملوا على تطويقها واحتلال موانيها المطلة على البحر المتوسط . وقد ابدى ملك البرتغال خوان الاول (١٣٨٥ ـ ١٤٣٣)م اهتماماً كبيراً بالبحرية والاساطيل لاحتلال القواعد والمراكز التي تسيطر على الطرق التجارية وانتهز فرصة الاضطراب السياسي والتدهور الاقتصادي الذي كانت تعيشه اقطار المغرب العربي في اعقاب سقوط دولة الموحدين سنة ١٢٧٥م وظهور قوى متنافسة فيما بينها على السلطة كالمرينيين (١٢٦٩ ـ ١٤٢٠م)، والوطاسيين (١٤٢٠ ـ ١٥١٠) م وغيرهما . فهاجم سبته في آب ١٤١٥ م واستولى عليها في محاولة للسيطرة على الساحل الافريقي والشمالي . وقد بدأ البرتغاليون بنقل الذهب والمنتجات الزراعية من افريقيا بحراً الى لشبونة ونافسوا بذلك طرق القوافل المارة بمصر . وقد سعى المرينيون الذين ورثوا الموحدين في جنوب مراكش منذ منتصف القرن الثالث عشر الى استعادة سبته ، حين هاجمها السلطان ابو سعيد المريني الا ان البرتغاليين احبطوا هذه المحاولة ، بل وجربوا

احتلال طنجة عندما ارسل الملك ادوارد الذي خلف اباه خوان الاول سنة ١٤٣٧م حملة بقيادة اخويه دون فرناند ودون هنرى ، اتجهت نحو طنجة لكن سكانها دافعوا عن مدينتهم دفاعاً مستميتاً ، كما ان السلطان عبد الحق بن ابي سعيد المريني ارسل الى المدينة المحاصرة امدادات كبيرة افشلت الحصار ، واضطرت البرتغاليين الى الانسحاب نحو سبته .

ثم لحقت الجيوش المغربية بالقوات البرتغالية وطوقتها واسرت الامير دون فرناندو وعدد كبير من اعوانه . وقد اشترط المغاربة مقابل اطلاق سراح الامير انسحاب البرتغاليين من سبته ، ولكن ملك البرتغال رفض العرض وترك اخاه يموت في الأسر .

تولى عرش البرتغال الملك الفونسو الخامس سنة (١٤٥٣) فاتبع سياسة اسلافه الذين قصدوا السيطرة على اقطار المغرب العربي فاتجهت انظاره نحو ميناء القصر الصغير او قصر مصمودة الذي يقع بين سبتة وطنجة . وكان هدفه الرئيس احتلال طنجة . وفي تشرين الاول سنة ١٤٥٨ قاد حملة مكونة من ٢٨٠ سفينة و(٢٥) الف جندي واستولى على الميناء المذكور، لكنه فشل في احتلال طنجة رغم محاولاته المتكررة بين سنتي (١٤٦٣ — ١٤٦٤م) .

عانى المغرب الاقصى في اعقاب مقتل السلطان عبد الحق المريني في ايار سنة ١٤٦٥م من ظاهرتي عدم الاستقرار السياسي والانقسام الداخلي . اذ نشب صراع على الحكم بين الشريف الادريسي محمد بن علي وبين قائد مدينة اصيلا محمد بن الشيخ الوطاسي . وامتد الصراع حتى سنة ١٤٧٢م بدخول الشيخ الوطاسي مدينة فاس مؤسساً الدولة الوطاسية . ولم يستطع الوطاسيون اعادة الوحدة السياسية للمغرب الاقصى فقد ظل المرينيون يحكمون مدينة مراكش التي اصبحت تسمى عاصمة الجنوب ، في حين اصبحت فاس عاصمة للقسم الشمالي في المغرب .

استطاع البرتغاليون وضع حمايتهم على ازمور سنة ١٤٦٨م وفي سنة ١٤٧١ احتلوا اصيلا وطنجة والعرائش ولم تبق حرة الا تطوان التي ظهرت فيها حركة مقاومة ضد الغزو البرتغالي بقيادة المندرى قائد حاميتها. كما ظهرت في مدينة شفشاون سنة ١٤٧١ ، وتقع على ارتفاع الف متر في جبال الريف بالقرب من تطوان ، حركة مقاومة قادها الشريف العلمي علي بن راشد .

مميزات الغزو البرتغالي ؟

امتاز الغزو البرتغالي بخصائص عديدة : ابرزها سيطرة الطابع العسكري والاكتفاء في بداية الامر بالمدن الساحلية . وكانت محاولة التوغل والتحكم في المناطق الداخلية اعتماداً على حصن جزيرة المليحة عند التقاء نهر اللكوس ونهر وادي المخازن اول محاولة في هذا الاتجاه .

لقد استمر البرتغاليون في توسعاتهم . فاتجهوا نحو المغرب الاوسط واقاموا مؤسسة تجارية في وهران سنة ١٤٨٣م. وامتد نفوذهم إلى مدينة مراكش نفسها وسرعان ماظهرت الدولة السعدية في الجنوب الغربي من وادي السوس لتتحمل مهمة الدفاع عن البلاد وصد الغزو البرتغالي . وكانت بعض جهات الوادي المذكور وخاصة مدينة أغادير قد وقعت في ايدي البرتغاليين . ونجح سلاطين هذه الاسرة في تحرير كثير من موانىء مراكش ففي سنة ١٥٤١ هاجم السلطان محمد المهدي قلعة سانتاكروز في اقليم العيون الصحراوي الحالي واستولى عليها وكان من نتيجة الاندحار البرتغالي هذا اخلاء جميع النقاط المحتلة في اقل من عشر سنين باستثناء سبتة وطنجة ومازاغان وخرج النفوذ السعدي من هذا الامر عظيماً فنودي بمحمد المهدي سلطاناً على مراكش كلها سنة ١٥٤٥م .

٢ ـ الغزو البرتغالي للخليج العربي والبحر الاحمر :

لقد سبق البرتغاليون غيرهم من الاوربيين في المجال الاستعماري . فبعد اكتشافهم لطريق رأس الرجاء الصالح سنة ١٤٩٨م تمكنوا من الوصول

الى المياه العربية الجنوبية المتمثلة بالخليج العربي والبحر الاحمر والبحر العربي . وقد احتلوا أغلب موانىء الخليج العربي المهمة وجزيرة وبنو قلاعاً دفاعية حصينة في هرمز ومسقط وعمان والقطيف وصحار والبحرين . وقد جاءوا الى المنطقة بأساطيل قوية تضم سفناً كبيرة ذات اسلحة نارية فتاكة لذلك لم يكن لسكان المنطقة قبل بها فعجزوا عن مقاومتها في بادىء الامر . كما تميزت سياستهم بالعنف والقسوة والتعصب الديني والعنصري .

كان لظهور البرتغاليين اوائل القرن السادس عشر أثر بعيد في تاريخ الخليج العربي واقطاره . فقد حولوا طرق التجارة عن مجراها التقليدي المار عبر البحر المتوسط والبحر الاحمر فالبحر العربي والعراق فحرموا منطقة الخليج من مصدر اساس من مصادر ثروتها . وكانوا بالاضافة الى ذلك مدفوعين في حركة الاستكشافات والتوسع هذه بروح صليبية ، وكانت غاياتهم واضحة ومحددة اولها الالتفاف حول العرب وشن الحرب عليهم وتوجيه ضربة قاضية للتجار العرب الذين كانوا يعملون منذ العصور الوسطى في نقل التجارة الشرقية من الهند والشرق الاقصى الى موانيء البحر الاحمر والخليج العربي حيث تتولى القوافل العربية نقلها من السويس عبر الاراضي المصرية الى القاهرة فالاسكندرية او من البصرة عبر العراق وبادية الشام الى موانيء البحر المتوسط لتنتظرها سفن المدن الايطالية ومنها جنوه والبندقية وتحملها الى اوربا .

كان الوطن العربي عندما بدأت هجمات البرتغاليين على البحر الاحمر في اوائل القرن السادس عشر يمر في دور انحلال سياسي وعسكري في حين كانت الدولة العثمانية باعتبارها دولة اسلامية قد وصلت الذروة في قوتها السياسية والعسكرية . لذلك اتجهت انظار بعض العرب الى الدولة العثمانية كي تعينهم ضد الخطر البرتغالي . وعلى سبيل المثال اقترح شريف مكة سنة ١٥١٦م ارسال وفد الى السلطان سليم الاول طلباً للمساعدة العسكرية

غير ان السلطان[٦] المملوكي قانصوه الغوري (١٥٠٠ – ١٥١٧م) منع سفر ذلك الوفد .

وسرعان ما ادرك المماليك خطر البرتغاليين الذي بات يهدد طرقهم التجارية المؤدية إلى الهند ، كما يهدد المراكز الاسلامية المقدسة في الجزيرة العربية خاصة بعد ان اتضحت اهداف البرتغاليين بالتقدم للاستيلاء على مصر والاماكن المقدسة في الحجاز وفلسطين . ويتجلى ذلك في رغبة القائد البرتغالي الفونسو البوكيرك الذي كان يحلم بقيادة جيوش ضخمة تحقق اهداف البرتغاليين الاستعمارية ورغم ان هذه الخطط كانت فوق طاقة البرتغال ولكن «يتجلى مغزاها في انها تظهر لنا ان اعظم قادة البرتغال لم ينس المثل الصليبية العليا» هذا ومن جهة اخرى كان البرتغاليون مدركين وقلقين كذلك من ان رد الفعل لغزوهم سوف لايقتصر على المقاومة العربية بل يشمل العثمانيين الذين «يحتمل ان يجيئوا لمساعدة ابناء دينهم ... في الخليج العربي » . وعلى الرغم من اختلاف الاهداف السياسية لكل من العثمانيين والبرتغاليين في الاقطار العربية ، غير ان المجابهة العسكرية بين الطرفين كانت محتملة الوقوع اثناء الربع الاول من القرن السادس عشر. خاصة بعد فشل المماليك في محاولاتهم حماية حدودهم الجنوبية وابعاد الخطر البرتغالي اثناء السنوات الممتدة بين ١٥٠٦م و ١٥٠٩ من جهة ، واندحار الصفويين الفرس امام العثمانيين في معركة جالديران سنة ١٥١٤م من جهة أخرى . فعندما عرف القائد البرتغالي البوكيرك بهزيمة الصفويين كتب إلى الملك البرتغالي عمانوئيل الاول للسماح له بتجهيز الشاه اسماعيل بالمدفعية اللازمة كي يتمكن الصفويون من اضعاف القوة العثمانية ويعرقلوا تقدم العثمانيين صوب المياه العربية والهندية .

لقد دفعت الضرورة السلطان المملوكي قانصوه الغورى بعد ان حطم البرتغاليون اسطوله في جاول Chaul سنة ١٥٠٩م قرب ميناء ديوا إلى طلب المساعدة البحرية من السلطان العثماني . فأسرع العثمانيون في ارسال مواد

بناء السفن مع الفنيين المختصين إلى ميناء السويس في كانون الثاني ١٥١١م. في هذه الأثناء لم تتوقف فعاليات البرتغاليين في المياه العربية، فرغم فشل القائد البوكيرك في احتلال عدن سنة ١٥١٣م بسبب المقاومة العربية الباسلة غير انه استطاع الدخول إلى البحر الاحمر واحتلال جزيرة قمران ،فأصبح ميناء جدة معرضاً لخطر مدفعية البرتغاليين . وعندما كمل بناء الاسطول المملوكي عين السلطان الغوري سليمان ريس، وهو قائد بحري عثماني . رئيساً له فأبحر من السويس سنة ١٥١٥م مستهدفاً الدفاع عن البحر الاحمر وطرد البرتغاليين منه وابعاد خطرهم عن مكة المكرمة . واستطاع في سنة ١٥١٧م وسنة ١٥٢٥م احباط الهجمات البرتغالية على جدة. ونجح العثمانيون في أثناء هذه الفترة في التمركز في زبيد لكنهم فشلوا في تثبيت سيطرتهم على ميناء عدن ولم يتحقق لهم ذلك الا بعد احتلال العراق كما سنرى .

٣ – الغزو الاسباني للجزائر وطرابلس وتونس :

اتخذ الغزو الاسباني لاقطار المغرب العربي طابعاً دينياً صليبياً . اذ لم يقنع الاسبان بالقضاء على الوجود العربي في الاندلس وانما هدفوا الى مطاردة العرب في شمال افريقيا والوصول الى مصادر ثروتهم الاساسية في ذلك الوقت والمتمثلة باحتكار التجارة . وكان لظهور دولة اسبانيا الحديثة الموحدة اثر زواج فرديناند الخامس الكاثوليكي بالملكة ايزابيلا الاولى ملكة قشتاله الكاثوليكية اثر كبير في توجيه انظارهم نحو الشمال الأفريقي . وقد بارك البابا اسكندر بورجيا الرابع نشاطات الاسبان في هذا المجال ونشر قراراً يعطي الولاية لملكي اسبانيا على الاراضي التي يبسطان السيطرة الاسبانية عليها.

لقد احتل الاسبان مرفأ عنابة سنة ١٤٦٣م ، وبعد حصار دام قرابة شهرين ومقاومة عنيفة من سكانها استطاع الاسبان احتلال مدينة المرسى الكبير غربي الجزائر في ايلول ١٥٠٥م وفي ١٧ آذار ١٥٠٩م احتل الاسبان مدينة وهران التي كانت تبعد عن المرسى الكبير ثمانية كيلومترات . كما

احتلوا في ٥ كانون الثاني سنة ١٥١٠م مدينة بجاية وبعد استيلائهم على جزيرة اسطفلة اصبحت مدينة الجزائر ضمن مدى مدفعيتهم فاحتلوها سنة ١٥١١م ولقد حاول الاسبان التوغل داخل الجزائر لكنهم فشلوا بعد المقاومة العنيفة التي ابداها السكان .

لم تقف مطامع الاسبان عند احتلالهم الجزائر ، بل امتدت لتشمل السواحل الشرقية ، فاصطدام القائد الاسباني الكونت بدرو نفارو Pedro Navaro بمقاومة عرب السواحل التونسية الذين استفادوا من هزيمة اخوانهم عرب السواحل الجزائرية فهرعوا لتقوية الحصون واعداد العدة للمقاومة ولم يتركوا ثغرة يستطيع العدو النفاذ فيها الامر الذي اضطر بدرو نفارو الى اتباع ستراتيجية جديدة تقوم على احتلال طرابلس ومن ثم التقدم نحو الشمال ورغم مقاومة اهالي طرابلس ، فان الاسبان تمكنوا من اقتحام المدينة يوم ٢٥ تموز سنة ١٥١٠م بعد ان بلغت خسائرهم قرابة (٣٠٠) قتيل.

اتجه القائد الاسباني بدرو نفارو نحو الساحل الشمالي الغربي لاحتلال جزيرة جربة ، ولكنه انسحب من امامها في اواخر تموز ١٥١٠م امام مقاومة اهاليها ، ولم يكن السكان في جزائر قرقنة اقل من اخوانهم اهالي جزيرة جربة استعدادا وتصميماً على المقاومة ، لذلك عاد بدرو نفارو الى مدينة بجاية في شباط سنة ١٥١١م .

وقد قاد الملك الاسباني شارلكان حملة بحرية يوم ٣١ أيار سنة ١٥٣٥م مؤلفة من (٣٠) الفا من المقاتليين الذين اصبحوا يوم ١٦ حزيران من السنة نفسها امام اطلال مدينة قرطاجنة وسواحل مدينة تونس . وفي ٢١ حزيران احتل الاسبان مدينة تونس واباحوا لجنودهم نهبها انتقاماً من اهلها الذين قاوموا الاحتلال .

فرض الاسبان على السلطان الحفصي الحسن بن محمد معاهدة مهينة كان من ابرز بنودها :

١ — اعتراف الدولة الحفصية بتبعيتها للدولة الاسبانية .

٢ ـ ملكية الاسبان ملكية مطلقة لمرسى حلق الوادي وقرطاجنة ومدينتي عنابة والمهدية .

٣ ـ التزام (السلطان) بان لايدخل بلاده احد من مهاجري الاندلس .

وهكذا كان الاحتلال الاسباني للجزائر وطرابلس وتونس جزءاً من خطة صليبية اوربية استعمارية استهدفت تطويق العالم الاسلامي والوطن العربي وذلك لمحاولة اخضاع هذه المنطقة لنفوذهم والسعي لطمس معالم الحضارة العربية وقد استطاع الاسبان والبرتغاليون من توجيه ضربة شديدة الى اقتصاد الوطن العربي بعد ان وضعوا ايديهم على تجارته فاصبحوا قادرين على ايصال البضائع إلى اوربا باسعار تقل عن اسعار البضائع التي كانت تمر بالأقطار العربية وتدفع رسوماً كثيرة .

لم يكن العثمانيون ، وهم القوة الفتية في العالم الاسلامي آنذاك بغافلين عن تلك التطورات الخطيرة التي كانت تحرك العالم في مطلع القرن السادس عشر الامر الذي ادى إلى اندفاعهم في البحار ذات القيمة التجارية ولا سيما منها البحر المتوسط والمحيط الهندي ، وقد وجد السلطان سليم الاول ان على الدولة العثمانية إذا ما ارادت لممتلكاتها حفاظاً ان ترمي ثقلها في ذلك الصراع قبل فوات الاوان ، فاحتلال الوطن العربي يحقق لها عدة اهداف اهمها بسط السيطرة العثمانية على الحوض الشرقي والجنوبي للبحر المتوسط ، وابعاد نفوذ البنادقة والجنويين عنه والحد من عبث القرصنة الاوربية وتأمين المواصلات البحرية للدولة العثمانية وتجارتها والوصول إلى الاماكن المقدسة وحمايتها من امكانات عبث البرتغاليين بعد ان ثبت اخفاق المماليك في هذه المهمة ، والسعي لاعادة الدولة الاسلامية إلى وحدتها السابقة وهيبتها الماضية وابعاد مطامع الاوربيين ومنعهم من تطويق الدولة العثمانية وسد منافذ التجارة عليها .

الان وبعد ان وضحنا العوامل والظروف التي جعلت الوطن العربي في القرن السادس عشر ميدانا جديداً لتوسع العثمانيين بعد ان بلغ توسعهم في اوربا مداه تقريباً . لابد ان نتابع مراحل سيطرتهم على الوطن العربي :

من هنا

١ـ السيطرة العثمانية على الشام ومصر والحجاز واليمن :

اشرنا فيما سبق الى ان المماليك كانوا يحكمون الجزء الغربي من المشرق العربي ويضم الشام ومصر والحجاز واليمن وذلك منذ ان انتزع المماليك السلطة من الايوبيين في منتصف القرن الثالث عشر ، وبعد تغير طرق التجارة واكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح وتحول تجارة اوربا مع الشرق الى هذا الطريق الجديد بدلاً من مرورها بمصر، عانت الدولة المملوكية تدهوراً في اوضاعها الاقتصادية والسياسية والاجتماعية . اذ فقد المماليك مورداً مالياً كبيراً كانوا يحصلون عليه من الضرائب المفروضة على البضائع التي كانت تنقلها القوافل عبر اراضيهم . وقد وقع عبء هذا التدهور الاقتصادي على عاتق الطبقات الشعبية الكادحة من اصحاب حرف ومزارعين. اذ فرضت السلطة المملوكية الضرائب الفادحة التي كانت موضع استياء الشعب انذاك .

هذا في الوقت الذي اصبحت فيه النظم المملوكية في الادارة والجيش متخلفة عما كانت عليه النظم العثمانية . اذ كان المماليك يعتمدون نظام الفرسان اما العثمانيون فقد طوروا نظامهم العسكري فصار مؤلفاً من: المشاة والمدفعية وهذا يفسر لنا سبب فشل المماليك في مواجهة الخطر البرتغالي خاصة اذا ما علمنا بان البرتغاليين امتلكوا اساطيل كبيرة لم يكن للمماليك قبل بها .

ان علاقة الدولة العثمانية المملوكية بقيت حتى اواخر القرن الخامس عشر علاقة مجاملة ومؤازرة ، عن طريق المراسلات وتبادل الوفود والهدايا. فعندما سقطت القسطنطينية بعث السلطان المملوكي حينذاك الاشرف اينال رسولاً الى السلطان محمد الفاتح يهنئه بهذا الانتصار . وقد اشرنا فيما سبق الى المساعدات التي قدمتها الدولة العثمانية في عهد بايزيد الثاني لدولة المماليك حين تفاقم الخطر البرتغالي ولكن العثمانيين سرعان ما ادركوا بعد هزيمة

المماليك في معركة ديوا أوائل سنة ١٥٠٩ انهم القوة الوحيدة القادرة على انقاذ العالم الاسلامي ، واعتقدوا ان وضع دمشق والقاهرة ومكة والمدينة تحت سيطرتهم يتيح لهم امكانات اقتصادية وستراتيجية ومعنوية الاحد لها . وقد منحتهم الانتصارات التي احرزوها ضد ايران والقوى الاوربية ثقة عالية بانفسهم .

لقد اتجه العثمانيون بعد انتصارهم على الدولة الفارسية في موقعة جالديران سنة ١٥١٤ للتوسع على حساب دولة المماليك في بلاد الشام ودخلت العلاقات المملوكية — العثمانية مرحلة سلبية وصلت الى حد الحرب بين الدولتين . اما السبب المباشر للاحتلال العثماني لبلاد الشام فكان تهديد الدولة العثمانية لحدود الدولة المملوكية وذلك عندما هاجمت امارة ذو القدر ، هي امارة تركمانية صغيرة تقع في الجنوب الشرقي من الاناضول على الحدود الشامية وعاصمتها مرعش وقد تأسست في منتصف القرن الرابع عشر وكان اميرها متحالفاً مع المماليك معترفاً بتبعيتهم لهم ، وضمتها اليها بحجة عرقلتها سير جيوشها اثناء تقدمها لمحاربة الايرانيين متعاونة في ذلك مع دولة المماليك نفسها .

وهكذا قامت الحرب بين الدولتين ، وجرت معركتها الحاسمة على ارض سوريا في سهل (مرج دابق) في ٢٤ آب سنة ١٥١٦ بالقرب من مدينة حلب . وكان السلطان سليم الاول يقود الجيش العثماني . اما الجيش المملوكي فكان بقيادة السلطان قانصوه الغوري (١٥٠٠ — ١٥١٧) ووضح منذ اللحظة الاولى للمعركة أنه ليس ثمة تكافؤ بين الطرفين وخاصة في مجال التنظيم وادارة الحرب ونوعية الاسلحة المعتمدة . فالجيش المملوكي المرتكز على نظام الفروسية لم يستطيع مقاومة القوات العثمانية بتنظيمها المتقن واستعمالها المدفعية واساليب القتال الحديثة . كما كان لخيانة قائدين مملوكين للسلطان الغوري وهما خايربيك نائب حلب وجان بردى الغزالي نائب دمشق وتبادلهما الرسائل سراً مع السلطان سليم أثر كبير في هزيمة المماليك ومقتل السلطان

الغوري وانسحاب بقية القوات المملوكية المنهزمة الى مصر . وعلى حد تعبير ابن زنبل وهو مؤرخ معاصر «فانهم تركوا أثقالهم واموالهم واختاروا سلامة الروح» .

دخل السلطان سليم مدينة حلب في ٢٨ آب ١٥١٦ . وقد قرئت الخطبة في مسجد الملك الظاهر باسمه ووصفه الخطيب بانه «مالك الحرمين الشريفين» فنهض من مكانه وقال بل انا خادم الحرمين الشريفين . وقد بقي في حلب قرابة ثمانية عشر يوماً نظم فيها امور المدينة وما حولها كملاطية وبهنسي وعينتاب . ثم توجه نحو دمشق فوصلها في ٢٧ أيلول وظل فيها ما يقارب شهور . وقد ابقى السلطان سليم النظام الاداري في الشام على ما كان عليه أيام المماليك . اذ وجد بلاد الشام مقسمة الى ست مقاطعات تعرف كل واحدة منها باسم (نيابة) وهي نيابات حلب ، ودمشق ، وحماة ، وطرابلس وصفد والكرك . وقد عين عليها بكوات من الاتراك العثمانيين الذين يثق بهم . الا انه أجرى تعديلا لهذا الوضع قبل عودته الى العاصمة وذلك بان رفع من شأن بعض المدن وحولها الى مراكز ادارية رئيسة متخذاً الوحدة الادارية العثمانية وهي السنجق (اللواء) اساساً للتقسيم بدلاً من (النيابة) ، كما عين جان بردى الغزالي والياً على دمشق ومد نفوذه على القسم الجنوبي من سوريا وحتى العريش . وكأنه بذلك قسم بلاد الشام الى قطاعين كبيرين احدهما شمالي دمشق ويشرف عليه حاكم حلب وثانيهما جنوبها ويشرف عليه حاكم دمشق . وقد شمل التنظيم الاداري للسلطان سليم كذلك المدن الصغرى والقرى الكبيرة فعين على كل واحدة منها (صوبا شيا) يمثل السلطة العسكرية ويحفظ الامن والنظام .

وكما اهتم السلطان بتركيز السلطة الادارية العسكرية فأنه اظهر عناية كبيرة في تنظيم الخدمة القضائية . وابقى على نظام الحسبة واوصى المحتسبين والبكوات والصوباشية بتنفيذ احكام القضاة وقراراتهم . ثم عين في كل سنجق مسؤولاً عن تنظيم امر المالية (دفتردار) .

هذا وقد وزع السلطان سليم الحاميات التركية على السناجق وسعى لتثبيت هذه الحاميات بربطها بارض البلاد عن طريق اقطاع الخيالة (السباهيين) تلك الارض وشدهم اليها . لكنه لم يحاول ادخال انماط التنظيم الاداري العثماني بكل تفاصيله في منطقتين جبليتين من مناطق بلاد الشام احدهما ، المنطقة الشمالية وتضم ملاطية وبهنسي وعنيتاب وقلعة الروم وتسكنها قبائل تركية وتركمانية لها عاداتها الخاصة وتنظيمها العشائري الذي ينسجم مع طبيعة المنطقة الجبلية . وثانيهما منطقة جبل لبنان التي كان لها كذلك امراؤها الاقطاعيون من المارونيين والدروز . وكانوا يعيشون أيام الحكم المملوكي متنافسين متناحرين ، ويتمتعون باوضاع شبه استقلالية ساعدتهم على دعمها مناطقهم الجبلية الوعرة . لذلك رأى السلطان سليم ضرورة ابقاء المنطقتين بايدي رؤسائها الوارثين يحكمونها وفقاً لعاداتهم الخاصة ويرتبطون بالسلطان العثماني بروابط التبعية ، ويقدمون له ما عليهم من خراج الارض . وساعده على ذلك ان كثيراً منهم قد وفد اليه مقدماً فروض الطاعة والولاء بعد انتصاره في معركة مرج دابق ولعل ابرز الذين وفدوا عليه فخر الدين المعني الذي اعترف السلطان به أميراً على جبل لبنان .

بينما كان السلطان العثماني سليم الاول يدعم سيطرته على الشام اجتمع في القاهرة قادة المماليك العائدون من القتال ، وانتخبوا نائب السلطان الغوري (طومان باي) سلطاناً جديداً عليهم . وقد كان على طومان باي توحيد صفوف المماليك ، واعادة بناء الجيش المملوكي بعد هزيمة مرج دابق وسقوط الشام بما يكفل الصمود في وجه الجيش العثماني ومما زاد في صعوبة هذه المهمة ان الوقت لم يعد كافياً للقيام بهذه المهمة على الوجه الاكمل ، بعد ان قرر السلطان سليم مواصلة زحفه نحو مصر واسقاط دولة المماليك .

اعتقد السلطان سليم ان معركة مرج دابق ستؤدي الى انهيار دولة المماليك وسقوطها نهائياً في قبضته لذلك عرض على طومان باي السلطان

المملوكي الجديد الاعتراف بالخضوع للسيطرة العثمانية في مقابل الاحتفاظ بمنصب حاكم مصر ولكن طومان باي رفض ذلك واصر على المقاومة . ويبدو ان هناك سببين مهمين لذلك اولهما ان طومان باي كان يعتقد ان السلطان سليم لم يكن جاداً فيما عرضه من مقترحات ، اذ ان رسالته التي بعث بها تنطوي على تهديد مباشر ، فسليم يعلم يقيناً ان قاعدة المماليك الاساسية هي مصر وليس الشام ، ولو أنه عاد الى استانبول بدون غزو مصر ، فمن المؤكد ان المماليك سيحاولون تجميع قواهم والتحول من موقف الدفاع الى الهجوم على العثمانيين لاستعادة الشام . اما السبب الثاني فيكمن في ضغط الامراء المماليك على طومان باي خشية ان يثبت مركزه كسلطان في مصر .

اتجه السلطان سليم نحو جنوب سوريا واحتل فلسطين ثم اجتاز صحراء سيناء ووصل الى شواطيء النيل مطلع سنة ١٥١٧م . وقد سهلت الامطار الغزيرة التي هطلت تلك السنة على الجيش العثماني عملياته العسكرية .

حاول المماليك بقيادة طومان باي تجميع قواهم واقاموا خطاً دفاعياً عند الصالحية لعرقلة الزحف العثماني . غير ان العثمانيين بعد استيلائهم على غزة تجنبوا هذا الخط الدفاعي وانحرفوا نحو الجنوب ، ودخلو الدلتا حتى بلبيس . وفي مشارف القاهرة عند (الريدانية) حدثت المعركة الحاسمة الثانية في حياة الدولة المملوكية في ٢٣ كانون الثاني سنة ١٥١٧م . وانتهت بهزيمة المماليك ودخول العثمانيين مدينة القاهرة في اليوم السادس والعشرين من الشهر نفسه وبذلك هوت الدولة المملوكية التي امتدت حكمها من سنة ١٢٥٠م وحتى سنة ١٥١٧م.

انسحبت طومان باي الى منطقة الجيزة ،وحاول تنظيم حركة المقاومة هناك ولكن القوات العثمانية تعقبته حتى فر الى الدلتا ليقع في قبضة العثمانيين وعند مديرية البحيرة تم اعدامه في ١٧ نيسان سنة ١٥١٧ بعد ان استقبله السلطان

سليم استقبالاً طيباً وحادثه محادثة طويلة في شؤون مصر وادارتها واعجب بشجاعته وذكائه ويقال ان سليم اراد الابقاء على حياته لولا الحاج خايربيك على اعدامه بحجة ان هناك مؤمرة يقصد بها انقاذه من الاسر .

بقي السلطان سليم في مصر بضعة شهور يدرس احوالها مع مستشاره المؤرخ الكردي ادريس البدليسي صاحب كتاب الشرفنامة ، ويقال ان البدليسي نصحه بان لايثقل كاهل المصريين بالضرائب . كما التقى السلطان سليم مع مندوبي البندقية وعقد معهم معاهدة منحتهم امتيازات تجارية في مصر على غرار الامتيازات التي كانوا يتمتعون بها في عهد المماليك . وقد اتخذت هذه المعاهدة فيما بعد اساساً لمعاهدات الدولة العثمانية مع الدول الاوربية الاخرى فيما يتعلق بالامتيازات التجارية .

قام السلطان سليم بتقسيم مصر إلى اربع وعشرين مديرية . واصدر قراراً اثناء اقامته منها بتعيين يونس باشا اول وال عليها ، الا انه قبيل رحيله اصدر قراراً ثانياً بعزله وتعيين خاير بيك محله وقد ظل هذا محتفظاً بمنصبه حتى موته سنة ١٥٢٢م .وقد اصدر الوالي خاير بيك بأمر من السلطان سليم قراراً بالعفو الشامل عن المماليك وتوزيع الرواتب عليهم وتولية بعضهم مناصب ادارية مهمة وذلك لخبرتهم الطويلة ودرايتهم باحوال البلاد . ولم تكن هذه السياسة جديدة على السلطان سليم فقد سبق له الاعتماد على العصبيات المحلية في الشام بعد ان ضمن خضوع زعمائها وولاءهم للسيادة العثمانية . فعلى سبيل المثال اسند شؤون الادارة المحلية في جبل لبنان ــ كما اشرنا سابقاً ــ إلى الامير فخرالدين المعني امير الشوف ، والامير عساف التركماني حاكم كسروان والامير منصور الشهابي حاكم وادي التيم بعد ان انضموا إلى صفوف العثمانيين في اعقاب هزيمة المماليك في موقعة مرج دابق .

وكانت وجهة نظر السلطان سليم في ذلك مبنية على اساس الاستفادة من هذه العصبيات المحلية في بعض الولايات البعيدة مثل مصر وجعلها

عنصر موازنة بين الوالي وقائد الحامية العسكرية . ومنعاً لحدوث اي استئثار بالسلطة او حصرها في يد واحدة قد تجد في بعد مصر عن استانبول مايشجعها على اعلان الاستقلال عن الدولة العثمانية .

وعلى هذا الاساس وافق السلطان سليم اثناء اقامته بمصر على تعيين اربعين من امراء المماليك واسند اليهم بعض المناصب الادارية كما دخل بعضهم في عضوية ديوان الباشا (ديوان محروسة مصر) وهو مجلس اداري يرأسه الوالي وقد تشكل في مصر في اعقاب الغزو العثماني في رؤساء الحامية العسكرية ومن الكتخدار (نائب الوالي) والدفتردار (المسؤول عن الامور المالية) وامير الحج . وكانت مهمة الديوان في بداية الامر تنحصر في معاونة الوالي في شؤون الادارة والحكم ، ثم تطورت بعد ذلك واصبحت تشمل منع الوالي من اساءة استعمال سلطته .

عندما سقطت دولة المماليك في يد العثمانيين كان من الطبيعي ان يتبع ذلك سقوط الحجاز ، وذلك لان المماليك كانوا اصحاب السيادة عليه. وقد اعلن زين الدين بركات شريف مكة (١٤٩٧ — ١٥٢٥م) ولاءه للسلطان العثماني بعد ان وصله فرمان منح الامان . وقد ارسل الشريف بركات وفده إلى القاهرة برئاسة ابنه الكبير «ابو نمي» ليقدم فروض الولاء في ٣ تموز ١٥١٧م ويلقى بين يدي السلطان سليم بمفاتيح الكعبة وبعض الآثار النبوية الشريفة اقراراً له بالسيادة على الحجاز . وقد استقبل السلطان سليم أبي نمي بحفاوة بالغة واعطاه تفويضاً بحكم والده واعلن السلطان سليم نفسه خادماً للحرمين الشريفين . وقد ساعد هذا التفويض الشريف بركات في تقوية مركزه امام خصومه في الشرافة . وهكذا دخل الحجاز في نطاق السيادة العثمانية دخولاً سلمياً . وقد احتفظ العثمانيون بنظام الشرافة كما كان عليه ايام المماليك مع انشاء متصرفية في جدة باسم متصرفية الحبش . واوقفت الدولة اوقافاً كثيرة على الاماكن المقدسة . وكانت ايراداتها تصب في خزانة مستقلة بالقصر السلطاني تعرف بـ«حرمين دولابي».

اما علاقة العثمانيين باليمن ، فقد بدت واضحة بعد سقوط الدولة المملوكية ودخول السلطان سليم القاهرة . فقد ارسل اسكندر الجركسي حاكم اليمن المملوكي وفداً ليقدم فروض الولاء للسلطان العثماني الذي وافق على ابقائه في منصبه ، الا ان الصراعات الداخلية بين القادة المماليك انفسهم من جهة وازدياد نفوذ الامامة الزيدية بين قبائل الجبال من جهة اخرى جعلت السيطرة العثمانية في اليمن ضعيفة . هذا بالاضافة إلى الخطر البرتغالي الذي كان يهدد السواحل اليمنية مباشرة لذلك فقد بعث العثمانيون قوة عسكرية الى اليمن لم تستطع اقرار الامن والدفاع عن السفن الاسلامية التي كانت تتعرض لمدفعية البرتغاليين وذلك بسبب النزاع الذي نشب بين قائدها حسين الرومي متصرف جدة والريس سلمان احد قادة البحر العثمانيين.

ان موقع اليمن إلى الجنوب الغربي لشبه الجزيرة العربية له اهمية كبيرة في اقتناع العثمانيين بان سيطرتم المباشرة عليه تجعلهم يضمنون سلامة الاماكن المقدسة في الحجاز . والتحكم في البحرين الاحمر والعربي وامتلاك موطىء صالح للوثوب على الاسطول البرتغالي في المياه العربية .

تعد حملة سليمان باشا الارناؤطي سنة ١٥٣٨م اول حملة منظمة إلى اليمن فقد ضمت (٢٠) الف شخص مع (٧٤) سفينة بحرية . مجهزة بالمدافع . وكان من اهداف الحملة ان يحتل العثمانيون اليمن ويسبقوا البرتغاليين في احتلال عدن ثم غلق مضيق باب المندب في وجه الاساطيل الاجنبية . وفي ١٥٣٩م بدأ العثمانيون بعمليات توطيد السيطرة مما ادى إلى وقوع الصدام بينهم وبين الائمة الزيدية . وقد احتل العثمانيون عدن سنة ١٥٣٨م وتعز سنة ١٥٤٥م. كما سقطت صنعاء في قبضتهم سنة ١٥٤٧م.

لقد اصبحت اليمن بعد الاحتلال العثماني تضم تسعة الوية (سناجق) وهي صنعاء ، مخا ، زبيد ، صهلة ، كوكبان ، طويلة ، مأرب ، عدن . ومن ناحية اخرى تحرك سليمان باشا ، باسطوله ليستولي على بعض الموانىء

العربية في حضرموت ومنهـا الشحر والمكلأ واجتاح ساحل الحبشة وعاد إلى السويس واكتفت الدولة العثمانية في تلك المرحلة باحتلال سواكن ومصوع على الجانب الغربي من البحر الاحمر سنة ١٥٥٧م ولم تستطع الحبشة التدخل ضد العثمانيين انذاك بقوة لإنها كانت تعاني من ظروف الانقسام بين مؤيدي الكنيسة الشرقية ومؤيدي الكنيسة الغربية ، وذلك قبل دخولهما في حرب اهلية طويلة استمرت حتى اوائل القرن السابع عشر . وقد استفاد العثمانيون من هذه الظروف فقاموا بحملات بحرية إلى الخليج العربي بقصد تخليصه من الضغط البرتغالي وقـد مهد لهم ذلك ، السيطرة على العراق .

هذا وقد ظلت اليمن في فترة خضوعـها للحكم العثماني الاول (١٥٣٨ ـ ١٦٣٥) م تتنازعها قوى العثمانيين والائمة الزيدية . فالعثمانيون لم يستطيعوا ان يضمنوا سيطرة حقيقية على البلاد نتيجة لحركات المقاومة التي ستواجههم كما سنرى .

السيطرة العثمانية على العراق والخليج العربي :

لقد ابقى السلطان سليم الاول بعد انتصاره في موقعة جالديران سنة ١٥١٤م فرهاد باشا احد قواده لاكمال احتلال الولايات المتاخمة للحدود العثمانية . وقد امر فرهاد باشا بيقلي محمد باشا بالسيطرة على ماردين والرها والرقة والموصل وسنجار وتلعفر وجزيرة ابن عمر والعمادية واربيل وكركوك وقد تم احتلالها سنة ١٥١٥م. غير ان الحكم العثماني ، في هذه المناطق ظل قلقاً بسبب الموقف السلبي الذي اتخذه السكان من العثمانيين انذاك .

اما العراق الاوسط والجنوبي فقد بقي تحت الاحتلال الفارسي . وقد تدهورت اوضاع سكانه الاجتماعية والاقتصادية والثقافية نتيجة لسياسة الاهمال التي اتبعها المحتلون الفرس . فقد كثرت الاوبئة واهملت مشاريع

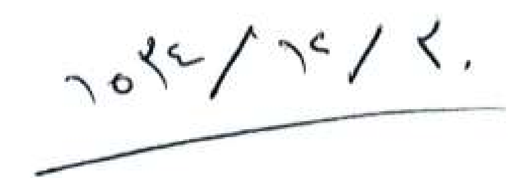
الري وظل نظام الاراضي يعاني كثيراً من الفوضى .

قام السلطان سليم الاول باعداد حملة لاحتلال العراق وطرد الفرس الصفويين ولكن المنية عاجلته سنة ١٥٢٠م. وعندما تبوأ السلطان سليمان القانوني العرش (١٥٢٠ - ١٥٦٦) وضع في منهاجه توجيه ضربة قوية إلى الدولة الصفوية عن طريق السيطرة على العراق والذي يمكن ان تتخذه الدولة العثمانية فيما بعد كقاعدة للانطلاق نحو الخليج العربي تعزيزاً لجهودها في مواجهة البرتغاليين في البحرين الاحمر والعربي .

لقد حاول السلطان سليمان القانوني في بداية الامر تنفيذ احتلال العراق باستمالة بعض حكامه المحليين . ولكن هذه الخطوة كانت سبباً في جعل العراق ساحة للصراع العثماني الفارسي وكاد السلطان سليمان القانوني يحقق هدفه بالسيطرة على العراق حين اعلن ذو الفقار بيك بن علي بيك نفسه حاكماً على بغداد وعزل عمه ابراهيم خان موصلو . وتقرب من العثمانيين واظهر الولاء لهم بعد ان بعث برسالة إلى السلطان سليمان القانوني بذلك .

الا ان الشاه طهماسب الاول الذي تولى الحكم بعد ابيه اسماعيل سنة ١٥٢٤م قام بهجوم كبير على بغداد سنة ١٥٣٠م وتمكن من قتل ذو الفقار واخماد حركته واعادة العراق إلى الحكم الفارسي ثانية .

شجعت هذه الاحداث العثمانيين على ان يتولوا بانفسهم السيطرة على العراق. ففي سنة ١٥٣٤م تحرك السلطان سليمان القانوني بجيش كبير متجهاً نحو تبريز فوصل إلى سلطانية في ١٣ تشرين الاول وكانت الجيوش الفارسية تنسحب من امامه مرحلة بعد اخرى حتى وصل إلى همدان وعبر جبال زاكروس وتوجه غرباً نحو بغداد . اما الحامية الفارسية فيها فقد انسحبت عند سماعها بانباء وصول الجيش العثماني . وهكذا دخل السلطان سليمان القانوني بغداد في ٣٠ كانون الاول سنة ١٥٣٤م دون ان يواجه مقاومة تذكر .



اقام السلطان سليمان القانوني في بغداد اربعة اشهر عمل خلالها على طمأنينة السكان وتحقيق الاستقرار وتنظيم الادارة والضرائب . فقد ارسل محمد باشا إلى الموصل لتثبيت الحكم العثماني المباشر عليها ووافق على تعيين الشيخ راشد بن مغامس امير البصرة العربي والياً عليها شريطة ان يكون تابعاً لباشا بغداد . ثم عين حاكم ديار بكر السابق سليمان باشا الطويل اول وال عثماني في بغداد .

اصبح العراق في عهد السلطان سليمان القانوني مقسما الى خمس مناطق ادارية عرفت بالايالات وهي ايالة البصرة وايالة الموصل وايالة الاحساء وايالة شهرزور . وقد اعقب احتلال العرأق امتداد النفوذ العثماني الى منطقة الخليج العربي اذ صارت البصرة بعد تأكيد السيطرة العثمانية الفعلية عليها سنة ١٥٤٦ القاعدة الثانية بعد السويس لارسال الحملات البحرية ضد البرتغالين وقد بدأ الصراع السافر بين العثمانيين والبرتغاليين حوالي سنة ١٥٥٠ عندما اعلن اهالي القطيف انهم لايدينون بالولاء لحاكم هرمز (حليف البرتغالين) وانهم يفضلوا الدخول في حماية العثمانيين. وقد اسرع البرتغاليون لافشال مطمح سكان القطيف واعادة الاوضاع الى سابق عهدها . ولقد ارسل السلطان العثماني سنة ١٥٥١م قائد البحر بيري بك على رأس اسطول يتألف من ثلاثين سفينة لتهدئة اوضاع عدن الثائرة ضد العثمانيين ولكسر الطوق البرتغالي على التجارة في الخليج العربي .

حاصر بيري بك هرمز مدة شهر كامل ، الا ان تحصيناتها القوية التي انشأها البرتغاليون خلال وجودهم منذ اربعين سنة حالت دون سقوطها فاضطر الى التراجع نحو البصرة بثلاث سفن فقط تاركاً بقية اسطوله في مضيق هرمز خوفاً من تقدم اسطول برتغالي قوى نحوه واحتمال غلق المضيق بوجهة . وقد اعدم بيري بك في استانبول بعد ان وجهت اليه تهمة الفشل في تحقيق اهداف العثمانيين في الخليج العربي وتشويه سمعة البحرية العثمانية. وقد واصل العثمانيون جهودهم ضد البرتغاليين في الخليج العربي فأسند

قيادة الاسطول البحري في مصر سنة ١٥٥٣م الى سيدي علي الذي كانت له سمعة طيبة بسبب جهوده في البحر المتوسط . وقد وصل سيدي علي البصرة وتسلم من الوالي العثماني هناك خمس عشرة سفينة واقلع سنة ١٥٥٤م متوجهاً الى هرمز وهناك اصطدم باسطول برتغالي قوي يتألف من اربع وثلاثين سفينة ، وبسبب اطلاقات مدافع البرتغاليين والرياح المعاكسة القوية اندفع الاسطول العثماني دون خطة باتجاه السواحل الهندية . وفي ميناء سورات تفرق اعوان سيدي علي وتركوا مالديهم من سفن وساروا في الطريق البري عائدين الى البصرة ، فاضطر سيدي علي الى بيع السفن وارسال اثمانها الى استانبول .

وبعد حملة سيدي علي ارسلت الى الخليج العربي بضع حملات عثمانية ، الا انها لم تنجز اكثر من احتلال مؤقت للبحرين سنة ١٥٥٩م ولمسقط سنة ١٥٨١م وفي كلتا الحالتين اجبرتها الاساطيل البرتغالية على الانسحاب. أن الحملات العثمانية المتوالية ، بالرغم من عدم تكللها بالنجاح التام الا انها ساهمت ، بشكل او بآخر في اضعاف شوكة البرتغاليين في الخليج العربي لم يعد الطوق الذي فرضوه محكما. على انه لم يتحقق التخلص من النفوذ لبرتغالي نهائياً الا على يد عرب الخليج انفسهم.(١) ولقد ساعد خضوع البرتغال لعرش الاسباني بين سنتي ١٥٨٠ــ١٦٤٠م(٢) ووصول الانكليز والهولنديين لى الخليج العربي على اضعاف البرتغاليين وتقليص نفوذهم في الخليج العربي لكن(٣) نمو قوة عرب عمان كانت العامل الحاسم في طرد البرتغاليين من لمنطقة . لقد ظهرت دولة اليعاربة في عمان سنة ١٦٢٤م وتولت مسؤولية صراع ضد البرتغاليين ونجحت في عهد حكامها الاوائل وخاصة ناصر ن مرشد ١٦٢٤ــ١٦٤٩م وسلطان بن سيف ١٦٤٩ــ١٦٦٨م في القيام حركة تحريرية كبرى لم تقتصر على مناطق النفوذ البرتغالي في الخليج او سواحل الجزيرة العربية ، وانما امتدت الى قواعد البرتغاليين وقلاعهم ، الهند وفي سواحل شرق افريقيا . فتحررت صحار ومسقط . وكان ميناء

كنجان الصغير على الشاطىء الشرقي للخليج العربي اخر معقل للبرتغاليين دمره العمانيون سنة ١٦٩٥ .

ان اسباب عدم نجاح العثمانيين نجاحاً تاماً في كفاحهم ضد البرتغاليين يمكن ان يعزي الى عدم كفاءة بعض قادتهم البحريين وقيامهم باعمال تعسفية ازاء السكان العرب بالرغم من تعاونهم مع العثمانيين في جهودهم الحربية المناهضة للبرتغاليين . بالاضافة الى ذلك فان الاسطول العثماني في القرن السادس عشر كان مؤلفاً من سفن صغيرة غير قادرة على التأثير الفعال ضد السفن المحيطية الكبيرة . يضاف الى ذلك صعوبة تجهيز وادامة اسطول عثماني تكفي قوته لمواجهة الاساطيل الاوروبية في البحر المتوسط والمحيط الهندي في الوقت نفسه ، وذلك لانشغال الدولة العثمانية في هذه الفترة بالحروب البرية الطويلة ضد الامبراطورية الرومانية المقدسة وضد الصفويين .

ومهما يكن من امر ، فان من نتائج الصراع العثماني – البرتغالي قدرة العثمانيين في المحافظة على الاماكن المقدسة الاسلامية وطريق الحج وكذلك حماية الحدود الاسلامية البرية من هجمات البرتغاليين طيلة القرن السادس عشر. كما ان البرتغاليين ، برغم مابذلوه من جهود لم يستطيعوا قطع الطرق التجارية التي تربط الهند واندونوسيا بالشرق الادنى عبر الخليج العربي والبحر الاحمر . فقد استمرت عمليات تبادل البضائع الهندية مع التجار الاوربيين في اسواق حلب والقاهرة واستانبول وبورصة ، وفي سنة ١٥٥٤م على سبيل المثال اشترى البندقيون وحدهم ستة الاف قنطار (القنطار يساوي ١٠٠ كغم) من التوابل في الاسكندرية . وفي الوقت نفسه كانت تصل الى ميناء جدة في كل سنة حوالي عشرين سفينة محملة بالبضائع الهندية كالتوابل والاصباغ والانسجة .

كما ان مشتريات البندقيين السنوية من التوابل البالغة ١٢ الف قنطار بين سنتي ١٥٦٠و١٥٦٤م هي نفس الكمية التي كانوا يشترونها قبل اكتشاف فاسكودي غاما للطريق البحري الجديد المؤدي إلى الهند .



السيطرة العثمانية على اقطار المغرب العربي :

اشرنا فيما سبق إلى اوضاع التفكك السياسي والتدهور الاقتصادي الذي كانت تعيشه اقطار المغرب العربي وخاصة بعد ظهور الاطماع الاستعمارية الاسبانية والبرتغالية . لذلك فقد اخذ السلطان سليم الاول على عاتقه مهمة بناء قوة بحرية تتولى انتزاع السيادة البحرية من الدول الاوربية في الحوض الغربي للبحر المتوسط . وقد عاصرت مشروعات الدولة العثمانية في هذه المنطقة ظهور حركة عامة بين قادة البحر المغاربة تستهدف العمل على حماية موانيهم وسواحلهم من الاطماع الاوربية . والعمل على تأمين وصول المهاجرين العرب من الاندلس بعد سقوط الدولة العربية فيها سنة ١٤٩٢ .

لقد كان من ابرز اولئك القادة البحاران المغربيان عروج بن يعقوب واخيه خير الدين المعروف بباربروس (اي ذو اللحية الشقراء) اللذان كانا يمتلكان اسطولاً قوياً يعمل في البحر المتوسط . وكان عروج منذ سنة ١٥١٠م يتولى ادارة جزيرة جربة . وهي جزيرة صغيرة تقع في خليج قابس شرقي تونس بموافقة سلطان تونس ابي عبد الله محمد بن الحسن الحفصي (١٤٩٤ـ ١٥٢٦م) مقابل دفعه للسلطان خمس الغنائم التي يحصل عليها من جراء الغارات التي يشنها على السفن الاوربية .

وكان للقصص التي يتداولها الناس عن الفظائع التي يرتكبها الاسبان ضد عرب الاندلس والمخاطر التي يتعرضون لها عقب خروجهم من الاندلس ولاسيما خطر وقوعهم اسرى لدى القراصنة الاوربيين من الاسباب التي جعلت عروج واخيه خير الدين يوجهان جزءاً من نشاطها للعمل على انقاذ العرب الاندلسيين عن طريق تأمين ايصالهم بسلام إلى المغرب العربي . ويقال ان عدد الذين تم انقاذهم يقدر بعشرات الالاف .

اتجهت انظار عرب المغرب إلى عروج واخيه خير الدين لانقاذهما

من النير الاجنبي . وكانت بجاية في طليعة المدن التي استنجدت بالاخوين لتحريرها من الاسبان . وربما كان ذلك بسبب كونها انذاك اكبر ميناء في شرقي الجزائر . وقد لبي الاخوان الدعوة ، لكنهما أخفقا في تحريرها بسبب مناعة حصونها . لذلك احس الاخوان بضرورة البحث عن قاعدة جديدة لنشاطها ، فوقع اختيارهما على ميناء جيجل الجزائري الذي يقع على بعد (١٠٢) كم غرب بجاية . وقد تمكن الاخوان من تحريره وجعله مركزا لنشاطهما .

اتصل عروج بعد تحرير جيجل بالسلطان سليم الاول وارسل اليه جزءاً من الغنائم وشرح له طبيعة المخاطر التي يتعرض لها المغرب العربي وبين له حاجته إلى الدعم والتأييد . وقد اغتبط السلطان سليم بهذا العرض وبعث إلى عروج اسطولا مؤلفاً من (١٤) سفينة مع امدادات من الرجال والسلاح والذخيرة . ويبدو ان الدعم الذي تلقاه عروج من العثمانيين زاد من امكاناته وطموحه . اذ حاول احتلال بجاية ثانية في آب ١٥١٤م واستعان لذلك الغرض بقوة من قبيلة كتامة قوامها عشرون الف مقاتل الا انه فشل في ذلك واضطر إلى رفع الحصار الذي استمر ثلاثة اشهر وعاد إلى مقره في جيجل . ويمكن عزو هذا الاخفاق إلى عوامل عدة منها رداءة الاحوال الجوية ، ووصول قوة اسبانية لنجدة حامية بجاية ، اضافة إلى حلول البذار وماترتب عنه من تخلي رجال القبائل عن القتال وعودتهم إلى حقولهم .

قرر عروج توجيه جهوده نحو تحرير ميناء الجزائر بعد ان تسلم بضعة رسائل استغاثة من بعض الاهالي . ومما تضمنته رسالة احدهم وهو الشيخ ابو العباس بن أحمد بن قاضي الزواوي ، وهو عالم وفقيه جزائري معروف بموقفه المعادي للاسبان قوله «ان بلادنا بقيت لك او لاخيك او للذئب» . وقد جاء قرار عروج هذا اثر دراسة مستفيضة لاوضاع الجزائر

اذ ادرك ان نجاحه في احتلال الجزائر وهي التي تتمتع بموقع ممتاز على البحر في منتصف المسافة بين بجاية ووهران سيجعله قادراً على انقاذ بجاية وسواها من المدن الساحلية التي كانت ترزح تحت النير الاسباني . كما ان السيطرة على الميناء ستكون بمثابة خطوة على طريق تأسيس حكم جديد في الجزائر تكون السلطة فيه له ولاخيه ، وعليه اتصل عروج باخيه خير الدين وكان انذاك في تونس وطلب منه تجنيد المتطوعين الراغبين في القتال ضد الاسبان والتوجه بهم بحراً للمساهمة في هذه الحملة . خرج خير الدين على رأس قوة بحرية مؤلفة من (٢١) سفينةعلى متنها (١٥٠٠) مقاتل . اما عروج فقد غادر جيجل ومعه قوة برية قوامها (٨٠٠) مقاتل. واخذ في طريقه إلى ميناء الجزائر يجند القبائل الجزائرية حتى بلغ عدد افرادها (٥٠٠٠) مقاتل . وبعد ان نجح الاخوان في تحطيم المحاولات الدفاعية التي قامت بها الحامية الاسبانية وتم لهما تحرير ميناء الجزائر في اواسط سنة ١٥١٦م . اتجها نحو تلمسان وتناس والمدية وميليانة في جنوب مدينة الجزائر لتحريرها من السيطرة الاجنبية .

حاول عروج انشاء دولة في الجزائر قادرة على تحقيق وحدة المغرب العربي ، الا ان هذه البداية الناجحة فشلت حين ادرك الاسبان ان قوات عروج اصبحت تشكل تهديداً خطيراً لوجودهم الاستعماري في المنطقة كلها . لذلك فقد اصدر الملك شارل الخامس اوامره إلى حاكم وهران الاسباني بالتقدم نحو تلمسان واجلاء قوات عروج عنها . وقد نجحت القوة الاسبانية في محاصرة عروج في مكان يقع قرب وادي الملح بين وهران وتلمسان وقتله وتشتيت اتباعه سنة ١٥١٨م .

ادار خير الدين الصراع ضد المستعمرين الاسبان بعد مقتل اخيه عروج . وادرك منذ البداية ضعف موقفه السياسي وضآلة امكانياته العسكرية، لذلك ارسل بعثة إلى استانبول ترأسها ابو العباس بن احمد بن قاضي الزواوي يطلب فيها المساعدة من العثمانيين ، على امل ان يؤدي ذلك إلى

تقوية مركزه ومن ثم تمكينه من الوقوف بوجه الاسبان . وقد رحب السلطان سليم بالبعثة ، ومنح خير الدين لقب باشا ورتبة بكار بكي الجزائر وأرسل اليه في سنة ١٥١٨م قوة من الانكشارية قوامها ستة الاف رجـــل بمدافعهم وعتادهم الحربي تكون منهم (الاوجاق) اي قوة الجزائر الحربية وسمح له بتجنيد المتطوعين من الاناضول .

وقد نجح خير الدين في احتلال قلعة البينون penon يوم ٢٧ ايار سنة ١٥٢٩م بعد سلسلة من المعارك الدامة ضد المحتلين الاسبان . وبذلك خلص مدينة الجزائر من نيران المدفعية الاسبانية التي كانت تسلط عليها من من هذه القلعة التي لم تكن تبعد عن المدينة اكثر من (٣٠٠) متر . ان احتلال قلعة البينون ثبت وضمن أمن مدينة الجزائر ، ويُعد ذلك في الحقيقة بداية السيطرة العثمانية على المغرب العربي .

فقد استدعى السلطان سليمان القانوني خير الدين باربروس إلـى استانبول ليتفق معه حول الاجراءات التي يمكن اتخاذها لايقاف الزحف الاوربي والعمل على تثبيت اقدام العثمانيين في المغرب العربي كجزء من عملية توسعهم في الوطن العربي

قام خير الدين ، باعادة بناء الاسطول الجزائري ، واستعد لاقتحام تونس وضمان حرية التنقل بين شواطيء واطي البحر المتوسط . وفي ١٨ نيسان سنة ١٥٣٤م استولى بسهولة على مدينة تونس بعد ان اغتنم الثورة التي نشبت فيها ضد حاكمها أبي محمد الحسن الحفصي حليف الاسبان .

وسرعان ما أستنجد الحسن بالاسبان ، الذين هرعوا إلى تجميع اسطولهم في حزيران سنة ١٥٣٥م امام ساحل سردينيا والتوجه نحو تونس والاصطدام مع قوات خير الدين ومحاصرتها . عندئذ اضطر خير الدين للانسحاب إلى ميناء عنابة ثم إلى ميناء الجزائر . اما الاسبان فقد احتلوا مدينة تونس يوم ٢١ تموز ١٥٣٥م واعادوا الحسن إلى عرشه بعد ان عقدوا معه اتفاقاً ضمن لهم مصالحهم . وكان من ابرز بنود الاتفاق :

١ ـ اطلاق سراح جميع الاسرى الاوربيين دون دفع اية فدية .
٢ ـ ضمان حرية التجارة للاوربيين والامتناع عن اعمال القرصنة .
٣ ـ على سلطان تونس دفع جزية سنوية إلى الاسبان مقدارها (١٢) الف قرش .
٤ ـ ان يتعهد سلطان تونس بتقديم هدية سنوية مكونة من (١٢) حصاناً و (١٢) مدفعاً دليلا على الاستمرار بالاعتراف بالسيادة الاسبانية .
٥ ـ تتعهد اسبانيا بحماية تونس ضد اي هجوم اجنبي .
٦ ـ يبقى احتلال تونس لحين هدوء الحالة فيها .

بالغ الاسبان في الانتقام من التونسيين بسبب انضمامهم لقوات خير الدين فاستباحوا المدن التونسية ثلاثة ايام وفتكوا بقرابة ستين الفاً من المواطنين التونسيين لذلك سرعان ما اندلعت الانتفاضات الشعبية ضد صنيعة الاسبان الحسن الحفصي وقد بلغت هذه الانتفاضات ذروتها في القيروان التي رفضت الاعتراف بسلطان يدين بعرشه للتدخل الاجنبي. ثم توالت الانتفاضات مما اضطر السلطان الحفصي إلى الفرار فاستدعى التونسيون ابنه ابا العباس أحمد والي عنابه لتولي الحكم .

وجه الاسبان اسطولهم إلى جزيرة جربة سنة ١٥٦٠م فاصطدم به الاسطول العثماني ودحره وكان من بين الاسرى الاوربيين الكونت سيكالا الذي اعلن اسلامه وعرف باسم سنان باشا وكان له فيما بعد دور كبير في قيادة الاسطول العثماني وتحرير تونس من السيطرة الاسبانية في اواخر سنة ١٥٧٤م ومنذ ذلك الوقت وحتى ١٥٧٨م غدت تونس ولاية عثمانية يشرف على ادارتها والي الجزائر .

اما ليبيا، فقد سبق ان اشرنا إلى احتلال الاسبان لمينائها طرابلس في سنة ١٥١٠م وفي سنة ١٥٣٥م سلمت إلى فرسان القديس يوحنا بعد ان اشترطوا عليهم الدفاع عنه ضد العرب. وكان هذا التسليم ضمن اتفاقية عاملة طالب

فيها الفرسان من شارل الخامس تسليم مالطة لتكون قاعدة لهم يغزون منها الوطن العربي .

في اعقاب تولي خير الدين قيادة الاسطول العثماني سنة ١٥٣٣م وضع خطة للاستيلاء على طرابلس. الا ان التدخل الاسباني في سنة ١٥٣٥م أدى إلى فشل الخطة. وفي ١٨ أيلول سنة ١٥٥١ نجحت السفن العثمانية التي تجمعت في شرق البحر المتوسط. ومنذ ذلك الوقت اصبحت طرابلس ولاية عثمانية .

اما اقليم برقة فقد كان تحت السيطرة العثمانية منذ الاستيلاء على مصر. وقد اعلن زعماء اقليم فزان من اسرة بني محمد ولاءهم للعثمانيين .

تولى حكم ليبيا عدد من الولاة العثمانيين، كان دارغوث باشا اشهرهم. وهو الذي وسع السيطرة العثمانية لتشمل السواحل الليبية بكاملها. كما انشأ فرق الانكشارية هناك. على ان اهتمام العثمانيين بليبيا ظل عسكرياً بالدرجة الاولى واقتصر نفوذهم على المدن الساحلية .

اما مراكش الواقعة في الركن الغربي من المغرب فقد ظلت بعيدة عن متناول العثمانيين وحكمهم المباشر وذلك بسبب تنامي قوة الدولة السعدية الناشئة منذ منتصف القرن السادس عشر. وعلى الرغم من الجهود التي بذلها القادة العثمانيون ومنهم علي العلج، بكر بكي الجزائر منذ ١٥٦٨م لاخضاع مراكش الا ان ذلك لم يتحقق لسببين مهمين اولهما : النصر الكبير الذي حققه المغاربة على البرتغاليين في معركة وادي المخازن سنة ١٥٧٨م، الذي جعلهم محط تقدير السلطان العثماني ورغبته في ايقاف الحملات الموجهة ضد مراكش وثانيهما: ظهور شخصية قوية حاكمة في المغرب ذلك هو المنصور السعدي الذي سعى للمحافظة على استقلال مراكش وعدم الخضوع للسيطرة العثمانية .

لقد اتسم تاريخ العثمانيين في المغرب العربي بظاهرة ضعف السيطرة

العثمانية على ولاياته وبخاصة بين القرنين السابع عشر والتاسع عشر وذلك لبعد المسافة التي تفصل بين هذه الولايات وعاصمة الدولة. ثم لضعف الاداة التي لابد منها لاحتفاظ الدولة بسيطرتها على تلك الولايات وهي القوة البحرية لذلك فقد لجأت هذه الولايات إلى تنظيم اداة الحكم والحرب فيها على نحو يكفل لها الدفاع عن كيانها في مواجهة الغزو الاوربي. فقامت في طرابلس وتونس والجزائر اسر حاكمة تدين بالولاء الاسمي للعثمانيين ويتوارث اعضاؤها الحكم فيما بينهم. ففي طرابلس قامت الأسرة القرمانلية وحكمت من ١٧١١ حتى ١٨٣٥م. اما في تونس فقد ظهرت الأسرة الحسينية التي تولت الحكم منذ ١٧٠٤ وحتى ١٩٥٦م. وفي الجزائر اعتاد قادة البحر على اختيار حاكم من بينهم، يسمونه (الداى) اما مراكش فقد استعصت على العثمانيين بفضل المقاومة التي ابدتها اسرة الشرفاء العلويين التي ما تزال في الحكم حتى يومنا هذا.

مصادر الفصل الأول

نشأة الدولة العثمانية وتوسعها في الأقطار العربية

(١) اباظة ، فاروق عثمان: الحكم العثماني في اليمن ١٨٧٢ -١٩١٨ ، (القاهرة، ١٩٧٥) .

(٢) أحمد ، ابراهيم خليل : سياسة ايران الخارجية التوسعية واطماعها في الارض والمياه العربية (١٥٠٠ - ١٩٨٠) مجلة الجامعة ، الموصل السنة (١١) العدد (١٢) كانون الثاني ١٩٨١.

(٣) أمين ، عبدالامير محمد : «دور القبائل العربية في صد التوسع الاوربي في الخليج العربي خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر» من بحوث المؤتمر الدولي للتاريخ، بغداد، ٢٥ - ٣٠ آذار، ١٩٧٣ ، (بغداد، ١٩٧٥)

(٤) انيس ، محمد، الدولة العثمانية والمشرق العربي ١٥١٤ - ١٩١٤ (القاهرة ، لا ت) .

(٥) أنيس وحراز ، محمد، رجب: الشرق العربي في التاريخ الحديث والمعاصر (القاهرة ، ١٩٦٧) .

(٦) اوزبران، صالح : الاتراك العثمانيون والبرتغاليون في الخليج العربي ١٥٣٤ - ١٥٨١، ترجمة عبدالجبار ناجي، (البصرة،، ١٩٧٩).

(٧) أياس ، محمد بن احمد بن: بدائع الزهور في وقائع الدهور، طبعة بولاق، (القاهرة، ١٣١١هـ) .

(٨) البدليسي ، شرف خان: شرفنامة ٢ج، ترجمهُ الى العربية من الفارسية محمد علي عوني، (القاهرة، ١٩٥٨ - ١٩٦٢) .

(٩) برو ،توفيق: القومية العربية في القرن التاسع عشر، (دمشق، ١٩٦٥).

(١٠) بروكلمان، كارل: تاريخ الشعوب الاسلامية ، ترجمة نبيه أمين

فارس، ومنير البعلبكي، ط٥ (بيروت، ١٩٦٨).

(١٠) بن اشننهو، عبد الحميد بن ابي زيان، دخول الاتراك العثمانيين الى الجزائر، (الجزائر، ١٩٧٢).

(١١) بيهم، محمد جميل: فلسفة التاريخ العثماني، اسباب إنحطاط الامبراطورية العثمانية وزوالها، (بيروت، ١٩٥٤).

(١٢) تشايجي، عبدالرحمن: المسألة التونسية والسياسة العثمانية، ١٨٨١ ــ ١٩١٣ ترجمة عبد الجليل التميمي، (تونس، ١٩٧٣).

(١٣) التميمي، عبدالجليل، اول رسالة اهالي مدينة الجزائر الى السلطان سليم الاول / ١٥١٩ المجلة التاريخية المغربية، تونس، عدد ٦ تموز / ١٩٧٦.

(١٤) حجي، محمد: الحركة الفكرية في عهد السعديين ج١ (الرباط، ١٩٧٧).

(١٥) الحصري، ساطع: البلاد العربية والدولة العثمانية ط٣، (بيروت، ١٩٦٥).

(١٦) حقي، احسان: الجزائر العربية، أرض الكفاح المجيد، (بيروت، ١٩٦١).

(١٧) حوراني، البرت: الاسس العثمانية للشرق الاوسط الحديث، مجلة تاريخ العرب والعالم، بيروت السنة (٢) العدد (١٤)، كانون الاول ١٩٧٨.

(١٨) رافق، عبدالكريم: بلاد الشام ومصر منذ الفتح العثماني حتى حملة نابليون بونابرت، ط٢، (دمشق، ١٩٦٨).

(١٩) الراقد، محمد عبدالمنعم السيد: الغزو العثماني لمصر ونتائجه على الوطن العربي، (القاهرة، ١٩٧٢).

(٢٠) الزاوى، الطاهر احمد: ولاة طرابلس في بداية الفتح العربي الى نهاية العهد التركي (بيروت، ١٩٧٠) .
(٢١) الزبيرى، محمد العربي: مدخل الى تاريخ المغرب العربي الحديث (الجزائر، ١٩٧٥) .
(٢٢) زيادة، نقولا: ليبيا في العصور الحديثة، (القاهرة، لا.ت) .
(٢٣) سالم ،مصطفى السيد ، الفتح العثماني الاول لليمن ١٥٣٨ – ١٦٣٥ ، ط٢ (القاهرة ١٩٧٤) .
(٢٤) سليم ، محمود رزق : عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والادبي ،ج١ ،(القاهرة ١٩٤٧) .
(٢٥) السيار ،عائشة : دولة اليعاربة في عمان وشرق افريقيا في الفترة من ١٦٢٤ – ١٧٤١ ، (بيروت ١٩٧٥) .
(٢٦) شارب ، أحمد ابو : وثيقة برتغالية جديدة ،مجلة كلية الاداب والعلوم الانسانية جامعة محمد بن عبدالله فاس المغرب ،العددان ٢–٣ السنة ١٩٧٩/١٩٨٠ .
(٢٧) الشرقاوي ، عبدالرحمن ، واقعة السلطان الغوري مع السلطان سليم لابن زنبل ، مجلة الهلال ، القاهرة ، السنة (٢٧) العدد (٤) أول نيسان /١٩٦٩ .
(٢٨) الشناوي . محمد عبدالعزيز محمد :الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها ، ج١ ج٢ (القاهرة ١٩٨٠)
(٢٩) الشنيطي ، محمود :قضية ليبيا (القاهرة ١٩٥١)
(٣٠) الصباغ ، ليلى : المجتمع العربي السوري في مطلع العهد العثماني (دمشق ١٩٧٣) .
(٣١) العدول ، جاسم محمد حسن : عروج ، دورة في احداث المغرب

العربي وحوض البحر المتوسط الغربي «مجلة التربية والعلم» ، الموصل العدد (٢) شباط / ١٩٨٠

(٣٢) عبدالكريم ، أحمد عزت : دراسات في تاريخ العرب الحديث (بيروت ،١٩٧٠) .

(٣٣) العروي ، عبدالله : تاريخ المغرب ، محاولة في التركيب ، ترجمة ذوقان قرقوط (بيروت ،١٩٧٧) .

(٣٤) العزاوي عباس : تاريخ العراق بين احتلالين ،٨ أجزاء (بغداد ١٩٥٥ ـ ١٩٥٦) .

(٣٥) العقاد ، صلاح :المغرب العربي ، ط٢ ،(القاهرة ، ١٩٦٦) .

(٣٦) عمر ،عمر عبد العزيز : دراسات في تاريخ العرب الحديث والمعاصر (بيروت ١٩٧٥) .

(٣٧) عمر ،عمر عبد العزيز : المشرق العربي من الفتح العثماني حتى نهاية القرن الثامن عشر ، القاهرة / ١٩٧١ .

(٣٨) علي ،علي شاكر :تاريخ العراق في العهد العثماني ١٦٣٨ ـ ١٧٥٠ ، رسالة ماجستير غير منشورة ، قدمت لجامعة بغداد سنة /١٩٧٦

(٣٩) عنان ، محمد عبدالله : نهاية الاندلس وتاريخ العرب المتنصرين ، ط٢ (القاهرة ١٩٦٦) .

(٤٠) العماري ، احمد: «المؤثرات الحقيقية وراء موقف المؤرخين الاجانب من التدخل المغربي في تلمسان اثر احتلال فرنسا للجزائر »مجلة كلية الاداب والعلوم الانسانية جامعة محمد بن عبدالله ، فارس المغرب العدد ٣، ١٩٧٩ ـ ١٩٨٠ .

(٤١) غرايبة ، عبدالكريم : سوريا في القرن التاسع عشر ١٨٤٠ ـ ١٨٧٦ (القاهرة ،١٩٦١) .

(٤٢)غرايبه، عبد الكريم مقدمة في تاريخ العرب الحديث١٥٠٠–١٩١٨ ،جا (دمشق١٩٦٠) .
(٤٣) الغملاس ، ابن : ولاة البصرة ومتسلموها من تأسيس البصرة حتي نهاية الحكم العثماني (بغداد ١٩٦٢) .
(٤٤) فارس ،محمد خير :تاريخ الجزائر الحديث من الفتح العثماني الى الاحتلال الفرنسي .(القاهرة ،١٩٦٩)
(٤٥) فريد ، محمد : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، طبعه بالاوفست (بيروت ١٩٧٧) .
(٤٦) فهمي ،عبد السلام عبد العزيز : فتح القسطنطينية (القاهرة ،١٩٦٩)
(٤٧) القيسي ،عبدالوهاب «موقف العثمانيين الغزو البرتغالي المياه العربية» مجلة الخليج العربي ،البصرة ، العدد (١) ،١٩٨٠ .
(٤٨) القهواتي، حسين محمد : العراق بين الاحتلالين العثماني الاول والثاني ١٥٣٤ –١٦٣٨، رسالة ماجستير غير منشورة قدمت لجامعة بغداد سنة ١٩٧٥ .
(٤٩) كوبرلي، محمد فؤاد: قيام الدولة العثمانية ، ترجمة احمد السعيد سليمان، (القاهرة، ١٩٦٥) .
(٥٠) لبيب، حسين: تاريخ الاتراك العثمانيين ٣ أجزاء (القاهرة ، ١٩١٧)
(٥١) لوريمر، ج،ج: دليل الخليج، القسم التاريخي، جا، ترجمة مكتب الترجمة بديوان حاكم قطر، (الدوحة، ١٩٦٧) .
(٥٢) لونكريك، ستيفن همسلي : اربعة قرون من تاريخ العراق الحديث، ترجمة جعفر الخياط ط٥، (بغداد، لا: ت) .
(٥٣) لفوميكاكي ، رود ، طرابلس الغرب تحت حكم اسرة القرمانلي تعريب طه فوزي، (القاهرة، ١٩٦١) .

(٥٤) متولي، أحمد فؤاد: «جوانب من كفاح السعوديين الاوائل» مجلة الادارة الرياض ١٩٨٠

(٥٥) المدني: حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر واسبانيا ١٤٩٢ / ١٧٩٢ (قسنطينه، لا. ت).

(٥٦) موير، وليم: تاريخ دولة المماليك في مصر ١٢٦٠ – ١٥١٧، ترجمة عابدين سليم حسن (القاهرة، ١٩٢٤).

(٥٧) نوار، عبدالعزيز سليمان: داؤد باشا والى بغداد، القاهرة / ١٩٦٨

(٥٨) نوار، عبدالعزيز سليمان: تاريخ العراق الحديث من نهاية حكم داؤد باشا الى نهاية حكم مدحت باشا، (القاهرة، ١٩٦٨).

(٥٩) نوار، عبدالعزيز سليمان: التاريخ الحديث للشعوب الاسلامية، (بيروت، ١٩٧٣).

(٦٠) نوار، عبدالعزيز سليمان: محاضرات في تاريخ الشرق الادنى الحديث، القيت على طلبة قسم التاريخ بكلية التربية، جامعة بغداد ١٩٦٥ – ١٩٦٧ وهي غير منشورة.

(٦١) الوردى، علي: لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث جا – ٣ (بغداد ١٩٦٩ – ١٩٧٦).

(٦٢) ويلسون، ارنولد تالبوت: الخليج العربي، ترجمة عبدالقادر يوسف (الكويت، لا. ت).

(٦٣) يحي، جلال: المغرب العربي والاستعمار، (القاهرة، ١٩٦٦)

(٦٤) يحي، جلال: «المولى اسماعيل وتحرير ثغور المغرب» مجلة المؤرخ العربي، بغداد العدد (٢)، ١٩٧٥.

---Creasy, Edward, History of the ottoman Turks, (New York, 1877) (٦٥)

---Eliot, Charles, Turkey in Europe, (London, 1965) (٦٦)

---Eversley. Lord: The Turkish Empire, It crowth and Decay, (London, 1959) (٦٧)

---Shaw, stanford. J. , History of the ottoman Empire and Modern Turkey, Vol. I, (Cambridge, 1977). (٦٨)

---Cibbons,H.A, The Foundaiton of the ottoman Empire, History of the Osmanlis,1300–1403,(Oxford, 1916) (٦٩)

---Lnalcik, Halil, The ottoman Empire,(London, 1973) (٧٠)

---Lamartine, A. De. History of Turkey, 2 Vols, (New York, 1855) (٧١)

---Lewis, Bernard, The Emergence of Modern Turkey, (London 1968) (٧٢)

---Mazzaoui, Michel M. (Global policies of sultan selim3 1512–1520) in Donald. P. Little. (ed), Essays on Islamic civilization (Leden, 1976) (٧٣)

---Reis, Sidi. Ali, The Travels and Adventuress of the Turkish Admiral, In India, Afghanistan, central Asia and persia during the year, (1533–1556) Translated from the Turkis by A. Vambery, (London. 1899). (٧٤)

---Stripling, George. W. F., The ottoman Turks and Arabs, (Urabana, Illinois, 1942) (٧٥)

---Toynbee. Arnold: Astudy of History.Vol,I(Oxford,1945) (٧٦)

---Wittek. Paul, The Rise of the ottoman Empire, (London. 1938). (٧٧)



الفصل الثاني

نظم الحكم والادارة العثمانية
في الوطن العربي

اهتم العثمانيون منذ بدء سيطرتهم على الوطن العربي في القرن السادس عشر ،والتي استمرت قرابة اربعة قرون ،بتثبيت دعائم حكمهم وتنظيم الادارة والمجتمع مستندين في ذلك الى مصدرين اساسيين اولهما النظم التي كانت متبعة في مختلف انحاء الدولة العثمانية ، وثانيهما : النظم التي كانت سائدة في الاقطار العربية قبل احتلالهم لها . وسنلقي فيما نستقبل نظرة على التنظيم العثماني في المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية .

١ـ التنظيم السياسي والاداري :

أ ـ الخليفة : كانت الخلافة احدى الاسس التي ارتكزت اليها فلسفة الحكم العثماني . فقد عد العثمانيون دولتهم استمراراً للدولة العربية الاسلامية التي سقطت سنة ١٢٥٨م. وادعوا انهم اصحاب رسالة تدعوهم الى تحقيق اهداف الاسلام الكبرى ومنها مد حدود الاسلام وتوسيعها وحمايتها من الاطماع الاجنبية والمحافظة على العقيدة الاسلامية القويمة . وحين احتل السلطان سليم الاول مصر سنة ١٥١٧م حرص على مقابلة محمد المتوكل آخر الخلفاء العباسيين ، وكان يعيش في القاهرة آنذاك وعامله بما يستحقه من تبجيل واحترام ثم اصطحبه الى استانبول.

تداول المؤرخون رواية تنازل الخليفة العباسي المتوكل عن الخلافة للسلطان سليم الأول وتسليمه الاثار النبوية الشريفة المؤلفة من بيرق (علم) الرسول الكريم وبردته انتقلت وكأن الخلافة انتقلت الى آل عثمان الذين توارثوها حتى الغيت سنة ١٩٢٤ . ومن الذين ذكروا هذه الرواية المؤرخ دوسون D'Ohsson في كتابه «لمحة عامة للامبراطورية العثمانية». بيد انه لم يشر الى المصدر الذي استند اليه . ومن المؤرخين الذين اشاروا الى الرواية نفسها محمد فريد ولين بول Lane poole ومارك سايكس Mark sykes ووليم موير William Muir واخرون . ويستند الذين يؤيدون قضية التنازل الى بعض الادلة ، منها : ان الاثار الخاصة بشعائر الخلافة ما تزال محفوظة في مسجد ابي ايوب الانصاري باستانبول وهي نفس الاثار التي تسلمها السلطان سليم في مصر .كما ان بعض المرتبطين بالسلطان سليم كانوا يطلقون عليه لقب الخليفة . ومن هؤلاء معاصره المؤرخ ابن زنبل . وقد لقب بركات شريف مكة السلطان سليمان سنة ١٥٢٠ بلقب (خليفة الله) .

لاتؤيد المصادر الحديثة الرأى الذي يقول بحدوث التنازل خاصة وان العثمانين لم يكونوا يملكون الشرط الواجب توفره في خليفة المسلمين وهو الانتماء بالنسب الى قريش ، كما ان الخليفة المتوكل سرعان ما عاد الى القاهرة ليواصل مهامه الدينية حتى وفاته سنة ١٥٤٣م. يضاف الى هذا ان العثمانيين لم يستعملوا لقب الخليفة بعد اخضاعهم الوطن العربي وانما اكتفوا بلقب «السلطان» الذي لم تكن سلطته في منشئها مستندة الى اختيار الهي وانما كانت بفضل السيف وضمن حدود الشرع . ومن هنا فقد كانوا يفضلون كثيراً لقب «خادم الحرمين الشريفين» .

ان المؤرخين الذين ينكرون حادثة التنازل يشيرون الى عدد من الادلة التي تؤيد وجهة نظرهم ومنها :

١ – لم يرد في كتابات المؤرخين الرسميين الذين اصطحبهم السلطان سليم معه الى مصر ما يدل على ان الخليفة المتوكل على الله تنازل عن الخلافة للسلطان سليم . فكتابات المؤرخ التركي احمد فريدون ، وهي نوع من اليوميات التي تسجل ما فعله السلطان سليم في مصر حتى عودته لاتشير الى هذه الحادثة مع انها ذكرت تفصيلات دقيقة وتصف هذه اليوميات الخليفة العباسي بانه «الخليفة المتوكل على الله مولانا محيي الدين من آل العباس الذي هو بقية الخلافة العباسية في المحروسة المصرية » .

٢ – ان ابن اياس المؤرخ المصري المعاصر لدخول السلطان سليم الى مصر قد دون الكثير من الوقائع العثمانية دون ان يذكر شيئاً عن التنازل .

٣ – ان اقرب المؤلفات التاريخية الى عهد السلطان سليم وهو المعروف باسم «تاج التواريخ »لمؤلفه سعد الدين ابن شيخ الاسلام الذي صاحب سليم اثناء غزوه لمصر لايذكر شيئاً عن الخلافة .

٤ – ان نقود السلطان سليم لاتحمل لقب خليفة .

٥ – ان الخطباء في مصر ،ذكروا سليماً بلقب سلطان .

٦ – ان السلطـــان سليم كان يبعث الرسائل الى ابنه ونائبه في استانبول الامير سليمان يخبره فيها بتفاصيل الاحداث ولم يرد في رسائله خبر تنازل المتوكل عن الخلافة له .

٧ – ان لقب الخليفة فقد اهميته منذ زمن طويل ، وان امراء ضعفاء من السلاجقة والموحدين والهنود والجلائريين قد تلقبوا به ، لـذلك فالسلاطين العثمانيون كما يشير الى ذلك توماس ارنولد ، لم يكونوا بحاجة الى اللقب . ويبدو ان السلطان سليم نفسه لم يكن ليهيم به لان الخليفة المتوكل وقع في اسره وكان يستطيع ارغامه على التنازل عن الخلافة ولكنه لم يفعل ذلك .

٨ – ان من الوثائق المهمة التي تدعم الرأي القائل بعدم التنازل وثيقة رستم باشا عبد الكريم ، وكان وزيراً في عهد السلطان سليمان بين سنتي ١٥٤٤ –

١٥٥٢ وهي مؤرخة في سنة ١٥٥٧ تشير إلى القاب السلطان سليم جميعها دون أن يكون من بينها لقب خليفة .

لعل اول نص رسمي ورد فيه لقب الخليفة هو معاهدة كوجك كينارجي التي وقعت سنة ١٧٧٤ بين السلطان العثماني عبد الحميد الاول ١٧٧٤ – ١٧٨٩ وامبراطورة روسيا كاترينة الثانية . وبموجب هذه المعاهدة وافقت روسيا أن يكون للسلطان العثماني، كخليفة للمسلمين الحق في حماية المسلمين في شبه جزيرة القرم وهذا ينسجم مع السياسة الاسلامية التي تبنتها الدولة لمواجهة الحركات القومية .

ومهما يكن من امر فإن الرواية الشائعة عن التنازل لا تستند إلى اساس تاريخي. اذ اختلقت بعد عهد السلطان سليم واستفاد منها السلاطين العثمانيون وساعدتهم في استسلام المسلمين من العرب والعناصر الاخرى واخرت كثيراً نشوء الوعي القومي عندهم. ان لقب خليفة، سرعان ما بدأ يحتل اهمية كبيرة عند السلاطين العثمانيين في القرن الثامن عشر وذلك حين بدت علامات تدهور الدولة وانحطاطها .

وفي القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين، وحين بدأت الدعوة إلى وجوب قيام خلافة عربية محل السلطنة العثمانية على يد المفكر العربي عبد الرحمن الكواكبي، وحين اشتدت المنافسة بين الدول الاستعمارية لتمرين الدولة العثمانية ابرز السلاطين العثمانيون لقب الخليفة لاخافة الدول الاوربية وخاصة بريطانيا التي كانت تحكم ملايين المسلمين في الهند .

ب – **السلطان والحكومة :** كان السلطان العثماني يعرف بلقب (خنكار) او (باديشاه) ومعنى ذلك السلطان الاعظم او الرئيس الاعلى للدولة والجيش ويشترط فيه ان يكون تركي الاصل. لذلك تركز الولاء في الدولة العثمانية لال عثمان (عثمانلر) وحدهم وهم كما اشرنا من قبل اسرة تركية تدعي الانتماء في الاصل (ولو بدون مبرر كبير) إلى قبيلة اوغوز التي انحدر منها

قاسم حسن كاظم

السلاجقة كذلك من قبل. وقد تشبثت الاسرة العثمانية باصلها العرقي هذا لتستهوي به رجال القبائل التركية. وكانت الدولة العثمانية في جميع ادوارها التأريخية تستعمل بعض الرموز والاساليب المستمدة من اصول قبلية تركية كأذناب الخيل (الطوغ) التي كانت علامة على الرتبة في الحكومة. وكانت التركية لغة البلاط والقيادة في الجيش ودوائر الحكومة ولكن هذا لا يعني ، وخاصة في المراحل الاولى ان هناك تركيزاً على عرق او جنس معين ، فالموظف في خدمة السلطان العثماني لم يكن يعد نفسه بحكم الضرورة تركياً في اصله ولو انه كان يستعمل اللغة التركية . وقد تمسك العثمانيون منذ البدء بكلمة «عثماني» تعبيراً عن الاعتزاز بالانتساب إلى عثمان من جهة واستعلاء على اجناس تركية متخلفة في نظرهم ، كانت تقطن في آسيا من جهة اخرى . وكثيراً ما استخدم العثمانيون حتى اوائل القرن التاسع عشر كلمة تركي بمعنى الفلاح الجاهل تهكماً به او تحقيراً له .

عد أحد المؤرخين وهو الدكتور عبدالعزيز الشناوي الحرب العثمانية اليونانية التي نشبت سنة ١٨٩٧ تاريخاً تغير فيه تغيرا تاماً مدلول كلمة اتراك وتركي للدلالة على الوطن التركي والشعب التركي . ويستند في رايه إلى قصيدة نظمها الشاعر العثماني محمد أمين بك خلال تلك الحرب جاء فيها : « بن برتوركم جنسم اولودر» ومعناها : « انا تركي ، ديني وجنسي من اعظم الأديان والأجناس » .

لقد عرفت الدولة العثمانية في التاريخ بعدة اسماء . ففي عصورها الأولى أطلق عليها « دولت علية» أي الدولة العلية ، ثم سميت بـ « سلطنة سنية » أي السلطنة السنية . كما اطلق عليها بعد اتساع ممتلكاتها في اوربا وآسيا وأفريقيا « امبراطور لق عتمانلي » أي الأمبراطورية العثمانية . وعرفت كذلك باسم « دولت عثمانلي » أي الدولة العثمانية . وارتاح العثمانيون للاسمين الأخيرين لاحتواء كل منهما على لقب عثمانلي ، اذ كانوا يعتزون

بانتسابهم إلى عثمان الأول مؤسس الدولة يرون فيه المثل الأعلى للحاكم المسلم .

تمتع السلطان العثماني بسلطة عسكرية ومدنية مطلقة ، فالامر الذي يصدر منه كان يكفي لاعدام الأشخاص ومصادرة اموالهم دون محاكمة أو سؤال ومع ان صلاحياته كانت تبدو مقيدة ، بصورة نظرية ، بحكام الشريعة الأسلامية ، الا أن العلماء أي رجال الدين كانوا لايتأخرون عن ايجاد الأحكام واصدار الفتاوي التي تخدم مآرب السلاطين وتضفي على اوامرهم وتصرفاتهم صفة الشرعية . ويلي السلطان « شيخ الأسلام » وهو الرئيس الأعلى للعلماء . وهناك الصدر الأعظم أي رئيس الوزراء وكان يقوم باعانة السلطان في اصدار القوانين وادارة البلاد ويطلق على الحكومة المركزية للدولة أسم « الباب العالي » Sublem porte . ويتولى الشؤون الخارجية (ريس افندي) وهو بمثابة وزير الخارجية . وكان ثمة ديوان مركزي يترأسه السلطان ويضم كبار رجال الدولة المدنيين والعسكريين ورجال الدين . وهذا الديوان لا يحكم وانما كان يناقش المسائل ويخطط السياسة العامة للدولة . وكان السلطان يواظب على حضور جلساته ولكن بعد عهد السلطان سليمان القانوني تلكأ السلاطين في حضور جلساته واكتفوا بالسماع إلى ما كان يدور فيه من مناقشات ، فكان ذلك من اسباب تدهور الدولة العثمانية.

تألفت الدولة العثمانية من وحدات ادارية وعسكرية عرفت بالايالات. والايالات تنقسم الى سناجق اى ألوية وكان يعهد بشؤون الايالة الى «باشا» يسمى «بكلر بكي» بمعنى «بك البكوات» ويعتبر برتبة «ميرميران» بمعنى «أمير الامراء» ويعهد بشؤون اللواء الى «بك» يسمى «سنجق بكي» بمعنى «بك اللواء» ويعتبر برتبة «ميرلوا» بمعنى «امير اللواء». وقد بلغ عدد الايالات التي تألفت منها الدولة العثمانية في اوائل القرن السابع عشر (٣٢) ايالة، (١٥) منها كانت عربية. وفي الواقع ان هذه التقسيمات الادارية لم تجر على اساس تمييز الاقطار العربية عن غيرها، ولذلك نجد ان بعض المدن

العربية كانت تتبع ايالات غير عربية . اما الايالات العربية فكانت على التوالي : ايالة الشام، ايالة طرابلس الشام، ايالة حلب، ايالة الرقة، ايالة الموصل ، ايالة شهرزور ، ايالة بغداد، ايالة البصرة، ايالة الاحساء، ايالة اليمن ، ايالة مصر ، ايالة الحبش، ايالة تونس، ايالة طرابلس الغرب، ايالة الجزائر .

اما في القرن التاسع عشر ، فقد اصبحت الدولة العثمانية تقسم الى وحدات ادارية سميت بالولايات، وتنقسم الولاية الى سناجق (الوية) والالوية الى اقضية، والاقضية الى نواح. وكان على رأس الادارة في الولاية، الوالي، وفي كل لواء «متصرف» وفي كل قضاء «قائمقام» وفي كل ناحية «مدير ناحية» وقد بلغ مجموع الولايات العربية خلال الفترة المذكورة (١٢) ولاية و(٤) متصرفيات مستقلة. وهذه الولايات هي ولاية الحجاز، ولاية بيروت ، ولاية اليمن، ولاية البصرة، ولاية بغداد، ولاية الموصل، ولاية حلب ، ولاية سوريا، ولاية الجزائر ، ولاية طرابلس الغرب، ولاية تونس ،ولاية مصر. اما المتصرفيات فهي متصرفية القدس، متصرفية بنغازي ، متصرفية دير الزور ، متصرفية جبل لبنان. وترتبط هذه الولايات والمتصرفيات بالعاصمة استانبول . ولم يكن للعرب طيلة الفترة العثمانية كيان سياسي خاص بهم، ولم يمارسوا بصورة عامة اية سلطة سياسية مباشرة ولكن هذا لم يمنع العثمانيين من مراعاة الفوارق الدينية والمذهبية والعرقية . اذ لم يحاولوا في بداية الامر التغلغل في حياة السكان طالما حافظوا على ولائهم للحكم العثماني. وكان المجتمع مقسماً الى طبقتين، الاولى وهي الاكثرية وتضم المنتجين للثروة من العمال والفلاحين والحرفيين وهم يدفعون الضرائب للحكام. اما الطبقة الثانية فهم الحكام ويمثلون الاقلية ولايدفعون الضرائب ولايقومون باي عمل انتاجي وانما ينصرفون لجمع الاموال ويستخدمونها في دعم سلطتهم . ومن هنا يمكن القول ان السطحية كانت من ابرز خصائص الحكم العثماني ، وان هذه السطحية قد جعلت الخدمات التعليمية والصحية والاجتماعية خارج مسؤوليات الحكومة العثمانية ومن مسؤوليات السكان. اما واجبات الولاة العثمانية فكانت

مقتصرة على مايلي :

١ ـ تنظيم استثمار الثروة التي تعود الى السلطان.

٢ ـ اتخاذ الاجراءات اللازمة لزيادة هذه الثروة وحمايتها.

٣ ـ حفظ النظام وحماية الدولة من الخطر الخارجي وذلك بوساطة الجيش الذي يقوم بمهمة زيادة الثروة وحمايتها مثلما يحافظ على السلطان والدولة.

يلحظ في التاريخ العثماني، ان اركان الدولة «العثمانية»، كما يقول كاتب جلبي المشهور بمؤلفه كشف الظنون، اربعة وهم : العسكر، العلماء، التجار، الرعية، وهو يقصد بالعلماء رجال الدين ، كما كان متعارفاً عليه بين جميع الكتاب والمفكرين انذاك، اما الرعية فهم عوام الناس.

ج ـ الوالي :

كان السلطان العثماني هو الذي يعين الولاة، ومعظمهم اتراك ومن حاشيته الخاصة. ويلقب الوالي رسميا بـ (الباشا) وله سلطة واسعة قد تصل الى حق الاعدام، ومصادرة الاموال. ولم يكن في استطاعة الوالي التمادي في استغلال سلطته تلك، لان الشعب يحاول اللجوء الى القاضي ورجال الدين اذا ماطغى واستبد دون وجه حق، وكانوا يرفعون الشكاوي الى السلطان مباشرة. وقد يثورون على الوالي احيانا بل ويطردونه احيانا ممن البلاد. ويلعب قادة الحامية العثمانية «الاوجاق» دوراً في تقييد سلطة الوالي بحكم ماكان تحت امرتهم من قوة مسلحة.

لم تكن مدة الوالي طويلة، فالقاعدة العامة هي ان يتولى الوالي لمدة سنة ويجدد تعيينه الى ثلاث سنوات في الغالب وقد تطول مدته، ومما يلحظ ان مدة حكم الوالي كانت قصيرة بحيث لاتمكنه عن القيام بمشاريع طويلة الامد. وقد يعود الوالي احيانا الى ولايته اكثر منمرة او يُعين في ولاية ثم يتولى ادارة ولاية اخرى، فيكون من ذلك من الاسباب التي تكسبه خبرة دقيقة بامور البلاد. الا أن همه الرئيس يبقى في المحافظة على الوضع القائم وتزويد نفسه وحكمه بأسباب الحماية.

كان الوالي في الولايات العربية يتسلم مرتباً سنوياً يسمى (ساليانه) يقتطعه من الأموال التي يجمعها من ولايته . ويجمع الوالي بين السلطتين المدنية والعسكرية . وقد يتولى الوالي احياناً جباية الضرائب والرسوم في ولايته . ويعمل إلى جانب الوالي عدد من الموظفين يسمون باركان الولاية وابرزهم : نائبه الكتخدا أو الكهية ويكون مسؤولاً عن الأمن ، والدفتردار ، وهو المسؤول عن الأمور المالية في الولاية ، ويعينه السلطان وله حق محاسبة الوالي ومصادرة امواله ، وارسال قدر مناسب من الأموال إلى خزينة السلطان. وهناك المكتوبجي ، وهو المسؤول عن تحريرات الولاية ، والخزنة دار ، أي : أمين الخزانة الخاصة . اما أغا الانكشارية فهو قائد الحامية العسكرية ويعين من قبل السلطان . وتسند الأمور القضائية في الولاية إلى القاضي الذي كان يعين باقتراح من شيخ الاسلام وبفرمان سلطاني وتلحق به دار الافتاء ويرأسها مفتي المدينة . وكان للقاضي نواب في سائر انحاء الولاية .

وهناك نقباء الاشراف في عواصم الولايات والمدن العربية الكبيرة . والاشراف هم الذين يعودون بنسبهم إلى الرسول محمد صلى الله عليه وسلم ومعظمهم من الأسر العربية العريقة الشريفة التي اشتهرت بالعلم والسيادة والزعامة طيلة العصور الأسلامية السالفة . ومن هؤلاء : الاشراف في مكة ، وآل البكري في القاهرة ، وآل الخالدي والعلمي في القدس ، وآل الجابري في حلب ، وآل النقيب في البصرة وآل الكيلاني في بغداد ، وآل النقيب في الموصل . وكان الأشراف في العهد العثماني وقبله يقومون بدور الوسيط بين الحكام والسكان المحليين من عامة الناس ، وكانوا في أهم الأمور موالين للسلطان مخلصين له ، مع كونهم في الوقت نفسه الزعماء في مدنهم . وقد حاول الأشراف في بعض الأحيان أن يحدوا من جماح السلطة العثمانية ، وكانت وسائل القيام بهذا العمل متاحة لهم ، لانهم كانوا يستطيعون تعبئة الرأي العام وتجنيده عن طريق استخدامهم الوعاظ ومشايخ الحارات وزعماء الطوائف الحرفية . بالاضافة إلى ما كان لهم من تأثير ونفوذ عن طريق الروابط

المتصلة بينهم وبين اصحاب الوظائف الدينية على اختلاف درجاتهم في جميع انحاء الدولة العثمانية وفي مقدمتهم العلماء في استانبول .

لقد انتظم نائب الوالي واغا الأنكشارية والدفتردار والقاضي في مجلس استشاري يرأسه الوالي ويطلق عليه الديوان . ومع انه انشىء ليكون الهيئة العليا القادرة على محاسبة الوالي ، الا أنه أهمل اهمالاً تاماً ، ولم يعد اداة من ادوات الحكم ، واصبح مجرد هيئة استشارية تجتمع في المناسبات الرسمية لاستقبال كبار الزوار .

اما التنظيم الأداري خارج الولاية ، فكان محدوداً . فلكل سنجق حاكم مسؤول عنه من جميع النواحي العسكرية والأقتصادية ، ويعين حسب رغبة الوالي .

كما تركت ادارة العشائر لشيوخها حسب عرفها وما تتبعه من قوانين وتقاليد عشائرية. وقد يرجع ذلك، بدون شك الى عجز الدولة بانظمتها وادواتها المعروفة حتى القرن التاسع عشر عن ان تبسط الحكم الفعال القوي في ولاياتها .

المؤسسة العسكرية العثمانية :

اشرنا فيما سبق الى ان الدولة العثمانية تميزت منذ نشأتها الاولى بالطابع العسكري الصرف. ولقد كان سر اهتمامها بالجيش وقوعها على حدود الامبراطورية البيزنطية التي كانت تعاني من سكرات الموت. كما امدتهم النظرة الاسلامية في الجهاد، تلك التي تقسم العالم الى دار الحرب (دار الكفر) ودار السلام (دار الاسلام) بالتبرير النظري لتوسعاتهم في الاقاليم المسيحية البيزنطية.

ولقد رفعت توسعاتهم تلك في دار الحرب من مكانتهم في نظر المسلمين الامر الذي قوى تيار انضمام المتطوعين اليهم. ولم يكن العثمانيون في بدء امرهم مهتمين بوجود جماعة متخصصة بامور القتال. بل ان امراءهم الأوائل ، تمكنوا من الاستفادة من تشكيلات العثمانيين العشائرية في احراز الانتصارات .

وفي عهد عثمان الاول تطور الامر، فكانت هناك فرقة من الفرسان تعرف باسم (اقنجي) سرعان مايعود افرادها الى بيوتهم حال انتهاء الحرب. هذا بالاضافة الى ان عثمان كان يرسل المنادين الى القرى لدعوة من يرغب في القتال من اى جهة ومن اى جنسية. وكثيراً من الناس كان يهرع الى الانضمام طمعا في الاجر والاجرة.

اما اورخان ١٣٢٦ ـ ١٣٥٩م فقد انشأ فرقة مشاة عرفت باسم البيادة أو البابا وكانت تستلم اجوراً وتسكن الثكنات في باديء الامر ولكن فيما بعد اتخذت هذه القوات طابعاً اقطاعياً، حين منح افرادها اقطاعات لقاء خدمتهم، وذلك لعدم قدرة السلاطين على توفير المواد الضرورية لاعالة هذه القوات الكبيرة. فما هي القوات الاقطاعية، وكيف نشأت ؟

القوات الاقطاعيـة :

تبنت الدولة العثمانية منذ فترة مبكرة من قيامها النظام الاقطاعي. وقد هدف العثمانيون من هذا النظام تحقيق امرين اثنين، اولهما: تأمين الرزق لفئات متعددة من الجند بدلاً من تخصيص رواتب لهم، فقد كانوا يجهزون انفسهم ويتقدمون الى ميادين القتال. اما الامر الثاني ، فهو ان هذا النظام ساعدهم على تهيئة ما يحتاجونه من الجند في حركات التوسع العثمانية. وقد شكلت قوات الفرسان الاقطاعية نواة الجيش العثماني .

قامت النظرة العثمانية في مجال ملكية الارض على الاسس التالية :

١ ـ الارض المفتوحة ملك للدولة وليس جميع الاراضي إذ ان هناك اراضي مملوكة للافراد في الدولة الاسلامية.

٢ ـ ليس للسلطان ان يكون مالكاً وانما له حق الاشراف بحكم وظيفته على رأس الدولة.

٣ ـ من هنا له حق الاقطاع كما تقرره مصلحته التي تفترض ان تكون متطابقة مع مصلحة الدولة.

٤ ـ اعتبر العثمانيون كافة الاراضي مفتوحة بما فيها اراضي الاقطار العربية وجرى اخضاعها الاقطاعي وفقاً لمقتضيات الحاجة ولم يستثن من ذلك غير الولايات البعيدة ذات الطابع القبلي حيث لم تسمح ظروفها بتطبيق النظام الاقطاعي فيها.

وهكذا اقطع السلطان العثماني الاراضي للقادة العسكريين والاداريين وهؤلاء هم الذين عرفوا باصحاب التيمار والزعامت والخاص، بشرط ان يكونوا على استعداد للسير تحت راية السلطان في اية لحظة وان يتولوا اعداد عدد من الخيالة والفرسان المحاربين، وان يجهزوهم بكل مايحتاجون اليه من اسلحة وخيول، بنسبة فارس واحد عن الخمسة آلاف اقجة الاولى للايراد المقدر للاقطاع وفارس واحد عن كل ثلاثة الاف اقجة تلي الخمسة الآف الاولى من الايراد المقدر للاقطاع. والاقجة عملة فضية عثمانية كانت تعادل في القرن السادس عشر نصف درهم. فاذا سجل حاصل المقاطعة باربعمائة الف اقجة، مثلاً، كان على من اقطع له الاقطاع ان يجهز (١١٨) فارساً محارباً. وهذا يقودنا الى معرفة انواع الاراضي حتى نستطيع تحديد المقصود بالتيمار وغيره.

عمد العثمانيون الى تطبيق قواعدهم في الفتح، وكانت شائعة انذاك، وهي احصاء السكان، ومسح الاراضي في البلاد التي يحتلونها وتقسيمها الى مقاطعات، بعضها صغيرة وبعضها كبيرة. ويمنحون المقاطعات الصغيرة الى الجنود المحاربين، والكبيرة الى الامراء والقواد وذلك بعد تخصيص عدد من المقاطعات الكبيرة للسلطان ويسجلون ذلك في سجلات تسمى دفاتر ويحتفظ بها عند الدفتردار.

ان اقطاع الارض لم يكن يعني تملكيها، بل تفويض صاحبها حق جباية الاعشار والرسوم والضرائب المترتبة عليها. فكانت تبقى بايدي زراعها على ان يدفعوا الضرائب التي تفرض عليها الى التيمارجي والزعيم، او من يوكله لتسلمها.

تندرج تلك الأقطاعات تحت اسم (ديريلكات) جمع ديرلك بمعنى رزق . وتصنف إلى ثلاثة أنواع

(أ) التيمار : وهي مقاطعات زراعية يتصرف بايرادهاشخص يسمى (تيمارجي) ومساحتها تترأوح بين ٣٠٠ – ٥٠٠ فدان وتدر سنوياً دخلاً تراوح بين ٣٠٠٠ – ١٠,٠٠٠ اقجة .

(ب) زعامت : وكانت الخدمة الشخصية هي التي تؤهل البكوات والزعماء للحصول على اقطاع اكبر من التيمار ، ويسمى زعامت ، تزيد مساحته عن ٥٠٠ فدان ويدر دخلا يتراوح بين عشرة الاف اقجة إلى ١٠٠,٠٠٠ اقجة .

اما الأقطاعات الكبيرة التي يزيد واردها على ١٠٠,٠٠٠ اقجة فتسمى (خاصلر او خواصي أي خاص) وهي في الغالب تقطع للولاة وامراء السناجق وهناك في الولايات اراض خاصة للسلطان باسم (خواصي همايون) .

لعبت الخيالة (السباهية) التي تكونت بهذه الصورة ، في مختلف انحاء الدولة دوراً مهماً في حروب التوسع العثماني . وكان عدد فرسان التيمار أو الزعامت مثلا يزداد كلما اتسعت الدولة العثمانية . لذلك وصف الفرسان الاقطاعيون بانهم « القوة الجسيمة للدولة ». فقد بلغ عددهم ابان ازدهار هذا الاسلوب (٢٠٠,٠٠٠) خيال . ومما لاشك فيه ان اكثر الأنتصارات التي حققها العثمانيون يمكن أن تعزى إلى هذا الأسلوب الذي هيأ للدولة جيشاً كامل الأستعداد دائماً .

كانت الأقطاعات العسكرية تدخل ضمن الايالات . وتنقسم الايالات كما اشرنا إلى ذلك من قبل إلى سناجق ويضم كل سنجق عدداً من التيمارات والزعامات ويرأس الايالة حاكم يسمى بكلربكي بمعنى (بك البكوات) وهو برتبة ميرميران أي امير الأمراء ، ويعهد بشؤون السنجق إلى بك يسمى السنجق بكي بمعنى بك اللواء ويحمل رتبة ميرلوا اي امير اللواء .

لقد تألفت الدولة العثمانية في ايامها المبكرة من قسمين رئيسين هما

الاناضول (آسيا الصغرى) والروم ايلي اي بلاد الروم (البلقان) . وكان لكل قسم حاكم يدعى بكلر بكي ويحمل لقب باشا ، وكان بكلر بكي الروم ايلي ارفع مرتبة من زميله ، اذ حفل لواؤه بثلاثة من اذيال (اطواغ) الفرس، بينما حفل لواء زميله بطوغين اثنين فقط وكان يخصص لمنصب كل ايالة من الايالات ، وكل لواء من الالوية مقاطعة بدرجة (خاص) ويعد السنجق بكي آمراً ومرجعاً لجميع التيمارات والزعامات الداخلة في حدود لوائه . اما البكلر بكي ، فيأمر ويوجه الخيالة الذين يجهزهم امراء الالوية واصحاب التيمارات والزعامات التابعة لجميع الوية الايالة . ومن هذا يلحظ بان امراء الايالات والالوية يجمعون بين ايديهم السلطتين المدنية والعسكرية ، فكانوا بمثابة ولاة حكم وقواد جيش .

لم يعد لسلاح الفرسان بعد ذلك تلك المكانة التي كانت له، وتفوق عليه المشاة والمدفعية. كما ان الفارس الذي كان يعيش في بادىء الامر ضمن اقطاعه، صار يتركه في عهدة الملتزم في مقابل مبلغ من المال يدفعه الملتزم سنوياً له وبدأ بذلك نظام الالتزام الذي لم يقتصر على المجالات الاقطاعية العسكرية وانما شمل المجالات الأخرى. فشيخ العشيرة يلتزم ضرائب عشيرته، وقد يلتزم الملتزم اقليماً كاملاً بأسره كما كان رئيس الطائفة يلتزم الضرائب المفروضة على طائفته ومع ان هذا النظام خفف من اعباء الدولة في جمع الضرائب لكنه ادى إلى ظهور طبقة من الملتزمين يستغلون الناس ويحولون بينهم وبين الحكومة الامر الذي ادى إلى شيوع ظاهرة الظلم والاستغلال كما سنرى .

القوات الانكشارية :

اما النوع الثاني من القوات التي اعتمد عليها العثمانيون في ادارة عملياتهم التوسعية فهي القوات الانكشارية. وقد ظهرت الحاجة إلى هذا النوع من القوات بعد ان فقدت القوات الاقطاعية اهميتها وصار من الصعب

جداً الاعتماد عليها في اماكن بعيدة عن مواضيع اقطاعاتها. ومما ساعد العثمانيين على انشاء الجيش الجديد «يني جري» "Yeni Geri"، ثم طور بعدئذ ليكون الانكشارية Janissaries ، تلك الاعداد الكبيرة من الاسرى المسيحيين الذين حصلوا عليها خلال عمليات توسعهم في اوربا. فقد كانت العادة المتبعة هي تخصيص خمس الاسرى للدولة وتحويلهم إلى جنود يعملون في بناء الامبراطورية .

اختلف المؤرخون في تحديد الزمن الذي ظهرت فيه فرق الانكشارية. ونكاد نلتمس اثار نظرتين في هذا المجال ترجع اولاهما ذلك إلى زمن اورخان (١٣٢٦ ــ ١٣٥٩م) وتشير الثانية إلى عهد مراد الاول (١٣٥٩ ــ ١٣٨٩م) . ومهما تعددت الاراء في هذا المجال يمكن القول بأن اورخان هو صاحب فكرة تأسيس الجيش الانكشاري؛ بينما كان مراد الاول هو الذي وضع اسسه الراسخة وتنظيماته المعقدة القائمة على الطاعة المطلقة والانقياد التام للسلطان. بحيث لم يكن من الممكن ظهور مثل تلك القوة التي تعد من ابرز ما تميزت به الدولة العثمانية عسكرياً مرة واحدة وبمثل تلك الفترة الزمنية القصيرة .

لم يكن للجيش الانكشاري في القرن الرابع عشر تلك الاهمية التي اصبحت له فيما بعد ويعتقد كيبونز بان العامل الديني كان وراء انشاء هذا الجيش.اذ ان مسيحيي البلقان لم يعيشوا مثل مسيحيي الاناضول قروناً طويلة الى جوار المسلمين لهذا فقد ابتكر السلاطين العثمانيون طريقة جديدة لادخالهم في الدين الاسلامي وهي الطريقة التي تنص على اعتبارهم احراراً فيما اذا اعتنقوا الاسلام، ولكن هذه الطريقة لم تكن تطبق الا في حدود ضيقة، لهذا جاءت نتائجها محدودة. ومن هنا ظهرت الضرورة لتأسيس الجيش الانكشاري.

اما امتداد الدولة العثمانية في مناطق واسعة فقد اوجد [illegible] جديدة. وترتب على ذلك ضرورة ايجاد قوات اضافية لاقرار الامن وتثبيت

الادارة في هذه المناطق. ولهذا فقد طبق العثمانيون، في الفترة بين ١٤٣٠ – ١٤٣٨م في عهد السلطان مراد الثاني (١٤٢١–١٤٥١م) قانون التجنيد المسمى (الدوشرمة Deucherme) اى انتزاع الاطفال المسيحيين من اهلهم في مناطق الروم ايلي وفصلهم عن كل ما يذكرهم بابائهم واصلهم ودينهم وجيرانهم وتنشئتهم نشأة اسلامية وحملهم بعد ذلك على الانخراط في فرق الانكشارية او في الخدمة داخل القصور السلطانية .

كانت الدولة ترسل كل خمس سنوات لجاناً تطوف الروم ايلي لانتقاء الاطفال ممن تتراوح اعمارهم بين سن السابعة وسن العاشرة. وفي العاصمة استانبول يتحول الاولاد الى الاسلام وتجري لهم جراحة الختان ويتلقون دراسات في اللغة التركية والتاريخ الاسلامي العام والتاريخ العثماني، والنظم العثمانية وما الى ذلك وفق منهج يستهدف محو كل اثر من اثار اصولهم وعواطفهم المسيحية الاولى، فينشأون على التمسك بالدين الاسلامي والتعلق بالدولة العثمانية. وكانوا يتلقون تربية عسكرية صارمة. ثم يقسمون الى ثلاث مجموعات حسب لياقتهم البدنية وقدراتهم العقلية. اذ تعد المجموعة الاولى للعمل في وظائف الغلمان في القصور السلطانية وكانوا في العادة اجمل الاولاد شكلا ويطلق عليهم (ايج او غلان) اى غلمان البلاط. اما المجموعة الثانية فتعد لشغل الوظائف المدنية الكبرى في الدولة. وقد يصل بعضهم الى منصب الصدارة العظمى ويطلق عليهم مصطلح (اوج او غلان) . وينصرف افراد المجموعة الثالثة، وهي اكبر المجموعات، للدخول في السلك العسكري ضمن فيالق الانكشارية.

وقع الجيش الانكشاري تحت تأثير الطريقة البكتاشية ، وهي طريقة صوفية باطنية شاعت بين قبائل الاناضول منذ منتصف القرن الثالث عشر واصبحت هناك علاقة وثيقة بين الانكشارية والبكتاشية. ويقال ان حاجي بكتاش الذي تنتسب اليه البكتاشية وكان يسكن في قرية بالقرب من اماسيه التي تبعد عن انقرة (١٨٠ كم) بارك الجيش الانكشاري بوضع يده على رأس

احدهم بحيث غطى رأسه بكمه مخاطباً السلطان اورخان «فليكن اسم الجند الذي انشأته حديثا، يني جرى، واني ادعو للجيش الجديد بياض الوجه وقوة الذراع ونفاذ السيوف، وتسديد السهام، وليكن طالعهم في الحرب ميموناً، ونهاية قتالهم النصر». وارتباطاً بهذه المناسبة اصبحت قلانس الانكشارية بيضاء وشبيهة بقلنسوة حاجي بكتاش وجعلت لها اشرطة متدلية تقليداً لكمه الذي تدلى على رأس زميلهم. ورغم ان هذه الرواية اسطورية ذلك ان حاجي بكتاش قد توفي قبل قرن تقريباً من مجرد التفكير في انشاء الانكشارية، فانهم اتخذوه حامياً ورمزاً لهم واصبحوا يسمون انفسهم باولاد الحاج بكتاش وكان هناك في كل كتيبة عسكرية شيخ بكتاشي يسمى(بابا) يسكن مع الجنود لارشادهم وتعليمهم اداب الطريقة. وكان يتقدمهم عند السير نحو الحرب شاهرا سيفه، ومن هنا اصبح كل نصر يناله الانكشارية يعزى إلى ذلك الشيخ وبركاته. وليس من شك في ان هذا الارتباط ساعد إلى حد كبير على تقوية سمعة الجيش الانكشاري الذي اصبح في نهاية القرن الخامس عشر القوة العسكرية الضاربة للدولة العثمانية.

اعتاد السلاطين العثمانيون بعد احتلالهم الاقاليم تثبيت حامية من الانكشارية في مركز كل ولاية على ان تكون تلك الحامية دائمة وقد ترد من العاصمة احيانا قوات انكشارية جديدة لتحل محل الفرق القديمة . وتكلف القوات الانكشارية كذلك، سواء في العاصمة او في الولايات بوظيفة حماية الأمن وجمع الضرائب. وكان (اغا) الانكشارية وهو بمثابة القائد العام للحماية العسكرية العثمانية في الولاية عضواً في ديوان الولاية. وسلطة الوالي عليه محدودة .ويعد اوجاق الانكشارية من اقوى الاوجاقات واكثرها عدداً في الولاية. وقد عرف اوجاق الانكشارية بانه اوجاق السلطان ومهمته مساعدة الوالي في تنفيذ اوامر السلطان. وإلى جانب الحامية الانكشارية هناك السباهيون الذين اشرنا اليهم من قبل. ويحق للوالي كذلك تشكيل فرق محلية من الاهالي.

اخذ الجيش الانكشاري بالتدهور منذ عهد السلطان مراد الثالث

(١٥٧٤ – ١٥٩٦) حين سمح في سنة ١٥٨٢ بدخول عدد كبير من المجندين غير المدربين في صفوفهم، بالرغم من معارضة اغا الانكشارية. ويبدو ان مراد الثالث كان راغباً في افساد تنظيم الانكشارية بعد ان اصبحوا يلجأون إلى استخدام القوة للتدخل في شؤون الحكم والحصول على المكاسب المادية. كما استفادوا من ظروف الصراع الذي كان ينشب بين ابناء السلاطين المتنازعين على العرش ليفرضوا نفوذهم على السلطان. يضاف إلى ذلك انهم غادروا ثكناتهم ونزلوا إلى المجتمع وتزوجوا. وصار الكثير منهم يشتغل بالوان من النشاط التجاري والصناعي فارتبطوا بالمجتمع وبالتالي ضعف ارتباطهم بالدولة وقل ولاؤهم للسلطان. فنشأت منهم طبقة خاصة.

لقد لعب الانكشاريون دوراً خطيراً في تاريخ الولايات العثمانيةومنها العربية. اذ ساهموا في الفتن الداخلية وكثيراً مانشب القتال بينهم وبين القوات المحلية. واصبحت كتائبهم تثير الفوضى وتلح في طلب الهبات السخية والارزاق الوفيرة. وقد قاسى الاهالي منهم الكثير من العنف وضجوا بالشكوى من تعدياتهم وتزايدت اعباؤهم المالية، حتى انهم كانوا يبيعون تذاكر رواتبهم وتسمى (علوفات)، وصارت هذه التذاكر تنتقل بالوراثة، فكان ان دخل الجيش الانكشاري من لايتقن صنعة الجندية على الاطلاق. ففي اوائل القرن السادس عشر لم يكن عدد الانكشارية يزيد عن خمسة عشر الف جندي، بينما ارتفع العدد ثلاث مرات في القرن السابع عشر.

حاول بعض الولاة الاعتماد على القوات المحلية، الا ان الانكشارية ناصبوا تلك القوات العداء، لانها تهدد امتيازاتهم. وكان ذلك سبباً في وقوع بعض الحوادث الدامية في معظم مدن الدولة العثمانية. وتاريخ العراق والشام ومصر على سبيل المثال مليء بحوادثهم وظلمهم ورغبة الناس في التخلص منهم. ولقد كثرت مشاكلهم منذ نهاية القرن السابع عشر، فقد حاول بعض الولاة التخلص منهم ووضع حد لهم وانقاذ البلاد من شرورهم. واستطاع بعضهم، كما سنرى، تأسيس عصبيات حاكمة كما حدث في بغداد والموصل وطرابلس

وتونس. كما ان بعض القوى المحلية استأثرت بالحكم ومن هؤلاء آل معن في لبنان، وآل ظاهر العمر في فلسطين، وآل الجليلي في الموصل.

اما في العاصمة استانبول، فقد اصبح الانكشاريون يثيرون الفتن والمتاعب للسلاطين ويُبهضون الدولة بالنفقات وبدأت محاولاتهم المتكررة لفرض سيطرتهم التامة على العاصمة وفرض مطالبهم على السلاطين. فتحولوا إلى اداة هزيمة وتخريب واستمرت تمرداتهم خلال القرن الثامن عشر، وكان اخطرها تلك التي حدثت في عهد السلطان احمد الثالث (١٧٠٣ — ١٧٣٠م) حين تمكن الانكشارية في الثامن والعشرين من ايلول ١٧٠٣م من السيطرة على العاصمة وخلع السلطان واعدام الصدر الاعظم واثنين من معاونيه.

ان التدخل في شؤون الحكم جعل الجيش الانكشاري بعيداً عن ممارسة مهامه الرئيسة في حفظ حدود البلاد وحمايتها من الاخطار المحدقة بها وفي الوقت الذي كان فيه الانكشارية يعبثون بمقدرات السلاطين لحقت بالدولة العثمانية في المجال الخارجي، طوال القرن الثامن عشر، هزائم خطيرة امام الدول الاوربية، مما ادى إلى ظهور اتجاه جديد في الدولة يدعو إلى ايقاف التدهور، وهو الاتجاه المعروف بحركة الاصلاحات والتنظيمات العثمانية. ولقد كان من الطبيعي ان يستهدف الاصلاح في المقام الاول، التخلص من الجيش الانكشاري وانشاء جيش جديد يحل محله، ولم يتحقق ذلك الا في عهد السلطان محمود الثاني (١٨٠٨ — ١٨٣٩م) كما سنرى.

الوضع الاقتصادي والاجتماعي :

اشرنا فيما سبق إلى تبني الدولة العثمانية للنظام الاقطاعي منذ فترة مبكرة من قيامها. ولئن اختلف المؤرخون حول اصول النظام الاقطاعي وطبيعته فإن هناك اجماعا بينهم على ان من ابرز نتائج هذا النظام ظهور طبقة جديدة ارتبطت بالحكام العثمانيين سهلت عليهم احتلالهم وبقاءهم مدة طويلة

لقد كان الفرسان الاقطاعيون في بادىء الامر يعيشون في اقطاعاتهم ويتصرفون باعشار الارض الممنوحة لهم، الا ان هذا الاسلوب سرعان ما عاني من التدهور، فصار الوزراء وندماء السلطان والمقربون منه يغتصبون القرى ويوزعونها على اتباعهم. كما شاعت طريقة وقف الاراضي الاميرية، منذ عهد السلطان سليمان القانوني ، مما سبب نقص التيمارات والزعامات وانقراض اصحابها . وثمة عوامل أخرى كانت سبباً في تدهور الاسلوب الاقطاعي يتعلق بعضها بطبيعة هذا الاسلوب ويتعلق البعض الآخر بمحاولات الدولة زيادة ايراداتها من الضرائب. ففي المسألة الاولى قضت طبيعة هذا الاسلوب بقاء الفرسان دائماً لتحصيل الضرائب والرسوم من الفلاحين والحفاظ على الامن باعتبارهم سادة الريف ، وهكذا فإن قيام الحرب يعني تهديد النظام في الدولة العثمانية بسبب استنفار الفرسان للقتال في الجبهات المختلفة. وفي المسألة الثانية محاولة رستم باشا الصدر الاعظم في عهد السلطان سليمان القانوني ادخال اصول الالتزام بدعوى زيادة اموال الدولة، كما أن مقاضاة الملتزمين الجدد بدفع ريع الاراضي التابعة للسلطان «خواصى همايون» ادت بالضرورة إلى خراب هذه الاراضي ، لان هؤلاء الملتزمين كانوا يستغلون الفلاحين لتأمين منافعهم باستحصال الاموال التي دفعوها ، وبتحقيق ربح خاص لانفسهم. لذلك نلاحظ ان الالتزام ادى إلى تدهور الريف وهجرة الفلاحين إلى المدن فراراً من قسوة الملتزمين فتدهورت الزراعة وعم الاضطراب البلاد، ولم يحاول الولاة العثمانيون تطوير الاساليب الزراعية وتنظيم الري الا في القرن التاسع عشر كما سنرى .

لقد بلغ نظام الالتزام اوج تطوره في نهاية القرن السابع عشر عندما منحت الدولة الملتزمين حق الالتزام مدى الحياة . وكان من نتائج هذا الاسلوب خلق طبقة بين الدولة والاهالي تتولى جمع الضرائب والرسوم وفق عقود خاصة ترتب بعد اجراء المزايدة عليها بين الملتزمين . ويعزى عدم قيام الولاة انفسهم بهذه المهمة، وخاصة في الولايات التي تتصف

ببيئتها القبلية كالولايات العربية، إلى انها مهمة صعبة. تتطلب ارسال حملات عسكرية لمواجهة افراد العشائر لدى امتناعهم عن دفع الضرائب ويبدو ان الملتزمين كانوا ينجحون في الغالب بتدبير معين بينهم وبين شيوخ العشائر، يقتسم خلالها الشيوخ نصف ما يتقاضاه الملتزم من الفلاحين. وقد يلجأ الملتزم إلى الدولة لمساعدته في تحصيل الضرائب، فيعامل المدينين للملتزم كما كانوا مدينين للحكومة نفسها .

ظهرت بعض المحاولات لايقاف تداعي الأسلوب الاقطاعي وفساد نظام الالتزام، ولكنها جابهت مقاومة عنيفة من مختلف المنتفعين. وقد اعترفت الدولة العثمانية بسوء اسلوبها الاقتصادي هذا والفوضى الناجمة عنه ضمن وثيقة تاريخية متأخرة ورد فيها ان الالتزام لم يكن الا عبارة عن تسليم مصالح البلاد السياسية وامورها المالية لاحد الناس. وعلى كل حال، فقد تيسر للدولة العثمانية التخلص من الاسلوب الاقطاعي والغاء نظام الالتزام واناطة جباية الضرائب بالخزينة وقد جاء ذلك ضمن اصلاحات عامة شهدتها الدولة العثمانية في القرن التاسع عشر، كما سنرى.

الضرائـــب :

لم يكن للضرائب العثمانية نظام معين او حجم معين، بل كانت تفرض من الملتزمين اعتباطاً، ومع هذا فهناك من حيث الاساس النظري نوعان من الضرائب اولهما الضرائب الشرعية التي اقرها الفقهاء على مدى الازمنة ومنها الخراج والعشر والجزية، الا أن الولاة توسعوا كثيراً واجتهدوا في جبايتها بحيث اخرجوها عن طابعها الشرعي. وثانيهما الضرائب الديوانية التي كان يفرضها السلطان وقت الحاجة مستنداً الى سلطاته العرفية. وقد نظر الفقهاء الى هذه الضرائب نظرة استياء وعدوها غير شرعية، لكـــن احتجاجاتهم لم تسمع ؛ لان حاجة الدولة للمال كانت كبيرة. وهكذا فرضت ضرائب اضافية على الاشخاص والاراضي والتجارة والحيوانات والمنتجات

المختلفة كما كانت تجمع رسوما معينة تهدف الى تغطية اجور بعض الموظفين. هذا الى جانب فرض خدمات على بعض الافراد والجماعات مقابل اعفائهم من الضرائب الاضافية. وسمي مجموع هذه الضرائب : (العوارض الديوانية) لانها صدرت بقرار من الديوان، وكانت لاتفرض مبدئياً الا أثناء تعرض الدولة لضائقة مالية، ولكن يلاحظ انها كانت دائمة.

لم يتوقف الامر عند حدود الضرائب التي تفرض على الناس، بل كان السلب والنهب للمتاجر، ومحاصيل الفلاحين شيئاً طبيعياً يتم دائماً وفي اى وقت. لقد ادى الارهاق المضني الذي وقع على عاتق الشعب الى تدني القدرة الشرائية للناس، هذا بالاضافة الى ضعف الكفاية الانتاجية وبالتالي هبوط الصحة العامة للشعب كله، وانتشار الامراض والاوبئة وازدياد نسب الوفيات وانتشار الامية وارتفاع نسبتها.

اما جباية الضرائب فيتم بطرق متعددة. ففي الطريقة الاولى يقسم السلطان الاقضية في السناجق الى مايسمى (عوارض خانة) ويفرض على كل منها نسبة معينة مما فرض على مجموع القضاء. وينظر السلطان عند تقدير هذه النسب الى حالة كل قضاء وسكانه وموارده. وقد صنف الافراد على هذا الاساس في طبقات ثلاث: الغني والمتوسط والفقير، ولقد كان هذا التنظيم مرناً واذا تناقص وارد اقليم ما لسبب من الاسباب (قحط او جفاف او حالة حرب) فان بيوتات الضرائب الاخرى في الاقضية تمد نفسها لتسد العجز. اما الطريقة الثانية التي تجمع بها الضرائب الديوانية فهي ان يقوم افراد بعض بيوتات الضرائب السالفة الذكر بتقديم خدمات معينة مقابل تلك الضرائب. وكان معظم تلك الخدمات من النوع الذي يقدم للجيش في حالة الحرب. وقد تكون مدنية مثل حراسة محطات القوافل، او تأمين حركة البريد. والطريقة الثالثة التي كان بيت المال يستفيد بها من الضرائب الديوانية فهي السماح للموظفين بجباية الرسوم من الافراد مقابل الخدمات التي يقدمونها لهم وكانت تذهب مباشرة لجيوبهم، ومثل ذلك السماح للقضاة باخذ رسوم

معينة من الاشخاص مقابل اعطائهم وثائق شرعية، مثل وثائق الزواج غير ان هذا النظام في الضرائب كان يختلف من ولاية الى اخرى، بل ومن سنجق الى آخر. ومما يلحظ ان الضرائب في العهد العثماني قد لازمت كل نمط من انماط الحياة الاقتصادية. ولكن لابد من الاشارة إلى ان هذه الضرائب كانت تختلف بالصفة والاسم من مكان إلى اخر بحسب الاختلاف في المنتوجات المحلية، وفي العادات والتقاليد، وبخاصة منها الضرائب على التجارة. ومن ابرزها ضريبة (الباج) وتدفع على بيع اية سلعة حملت إلى السوق من الاقليم المجاور. وتختلف كمية الضريبة بحسب طبيعة البضاعة ونوعها، ولذا فانها قد ثبتت بتعرفة خاصة ومفصلة. وتؤخذ هذه الضريبة من البائع، ولايشترك المشتري معه فيها الا عند دفع (رسم القبان) ويكمل ضريبة (الباج) مايسمى (ضريبة الدمغة) وتؤخذ من الصناع على ماينتجون من صناعات، ومن الرسوم المقررة على التجارة كذلك العائدات المسماة جمركاً وتفرض على السلع والبضائع المستوردة والمصدرة على حد سواء. وتؤخذ ضريبة الجمرك على اساس مئوي من سعر البيع المحلي احياناً، او بحسب وزن البضاعة او حجمها او نوعية تغليفها (علبة او باله). وثمة رسوم جمرك خاصة بالاوربيين الاجانب، وقد حدد هذا الرسم في الاتفاقات التجارية بين الدولة العثمانية والدول الاوربية بـ ٥٪ مبدئياً الا انه انقص إلى ٣٪ عندما وقع الانكليز اتفاقهم التجاري مع الدولة العثمانية سنة ١٥٩٩م.

ولقد شاعت في الولايات العثمانية اصناف اخرى من الضرائب منها فرضت على المزروعات والبساتين والعقارات والمراعي والمواشي والاسكلات (محطات رسو السفن) والمعادن ومنتجات البادية ودفن الموتى والاغنام (الكوده) هذا بالاضافة إلى الضرائب التي كانت تفرض على الاسواق واصحاب الحرف فيها، فكان البقالون والعطارون والقصابون والخبازون يدفعون ما يسمى بـ(ضريبة المهنة). وفي دمشق وحدها قدر عدد الرسوم والضرائب في مطلع العهد العثماني بـ(٩٧) رسما وضريبة.

وعلى اية حال، فالضرائب العثمانية تعددت واختلفت طرق تحصيلها وتنوعت مقاديرها بين سلعة وسلعة وولاية وولاية الامر الذي ادى إلى تذمر الناس من الضرائب والامتناع عن دفعها. ولقد جرت محاولة لتنظيم الضرائب لما لها من اهمية كبرى في بناء الكيان المالي للدولة العثمانية في عهد السلطان سليمان القانوني وذلك في ماسمي بـ(القانون نامة) الا ان تلك المحاولة استهدفت مصلحة الدولة العثمانية بالدرجة الاولى لذلك سيطر الفساد على النظام المالي واصبح المواطن يتحمل افدح الاعباء. وافتقر المشرفون على الاعمال المالية من الموظفين والملتزمين وغيرهم إلى الامانة والنزاهة، فأثروا وحازوا على الاموال والعقارات على حساب السكان.

التجـــارة :

اما التجارة، فقد كانت على نطاق ضيق وذلك لتأخر وسائل النقل والمواصلات وانعدام الأمن في الطرقات التي تسير فيها القوافل. وقد حاولت الدولة العثمانية القضاء على غزوات قطاع الطرق فعملت على انشاء الحصون وترميم الموجود منها على طرق القوافل التجارية وطرق الحج، ولكنها لم تستطع حماية الطرق بشكل كاف. وقد تضافرت هذه العوامل مع عدم الاستقرار السياسي وفقر الشعب العام وانخفاض مستواه المعاشي لتضعف من التجارة وتضيق مساحتها يضاف الى ذلك اهمال الحكام للموانيء العربية، والضرائب العديد المفروضة على مختلف البضائع والخانات والاسواق. اما التجارة الاجنبية ، فلم تتضرر التجارة الداخلية ، والسبب في ذلك المعاهـــدات التي عقدتها الدولة العثمانية مع الدول الاوربية منذ اوائل القرن السادس عشر معطية للاجانب الامتيازات التجارية Capitalation . واولى هذه المعاهدات تلك التي وقعت في النصف الاول من القرن السادس عشر بين السلطان سليمان القانوني والملك فرانسوا الاول ملك فرنسا . ولقد وضعت تلك الاتفاقات التجارة الخارجية في ايدي الجاليات الاجنبية التي حطت رحالها في مختلف المدن والموانيء العربية. وقد عاش التجار الاجانب الاوربيون في المدن العربية

في خانات خاصة وتحت اشراف قناصلهم. وقد افسحت تلك التسهيلات المجال لتدفق اعداد كبيرة من التجار الاجانب الى الولايات العربية. وبمرور الزمن وخاصة بعد ان ضعفت الدولة العثمانية في القرن التاسع عشر، ظهر الأثر السيء لتلك المعاهدات فقد زادت سلطات القناصل على رعاياهم واصبح لهم حق المحاكمة وفق قوانينهم وتطور الامر بعد ذلك الى ظهور محاكم خاصة بهم عرفت بالمحاكم القنصلية. وسرعان ما انضوى تحت حماية القناصل الاجانب عدد من رعايا الدولة العثمانية، ممن يسعى للاستفادة من تلك الامتيازات وبخاصة اليهود، وفعلاً سمح في القرون التالية للقناصل باصدار «براءات» تعطي لبعض من يعمل مع التجار الاجانب من الرعايا العثمانيين حق التمتع بما يتمتع به هؤلاء التجار. وقد ساعد ذلك اليهود على امتلاك زمام التعامل المالي في الدولة العثمانية، لانهم كانوا حلقة الوصل بين التجار العثمانيين والاجانب فتكونت بذلك جماعة رأسمالية داخل الولايات العثمانية وفي العاصمة، تضم اعداد كبيرة من التجار اليهود الذين لجاؤا الى الاساليب الملتوية للسيطرة على كبار رجال الدولة مثل الرشوة والمؤامرات وهي اساليب نخرت في عظام الدولة وكانت سبباً من اسباب تدهور الاقتصاد العثماني.

لقد كان من ابرز نتائج الاتفاقيات التجارية التي عقدت بين الدولة العثمانية والدول الاوربية تدفق رؤوس الاموال والشركات والبضائع الاجنبية على الولايات العربية. ولم تستطع البضائع المحلية والانتاج الحرفي العثماني الوقوف بوجه المنافسة الاوربية، على الرغم من الدور الذي لعبته الاصناف والطوائف الحرفية في الدولة العثمانية للحفاظ على مستوى الانتاج.

لم يستطع العثمانيون فهم الدور التاريخي للشعب العربي، ولا مركز الوطن العربي الستراتيجي والحضاري. فقد عزلوا الولايات العربية عن كل نشاط سياسي وقضوا على حيوية المجتمع العربي وحرموا العرب من اية سمة قيادية، وحولوا الوطن العربي إلى ولايات تابعة إلى مركز واحد هو

استانبول، ان الحكم العثماني للمجتمع العربي تميز بالسطحية وعدم القدرة على التغلغل والغوص في اعماق حياة السكان. بل وقف بوجه كل محاولة ترمي إلى اعادة الحيوية والنشاط للاقطار العربية تجارياً وثقافياً. كما مارس العثمانيون سياسة افقار شديدة. وكانوا يرون ان من ابرز واجبات ادارتهم تثبيت السلطة وجباية الضرائب من غير ان تقدم الدولة للمواطن اية خدمات، فلم تول الدولة العثمانية طيلة القرون الثلاثة الاولى من الحكم العثماني وحتى القرن التاسع عشر التعليم اهتماماً يذكر وظلت انظمة التعليم لا تقوم على اكتساب معلومات جديدة، وانما تقتصر على اتقان المعلومات التي ورثها الخلف عن السلف. هذا فضلا عن ان التعليم في العهد العثماني لم يكن يلائم الحاجات الملحة او مقتضيات التطور. لذلك فقد رانت على الولايات العربية غاشية الركود والجمود، وسادت نزعة وصفات الضعف والرتابة والسذاجة والركاكة والانغلاق.

لقد ظل المجتمع العربي منذ السيطرة العثمانية لا يعني كثيراً بما يجرى في العالم، ولم تكن لديه الرغبة في التأثر او التأثير. وظل الانسان العربي مغلقاً على نفسه داخل الدولة العثمانية. كما احتفظ كثير من مناطق الدولة العثمانية، مثل الموصل وبغداد وشمال العراق وفلسطين ومنطقة جبل لبنان ومختلف امارات الجزيرة العربية بتنظيماته القبلية والاقطاعية مما ادى إلى تقوية نزعته إلى الاستقلال كما سنرى.

ان اهمال العثمانيين وتقصيرهم اسهم في مساعدة الاوربيين على الانقضاض على الوطن العربي، خاصة وان اوربا كانت تعيش المرحلة الثانية من ظهور الاستعمار، وهي المرحلة الصناعية التي اعقبت الازدهار التجاري نتيجة الاستكشافات الجغرافية وتحول المجتمع الاوربي الاقطاعي إلى مجتمع صناعي تجاري. وفي هذه المرحلة التي امتدت من اواخر القرن الثامن عشر إلى اواخر القرن التاسع عشر، اخذ الاوربيون يتطلعون إلى السيطرة والاستغلال ويبحثون عن المستعمرات لتكون مصدراً للمواد الاولية

وسوقاً لبضائعهم المصنعة ولما كان الوطن العربي يزخر بالثروات فلقد اصبح محط انظار الدول الاستعمارية .

الدولة العثمانية والقوى المحلية في الولايات العربية :

اشرنا فيما سبق إلى طبيعة نظام الحكم العثماني، وذكرنا ان بعض الزعامات المحلية استأثرت منذ النصف الثاني في القرن السادس عشر على الاقل بالحكم واقامت اسر حاكمة او عصبيات محلية وطنية. ولعل من ابرز القوى التي ظهرت في الولايات العربية: المماليك في بغداد، والجليليون في الموصل، والمماليك في مصر وآل ظاهر العمر في فلسطين وآل معن في لبنان وآل العظم في دمشق وآل القرمنلي في طرابلس الغرب والاسرة الحسينية في تونس. وقد قامت بين القوى المحلية في الولايات العربية والدولة العثمانية علاقات تراوحت بين الاستقلال الفعلي في مكان واقامة شيء من التوازن بين الحكومة المركزية في استانبول والحكومات المحلية في مكان آخر. ومما يلحظ ان لضعف سلطة السلطان في المركز وانحلال عساكر الانكشارية وعجزها وضعف ارتباطها بالثكنات العسكرية واعتماد بعض الولاة على التكوينات العسكرية المحلية دوراً كبيراً في قيام هذه الظاهرة العامة في تاريخ الوطن العربي ابان السيطرة العثمانية. وسنحاول في الصفحات التالية متابعة التطورات السياسية في بعض الولايات العربية التي حققت نوعاً من الاستقلال عن الدولة العثمانية بين القرن السادس عشر والقرن التاسع عشر .

١ ـ المماليك في بغداد :

لم تترسخ السيطرة العثمانية في اعقاب الاحتلال العثماني الاول للعراق سنة ١٥٣٤م وذلك لتجدد واستمرار الاطماع التوسعية الايرانية. فقد استطاع الايرانيون استغلال العصيان المسلح الذي قام به بكر صوباشي احد ضباط الحامية الانكشارية في بغداد سنة ١٦٢٣م فاعادوا احتلال العراق مرة ثانية سنة ١٦٢٣م .

ان هذا الاحتلال الذي استمر قرابة (١٥) سنة واجه مقاومة عنيفة من العراقيين الذي شعروا بالقهر والظلم وقد اتخذت المقاومة اشكالاً واساليب مختلفة ولم يكن مرد هذه المقاومة الولاء العراقي للحكم العثماني، بقدر ماكان تعبيراً عن الشعور الوطني للعراقيين ضمن الاطار العثماني اولاً، ولان هذا الاحتلال يعبر في جانب منه عن العداء التاريخي الفارسي للعرب .

بالرغم من اوضاع الضعف والتدهور التي كانت تعيشها الدولة العثمانية خلال الفترة الممتدة من سنة ١٥٧٤ – ١٦٣٢م، وذلك بسبب انغماس السلطان مراد الثالث(١٥٧٤ – ١٥٩٥) في حياة الحريم وخضوعه لاحدى زوجاته ، وهي بافو Baffo من نبيلات البندقية من جهة ، ومحاولات الانكشارية التلاعب بمقدرات السلطنة والتدخل في اختيار السلاطين من جهة اخرى ، فان الدولة العثمانية وضعت مسألة طرد الايرانيين من بغداد في مقدمة اهتماماتها . فقد ارسلت حملتين عسكريتين الاولى في سنة ١٦٢٥م والثانية في سنة ١٦٢٩م الا انهما فشلتا لان مساوىء الباب العالي انعكست عليهما اولاً ولافتقار قياداتهما إلى الصرامة والضبط العسكري. لذلك بدأت الاستعدادات للحملة الثالثة التي قادها السلطان مراد الرابع (١٦٢٣ – ١٦٤٠)م بنفسه واستطاع في ٢٥ كانون الاول ١٦٣٨م دخول بغداد ووضع نهاية ابدية للسيطرة الفارسية على العراق بعد عقد معاهدة زهاب الحدودية مع ايران في ١٧ أيار ١٦٣٩م والتي تعد اول محاولة لتخطيط الحدود بين الدولتين على اساس عود المناطق والمدن لكل منها اي على شكل مناطق حدود. واتخذت هذه المعاهدة اساساً استندت عليه المعاهدات التالية كما سنرى .

لقد كانت مشاركة العراقيين في الحرب ضد ايران واضحة، فعندما زحفت الحملة الاولى مثلاً ، ساهمت (٢٩) قرية في شهرزور وحدها في القتال . كما اشتركت قبائل عربية في القتال وتزويد الجيش العثماني بالرجال والمؤن . فمعلك ابو ريشة شيخ عرب الجزيرة قدم لحملة مراد الرابع عشرة الاف بعير وهي عبارة عن مؤن وصفها المؤرخون «بانها عظيمة» .

لم يعقب الانتصار العسكري العثماني اي اصلاح لاوضاع العراق الاقتصادية والاجتماعية المتدهورة . وظلت الامور على ما كانت عليه من الاضطرابات العشائرية والتمردات الانكشارية والازمات الاقتصادية واستمرار الاطماع الايرانية. لذلك اصبح الولاة يفكرون في الاعتماد على قوات محلية لمواجهة تمردات العشائر الانكشارية ، فكلفهم ذلك كثيراً . واضطر بعضهم في سبيل جمع المال إلى رفع قيمة الضريبة والتلاعب في النقد. وفرض ضرائب جديدة ومع ذلك لم يستطع الولاة السيطرة على العراق. وزادت حالة الفوضى وعدم الاستقرار حتى ان افراسياب وكان كاتباً من كتاب الجند في البصرة استطاع في سنة ١٥٩٦م ان يشتري حكم البصرة من واليها العثماني، ويؤسس فيها اسرة حاكمة امتدت إلى سنة ١٦٦٢م فالقى بذلك على كاهل والي بغداد مهمة استعادتها كما اصبح من واجب باشا بغداد اخماد الحركات العشائرية التي نشبت في شمال العراق وجنوبه .

حقاً كان العراق في حاجة إلى وال قوي يستقر فيه ليضع خطة معينة لمعالجة مشكلاته وانقاذه من التدهور الذي اصبح يعانيه خلال النصف الاخير من القرن السابع عشر .وقد تيسر للعراق مثل هذا الحاكم ، اذ صادف ان تولى حكم بغداد سنة ١٧٠٤ حسن باشا ، وكان من الولاة القديرين الذين عملوا في ولايـــات حلب واورفه وقونيه وديـــار بكر قبل تعيينه والياً على بغداد .وبتعيين حسن باشا يبدأ عهد جديد في تاريخ العراق الحديث ، لما لهذا الوالي من دور واضح في تأسيس اسرة حاكمة في العراق عرفت بحكومة المماليك (الكوله مند)قدر لها ان تصل الى السلطة في سنة ١٧٤٩م وتستأثر بالحكم حتى سنة ١٨٣١م. فكيف تأسست هذه الاسرة الحاكمة وما علاقتها بالدولة العثمانية ؟

ادت الحروب مع ايران ، ومشكلات العراق العشائرية وتمردات الانكشارية الى اهتمام حسن باشا الذي حكم العراق بين سنتي ١٧٠٤ — ١٧٢٣م، وابنه احمد من بعده ، بتكوين قوة عسكرية جديدة بعد ان فسدت

القوات الانكشارية وصارت عبئاً على السكان والبلاد . وقد شكل حسن باشا هذه الزمرة من المماليك الذين كانوا يجلبون من تفليس والقوقاز . ونظراً لانحلال قوى الانكشارية لأن هؤلاء المماليك كانوا يربون تربية عسكرية وادارية فانهم اصبحوا قادرين على حكم البلاد . وقد تسلم أحدهم وهو سليمان ابو ليله ولاية بغداد بعد وفاة احمد باشا بن حسن باشا سنة ١٧٤٧ .

استطاع سليمان ابو ليلة ترسيخ سيطرة المماليك على الحكم في العراق . وقد ساعده على ذلك ان الاهالي كانوا يرون ان المماليك اقرب اليهم من الاتراك ، حيث انهم كانوا يعيشون بينهم ، ولم يكونوا كولاة الاتراك غرباء عن اهل البلاد . اما عهد خليفته عمر باشا ، فقد تميز بظاهرتين : الاولى غزو ايران للعراق (١٧٧٥ – ١٧٧٦م).والثانية وضوح المصالح البريطانية في العراق . وقد حاول الباب العالي استغلال هاتين الظاهرتين للتخلص من المماليك ، ولكن دون جدوى .

لقد اشتهر سليمان باشا بـ(الكبير) بسبب جهوده المضنية في الدفاع عن البصرة ضد العدوان الايراني حين كان متسلماً لها وكذلك لمحاولاته تحقيق الاستقرار والقضاء على تمردات عشائر الجنوب وهجمات الوهابيين التي حدثت خلال سني حكمه الطويلة وقد حظي سليمان باشا الكبير بتأييد العراقيين . وبالنظر لانه كان مخلصاً في الحفاظ على روابط العراق بالدولة العثمانية فقد تخلت الدولة مؤقتاً في عهد هذا الوالي عن محاولاتها لاقصاء المماليك عن الحكم . الا ان سياسة الباب العالي سرعان ما تغيرت ازاء مماليك العراق بعد وفاة سليمان باشا الكبير.ويرجع ذلك التغير الى ارتفاع مكانة العراق الدولية واثر ذلك في التطورات السياسية في استانبول. اذ ان سليمان باشا الصغير(١٨٠٨– ١٨١٠م) كان على علاقة قوية بالفرنسيين لذلك حظي بدعم السفير الفرنسي في استانبول الجنرال سباستياني Sebastiani (عين سفيراًفي٢ آيار١٨٠٦). ومما يلاحظ

ان النفوذ الفرنسي في الدولة العثمانية قد اقترب من ذروته في اعقاب صلح اميان بين بريطانيا وفرنسا سنة ١٨٠٢م وانتصار نابليون على الحلف الاوربي في معركة اوسترلتز وغيرها لذلك انحاز السلطان العثماني الى جنب نابليون وعقد معه حلفاً ضد انكلترا وروسيا. ولكن العلاقات تدهورت بعد ذلك بين السلطان محمود الثاني (١٨٠٨ - ١٨٣٩م) ونابليون بسبب معاهدة تلست التي بدا فيها واضحاً ان نابليون تخلى عن الشرق الادنى الغربي لمطامع روسيا. وقد ادى ذلك الى عزل الوالي سليمان باشا الصغير سنة ١٨١٠م. وقد استفادت بريطانيا من تلك الظروف، فبدأت تعمل للقضاء على النفوذ الفرنسي في العراق واتخاذ الاجراءات المناسبة لتقوية نفوذها لذلك عينت في بغداد مقيماً جديداً شديد الطموح وهو كلوديوس جيمس ريتش Clouduis James Ruch ليخلف المقيم هارفورد جونز بريدجس Harford Jones Brydges سنة ١٨٠٨. وكان ريتش على اتصال وثيق بالسفير البريطاني في استانبول. ويبدو ان هذا السفير بما كان يمثله من ارجحية لدى الباب العالي لعب دوراً كبيراً في عزل سليمان باشا الصغير، اذ لم يكن من مصلحة الانكليز بقاء باشا موال للفرنسيين في بغداد.

لقد ادى خلع سليمان باشا الصغير الى ظهور الانقسام الشديد بين المماليك انفسهم. ولقد استطاع احدهم وهو داؤد باشا من الوصول الى الحكم بعد سلسلة من الصراعات والمؤامرات ضد منافسيه.. لقد ورث داؤد باشا ١٨١٧ - ١٨٣١م مشكلات كبيرة: لعل من ابرزها التمردات العشائرية وتزايد النفوذ البريطاني في العراق. كما واجه غزواً فارسياً للعراق بين سنتي ١٨٢٠ - ١٨٢٢م. وبعد ان تمكن داؤد من اخضاع العشائر الثائرة ومنها عشائر بني تميم والدليم وشمر الجرباء، انصرف لمعالجة الخطر الايراني الذي بدأ يقترب من العراق حين اخذ الجيش الايراني يتحرك من كرمنشاه نحو العراق. وقد استطاع داؤد باشا بالطرق الدبلوماسية عقد معاهدة ارضروم الاولى مع ايران في ٢٨ تموز سنة ١٨٢٣ والتي اعادت تأكيد الخطوط العامة

لمعاهدة زهاب واهم ما تمخضت عنه هذه المعاهدة هو الاحتفاظ بالوضع القائم على الحدود العثمانية – الايرانية ، وامساك كل طرف من التدخل في الشؤون الداخلية للطرف الآخر . كما تعهدت الحكومة الايرانية باعادة جميع ما استولت عليه من قلاع واراضي وقرى ومدن عراقية خلال شهرين .

ومما يلحظ ان هذه المعاهدة لم ترسم الحدود بدقة علمية ، ولم تضع طريقة مفصلة لحدود الدولتين فكان طبيعياً ان يعود الصراع ثانية ، وتتجدد قضية الحدود مع ايران وتصبح من المشكلات المعقدة التي واجهها العراق الحديث .

واجه داؤد باشا نفوذاً بريطانياً متزايد في بغداد اواخر سني حكمه. فقد اصطدم بالمقيم السياسي البريطاني (ريتش) الذي كان يعمل لادخال العراق ضمن منطقة النفوذ البريطانية ، وذلك بعد انفراد بريطانيا بالسيادة في الخليج العربي في اعقاب حملتها البحرية على المشيخات العربية في ساحل الصلح ومسقط في سنة ١٨٠٩م ثم في ١٨١٩م وفرضها المعاهدات المعروفة مع البحرين ومسقط والمشيخات المذكورة . وفوق ذلك فاهمية العراق كعقدة مواصلات بدأت تتضح منذ قيام الفرنسيين بغزو مصر سنة ١٧٩٨.

لقد سعى المقيم السياسي البريطاني إلى خلق صراع مع الوالي داؤد باشا ومن ذلك تحريض الناس ضده ، وعقد صلات وثيقة ببعض التجار والوجهاء وتحريض محمود بابان حاكم السليمانية على الانفصال . وسرعان ما تطورت الأمور الى صراع مسلح وحصار للمقيمية البريطانية بعد ان قرر داؤد باشا زيادة نسبة الرسوم الجمركية المفروضة على البضائع الأنكليزية من ٣٪ إلى ١١٪ فاعترض ريتش على هذا الاجراء الذي يتنافى مع ما قررته معاهدات الأمتيازات التي عقدتها الدولة العثمانية مع الدول الأوربية

اضطر داؤد باشا إلى طرد ريتش من بغداد ، لكن ردود الفعل البريطانية على ذلك كانت قوية . اذ اوقفت الحكومة البريطانية التجارة مع العراق مما كبده خسائر فادحة وقد كانت التجارة الهندية البريطانية أهم ممول لخزانة بغداد . وازاء ذلك تراجع داؤد باشا ووقع على اتفاقية وصفها المؤرخون

بانها اكدت نفوذ الانكليز في العراق وحافظت على امتيازاتهم الأقتصادية. وتنص تلك الأتفاقية على التزام باشا بغداد بكل الفرمانات والاتفاقيات المعقودة بين بريطانيا والدولة العثمانية وتحديد الرسوم الكمركية بـ ٣٪ فقط وعدم فرض أية رسوم جديدة . كما وطد داؤد باشا علاقته بالمقيم السياسي البريطاني الجديد المستر تايلور R.Taylor ومما ساعد على هذا التقارب التفوق البريطاني على فرنسا في ميدان التنافس الدولي في مجال خطوط المواصلات العالمية وعناية الأنكليز ، بشكل خاص ، بطريق العراق وظهور فكرة شق قناة مائية بين دجلة والفرات لربط النهرين واستخدامها في الملاحة التجارية . ولكن الظروف لم تسمح لداؤد باشا في تنفيذ هذا المشروع بالتعاون مع الأنكليز اذ أن السلطان محمود الثاني ، قرر القضاء على حكم المماليك في العراق ضمن اطار سياسته المركزية القائمة على اعادة الحكم المباشر إلى ولايات الدولة العثمانية . وقد تحقق ذلك في ١٤ أيلول ١٨٣١م وبذلك بدأت مرحلة جديدة في تاريخ العراق الحديث .

٢ ـ الجليليـون في الموصل :

أما في الموصل ، فقد استطاعت اسرة آل عبد الجليل العربية المعروفة بالنفوذ والثراء الواسع السيطرة على مقدرات المدينة ، بعد أن قدمت للعثمانيين خدمات جلى ابان حروبهم المتعددة مع الأيرانيين وقد تميزت ولاية الموصل خلال فترة حكم الجليليين الممتدة من ١٧٢٦ م إلى ١٨٣٤ م بشخصية محلية واضحة المعالم ثقافياً واجتماعياً وعمرانياً وسياسياً واقتصادياً . وبرز من حكامها ولاة عديدون لعل من ابرزهم الحاج حسيـن باشا الجليلي (١٧٣٠ ـ ١٧٥٧)م الذي قاد حركة المقاومة الباسلة ابان تعرض الموصل لحصار نادر شاه (١٧٣٦ ـ ١٧٤٧)م لها سنة ١٧٤٣ م . وكان لنجاح الحكم الجليلي في دفع الخطر الأيراني والحيلولة دون امتداده نحو الشام والاناضول أثر كبير في تقوية مركز الأسرة الجليلية لدى الباب العالي من جهة والتفاف الموصليين حولها من جهة اخرى .



واجهت الأسرة الجليلية ظروف الأنقسام والتنافس بين افرادها بعد وفاة الحاج حسين باشا الجليلي . وقد أدى الأنقسام في بعض الأحيان إلى أن تشهد شوارع الموصل ازيز الرصاص ودوى القنابل . ومع ذلك فقد حافظت الأسرة الجليلية على سمعتها في استنابول نتيجة لاستمرارها في الوفاء بالتزاماتها المالية للباب العالي من جهة ، واستعدادها للمساهمة في الحملات العثمانية الموجهة لاخماد انتفاضات العشائر العربية والكردية من جهة أخرى .

لقد حاول بعض الولاة المماليك في بغداد التدخل في شؤون الموصل وفرض سيطرتهم عليها ، وابعاد الجليليين عنها الا أنهم فشلوا في ذلك وفي الوقت نفسه ، فقد تعاون الجليليون مع حكام السليمانية من آل بابان ضد محاولات ولاة بغداد التدخل في شؤونهما خلال السنوات الممتدة من ١٨١٠ وحتى ١٨١٣م وعندما تولى داؤد باشا حكم المماليك في بغداد سنة ١٨١٧م، اصبح لمماليك بغداد نفوذ قوي في الموصل بعد الثورة الشعبية التي نشبت ضد الجليليين في سنة ١٨٢٦م وقادها العمريون بسبب احتكار الوالي يحيى باشا الجليلي للحنطة وخزنها وبيعها باسعار باهطة للناس . الأمر الذي جعل المدينة تعاني من ضيق اقتصادي شديد . وقد نجح الثوار في طرد يحيى باشا الجليلي الا أن ذلك لم يدم طويلاً اذ عاد يحيى باشا الجليلي إلى حكم الموصل بقوة سلاح داؤد باشا ولم يرض الموصليون عن ذلك، اذ ثاروا ثانية سنة ١٨٢٨ م وتزعم قاسم العمري الثورة ضد الجليليين وقد كتب الثوار إلى الباب العالي يلتمسون منه المصادقة على تولية قاسم العمري حكم الموصل فوافق الباب العالي على ذلك وصدر الفرمان السلطاني بتوجيه ولاية الموصل اليه ولكن داؤد باشا لم يكن مقتنعاً بهذا التعيين بيد انه اضطر إلى القبول بالأمر الواقع . ولا شك ان تولية قاسم العمري كانت من الخطوات الأولى التي اتخذها السلطان محمود الثاني للقضاء على العصبيات والاسر الحاكمة والعمل على تطبيق النظام المركزي المباشر . وحين قرر السلطان

القضاء على الحكم المملوكي ، استعان بقاسم باشا العمري ، الذي زحف على رأس طليعة من الجيش العثماني نحو بغداد ولمساعدة القائد علي رضا باشا في خلع داؤد باشا . وخلال عملية اقتحام المدينة ، لقي قاسم العمري مصرعه .

حاول يحيى باشا الجليلي ، وكان منفياً في حلب منذ سنة ١٨٢٨ م العودة إلى حكم الموصل بعد أن سمع بمصرع قاسم العمري . فتحالف مع صفوك شيخ عشائر شمر الجربا والف قوة عشائرية قوامها اربعة الاف مقاتل واحتل بهم الموصل سنة ١٨٣٢م . وقيل أنه استولى عليها بأمر من ابراهيم باشا بن محمد علي باشا والي مصر الذي كان يعمل على ضم العراق والشام لمصر وتكوين دولة عربية موحدة . الا ان علي رضا باشا ، تحرك سريعاً وكلف القائد العثماني محمد اينجة بيرقدار بمهمة اعادة السيطرة العثمانية المباشرة على الموصل والقضاء نهائياً على الأسرة الجليلية . كما حرض عشائر عنزة للعمل ضد التحالف بين يحيى باشا الجليلي والشيخ صفوك . وبسهولة كبيرة استطاع محمد اينجة بيرقدار من دخول الموصل والقبض على يحيى باشا الجليلي وارساله إلى استانبول . ومما ساعد بيرقدار على تحقيق مهمته، ان اسرة آل عبد الجليل فقدت شعبيتها في المدينة ولم يعد الاهالي يرغبون في استمرارها في الحكم . كما ان الجيش المصري في الشام لم يكن متفرغاً لجبهة العراق انذاك وانما كان مشغولاً بالتقدم نحو الاناضول كما سنرى.

اسندت ولاية الموصل إلى رجل موصلي ، هو محمد سعيد آل ياسين. ويبدو ان علي رضا باشا ادرك ان اسناد الحكم إلى باشا تركي قد يثير هناك متاعب عديدة إذ اعتاد الاهالي منذ زمن طويل على أن يكون حاكمهم من بينهم . هذا بالاضافة إلى ان اختيار حاكم من اسرة آل ياسين يحول دون الصدام بين الأسرتين الجليلية والعمرية اللتين تنافستا ، كما سبق ان قدمنا، على الحكم . ولكن محمد سعيد كـان حاكمـاً ضعيفـاً . وتجلى ضعفه في عدم قدرته على وقف توسع محمد بك ميركور حاكم راوندوز . لذلك

صدر في سنة ١٨٣٥م فرمان سلطاني بتعيين محمد اينجة بيرقدار والياً على الموصل وكلف كذلك بمهمة اعادة الحكم العثماني المباشر إلى المنطقة الكردية والقضاء على الامارات المستقلة فيها .

يعد محمد اينجة بيرقدار ، اول من عمل على تطبيق نظام التجنيد الاجباري والتدريب الحديث في الموصل طبقاً لسياسة السلطان محمود الثاني . وكان قضاؤه على جيش الانكشارية واحلال الجيش النظامي محله فاتحة اعماله ثم وطد الامن في الولاية وشرع بادخال الاصلاحات الحديثة . وقد اشتهر بيرقدار في الموصل بهمته وسعيه في تعمير دور الحكومة . اذ شيد الثكنة العسكرية والمستشفى العسكري واهتم ببناية معمل لصنع المدافع والقنابل والبارود وكان يهدف من وراء ذلك ، اعداد الموصل عسكرياً لتكون قاعدة من قواعد الهجوم على القوات المصرية في الشام والحيلولة دون ضم العراق إلى مصر . وبعد حكم دام حوالي تسع سنوات توفي بيرقدار في الموصل سنة ١٨٤٣م .

٣ - المماليك في مصر

اشرنا فيما سبق إلى ان السلطان العثماني سليم الاول ، وافق بعد احتلال مصر على اعادة تعيين بعض المماليك في مناصب الدولة المهمة والاستفادة من خبرتهم في ادارة البلاد. وحين ضعفت الحامية الانكشارية في مصر ، استعاد المماليك قوتهم واستمروا في شراء المماليك الصغار من اسواق الرقيق المنتشرة في شواطئ البحر الاسود، والبلقان. وفي اواسط القرن الثامن عشر ، استولى البكوات المماليك على زمام السلطة وازاحوا الحامية العسكرية العثمانية التي اصبحت ، كما قال الرحالة الفرنسي فولني Volney «شرذمة من الصعاليك المتشردين والاوباش» وبذلك انتقلت ادارة البلاد إلى ايدي المماليك واصبح كبيرهم يعرف بـ «شيخ البلد». اما الباشا العثماني ، فقد غدا في الواقع سجيناً لدى بكوات المماليك .

لقد كان ابراهيم بك، الذي حكم من ١٧٤٦م وحتى ١٧٥٧م أول حكام المماليك في مصر في القرن الثامن عشر . ومع انه لم يكن مملوكاً، الا انه يعد مؤسساً لنظام المماليك. فقد استطاع تشكيل قوة من المماليك ، وعين العديد منهم في مناصب الدولة ومنح بعضهم الاراضي الواسعة ، واغدق عليهم العطاء. وبعد موته حدث صراع شديد بينهم على السلطة ، وقد انتصر في هذا الصراع علي بك الملقب بالكبير واصبح منذ سنة ١٧٦٣م حاكماً على مصر وبعد مضي ست سنوات اعلن استقلال مصر عن الدولة العثمانية منتهزاً فرصة حربها مع روسيا (١٧٦٨ — ١٧٧٤م) فتوقف عن دفع التزامات مصر المالية تجاه الدولة العثمانية. وضرب النقود باسمه وانتحل في سنة ١٧٧٠م لقب (سلطان مصر وخاقان البحرين) الاحمر والمتوسط مجدداً بذلك عهد سلاطين المماليك ودخل علي بك الكبير لتقوية كفاحه ضد الاتراك في تحالف مع الشيخ ظاهر العمر حاكم صفد في فلسطين ، وبعث بقواته إلى الحجاز والشام وضمهما إلى مصر .

لقد عمل علي بك الكبير على تأسيس دولة قوية مزدهرة وتنفيذ فكرة احياء طريق التجارة التقليدي بين الشرق الاقصى واوربا عبر مصر . وسعى لفتح طريق البحر الاحمر حتى السويس امام السفن الاوربية .وقد اتخذ لتنفيذ هذه الفكرة بعض الخطوات ، كان منها تقوية الجيش المصري وتجهيزه بالمدفعية للحيولة دون اى تدخل عثماني في شؤون مصر .كما توسع في جهات البحر الاحمر ،واتصل بشريف مكة وتحالف معه واسرع في عقد معاهدة تجارية مع بريطانيا سنة ١٧٧١م وبموجب هذه المعاهدة ، اصبح الطريق عبر البحر الاحمر ومصر الى اوربا مفتوحاً امام سفنهم .

اسرعت الدولة العثمانية لتضع حداً لمطامع حاكم مصر الواضحة ، فسلطت عليه مملوكه المقرب وقائد جيوشه محمد بك ابو الذهب ، فانتصر عليه .وسرعان ما نشب الصراع بين المماليك انفسهم على السلطة ، حيث اصبحت هناك قوتان متنافستان منهم ، الاولى بزعامة ابراهيم بك والثانية

بزعامة مراد بك ، وقد استمر هذا الصراع ، حتى حدوث الغزو الفرنسي لمصر سنة ١٧٩٨ م .

٤ ـ آل ظاهر العمر في فلسطين :

وفي فلسطين ظهرت بضعة قوى محلية ، الا ان من ابرز هذه القوى الشيخ ظاهر العمر ، فقد استطاع هذا الشيخ البدوي سنة ١٧٣٧م وكان يعمل حاكماً على صفد ان يوسع ممتلكاته وذلك بضم طبرية ونابلس ويافا والناصرة. كما استولى على عكا ، سنة ١٧٥٠م وجعلها عاصمة له واحتل مرفأ صيدا سنة ١٧٧٠م بعد ان تحالف مع المتاولة في جبل عامل وهم عشيرة كبيرة في لبنان . وقد صرف النظر عن مدينة بيروت لان اميرها منصور الشهابي استرضاه بالمال .

ان مما ساعد ظاهر العمر على تحقيق طموحه في الاستقلال عن الدولة العثمانية ، تحالفه مع علي بك الكبير حاكم مصر المملوكي الذي لم يتوان بعد احتلاله الشام عن تقديم المساعدات العسكرية لظاهر العمر .كما نال مساعدة الاسطول الروسي الذي وصلت بعض قطعاته سواحل الشام في ١٧٧٣م .

عندئذ استعانت الحكومة العثمانية ، بيوسف الشهابي حاكم جبل لبنان للوقوف ضد ظاهر العمر ومحاولاته التوسعية على حساب السلطة العثمانية في الشام . كما اوعزت للقائد العسكري احمد باشا الجزار الالباني بالقضاء على حكم ظاهر العمر. وتحركت من استانبول في الفترة ذاتها نجدة بحرية، تمكنت بمساعدة قوتي الشهابي والجزار من احتلال صيدا سنة ١٧٧٥م ومحاصرة عكا. وخلال الحصار قتل ظاهر العمر وبذلك عادت السيطرة العثمانية المباشرة على فلسطين. وعين العثمانيون احمد باشا الجزار والياً على المنطقة الممتدة من صيدا وحتى عكا. وقد عمد الجزار إلى بناء اسطول بحري، وجيش من المشاة بلغ عدده قرابة الف جندي. كما اصدر قراره باحتكار بعض المرافق التجارية في منطقته لتغطية نفقات ولايته الضرورية. وظل يحكم المنطقة قرابة

ثلاثين سنة، وقد بلغ اوج مجده سنة ١٧٩٩م حين نجح في انقاذ عكا من حصار الفرنسيين لها وايقاف زحف نابليون بونابرت وابعاده عن الشام.

٥ ـ آل معن في لبنان :

اشرنا فيما سبق إلى أن السلطان العثماني سليم الأول ابقى سنة ١٥١٦م الأمير فخر الدين المعني الأول في اقطاعية الشوف في جبل لبنان، واعترف بكل امتيازاته المتوارثة في ادارة منطقته وفق تقاليد اجداده التي ترجع إلى عهد المماليك. وقد اشترط السلطان سليم على الأمير فخر الدين، دفع جزء من الضرائب التي يحصلها لخزينة الدولة. ولم يكن هذا الوضع استثنائياً في جبل لبنان، كما يشير المؤرخ وجيه كوثراني، وانما كان سياسة تقليدية سارت عليه الدولة العثمانية في مراحل سيطرتها الاولى على الوطن العربي موجودة وخاصة في المناطق الجبلية المعقدة، كما سبق ان قدمنا. فقد ارتكزت الادارة العثمانية إلى الزعامات المحلية التقليدية المتعاونة معها في بعض المناطق العربية ولم تحاول الغاءها، وإنما حافظت على وجودها مستكينة ابان قوة الدولة ضمن الاطار العثماني، الا ان هذه الزعامات المحلية بدأت تتحرك منذ الربع الاخير من القرن السادس عشر حين ضعفت الدولة العثمانية وانشغلت بحروبها الطويلة على الجبهتين الأيرانية والنمساوية. ففي جبل لبنان سعى الأمير فخر الدين المعنى الثاني المعروف بالكبير (١٥٧٢ ـ ١٦٣٥م) إلى الاستقلال عن الدولة العثمانية محاولاً تأسيس دولة قوية تضم لبنان وسوريا وفلسطين.

لقد استطاع امير الشوف فخر الدين المعني الثاني، وكان سياسياً ماهراً ان يغدو بحق (الامير الكبير) على مقاطعات تخطت حدودها منطقة جبل لبنان ووصلت إلى شمالي سوريا وداخل فلسطين وابواب دمشق. وهذا التوسع الكبير خارج اطار جبل لبنان جعل مشايخ المنطقة والبيوتات الأرستقراطية الدرزية والمارونية وغيرهما يدينون بالولاء له واصبحوا يلتزمون بدفع الضرائب المترتبة عليهم له لقاء ادارانهم شؤون مقاطعتهم . كما اتصل الأمير

بدولة توسكانيا الأيطالية وعقد معها اتفاقية سرية سنة ١٦٠٨م تقتضي بتزويده بالمعدات والقطع البحرية . وقد تصرف لانشاء الحصون وتقوية جيشه الذي بلغ تعداده انذاك (٤٠) الف مقاتل .

ان ذلك الأتجاه الأستقلالي ادى إلى حدوث صراع شديد بين الأمير فخر الدين ووالي دمشق . ففي سنة ١٦١٣م طلبت الدولة العثمانية من والي دمشق أحمد حافظ باشا التوجه نحو جبل لبنان والقضاء على الأمير فخرالدين. كما اوعزت إلى ولاة حلب وديار بكر وطرابلس بمؤازرة والي دمشق في مهمته وتألفت قوة قوامها ثلاثون الف مقاتل . وقد استطاع الأمير فخرالدين الصمود امامها قرابة تسعة أشهر اضطر بعدها إلى مغادرة حلب إلى ايطاليا وبعد خمس سنوات صدر العفو عنه ، حين تسلم العرش العثماني عثمان الثاني (١٦١٨ — ١٦٢٢م) فعاد إلى لبنان ، ولم يكد يسترجع ممتلكاته حتى صار يعني بها ، ووضع خطة لتطويرها اقتصادياً ، وشجع التجارة الخارجية واندفع في تحديث البلاد وأرسل مجموعة من الشباب للدراسة في ايطاليا ، ثم أعلن التمرد على الدولة العثمانية سنة ١٦٣٥ م ، الا أنه فشل ، وتمكن العثمانيون من شنقه .

لقد عاد الحكم العثماني المباشر إلى جبل لبنان . لكن العثمانيين استعانوا بالامراء الشهابيين الذين خلفوا المعنيين ، في الوفاء بالتزامات المنطقة المالية تجاه الدولة العثمانية . وقد ساءت اوضاع البلاد وتدهور اقتصادها عبر الحملات العسكرية العديدة التي شنها الولاة العثمانيون على بقايا المعنيين فقد عمد احمد باشا الكوبرلي والي دمشق إلى تشريد العديد من العوائل عن ديارها وقطع نحوا من خمسين الف شجرة توت ، كانت تمثل مصدر ثروة للبلاد . وقد استمرت هذه الأوضاع القلقة حتى بروز زعامة الأمير بشير الثاني الشهابي الذي تولى صيدا ومد نفوذه حتى اصبح السيد المطاع في الديار الشامية :

لقد تعاون الأمير بشير الشهابي مع محمد علي ابان سيطرته على بلاد

الشام سنة ١٨٣١م . فقد التحق مع ابراهيم باشا بن محمد علي الف مقاتل لبناني ، احتل بهم طرابلس كما اشترك الشهابيون في قمع العديد من الانتفاضات التي حدثت ضد ابراهيم باشا في عكا وصافيتا وجبال النصيرية سنة ١٨٣٣م .

ان انهيار حكم محمد علي باشا في بلاد الشام، كان ايذاناً بنهاية الامير بشير الشهابي .ففي ١٠ تشرين الاول ١٨٤٠م هزمت القوات المصرية في معركة (بحر صاف) بالمتن ولم يمض يومان حتى غادر الامير بشير بيت الدين إلى صيدا ومن تم إلى منفاه في مالطا.

وفي مؤتمر لندن في ١٥ تموز ١٨٤٠ ، الذي كرس للبحث في مصير الحكم المصري للشام ، وحضره كل من ممثلي الدول العثمانية، والنمساوية ، والبروسية والانكليزية ، وقع الاختيار على الامير بشير الشهابي الثالث ، ليكون حاكماً على لبنان. وفي ٣ ايلول ١٨٤٠م صدر فرمان سلطاني بذلك . وكان الامير بشير الثالث معروفاً بالضعف وعدم الكفاءة ، لذلك استخدم لتنفيذ سياسة الدول الاوربية الكبرى ومصالحها في لبنان . وقد مهدت تلك الظروف ، كما سنرى . إلى افساح المجال للدول الاجنبية للتدخل في شؤون البلاد الداخلية واثارة النعرات الطائفية بين الموارنة والدروز .

اما الامير بشير الشهابي فقد ارسل من منفاه في ٢٧ اذار ١٨٤١م رسالة إلى اللورد بالمرستون وزير خارجية بريطانيا يلتمس فيها اعادته إلى حكم البلاد الا ان بالمرستون اجاب على ذلك في ٢٩ نيسان ١٨٤١م مشيراً إلى موقفه من الحكم المصري طالباً منه ان يتحمل مسؤولية عمله . وفي ١٦ كانون الثاني ١٨٤٢م سقط الشهابيون تحت وطأة المشاكل الطائفية التي اججتها القوى الاستعمارية الاوربية ، فكانت هذه فرصة للعثمانيين اعادوا فيها حكمهم المباشر إلى لبنان فأقالوا بشير الثالث من منصبه وعينوا عمر باشا حاكماً على الجبل ، الا ان ذلك لم يدم طويلاً فقد وقعت اضطرابات طائفية دامية كان اشدها هولاً ماحدث من مذابح سنة ١٨٦٠م في دير القمر والشوف والمتن والبقاع وزحلة وغيرها، الامر الذي ادى إلى تدخل الدول الاوربية وفي

مقدمتها فرنسا التي ارسلت قطعاً من اسطولها الحربي إلى الساحل اللبناني . عندئذ اضطرت الدولة العثمانية إلى الاعتراف سنة ١٨٦١م باستقلال جبل لبنان بموجب نظام اداري طائفي خاص.

٦ ـ آل العظم في سوريا :

اما في سوريا ، فقد حدث تطور مشابه لما حدث في بعض الولايات العربية الاخرى . اذ اشتد الصراع بين الانكشارية والقوى المحلية وكان من الخطر استمرار هذا الصراع والفوضى الناجمة عنه ، لان ذلك يسيء الى السلطان العثماني ، حيث ان دمشق كانت انذاك مركزاً لتجمع قوافل التجار والحجاج والتي كثيراً ما تتعرض لسلب عشائر بادية الشام . لذلك عزل السلطان الوالي المسؤول عن تلك الفوضى وهو نصوح باشا الذي حكم ولاية الشام بين ١٧٠٩ ـ ١٧١٥م وقد حكم دمشق، بعد نصوح باشا ولاة عديدون لم يشتهر اي منهم، وكان اخرهم عثمان باشا الذي حكم بين ١٧٢٣ و١٧٢٥م، وقد عرف بالظلم ومارس اعوانه الابتزاز فنقم عليه الدمشقيون واضطر السلطان إلى عزله في اوائل اذار ١٧٢٥م وتعيين اسماعيل باشا العظم مكانه في اذار ١٧٢٥م وكان معروفاً بالعدل فاحبه الناس. وقد استطاع السيطرة على دمشق مستعيناً بجنده من المغاربة العرب والمماليك البوشناق . واسرة العظم عربية من قبيلة معن هاجر احد رجالها واسمه عزيم إلى قونية في الاناضول ومنها قدم احفاده إلى سوريا بعد استيلاء السلطان سليم عليها فكان منهم ولاة ومتصرفون. وقد احرزت الكثير من الاراضي والمزارع ووسعت اوقافها الذرية والخيرية في دمشق وغيرها من المدن السورية. هذا وقد استمرت اسرة آل العظم في حكم دمشق حتى اواخر القرن الثامن عشر ومما ساعدها على ذلك حاجة الدولة اليها للوقوف ضد ظاهر العمر ومحاولاته الاستقلالية .

٧ ـ الاسرة القرامنلية في طرابلس :

وفي طرابلس الغرب استطاعت اسرة محلية الوصول إلى الحكم ، وهي

الاسرة القرامنلية التي حكمت من ١٧١١ إلى ١٨٣٥م. وقد توسع نفوذ هذه الاسرة ، واصبحت علاقتها بالدولة العثمانية علاقة اسمية، وعلى اثر احتلال الفرنسيين للجزائر سنة ١٨٣٠م ظهر امام العثمانيين خطر الدول الاستعمارية وادى ذلك، اضافة إلى نمو خطر محمد علي باشا في مصر ومحاولاته التوسعية لاقامة الدولة العربية الموحدة، إلى اهتمام العثمانيين باعادة سيطرتهم إلى ليبيا. لذلك وجه السلطان محمود الثاني اسطولاً بقيادة نجيب باشا قائد البحرية العثمانية إلى ميناء طرابلس سنة ١٨٣٥م وقد تمكنت هذه القوة من اعادة الحكم العثماني المباشر إلى ليبيا فبدأ بذلك العهد العثماني وهو عهد الولاة الاتراك الذي استمر حتى الغزو الايطالي لليبيا سنة ١٩١١م.

٨ـ الاسرة الحسينية في تونس :

اما في تونس فقد نجح الاهالي في فرض احد الرجال العسكريين حاكماً لولايتهم ولقبوه بالباي. وقد اضطرت الدولة العثمانية سنة١٥٩٠م إلى الاعتراف به حاكما على تونس. وبمرور الزمن زادت سلطة (البكوات) وهم المسؤولون عن الادارة وجمع الضرائب إلى درجة تولي السلطة. وقد عمد احدهم وهو مراد بك سنة١٦٤٠م إلى جعل الحكم في تونس وراثياً فنشأت بذلك الاسرة المرادية . ومع ان هذه الاسرة حاولت اصلاح شؤون البلاد الا انها ما لبثت ان دخلت في نزاعات عائلية حتى اواخر حكمها حيث تمت مبايعة باي جديد في ١٣ تموز ١٧٠٥م وهو حسين بن علي مؤسس الاسرة الحسينية (١٧٠٥ – ١٨٨١م) .

يعد حمودة باشا الحسيني، اشهر بايات تونس. وفترة حكمه الممتدة من ١٧٨٢ الى ١٨١٤م تمثل اهمية كبيرة في تاريخ تونس الحديث. فهواول من جند العرب بدلاً من الانكشارية في الجيش، وحين حاول الانكشاريون التمرد عليه سنة ١٨١١م استند الى قواته العربية التونسية في القضاء عليهم. ولقد ساعد هذا العامل فيما بعد على اقامة توازن داخلي في تونس رغم احتفاظها بعلاقاتها الرسمية مع الدولة العثمانية. وقد رافق هذا الميل الى الاستعانة بالعرب في الجيش والمناصب الادارية استخدام اللغة العربية لغة للبلاد بدلاً من اللغة

التركية. فعندما حل القرن التاسع عشر كانت اكثر المعاملات الادارية والمخاطبات الدبلوماسية تكتب بالعربية. وقد كان لحمودة باشا الدور الكبير في دفع هذا الاتجاه الى الامام. ولم تقف تدابيره عند هذا الحد بل عمدت الى احداث تغييرات في مجالات عسكرية واقتصادية واجتماعية. ومن هذا القبيل سياسته الناجحة في تسليح الجيش باحداث الاسلحة الاوربية وجلبه الخبراء والمهندسين والاطباء للعمل في تونس وانشاؤه للمصانع الحربية واصلاحه للموانيء والابراج وبسطه للامن وانعاشه لاقتصاد تونس بتأمين أسعار رابحة وأسواق خارجية للانتاج الزراعي التونسي وخاصة بعد سنة ١٧٨٧م والحيلولة دون التسلط الاجنبي الاوربي على الاقتصاد التونسي وخوضه الحروب ضد البندقية (١٧٨٤ ـ ١٧٩٢م)لتحقيق هذا الغرض. كما افاد حمودة باشا من ظروف ضعف الدولة العثمانية وتقهقرها في الداخل والخارج وانشغال الدول الاوربية في الحروب الطاحنة التي اجتاحتها بعد الثورة الفرنسية ١٧٨٩م لضمان استقلال تونس.

الا أن هذا كله لم يؤد الى الانفصال التام عن السلطنة العثمانية، وظلت خطب المساجد تمجد اسم السلطان، والنقود تسك وتحمل اسمه. وكان كل باي جديد يتلقى فرماناً سلطانياً من استانبول، كما ان اسطول تونس وجنودها يحاربون في جيوش السلطان العثماني عند الضرورة. وحين حكم الباي أحمد تونس بين سنتي ١٨٣٧و١٨٥٥م كان المغرب العربي يعاني من نفوذ أوربي شديد، خاصة بعد دخول فرنسا الى الجزائر سنة ١٨٣٠م، لذلك اصبح التكيف مع الاوضاع الجديدة، والتفاهم مع أوربا القوية، يفوق الاعتبارات الاخرى التي كانت تربط تونس بالدولة العثمانية. الا أن خيرالدين التونسي الذى شغل منصب رئيس الوزراء في تونس خلال الفترة الممتدة من سنة ١٨٧٣ حتى ١٨٧٧م استطاع بفضل وعيه وحكمته وتجاربه ان يخطو خطوات جدية لتحديث تونس وتهيئتها لتقبل الكثير من مفاهيم النهضة الاوربية الحديثة دون التخلي عن الرابطة العثمانية التي وجد فيها، كما سنرى، قوة للوقوف في وجه الغرب الاستعماري.

مصادر الفصل الثاني

نظم الحكم والادارة العثمـــانية

(١) أحمد ، ابراهيم خليل : تطور التعليم الوطني في العراق ١٨٦٩ –١٩٣٢ (البصرة ، ١٩٨٢م) .

(٢) احمد. ابراهيم خليل، : ولاية الموصل : دراسة في تطوراتها السياسية ١٩٠٨ – ١٩٢٢م رسالة ماجستير غير منشورة مقدمة لجامعة بغداد سنة ١٩٧٥م .

(٣) ارنولد ، توماس : الخلافة ، ترجمة حسن حيدر اللبناني ، (بيروت ، ١٩٦١م).

(٤ ارنولد، توماس : الدعوة إلى الاسلام ، تعريب حسن ابراهيم حسن واخرون . (القاهرة لا . ت) .

(٥) الأمام ، رشاد : حمودة باشا التجارية مع اوربا . المجلة التاريخية المغربية تونس – عدد ٦ تموز / ١٩٧٦م

(٦) الامام رشاد : سياسة حمودة باشا الحسيني بتونس ١٧٨٢ –١٨١٤م المجلة التاريخية المغربية ، تونس عدد ٦ تموز /١٩٧٦م

(٧) أياس ، محمد أحمد بن: بدائع الزهور ووقائع الدهور ج ١ ، (القاهرة ، ١٣١١ هـ) .

(٨) البخيت ، محمد عدنان: « احداث طرابلس الشام ١٦٠٦ – ١٦٠٧م مجلة مجمع اللغة العربية الأردنية ، العدد ١١ كانون الثاني / ١٩٧٨م .

(٩) الباروني ، أبو القاسم سعيد : حياة سليمان الباروني ، (القاهرة، ١٩٤٨م).

(١٠) بروكلمان ، كارل : تاريخ الشعوب الاسلامية ، ترجمة نبيه أمين فارس ، ومنير البعلبكي ج ١ ، ٥ ، (بيروت ، ١٩٦٨م).

(١١) البصري ، عثمان بن سند : مطالع السعود بطيب اخبار الوالي داؤد ، اختصره أمين حسن الحلواني ، (بومبي ، ١٨٨٧م).
(١٢) بيهم ، محمد جميل : فلسفة التاريخ العثماني ح ٢ ،(بيروت ، ١٩٥٤م).
(١٣) التونسي ، خيرالدين : مقدمة كتاب اقوم المسالك في معرفة الممالك ، تحقيق ودراسة معن زيادة ، (بيروت ، ١٩٧٨م).

(١٤) جب وبويون، هاملتون وهارولد : المجتمع الاسلامي والغرب، ج١ ترجمة احمد عبدالرحيم مصطفى ،(القاهرة، ١٩٧١م).
(١٥) الجمل، شوقي: تاريخ كشف افريقيا واستعمارها،(القاهرة، ١٩٧١م).
(١٦) جودت، احمد بن اسماعيل: تاريخ جودت، ترجمة عبد القادر الدنا ج١ (بيروت، ١٣٠٨هـ — ١٨٩٠م).
(١٧) الجواهري، عماد احمد: تاريخ مشكلة الاراضي في العراق ١٩١٤ — ١٩٣٢ (بغداد ١٩٧٨م).
(١٨) الحصري، ساطع: البلاد العربية والدولة العثمانية ط٣(بيروت ، ١٩٧٥م).
(١٩) الحكيم، يوسف: بيروت ولبنان في عهد ال عثمان ط٢ — (بيروت، ١٩٨٠م).
(٢٠) الحكيم، يوسف: سوريا والعهد العثماني ،(بيروت ،١٩٦٦م).
(٢١) الحمود، نوفان رجا: العسكر في بلاد الشام في القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين —(بيروت، ١٩٨١م).
(٢٢) حوراني، البرت: الاسس العثمانية للشرق الاوسط» ، مجلة تاريخ العرب والعالم السنة(٢) العدد(٤) كانون الاول /١٩٧٩م. وكذلك العدد ٥ كانون الثاني /١٩٨٠م.
(٢٣) حمدان، جمال: ستراتيجية الاستعمار والتحرير،(القاهرة،١٩٦٨م) .

(٢٤) الخربوطلي، علي حسني: الاسلام والخلافة، (بيروت، ١٩٦٩م).
(٢٥) الخربوطلي، علي حسني: غروب الخلافة الاسلامية، (القاهرة، ١٩٦٧م).
(٢٦) الدوري، عبدالعزيز: مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي، (بيروت، ١٩٦٩م).
(٢٧) رافق، عبد الكريم: بلاد الشام ومصر منذ الفتح العثماني إلى حملة نابليون بونابرت ط٢، (دمشق، ١٩٦٨م).
(٢٨) رافق، عبدالكريم: «مظاهر من الحياة العسكرية العثمانية في بلاد الشام من القرن ١٦ حتى مطلع القرن ١٩»، مجلة دراسات تاريخية — العدد الاول جامعة دمشق، ١٩٨٠م.
(٢٩) رؤوف، عماد عبدالسلام: الموصل في عهد الحكم المحلي، (النجف، ١٩٧٥م).
(٣٠) الراقد، محمد عبد المنعم السيد: الغزو العثماني لمصر ونتائجه على الوطن العربي (القاهرة، ١٩٧٢م).
(٣١) رمضان، محمد رفعت: علي بك الكبير، (القاهرة، ١٩٥٠م).
(٣٢) ديفيتسيو غلو، سنجر: «النموذج الاقتصادي للمجتمع العثماني في القرنين الرابع عشر والخامس عشر»، مجلة (الطريق) بيروت السنة / ٢٨ العدد ١٩٦٩/٨م.
(٣٣) زيادة، نقولا: تونس في عهد الحماية من ١٨٨١ — ١٩٣٤، (القاهرة، ١٩٦٣م).
(٣٤) زيادة، نقولا: محاضرات في تاريخ ليبيا من الاستعمار الايطالي الى الاستقلال (القاهرة، ١٩٥٨م).
(٣٥) زيادة، نقولا: ليبيا في العصر الحديث، (بيروت، ١٩٦٦م).
(٣٦) زيدان، جرجي: تاريخ التمدن الاسلامي ج١ (القاهرة لا ت)

(٣٧) زيدان، جرجي: تاريخ مصر الحديث ج١. ج٢ ط٢، (القاهرة، ١٩١١م).
(٣٨) السويدي ، عبدالرحمن عبد الله البغدادي : تاريخ حوادث بغداد والبصرة ١٧٧٢ — ١٧٧٨، تحقيق عماد عبدالسلام رؤوف بغداد / ١٩٧٨م.
(٣٩) شبيكه، مكي: تاريخ شعوب وادى النيل (مصر والسودان) في القرن التاسع عشر (بيروت، ١٩٦٥م).
(٤٠) شكري ، محمد فؤاد : السنوسية دين ودولة ،(القاهرة ،١٩٤٥م) .
(٤١) الشناوي ، عبدالعزيز محمد : الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها ج ١ ج٢ ، (القاهرة، ١٩٨٠م).
(٤٢) الشنيطي ، محمود : قضية ليبيا ، (القاهرة، ١٩٥١م).
(٤٣) الشيخ ، رأفت غنيمي، في تاريخ العرب الحديث، (القاهرة،١٩٧٧م).
(٤٤) صالح ، زكي : مجمل تاريخ العراق الدولي في العهد العثماني ، (القاهرة ، ١٩٦٦م).
(٤٥) الصباغ ، ليلى : المجتمع العربي السوري في مطلع العهد العثماني، (دمشق ، ١٩٧٣م).
(٤٦) الصباغ. ليلى « نحو تقويم جديد للحياة الفكرية في البلاد العربيه في المرحلة الأولى من الحكم العثماني » ، مجلة اوراق ، مدريد ، العدد ٣ ١٩٨٠م .
(٤٧) الصليبي ، كمال : تاريخ لبنان الحديث ، (بيروت ، ١٩٦٩م).
(٤٨) الصوفي ، أحمد : المماليك في العراق ، (الموصل ، ١٩٥٢م).
(٤٩) الضابط ، شاكر صابر : العلاقات الدولية ومعاهدات الحدود بين العراق وايران ، (بغداد ١٩٦٦م).

(٥٠) الطرابلسي ، أحمد الزاوي : جهاد الأبطال في طرابلس الغرب (القاهرة ، ١٩٥٠م).

(٥١) عبدالكريم ، أحمد عزت ، دراسات في تاريخ العرب الحديث . (بيروت ، ١٩٧٠م).

(٥٢) عامر ، أحمد بن: الدولة الحفصية ، صفحات خالدة من تاريخنا المجيد — تونس / ١٩٧٤م.

(٥٣) عبدالله ، مصطفى : المجمل في تاريخ ليبيا ، (لا . م،١٩٤٧م).

(٥٤) عبدالوهاب ، حسن حسني : خلاصة تاريخ تونس،(تونس ١٩٧٦م).

(٥٥) العزاوي ، عباس : تاريخ العراق بين احتلالين ٨ أجزاء، (بغداد، ١٩٥٣، ١٩٥٦م) .

(٥٦) علي ، علي شاكر : « موقف الدولة العثمانية من الغزو الفارسي الثاني للعراق ١٦٢٣ — ١٦٣٨» مجلة الجامعة — الموصل العدد ٩، ١٠ — حزيران / ١٩٨٢م.

(٥٧) علي ، علي شاكر : العراق في العهد العثماني ١٦٣٨ — ١٧٥٠م دراسة في احواله السياسية، رسالة ماجستير غير منشورة قدمت لجامعة بغداد/١٩٧٦م .

(٥٨) عمر، عمر عبد العزيز: المشرق العربي من الفتح العثماني حتى نهاية القرن الثامن عشر (القاهرة،١٩٧١م).

(٥٩) عوض، عبد العزيز محمد: الادارة العثمانية في ولاية سوريا ١٨٦٤ — ١٩١٤ (القاهرة ،١٩٦٩م).

(٦٠) نحلة، محمد يوسف: تطور الحركة الوطنية في تونس ١٨٨١ - ١٩٥٦، رسالة ماجستير غير منشورة، قدمت إلى الجامعة المستنصرية /١٩٨١م .

(٦١) فائق، سليمان: تاريخ المماليك (الكوله مند) ترجمة عن التركية محمد نجيب ارمنازي (بغداد ،١٩٦١م).
(٦٢) فريد، محمد: تاريخ الدولة العلية العثمانية ، طبعة بالاوفسيت — (بيروت ،١٩٧٧م) .
(٦٣) فريدون، أحمد: مجموعة منشأت جـ١ (استنابول ،١٢٧٤م) .
(٦٤) قازان ،فؤاد : «الاقطاعية ومراحل تطورها في عهد المماليك »، مجلة الطريق، بيروت — السنة ٢٨ العدد ١٩٦٩/٨ .
(٦٥) قرالي، الاب بولس: فخر الدين المعني الثاني امير لبنان — ادارته وخياسته. (بيروت، ١٩٣٧م) .
(٦٦) القهواتي ،حسين محمد: العراق بين الاحتلالين العثمانيين الاول والثاني ١٥٣٤ — ١٦٣٨م رسالة ماجستير قدمت لجامعة بغداد ١٩٧٥م وهي غير منشورة .
(٦٧) كوثراني، وجية: الاتجاهات الاجتماعية — السياسية في جبل لبنان والمشرق العربي ١٨٦٠ — ١٩٢٠، (بيروت ، ١٩٧٦م .
(٦٨) لوتسكي، فلاد يمير بوريسوفيتش : تاريخ الاقطار العربية الحديث، ترجمة عفيفة البستاني (موسكو، ١٩٧١م) .
(٦٩) لونكريك، ستيفن همسلي : اربعة قرون من تاريخ العراق الحديث، ترجمة جعفر الخياط ط ٥، (بغداد، ١٩٦٨م) .
(٧٠) محمود، حسن سليمان : ليبيا بين الماضي والحاضر (لا. م، ١٩٦٣)
(٧١) المعلوف، عيسى اسكندر : تاريخ الامير فخر الدين المعنى الثاني ط٢، (بيروت، ١٩٦٦م) .
(٧٢) المنجد، صلاح الدين : ولاة دمشق في العهد العثماني، (دمشق، ١٩٤٩م) .

(٧٣) المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تقرير لجنة استراتيجية التربية في البلاد العربية اعداد محمد أحمد الشريف وآخرون (بيروت، ١٩٧٩م) .

(٧٤) نوار، عبد العزيز سليمان : محاضرات في تاريخ الشرق الادنى الحديث، القيت على طلبة قسم التاريخ، بكلية التربية، جامعة بغداد، للسنوات ١٩٦٥ — ١٩٦٧م وهي غير منشورة .

(٧٥) نوار، عبد العزيز سليمان: داؤد باشا والي بغداد، (القاهرة، ١٩٦٨م).

(٧٦) نوار، عبد العزيز سليمان: تاريخ العراق الحديث (القاهرة، ١٩٦٨م) .

(٧٧) نوار، عبد العزيز سليمان: المصالح البريطانية في انهار العراق، (القاهرة، ١٩٦٨م).

(٧٨) نورس ، علاء موسى كاظم : حكم المماليك في العراق، (بغداد، ١٩٧٥)

(٧٩) نورس ، علاء موسى كاظم: العراق في العهد العثماني، دراسة في السياسية والعلاقات ١٧٠٠—١٨٠٠م، (بغداد، ١٩٧٥م) .

(٨٠) نورس ، علاء موسى كاظم: «مدى مسؤولية الانكشارية في تدهور الدولة العثمانية»، مجلة كلية الاداب بغداد، العدد ٣٠ — تشرين الثاني/ ١٩٨١م .

(٨١) الهشي، سليم: «رسالة من اللورد بالمرستون الى الامير بشير الشهابي» مجلة دراسات عربية — السنة ١٨ العدد ٣ كانون الثاني / ١٩٨٢م .

(٨٢) الوردي، علي: لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث ح١، (بغداد، ١٩٦٩م) .

(٨٣) ينكاكيا، انتوني جوز: ليبيا في العهد العثماني، ترجمة يوسف العسلي، (بيروت، ١٩٤٦م) .

(٨٤) ينكاكيا، انتوني جوز: طرابلس الغرب تحت حكم اسرة القرمانلي — ترجمة طه فوزي (القاهرة ، ١٩٦١م) .

—Brig, John–: The Bektashi Order of Dervishes (Bristol,(٨٥)
1937)

—D'ohsson, Mouradja–: Tableau general de3l Empire otto-(٨٦)
man, (paris, 1788–1824)

— Haslusk, F. W.–: Christanty and Islum under the sultans,(٨٧)
Vol. 1. Oxford (1929)

—Muir,William,–: The caliphate: Its rise, decline and Fall(٨٨)
(Edimburgh 1924)

—Shaw, stanford, J.–: History of the ottoman Empire and(٨٩)
Modern Turkey Vol, I (Cambrideg, 1976)

—Sykes, Mark–: The caliphes Last Heritage, (London 1915)(٩٠)

Olsen, Robert–: The siege of Mosul and ottoman –pe-(٩١)
rsian–Relation 1714–1743. (Bloomington, 1975)

الفصـــل الثالث

الغزو الفرنسي لمصر ومحاولة محمد علي باشا

بناء الدولة العربـية الحديثـــة

نشبت الثورة الفرنسية في ١٤ تموز ١٧٨٩م،ووضعت الطبقة البرجوا زية التي قادت الثورة ضد الاقطاع والنظام الملكي أسس الحكم الجديد في فرنسا وخاضت من اجل ذلك معارك داخلية وخارجية مع اعداء مختلفين.ثم سرعان ما اتجهت لضرب القوى الشعبية التي خاضت المعركة بجانبها ضد الاقطاع والملكية .واخذت لتحقيق مصالحها الاقتصادية والسياسية .وكان غزو مصر سنة ١٧٩٨ جزءاً من خطة واسعة لضرب المصالح السياسية والاقتصادية لبريطانيا والسيطرة على طريق الهند وتأسيس امبرا طورية فرنسية في الشرق .

التطور التاريخي لفكرة غزو مصر:

لم تكن فكرة غزو الفرنسيين لمصر جديدة ،بل انها ترجع الى ايام الحروب الصليبية وحملة ملكهم لويس التاسع عليها في منتصف القرن الثالث عشر .وفي منتصف القرن السابع عشر دعا الفيلسوف الالماني(ليبنتز Leibnitz) لويس الرابع عشر ملك فرنسا الى احتلال مصر وضرب الهولنديين في الشرق الاقصى ونشر المسيحية هناك .ولكن لويس الرابع عشر خشي الاصطدام بالدولة العثمانية التي كانت تتمتع انذاك بسمعة دولية كبيرة .كما دعا الدوق (دي شوازيل) وزير لويس الخامس عشر الى احتلال مصر عن طريق التفاهم مع السلطان العثماني .

لقد كان الصراع الاستعماري بين فرنسا وبريطانيا من العوامل الرئيسة في توجيه انظار الحكومة الفرنسية لغزو مصر .فقد زادت تطلعات فرنسا قوة نحو مصر عندما اصبحت غريمتها بريطانيا تعنى عناية خاصة في اعقاب الاتفاقية التي عقدتها شركة الهند الشرقية البريطانية East India Company في ٧آذار ١٧٧٥ مع محمد أبو الذهب حاكم مصر المملوكي حينذاك .

وقد دعا الرحالة الفرنسي (فولني Volney) الذي قدم مصر سنة١٧٨٧م حكومته الى جعل احتلال مصر محوراً لسياستها الخارجية لما تتمتع به من أهمية في مجال المواصلات بين القارات الثلاث أسيا وافريقيا واوربا فضلاً عن وفرة خيراتها وضعف حكامها من المماليك انذاك .

ولقد حث البارون (دي توت Detott) سفير فرنسا في استانبول حكومته على غزو مصر . ودعا الى زيادة حجم التجارة الفرنسية مع المشرق العربي ،الا ان فرنسا كانت مشغولة حينذاك بحروب الاستقلال الاميركية . وفي اعقاب هذه الحروب عادت تنظر الى مصر باهتمام نتيجة للتقارير التي كان يبعث بها قنصل فرنسا في مصر المسيو شارل مكالون Magallon قبل سنة ١٧٩٧م. ولم تكن تلك التقارير سوى ملاحظات كونها عن مصر منذ تعيينه فيها سنة ١٧٩٣م .

ومما يلحظ ان النغمة السائدة في تلك التقارير «ان حكام مصر من المماليك يعبثون بمصالح التجار الفرنسيين» وان احتلال فرنسا لمصر يضع حداً لعبثهم بالمصالح الفرنسية ويستخلص لها في مصر مزايا سياسية واقتصادية باستثمار موارد مصر الاقتصادية و السيطرة على البحر الاحمر وتهديد طريق انكلترا الامبراطوري الى الهند،وحين عاد مكالون الى بلاده سنة ١٨٩٧م شرح للمسيو تاليران Talleyrand وزير الخارجية الفرنسية أوضاع مصر ،وقدم له تقريراً مفصلاً أوضح فيه سهولة تنفيذ مشروع الغزو .ومما جاء في هذا التقرير قوله :

«اذا ارادت الجمهورية الفرنسية ازدهار تجارتها ، فلابد لها من الاستيلاء على مصر كلها ، لا الاكتفاء بالاسكندرية . ويجب ان تكـون بورسعيد والسويس ودمياط والقاهرة في يدنا حتى نستطيع ان نصبح مؤهلين للتوسع ومد منشآتنا حتى شلالات النيل » .

وتابع ماكالون في تقريره الكشف عن أهمية مصر من حيث زيادة حجم التبادل التجاري مع الاقطار العربية الواقعة في اسيا الغربية وشمال افريقيا وكما اشرنا انفاً ،فان الصراع الاستعماري بين انكلترا وفرنسا والحروب الطويلة بينهما ، كان من أجل السيطرة على الاسواق العالمية ،فتزايد قوة فرنسا وتطور اقتصادها كان من شأنـه تهديد الاحتكار الصناعـي للرأسمالية البريطانية .

لقد تلقى تاليران في الوقت نفسه تقارير مماثلة من الجنرال الفرنسي نابليون بونابرت Bonapart الذي كان متحمساً لفكرة غزو مصر ،خاصة بعد احرازه الانتصارات في ايطاليا سنة ١٧٩٧م وزحفه على شبه جزيرة البلقان حتى بلغ حدود الدولة العثمانية وقد خاطب جنوده في باسانو Bassano في ١٠ آذار ١٧٩٧م قائلاً :

«ان اعلام فرنسا تخفق لاول مرة على ضفاف الادرياتيك على مقربة من مقدونيا القديمة التي نبت فيها الاسكندر واتجه الى الشرق وان مهمة كبيرة تنتظركم فلم تنته بعد مأموريتكم .وان عليكم ان تعاقبوا سكان تلك الجزيرة الخبثاء (الانكليز) الذين لم تصبهم حروب القارة بسوء وظلوا يهزأون لمصائبها». وفي ١٦ آب سنة ١٧٩٧م كتب الى حكومة الادارة (الديركتوار) في فرنسا يقول :

«ان المواقع التي نحتلها على شواطيء البحر المتوسط تجعل لنا السيادة على هذا البحر .والان يجب علينا ان نرقب تطورات السلطة العثمانية التي أخذت تنهار دعائمها من كل جانب .فعلينا أما ان نؤيدها ونمنع انحلالها

او نأخذ "مانستطيع من اسلابها ...ولنحتل مصر . فسيكون لنا فيها الطريق المفضي الى الهند ،ويسهل علينا ان ننشىء فيها مستعمرة من أجمل مستعمرات العالم ...» .

اقتنع تاليران بفكرة غزو مصر وكتب يقول :

«ان أهالي مصر قاطبة يكرهون حكامهم المماليك الذين يسومونهم الظلم والاضطهاد وهم عزل لاسلاح معهم ،واذا اعطاهم المماليك سلاحاً بحجة الدفاع عن البلاد من الغارة الأجنبية ،فانهم لاشك سيحاربون به طائفة المماليك انفسهم ،فليس ثمة خوف من مقاومة أو وثبة من الاهالي...» .

واضاف يقول :

«ان الشعب المصري سيلقانا باحترام لانه يأمل من زمن مديد ان يتخلص من حكامه الظالمين » .

وفي موضع آخر من تقريره قال تاليران :

«كانت مصر فيما مضى ولاية رومانية والان يجب ان تكون ولاية فرنسية» .

وقد يكون من المناسب ان نشير الى ان تاليران أخطأ عندما تصور بأن الشعب المصري ،اذا ملك السلاح فسوف يتحالف مع الغزاة ضد المماليك مهما كان تناقضه معهم . واخطأ ثانية عندما اعتقد ان الشعب المصري كتلة موحدة في مصالحها أو مشاعرها تجاه المماليك أو الفرنسيين على حد سواء ولكن خطأ تاليران ،كما يقول احد الباحثين وهو صلاح عيسى ،لم ينتقل الى نابليون بونابرت بالدرجة نفسها ،اذ سرعان ما اثبتت الحوادث ان بونابرت كان ابناً باراً لطبقة البرجوازية تشرب بدرجة أوفر برؤيتها ، تعرف كيف يخطط لتحالفاته وفهم تناقضات الواقع المصري بدرجة اكثر دقة مما فهمها تاليران .ولعل استيعاب بونابرت لهذه الحقائق قد تكامل خلال تفاعله العلمي مع الواقع الاجتماعي والسياسي في مصر ،وفي ضوء المعلومات المفصلة التي حصل عليها من مستشاريه . لم يكن متفائلاً بانه لن يلقى مقاومة مصرية من أي

نوع سواء في عملية الغزو نفسها ،أو في مرحلة التخطيط للاستقرار وفق اعتقاد تاليران .وفي كل الاحوال فان الواقع كذب ما ذهب اليه تاليران ، وجاءت المقاومة الشعبية ضد الغزو الفرنسي بداية للحركة الوطنية المصرية لان هذه المقاومة كما سنرى ، كانت أول شرارة اشعلت جذوة الروح القومية في نفوس المصريين .

ومهما يكن من أمر ، فقد ظهرت في الدوائر السياسية الفرنسية وجهتا نظر بصدد غزو مصر : الاولى تعارض المشروع والثانية تعضده ، فالحكومة الفرنسية كانت ترى ان ضرب انكلترا عدوة فرنسا انذاك يجب ان يكون بتوجيه ضربة مباشرة الى الجزر البريطانية مباشرة .لذلك جندت لتنفيذ هذه الخطة ما اطلق عليه «جيش انكلترا » واختارت نابليون بونابرت لقيادته . ورأت ان الحملة على مصر تكتنفها الصعاب والعقبات ، فالاسطول البريطاني قد يعترضها ويعرقل سيرها الى مصر فتصاب فرنسا بكارثة كبرى .وقد تثير غضب الدولة العثمانية ، صاحبة السيادة على مصر . وهي ليست في حاجة لخلق اعداء جدد ، حيث ان غزو ولاية عثمانية سيؤدي الى اعلان السلطان العثماني الحرب على فرنسا ، بينما كانت علاقة فرنسا بالباب العالي طيبة ومن ثم فالاجدى لها ان تبقى فرنسا على صداقة الباب العالي خاصة وان فرنسا الثورة استطاعت بعد جهد ان تحصل على اعتراف السلطان سليم الثالث بالجمهورية الفرنسية سنة ١٧٩٤م .هذا بالاضافة الى ان غزو مصر قد يتيح الفرصة لروسيا فتعمل من جانبها على احتلال اكبر مساحة ممكنة من الدولة العثمانية ، وقد تفقد فرنسا جيشاً هي في حاجة اليه اذا ما تجدد القتال مع اعدائها في اوربا .

اما وجهة النظر الثانية المؤيدة لمشروع الغزو فأبرز من يمثلها ، كما اشرنا انفا ،بونابرت وتاليران . ومكالون وكان بونابرت يرى استحالة غزو بريطانيا مباشرة لأنها جزيرة تحرسها قطع من اسطولها البحري المتفوق . وقد لاتجد الحملة الفرنسية عقبة في طريقها الى مصر ، لان انكلترا تحشد

اسطولها حول نفسها .لترد فرنسا وان بالامكان تجنب الاصطدام باية قوة بحرية بريطانية في البحر المتوسط اذا ما احيطت الحملة بالكتمان والسرية التامة . كما ان تكاليف الحملة الفرنسية على مصر اقل من تكاليف الحملة على بريطانيا ، وان نتائج الحملة الاولى مضمونة بدرجة اكبر ،اذ ان احتلال مصر سيعوض فرنسا عما فقدته من مستعمرات في الهند وامريكا .وان تحويل التجارة العالمية الى مصر بشق قناة بين البحرين الاحمر والمتوسط سيفقد بريطانيا احتكارها لطريق رأس الرجاء الصالح وسيقضي على التجارة البريطانية حيث ان الطريق العالمي عبر مصر بعد شق القناة سيغري الدول باستخدامه لانه اقل كلفة واقصر مسافة . وبوصل البحر المتوسط بالبحر الاحمر تستطيع السفن الفرنسية الوصول الى الهند ومهاجمة انكلترا هناك . وكان بونابرت يعتقد كذلك ان بالامكان اقناع الدولة العثمانية بان غزو مصر ، ليس موجهاً ضدها وانما للقضاء على المماليك.. وازاء هذا المنطق من قائد عسكري لمع اسمه بعد انتصاراته العديدة للدفاع عن الجمهورية الفرنسية اقتنعت حكومة الادارة ووافقت على غزو مصر واتخاذها مركزاً للتوسع في الوطن العربي وقاعدة لضرب المصالح البريطانية في الهند والخليج العربي .

عينت حكومة الادارة الجنرال بونابرت قائداً لما عرف بـ«جيش الشرق» في ١٢ نيسان ١٧٩٨م وصدرت التعليمات موضحة اسباب الغزو كما يلي:

«ان حكومة الادارة لما رأته من ان البكوات المماليك الذين استولوا على حكومة مصر قد اتصلوا بالانكليز بأمتن الروابط ، وجعلوا انفسهم تحت مطلق تصرفهم. وانهم يرتكبون الاعمال العدائية والمظالم الفظيعة ضد الفرنسيين ويضطهدونهم وينهبون اموالهم ويعتدون على ارواحهم .....» . وقد تضمنت التعليمات قيام بونابرت بقيادة الحملة واحتلال مصر وطرد الانكليز من جميع بلاد الشرق التي يستطيع الوصول اليها ، وهدم المراكز

غادر الحملة الفرنسية ميناء طولون جنوب فرنسا

التجارية العائدة لهم في البحر الاحمر وعهدت اليه مهمة حفر قناة خلال برزخ السويس واتخاذ كل الوسائل الضرورية لتأمين الاستخدام الحر والامثل للبحر الاحمر من قبل السفن الفرنسية .

بدء عملية الغزو وظروفه :

ابحرت الحملة من ميناء طولون في جنوب فرنسا في ١٩ أيار سنة ١٧٩٨م بقيادة الجنرال نابليون بونابرت .وكانت الحملة مؤلفة من (٣٦,٠٠٠) مقاتل وما لزمهم من الخيول والمدافع. ورافقها (١٤٦) عالماً وفناناً وجغرافياً وفلكياً وجيولوجياً وطبيباً فضلاً عن معاملهم وادواتهم العلمية .وكان معظمهم من اعضاء المجمع العلمي الفرنسي وقد استولت الحملة الفرنسية في طريقها على جزيرة مالطة في ٩ حزيران سنة ١٧٩٨م واتخذتها قاعدة في الطريق بين فرنسا ومصر . كما واستصحب بونابرت معه عدداً من سكانها العرب للاستفادة منهم في الترجمة والتفاهم مع المصريين .وكانت الحملة في تحركها من طولون نحو مصر .تحيط نفسها بدرجة عالية من الكتمان والحذر خوفاً من مطاردة الاسطول البريطاني الذي كان يجوب البحر المتوسط أنذاك بقيادة الاميرال نلسون Nilson وقد اقلعت باتجاه كريت للافلات من الاسطول البريطاني . وفي اواخر شهر حزيران اقتربت من الشواطيء المصرية عند مدينة الاسكندرية . وقد علم بونابرت بان الاسطول البريطاني قد سبق وصول الحملة الفرنسية الى ميناء الاسكندرية بثلاثة ايام ، وانه غادر الميناء المذكور بحثاً عن الاسطول الفرنسي في شواطيء البحر المتوسط .

بدأ انزال الجيش الفرنسي بالقرب من الاسكندرية. في اول تموز ١٧٩٨. وقد استعد اهالي الاسكندرية للمقاومة فأخذوا يحصنون القلاع ، ويزيدون عدد الجنود بالمتطوعين للقتال . واستغاث السيد محمد كريم حاكم الاسكندرية بالمماليك في القاهرة لارسال قوات كافية تساعده في المقاومة .

الا ان حكام مصر من المماليك استهانوا بالامر وقالوا أنهم سيقذفون الفرنسيين في البحر ، وان مصيرهم سيكون مصير لويس التاسع وجيشه .

لقد عانت مصر ، بعد عودة المماليك إلى حكمها من فوضى سياسية وتخلف اقتصادي وجمود ثقافي . وفي الوقت الذي كانت جحافل بونابرت تطرق أبوابها كان يتنازع الحكم فيها أميران من المماليك هما ابراهيم بك ومراد بك . ولم يكن مراد بك بمستوى المسؤولية حين حذره المسيو روستي Rosetti قنصل النمسا في القاهرة من ان بونابرت قادم إلى مصر . فقد اجاب على هذا التحذير قائلا :

«ماذا تريد من اخافتنا من الفرنسيين ؟ اليسوا أشباه الخواجات الذين نراهم بيننا؟ إنه ليكفيني اذا نزلوا إلى سواحل مصر في مائة الف من رجالهم ان ابعث للقائهم ببعض صغار المماليك ليقطعوا رؤوسهم» .

وحين حاول المسيوروستي اقناعه بأن الفرنسيين الذين فازوا بالنصر المبين في ايطاليا هم غير التجار المساكين الذين اعتاد رؤيتهم في اسواق القاهرة ، والح عليه بتحصين الاسكندرية ... أرسل إلى الاسكندرية قنطارين من البارود فقط ذخيرة لمدافعها . وفي هذا دلالة واضحة على ان المماليك كانوا يعيشون منعزلين عن احداث اوربا وتطورها في مختلف الميادين، لا سيما العسكرية منها .

ومهما يكن ، فقد اعتمد المصريون على انفسهم في الدفاع عن وطنهم ضد الغزو الفرنسي ، فبعد مقاومة عنيفة من سكان الاسكندرية، استطاع بونابرت دخول المدينة. وقد فقد الفرنسيون في معارك المقاومة المصرية قرابة مائة وعشرين قتيلا وجريحاً . اما رجال المقاومة فقد خسروا ما بين سبعمائة وثمانمائة بين قتيل وجريح . وقد اعتصم السيد محمد كريم في رهط من اتباعه بقلعة قاتيباى احتجاجاً على الاحتلال واعلنت الاسكندرية مدينة مفتوحة وسلمت بواسطة ادريس بك قائد احدى السفن العثمانية التي كانت راسية هناك . وقد شهد قواد الغزو باستماتة اهالي الاسكندرية في

الدفاع عن مدينتهم، وإلى شيء من هذا القبيل يشير الجنرال مينو في تقريره إلى بونابرت فيقول

«ان الجنود يستحقون الثناء العظيم على ما بذلوه من الاقدام والهمة والذكاء وسط المخاطر العظيمة التي كانت تحيط بهم لان الاعداء (يعني اهالي الاسكندرية) قد دافعوا عن المدينة بشجاعة وثبات عظيم»

واصل بونابرت زحفه نحو القاهرة، وقد واجه جيشه صعوبات جمة لشدة الحر وقلة الماء والغذاء. وكان ابناء العشائر العربية المنتشرة على الطريق بين الاسكندرية والقاهرة يتعقبون الجنود الفرنسيين ويغيرون عليهم. وبالقرب من أهرام الجيزة وفي موقع غير بعيد عن القاهرة حدثت المعركة الفاصلة وهي معركة الأهرام او امبابة. وفيها اصطدم النظام العسكري المملوكي المتخلف بالنظام العسكري الفرنسي الحديث، وانكشف امر المماليك، فلم يصمدوا طويلاً وانقسموا إلى شطرين رحل الاول إلى الشام بقيادة ابراهيم بك، وتراجع الثاني إلى الصعيد بقيادة مراد بك. وقد تكبد المماليك خسائر جسيمة خلافاً للفرنسيين الذين كانت خسائرهم طفيفة. وهكذا اضطرت إلى الاستسلام، فدخلها الفرنسيون في ٢١ تموز ١٧٩٨م.

وزع بونابرت منذ اول يوم لنزول قواته ارض مصر منشوراً باللغة العربية، اعده المستشرقون الذين رافقوه، وطبعت نسخ منه كثيرة. وفي هذا المنشور، اقترنت وبشكل غريب افكار الثورة الفرنسية في الحرية والاخاء والمساواة مع تهديدات المحتل الغاصب وحيل السماسرة المحترفين وتلاعبهم بعواطف الناس ومشاعرهم الدينية وقد نقل الجبرتي المنشور بنصه، ومما جاء فيه :

«بسم الله الرحمن الرحيم لا اله الا الله، لا ولد له ولا شريك له في ملكه، من طرف الفرنساوية المبني على اساس الحرية والتسوية (المساواة) السر عسكر الكبير امير الجيوش الفرنساوية بونابرت. يعرف اهالي مصر

جميعهم أن من زمان مديد ، السناجق الذين يتسلطون في البلاد المصرية ، يتعاملون بالذل والاحتقار في حق الملة (يعني : الرعايا) الفرنساوية ، ويظلمون تجارها بانواع الايذاء والتعدي . فحضرت الان ساعة عقوبتهم واخرنا من مدة عصور طويلة هذه الزمرة المماليك ... يفسدون في الاقليم الحسن... فأما رب العالمين القادر على كل شيء فإنه قد حكم على انقضاء دولتهم... يا ايها المصريون ... انني ما قدمت اليكم الا لاخلص حقكم من يد الظالمين ... » .

ومما جاء في النداء كذلك :

«...ان جميع الناس متساوون عند الله وان الشيء الذي يفرقهم عن بعضهم هو العقل والفضائل والعلوم فقط وبين المماليك والعقل والفضائل تضارب ...طوبى ثم طوبى لاهالي مصر الذين يتفقون معنا بلا تأخير فيصلح حالهم وتعلى مراتبهم ...لكن الويل ثم الويل للذين يعتمدون على المماليك في محاربتنا ، فلا يجدون بعد ذلك طريقاً الى الخلاص ولايبقى منها اثر .. وكل قرية تقوم (يعني تثور) على العسكر الفرنساوي تحرق بالنار ...» .

وشرع بونابرت بعد دخوله القاهرة ينظم ادارة مصر . وكان من اهم اجراءاته تشكيل ديوان لحكومة القاهرة ودواوين في المديريات المصرية تعمل الى جانب الحكام العسكريين الفرنسيين وقد دعا الى اجتماع عام يعقد في القاهرة من «الاشخاص الذين لهم نفوذ بين الاهالي ، ومن الذين امتازوا بمركزهم العلمي وكفايتهم وطريقة استقبالهم للفرنسيين» . وكان هدفه من ذلك استشارتهم في التكييف النهائي للدواوين وفي وضع الجهاز الاداري والمالي للحكومة . وعين بونابرت اثنين من علماء الحملة الفرنسية لحضور المناقشات وتوجيهها . وضمن تعليماته في رسالة لهما قال فيها :

«ان الغرض من عقد الديوان هو تعويد الاعيان المصريين على نظم المجالس الشورية والحكم . فقولوا لهم : اني دعوتهم لاستشارتهم وتلقي ارائهم فيما

يعود على الشعب بالسعادة والرفاهية ، وما يفكرون في عمله اذ كان لنا حق الفتح الذي حزناه في ميدان القتال » .

وحدد بونابرت المسائل التي ينبغي على الديوان العام ان يبدي رأيه فيها ،وهي كما جاء في التعليمات :

«اولاً :ما هو اصلح نظام لتأليف مجالس الديوان في المديريات

ثانياً :ما هو النظام الذي يجب وضعه للقضاء المدني والجنائي .

ثالثاً: ما هو التشريع الذي يكفل ضبط المواريث ، ومحو انواع الشكاوي والاجحاف الموجودة في النظام المالي .

رابعاً : ما هي الاصلاحات والاقتراحات التي يراها الديوان لاثبات العقارات وفرض الضرائب . ويجب ان تفهموا الاعضاء باننا لانقصد الا توفير السعادة والرفاهية للبلاد التي تشكو من سوء نظام الضرائب الحالي. كما تشكو من طريقة تحصيلها . وعليكم ان تضعوا للديوان نظامه الداخلي كما يأتي :«ان ينتخب الاعضاء رئيساً له ونائباً للرئيس وسكرتيرين، ومترجمين اثنين وثلاثة مراقبين . وان يكون ذلك بطريقة الاقتراح وبكل مظاهر الانتخاب ، وعليكم ان تتبعوا المناقشات وتدونوا اسماء الاعضاء الذين يمتازون عن زملائهم في الديوان سواء بنفوذهم او بكفايتهم» .

واعتقد بعض المؤرخين ان بونابرت ، حاول ايجاد نظام جديد يحل محل نظام الحكم العثماني البالي، ويولد في احضان الجمهورية الفرنسية وفق المبادىء التي اعلنتها الثورة الفرنسية. ولكنه اصطدم بالمقاومة الشعبية وفشل في مهمته. وظل المصريون يعتقدون ان الفرنسيين اجانب عنهم واعداء الدين الاسلامي والواجب يقتضي طردهم من البلاد. ومهما يكن، فإن السلطة الفعلية ظلت بوجه عام في يد قوات الاحتلال وان سلطة ديوان بونابرت الذي تألف في ٤ أيلول سنة ١٧٩٨م لم تكن تتعدى مدينة القاهرة، وهي استشارية ومقيدة بتعهد اعضائه ان لايعملوا اي شيء ضد مصلحة

الجيش الفرنسي. فضلا عن انهم كانوا يعملون ويتداولون، كما يقول المؤرخ المصري عبد الرحمن الرافعي «بعين من الفرنسيين وتحت المراقبة المستمرة» . وكان طبيعياً ان يضم الديوان الاعيان والملاك والتجار والمشايخ والعلماء الذين رحبوا بالاحتلال وسلموا القاهرة دون مقاومة. وقد وصل عدد اعضاء الديوان العام إلى (٢٥) عضواً، تسعة منهم عن القاهرة وواحد من كل مديرية من المديريات الست عشرة، بحيث يكون ثلث اعضائه من مشايخ البلاد وثلثهم من التجار، والباقي من رجال الازهر. ويختار الديوان العام من بينه تسعة أعضاء يتألف منهم الديوان الخاص، الذي يجتمع باستمرار في القاهرة، ويكون في كل مديرية ديوان مؤلف من تسعة اعضاء ينتخبون بمعرفة جمعية عمومية مؤلفة في كل مديرية من العلماء والائمة والمشايخ واكابر التجار والصناع واعيانهم .

وبعد سقوط القاهرة بقليل وصلت انباء الى بونابرت تفيد بأن الاسطول البريطاني بقيادة (نلسون) قد عاد الى الاسكندرية، ودمر الاسطول الفرنسي في موقعة ابن قير البحرية في اول آب سنة ١٧٩٨ م . وكان لهذه الموقعة اثر كبير في القضاء على مشروع الفرنسيين بارسال حملة الى الهند لاخراج الانكليز. وكانت لها نتائج خطيرة على الجيش الفرنسي الموجود في مصر، إذ قطعت الصلة بينه وبين فرنسا نفسها، واضطر بونابرت إلى الاعتماد على مصر في تموين جيشه، ولم تقف اثار هذه المعركة عند هذا بل جعلت السلطان العثماني يعقد تحالفاً مع روسيا ضد فرنسا في ٢٣ كانون الاول سنة ١٧٩٨م، كما تم عقد معاهدة تحالف بين بريطانيا والدولة العثمانية في ٥ كانون الثاني ١٧٩٩م تألفت من مقدمة وثلاث عشر مادة .

وقد اشارت المقدمة الى ان التحالف انما كان موجهاً ضد «الاعتداءات العديدة الدنيئة التي قام بها الفرنسيون »ودلت المادة الاولى على ان المعاهدة كانت على نمط المعاهدة البريطانية — الروسية المنعقدة انذاك ، اذ كان القصد تأليف تحالف ثلاثي تكون بريطانيا حلقة الوصل فيه .وفي المادة الثانية تعهدت

(١ / ١ / ج ١ / ١٧٩٨ / ١١)

بريطانيا والدولة العثمانية تعهداً متقابلاً بضمان حدود ممتلكات كل منهما ، كما كانت قبل غزو الفرنسيين لمصر ،وكانت هذه المادة ،كما يقول المؤرخ العراقي الدكتور زكي صالح ،ضراحة هي بيت القصيد .فقد نجح الانكليز في استمالة الباب العالي الى جانبهم ، واصبحت لهم السيطرة على مداخل الطريق البري الى الهند ،وقاموا في الهند نفسها بما ادى الى استقرار مركزهم وهيبتهم هناك ثم تمكنوا من عقد اتفاق ودي مع ايران ،وكذلك مع امامة عمان ووجهوا الى العراق لاول مرة ،كما سبق ان قدمنا ،انتباهاً دبلوماسياً خطيراً .

* وبالرغم من محاولة القائم بالاعمال الفرنسي في استانبول المسيو روفين Ruffin افهام الحكومة العثمانية بان الحملة الفرنسية الموجهة الى مصر لم تكن لها اهداف عدوانية ضد الدولة العثمانية ،وان الحكومة الفرنسية ترغب رغبة صادقة في ابقاء العلاقات الودية بينهما ،الا ان العثمانيين لم يقتنعوا بهذه الحجة ، وأعتقلوا القناصل والرعايا الفرنسيين وصادروا ممتلكاتهم .وكان على بونابرت ان يتفرغ لمواجهة الاخطار الخارجية ،فضلاً عن الاوضاع الداخلية التي تمثلت بقيادة الثورة المصرية الاولى ضد الحكم الفرنسي .

الثورة الاولى :

اسباب الثورة

(١) كان لموقعة ابي قير تأثيرها على الشعب المصري حيث انها اججت نار الثورة في البلاد ، وشجعت المصريين على متابعة النضال ضد المحتل ،(٢) وكان دخول السلطان العثماني الحرب ضد فرنسا من العوامل القوية التي ادت الى الثورة .

(٣) وكان من اسباب الثورة كذلك تذمر المصريين من اجراءات الفرنسيين الاقتصادية والمالية ، اذا اراد بونابرت استغلال مصر لاعالة جيشه وتموينه خاصة بعد ان قطعت المواصلات بينه وبين فرنسا .ولذلك عمد الى تحصيل الاموال بمختلف الوسائل ففرض غرامات مالية على المدن وضرائب ثقيلة على الاراضي والعقارات والمهن والعرائض وغيرها . كما لجأ الى مصادرة



أموال كبار التجار والمشايخ الذين لم يرحبوا بالاحتلال امثال السيد المحروقي والشيخ السادات . ولعل ابرز مظهر من مظاهر الاستياء من الاحتلال الاحتجاج على السياسة الضرائبية ومحاولة الفرنسيين تنظيم الادارة وتسجيل الاملاك والرسوم على غرار ما كان سائداً في فرنسا ،وبطريقة لم يتعود عليها الناس مصر انذاك .هذا بالاضافة الى حالة الاضطراب والقلق والضيق الاقتصادي الناتج عن انقطاع التجارة بعد الحصار البحري الذي ضربه الاسطول البريطاني على السواحل المصرية . ١هرات ١لثورة

صار الجامع الأزهر ،لميداناً من ميادين الثورة ضد الغزو الفرنسي ، فسرعان ماتشكلت فيه لجان للمقاومة ،انضم اليها المشايخ والعلماء والائمة والمؤذنون واخذ الخطباء يحرضون الناس على الثورة ويثيرون الشكوك حول اعضاء ديوان القاهرة الذي شكله بونابرت ويتهمونهم بممالاة المحتلين ، واستفاد زعماء الثورة من فرصة تذمر الشعب من الضرائب والرسوم الجديدة فاعلنوا العصيان المدني في ٢١ تشرين الاول سنة ١٧٩٨م. فاقفلت الدكاكين وتجمع الالآف من ابناء الشعب ،وساروا في تظاهرة كبيرة الى مركز القيادة الفرنسية لاعلان تذمرهم من الضرائب والرسوم الجديدة ، وصارت القاهرة في ذلك اليوم في وضع لم تألفه من قبل ،حيث كان الناس يتلاقون على غير تعارف ويتبادلون الشكوى . واذا خطب واحد من رجال الدين تلقفت الجماهير المحتشدة خطابة بالحماس والتأييد .واقبل الفلاحون وسكان الضواحي الى القاهرة ليشتركوا في التجمهر ،وظهرت الاسلحة في كل مكان وقدم تقدم الثوار الى المخافر الفرنسية وقتلوا بعض حراسها واشتبكوا مع الجنود واطبقوا على حاكم القاهرة الفرنسي وقتلوه .وقد وصفت القاهرة ابان تلك الثورة في تقرير رسمي فرنسي بانها «اصبحت تشبه باريس خلال الايام الاولى من الثورة الفرنسية » «اذ احتشد (١٥) ألف ثائر في الجامع الازهر ، واقيمت المتاريس والحواجز حول الطرق المودية اليه ،وسارع الى القاهرة خمسة الاف فلاح من القرى المجاورة ،وبضعة الاف من البدو » .كما «هجم الفلاحون

المصريون على السعاة العسكريين والدوريات المسلحة ، واربكوا خطوط الاتصال الفرنسية ، وقتلوا الضباط والموظفين وجباة الضرائب الفرنسيين».

أسرع بونابرت في اتخاذ الاجراءات الكفيلة باخماد الثورة .وأمر جنوده باطلاق الرصاص على الثوار ،وضرب الجامع الازهر بالمدافع ، فأخذت الاف القنابل تنهال عليه وعلى الاحياء المجاورة له ،حتى أوشك ان يتداعى ، واستشهد الالاف من السكان تحت انقاض دورهم ،وقد ارسل بونابرت حملات تنكيل الى الدلتا ، وحرق ضباطه القرى الثائرة .

ازاء القسوة التي واجه بها بونابرت الثوار ، الذين فقدوا اكثر من اربعة آلاف شهيد ، تقدم عدد من المشايخ الى بونابرت وطلبوا منه وقف القتال . وبعد فشل الثورة فتك الجنود الفرنسيون بالمواطنين المصريين ، ودخلوا الازهر وربطوا فيه خيولهم ، ونهبوا ما فيه ، واعدموا كثيراً من الناس بدون محاكمة بحجة رفعهم السلاح بوجه الفرنسيين

هذا اهم نتائج ثورة القاهرة الاولى ١٧٩٨م.

لقد كان من نتائج الثورة ، شعور بونابرت بانه يعيش على ارض ترفض العدوان وتقاومه ، وصار كل فرنسي لايستطيع السير الا ومعه سلاحه .واخذ الفرنسيون يعاملون الناس بقسوة وصلف ، وقطع بونابرت سياسة التودد والمجاملة الي حاول انتهاجها بعد دخوله القاهرة ، وتشدد في معاقبة المحرضين ، واعدم عدداً من المشايخ ، وصادر املاكهم ، وعطل ديوان القاهرة مدة شهرين ، ثم اضطر الى اعادته في اواخر كانون الاول سنة ١٧٩٨م . وفي الوقت نفسه حاول زرع بذور الفرقة بين المسلمين والاقباط شأنه في ذلك شأن كل مستعمر يلجأ الى اسلوب التفرقة والطائفية لتثبيت حكمه ، ولكن هذه السياسة لم تنطل على الشعب العربي في مصر ، الذي قطع على بونابرت سبيل ذلك ، واعلن تمسكه بمبدأ النضال ضد المستعمر ، ولجأ الى التماسك والتعاون .

بذور القسمة تجعث من ارضنا العراق بفعل الاحتلال الامريكي.
١٠/٦/٢٠٠٥م

الغزو الفرنسي لسوريا :

قرر بونابرت غزو سوريا ، بعد ان اعلم بتحرك الجيوش العثمانية نحو مصر وذلك في شباط ١٧٩٩م . وكان يهدف من وراء حملته على الشام احراج موقف الاسطول البريطاني في البحر المتوسط ، والحيلولة دون حصوله على المؤن والتجهيزات من الموانيء السورية .وقد سقطت العريش بيده والرملة وغزة ويافا . وفي اذار ضرب الحصار حول عكا واستمر كذلك ثلاثة شهور ثم اضطر الى الانسحاب امام حصونها المنيعة ومقاومة اهلها الباسلة .وانتشار الطاعون بين جنوده ومساعدة الاسطول البريطاني لها بقيادة سدني سمث Smith وقد وقع بايدي الفرنسيين خلال الحصار ثلاثة آلاف أسير ، امر بونابرت باعدامهم جميعاً .

وبعد عودته الى مصر قرر مغادرتها الى فرنسا ، بعد ان سمع بسخط الجيش الفرنسي على حكومه الادارة وفشلها في مواجهة الاضطرابات الداخلية ، وتألب القوى الاوربية عليها . وقد ترك بونابرت الجنرال كليبر امور قيادة الحملة في مصر .

الثورة الثانية وخروج الفرنسيين من مصر :

واجه الجنرال كليبر سنة ١٧٩٩م ثورة جديدة في القاهرة اطلق عليها المؤرخون ثورة القاهرة الثانية، وقد اقام الثوار المتاريس الحصينة، وانشأوا معملاً للبارود وآخر لأصلاح الاسلحة والمدافع وصنع القنابل، جمعوا الحديد من الحوانيت وقدم الصناع ما لديهم من آلات وموازين، وتعاون المواطنون في تقديم المؤن والغذاء للثوار، ولكن الجنرال كليبر قاوم الثورة بقسوة شديدة، فطوق مدينة القاهرة، وقصفها بالمدفعية. وعمد إلى اضرام النار في الاحياء الثائرة، حتى ان كثيراً من السكان ماتوا تحت الانقاض

ومهما يكن، فقد شعر كليبر بعدم قدرته على البقاء في ارض مصر، فبعث برسالة إلى الحكومة العثمانية طالباً فيها انهاء الحرب بين الدولتين.

ومما يجدر ذكره ان بونابرت نفسه، منذ الاشهر الاولى التي اعقبت الغزو الفرنسي لمصر، حاول ان يصل مع الباب العالي إلى تفاهم يؤدي الى استمرار الوجود الفرنسي في مصر الا انه فشل في ذلك.

بدأت المفاوضات الفرنسية – العثمانية وانتهت بعقد معاهدة العريش في كانون الثاني سنة ١٨٠٠م. وخلاصتها: الموافقة على جلاء الفرنسيين بكامل اسلحتهم وامتعتهم على سفن فرنسية وعثمانية بدون قيد او شرط. ولكن الحكومة البريطانية تدخلت، وطلبت تسليم الفرنسيين انفسهم واسلحتهم اسرى حرب فرفض الفرنسيون ذلك. وكان الانكليز يعتقدون بان وجود الجيش الفرنسي في مصر مفيد لهم، اذ ان ذلك يحول دون اشتراكه في الحروب الدائرة في اوربا ضد بريطانيا وحلفائها. ولكن بعد سنة ١٨٠١م تغير الموقف في اوربا، عندما بدأت خطوات الصلح بين بريطانيا وفرنسا تسير بسرعة، واصبح الوجود الفرنسي في مصر ذا وزن كبير في المفاوضات البريطانية- الفرنسية لذلك، وتم الاتفاق سنة ١٨٠١م على جلاء الجيش الفرنسي بكامل اسلحته على سفن بريطانية. وبعد الجلاء المذكور نجحت المفاوضات البريطانية- الفرنسية وعقد صلح اميان في ٢٧ آذار سنة ١٨٠٢م.

اما السلطان العثماني سليم الثالث، فقد سعى إلى عقد اتفاقية جديدة مع فرنسا في حزيران سنة ١٨٠٢م. وبذلك انتهت حالة الحرب بين الدولتين ووضعت اسس التعاون الفرنسي- العثماني في معاهدة جديدة اصبحت اساساً لما سمي فيما بعد "الامتيازات الاجنبية" اذ اصبحت فرنسا الدولة الأكثر رعاية في الاراضي العثمانية وتم تثبيت مطالب فرنسا في الملاحة في البحر الاسود.

آثار الغزو الفرنسي ونتائجه:

بالرغم من فشل الغزو سياسياً وعسكرياً، فانه ترك اثاراً مهمة في مصر والوطن العربي كله. فقد شبهت مصر قبل الغزو بحالة رجل مريض في غرفة مظلمة موصدة النوافذ والابواب، تفتك به الحمى، ويكاد يختنق

ويتصبب عرقاً من قلة الضوء والهواء واذا بالغزو الفرنسي يأتي كاعصار عاصف يقتلع كل شيء ، ويقتحم على الرجل غرفته بتيار بارد وضوء ساطع فاصبح المريض فجأة يرتعش من البرد ، وهو ما يزال يتصبب عرقاً ، ويكاد يعميه الضوء الساطع ،وهو الذي كاد يصيبه العمى من قلة الضوء . وهكذا يفقد المريض توازنه ، وهو يهتز ، ويظل مهتزاً فترة طويلة .

لقد كان الغزو ، اول تحد استعماري اوربي تعرضت له مصر في العصر الحديث لذلك فقد ايقظ هذا الغزو الشعب العربي في مصر من سبات طويل قضاه في ظل السيطرة العثمانية واشعره بشخصيته المتميزة ، ونبه شعوره القومي العربي الذي تمثل بثوراته المستمرة ضد الحكم الفرنسي وقارب بين فئاته المختلفة ، فكان ذلك ايذاناً بمولد الفكرة العربية القومية في مصر .

كما كان الغزو تجسيداً للمفارقة الهائلة بين نموذج المجتمع الحديث بكل ما ينطوي عليه من تطور عصري دائم ، ونموذج للمجتمع التقليدي بكل مايضمنه من ركود ودوران حول ذاته.ولقد اتاحت هذه المفارقة للمصريين فرصة مقارنة مظاهر الحياة الاوربية ، والفكر الفرنسي ، الذي تسرب اليهم مع الغزو ، بمظاهر حياتهم . فتفتحت أذهانهم وبدأوا عملية نقد لمجتمعهم وربطوا هذا المجتمع بالتيارات الدولية قدر استطاعتهم ، وخاصة بعد ان اصبحوا يسمعون احاديث الفرنسيين عن انجازاتهم التي حققوها في بلادهم والمتعلقة بالقضاء على الاقطاع واقامة الحكم القومي المركزي هذا فضلا عن ان الغزو كان يجسم كل ما حققته اوربا في القرون الثلاثة السابقة من قفزات الثورة العلمية ، والثورة الصناعية ، والثورة الاجتماعية ، ولذلك كانت شرارة المواجهة بين النموذجين ذات مضاعفات لا حصر لها. ورغم ان الغزو كان قصير الامد . الا انه مؤثراً في حركة التحديث Modernazation (او التغريب Westernization بمعنى الاقتباس من الغرب) .التي بدأت في عهد الوالي محمد علي باشا ،كما سنرى .

وهكذا كان للغزو الفرنسي ،تأثير واضح على بناء المجتمع العربي في مصر ، واتجاهاته الفكرية التي ظهرت أثارها واضحة فيما بعد . اذ ضعضع الغزو البنيان الاجتماعي القائم انذاك ، وهز المفاهيم الفكرية والاجتماعية التي كان المجتمع يخضع لها . وعاش الناس في مصر ثلاث سنوات من الاحداث الحسام ، كلها يكاد تكون جديداً ،وكلها يثير الفكر ، الامر الذي ادى الى فقدان ثقة المصريين بحكامهم من المماليك والعثمانيين .واصبحوا فجأة مسؤولين على الدفاع عن وطنهم . فتقاربو تحت هدف واحد ، وهو طرد الفرنسيين من بلادهم واقامة دولتهم الحديثة الموحدة القوية .

والفرنسيون كمستعمرين هدفهم استغلال البلد الذي يحتلونه استغلالاً كاملاً وتسخير امكاناته في خدمة تطورهم الرأسمالي الانتاجي ،لذلك فان بونابرت — كما اسلفنا — اصطحب معه (١٤٦) من العلماء والمؤرخين والجغرافيين والجيولوجيين والاطباء والفنانين والفلكيين واللغويين لدراسة مصر من كافة النواحي الجغرافية والتاريخية والزراعية ،لكي تنظم في ضوئها عملية استغلال البلاد .وعندما تم تركيز السلطة الفرنسية في مصر تأسس مجمع علمي في ٢٢ آب سنة ١٧٩٨ على غرار المجمع العلمي الفرنسي ، وكان بونابرت نفسه عضواً فيه .وحددت أهدافه كما يلي :

١ — تقدم العلوم والمعارف في مصر .

٢ — دراسة المسائل والابحاث الطبيعية والصناعية والتاريخية الخاصة بمصر ونشر هذه الابحاث .

٣ — أبداء رأيه للحكومة في المسائل التي تستشيره فيها .

وقد ضم المجمع أقسام : الرياضيات والطبيعيات والاقتصاد السياسي والادب والفنون وكان يجتمع مرتين في الشهر .ويحق لقواد الجيش الفرنسي وضباطه من غير اعضائه حضور جلساته .وتنشر مذكرات الاعضاء وتقارير اللجان التي يؤلفها المجلس لدرس المسائل التي تعرضها الحكومة كل ثلاثة أشهر .ويمنح مجلس المجمع جائزتين كل سنتين أولاهما لأهم بحث يختص

بتقدم الحضارة في مصر ، والثانية لأهم بحث يتعلق بتقدم الصناعة . وقد عرضت قيادات الجيش أمام المجمع بعض المسائل لدراستها وابداء المقترحات حولها .ومن ذلك تدبير موارد الوقود اللازمة لافران الجيش والبحث عن أفضل وسيلة لترشيح وتبريد مياه النيل ،وافضل طواحين الهواء ،وهل ثمة مواد في مصر تصلح لصنع البارود ، ومسائل التعليم والقضاء والتشريع المدني والجنائي ، ومن المزروعات التي كانت محل بحث : العنب والقمح .

لقد ضمت الابحاث التي أجراها المجمع العلمي في كتاب يعد الان من الدراسات الكلاسيكية البارزة عن مصر بعنوان :«وصف مصر».

Description De L' Egypte

ويتألف من قسمين :الاول النصوص ويقع في «٢٦» مجلداً والثاني الخرائط والرسوم ويقع في «١١» مجلداً كبيراً وظهرت أجزاؤه بين سنتي ١٨٠٩ و١٨٢٦ وكان هذا المجهود العلمي من أفضل ماخلفه غزو الفرنسيين لمصر. كما بقي في مصر عدد من العلماء بعد جلاء الفرنسيين أسهموا في مجهودات محمد علي باشا لوضع مصر على عتبة العصور الحديثة . ومايزال «المجمع العلمي المصري» يعمل حتى وقتنا الحاضر .

وقد أنشأ الفرنسيون في القاهرة مطبعة عربية وأخرى فرنسية . كانتا أول مطبعتين أسستا في الوطن العربي في العصر الحديث. وأصدروا جريدتين فرنسيتين سنة ١٧٩٨ وهما La Decade Egytienne, Courier de l' Egypte وكانت الاولى للدعاية ونقل الاخبار وتقديم الارشادات إلى الجنود الفرنسيين في مصر. والثانية لمتابعة الشوؤن العلمية في مصر. وقد عثر أحد ضباط الحملة على «حجر رشيد » الذي نجح العالم الفرنسي شامبليون بقراءة الكتابة الموجودة عليه سنة ١٨٢٢ وبذلك حل رموز الخط المصري القديم المعروف ب(الهيروغليفي) فكان لذلك أثر بالغ في الدراسات الاركيولوجية (الاثارية) فيما بعد .

يضاف إلى هذا إنجاز الفرنسين الشيء الكثير في المجال الاجتماعي ومن ذلك إقامتهم المسارح لتمثيل الروايات «التراجيدية والكوميدية والاوبرا كوميك». وفي الوقت ذاته أنشأوا مسرح تيفولي الكبير، واتخذوا ميدان الازبكية ومتنزه التيفولي مكاناً لحفلاتهم التي حرصوا على إقامتها في المناسبات المختلفة. على أن أخطر ماكان المصريون يأخذونه عليهم أنهم — بما كانوا يظهرونه من أنواع الخلاعة والمجون في مهرجانات أعيادهم وفي مراقصهم — أفسدوا أخلاق البعض من الشبان وشجعوهم على الابتذال، وقد أخذ الفرنسيون كذلك يرغمون الاهالي على كنس الشوارع والحارات والدروب ورشها بالماء وإضاءتها بالقناديل. وكانوا يوقعون عقوبات صارمة على المقصرين في ذلك معلنين أن هدفهم المحافظة على الصحة العامة.

لقد قرر بونابرت كذلك تحقيق فكرة ربط البحر المتوسط بالبحر الاحمر التي كانت قد ظهرت في المحافل الاوربية منذ القرن السابع عشر، وعهد بتنفيذ ذلك إلى المسيو (لبيير) رئيس مهندسي الطرق والجسور في فترة الغزو، فقضى هذا سنتين في دراساته يساعده في ذلك عدد من مهندسي الحملة ورفع تقريراً إلى بونابرت تضمن خطأ هندسياً وهو أن مستوى البحر الاحمر أكثر إرتفاعاً بما لايقل عن إثنين وثلاثين قدماً وستة إنجات من مستوى البحر المتوسط. لذلك فإن فتح القناة يؤدي الى طغيان مياه البحر على منطقة الدلتا. وقد نشر المشروع في كتاب وصف مصر واطلع عليه فيما بعد رجل الاعمال الفرنسي فرديناندديليسبس DeLesseps واعجب به وصمم على تحقيقه وذلك بشق قناة في برزخ السويس تربط بين البحرين. وقد تم له ذلك، وسط ظروف دولية وفنية صعبة وفتحت قناة السويس أمام الملاحة العالمية سنة ١٨٦٩ وكان لها دورها في وضع مصر والاقطار العربية الاخرى وجهاً لوجه أمام الحضارة الحديثة، التي ظهر ميل شديد لدى ابناء الشعب العربي للاستفادة منها والتفاعل معها.

لم تكن الاقطار العربية غائبة عن معركة مصر مع الغزاة الفرنسيين.

فمنذ الايام الاولى للغزو التجأ الى بلاد الشام أولئك الذين رفضوا التعاون مع الفرنسيين فجعلوها مركزاً لنشاطهم ومقاومتهم . وكان بونابرت يعتقد كلما اشتدت المقاومة من حوله أو فوجىء بهجوم انه مهدد من الشام».وقد كشفت التحريات الفرنسية في ثورة القاهرة الاولى عن وجود مراسلات كثيرة بين شخصيات شامية وقيادات الثورة لتنظيم المقاومة فكان ذلك سبب اعدامهم وما ان اتجه الغزو الفرنسي الى الشام حتى وجد الفرنسيون امامهم المجاهدين المصريين وعلى رأسهم عمر مكرم جنباً الى جنب مع المواطنين العرب في سوريا .ويدل فشل الغزو الفرنسي لسوريا أنه لم يكن يواجه الحاميات العثمانية فحسب ،بل كان للعرب هناك دور كبير في طرد الغزاة .

هذا و لم تجد نفعاً رسائل بونابرت الى كل من شريف مكة وامام مسقط لاستمالتهما الى جانبه ومساعدته في بسط نفوذه وتحقيق هدفه في اقامة امبراطورية فرنسية في الشرق .

وعندما وردت الى الحجاز اخبار احتلال الفرنسيين وامتلاكهم الديار المصرية،انزعج أهل الحجاز وضجوا بالحرم ...وصار الشيخ الكيلاني(وهو رجل مغربي) يعظ الناس ويدعوهم الى الجهاد ويحثهم على نصرة الحق والدين وقرأ بالحرم كتاباً مؤلفاً في معنى ذلك فاتعظ جملة من الناس وبذلوا اموالهم وانفسهم واجتمع نحو ستمائة من المجاهدين ، وركبوا البحر الى القصير مع من انضم اليهم من أهل ينبع وخلافه ،فورد الخبر انه انضم اليهم جملة من أهل الصعيد وكانت لهم وقائع مشهورة مع الفرنسيين .

وقد قاد أحد المغاربة في منطقة البحيرة من مصر حركة ضد المحتلين واخذ يكاتب أهل البلد ويدعوهم الى الجهاد حتى اجتمع عليه أهل البحيرة وغيرهم وحضروا الى دمنهور وقاتلوا من فيها من الفرنسيين . وكانت حركته من اعنف الحركات التي واجهها الفرنسيون في مصر .

ولقد اسهم العراقيون في تخليص مصر من الاستعمار الفرنسي، حين كانوا يرسلون التبرعات المالية الى القوات العثمانية لمقاومة الفرنسيين. ويشير

لونكريك الى ان «اموال باشوية بغداد كانت ترسل الى استانبول لتعزيز جيوش السلطان المقاتلة في مصر ضد الفرنسيين» . وحين تاكدت في العراق اخبار جلاء الفرنسيين عن الشام سنة ١٧٩٩م وعن مصر سنة ١٨٠١م عم فرح شديد لانتصارات «جيوش السلطان خليفة المسلمين على هؤلاء الفرنجة. الصليبيين» .

ولاعجب ان يحمل الشعور القومي شاباً ثورياً من حلب يدعي سليمان الحلبي كان يدرس في الجامع الازهر ، على اغتيال خليفة بونابرت القائد الفرنسي الجنرال كايبر . وفي هذا دلالة واضحة على تضامن العرب ووحدة كفاحهم .

بروز محمد علي ومحاولاته بناء الدولة العربية الحديثة :

عاد الصراع على الحكم بين العثمانيين والمماليك بعد جلاء الفرنسيين من مصر مرة اخرى . وقد حاول الانكليز الاستفادة من ذلك الصراع وتوجيهه لمصلحتهم ، ولكنهم اضطروا للخروج من مصر سنة ١٨٠٣م بمقتضى شروط صلح اميان بينهم وبين الفرنسيين. ومع ذلك لم يتخل الانكليز عن خططهم التوسعية . اذ اصطحبوا معهم الى لندن محمد الالفي قائد قوات المماليك الموالي لهم بغية اعادته الى مصر في اللحظة المناسبة .

استطاع العثمانيون تعزيز سلطتهم عـن طريق واليهم خورشيد باشا الذي نفذ تعليمات السلطان سليم الثالث فيما يتعلق بالتخلص من المماليك وابادة بعضهم واسر البعض الاخر .

اما المصريون ، فقد اشرنا فيما سبق الى انهم بدأوا يشعرون خلال حركة مقاومتهم للغزاة الفرنسيين بشخصيتهم القومية . لذلك بدأوا يلتفون حول قادة المقاومة ، وابرزهم انذاك السيد عمر مكرم نقيب الاشراف في مصر ، وحين حاول الوالي خورشيد باشا الذي عين في اذار ١٨٠٤م فرض ضرائب جديدة تساعده على دفع رواتب جنده ، نشبت ثورة عارمة

في مصر . كان لها عاملان اساسيان : اولهما التخلص من الحكم العثماني وهذا وعي انضجه وانماه الصراع الدامي الذي خاضه الشعب العربي في مصر مع الفرنسيين لاكثر من ثلاث سنوات . وثانيهما : الدافع الاقتصادي الممثل بالتخلص من الضرائب الباهظة التي فرضها الوالي العثماني على التجار واصحاب الحرف فاثقلت كواهلهم ، فضلا عن الاستغلال البشع الذي تعرض له الفلاحون وهم السواد الاعظم من ابناء الشعب .

رفض الشعب دفع الضرائب الجديدة . واقفلت المحلات ولجأ الناس الى الجامع الأزهر . وقد وصف احد المؤرخين تلك الايام بقوله :

«وضج الناس وتكدروا مع ماهم فيه من وقف الحال وغلاء الاسعار في كل شيء ... فلم يفتحوا الحوانيت وانتظروا مايفعل بهم ، وحضرت منهم طائفة الى الجامع الازهر ، ومر الاغا والوالي ينادون بالامان وفتح الدكاكين ، فلم يفتح منهم الا القليل » .

وفشلت كل محاولات خورشيد باشا في التفاهم مع قادة المقاومة اذ حاصرت الجماهير مندوبه اليهم ومرافقيه بالاحجار التي اخذت تنهال عليهم من كل حدب وصوب ، فتعذر عليهم الوصول الى الجامع الازهر وخرج الناس من بيوتهم يقيمون المتاريس في الشوارع ويحملون الدفوف والطبول والرايات ويدعون ويتضرعون ويقولون (يالطيف) . وشاركت جميع فئات الشعب في الثورة وتحولت القاهرة الى ميدان حرب . ولازم الناس السهر بالليل في الشوارع والحارات ، ولم تنقطع المناوشات بينهم وبين جنود الوالي ، فقد سقط من الجنود خلال شهر واحد ثلاثمائة وخمسون قتيلا . وكان لابد للوالي من التراجع امام الاجماع الشعبي . فقرر اعفاء الفقراء من الضريبة ، ولكن عمر مكرم قال له : «ان هؤلاء الناس ، وارباب الحرف ، والصنائع كلهم فقراء . وماكفاهم ماهم فيه من القحط والكساد ووقف الحال حتى تطلب منهم مغارم لجوامك العسكر وماعلاقتهم بذلك .. وكان في رد عمر مكرم على الوالي العثماني ، كما يقول المؤرخ السوداني

مكي شبيكة ، «حجة مقنعة لانه لايرى علاقة بين رواتب الجند والضرائب الباهظة على اصحاب الحرف البسيطة ، فالجنود انذاك مصدر قلق واضطراب اكثر منهـــم حمـــاة للامن والقانون» . ومما يلحظ انه لم يكن في استطاعة خورشيد باشا الغاء الضرائب كلها اذ لم يكن يملك مايدفع منه مرتبات جنوده عندئذ دعا عمر مكرم يوم ١٢ ايار سنة ١٨٠٥م الى عقد اجتماع بحضره القاضي وقادة المقاومة لدراسة وضع مصر ومستقبلها .

بعث الوالي بخمسة مندوبين لحضور الاجتماع الذي عقد في وضع كانت الجماهير فيه تطوف الشوارع والازقة مرددة هتافات معادية للعثمانيين ومن ذلك «يارب يامتجلي اهلك العثمانللي» و «شرع الله بيننا وبين هذا الباشا الظالم» . ومهما يكن فقد اسفر الاجتماع عن التوقيع على وثيقة تضمنت مطالب الشعب ، بعثوا بها الى الوالي ومما جاء فيها :

١ـ عدم السماح للجنود بدخول مدينة القاهرة بسلاحهم .

٢ـ عدم فرض اية ضريبة مالم تنل موافقة قادة المقاومة .

١ ـ بروز محمد علي باشا :

رفض الوالي العثماني تنفيذ مطالب الشعب ، فقرر الشعب عزله . اذ عقد زعماء المقاومة اجتماعاً في دار ضابط عثماني من اصل الباني ، جاء الى مصر مع القوات التي ارسلها السلطان ضمن الفرقة الالبانية لاخراج الفرنسيين منها سنة ١٨٠١م اسمه (محمد علي) وكانت له علاقة طيبة بقادة الشعب من المشايخ والتجار . وقد تحدث في الاجتماع عمر مكرم ودعا الى تعيين والي جديد . فقال الجميع «الرأي ماتراه» فأشار الى محمد علي فوقع الاختيار عليه وكتبوا وثيقة بتاريخ ١٣أيار ١٨٠٥م جاء فيها : «تم الامر بعد المعاهدة والمعاقدة على سيره بالعدل . واقامه الاحكام والشرائع وانه متى خالف الشروط عزلوه واخرجوه وهم قادرون على ذلك كما يفعلون الآن» . وبعد ان لاحظ السلطان العثماني سليم الثالث نمو دور الشعب في مصر وقوته التي اوصلت

تاريخ تعيين محمد علي واليا على مصر

محمد علي الى مركز الولاية ، اضطر الى المصادقة على هذا التعيين وارسل فرماناً بذلك في تموز سنة ١٨٠٥م. ولقد كان تعيين الوالي الجديد ، الذي أخذ عليه زعماء الشعب العهود والمواثيق ان يحكم بالعدل والايبرم امراً الا بمشورتهم حدثاً مهماً في تاريـــــخ مصر الحديث، لان الشعب استطاع التعبير عن حقه في تقرير مصيره واختيار حاكمه بنفسه ، من خلال زعمائه وممثليه .

في البدء اعتمد محمد علي على زعماء الشعب . وكان عليه مواجهة فلول المماليك الذين نجحوا في التخلص من مذابح الوالي العثماني بعد توسط الانكليز وعددهم (٢٥٠٠) مملوك . وقد تجمعوا في الصعيد . وبينما كان محمد علي منهمكاً في مطاردتهم جاءته أنباء الغزو البريطاني للشواطئ المصرية في اذار ١٨٠٧مبقيادة الاميرال فريزر وكما هومعروف فان بريطانيا، بعد ان تحالفت الدولة العثمانية مع فرنسا سنة ١٨٠٧م اعلنت الحرب على الدولة العثمانية ودخل الاسطول البريطاني بحر مرمرة لكنه فشل في الوصول الى استانبول ، عندها قرر الانكليز غزو مصر . وكان الجنرال فريزر على اتفاق سابق مع قادة المماليك المناوئين لمحمد علي. وفي ١٧ اذار ١٨٠٧م نجح الانكليز في انزال قوات قوامها خمسة الاف مقاتل الى الاسكندرية . وقد تقدمت القوات المصرية بقيادة محمد علي لمواجهة الغزاة الذين وجهوا وحدتين عسكريتين في اواخر اذار الى رشيد ، لكن المصريين تمكنوا من سحقهما وابادتهما والحيلولة دون تقدم قوات اخرى نحو القاهرة .. عندئذ اضطر الانكليز ، ازاء المقاومة الانسحاب نحو الاسكندرية بعد ان اندحروا مرتين بالقرب من رشيد وزحف محمد علي بجيشه نحو الاسكندرية وفرض على القائد الانكليزي عقد الصلح والجلاء عن الاراضي المصرية في ايلول سنة ١٨٠٧م .

عمل محمد علي على توطيد نظامه والانفراد في السلطة ولم يمض وقت طويل حتى تخلص من زعماء الشعب وفي مقدمتهم عمر مكرم الذي نفاه

الى دمياط . كما دبر مايعرف بمذبحة المماليك سنة ١٨١١م وفتك بهم كما. تخلص من الجنود الالبانيين في اذار من السنة ذاتها بعد ان اصبحوا يميلون الى الشغب وعدم الخضوع للضبط العسكري .

حقاً كان لنجاح محمد علي في ايقاف الغزو البريطاني وتنظيم المقاومة ضده ووضع الحد لشغب وفساد المماليك والالبان ، والتفاف القوى الوطنية حوله أثر كبير في ارتفاع سمعته وازدياد شعبيته واقتناع الباب العالي بجدارته في حكم مصر .

٢ ـ محاولات محمد علي لبناء الدولة الحديثة :

لاحظ محمد علي بما امتلك من مقدرة ونفاذ بصيرة نزوع اتجاهات الوعي الوطني والقومي في مصر الى الاستقلال ، فلم ير بدا من السير في هذا الاتجاه سيراً واعياً ، مسلماً بتفاصيلها مدركاً ابسط وادق حقائقها ، واذا كان لابد من الاستقلال فلابد من بناء الدولة القادرة على حماية الاستقلال . فكانت جهوده لجعل مصر دولة حديثة . ومن هنا يعد حكمه في مصر (١٨٠٥ ـ ١٨٤٨)م نقطة تحول ليس في تاريخ مصر فحسب ، بل في تاريخ الوطن العربي كله . وقد بذل جهوداً كبيرة في تعزيز هيبة الدولة وتطوير اقتصاد البلاد ، لذلك فقد استحق من المؤرخين لقب «مؤسس مصر الحديثة» «The fourder of Modem Egypt» واذا اردنا التاكد من استحقاقه لهذا اللقب ، علينا ان نستعرض سلسلة التغيرات التي انجزها على مختلف الاصعدة العسكرية والادارية والاقتصادية والتعليمية والتي اصابت بنية المجتمع المصري انذاك وظهرت نتائجها في مراحل لاحقة من تاريخ مصر الحديث .

١ ـ اجراءاته العسكرية :

اعتقد محمد علي ان اهم سند للدولة هو الجيش القوي لذلك كان الجيش هو الدعامة الاولى التي اقام عليها استقلال مصر ، والوسيلة الفعالة

في اقامه دولة عربية حديثة موحدة . وقد هيأ محمد علي كل دوائره واجهزته لتقوية الجيش والاسطول . فادخل الاسلحة الحديثة وامر بتطبيق نظم التدريب الاوربية الحديثة ، وقد استفاد من خبرة فرنسا في هذا المجال . فاستقبل بعثة عسكرية رسمية بقيادة الجنرال «بوابيه» لتدريب جيشه .

واستعان بضابط فرنسي برتبة كولونيل (عقيد) اسمه اوكتاف جوزف إنتلم سيف Seves سنة ١٨١٩م عرف بعدئذ بسليمان باشا الفرنساوي لتنظيم جيشه على غرار الجيش الفرنسي . وقد اسس عدداً من مصانع المدافع والبنادق والمتفجرات ، واشترى عدداً من السفن من مرسيليا وتريستا وليفورنو وانشأ ترسانة بحرية كبرى في الاسكندرية . وفي كانون الثاني ١٨٣١م انزلت الى البحر اول سفينة مصرية ذات مائة مدفع . وقد استعان بخبرة مهندس بحري فرنسي اسمه «سريزي» سنة ١٨٢٩م وفي الوقت ذاته ارسل عدداً من الشبان لدراسة فن بناء السفن في اوربا ،وخلال فترة قصيرة تدرب (١٥) الف مصري على الفنون البحرية . واسس محمد علي عدداً من المدارس العسكرية لاعداد الضباط والمراتب ومن ذلك المدرسة البحرية العسكرية والمدرسة العليا العسكرية التي اقيمت على غرار المدرسة الحربية الفرنسية المعروفة «سان سير» وتعد أول كلية عسكرية في مصر .هذا فضلاً عن مدارس المشاة في دمياط والخيالة في الجيزة والمدفعية في طره والموسيقى في القاهرة . وما لبثت هذه المدارس ان بدأت تغذي الجيش المصري بالكوادر الوطنية وكان لمحمد علي باشا الفضل في تجنيد المصريين. اذ أقام المعسكرات التدريبية في أسوان وغيرها ، وقد انخرط في هذه المعسكرات الاف من الشبان . وقد ترجمت الانظمة العسكرية الفرنسية الى العربية ، واصبحت العربية منذ ذلك الوقت لغة الجيش والادارة في مصر .

هذا وقد اتسع حجم الجيش المصري اتساعاً كبيراً في نهاية الثلث الاول من القرن التاسع عشر فقد اصبح يضم في سنة ١٨٣٣م (٣٦) فوجاً من المشاة ، قوام كل فوج منها ثلاثة الاف جندي و (١٤) فوجاً من الحرس

يبلغ تعدادها العام (٥٠) الفا و(١٥) فوجاً من الخيالة ذا (٥١٠) حسام و(٥) افواج من المدفعية تعدادها الفا جندي . وبهذا يكون المجموع العام قرابة (١٨٠) الف جندي . يضاف الى ذلك القوات غير النظامية التي بلغ تعدادها العام حوالي (٤٠) الف شخص . اما الاسطول المصري فقد اتسع ليضم نحو خمسين قطعة بحرية .

اجراءاته الادارية :

لم تقتصر جهود محمد علي على تطوير الجيش والاسطول وتقويتهما وانما تناولت النواحي الادارية . ومما يلفت النظر في اجراءاته ، اختفاء اسماء الدوائر الادارية والالقاب القديمة وظهور اسماء جديدة . من ذلك استحداث كلمة (مديرية) بمعنى محافظة وظهور لقب (مدير) اي رئيس المديرية ويعد مسؤولاً عن تنفيذ اوامر الباشا في مديريته وخاصة فيما يتعلق بجباية الضرائب والمحافظة على الجسور والترع والاشراف على المعامل في مديريته واصدار التوجيهات حول بذر بذور المحاصيل وريها وظهر لقب (رئيس المركز) ويضطلع بالمسؤولية الكاملة في القرى الواقعة تحت اشرافه . كما ادى استيلاء مصر على بعض المناطق خارج حدودها إلى استخدام لقب جديد هو (الحكمدار) ويجمع الحكمدار في يده السلطتين العسكرية والمدنية .

لقد اصبحت الوظائف الحكومية في عهد محمد علي اكثر تعقيداً واختلافاً عما كانت عليه قبله . فالاجراءات التي تمت بالنسبة للاراضي الزراعية ادت إلى احداث تغييرات في النظام المالي للحكومة . كما تطلب التوسع في الجيش إلى اقامة نظام للادارة العسكرية لم تعرفه مصر من قبل. ومن جهة اخرى تطلب بناء الاسطول وتطوير المدارس وتنمية التجارة والصناعة تأسيس جهاز حكومي للاشراف على هذه المؤسسات ولذلك الف محمد علي مجلساً للحكومة باسم (الديوان العالي) ومقره القلعة . ثم كون

في سنة ١٨٢٤ — ١٨٢٥ م مجلساً سماه (المجلس العالي) يتألف من نظار الدواوين ورؤساء المصالح واثنين من العلماء يختارها شيخ الازهر ، واثنين من التجار يختارهما كبير تجار العاصمة وغيرهم . ولكن محمد علي سرعان ماوجد ان تلك المجالس لاتؤدي واجبها على الوجه المطلوب ، ولاتناقش الامور كما ينبغي ، فأمر بالغاء اكثرها وتركيز العمل في الدواوين ولهذا السبب اصدر اللائحة الادارية المعروفة بالقانون الاساسي (قانون نامة) في حزيران — تموز ١٨٣٧ وقد حصر هذا القانون السلطة في سبعة دواوين هي :

١ — ديوان الخديو (وزارة الداخلية) ويختص بالشرطة والشؤون القضائية.

٢ — ديوان الايرادات (وزارة المالية) .

٣ — ديوان الجهادية (وزارة الدفاع او الحربية كما تسمى في مصر) .

٤ — ديوان البحر (وزارة البحرية) .

٥ — ديوان المدارس (وزارة التربية) .

٦ — ديوان التجارة (وزارة التجارة).

٧ — ديوان الفاوريقات : الفابريكات Fabric اي المعامل (وزارة الصناعة).

وطلب محمد علي من رئيس كل ديوان ويحمل لقب (مدير) تقديم تقرير اسبوعي للباشا عن احوال ديوانه ، وكشفاً شهري بحساباته الى تفتيش الحسابات فضلا عن تقديم ميزانية سنوية . وحل محمد علي مشكلة الكوادر الادارية ، باستخدام المزيد من مصريين في الوظائف والمراكز الادارية واحلالهم محل الاتراك والمماليك . ويرى احد الباحثين وهو جبرائيل باير Gabriel Baer ان اشغال المصريين تدريجياً للوظائف التي كانت وقفاً على الاتراك كان من ابرز التغييرات التي حدثت في بنية المجتمع المصري في القرن التاسع عشر ويقصد بذلك ظهور طبقة بيروقراطية (مكاتبية) مصرية كان لها اثرها في السيطرة على مقدرات مصر بعد ذلك .

اجراءاته الاقتصادية :

اهتم محمد علي بتحقيق الرفاه المادي للبلاد . فشجع الزراعة ، وطور نظام الري ، وادخل محصولات جديدة الى البلاد ، ونمى محصولات اخرى ، ومنها القطن والقنب والنيلة والتوث وقصب السكر واعدها للتصدير واحتكرتها الدولة . بعد ان صير محمد علي الدولة المالكة الوحيد لجميع اراضي البلاد . فصادر اراضي المماليك واستولى على اراضي الاوقاف خلال السنوات ١٨٠٩ ــ ١٨١٥م واخذت الدولة على عاتقها الانفاق لاعالة رجال الدين وصيانة المساجد ، والغى في سنة ١٨٠٩م نظام الالتزام الذي كان شائعاً في مصر انذاك ، ثم اعقبة المسح العام للاراضي ابتداءاً في سنة ١٨١٣م وبعد ذلك اعاد توزيع الاراضي الزراعية على الفلاحين فاعطى كلا منهم خمسة افدنة لاستثمارها بحسب توجيهات الدولة ، على ان تدفع الضرائب لها مباشرة وبذلك خلص الفلاحين من تبعيتهم الشخصية للملتزمين ، اما اذا عجز الفلاح عن استغلال ارضه او عجز عن دفع ضرائبها فللدولة الحق في استرجاعها . وقد حددت الحكومة لكل منطقة انواعاً معينة من المحاصيل لزراعتها ، وعندما كانت المحاصيل تنضج كان عمال الحكومة يتسلمونها ويضعونها في مخازن خاصة ، وتأخذ الحكومة حصتها نظير الضرائب المقررة وتشترى الباقي باسعار تقررها هي وغالباً ماتكون دون قيمتها الحقيقية ثم تبيعها للتجار الاجانب ، وغيرهم فتحقق ارباحاً كبيرة على حساب الفلاح . ومع هذا فقد عد الغاء نظام الالتزام في جباية الضرائب انقلاباً اقتصادياً واجتماعياً كبيراً في مصر فمن جهة شعر الفلاحون انهم تخلصوا من رق الالتزام ، ومن جهة اخرى ، ظهرت طبقة الملاك الذين قدر لهم ان يقوموا بعد ذلك بدور اساس في تاريخ مصر الحديث .

في البدء لم يسمح محمد علي بتكوين ضياع خاصة حتى لايؤدي ذلك إلى قيام طبقة مالكة تتحدى سلطته . وبقى يعد نفسه مالكاً لمعظم اراضي مصر ومحتفظاً بالارباح الناتجة من الزراعة . ولكن الامر لم يستمر على

ذلك ، اذ تأكد في اواخر العشرينات من القرن التاسع عشر ، من عدم صلاحية نظام الاشراف المباشر على الزراعة واحتكار وتحصيل الضرائب على ايدي مندوبين حكوميين . واراد ان يخفف من نظام الاحتكار الذي استحدثه في سنة ١٨١٢م وبدأ يشعر بضرورة احاطة نفسه بطبقة ارستقراطية من ملاكي الاراضي تدين له بقوتها وثروتها ، فقرر السماح بقيام نوع من الملكية الزراعية وقام بتوزيع الاراضي غير المسجلة في السجلات العقارية والمعفاة احياناً من الضرائب على افراد اسرته ، وعلى الاشخاص الذين ساعدوه واخلصوا له وعلى كبار الموظفين وقادة الجيش على ان لا يمنعوا عنه محصول ضياعهم الذي كان يأخذه بالثمن الذي يراه . لقد سُميت الاراضي الزراعية الواسعة التي منحها محمد علي خلال العقدين الاخيرين من حكمه لافراد اسرته «جفالك» ومعناها في التركية ملك واعفاها من الضرائب ، وكانت تعطي بهذه الاطيان وثائق تسمى (تقاسيط) او حجج تحرر بالمحاكم الشرعية .

أما الاراضي التي وزعت على القواد وكبار الموظفين المخلصين للوالي والمقربين اليه ، فتسمى «ابعاديات» وقد سميت كذلك لانها مستبعدة من المسح الذي انجز سنتي ١٨١٣ – ١٨١٤م للاراضي الزراعية فقط . وكانت مصر تعد حسب احصاء سنة ١٨٢١م، ٥,٥٣٢,٠٠٠ نسمة وتضم ٢,٢٣١,٩١٥ فداناً من الاراضي المغلة . وحتى سنة ١٨٣٠م ظل حق استثمار هذه الاراضي شخصياً ، وتطور هذا النظام نحو اشكال اكثر لبرالية ، نحو الارساء الفعلي للملكية الخاصة لذلك ، فقد ساءت احوال الفلاحين وازداد ضغط الملاكين عليهم ، وكثرت حالات الهروب من الريف واصبح من سلطة النظار ومشايخ البلد تفتيش القرى والمدن بحثاً عن الفلاحين الذين هجروا اراضيهم واجبارهم على العودة .

فيما يتعلق بالصناعة ، عمل محمد علي من اجل ارساء اسس علمية للصناعة الوطنية . والواقع ان الصناعة الوطنية القائمة على التقنيات الجديدة،

كانت حتى ذلك الحين غير معروفة في الشرق . وعلى كل حال فقد كانت التقنية الصناعية ماتزال في طريقها إلى احداث تغييرات اقتصادية ومالية في اوربا وذلك تحت التأثير القوي لبريطانيا . ويبدو ان محمد علي قد اطلع بسرعة على هذا التطور الصناعي الذي كان من شأنه فرض التفوق الاوربي على اقتصاد الدولة العثمانية الزراعي والحرفي ، فبدأ يرى ضرورة اقامة بعض الصناعات الضرورية في مصر في محاولة لتقليل امكانية الاعتماد على الدول الاوربية في شراء السلع المصنوعة اللازمة لجيشه واسطوله .

ومنذ الرابع من نيسان ١٨١٤م نشر محمد علي في مالطا اعلاناً يدعو فيه العمال من كافة الاختصاصات إلى التعاقد معه للعمل . وفي السنة التالية أمر وكلاءه في العواصم الاوربية تزويده بعمال مهرة ومتخصصين في صناعة النسيج التي كان ينوي دفعها إلى الامام . وهكذا بدأت الأيدي الماهرة في الهجرة إلى مصر ببطء تلبية لنداء محمد علي . وقد شكل هؤلاء العمال بعد مدة من الزمن جاليات تضم الآلاف المؤلفة بشكل خاص من السوريين واليونانيين والمالطيين والايطاليين . ومن بين هذه الكوادر سرعان ماظهر عمال واساتذة مصريون متخصصون في صناعة الحرير والنسيج والسكر والالبان والطرابيش والزجاج والحبال والدباغة والورق والبارود والمنتجات الكيميائية التي بدأت في الظهور منذ سنة ١٨١٨. وقد برز رجلان فرنسيان اعطيا صناعة الغزل والنسيج في مصر شهرة كبيرة ، وهما جبسيب بوكتي وجومل بوكتي من سكان ليون . وقد جاء الاول ميكانيكياً إلى مصر ابان الغزو الفرنسي . وفي ايلول سنة ١٨٠٩م عينه محمد علي مديراً عاماً لمصانع الدولة . وفي الوقت نفسه كان المهندسي الفرنسي جومل يجري تجارب على نوع جديد من القطن ادت إلى تحقيق ازدهار كبير لزراعة هذا الصنف. وقد اراد هذان الرائدان معامل القطن الكبيرة التي تم انشاؤها اولاً في سنة ١٨١٨م في القاهرة والخرنفش وبولاق . وقد حققت صناعة الانسجة المصرية نجاحاً كبيراً ليس في مصر وحدها ، بل في الإقطار العربية . وصار بامكان

مصر منذ ذلك الحين ان تطمح إلى منافسة منتجات مانجستر وكلاسكو كما اشتهرت الغزول المصرية في اوربا وصارت تصدر إلى موانئ بحر الادرياتيك وسواحل ايطاليا .

ظلت الصناعة المصرية في عهد محمد علي تعاني من مشاكل كبيرة، لعل من ابرزها امرين ، اولهما قلة المواد الخام والصناعة الفنية المدربة ، وثانيهما عدم تبلور طبقة برجوازية مصرية نشيطة تأخذ على عاتقها آنذاك القيام بعملية التصنيع ، عوضاً عن موظفي الدولة .

لقد اتسعت تجارة مصر ، وذلك لاهتمام محمد علي بتطوير ميناء الاسكندرية وجعله جاهزاً لرسو السفن الكبيرة . واضحت السفن المصرية تمخر عباب البحر الاحمر وشرق البحر المتوسط وقد اعيد افتتاح الطريق البري بين القاهرة والسويس واقيمت المحطات التجارية على طوله ولكن العامل الرئيسي الذي ادى الى توسع التجارة ، هو وضع الانتاج الصناعي والحرفي والزراعي تحت سيطرة الدولة وتحققت هذة السيطرة بوساطة نظام الاحتكار ، وهو جهاز ذو طابع خاص من التنظيم والادارة المركزية لحياة البلاد الاقتصادية .

وتكون هذا النظام خلال السنوات ١٨١٦ – ١٨٢٠م وهو يقوم على اشراف الموظفين على الاعمال الاقتصادية التي يقوم بها الفلاحون والحرفيون وتنظيمهم لها ، وكذلك على حق الدولة في شراء وبيع البضائع التي ينتجونها وعلى هذا الاساس وضعت تجارة الكثير من المنتجات الزراعية لدى الدولة . كما احتكرت الدولة انتاج وشراء القطن المغزول والمنسوجات والمناديل والصابون والسكر وبضائع اخرى . هذا فضلاً عن احتكارها للتجارة الداخلية والخارجية ، وقد اضطلعت الدولة بدور المورد الوحيد للبضائع المصرية الى الاسواق الداخلية ، والمصدر الوحيد الى الخارج ، وتحول تجار المفرد في المدن الى وسطاء يبيعون البضائع الحكومية .

اجراءاته التعليمية والثقافيـــة :

اهتم محمد علي بالتعليم . فكان له الفضل في انشاء المدارس الحديثة . وكان هدفه من ذلك تزويد مؤسساته العسكرية والادارية بالضباط والمهندسين والميكانيكيين والموظفين والخبراء في مختلف الاختصاصات العلمية والفنية فأنشأ النظام التعليمي على شكل هرمي، بادئاً بالتعليم العالي لحاجته المباشرة اليه في بناء جيشه وحكومته . وقد امده الازهر ، بعدد كبير من الشبان المتعلمين تعليماً دينياً تقليدياً ، فمن كان باستطاعتهم استيعاب مايلقى عليهم من دروس جديدة . وكانت اهم مشاكل التعليم العالي لغة التدريس ،لان أكثر المدرسين كانوا من الاجانب الذين لايعرفون اللغة العربية ، وكان على التلاميذ ان يدونوا المحاضرات في دفاترهم او تطبع في كتب خاصة بعد ترجمتها الى العربية ثم توزع عليهم . وكان التعليم في عهد محمد علي مجانياً بل كانت الدولة تدفع للتلاميذ مرتبات شهرية تشجيعاً لهم على المواظبة والاستمرار .

ان اول مدرسة انشئت في عهد محمد علي ، كانت مدرسة الهندسة في سنة ١٨١٦م وتلتها مدرسة الطب في سنة ١٨٢٧م والتي اتبع فيها منهاج كلية الطب في باريس ثم اعقبتها مدارس الصيدلة والالسن (اللغات) والفنون والصنائع والزراعة والطب البيطري . وكان ديوان المدارس الذي اشرنا اليه من قبل يشرف على نشر التعليم وبضع لوائحه ومناهجه الحديثة . وقد أكمل النظام التعليمي بين سنتي ١٨٣٦ و١٨٤٠م حين اصبح في مصر نحو (٥٠) مدرسة ابتدائية ومدرستان ثانويتان احداهما في القاهرة والاخرى في الاسكندرية .

إنتهج محمد علي سياسة إرسال البعثات العلمية في مختلف الاختصاصات إلى دول أوربا المختلفة وخاصة فرنسا ، منذ سنة ١٨١٣م وكان لهذه البعثات فضل كبير في تنوير الاذهان في مصر من خلال تدريسهم ونشاطهم في التأليف والترجمة وإسهامهم في الصحفة، وإحتلالهم للوظائف . وبلغ

عدد الطلبة الذين أرسلهم محمد علي بين سنتي ١٨١٣و١٨٤٧م إلى أوربا (٣١٩) طالباً وهو عدد لابأس به في ذلك العهد .إن البعثة الاولى التي توجهت إلى فرنسا ضمت عدداً من الطلبة الازهريين كان من بينهم العالم المصري رفاعة رافع الطهطاوي الذي قام بدور كبير في النهضة العربية الحديثة إذ جمع بين الثقافتين العربية والفرنسية ونشر عدداً من الكتب سجل فيها إنطباعاته عن الحضارة الاوربية، ومن أبرزها كتاب «تخليص الابريز في تلخيص باريز» ومنها «التحفة المكتبية لتقريب اللغة العربية»و« القول السديد في الاجتهاد والتقليد»و«المرشد الامين في تربية البنات والبنين ».

وقد شجع عدداً من طلبته في مدرسة اللغات على ترجمة كثير من الكتب من الفرنسية إلى العربية .وكان من نتائج حركة الترجمة إلى العربية ، أن بدأت اللغة العربية أولى خطواتها في سبيل النهضة الحديثة .إذ أخذ الاسلوب ينطلق شيئاً فشيئاً من قيوده البديعية القديمة ويصطنع لنفسه طرقاً جديدة يعني فيها بالمعنى دون اللفظ ، وبالجوهر دون العرض. وأحرزت العربية في مصر ،نصراً اخراً بحلولها تدريجياً محل التركية لغة رسمية للدولة.

أنشأ محمد علي مطبعة بولاق سنة ١٨٢١م، وهي تعد من أقدم المطابع في الوطن العربي . ولقد نشرت كتباً باللغة العربية وضعت في متناول المثقفين وبأثمان زهيدة نصوصاً من الاداب والعلوم العربية وكذلك ترجمات لافضل الكتب الفرنسية والانكليزية. وقد بقيت مطبعة بولاق ومنشوراتها حتى الوقت الحاضر شهيرة ليس في مصر وحدها وإنما في الوطن العربي كله. وفي سنة ١٨٢٧م تولت مطبعة بولاق ، طبع صحيفة الحكومة الرسمية (جورنال الخديو) وفي السنة التالية صدرت جريدة (الوقائع المصرية) التي قدر لها الاستمرار .ويعد محمد علي باشا أول من أصدر صحيفة رسميةفي الوطن العربي. وكان الهدف من (الوقائع) متابعة نشاط الحكومة، والاسهام في التوجيه والارشاد العام. وتعددت الصحف في مصر في ظل خلفاء محمد علي ،وأصبحت بفضل إسماعيل باشا (١٨٦٣ -١٨٧٩م) رسمية وشعبية .

وموالية ومعارضة .وكان لهجرة السوريين الى مصر في أعقاب مذابح سنة ١٨٦٠م ونشاط المصلح المعروف جمال الدين الافغاني السياسي والفكري تأثير كبير في تنوع الموضوعات التي أخذت الصحف تعالجها، وفي مقدمتها الاصلاحات الادارية والسياسية والدستورية، ومحاربة الاستبداد ونشر الوعي الفكري ،والدعوة الى الحرية والعدالة.ولم تحل سنة ١٨٨٢م حتى بلغت الصحف اليومية في مصر ثلاثاً وثلاثين صحيفة لاتزال إحداها وهي «الاهرام» تصدر الان.

٣ ـ سياسة محمد علي العربيـة :

اثارت سياسة محمد علي باشا في مصر مخاوف السلطان العثماني محمود الثاني (١٨٠٨ ـ ١٨٢٩م) وسخطه ، لانها محفزة لسكان ولايات الدولة على الاخذ بوسائل التقدم ، ومشجعة على الاستقلال بولاياتهم : لهذا اظهر السلطان عدم رضاه من سياسة محمد علي ، غير ان محمد علي استمر في تحقيق سياسته التي املتها عليه ظروف مصر وتطلعاته الشخصية وطبعتها بطابع الحرص على صفوف العرب . وقد تجلت هذه السياسة في قلق حكومة مصر من تطور العمليات العسكرية البريطانية ضد امارات الخليج العربي والبحرين بوجه خاص . ولشدة ما ابدته الحكومة المصرية من حرص على المصلحة العربية وتمسك بحقوق العرب ، اعتقد الدبلوماسيون الاوربيون ان السياسة المصرية تهدف الى احياء الدولة العربية القومية الموحدة . ولقد انعكس هذا الاعتقاد في الكثير من الوثائق والتقارير التي اعدها اولئك ، الدبلوماسيون وقدموها الى حكوماتهم . ويبدو ان احاديث وتصريحات محمد علي باشا وابنه ابراهيم باشا ، تشكل الاساس الذي ارتكزت عليه تلك المعتقدات . فقد اوضح محمد علي باشا اهدافه بصراحة في حديث له مع الجنرال الفرنسي بواييه Boyer سنة ١٨٢٥م قائلاً «انه سيعمد ، الى تجنيد كتائب جديدة من جيشه ... ثم يضع يده على اراضي الشام ... ولايقف بهذا الجيش الا على ضفاف دجلة والفرات» مضيفا انه «سيستولي على بلاد

اليمن ومضيق باب المندب ويحتل ميناء سواكن على الساحل الغربي للبحر الاحمر ، وان جيوشه ستملاء الجزء الاوسط في بلاد العرب ، وترفع اعلامها في سماء القطيف عند الخليج العربي » .

لقد بعث الجنرال بوايبه الى باريس بتلك الافكار التي صارحه بها محمد علي ، وهي افكار تتوافق مع ماكان يقوله ولده ابراهيم باشا حين اجاب على سؤال يتعلق بالمدى الذي ستصل اليه جيوشه قائلاً : «الى حدود البلاد التي لايتكلم فيها الناس اللغة العربية » .

اما بالمرستون وزير خارجية بريطانيا ، فقد كتب الى حكومته في ربيع سنة ١٨٣٣م يقول : «ان الهدف الحقيقي لوالي مصر هو تأسيس مملكة عربية تضم جميع البلدان الناطقة باللغة العربية» وقد ذكر المبعوث النمساوي في تقرير له الى حكومته في ١٧ ايار ١٨٣٣م، انه، خلال مقابلته لمحمد علي باشا في الاسكندرية ، اطلع على الخطوط العامة لسياسة محمد علي وتتلخص باقامة امبرطورية عربية تشمل مصر والسودان وشبه الجزيرة العربية والشام والعراق .

ان تفكير محمد علي ببناء دولة مصرية حديثة قاده بالضرورة الى تتبع الارتباطات الستراتيجية والقومية لمصر بالاطراف المحيطة بها بمجملها عربية وابرزها :

١ ــ ارتباط مركز مصر (الستراتيجي) بالسودان وبنهر النيل واحتمال تهديد هذا المركز في حالة سيطرة دولة اخرى على السودان وتحكمها في نهر النيل .

٢ ــ وقوع مصر على البحر الاحمر والخوف من امتداد النفوذ البريطاني اليه.

٣ ــ اهمية بلاد الشام والشاطيء الشرقي للبحر المتوسط ، ولكونها جبهة مصر الشمالية وممر الخطر العثماني الى مصر .

كان محمد علي يرى في بريطانيا الخطر الذي يهدده من جهتي السودان

والبحر الاحمر والجزيرة العربية . كما ان بريطانيا بقيت تتحين الفرص لاحتلال مصر واستعمارها بعد ان اخافها نشاط محمد علي في نقل مظاهر التطور الحضاري الاوربي الى مصر وتفكيره في تحويل الوطن العربي الى مركز قوة لما يتمتع به من مزايا ستراتيجية واقتصادية وحضارية .

في البدء حاول محمد علي التوجه نحو المغرب العربي عبر طرابلس وتونس حتى الجزائر ومراكش . ويبدو ان فرنسا شجعته على ذلك . اذ اقترح عليه قنصلها دروفتي ان «يولي وجهه شطر افريقيا الشمالية فيفتحها وينشئ فيها امبرطورية كبيرة تمتد على طول شواطى المتوسط الجنوبية الغربية ، من مصر الى المحيط الاطلسي ». ويعلق احد المؤرخين على ذلك بقوله :« ولم تكن فرنسا ، ولاشك تبغي بذلك مصلحة محمد علي فقط بل كانت تبغي مصلحتها كذلك ، اذ كانت تطمع في مشاركته في هذه الحملة ، وبالتالي في نتائجها السياسية والاقتصادية حيث يمنح محمد علي فرنسا امتيازات في امبراطوريته العتيدة» . لقد رفض محمد علي الفكرة الفرنسية ، لانه اراد ان تكون حملته عربية اسلامية بحته . وفضل ان يعود الى قراره الاساس وهو التوجه اولاً نحو المشرق العربي .

١ ــ نشاطه في الجزيرة العربية والخليج العربي :

بدأ محمد علي بالجزيرة العربية مستغلاً إستغاثة السلطان محمود الثاني به لمساعدته في القضاء على حركة الشيخ محمد بن عبد الوهاب (١٧٠٣ ــ ١٧٩٢)م المتحالف مع أمراء الدرعية من آل سعود سنة ١٧٤٥م بعد أن إنتشرت في نجد ،ونجحت في ضم الاحساء والبحرين ،وإمتدت إلى الحجاز واليمن وعمان ومسقط ،وهددت البصرة وبغداد وتمكنت من إقامة الدولة السعودية الاولى (١٧٤٥ ــ ١٨١٨)م وقد عجزت القوات العثمانية عن قمعها. والواقع أن محمد علي كان مدفوعاً الى ذلك بقلقه من تزايد النفوذ البريطاني. وقد إستطاع إبراهيم باشا أحتلال الدرعية عاصمة الوهابيين بعد حصار

دام ستة أشهر في أيلول سنة ١٨١٨ . وأخمد بذلك الحركة التي كانت تستهدف ، كما سنرى ،العودة بالاسلام الى نقائه الاول والعمل على إقامة كيان سياسي عربي في الجزيرة العربية .ثم تحركت القوات المصرية بقيادة خليل باشا لتقضي على فلول الوهابيين في عسير ومنطقة الساحل الشمالي لليمن وقد تمكنت هذه القوات من الاستيلاء على اليمن وإعادتها إلى حكم الائمة الزيديين في صنعاء بعد أن طردهم الوهابيين عنها .

إندفعت القوات المصرية بقيادة إبراهيم باشا سنة ١٨١٩م نحو سواحل الخليج العربي ونجحت في إخضاع الاحساء . ولقد أبدى الانكليز في البدء رغبة كبيرة في إيجاد صيغة للتعاون مع إبراهيم باشا،وكانوا يهدفون من ذلك الاستعانة بقواته في كسر شوكة سكان الساحل العماني الذين زاد إعتناقهم للدعوة الوهابية .غير أنه إضطر إلى الانسحاب في أواخر تموز ١٨١٩م بضغط وتأثير من السلطات العثمانية في العراق التي كانت ترى في وجود المصريين في منطقة الاحساء خطراً على وجودها في العراق .وقد إنتقد المؤرخون إبراهيم باشا لانسحابه السريع من شواطيء الخليج العربي ، معتقدين أنه أخطأ كثيراً في موقفه خاصة وإن تلك السواحل كانت تعاني آنذاك صراعاً إستعمارياً وضغطاً أجنبياً وخاصة من جانب بريطانيا .

ولربما شعر المصريون بهذا الخطأ الستراتيجي فعادوا إلى منطقة الجزيرة العربية والخليج العربي في أعقاب إنتصاراتهم في السودان والشام .ففي سنة ١٨٣٦ وجه محمد علي قوة جديدة إلى اليمن بقيادة إبراهيم يكن باشا الذي عينه «سرعسكر اليمن» وكان يسانده في تحركه الشريف عون شريف مكة .وقد إحتمل المصريون في أثناء زحفهم إلى عسير والمنطقة الممتدة إلى عسير والمنطقة الممتدة على طول الساحل اليمني حتى الحديدة مشاق كبيرة نتيجة لوعورة الطرق وسوء الطقس وقلة الماء .بيد أنهم إحتلوا معظم الثغور اليمنية ،وبعض المواقع الداخلية في تهامة وأصبح إبراهيم يكن باشا والياً على اليمن من قبل محمد علي متخذاً من الحديدة مركزاً لادارته. وقد أقام

المصريون في اليمن إدارة منظمة أتاحت إستقراراً نسبياً للبلاد لم تنعم به من قبل .كما أنهم إكتسبوا أعواناً كثيرين من اليمنيين وفي مقدمتهم أمام صنعاء الزيدي .كما إستلموا رسائل من حضرموت يطالب أصحابها بالانظمام إلى الادارة المصرية .وقد إستمرت حالة الهدوء النسبي في اليمن في ظل الادارة المصرية في الفترة الممتدة بين سنتي ١٨٣٦ — ١٨٤٠م ولم يتخللها سوى عمليات الغزو التي كانت تشنها بعض القبائل اليمنيـة.

وفيما يتعلق بنجد ،فقد مهد الافراج عن أحد الامراء السعوديين الموالين لمحمد علي، وهو خالد بن سعود السبيل للتغلغل في الأراضي النجدية وإعادة المناطق التي كانت تابعة للدولة السعودية الاولى ومنها القصيم وعنيزة وبريدة وحائل ثم الرياض. وفي أواخر أيلول ١٨٣٨م تقدمت القوات المصرية ترافقها قوات الامير خالد بن سعود ،شرقاً صوب منطقة الاحساء .وقد إضطر أميرها فيصل بن تركي إلى الاستسلام بعد أن تراجع إلى أواخر معقل لديه عند مدينة «دلم» فنقل إلى القاهرة في كانون الاول سنة ١٨٣٨.

أدركت السلطات العثمانية في الطرق مدى الاخطار التي قد تتهددها من جراء زحف القوات المصرية في أراضي شبه الجزيرة العربية والتي تجيء بمثابة فتح جبهة جديدة للقتال ضد الدولة العثمانية ،وهي جبهة العراق ،وخيل للعثمانيين أن هدف محمد علي هو إحتلال العراق عن طريق قواته في الشام من الشمال ، وبقوات شبه الجزيرة العربية من الجنوب . لذلك أوعزوا لواليهم في بغداد علي رضا باشا ،بالاتصال بالشيوخ العرب في مناطق نجد والاحساء وعسير وغيرها لتحريضهم ضد المصريين وإشعال نار الثورة في الخطوط الخفلية للقوات المصرية وإيقاف زحفـها في الجبهة الشرقية .

ركز المصريون نشاطهم عقب إستقرار قواتهم في منطقة الاحساء حول البحرين «إذ إعتبروها من أبرز المواقع التي ينبغي وضع إقدامهم عليها في منطقة الخليج العربي .فعن طريقها يتمكنون من إكتساب ميزة التحرك

السريع صوب اجزاء الخليج العربي الاخرى وجنوباً صوب إمارات ساحل عمان وشمالاً صوب العراق . ولقد إستطاع القائد المصري خورشيد باشا عقد اتفاق في الاسبوع الاخير من آذار سنة ١٨٣٩م مع شيخ البحرين عبد الله بن أحمد آل خليفة ، تم بموجب وضع البحرين تحت الاشراف المصري والتزام شيخها بتقديم المساعدات للسفن المصرية في منطقة الخليج العربي وقبول وكيل معتمد من قبل خورشيد في البحرين ضماناً لتنفيذ شروط الاتفاق الموقع بينها ومنعاً لنجاح عمليات الضغوط التي كان يتعرض لها شيخ البحرين من الانكليز والعثمانيين. كما تعهد شيخ البحرين بتسليم السلطات المصرية زكاة سنوية مقدارها ثلاثة آلاف ريال، مما يشير إلى نوع التبعية التي ربطت البحرين بحكومة محمد علي بمقتضى هذا الاتفاق .

ولم تكن البحرين وحدها هي مجال نشاط محمد علي في منطقة الخليج العربي ، فلقد تعرضت امارات الساحل العماني ، ومنها الشارقة وأبو ظبي ودبي وام القيوين ورأس الخيمة لمثل هذا النشاط . وساد فيها احساس قوي بوصول قوات خورشيد باشا اليها عقب استقرارها في منطقتي الاحساء والقطيف . وفي آذار ١٨٣٩م وصل الشارقة سعد بن مطلك ، بعد ان فوضه خورشيد باشا بالتوجه إلى امارات الساحل العماني والحصول من شيوخها على تعهد بالخضوع للسيطرة المصرية . ولكن الانكليز سرعان ماارسلوا الميجر هنيل Hennell المقيم البريطاني في الخليج العربي إلى الساحل العماني للحصول على تعهدات مكتوبة من شيوخه بوجوب التعاون مع السلطات البريطانية في مقاومة زحف خورشيد باشا المحتمل . ومع هذا فلم يكن هنيل متفائلا ، فقد كان عديم الثقة بوفاء اولئك الشيوخ لتعهداتهم وذلك لمزاولة خورشيد باشا نفوذاً غير عادي عليهم — لذلك اوصى هنيل رؤساءه بوجوب التقدم باحتجاجات جادة وقاطعة إلى المسؤولين في مصر ، وفرض حصار بريطاني على كل من القطيف والعقير وسيهات لمواجهة التوسع المصري في سواحل الخليج العربي . إذ لم تقتصر تحركات خورشيد باشا على الساحل

العماني . وانما امتدت صوب سلطنة مسقط التي علم «هنيل» بأن مبعوثا من خورشيد باشا ذهب الى هناك في الاسبوع الاول من تموز سنة ١٨٣٩م وهو مزود برسائل إلى السيد سعيد سلطان مسقط تطالبه بتقديم مساعداته لمحمد علي ، واعادة دفع الزكاة التي كان يدفعها من قبل للوهابين وتبلغه في الوقت نفسه باستعداد القوات المصرية لحمايته ومساعدته ضد خصومه.

واذا كانت انظار خورشيد باشا قد اتجهت نحو الاجزاء الوسطى والجنوبية من الخليج ، فانها كانت ترقب اوضاع الاجزاء الشمالية منه ولذا ارسل بمبعوثه إلى المشيخات العربية في تلك الاجزاء ومنها الكويت والمحمرة للحصول على المساعدات من شيوخها وضمان ولائهم للحكم المصري . وقد احرز مبعوثوه نجاحاً كبيراً في مهمتهم ، مما اقلق السلطات البريطانية . التي ارسلت الليفتانت ادموندز Edmunds المقيم البريطاني المساعد في منطقة الخليج في ٣٠ تشرين الاول ١٨٣٩ لمقابلة شيخ الكويت جابر الصباح والتعرف منه على تحركات مبعوث خورشيد باشا والتباحث معه بشأن اقامة خط بريدي بريطاني عبر الصحراء من الكويت إلى كل من البصرة وبغداد ودمشق وحلب . وتشير الوثائق البريطانية إلى أن الشيخ جابر لم يرحب بالمبعوث البريطاني كما ينبغي وذلك رغبة منه في التمسك بصداقة محمد علي واعجابه بالنجاح الذي حققته القوات المصرية في الخليج العربي. وتضيف ان مهمة البعوثين المصريين الى الكويت والمحمرة لم تقتصر على تحصيل المؤن والامدادت، وانما كانت ستاراً يختفي وراءها اولئك المبعوثين لكي تسهل لهم مراقبة النشاط العثماني في البصرة وخدمة اهداف المصريين الرامية الى ضم العراق، خصوصا بعد ما اخذ موقف العثمانين هناك بعد معركة نزيب في ٢٤ حزيران ١٨٣٩ يتطور من سيء الى اسوأ بشكل دفع خورشيد باشا الى الادراك بان الوقت قد حان لاخراج العثمانيين من العراق، اذ أن زعماء عشائر جنوب العراق وخاصة عشائر المنتفك اعربوا عن رغبتهم هم واهل البصرة في التخلص من السيطرة العثمانية

معركة نزيب ٢٤/٩/١٨٣٩

والانضمام لدولة محمد علي. الا أن الامور لم تلبث ان تطوّرت بشكل سريع في اعقاب النجاح الذي احرزه الانكليز في تأليب الدول الكبرى ضد محمد علي، على نحو اخذت اثاره ونتائجه تظهر في الافق كما سنرى. لذلك فقد بعث خورشيد باشا في نهاية آب سنة ١٨٤٠م برسالة الى «هنيل» في جزيرة خرك يبلغه فيها انه ليست لديه نية التحرك من قاعدته عند «ثرمده» لحين تلقيه اوامر جديدة من مصر اذ أن محمد علي كان مشغولا باخبار تحركات جيشه في الشام والاناضول، ولهذا فقد أجل قراره بضم العراق الى دولته. ومن جهة اخرى، فان الوضع المتدهور الذي بدأت تعيشه القوات المصرية في الشام، ادى الى سحب جزء من القوات المرافقة لخورشيد باشا من نجد وتوجيها للدفاع المحتمل من مصر والشام. ومن ثم اخذت تلك القواد تتوافد من مواقعها. ففي اواخر حزيران ١٨٤٠م كان ثلاثة عشر فوجا من القوات المصرية النظامية في شبه الجزيرة العربية تتقدم صوب القاهرة. وترك خورشيد باشا مكة والمدينة في ايدي القوات غير النظامية الخاضعة لمحمد بن عون شريف مكة الذي عينه محمد علي حاكما على الحجاز. كما ترك الامير خالد بن سعود على حكم نجد برفقة بعض قواته، في حين اسند حكم الاحساء الى احمد بن مبارك من بني خالد، وهو من حكامها السابقين المخلصين للمصريين.

ثم لم تلبث هزيمة الجيش المصري في بلاد الشام في تشرين الثاني سنة ١٨٤٠م ان وضعت نهاية لمشروع محمد علي وانتصارات قواته في الجزيرة العربية وجهودها في منطقة الخليج العربي، فاهتز نفوذ الامير خالد بن سعود واصبح عرضه للانهيار بعد انتصار الامير السعودي الموالي للعثمانيين فيصل بن تركي الذي اتاحت عودته الفرصة للنفوذ العثماني بالتغلغل في شبه الجزيرة العربية. كما اتاح الخلاف الذي اعقب وفاته بين اولاده الفرصة للعثمانيين للوصول الى منطقة الخليج واقامة وجود عثماني فيها على امتداد السواحل العربية استمر حتى ١٩١٣م. ولم يعد بمقدور المصريين الاستمرار في حكم

اليمن بعد احتلال البريطانيين لعدن سنة ١٨٣٩ فانسحبوا منه لتشدد الدولة العثمانية من قبضتها عليه. ثم عمد الانكليز بعد ذلك الى تقوية نفوذهم في منطقة الخليج العربي في اعقاب خروج المصريين منه ولم يتهاونوا في الاصطدام مع اية قوة تحول دون ذلك. فعندما حاول السعوديون ايجاد نفوذ لهم في الخليج بعد خروج المصريين حالوا بينهم وبين ذلك ، بل حصلوا منهم على تعهدات بعدم المساس بالمشيخات العربية التي ارتبطت باتفاقات مع الانكليز. كما منعوا العثمانيين من التوغل في منطقة الخليج بعيدا عن قطر ووقفوا بوجه محاولات روسيا وفرنسا والمانيا للتدخل في الخليج العربي، حتى اذا ماأشرف القرن التاسع عشر على الانتهاء بدت المنطقة وكأنها بحيرة بريطانية.

٢ ـ نشاط محمد علي في السودان :

حين تمت لمحمد علي السيطرة على الجزيرة العربية، اخذ يمد نفوذه باتجاه السودان، بعد ان طالبه السودانيون بضم بلادهم الى مصر ، ووضع حد للفوضى التي نشبت انذاك بسبب الخلافات بين القوى المحلية. لذا ارسل محمد علي سنة ١٨٢٠م قواته الى السودان بقيادة ابنه اسماعيل . وقد وطد المصريون الامن، وحققوا الوحدة الوطنية، واسسوا مدينة الخرطوم، وادخلوا كثيرا من مظاهر الحياة الحديثة الى السودان، كذلك عملوا على تطبيق مبدأ اشراك السودانيين في شؤون الحكم والادارة ، وانفقوا بسخاء لتحديث السودان وانعاش اقتصاده وتعليم ابنائه. الا أن اوضاع مصر السياسيةو الاقتصادية المتدهورة في عهد خلفاء محمد علي انعكست على السودان، حيث اشتدت الضائقة الاقتصادية وعم الفساد الاداري ، وازداد استغلال موارد السودان وتحكم الموظفين المصريين ومعظمهم من العناصر السيئة في رقاب الناس وفرضهم ضرائب باهضة ناء السودانيين بحملها كثيرا ومما زاد في ذلك الاندفاع الاوربي وتغلغله في السودان واتساع النشاط التبشيري ، وتلك الاوضاع هي التي مهدت الطريق لنجاح الثورة المهدية، كما سنرى.

٣ ـ نشاطه في الشام والعراق :

اتجهت القوات المصرية نحو الشام بقيادة ابراهيم باشا فسيطرت عليها سنة ١٨٣١م بمعونة الأمير بشير الشهابي كما سبق ان قدمنا . وقد اوضح ابراهيم باشا هدف حملته إلى الشام في رسالة وجهها الى محمد باشا والي حلب ، جاء فيها ان هدف الحملة « انتزاع بلاد العرب وما يجاورها وانقاذ الأمة ... من المصائب التي ابتليت بها » . ويؤكد هذا الهدف في رسالة مماثلة إلى والده يقول فيها : ان على المرء ان « يضحي بحياته في سبيل قومه وعشيرته ». وقد كان القنصل الأنكليزي باركـــر Barker اكثر وضوحاً عندما رأى سنة ١٨٣٢م أن جيش محمد علي قد بدأ فعلا مهمة تحرير العرب وتوحيدهم في دولة عربية . وفي ٨ كانون الثاني ١٨٣٢م كتب إلى حكومته يقول : « ان غرض محمد علي المباشر هو توطيد سلطته في بلاد الشام ومدها فيما بعد إلى العراق وكل الولايات التي تتكلم العربية » .

لقد كان الوطن العربي بحاجة إلى من يحرك في وجدانه القومي عامل التحرر والانعتاق لكي ينتفض ويثور ويتخلص من النير العثماني . وقد حاول محمد علي الأستفادة من هذا الشعور والعمل من أجل فصل الولايات العربية عن الأمبراطورية العثمانية .

احدث طرد العثمانيين من الشام تغييرات عديدة ، مهدت السبيل لتحديث الشام وتهيئتها لتصبح الأرضية التي شهدت بدايات الحركة القومية في العصر الحديث ورغم قصر فترة الحكم المصري (١٨٣١ ـ ١٨٤٠م) ، فان ابراهيم باشا انجز سلسلة من الاصلاحات منها توطيد الأمن ، ووضع حد لهجمات العشائر على المدن ، وتحديد الأسعار ، والتشديد في أمر التجنيد الاجباري ، وتنشيط التجارة وانشاء المدارس وجعل التعليم فيها باللغة العربية ، وارسال البعثات إلى مصر ، واقامة المستشفيات فضلا عن تحطيم سلطة بعض المشايخ والاقطاعيين غير المتعاونين معه مثل آل الحرفوش في بعلبك واقامة نظام اداري يعتمد المساواة السياسية والاجتماعية بين الجميع

بغض النظر عن الفوارق الدينية والمذهبية والعرقية كما بذل جهداً كبيراً في محاربة الرشوة والفساد والمحسوبية ، واعتمد مبدأ المشورة في الحكم والف في كل مدينة يزيد عدد سكانها على عشرين الف نسمة مجلسا يسمى (ديوان المشورة) يتراوح عدد اعضائه بين (١٢ – ٢١) عضوا ينتخبون من بين اعيان البلاد وتجارها . وقد سمح ابراهيم باشا للارساليات التبشيرية الأجنبية بتأسيس مراكز ثابتة لهم في لبنان ومن اشهرها الارسالية الأميركية ١٨٣٤م والأرسالية اليسوعية سنة ١٨٣٩م وقد لعبت تلك الأرساليات فيما بعد دورا كبيراً في الصراع الطائفي الذي نشب بين الدروز والموارنة أثر جلاء المصريين عن الشام وعودة الحكم العثماني المباشر ، كما سبق ان قدمنا .

بدأ محمد علي يفكر بالتوجه نحو العراق ، وقد اتخذ هذا التوجه كما أشرنا إلى ذلك من قبل الأشكال التالية :

١ – تشجيع النزعات الأستقلالية عن الدولة العثمانية في العراق وتقديم الدعم لها وربطها بالسياسة المصرية كما حدث بالنسبة لوالي الموصل يحيى باشا الجليلي .

٢ – اجراء اتصالات وتنظيم علاقات مع جهات رافضة للسيطرة العثمانية في العراق وبشكل خاص صفوك شيخ عشائر شمر الجرباء ومحمد باشا أمير راوندوز وعدد من زعماء البصرة وشيوخ المنتفك .

لقد كان ضم العراق ، جزءا من طموح محمد علي فيما يتعلق بالخطط الستراتيجية المستقبلية . وكان ابراهيم باشا يجيب كل من ينكر عليه عروبته ، بقوله : « انا لست تركياً ، فاني جئت مصر صبياً ومنذ ذلك الحين قد مصرتني شمسها وجعلتني عربياً » وهنا يعبر ابراهيم باشا عن شعوره بالمسؤولية تجاه مصر ودورها في توحيد الارض العربية في دولة حديثة واحدة قوية مستقلة .

لقد ادركت بريطانيا خاصة والدول الأستعمارية عامة خطورة هذا

الوعي القومي العربي وهذا التحرك . فبريطانيا كانت ترى في ظهور اية قوة قومية في المنطقة خطراً يهدد نفوذها . وكان ما يخشاه الأنكليز هو نجاح محمد علي في الوصول إلى منطقة الخليج العربي والعراق بعدما نجح في التمركز على شواطىء البحر الأحمر والشام ، مما قد يؤدي إلى تمزيق شمل الأمبراطورية العثمانية من ناحية ، وتهديد الوجود البريطاني في منطقة الخليج العربي المؤدية إلى الهند من ناحية اخرى . والى شيء من هذا تشير تعليمات بالمرستون وزير خارجية بريطانيا إلى كامبل Campbell القنصل البريطاني العام في القاهرة في ٨ كانون الأول سنة ١٨٣٧م بان يتقدم لأبلاغ محمد علي بنوع من الصداقة في عبارات شديدة ، ان الحكومة البريطانية سوف تأسف لرؤية أية خطوات تتخذ من جانبه مما قد يشير إلى وجود نية لديه لكي يندفع بسلطته صوب بغداد . ثم لم يلبث ان كتب إلى كامبل طالباً منه استخدام لهجة اقوى مع محمد علي بان يبلغه « ... ان تقارير وصلت إلى الحكومة البريطانية عن تحركات قواته في سوريا وشبه الجزيرة العربية ، مما يبدو انه يشير إلى نوايا من جانبه لمد سلطته نحو الخليج العربي وباشوية بغداد ، ومن ثم ينبغي ان تقرر بصراحة للباشا ان الحكومة البريطانية يمكنها ان تغض الطرف عن تنفيذ مثل هذه النوايا ... »

كان بالمرستون، يرى كذلك ان التحرك المصري قد يحمل روسيا على التدخل في المنطقة الغربية تدخلاً مباشراً ، فيصير المشرق العربي ميدانا تصطرع فيه قوى مصر وروسيا والدولة العثمانية وتضيع في خضم هذه الصراعات المصالح البريطانية ولم تقبل بريطانيا فكرة محمد علي وابنه ابراهيم المنطوية على ان قيام دولة قوية في المنطقة سوف لايسمح لروسيا بالتدخل.ولما لم تكن بريطانيا لتشجع على ظهور مثل هذه الدولة القوية وتريد أن تظل المنطقة ضمن اطار نفوذها تدخلت من اجل عقد صلح « كوتاهية » سنة ١٨٣٣م بين مصر والدولة العثمانية وقد نص هذا الصلح على اسناد حكم الشام وادنه وكريت والحجاز لمحمد علي وجددت ولاية ابراهيم باشا على جدة. وكان

هذا الصلح بمثابة هدنة مسلحة بين الطرفين. وخلال هذه الفترة بحث السلطان العثماني عن حليف قوي يقف إلى جانبه ضد مصر .وكانت فرنسا تنظر بعين العطف والتأييد لانتصارات محمد علي على اعتبار ان توسعه سيضعف النفوذ البريطاني في المنطقة العربية وهي نفسها تريد ان تتوسع على حساب الدولة العثمانية وخاصة في الجزائر التي احتلتها سنة ١٨٣٠م كما سنرى. لذلك حث السلطان العثماني بريطانيا على التحالف معه، ولكنها رفضت ، فاتجه إلى روسيا فاسرعت هذه بعقد اتفاقية (خنكار سكلة سي) معه في ٨ تموز سنة ١٨٣٣ وهي اتفاقية هجومية دفاعية موجهة ضد التوسع المصري.

لم تجد بريطانيا في مثل تلك الاتفاقيات الا مايهدد مصالحها ، واسرعت تتخذ الخطوات المناسبة لابمواجهة التوسع المصري في المشرق العربي فحسب، بل لمواجهة النتائج المترتبة على قيام روسيا بدور حامية الدولة العثمانية ايضاً ، وكما اشرنا من قبل ،اجبرت شيوخ الساحل العماني على توقيع تعهدات خطية بوجوب التعاون مع السلطات البريطانية والكف عن مساعدة القوات المصرية. ولم يقف الامر عند ذلك بل هددتهم اذا ماانضموا إلى القائد العثماني بتدمير سفنهم وتحصيناتهم البحرية. كما منعت سلطان مسقط وحكام البحرين من التعاون مع المصريين واستولت على عدن سنة ١٨٣٩ وانزلت بعض البواخر في انهار العراق لتمنع اي اتصال بين العراقيين والمصريين، وشجعت السوريين على التخلص من الحكم المصري ،وحرضت الدولة العثمانية على خوض الحرب ضد المصريين من الشام. فتجدد القتال سنة ١٨٣٩م ووقعت معركة نزيب بالقرب من نصيبين وفيها انتصر الجيش المصري بقيادة ابراهيم باشا واحتل المصريون المرتفعات المسيطرة على المواقع العثمانية وبعد ستة ايام من موقعة نزيب توفي السلطان محمود الثاني، وبعد ذلك باسبوعين انضم الاسطول العثماني برمته بقيادة الاميرال احمد فوزي باشا إلى جانب محمد علي. وذكر احد المؤرخين ان الدولة العثمانية فقدت سلطانها وجيشها واسطولها خلال ثلاثة اسابيع. ومع ذلك لم يعبر المصريون جبال طوروس وتوقفوا عند حدود

احتلال الرها ومرعش خوفا من وقوع تدخل روسي.

قررت بريطانيا في اعقاب الانتصارات المصرية الوقوف ضد توسعات محمد علي واصرت على القضاء على محمد علي «والقائه في النيل» كما قال بالمرستون. وفي ١٥ تموز ١٨٤٠ وقعت بريطانيا وروسيا وبروسيا والنمسا والدولة العثمانية على اتفاقية لندن التي قررت مصير محمد علي وممتلكاته.

لقد شعرت الدول الاوربية الكبرى، ان قيام دولة عربية قوية مستقلة يهدد مصالحها الاستعمارية في هذه المنطقة. ورأت بعد انتصارات محمد علي ان قيام هذه الدولة اضحى امراً محتما، ذلك ماقاله بروكس زفون اوستن مبعوث مترنيخ مستشار النمسا، والمفوض إلى مصر للبارون ستيورمر Sturmer سفير النمسا في استانبول. وزاد على ذلك قوله:

«اني ارى ... جيشا عربيا مدربا أحسن تدريب، مزهوا بالنصر واسطولاً جباراً، وموارد كافية لزيادة حجم هذا الاسطول وذلك الجيش إلى ثلاثة اضعافهما، وادارة، في غنى شبه تام عن الاتراك، وانبعاث الروح القومية عند العرب ... وأخيراً تقديراً متصاعداً وواسعا يتمتع به (محمد علي) على امتداد البلاد الناطقة بالعربية».

لذلك سعى مترنيخ إلى توحيد اوربا ضد ماأسماه «شبح الامبراطورية العربية» أما القنصل الانكليزي العامل في سوريا فارن Farn فقد اشار في تقرير كتبه إلى حكومته في ٢٩أيار سنة ١٨٣٤ «إلى ان القوة السياسية الجديدة التي يمثلها محمد علي مضرة بمصالح انكلترا في الشرق الادنى وخاصة اذا استقامت في مملكة منسجمة ،قوامها العروبة». ولهذه الاسباب ،كما يشير أحد المؤرخين عارض بالمرستون وزير خارجية بريطانيا سياسة محمد علي في اقامة دولة عربية، ستكون في نظره، نقطة انطلاق لحركة استقلال عربية لايمكن السيطرة عليها.أما روسيا فقد عارضت بصورة مطلقة«قيام دولة عربية على البوسفور».

طلبت الدول الكبرى من محمد علي في ١٩آب ١٨٤٠ قبول شروط

معاهدة لندن التي تتخلص بما يلي:

١ ــ تسليم محمد علي مقاليد مصر وجعلها وراثية في اسرته.

٢ ــ اناطة ادارة فلسطين (ولاية عكا) به مدى الحياة.

٣ ــ اعادة جميع الممتلكات الاخرى إلى الدولة العثمانية.

وفي حالة عدم موافقة محمد علي على الشروط المقدمة خلال عشرة أيام يحتفظ بمصر وحدها، وان لم يوافق خلال عشرين يوماً على الشروط تعمل دول الحلفاء بجهود مشتركة على عزله.

رفض محمد علي شروط معاهدة لندن، فما كان من بريطانيا الا أن زادت تدخلها بشؤون الشام الداخلية وحرضت على اشعال الصراع الطائفي في لبنان فاشتد التوتر الاجتماعي والطائفي الى حد الازمة، فنزلت قوة بريطانية في ساحل شمالي بيروت. واضطرت عندئذ القوات المصرية الى الجلاء عن سوريا وفلسطين وكان انسحابها امراً صعباً، اذ قطع الانكليز طريق الانسحاب باحتلالهم القدس، فاضطر ابراهيم باشا الى التراجع عبر الصحراء فيما وراء الأردن، ولم يصل غزة من (٦٠) الف جندي مصري الا (٢٤) الفا، وذلك يعني ان الانكليز، بعد توقيع معاهدة لندن حكموا عمداً على اكثر من (٣٥) الف جندي مصري بالموت والهلاك بسبب الجوع والعطش والبرد والامراض .

وقّع محمد علي باشا على معاهدة لندن في الاسكندرية في تشرين الثاني كانون الاول سنة ١٨٤٠م ووافق على التنازل عن الشام والجزيرة العربية وادنة وكريت. وفي الاول من حزيران سنة ١٨٤١م حدد السلطان العثماني عبد المجيد (١٨٣٩–١٨٦١م) الاوضاع في مصر بفرمان اصدره لهذا الغرض وبموجبه احتفظ محمد علي بمصر ملكاً وراثياً في اسرته، على ان تظل مصر تابعة للدولة العثمانية وكان عليه ان يدفع مبلغا كبيراً للباب العالي وان يقلص جيشه الى (١٨) الف جندي ، واصبح حق تعيين قادة الجيش المصري

الكبار من صلاحيات السلطان وحده، وحرمت مصر من حق بناء السفن الحربية.

حقا ان محاولة محمد علي تحقيق خطته الطموحة لتحديث مصر ولبناء دولة عربية موحدة مستقلة تضم مصر والشام والجزيرة العربية والسودان يعد تجربة فريدة في تاريخ العرب الحديث. وقد كانت هذه التجربة السبب الرئيس وراء تألب الدول الاستعمارية الكبرى ضده واحباط مشاريعه والعمل منذ ذلك الحين الى ايجاد كيان صهيوني عنصري يجزأ الوطن العربي ويحول دون وحدته. ولتحقيق هذا الغرض اقترحت بريطانيا اقامة دولة يهودية حاجزة في فلسطين لخدمة المصالح السياسية والاقتصادية الامبريالية ولتكون حداً فاصلاً بين مشرق الوطن العربي ومغربه وبقصد احباط اية محاولة وحدوية في المستقبل. ففي سنة ١٨٣٩م وخلال الحرب العثمانية ـ المصرية الثانية، وعشية انزال القوات البريطانية في بيروت، اتخذت الحكومة البريطانية قراراً بفتح قنصلية فرعية في القدس. واشار بالمرستون في توجيهه الى يونك young اول نائب للقنصل في القدس ان يجعل احدى مهامه الاساسية «حماية اليهود الى اقصى حد».

وفي الوقت نفسه بعث بالمرستون توجيهاً الى بونسونبي Ponsonby السفير البريطاني في استانبول اشار فيه الى ضرورة ان يوضح للحكومة العثمانية:

« ان من المفيد للسلطان فائدة قصوى لو حصل اليهود القاطنون في مختلف بلدان اوربا وأفريقيا على محفز للهجرة إلى فلسطين وذلك لأن ثرواتهم وقابلياتهم في تدبير الأمور الادارية والصناعية ستساعد لدرجة كبيرة على زيادة موارد الأمبراطورية العثمانية وتقدم الحضارة فيها » .

وقد ناقشت الصحف البريطانية على نطاق واسع ابان الصراع العثماني المصري فكرة استخدام اليهود النازحين في تعزيز المواقع البريطانية في سوريا وفلسطين . وقد شرح بالمرستون في رسالة وجهها إلى السفير البريطاني في

استانبول في آب ١٨٤٠م لماذا ينبغي على السلطان العثماني تشجيع هجرة اليهود إلى فلسطين قائلا : « ... ان عودة اليهود بموافقة ودعوة السلطان ، سوف تجعله يقف حائلا دون أية مخططات شيطانية مقبلة لمحمد علي أو لخليفته » .

لقد كانت المنظمات الأولى التي دعمت البرنامج الأستعماري المقترح من قبل بريطانيا ، تستوحي نظريات بالمرستون ولعل من ابرزها ، « الجمعية البريطانية للعمل على اعادة الدولة اليهودية إلى فلسطين » و « جمعية تشجيع الأستيطان اليهودي في فلسطين » و « جمعية تشجيع العمل الزراعي اليهودي في الأراضي المقدسة » وقد اسست جريدة «الجيويشن كرونيكل» في ذلك الوقت ... وتحولت إلى ادارة لنشر فكرة استعمار فلسطين في الأوساط اليهودية . وفي سنة ١٨٦١م قامت « الجمعية العبرية لأستعمار الاراضي المقدسة » و « مدرسة الاليـــانس Alliance الفرنسيـــة بتأسيس المدرسة الزراعية مكفة اسرائيل (امل اسرائيل) قرب يافا بهدف واضح هو تشجيع استيطان اليهود في فلسطين على نطاق واسع . ويربط البروفسور ستيفنس بروز هذا الأهتمام الفرنسي الجديد بحرب القرم (١٨٥٣-١٨٥٦م) ويرى ان الفرنسيين تحمسوا بعد هذه الحرب لمد نفوذهم إلى المشرق لا لحماية منطقة لبنان فحسب كما كانوا يدعون وإنما لاقامة منظمة يهودية في فلسطين كذلك ، ولقد شكلت مواقف الدول الكبرى تلك وجهودها ، كما سنرى ، الخلفية لظهور الحركة الصهيونية وتوجهها نحو فلسطين ودخولها في صراع مع الدولة العثمانية التي اسرعت منذ سنة ١٨٩٩م لأصدار قوانين جديدة لمنع استيطان اليهود في فلسطين بعد أن وضحتّ مقاصدهم الأستعمارية ثم اتبع الباب العالي تلك الأجراءات بقانون يمنع اليهود الاجانب من التملك ، الا ان اليهود وجدوا حماية في الهيئات القنصلية الأجنبية وخاصة البريطانية في ظل نظام الأمتيازات المعروف .

مصادر الفصل الثالث

الغزو الفرنسي لمصر وظهور محمد علي

(١) اباظة، فاروق عثمان: الحكم العثماني في اليمن ١٨٧٢ ــ ١٩١٨م (القاهرة، ١٩٧٥م).

(٢) ابراهيم، حسن احمد، محمد علي في السودان ، (الخرطوم، لا.ت).

(٣) ابراهيم، سعد الدين: (تحرير) مصر في ربع قرن ، (بيروت، ١٩٨١م).

(٤) امين، جلال احمد: المشرق العربي والغرب ، (بيروت، ١٩٧٩م).

(٥) انطونيوس، جورج: يقظة العرب، تاريخ حركة العرب القومية ــ ترجمة ناصر الدين الاسد واحسان عباس ط٣، (بيروت، ١٨٦٩م).

(٦) أوليفر زفيج، رولاند ــ وجون ــ : موجز تاريخ افريقيا، ترجمة دولة احمد صادق، (القاهرة، ١٩٦٥م).

(٧) برج ، محمد عبد الرحمن : دراسة في التاريخ العربي الحديث والمعاصر، (القاهرة، ١٩٧٤)

(٨) برو، توفيق: القومية العربية في القرن التاسع العشر، (دمشق، ١٩٦٥)

(٩) بروكلمان، كارل: تاريخ الشعوب الاسلامية، ترجمة نبيه امين فارس، ومنير البعلبكي، ط٥، (بيروت، ١٩٦٨م) .

(١٠) بشر، عثمان بن: عنوان المجد في تاريخ نجد، (الرياض، لا.ت)

(١١) البطريق، عبد الحميد: «محمد علي ومشروع غزو العراق»، مجلة كلية الاداب ــ الجامعة الاردنية ــ عمان ــ المجلد ١ العدد ١ كانون الثاني / ١٩٦٩

(١٢) التكريتي، هاشم صالح: «بريطانيا ومشروع قناة السويس ١٨٥٤ ــ ١٨٦٩» مجلة الجمعية التاريخية العراقية ــ بغداد العدد ٣ ــ ١٩٧٤م.

(١٣) الجبرتي ، عبد الرحمن : عجائب الاثار في التراجم والاخبار ٣أجزاء
ـ دار الفارس للطباعة والنشر ، (بيروت لا،ت) .
(١٤) حجار، جوزيف: اوربا ومصير الشرق العربي ، حرب الاستعمار على محمد علي والنهضة العربية ـ ترجمة بطرس الحلاق وماجد نعمة ،(بيروت ،١٩٧٦م).
(١٥) حجاف، لطف الله بن احمد: درر نحور الحور العين في سيرة الامام المنصور على ورجال دولته الميامين، نشر وتحقيق سيد مصطفى سالم ، (القاهرة، ١٩٧٥م) .
(١٦) الحديثي، نزار عبد اللطيف: «نظرة على التوجه القومي في السياسة المصرية بين ١٨٠٥ ـ ١٩٥٢» جريدة الثورة ، بغداد ٢٦ تشرين الاول/ ١٩٧٨م.
(١٧) الخازن، فيليب وفريد : (جمع ونشر) مجموعة المحررات السياسية والمفاوضات الدولية عن سوريا ولبنان ١٨٤٠ ـ ١٨٦٠، (بيروت ، ١٩١١م).
(١٨) الخصوصي ، بدر الدين عباس : «محمد علي والخليج العربي ١٨٣٨ ١٨٤١ دراسة موثقة» ، مجلة كلية الاداب والتربية جامعة الكويت العدد ٥ ـ حزيران / ١٩٧٤م.
(١٩) خووي واسماعيل ، أميل ـ وعادل : السياسة الدولية في الشرق العربي ح٢ (بيروت ، ١٩٦٠م) .
(٢٠) الرافعي، عبد الرحمن: تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر ج١ (القاهرة ١٩٤٨م) .
(٢١) الرافعي، عبد الرحمن: عصر محمد علي ط٢ (القاهرة،١٩٤٧م).
(٢٢) رستم ، أسد: الاصول العربية لتاريخ سوريا في عهد محمد علي باشا ـ مجلد ١ ـ ٥ (بيروت لا.ت) .

(٢٣) رفعت، محمد: التوجه السياسي للفكرة العربية الحديثة ، (القاهرة، ١٩٦٤م).
(٢٤) رياض، زاهر، السودان المعاصر منذ الفتح المصري حتى الاستقلال ، (١٨٢١ - ١٩٥٣) (القاهرة، ١٩٦٦م).
(٢٥) زايد، محمود: حسن احمد عرابي الى جمال عبد الناصر، الحركة الوطنية المصرية الحديثة (بيروت،١٩٧٣م) .
(٢٦) زيادة، نقولا : ليبيا في العصر الحديث، (بيروت، ١٩٦٦م).
(٢٧) زيادة،نقولا : ابعاد التاريخ اللبناني الحديث،(القاهرة، ١٩٧٢م).
(٢٨) زيدان، جرجي: تاريخ مصر الحديث ج١ ، ج٢ ،(القاهرة، ١٩٦١م).
(٢٩) سويد، ياسين: «البعد الاستراتيجي لحملة محمد علي على بلاد الشام» ، مجلة الفكر الاستراتيجي العربي ، بيروت السنة ١ العدد ٣ كانون الثاني / ١٩٨٢م.
(٣٠) شبيكة، مكي: تاريخ شعوب وادي النيل (مصر والسودان) في القرن التاسع عشر (بيروت، ١٩٦٥م).
(٣١) شكرى، محمد فؤاد: الحملة الفرنسية وخروج الفرنسيين من مصر (القاهرة ، لا .ت).
(٣٢) شكري،محمد فؤاد : مصر في السيادة على السودان «القاهرة/١٩٦١)
(٣٣) شكري،محمد فؤاد : وآخرون بناء دولة مصر، مصر محمد علي السياسة الداخلية، (القاهرة، ١٩٤٨م).
(٣٤) شكري،محمد فؤاد: الحملة الفرنسية وظهور محمد علي، (القاهرة لا ، ت) .
(٣٥) شكري،محمد فؤاد : عبدالله مينو وخروج الفرنسيين من مصر (القاهرة، ١٩٥٢م) .

(٣٦) شكري، محمد فؤاد: مصر في مطلع القرن التاسع عشر ١٨٠١ — ١٨١١ ٣ أجزاء، (القاهرة، ١٩٥٨م) .
(٣٧) شكري، محمد فؤاد : السنوسية دين ودولة (القاهرة، ١٩٤٥)
(٣٨) شكري، محمد فؤاد : أوربا في القرن التاسع عشر بين البرجوازية والاقطاع ١٧٨٩ — ١٨٤٨ ، ٣ مجلدات ، (القاهرة ، ١٩٥٨م).
(٣٩) الشناوي، عبد العزيز: عمر مكرم بطل المقاومة الشعبية ، (القاهرة، ١٩٦٧م) .
(٤٠) الشيال، جمال الدين: تاريخ الترجمة والحركة الثقافية في عصر محمد علي، (القاهرة، ١٩٥١م) .
(٤١) صالح، زكي : مجمل تاريخ العراق الدولي في العهد العثماني ، (القاهرة، ١٩٦٦م) .
(٤٢) الصليبي، كمال سليمان: تاريخ لبنان الحديث، (بيروت ، ١٩٦٧م).
(٤٣) ضرار، ضرار صالح، تاريخ السودان الحديث (بيروت ،١٩٦٥م).
(٤٤) العابد، صالح: موقف بريطانيا من النشاط الفرنسي في الخليج العربي ١٧٩٨ — ١٨١٠ (بغداد، ١٩٧١م) .
(٤٥) عبد الناصر، جمال: فلسفة الثورة ، (القاهرة، ١٩٥٣م) .
(٤٦) عبدالرحيم، عبدالرحيم عبدالرحمن: الدولة السعودية الاولى ١٧٤٥ — ١٨١٨، (القاهرة، ١٩٦٩م) .
(٤٧) عبدالوهاب، سليمان بن عبدالله بن محمد بن : كتاب التوضيح عن توحيد الخلاف في جواب أهل العراق ، (القاهرة ، ١٩٠١م).
(٤٨) عبده، ابراهيم : تاريخ الطباعة والصحافة في مصر خلال الحملة الفرنسية، (القاهرة، ١٩٤١م).

(٤٩) عمر، عمر عبد العزيز : دراسات في تاريخ العرب الحديث والمعاصر. (بيروت ، ١٩٧٥م) .
(٥٠) عوض، احمد حافظ : فتح مصر الحديث او نابليون بونابرت في مصر، (القاهرة، ١٩٢٥م) .
(٥١) عيسى، صلاح: «البرجوازية العربية واسلوب المفاوضة : ايدلوجية المدن المفتوحة» ، مجلة افاق عربية – بغداد العدد ٤ كانون الاول ١٩٧٥ :
(٥٢) غرايبه، عبدالكريم محمود : مقدمة تاريخ العرب الحديث ١٥٠٠ – ١٩١٨، (دمشق، ١٩٦٠م) .
(٥٣) غربال ، محمد شفيق : محمد علي الكبير، (القاهرة ، ١٩٤٤م).
(٥٤) غربال ،محمدشفيق : الجنرال يعقوب والفارس لاسكاريس ومشروع استقلال مصر في سنة ١٨٠١، (القاهرة، ١٩٣٢م) .
(٥٥) فلبي ، سنت جون : تاريخ نجد ودعوة الشيخ محمد عبدالوهاب السلفية ، تعريب عمرالديراوي ، (بيروت لا . ت) .
(٥٦) قاسمية ، خيرية : النشاط الصهيوني في الشرق العربي وصداه ١٩٠٨–١٩١٨م (بيروت ، ١٩٧٣م).
(٥٧) القمودي ، محمد صالح : « نابليون هذا المهدي المنتظر ، سموم الأستشراق » ، مجلة العربي – الكويت ، آب ١٩٨١م .
(٥٨) كوثراني ، وجيه (اعداد) وثائق من التاريخ : « وضع السلطنة العثمانية ومشروع محمد علي باشا ، » مجلة تاريخ العرب والعالم، السنة (٢) ، العدد (١٤) كانون الأول ١٩٧٩م ، ص ص ٣٦–٤٤.
(٥٩) الكيالي ، عبدالوهاب : الجذور التاريخية للتحالف الأمبريالي الصهيوني ، (بيروت ، ١٩٧٧م) .

٦٠) لوتسكي ، فلاديمير بوريسوفتش : تاريخ الأقطار العربية الحديث ترجمة عفيفة البستاني (موسكو ، ١٩٧١م) .
٦١) لونكريك ، ستيفن همسلي : أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث ترجمة جعفر الخياط ط ٥ ، (بغداد ، ١٩٦٨م) .
٦٢) محمود ، حسن سليمان : تاريخ السودان ، (الخرطوم ، ١٩٥٧م).
٦٤) نوار ، عبدالعزيز سليمان : محاضرات في تاريخ الشرق الأدنى الحديث القيت على طلبة قسم التاريخ بكلية التربية / جامعة بغداد للسنوات ١٩٦٥ — ١٩٦٧م وهي غير منشورة .
٦٥) نوار ، عبدالعزيز سليمان: مصر والعراق ، دراسة في تاريخ العلاقات بينهما حتّى نشوب الحرب العالمية الأولى ، (القاهرة ، ١٩٦٨م).
٦٦) نوار ، عبدالعزيز سليمان: « مصر والخليج العربي في القرن التاسع عشر» ، مجلة الهلال ، القاهرة ، نوفمبير ١٩٦٤م .
٦٧) نوار ، عبدالعزيز سليمان: وثائق اساسية من تاريخ لبنان الحديث/ ١٥١٧ — ١٩٢٠ (بيروت، ١٩٧٤م) .
٦٨) نوار ، عبدالعزيز سليمان: «بين العراق ومصر في القرن التاسع عشر» ، مجلة الهلال، القاهرة السنة ٧٢ — العدد٨ أول آب/ ١٩٦٤م .
٦٩) هيرولد، كريستوفر : بونابرت في مصر — ترجمة فؤاد اندرواس (القاهرة ،١٩٦٧م) .
٧٠) هولت ،ب،م المهدية في السودان، ترجمة جميل عبيد، (القاهرة، لا.ت) .
٧١) يحيى، جلال: العالم العربي الحديث، (القاهرة،١٩٦٥م) .

"The Beginnings of Modernization among the Rectors of al-Azhar 1798-1879"

- Al sayyid Marsot, Afaf Lutfi : in William, R. Polk and Richard , L. Chambers, (eds), Beginnings of modernization in the middle East (Chigaco,1968) (٧٢)

- Baer, Gabriel-: Social change in Egypt 1800-1914 in p. M. Holt, (ed) . political and social change in Modern Egypt . (Londan,1968) (٧٣)

- Holt, p. M. ., AModern History of the Sudan, (London ,. 1973) (٧٤)

———, The Mahdi state in Sudan, (oxford , 1963) (٧٥)

« الفصـــل الرابـع »

محاولات الاصلاح العثمانية وانعكاساتها في الاقطار العربية

شهدت الدولة العثمانية منذ منتصف القرن الثامن عشر محاولات عديدة لأ صلاح نظمها ومؤسساتها الأ دارية والسياسية والأ قتصادية والأ جتماعية وفق الأ سس والأ ساليب الغربية الحديثة . وكان لتلك المحاولات تأثيرها وانعكاساتها في الوطن العربي .

اولا : محاولات الاصلاح العثمانية :

اشرنا فيما سبق إلى تدهور نظم الحكم العثمانية ، وعدم قدرتها على استيعاب التطورات الحديثة التي شملت مجالات الحياة المختلفة في اوربا وخاصة في النواحي العسكرية . وقد اتضح ذلك في سلسلة الهزائم العسكرية التي منيت بها الدولة العثمانية نتيجة تمسكها بتقاليدها القديمة، وتكنيكها الحربي القديم ، فاضطرت ازاء ذلك إلى التوقيع على معاهدات مهينة ، ومنها معاهدة كارلوفتز Carlowitz سنة ١٦٩٩م التي سلمت بها المجر إلى النمسا ، ومعاهدة بساروفتز Passarowitz سنة ١٧١٧م التي فقدت بها جزءاً مهماً من البلقان ، ومعاهدة كوجك كينارجي التي اعقبت هزيمتها امام روسيا سنة ١٧٧٤م ومعاهدة ياسي سنة ١٧٩١ التي اذلتها امام روسيا وقد انكشف ضعفها كذلك في عدم قدرتها على مواجهة الغزو الفرنسي لمصر وفلسطين وسوريا (١٧٩٨–١٨٠١م) . كما سبق ان قدمنا . وقد اتضحت

علامات الأنحطاط في تدهور النظام الأقتصادي ، وفساد الأدارة الحكومية . وتدخل الحريم في ادارة أمور الدولة ، واستمرار الأنتفاضات في معظم ولايات الدولة العثمانية .

لذلك فقد بدأ بعض السلاطين ورجال السياسة والمثقفين المتنورين المتأثرين بالحضارة الأوربية الحديثة يبحثون عن علاج يوقف تدهور الدولة، ويعيد اليها حيوتها ونتج عن ذلك حركة لأصلاح نظم الحكم والأدارة العثمانية سميت منذ سنة ١٨٣٩م تقريبا بأسم التنظيمات Tanzimat وامتدت كما يرى بعض المؤرخين ، إلى سنة ١٩٠٨م حين اعيد العمل ثانية بالدستور.

انقسم دعاة الأصلاح في الدولة العثمانية إلى فريقين ، ذهب كل منهما مذهبه في سُبل الأصلاح فالفريق الأول يرى أن العلاج يكمن في تطبيق الانظمة الاسلامية والتقاليد العثمانية الاصيلة . ومن هؤلاء (كجي بك) الذي كان يعتقد بأن سبب الأضمحلال العثماني هو التفريط في سنن الأجداد الأولين ، ومن ثم اتجهت أفكار هذا الفريق وجهة سلفية . لقد كان هؤلاء يرون ان اجدادهم حققوا الأنتصارات حين كانوا « يعيشون في الأسلام » ويذهبون الى أنه السبيل للعز والعظمة والرفعة . والسبب الوحيد للمصائب التي نزلت بهم هو التفريط في شعائر الأسلام والأنصراف إلى الدنيا والأسترسال مع الشهوات . وقد اهاب (كجي بك) بالأتراك إلى الارتداد إلى النظم العثمانية القديمة والأعتصام بها ، واكد لمواطنيه انهم مفلحون ان عجلوا بهذه الرجعة إلى انظمة محمد الفاتح وسليمان القانوني . ولقد اخذ بوجهة النظر هذه بعض السياسيين من ابناء اسرة كوبرلي. وهم البانيو الأصل ، اولهم كوبرلي محمد الذي اختير لمنصب الصدارة العظمى سنة ١٦٥٦م ثم ابنه وخليفتاه في الصدارة أحمد ثم اخوه مصطفى. وقد انتعشت الدولة ابان قيادتهم لها ، ولكنها عادت بعد ذلك فاسترسلت في نومها العميق .

أما الفريق الثاني ، فقد ارتأى ان الأصلاح في الدولة العثمانية يستلزم « اقتباس النظم الأوربية واستلهامها » ولقد أدرك هؤلاء ان القوة الأوربية لاتقاوم بالارتداد إلى الأسلام الأول او الأعتصام بالاساليب العثمانية الأولى . بل السير في الطريق الذي اوصل اوربا من الضعف إلى القوة . ومن الهزيمة إلى النصر . ويظهر أن نجاح الأقطار الأوربية انذاك في الأمور العسكرية وفي تطوير انظمتها الأقتصادية واندفاعها في سبل النهضة الشاملة بسرعة متزايدة رجح كفة الفريق الثاني . وعليه فقد صارت حركة الأصلاح تستهدف تطبيق الأنظمة الأوربية الحديثة في مجالات الحياة المختلفة مع عدم التفريط باحكام الشريعة الأسلامية .

وكانت وراء حركة الأصلاح العثمانية التي ابتدأت في النصف الثاني من القرن الثامن عشر عوامل عديدة . فمن المؤرخين من يرى أن الضغط الأستعماري الأوربي على الدولة العثمانية هو السبب الذي دفع الحكومة العثمانية إلى أن تصلح من شأنها . في حين ينكر آخرون ذلك . ويرون ان حركة الأصلاح كانت من الداخل . فالطبقة البرجوازية الناشئة في استانبول بدأت . بالرغم من ضعفها انذاك . تساند أي اتجاه اصلاحي يسير نحو التخلص من الأوضاع الأقطاعية المتخلفة السائدة في الدولة العثمانية وبدأت تقف وراء الحكومة المركزية في اعادة سيطرتها المباشرة على بعض الولايات التي تمتعت ردحاً من الزمن بالأستقلال وخلق هيكل جديد من الأدارة والقوانين المدنية . وقد رحبت السلطة المركزية العثمانية بتأييد الطبقة البرجوازية في حركاتها الأصلاحية لان هدم الأوضاع البالية سيدعم مركزية السلطة . ومما يلحظ ان هذا شبيه بما حدث في اوربا نفسها في القرنين السادس عشر والسابع عشر من تعاون الطبقة البرجوازية في غرب اوربا مع النظم الملكية لهدم الأقطاع واقامة ملكية مطلقة .

الاصلاحات العسكرية :

أ. الجيش :

اقتصرت الاصلاحات الاولى على الجيش ، فالدولة العثمانية ـ كما اشرنا من قبل ـ عسكرية الطابع منذ نشأتها، كما ان المؤسسة العسكرية القديمة اصبحت قوة رجعية مسيطرة في الدولة تشل الجهود الرامية إلى اصلاح بنية الدولة، وهي المسؤولة عن الهزائم المتكررة التي لحقت بالدولة طيلة القرن الثامن عشر. وقد ظهر للعيان تفوق النظم الاوربية في شؤون الجيش باثاره المادية، الامر الذي جعل الاصلاح العسكري يبدو هدفاً مركزياً فشؤون الجيش كانت بمثابة المحور الاساس لجميع شؤون الدولة. لذلك فقد بدأت حركات الاقتباس والاصلاح في الشؤون العسكرية ثم امتدت بعد ذلك إلى الجوانب الادارية والمالية والقضائية والتعليمية. ونظراً لاهمية الفترة التي سبقت التنظيمات فمن المفيد الاشارة إلى ابرز التطورات الاصلاحية التي تمت فيها .

يرجع البعض من المؤرخين اصلاح الجيش العثماني الى عهد السلطان مصطفى الثالث (١٧٥٧– ١٧٧٤م) ، ذلك انه نظم البحرية والمدفعية وفقاً للاساليب والاسلحة الاوربية مستعيناً بعدد من الخبراء والضباط الاوربين وفي مقدمتهم البارون الفرنسي دي‌توت (Detott) اما الانكشارية فلم يتعرض لهم انذاك لقوتهم وقدرتهم على مقاومة الاصلاح ورفضه .

وجاء قيام الثورة الفرنسية سنة ١٧٨٩م وانتصاراتها في الميادين الاوربية ليؤكد ضرورة الاصلاح، خاصة بعد غزو الفرنسين لمصر سنة ١٧٩٨م وهي ولايات عثمانية. اذ رأى العثمانيون تفوق الجيوش الفرنسية على جيوشهم وجيوش المماليك معاً. ومما يلحظ ان طليعة الافكار التي وصلت العاصمة العثمانية في بدء حركة الاصلاحات اشتملت على مبادىء الثورة الفرنسية المتمثلة بالحرية والديمقراطية والمساواة. وقد انتقلت هذه المبادىء إلى الولايات

العثمانية بعاملين : احدهما البعثات العسكرية الفرنسية التي وصلت إلى استانبول لتساعد في تجديد الجيش العثماني، فبعد ان تعلم الضباط العثمانيون اللغة الفرنسية لم يقتصروا على دراسة العلوم العسكرية الفرنسية حسب، بل صاروا يطالعون الكتب السياسية الفرنسية كذلك. اما العامل الثاني فيتمثل بالبعثات الدبلوماسية، سواء منها الاوربية المقيمة في استانبول والعثمانية المقيمة في عواصم اوربا ولا سيما في باريس .

لقد كان سليم الثالث (١٧٨٩ – ١٨٠٧م) اول سلطان عثماني يطلق عليه لقب (مصلح) في فترة ما قبل التنظيمات. وفي عهده ظهرت ردود الفعل العثمانية ازاء قيام الثورة الفرنسية سنة ١٧٨٩م وسقوط آل بوربون وغزو فرنسا لمصر سنة ١٧٩٨م. فلقد دعا السلطان سليم الثالث عدداً من قادة الفكر والسياسة في الدولة العثمانية لمعرفة ارائهم حول كيفية معالجة عوامل الضعف في الدولة ، فأكدوا جميعاً ضرورة الاصلاح العسكري وفي سنة ١٧٩٢م صدرت سلسلة من التعليمات والانظمة والتشريعات الجديدة سميت بمجموعها (قانون نامة) او (نظامات) . وقد احدث صندوقاً مالياً لتغطية نفقات المؤسسات الجديدة سمي (ايراد جديد) يقوم على فرض ضرائب على ملاكين لم يؤدوا واجباتهم العسكرية. كما اتجهت رغبته لأصلاح الجيش والبحرية. لذلك اسس عدد من المدارس العسكرية تدرس فيها اللغة الفرنسية مستعيناً باساتذة ومدربين اوربين اكثرهم من الفرنسيين .

وكان سليم يأمل من وراء عمله هذا انشاء (جيش جديد) يحل بتقدم الزمن محل الجيش الانكشاري القديم الذي ضعفت قوته واضطرب نظامه. وقد شيدت ، ثكنات خاصة متعددة في مدينة سكوتارى المقابلة لاستانبول لهذا الجيش الذي بدأ بأثني عشر الف جندي من المشاة وخمسة الاف من الخيالة وانتقلت هذه الظاهرة الى بعض ولايات الدولة ، ويذكر المؤرخون ان والي بغداد سليمان باشا الكبير استقدم ضابطاً انكليزياً من الهند وعهد اليه تنظيم الجيش الجديد، واهتم والي مصر خورشيد باشا بهذا الامر كذلك وشرع في انشاء ثكنة خاصة بجيش «النظام الجديد».

وقد عمل السلطان سليم الثالث على انشاء عدد من المعاهد العالية والمدارس الحديثة التي تعد الاولى من نوعها في البلاد، ولقد اتاح قيام السلطان سليم بتأسيس سفارات عثمانية دائمية في العواصم الاوربية لعدد من الشبان الاتراك الاحتكاك بالحضارة الغربية وتعلم اللغات الاجنبية والاطلاع على الافكار الثورية المنتشرة هناك، وقد قدر لهؤلاء الشبان ان يتقلدوا فيما بعد وظائف عالية في الدولة ويساهموا اسهاماً فعالاً في حركة الاصلاح.

اثبت الاصلاح العسكري فائدته في الدفاع عن عكا امام هجوم الفرنسيين سنة ١٧٩٩م. وظهرت كفاية الجيش الجديد بشكل زادت معه مخاوف الانكشارية من ان يكون قوة بديلة عنهم؛ فتآمروا مع بعض رجال الدين الذين كانوا يقولون «ان التعليم العسكرى» من الامور التي لم يعرفها الاسلام و «ان الفتوحات الاسلامية كلها تمت دون ان نحتاج الى امثال هذا التعليم» وان «النظام الجديد بدعة ، وكل بدعة حرام» وانه من بدع الكفار والاجانب ماهو الا التشبه بالكفار، وان من مبادى الاسلام «ان من تشبه بقوم فهو منهم». وقد التف حول رجال الدين بعض النفعيين والوصوليين من رجال الدولة، فأعلن الانكشارية تمردهم في ايار سنة ١٨٠٧م ضد اصلاحات سليم الثالث، وتمكنوا من محاصرة قصر السلطان وخلعه واحلال مصطفى الرابع محله (١٨٠٧ — ١٨٠٨م) وبعد اشهر قليلة حدثت ثورة معاكسة اذ تحرك انصار النظام الجديد من قادة الجيش في الولايات العثمانية مستنكرين اجراءات القوى الرجعية في العاصمة، فزحف مصطفى البير قدار حاكم سلستره بقواته الى العاصمة وخلع السلطان مصطفى الرابع ونصب الامير محمود الثاني (١٨٠٨ — ١٨٣٩م) سلطانا في ٢٨ تموز سنة ١٨٠٨م، ولم يكن عمره يزيد انذاك عن ست عشر سنة ولقد عزم البيرقدار على احياء النظام الجديد ، الا أن اعداءه تآمروا عليه وقتلوه بعد فترة وجيزة، فعادت الفوضى الى الى البلاد وتوالت هزائم الجيش العثماني ،في الخارج.

اعتقد السلطان محمود الثاني ضرورة الاستمرار في عملية الاصلاح التي بدأت في عهد اسلافه. اذا ما أراد ان يجعل الدولة العثمانية في مكانة مساوية لدول اوربا. الا انه وجد في الوقت نفسه، ان الاصلاح العام لاحوال الدولة لا يمكن ان يتم قبل التخلص من اعداء الاصلاح وفي مقدمتهم الجيش الانكشاري. واول عمل اصلاحي قام به هو تحسين المدارس العسكرية الجديدة التي اسسها سليم الثالث وكانت تعنى بتدريب الضباط والجنود بالاساليب الاوربية الحديثة بغية تشكيل جيش جديد منهم. وبمرور الزمن استعان محمود الثاني بأفراد من الجيش الجديد وبالمدفعية للقضاء على الجيش الانكشاري والغائه بعد ان استصدر في ١٦ حزيران سنة ١٨٢٦م فتوى شرعية من شيخ الاسلام بوجوب «افناء هذه الطائفة الباغية» وخلال ساعات قليلة من صباح يوم ١٦ حزيران حصد بمدفعيته وبرصاص الاهالي، وجند الجيش الجديد، نحو عشرين الفاً من الانكشارية في آت ميداني (ميدان الخيل) حيث كانوا مجتمعين هناك معلنين عصيانهم العسكري. كما تشتت من بقي منهم على قيد الحياة. وفي اليوم التالي صدر فرمان سلطاني بألغاء الجيش الانكشاري، وصدرت الاوامر إلى جميع الولايات العثمانية بالتفتيش على كل من بقي منهم واعدامه او نفيه إلى اطراف الدولة. وقد اطلق العثمانيون على هذه الواقعة اسم (الواقعة الخيرية) لانهم تفاءلوا بها خيراً اما الجيش الجديد الذي امر السلطان محمود بأنشائه على غرار الجيوش الاوربية فقد اطلق عليه (عساكرى منصورى محمدى) اي العساكر المحمدية المنصورة، وسرعان ما وضعت الانظمة لهذا الجيش وكذلك لضمان سلامته من الفوضى والاضطراب، واصدر السلطان محمود الثاني اوامره بتطبيق اصلاحاته العسكرية بكل حزم في الولايات العثمانية والشروع في ارساء اسس النظام العسكري الجديد. واستطاعت الدولة ان توثق من اواصر تبعية ولاياتها بواسطة الجيش النظامي الجديد بعد ان دربته ونظمته وفق الاساليب العسكرية الاوربية، فقسمت الامبراطورية إلى عدد من الدوائر العسكرية وضع في كل دائرة

فيها جيش خاص بها، ويشرف على هذه الجيوش قائد لقبه (سر عسكر) وهو قائد الجيش الاول عادة، ثم اصبح بعد ذلك يحمل اسم ناظر الحربية ورئيس اركان الجيش، اما الدوائر العسكرية فهي :ـ

١ ــ الدائرة العسكرية الاولى :

وشملت ولايات قسطموني وانقرة وبروصة وفيها الجيش الهمايوني (الامبراطورى) الاول (برنجي اوردوهمايوني) ومقره العاصمة- استانبول .

٢. الدائرة العسكرية الثانية :

وفيها الجيش الهمايوني الثاني (ايكنجي اوردو همايوني) ومقره ادرنــة.

٣. الدائرة العسكرية الثالثة :

وفيها الجيش الهمايوني الثالث (أوجنجي اوردو همايوني) ومقره سلانيك .

٤. الدائرة العسكرية الرابعة :

وفيها الجيش الهمايوني الرابع (دردنجي اوردو همايوني) ومقره ارزنجــان.

٥. الدائرة العسكرية الخامسة :

وفيها الجيش الهمايوني الخامس (يشنجي اوردو همايوني) ومقره دمشق، وقد شملت هذه الدائرة ولايات بلاد الشام الثلاث وحلب وسوريا وبيروت) ومتصرفيتي (القدس ودير الزور) المستقلتين بالاضافة الى ولاية ادنه، وعرف هذا الجيش بأسم جيش (عربستان) اى بـلاد العرب وقد ادخلت التنسيقات على الجيوش العثمانية بعد ١٩١٣م وجعلت على شكل فيالق وفرق وتغيرت اماكن بعضها فتبدل اسم الجيش المرابط في الشام مثلاً من الجيش الخامس الى الجيش الرابع.

٦. الدائرة العسكرية السادسة :

وفيها الجيش الهمايوني السادس (التنجي اوردو همايوني) وشملت ولايات بغداد والموصل والبصرة ومقره بغداد.

٧. الدائرة العسكرية السابعة :

وكانت خاصة بولاية اليمن وفيها الجيش الهمايوني السابع (يدنجي اوردو همايوني).

ويرجع الفضل في تنظيم التشكيلات العسكرية والاخذ بالأساليب الاوربية في التدريب الى عدد من الضباط والقادة الاوربيين لاسيما الالمان والنمساويون الذين وفدوا الى استانبول للعمل في خدمة الدولة العثمانية واصلاح احوالها العسكرية وتنظيم مناهج مدارسها الحربية منهم فون مولتكه وفونبرك وفون دركولتز وغيرهم.

كانت الخدمة العسكرية الزامية للمسلمين من الرعايا العثمانيين ، وقد حوفظ على النظام الموضوع سنة ١٨٣٥ م المتعلق بالافراد المكلفين بالخدمة العسكرية مع تحديد الخدمة زمن السلم بخمس سنوات ، ثم انزلت إلى سنتين ، يمارسون بعدها اعمالهم الخاصة كسائر الناس ، تخفيفاً للعبأ المالي الذي كانت تعانيه خزينة الدولة فأذا مست الحاجة زمن الحرب ، دعوا إلى الخدمة في صفوف الاحتياط على مراحل وضمن مدد متقطعة ، تسمى آنذاك (الرديف) و(المستحفظ) على ان تنتهي خدمتهم العسكرية حين بلوغهم سن الاربعين ، اما المسيحيون واليهود وباقي العناصر غير المسلمة فيعوضون عن التجنيد بمبلغ من المال يسمى (البدل النقدي) وبعد سنة ١٩٠٨م .صدرت قرارات من الدولة عدلت بموجبها قوانين التجنيد التي جعلت الخدمة العسكرية اجبارية بحيث تشمل جميع السكان ، دون استثناء ، وقد اتبعت الدولة في التجنيد اسلوب (القرعة الشرعية) ونظمت بموجب قانون اخذ العسكر لسنة ١٨٨٦م ،فكان السلطان يبعث بفرمان القرعة في كل سنة إلى

الولايات ، حيث تجري مراسم خاصة عند قراءته ، ويكون ذلك بحضور الوالي وقائد الجيش والقاضي والمفتي والاعيان والعلماء وبعد تلاوة القرآن، يقدم المفتي والحاضرون دعاء خاصاً للسلطان ، ثم يعقد مجلس القرعة ويحضر الافراد المكلفون الذين بلغوا سن الخدمة العسكرية إلى المجلس ، وبعد ذلك تجرى القرعة ، وبعد اتمامها يكتب الوالي للصدر الاعظم بأن القرعة الشرعية قد اجريت على أكمل وجه ، بل تطوع بعض الافراد زيادة على النصاب المقرر . ثم يوزع هؤلاء الافراد على الالوية التي تعين لكل منهم ليدربوا في معسكرات الجيش ويوزعوا على الدوائر العسكرية . وقد تضمن قانون ١٨٨٦م المستثنين من الخدمة العسكرية وهم خدمة الحرم الشريف ومقامات الرسل والاولياء ، وحكام الشرع ومشايخ الطرق الصوفية وأئمة المساجد، وخطباء الجوامع وطلبة المدارس الدينية وذوو العلل وغير المقتدرين ومن كان وحيد ابويه او متزوجاً من اجنبية او صغيرة او عجوز ليس لهن معين.

وبالرغم من اهتمام الدولة العثمانية بتقوية الجيوش وتنظيم الخدمة العسكرية واصدار القوانين المتعلقة بذلك الا ان الواقع العسكري في جبهات القتال كان يشير إلى عكس ذلك . فقد ازداد تهرب الناس من الخدمة العسكرية بشتى الطرق ، كما كثرت حالات فرار الجنود ، ولعل ذلك يرجع إلى استعمال اساليب العنف والقسوة عند جمع (القرعة) وطول مدة التجنيد بحيث تذمر الناس ، وضاقوا ذرعاً بالخدمة العسكرية ومما زاد في نفور الناس منها ارسال المكلفين بها إلى بلاد بعيدة عنهم كالروم ايلي وكريت، والجبل الاسود ، واستمرار الثورات في بعض الولايات العثمانية وارتفاع عدد القتلى في وحدات الجيش المرسلة لاخماد تلك الثورات .

كما ان النظم العسكرية العثمانية كانت تساعد قطاعات عديدة من ابناء الوطن على التهرب من الجندية بصورة غير مباشرة فقد اعفت طلاب المدارس الدينية من التجنيد كما تحايلت بعض الطوائف على التخلص من الجندية بدعوى ان التجنيد يتعارض مع قيامها بواجباتها الدينية .

ب. قوات الامن الداخلي :ـ

لم يكن في الولايات العثمانية جهاز امن منظم قبل فترة الاصلاحات. بل كانت الحاميات العثمانية وقوات الوالي الخاصة المحلية هي التي تقوم بمهمة حفظ الامن والنظام ثم شكلت الدولة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر قوات امن خاصة وضعت تحت اشراف الوالي ونيطت به صلاحية نقلها وتوزيعها داخل حدود ولايته. وعينت الدولة ضابطاً (آلاي بك) برتبة (مير الاي) قائداً لقوة الامن، وجعلت ارتباطه بالوالي. وقدسميت تلك العساكر بـ (الضابطة) او الضبطية وسميت كذلك في بعض الاحيان (الجندرمة او الدرك)، وكانت على شكلين أحدهما (استراسوار) اي البغالة او الخيالة ويسمون كذلك (سواريه). وثانيهما (البيادة) وهم المشاة او غير الراكبين.

وتعد القوات الضابطة الموزعة على مدن وقصبات الولاية الواحدة (ألايا واحداً) وكل (ألاي) ينقسم إلى طوابير. والطوابير الى بلوكات والبلوكات إلى طواقم. ويتألف آلاي من (١٠) طوابير والبلوك من (٥ ـ ١٠) طواقم. واختلف طاقم الخيالة عن طاقم المشاة من حيث العدد، فقد كان طاقم الخيالة يتكون من (٤) انفار وطاقم المشاة من (٨) انفار ونفرين من الضباط بأسم (قول وكيلي) او وكيل الحرس و (معاون قول وكيلي)؛ ويفوض كل بلوك إلى ثلاثة ضباطهم (بلوك غاسي) اي رئيس البلوك ومعاون بلوك اغاسي و (زورنال امينى) اي امين دفتر اليومية، ولايتجاوز بلوك الخيالة (٦٠) نفراً وبلوك المشاة (١٠٠) نفر.

استخدمت العساكر الضابطة للقيام بأمور عديدة اهمها :

المحافظة على الامن والنظام، ومطاردة المجرمين وقطاع الطرق واللصوص وحراسة السجون وتوفير الامن والراحة للناس في الطرق والمعابر، واطفاء الحرائق وجمع انفار القرعة والاحتياطي ويستعان بها في مهام اخرى

اضافة إلى واجباتها الاصلية . فهي تساعد احياناً في جمع الايرادات من العشائر ، او يتألف منها حرس القوافل التي تحمل البريد بين المناطق المختلفة من الولاية .

ولم تتألف قوة شرطة المدن (البوليس) الا بعد سنة ١٩٠٠م ، لهذا لم يكن بوسع قوات الجندرمة القيام بواجبات الشرطة على الوجه المطلوب في الطرق العامة او الاسواق . ولم تكن احوال إفراد الجندرمة تختلف كثيراً عن احوال الجنود . وقد حاولت الحكومة العثمانية اصلاح قوات الامن فوضعت سنة ١٩١٣م نظاماً جديداً لتوسيع سلطات الشرطة وتغيير تقسيماتها . وقد استعانت بضباط بوليس اوربيين ويتضمن هذا النظام تقسيم الدولة العثمانية إلى خمس مناطق لكل منطقة لجنة يرأسها مفتش عام (مدير البوليس العام) .

الاصلاحات الادارية والاجتماعية :-

واجهت الدولة العثمانية في عهد السلطان محمود الثاني سلسلة من الازمات ، الداخلية والخارجية ، منها الثورة اليونانية وماصحبها من تدخل دولي و عسكري وسياسي لصالح الثوار اليونانيين . واستئناف الحرب الروسية العثمانية . والتي خسرت فيها الدولة العثمانية نيقو بوليس وسلسترة وروسجق ، ووقعت صلح بخارست من ٢٨ أيار ١٨١٢م الذي جعل نهر البروت حداً فاصلا بين روسيا والدولة العثمانية . كما واجه السلطان الحركة (الوهابية) في الجزيرة العربية . ودخل في صراع مع محمد علي باشا واليه على مصر . هذا إلى جانب العديد من الانتفاضات التي وقعت في بعض الولايات .

لذلك قرر السلطان محمود الثاني اتباع سياسة مركزية واعادة الحكم المباشر إلى كافة الولايات العثمانية . فقضى على المماليك في بغداد سنة ١٨٣١م، والجليليين في الموصل ١٨٣٤م والاسرة القرمانلية في طرابلس الغرب،

١٨١ ،

ولكنه فشل في اخماد الحركة (الوهابية) التي ظلت ، كما سبق أن قدمنا مسيطرة على قلب الجزيرة العربية ونجحت في الانتشار في بعض المناطق، حتى استعان بوالي مصر محمد علي فأخمدها سنة ١٨١٨م .

انجز السلطان محمود الثاني برنامج اصلاحات واسع النطاق وضعت فيه الخطوط الرئيسة التي سار عليها مصلحو الدولة خلال القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين ففي حقل التعليم اسس عدداً من المدارس الابتدائية والثانوية الجديدة ، ومدرسة للحقوق واخرى للطب يديرها مدرسون فرنسيون واعيد فتح السفارات في الدول الاوربية وكانت قد اغلقت خلال سيطرة اعداء الاصلاح ، وفي عهده ارسل حوالي مائة طالب للدراسة في اوربا ، وظهرت في عهده جريدة الحكومة الرسمية (تقويم وقائع) . وصدر عددها الاول سنة ١٨٣١م. فضلا عن ذلك فقد شهدت فترة حكمه اعادة النظر بنظم الادارة المركزية للحكومة فأنشأ وزارات المالية والاوقاف والحربية والداخلية .

كما اسس (ترجمة اوده سى) اي ادارة الترجمة التي تحولت بعد ذلك إلى وزارة الخارجية ، ومن (ترجمة اودة سى) تخرج عدد من رجال الدولة العثمانية الذين تحملوا عبء الاستمرار في الاصلاحات امثال عالي باشا وفؤاد باشا ونامق كمال بك وغيرهم كما سنرى . واسس محمود الثاني مجلساً للوكلاء (الوزراء) على غرار مجالس الوزراء في الدول الاوربية رغبة منه في زيادة الكفاءة الادارية . كما حدثت بعض التغييرات في مناصب الدولة . ففي سنة ١٨٣٧م الغي لقب الصدر الاعظم مؤقتاً واسندت سلطاته الى باش وكيل او الوزير الاول وهو يعادل منصب رئيس الوزراء .وفي ايامه ظهرت قوة الباب العالي الذي كان مقراً للصدر الاعظم ووزارات الدولة ، وبمرور الزمن ، اصطدمت رغبة السلطان الذي كان يريد سلطة استبدادية مطلقة بميل الطبقة البيروقراطية الادارية لتقييد سلطته بالمبادىء

والقوانين المدنية، وقد ادى ذلك الاصطدام إلى ظهور الأنشقاق بينهما عند نهاية القرن التاسع عشر كما سنرى.

وفي مجال القضاء اسس السلطان محمود الثاني (المجلس الاعلى للقضاء) وكلفه باعادة النظر في القوانين وعرف بأسم (مجلس عالي احكام عدلية) وكان اعضاؤه من مختلف الولايات، وقد انبثق من هذا المجلس سنة ١٨٦٨ مجلس (شورى دولت) أي مجلس شورى الدولة. كما اصدر قانوناً للعقوبات. وادخل الزي والنظام الاوربي في الجيش العثماني واسس مجلس (شورى عسكري) أي مجلس الشورى العسكري لتنظيم الامور العسكرية، والغى نظام البكتاشية والمولوية لارتباط هاتين الطريقتين الصوفيتين بتنظيمات الجيش الانكشاري.

اصلاحات السلطان عبدالمجيد:-

وبعد وفاة محمود الثاني خلفه السلطان عبدالمجيد (١٨٣٩- ١٨٦٨)م وقد تأثر هذا السلطان بعدد من المفكرين والمصلحين العثمانيين الذين يأتي رشيد باشا في مقدمتهم. ورشيد باشا هذا يعد من ابرز دعاة الاصلاح، وقد ولد في استانبول وظهرت مواهبه وهو كاتب صغير في أحد أقلام الباب العالي مالبث ان تقلد مناصب سياسية كبيرة واتصل بكبار رجال الدولة وقد أنصرف منذ نشأته الى دراسة العلوم الدينية والمدنية واتقن اللغتين الفرنسية والانكليزية، ثم عين سفيراً لبلاده في لندن وباريس واستوزر للخارجية وعهد اليه بمنصب الصدارة العظمى وهو لم يتعد الثلاثين من العمر.

ولقد ندب لهذا المنصب ست مرات، وحضر مندوبا عن بلاده في عدة مؤتمرات دولية واستفاد من رحلاته وكان معجباً بالنظام الدستوري الانكليزي وصار من اشد الدعاة حماسة له فعزم على اعلان المساواة والغاء الفوارق بين ابناء وطنه، وقد استطاع بسهولة ان يضمن لخططه الاصلاحية تأييد السلطان الشاب الذي كان يطمح، كما يقول المؤرخ الالماني

كارل بروكلمان ، للظهور بمظهر المنقذ الوطني لبلاده في اعين الاوربيين جميعاً.

لقد بدأت بعهد السلطان عبد المجيد مرحلة جديدة من حركة التنظيمات امتدت حتى سنة ١٨٧٧ . وتستند التنظيمات الى مرسومين اصلاحيين اساسيين صدر الأول سنة ١٨٣٩ وعرف بأسم خط شريف كولخانة وصدر الثاني سنة ١٨٥٦ وعرف بأسم خط شريف همايون . ولقد جاء هذان المرسومان استجابة لضغط دعاة الاصلاح في الدولة العثمانية من جهة ، والحيلولة دون تدخل الدول الاوربية في الشؤون الداخلية للدولة العثمانية بدعوى حماية الاقليات المسيحية وغيرها من جهة اخرى ، فكيف صدر هذان المرسومان وما مضمونهما .. ؟

١. خط شريف كولخانه :

اعلن السلطان هذا المرسوم في ٣ تشرين الاول سنة ١٨٣٩ في حفل رسمي كبير في قصر كولخانة اي قصر الورد حضره الوزراء والاعيان ورجال الدين والسلك الدبلوماسي واطلقت عند قراءته مائة طلقة وطلقة ، ومما جاء في مقدمة المرسوم :

«لايخفى على عموم الناس ان دولتنا العلية من مبدأ ظهورها وهي جارية رعاية الاحكام القرانية الجليلة والقوانين الشرعية المنيفة بتمامها ، ولذا كانت قوة ومكانة سلطنتنا السنية ورفاهية وعمارية اهاليها وصلت حد الغاية ، وقد انعكس الامر منذ مائة وخمسين سنة بسبب عدم الانقياد والامتثال للشرع الشريف ولا للقوانين المنيفة بناء على طروء الكوارث المتعاقبة والاسباب المتنوعة فتبدلت قوتها بالضعف وثروتها بالفقر ... واعتماداً على المعونة الالهية واستناداً على الامدادات الروحانية النبوية قد روئي من الان فصاعداً اهمية لزوم وضع وتأسيس قوانين جديدة تتحسن بها ادارة ممالك دولتنا العلية المحروسة والمواد الاساسية لهذا القوانين هي

١٨٣٩ / ١١ / ٣
خط الشريف كولخانه

عبارة عن الامن على الارواح ، وحفظ العرض والناموس والمال وتعيين الخراج ، وهيئة طلب العساكر للخدمة ومدة استخدامهم لأنه لايوجد في الدنيا اعز من الروح والعرض والناموس والمال» .

لقد كان هدف «خط شريف كولخانة» ضمان حقوق افراد الدولة العثمانية بصرف النظر عن معتقدهم الديني او اختلافهم القومي ، لذلك فقد تضمن المرسوم كما رأينا اهمية وقوف الحكومة ضد اي تهديد يقع على حياة أو كرامة أو ملكية الافراد العثمانيين وان المتهمين سواء اكانوا مجرمين عاديين ام سياسيين ، سيحاكمون بصورة علنية .

ومن ناحية الضرائب انتقد المرسوم الاصلاحي طريقة الالتزام في جمع الضرائب واكد ان «اصول الالتزامات المضرة المعتبرة من ضمن اسباب الخراب» والالتزام يعني «تسليم مصالح المملكة السياسية وادارتها المالية بيد رجل ، وبالاحرى ان ، نقول : بوضعها تحت قهره وجبره، فأنه ان لم يكن رجلاً اميناً فلا شك انه ينظر الى فائدته الشخصية وتكون كل حركاته وسكناته عبارة عن غدر وظلم» . لذلك فقد اعلن المرسوم ان الضرائب ستوزع في المستقبل بصورة عادلة على جميع طبقات الشعب وان طريقة جمعها ستتحسن ، واخيراً تعهد مرسوم كولخانة بتنظيم التجنيد وتحديد فترة الخدمة العسكرية للمجندين الاجباريين ذلك «لان الجاري، كما أشار المرسوم للان، هو عدم النظر والالتفات الى عدد النفوس الموجودة بالبلدة ، بل يطلب من بعض البلدان زيادة عن تحملها ومن البعض الاخر انقص مما تتحمل وهذا فضلاً عما فيه من عدم النظام فأنه موجب لاختلال موارد الزراعة والتجارة» .

وتعهد السلطان عبد المجيد في هذا المرسوم بتطبيق القوانين الجديدة التي ستنظم شؤون الحياة في الدولة العثمانية بموجب المرسوم وقال «وبما ان هذه القوانين الشرعية ستوضع لاحياء الدين والدولة والملك والملة فسيؤخذ

العهد والميثاق اللازم من قبلنا .... بعدم وقوع اي حركة مخالفة لها وسنحلف قسماً بالله العظيم في اودة الخرقة الشريفة «محل وضع الاثار النبوية» بحضور جميع العلماء والوكلاء وسيصير تحليفهم ايضاً وعلى هذا فكل من خالف هذه القوانين الشرعية .. مهما كانت صفته سيجري توقيع الجزاءات اللازمة عليه بدون رعاية رتبة ولا خاطر » ووعد بأزالة الرشوة ودفع مرتبات الموظفين الصغار في الدولة .

لقد كان مرسوم كولخانة خطوة كبيرة نحو الاخذ بالقوانين الوضعية حين قرر المساواة التامة بين المسلمين وغيرهم محاولة لمنع الدول الاوربية الكبرى من التدخل في شؤون الدولة العثمانية بحجة حماية الجماعات غير الاسلامية .

٢. خط شريف همايون :- ١٨٥٦/٢/١٨

صدر المرسوم الهمايوني الثاني في عهد السلطان عبد المجيد في ١٨ شباط ١٨٥٦ في اعقاب انتهاء حرب القرم (١٨٥٤ - ١٨٥٦) التي نشبت بسبب الصراع بين روسيا وفرنسا على حماية الاماكن المقدسة بفلسطين ، وادعاء كل طرف حق حماية المسيحيين الكاثوليك والارثودكس هناك . كما جاء صدور في ذلك الوقت بمثابة اعلان من الحكومة العثمانية عن مقاصدها النبيلة ، ونياتها الطيبة نحو رعاياها من غير المسلمين وعن رغبتها الاكيدة في الاصلاح والتطور واقتفاء خطوات الدول الاوربية في معارج التقدم والرقي .

اكد المرسوم الجديد ، الذي وصفه الكاتب الانكليزي ايفرسلي بأنه «ماكنا كارتا الدولة العثمانية» جميع العهود الاصلاحية التي قطعت في مرسوم ١٨٣٩ والمتعلقة بالعدالة والمساواة المطلقة بين جميع الرعايا دون تمييز في الدين او الطبقة او الجنس ، وصرح في الوقت نفسه بأبقاء الحقوق والامتيازات «التي منحت من قبل اجدادنا العظام للطوائف المسيحية وكافة الملل الغير مسلمة» في الدولة العثمانية ، وقرر بعض الاسس لتثبيت هذه

الامور بالتفاصيل اللازمة» ومن ذلك تشكيل مجالس جسمانية ومجالس روحانية يمثل فيها الرهبان و «عوام كل طائفة لادارة مصالح طوائف المسيحيين والتبعة الغير مسلمة والبلاد والقرى والمدن التي يكون جميع اهاليها من مذهب واحد».

وقد ترك المرسوم جميع القضايا المتعلقة بالاحوال الشخصية لابناء الطائفة الى هؤلاء الرؤساء وتلك المجالس، وكذلك جميع الامور المتصلة بأوقاف الاديرة والكنائس والمدارس والمؤسسات الخيرية الخاصة بالطائفة . وتضمن المرسوم الموافقة على قيام كل طائفة بفتح مدارس اهلية ، الا ان طرق التدريس واختيار المعلمين يكون «تحت ملاحظة مجلس المعارف المختلط المعين اعضاؤه من طرفنا الملوكي» واكد المرسوم المساواة في الضرائب بين سائر المواطنين العثمانيين وهذه المساواة في الحقوق تتطلب المساواة في الواجبات «فالمسيحيون وسائر التبعية الغير المسلمة يسحبون نمرة قرعة مثل المسلمين » اي يؤدون الخدمة العسكرية كأخوانهم المسلمين .

كما تضمن المرسوم ضرورة العمل لتنظيم ميزانية سنوية للدولة والسعي «لتعيين الاسباب التي تكون منبعاً لثروة ممالكنا المحروسة المادية وتخصيص رأس المال المقتضى وفتح الجداول والطرق اللازمة لتسهيل نقل محصولات ممالكنا ومنع الاسباب الحائلة دون توسيع نطاق التجارة والزراعة واجراء التسهيلات الحقيقية لذلك ، ويلزم النظر في الاسباب المؤدية لاستفادة العلوم والمعارف الاجنبية» .

لقد تولى المجلس الاعلى للتنظيمات وكان قد تشكل سنة ١٨٥٤ م مهمة تنظيم حركة الاصلاح وتوجيهها ووضع التشريعات اللازمة التي تحميها وتدفع بهاالى الامام . وقد قام هذا المجلس بدور كبير في توسيع حركة الاصلاح وتنفيذ برامجها . ويشير الكاتب اللبناني شفيق جحا إلى ان تكون هذا المجلس يدل على ان الحكومة العثمانية اصبحت مدركة لاهمية الاصلاح وتحقيق أكبر قسط ممكن منه لانه الوسيلة الناجمة لشفائها من عللها المستعصية ولاستعادة قوتها وعزتها ومجدها ، وكان من ابرز اعضاء

هذا المجلس رجلان من كبار رجال الاصلاح في الدولة العثمانية هما : عالي باشا وفؤاد باشا اللذان تناوبا على رئاسته بضع سنوات .

ولد عالي باشا في استانبول سنة ١٨١٤ وانصرف في اول ايامه الى تحصيل العلوم والاداب العربية والتركية . واتقن اللغتين الانكليـزية والفرنسية ، وكان رشيد باشا يصطحبه في سفراته سكرتيراً له . وفي سنة ١٨٤٠ عين مستشاراً لوزارة الخارجية ثم اصبح القائم بأعمال السفارة العثمانية في لندن ، ووزيراً للخارجية ست مرات وصدرا اعظم للدولة ثلاث مرات ، وكان يؤمن بالاصلاح. وفي تقريره الذي رفعه الى السلطان عبد العزيز (١٨٦١ – ١٨٧٦) اشار الى الخطر المحدق بالدولة إن لم يباشر بتطبيق النظم الحديثة في كل مرافقها ونشر الحرية والعدالة والقضاء على الرشوة وتحديد صلاحيات الوزراء والولاة ، وكانت سياسته الخارجية تقوم على اساس التقرب من الانكليز وكسب ودهم ماداموا يسعون في سياستهم الى المحافظة على كيان الدولة العثمانية وتحقيق التوازن الدولي ، الا انه تحول عنهم ولم يعد يخطب ودهم بعد ان تغيرت سياستهم وظهرت اطماعهم تجاه الدولة العثمانية وولاياتها . وقد توفى سنة ١٨٧١

اما فؤاد باشا فأبوه شاعر تركي مشهور هو كجهجي زادة محمد عزت ، درس الطب والفلسفة ، وقد جلب انتباه رُشيد باشا فعينه مترجماً في الباب العالي ثم كاتباً أول في السفارة العثمانية بلندن ثم سفيراً في روسيا . وقد اشترك في مؤتمرات دولية مهمة وتقلد منصب وزارة الخارجية ثم عين صدرا أعظم ، وكان فؤاد باشا من المصلحين الذين حثوا في تقاريرهم السلاطين على استخدام المسيحيين في المناصب العليا كتدبير لمنع تدخل الدول الاوربية في شؤون الدولة .

ويتالف المجلس العالي للتنظيمات من ثلاثة اقسام : اداري وتشريعي ومالي ويعني كل قسم بالمسائل الداخلة ضمن اختصاصه ، وراحت الدولة بالتعاون مع هذا المجلس تعمل على استكمال مشروعات الاصلاح .

فأنشأت في سنة ١٨٥٦ ألبنك المركزي العثماني ليساعد في تدعيم الاقتصاد. كما اصدرت اول عملة ورقية عثمانية ، وفي مجال التعليم تم في سنة ١٨٤٥ تاليف لجنة سباعية من أغزر الرجال علماً وكفاءة وكلفتهم بدراسة اوضاع المدارس وتقديم التوصيات اللازمة لتنظيم التعليم ونشره ورفع مستواه . وفي اواسط سنة ١٨٤٦ قدمت اللجنة تقريراً ضمنته منهاجاً طويلاً مفصلاً يتناول مراحل التعليم الثلاث الابتدائية والثانوية والعالية . واقترحت تشكيل ديوان للمعارف العمومية ليشرف على شؤون التعليم وعلى أثر ذلك زيد عدد المدارس الابتدائية وانشئت بعض المدارس المتوسطة التي كانت تدعى (الرشدية) وصدر قرار بتأسيس اول جامعة عثمانية وفي سنة ١٨٤٧ تحول ديوان المعارف العمومية الى نظارة اي وزارة وقد اخذت هذه الوزارة على عاتقها انشاء مدارس حديثة خارج نطاق سيطرة رجال الدين تدرس العلوم الحديثة ومنها الحساب والهندسة والصحة والجغرافية والتاريخ ، وكان مدرسوها ممن دربوا تدريباً خاصاً بعيداً عن السلطات الدينية ، وفي ١٨٦٦ افتتحت مدرسة الليسيه في غلطة سراي باستانبول ، وجعلت لغة التعليم فيها الفرنسية الا في دروس التاريخ والتربية الوطنية والجغرافية وهكذا دخلت الثقافة الاجنبية في التعليم .

ومع ان نتائج هذه التغييرات في مجال التعليم كانت محدودة متواضعة في اول الامر فأن منزلتها ، كما يقول شفيق جحا ، كانت كبيرة لسببين اولهما : انها كانت نقطة انطلاق صحيحة وفعالة لتطوير المجتمع العثماني، وقد ظهر اثرها بجلاء فيما بعد ، وثانيهما ان هذا التنظيم انتزع التعليم من ايدي رجال الدين والعلماء ووضعه تحت اشراف الدولة وفتح امامه آفاقاً واسعة للتطور .

واما في النواحي الأجتماعية ، فقد صار المجتمع العثماني يحث الخطا نحو الحياة العصرية ، وبدت علامات ذلك ، في تنظيم دوائر الحكومة

وتزويدها بالأثاث الجيدة، كما حلت البزة الرسمية الغربية والطربوش محل الاثواب الفضفاضة والعمائم ، وانتقل الاشراف والوجهاء والاثرياء في العاصمة والمدن العثمانية الكبرى من بيوتهم في الاحياء القديمة وسكنوا في منازل حديثة على الطراز الاوربي، على خليج البسفور في استانبول ، وفي احياء جديدة من القاهرة وبغداد ودمشق وبيروت وغيرها من المدن . حتى ان السلطان العثماني نفسه انتقل من السرايا القديمة الى قصر على حافة البحر مزين بالثرايا والمرايات المذهبة والاثاث الوثير ولم يعد يظهر بمظهر الطاغية الشرقي ، بل اخذ يبدو حاكماً مستبداً عادلاً وعلى كتفيه رمانات من الوشي والقصب للزينة وعلى صدره النياشين ، وله لحية مهندمة .

الأصلاحات الأدارية والأقتصادية :

بين سنتي ١٨٥٨و ١٨٦٤م ، اصدرت الحكومة العثمانية قوانين مهمة قصدت بها اجراء تغييرات في البنية الاقتصادية والادارية للمجتمع العثماني ، ومن ابرز هذه القوانين ، قانون الأراضي وقانون الولايات .

قانون الاراضي : —

بقي نظام الاقطاع في الدولة العثمانية على حاله السابق حتى اوائل القرن التاسع عشر ، وعندما كثر استبداد الأقطاعيين بالاراضي ، وامتنعوا عن تقديم الاموال المترتبة عليهم ، اضافة الى انتقال كثير من اراضي الاقطاعات ، مع مرور الزمن ، الى حكم التملك الشخصي ، لجأ السلطان سليم الثالث الى وقف الأقطاعات المنحلة التي توفي اصحابها او انتهت مدة اقطاعهم لها وادخال ايرادها في الأوقاف العامة لتنفق على اصلاح الجيش الجديد الذي بدئ بأنشائه آنذاك ، وكان لهذا الاجراء أثر كبير في الغاء النظام الاقطاعي في الدولة العثمانية .

ولقد نص خط شريف كولخانة ، كما سبق ان قدمنا ، على ضرورة

١٨٥٧/٥/٢١
١٢٧٣/٩/٢٦

الغاء نظام الالتزام الفاسد في جمع الضرائب ، وعد هذا النظام من اسباب الخراب والفوضى التي حلت بالدولة العثمانية ، واشار الى مايحدثه اخذ الجنود من الاهالي دون نظام من اضرار بالزراعة ووعد بأصلاح ذلك ، وبذلك وضع المرسوم بداية لالغاء الاقطاع العسكري ، كما باشرت الدولة جباية الضرائب المترتبة على الفلاحين بوساطة موظفين رسميين وحلوا بذلك محل الملتزمين والاقطاعيين ، وكانت نظارة المالية مرجع اولئك الموظفين ويتم ذلك عن طريق دفتر دار الولاية ومديري المال فيها ، ولكن الدولة لم تستمر طويلاً على اتباع ذلك النهج ، وسبب ذلك يرجع الى قلة المأمورين القادرين على تحصيل الايرادات بأهلية ونزاهة ، فدعى ذلك الى اعادة نظام الالتزام بعد الحد من اضراره ، وبعد صدور خط شريف همايون أصدرت الدولة قانون الاراضي في ٢١ نيسان ١٨٥٧م وصيغ في (١٣٢) مادة وخاتمة وبموجبه قسمت الاراضي في الدولة العثمانية الى خمسة اقسام هي :

١. الاراضي المملوكة وتنقسم إلى اربعة اقسام هي :-

آ. العرصات الموجودة داخل المدن والقرى من اجل السكن على ان لاتزيد مساحتها عن (٤٠٠) متر .

ب. الاراضي التي افرزت من الاراضي الاميرية ، وتملكت تملكاً صحيحاً.

ج. الاراضي العشرية ، وهي التي وزعت وتملكت حين الفتح الاسلامي.

د. الاراضي الخراجية ، وهي التي بقيت في يد اصحابها الاصليين على ان يدفعوا عنها الخراج ، ولقد اكدت المادة الثانية من القانون تملك الافراد لرتبة الارض المملوكة وحقهم في توارثها .

٢. الاراضي الاميرية : وتعود رتبة هذه الاراضي الى بيت المال وتجري احالتها وتفويضها بموافقة الدولة ، ويعطى المتصرفون فيها سندات (خاقانية) هي سندات الطابو .

٣. الاراضي الموقوفة: وقد قسمها القانون الى اراض الوقف الصحيح وهي

التي كانت من الاراضي المملوكة حقيقة ثم اوقفت وقفاً شرعياً ورقبة هذه الاراضي وحقوق التصرف بها عائدة الى الواقف ، اما اراضي الوقف غير الصحيح فهي المفرزة من الاراضي الاميرية والموقوفة من لدن السلاطين او الاخرين وتعود اعشار هذه الاراضي ورسومها الاميرية لجهة من الجهات.

٤. الاراضي المتروكة : ومنها الاماكن التي تركت للناس كافة كالطريق العام وماشبه والاماكن المخصصة للرعي او ماشاكل .

٥. الاراضي الموات: وهي الخالية التي لم يتصرف فيها احد من الاهالي ولم تترك لهم وكانت بعيدة عن القرى والقصبات وفي ١٣ كانون الثاني ١٨٥٩م . اصدرت الحكومة العثمانية قانون الطابو .وقد جاءت مواده الـ (٣٣) لتضع امر تسوية الحقوق المتعلقة بالاراضي الاميرية وتحديدها على اسس جديدة . كما انشأ نظام قانوني لتسجيل الحجج والعقود المختصة بالاراضي . وقد عالج هذا القانون والنظام الصادر بعده في ١٨٦٠م مسألة منح سندات تفويض للمتصرفين بالاراضي الاميرية .

ولم يضع هذين القانونين والانظمة المتعلقة بهما حلولاً ناجعة لمشاكل الاراضي في الدولة العثمانية ، ولعل من ابرز مايلحظ عليهما : انهما مرتبكان ، بحيث اديا عند تطبيقهما الى ظهور طبقة ملاكي الاراضي فقد سجلت مساحات واسعة من الاراضي اما بأسم السلطان (الاراضي السنية) واما بأسم عدد من شيوخ العشائر واثرياء المدن ، ولم يسجل منها بأسم المالكين الحقيقيين من الفلاحين سوى قسم ضئيل ولقد ساعد على ذلك امران اولهما ان القوانين لم تحفل بتعيين مساحة الاراضي قدر اهتمامهما بتعيين الحدود . وثانيهما ان الحكومة اوكلت الى المتصرفين في الالوية امر تشكيل اللجان للقيام بعملية مسح الاراضي ولاريب ان ذلك يفسح المجال واسعاً امام التلاعب بالحدود وتغيير العلامات ، اضافة الى تأثير المخاتير وشيوخ القرى والمتنفذين على اعضاء اللجان ، فكانوا يعينون حدود اراضيهم ومساحتها كما يريدون ، وفي هذا مايفسر امتلاك عدد من وجهاء المدن

العربية الكبرى لعدد من قرى الولايات كما يفسر الدور المهم الذي قامت به بعض العوائل العربية في الحياة السياسية والاقتصادية في الوطن العربي بعد انتهاء الحكم العثماني .

قانون الولايات :

وقد شرع سنة ١٨٦٤م ليضع حداً للادارة الاقطاعية القديمة ويربط الاقاليم بالسلطة المركزية ويحدد صلاحية الولاة والمتصرفين والقائمقامين واقتبس كثيراً من احكامه من التنظيم الاداري الفرنسي ، والغى النظم الباقية في عهود «التيمار — والزعامة» ويعد نظام الولايات ، كما يقول المؤرخ المصري الدكتور عبد العزيز نوار المحاولة العملية لأصلاح حال الولايات العثمانية من جميع النواحي السياسية والاقتصادية والاجتماعية وتأكيد خضوعها للدولة ، وقد نص القانون على انشاء مجالس محلية لتعاون المسؤولين في الحكم ، فكانت الولاية تدار من قبل مجموعة من الموظفين الى جانبهم عدد من الاعضاء المنتخبين وهذا ماكان يعرف بأسم (مجالس الادارة) ويعد الوالي رئيس الوحدة الادارية العامة والممثل السياسي للحكومة وقد تحددت اختصاصاته بموجب التنظيمات الجديدة المتمثلة بقانون الولايات لسنة ١٨٦٤ وقانون ادارة الولايات العمومية لسنة ١٨٧١، وتعديلاتهما التي أحدثت في قانون الولايات لسنة ١٩١٣م بما يلي :-

١. رئاسة مجلس ادارة الولاية .
٢. العمل على ترقية شوون التربية والتعليم .
٣. ضبط الامن في الولاية باستخدام قوات الامن الداخلي .
٤. مراقبة اعمال المتصرفين والقائمقامين وبقية موظفي الولاية .
٥. العمل على مراقبة الشؤون المالية والتقيد بميزانية الولاية .
٦. العمل على رفع مستوى الولاية من النواحي الزراعية والصناعية والتجارية والصحية والعمرانية .

٧. اتخاذ تدابير وقتية لمواجهة الحركات التي تخل بحقوق الدولة والاهالي واخبار الباب العالي عن منشئها وظروف وقوعها ، ولم يكن للوالي سلطة على القوات العسكرية النظامية في الولاية ولكن يمكنه ان يطلب من القائد العسكري ان يتخذ من الخطوات مايراه ضرورياً للوصول الى اهداف سياسية او ادارية معينة .

وكان يساعد الوالي مجموعة من الموظفين منهم نائب الوالي (وهو القاضي في بعض الاحيان) والدفتردار والمكتوبجي وقائد الجندرمة ومفتش الصحة ومدير الدفتر الخاقاني (المسؤول عن تفتيش واجراء احكام القوانين والتعليمات المتعلقة بحق ادارة الاملاك والاراضي) ومدير المعارف (التربية) والزراعة والاوقاف .

اما في الالوية فيعد المتصرف رئيس الوحدة الادارية وهو ينفذ الاوامر والتعليمات التي تصدرها الولاية ويكون مسؤولاً عن قوة الامن في لوائه ويساعده عدد من الموظفين .

انقسم كل لواء الى عدد من الاقضية . وعد كل قضاء قائمقامية واحدة والقصبة الرئيسة لكل قضاء تكون مقراً لرئيس الوحدة الادارية الذي يطلق عليه اسم (القائمقام) ويتبع المتصرف وهو مسؤول عن قضائه في جميع الامور المالية والادارية .

اما في النواحي فهناك مدير الناحية ويقوم بنشر قوانين الحكومة ونظمها وتبليغ اوامرها الى الاهالي وهو مسؤول عن حفظ الامن في ناحيته وعن جباية اموال الحكومة وارسالها الى مركز القضاء .

هذا وقد عد المختار في القرية اصغر مأمور اداري في الولاية ويقوم بمساعدة موظف الحكومة في جباية اموال الدولة المفروضة على سكان القرية وهو يخبر مدير الناحية بما يقع في القرية من ولادات ووفيات ويساعد السلطات في القبض على المذنبين ويبلغ اهالي القرية بما يصدر عن مدير الناحية .

ولاينفرد روؤساء الوحدات الادارية في الولاية او اللواء او القضاء او الناحية بأدارة شؤون وحداتهم وانما تشاركها مجالس ادارة تضم ، كما اشرنا من قبل ، عدداً من الاهالي المنتخبين وآخرين يتمتعون بالعضوية بحكم مناصبهم مثل النائب والدفتردار والمكتوبجي والمفتي وهذه المجالس هي :

مجلس الولاية العمومي :-

وهو مجلس عمومي في مقر الولاية يتألف من اربعة اعضاء منتخبين عن كل لواء ، اثنان منهم من المسلمين واثنان من غيرهم ورئاسة المجلس تكون للوالي او من يرشحه من كبار الموظفين في حالة غيابه ، ويكون اجتماعه مرة في السنة ولاتتجاوز مدة اجتماعه ومناقشاته اربعين يوما ويقدم اعضاء كل لواء عرائض بمطالبهم الى الوالي لعرضها على المجلس لمناقشتها ، وتعد وظيفة المجلس استشارية ويكون الوالي مسؤولاً عن ارسال توصيات المجلس الى استانبول لاستحصال الموافقة عليها .

اما واجبات المجلس ومهامه فهي دراسة الوسائل الكفيلة بتطوير اوضاع الولاية الاقتصادية والتعليمية والعمرانية وتقديم التقارير عن ذلك .

مجلس ادارة الولاية :

ويشارك الوالي ، كما قدمنا ، في ادارة الولاية مجلس يتألف من نائب الوالي والدفتردار والمكتوبجي والمفتي اضافة الى اعضاء منتخبين من الاهالي اثنان من المسلمين واثنان من غيرهم .

وتتضمن واجبات هذا المجلس العمل على انشاء الابنية وتنظيم المبايعات والمقاولات والتزام الواردات العشرية والرسوم والتدقيق في قرارات مجالس الدوائر البلدية وتقسيم التكاليف التي تفرض على سكان الولاية وجبايتها والنظر في الدعاوي الموجهة ضد موظف الولاية واستجوابهم في حقيقة التهم الموجهة اليهم ، ولمجلس الادارة الحق في حسم الخلافات التي تحدث بين دوائر الولاية ومجالسها وبين المحاكم وموظف الولاية وذلك

بالنظر في حدود مأموريتهم والصلاحية العائدة للوظائف التي يقومون بها . وللمجلس النظر في الدعاوي التي تحدث بين الناس من جهة التزامات الاموال الاميرية او غيرها من المقاولات .

مجلس ادارة اللواء :ـ

ويساعد المتصرف في لوائـه مجلس ادارة يتألف من اركان الولايـة وهم نائب المتصرف والمفتي والمحسبة جي ومدير التحريرات ، اضافة إلى ثلاثة اعضاء منتخبين من المسلمين ومثلهم من غير المسلمين ، اما صلاحيات هذا المجلس فأبرزها تدقيق ميزانية اللواء واحكام المراقبة على كافة اموال الحكومة والسعي لانشاء الطرق في اللواء ودراسة الوسائل الكفيلة لرفع مستوى الحياة الاقتصادية والتعليمية والصحية والعمرانية في اللواء.

مجلس ادارة القضاء :ـ

يساعد القائمقام في ادارة شؤون القضاء مجلس يتألف من نائب القائمقام والمفتي ومدير المال وكاتب تحريرات القضاء وهؤلاء هم الاعضاء الطبيعيون ، ويكون إلى جانبهم عدد مناسب من الاعضاء المنتخبين على ان لايزيد عددهم عن ثلاثة اشخاص من المسلمين وثلاثة من غيرهم ، ويجتمع المجلس برئاسة القائمقام وابرز وظائفه ادارة اموال الحكومة وتدقيق ميزانية القضاء وتقسيم التكاليف المفروضة بقرار مجلس ادارة اللواء على القرى والنظر في المبايعات والمقاولات والمزايدات العائدة للحكومة.

مجلس ادارة الناحية :ـ

يكون إلى جانب مدير الناحية هيئة استشارية كذلك تسمى مجلس ادارة الناحية يتألف من اربعة اشخاص يأتون من مجالس الختيارية في القرى في اوقات معينة . ويترأس مدير الناحية اجتماعات هذا المجلس الذي يجتمع اربع مرات في السنة في الاوقات التي يعينها الوالي .

ويبلغ قائمقام القضاء مدير الناحية بموعد إنعقاد المجلس حسب الاوامر التي يتلقاها من مركز اللواء .

مجلس اختيارية القرية :-

وكان في كل قرية مجلس لادارتها يسمى مجلس الاختيارية اي مجلس الكبار في السن ويضم هذا المجلس عدداً من الاعضاء المنتخبين يتراوح بين (٣ - ١٢) شخصاً حسب نسبة عدد اهالي القرية . وتتلخص واجبات هذا المجلس بدراسة احتياجات القرية والعمل على رفع مستواها من جميع النواحي الصحية والمالية والادارية والتعليمية وكذلك النظر في الدعاوي الخاصة التي تقع بين الاهالي ومحاولة حسمها ثم المحافظة على مصالح الحكومة وتبليغ اوامرها إلى افراد القرية .

المجالس البلدية :-

وتم تنظيم المدن والقصبات بموجب هذه الترتيبات الادارية إذ اصبحت (المحلة) او (الحارة) في المدينة او القصبة وحدة ادارية يشرف عليها (مختار) منذ سنة ١٨٣٥ .وتأسست البلديات بحيث لم تخل بلدة مهمة بعد سنة ١٩٠٠ من بلدية واصبحت المجالس البلدية بعد ذلك جزءاً من التشكيلات الادارية في الولاية .

ويتألف المجلس البلدي من رئيس وعدد من الاعضاء يتراوح عددهم بين (٦ - ١٢) عضواً ،وإلى جانبهم عدد من الاعضاء الفنيين منهم مهندس البلدية وطبيب المدينة وكاتب وامين للصندوق . وينتخب اعضاء البلدية من قبل الاهالي لاربع سنوات على ان يكونوا من اصحاب الاملاك .

اما رئيس البلدية فيعين من قبل الحكومة ويشترط ان يكون من وجهاء المدينة ، وللمجالس البلدية واجبات عديدة اهمها مراقبة انشاء الابنية وتوسيع الشوارع واتخاذ الاجراءات اللازمة لصيانة الصحة العامة داخل المدينة ووضع الرسوم على اجور المركبات وانشاء دور الايتام والمستشفيات .

اما واردات البلدية فتكون من المبالغ المخصصة لها من قبل الحكومة

والرسوم المختلفة التي تترك لها مثل رسوم القبانية والكيل ورسوم الذبح والغرامات المالية التي يسمح للبلدية بفرضها والاكتتابات والهبات التي يكتتب بها للبلديات او توهب لها . اما ابواب الصرف فهي : —

١. المصاريف المتعلقة بالطرق والمعابر والانشاءات والتعميرات العائدة للمنافع العامة

٢. دفع رواتب موظفي البلدية وتغطية مصاريف الادارة .وتقع على عاتق رئيس البلدية مسؤوليات عديدة أهمها رئاسة جلسات المجلس التي تعقد مرة كل اسبوعين وتعيين الموظفين ومراقبي البلدية (الجاويش) في مراكزهم وإعداد الميزانية السنوية وعرضها على المجلس وتنفيذ قرارات المجلس البلدي واستحصال تصديق مجلس الادارة على مقررات المجلس البلدي وتقديم خلاصة شهرية وسنوية بالواردات والمصروفات الى المجلس ومن ثم نشرها في الجريدة الرسمية للولاية .

ويجتمع المجلس البلدي مع مجلس الادارة مرتين كل سنة ليؤلف الجمعية البلدية وتكون مهمتها فحص الحالة العامة للبلدية وإرسال تقرير إلى الوالي يناقش أمام مجلس إدارة الولاية وخاصة مايتعلق منه بالميزانية والحسابات العامة والتغييرات المقترحة في الانظمة وشراء الاملاك التي يجب الحصول عليها بمقتضى المصلحة العامة .

من هذا كله يبدو ان الادارة كانت منظمة من الناحية النظرية تنظيماً دقيقاً وقائمة إلى حد كبير على المؤسسات التمثيلية، وعلى الرغم من ذلك فأن هذه الحالة من الحالات التي قلما توجد فيها أية علاقة بين المظهر الخارجي والحقيقة القائمة إذ تذبذبت إتجاهات الدولة الاصلاحية منذ إصدار خط شريف كولخانه حتى إعتلاء السلطان عبد الحميد الثاني العرش سنة ١٨٧٦م بين المركزية واللامركزية ولم تعط المجالس التمثيلية الفرصة الكافية لكي يتدرب فيها سكان الولايات كافة على ممارسة الحكم التمثيلي . هذا بالاضافة

الى تصادم التيارات الدينية والطائفية والاقطاعية في داخل تلك المجالس وكان ذلك عاملاً معرقلاً للنهوض بمستوى السكان السياسي والاقتصادي والثقافي .

ولم يكن من السهل نقل الكثير من القوانين والأنظمة الى حيز التطبيق فهناك بضعة عوامل حالت دون ذلك . ومن أولها ضعف الجهاز الاداري وعدم تعاونه مع الحكومة المركزية في تحقيق الاصلاح ، فمعظم الموظفين كانوا غير إكفاء لمثل هذا العمل .إضافة الى أنهم لم يكونوا راضين عن بعض تلك الاصلاحات لانها سلبتهم إمتيازاتهم .أما العامل الثاني فتمثل في معارضة بعض رجال الدين والفئات الرجعية المتعصبة للاصلاحات، بحيث أنهم عالي باشا وفؤاد باشا بأنهما يمتهنان كرامة الدولة وينتقصون من سيادتها بخضوعهم لتوجيهات الدول الاوربية في مسائل الاصلاح إضافة الى أن الاصلاح عن طريق تقليد الاوربيين وإقتباس أنظمتهم ومؤسساتهم مخالف للشرع الاسلامي ، وكان من أسباب معارضتهم للاصلاحات ،هو أنهم لم يروا في معظمها مايصلح أحوال الرعية من المسلمين ولم يرفع عن عامتهم كابوس الجور، والظلم والجهل والفقر والمرض والاستغلال ،وغير ذلك من الافات التي كانوا يشتكون منها ،وقد خرجت المعارضة من طور الكلام والحوار إلى حيز العمل فوقعت عدة اصطدامات دموية في أنحاء مختلفة من الدولة العثمانية مثل مذابح الشام والحرب الاهلية بين الدروز والموارنة سنة ١٨٦٠م والتي أشرنا اليها من قبل . كما وقعت في العاصمة إستانبول محاولة إنقلابية قام بها بعض ضباط الجيش ورجال الدين ،وكان هدفها التخلص من عالي باشا وفؤاد باشا وقتل السلطان ،الا أن هذه المحاولة فشلت والقي القبض على قادتها .

وثمة عامل آخر لعب دوراً كبيراً في إعاقة نجاح حركة الاصلاحات ، وهو التدخل الاوربي المستمر في شؤون الدولة العثمانية وعدم إحترام الدول الاوربية للنص الذي التزمت به في معاهدة باريس الموقعة في ٣٠ آذار ١٨٥٦م،

في أعقاب حرب القرم مؤكداً عدم تدخل الدول الاوربية منفردة أو مجتمعة في الشؤون الداخلية للدولة العثمانية مهما كانت الاسباب، لقد راحت تلك الدول تتدخل في شوون الدولة العثمانية وقتما كانت مصالحها تتطلب ذلك ،وكان لهذا التدخل أثره السلبي في الاوضاع الداخلية للدولة العثمانية إلى الحد الذي جعل المؤرخين يسمون الفترة الواقعة بين ١٨٣٩و١٨٧٦م بأسم «فترة حكم السفراء » The Rule of Elchis ويقصدون سفراء الدول العظمى في استانبول وفي مقدمتهم السير سترانفورد كاننك Canning السفير البريطاني المعروف بالسلطان العثماني غير المتوج .لقد كان يتمتع بشخصية قوية، وقد أحرز مكانة مكانة ممتازة عند السلطان عبد المجيد ورشيد باشا واستمر ذلك بين سنتي (١٨٤٢ – ١٨٥٨) . وقد كان لوقوف بريطانيا وفرنسا مع الدولة العثمانية ضد روسيا في حرب القرم أثر كبير في قوة النفوذ الاجنبي، ومما ساعد على ذلك إن الدولة العثمانية ،إزاء ماتعرضت له من مشاكل ،أصبحت تعاني أزمة مالية خانقة الأمر الذي جعلها تطلب من بريطانيا وفرنسا إمدادها بالقروض المالية وهذا ماجعل السلاطين العثمانيين يسعون من أجل إرضاء حلفائهم ،ومن جهة أخرى ، فأن الدول الاوربية تقدمت الى الحكومة العثمانية سنة ١٨٦٧م، بمذكرة تطلب فيها تحقيق مزيد من الاصلاح وتعرض منهجاً لذلك .وفي السنة نفسها قام السلطان عبد العزيز (١٨٦١ – ١٨٧٦) بزيارة رسمية لكل من فرنسا وبريطانيا والنمسا وتعرف على بعض نواحي الحياة فيها. وبعد عودته أصدر تنظيماً جديداً للمجلس العالي للتنظيمات بحيث صار يتألف من هيئتين الاولى: – ديوان الاحكام العدلية،والثانية: – مجلس شورى الدولة، وقد تمثل الرعايا المسيحيون واليهود في هذا المجلس بثلاثة عشر عضواً من أصل عدد أعضائه الخمسين .

وفي العاشر من ايار سنة ١٨٦٨م افتتح السلطان عبد العزيز هذا المجلس الجديد بخطاب مفعم بالنيات الطيبة والوعود السخية لتحقيق مبادىء العدل والمساواة وسيادة القانون بين جميع الرعايا بدون تمييز ، وكان مدحت باشا

وهو مصلح عثماني ولد سنة ١٨٢٢م وعمل والياً على الدانوب وبغداد وله آراء اصلاحية معروفة ابرزها اقامة الحكم الدستوري رئيساً لهذا المجلس الذي مارس عمله بنشاط وافر عدداً من القوانين المهمة بين سنتي ١٨٦٨ و ١٨٧١م. ولعل من ابرز القوانين التي صدرت قانون المعارف الذي ينظم شؤون التعليم الرسمي التابع للدولة سنة ١٨٦٩م. وفي السنة نفسها صدرت سلسلة من القوانين الجنائية والمدنية يأتي في مقدمتها الجزء الاول من(المجلة) وهي القانون المدني العثماني المستمد من روح الشريعة الإسلامية والقوانين الغربية الحديثة معاً وقد قام بوضعها وتنظيمها جماعة من المشرعين على رأسهم جودت باشا ،كما صدر قانون الجنسية العثمانية .

لقد زاد في عهد السلطان عبد العزيز نشاط الشباب العثماني المثقف وسعيه في سبيل الاصلاح ، وكانت الصحافة من اهم الاساليب المنظمة الفعالة التي لجأ اليها الادباء والمصلحون لنقد الاوضاع القائمة وللمساهمة في توعية الشعب وتحسين الاحوال وقد لمع في تلك الفترة عدد من الصحفيين والادباء امثال ابراهيم شيناسي (١٨٢٦-١٨٧١م) وضياء باشا (١٨٢٥-١٨٨٠م) ونامق كمال (١٨٤٠-١٨٨٠م) وعلي السعاوي (١٨٣٨-١٨٧٨م) ولم يكد ينقضي على تأسيس الصحافة الحرة في الدولة العثمانية غير بضع سنوات حتى شعرت الحكومة بخطرها وانزعجت ،فأصدرت سنة ١٨٦٥م قانوناً للصحافة ينظم شؤونها من جهة ويمكن للسلطة من ملاحقتها ومعاقبتها وتعطيلها إذا جاوزت الحدود المرسومة لها ولم يكد يحل منتصف سنة ١٨٦٧م حتى كانت الصحف الحرة جمعاء قد توقفت عن الصدور وتشرد معظم الصحفيين الاحرار خارج البلاد .

ولم تكن الصحافة السلاح الوحيد الذي لجأ اليه العثمانيون المثقفون ، وانما لجأوا كذلك إلى التنظيم الحزبي السري ، ولعل من ابرز التنظيمات السرية « جمعية تركيا الفتاة » التي تأسست في العاشر من آب سنة ١٨٦٧م بجهود كل من ضياء باشا ونامق ونوري بك وعلي السعاوي ومصطفى

١٠/٨/١٨٦٧

فاضل وغيرهم . وقد اتخذت من باريس مقراً لها ، كما اصدرت صحفاً ناطقة بأسمها ، منها جريدة (المخبر) التي صدر عددها الاول في لندن بتاريخ ٢١ آب سنة ١٨٦٧م وكان هدف الجمعية تحقيق الاصلاح الداخلي في الدولة العثمانية على اساس دستوري .

لقد كان لوفاة كل من فؤاد باشا (١٨٦٩م) وعالي باشا (١٨٧١م) اثر بيّن في التغيير الذي حدث في استانبول ، ذلك ان حركة الاصلاح تلاشت وانتعشت روح الاستبداد والتسلط واستهان السلطان عبد العزيز بالوزراء وراح يصرّف الامور بنفسه فتوقفت بذلك كل محاولات الاصلاح وفي الوقت الذي كانت فيه الحالة الداخلية في الدولة العثمانية تزداد تأزماً كان بعض رجال الحكم وكبار الموظفين من اصحاب الميول الاصلاحية التحررية أمثال مدحت باشا وحسين عوني باشا وخليل شريف باشا وغيرهم يعدون العدة لضرب ضربتهم في الوقت المناسب . ولاحت الفرصة مؤاتية للاحرار العثمانيين ابان اشتداد الازمة السياسية في أيار ١٨٧٦م، فقد تظاهر بضعة آلاف من طلبة المدارس الدينية أمام دار الحكومة وقصر السلطان مطالبين بالحاح وقوة اقالة الصدر الاعظم محمود نديم باشا وشيخ الاسلام حسن فهمي ، وهما من المعروفين باستبدادهما واتجاههما الرجعي ، وقيل ان مدحت باشا ورفاقه مسؤولون عن تنظيم واعداد تلك التظاهرات ،وبسبب الظروف التي كانت سائدة في البلاد اضطر السلطان عبد العزيز الى الاستجابة الى مطلب المتظاهرين ، وضمت الحكومة الجديدة التي تشكلت رشدي باشا صدرا اعظم وحسين عوني ومدحت باشا .

وظهر منذ البدء ان التعاون بين الحكومة الجديدة والسلطان كان متعذراً فالوزراء لايثقون بالسلطان ولا يركنون اليه ، وهو لايثق بهم ولايأمن جانبهم . وقد قوى مخاوف السلطان الجو الذي ساد في العاصمة والمنشورات التي وزعت واصبحت مضامينها تتردد على السنة الناس ومنها ان الحكم الصالح هو الحكم الديمقراطي ،وان السلطة المطلقة التي يستأثر بها السلطان اغتصاب

لحقوق الشعب ومخالفة صريحة لاحكام الشرع وان الطاعة غير واجبة للحاكم اذا ما أهمل العناية والاهتمام بمصالح الدولة وغيرها .

ولقد جاء الانقلاب سريعاً ،اذ اخذت الحكومة فتوى من شيخ الاسلام حسن خير الله افندي بجواز عزل السلطان .وفي ليلة ٣٠أيار ١٨٧٦م أحاطت قوة من الجيش بقصره وابلغ الفتوى فرضخ لها دون مقاومة ووقع وثيقة تنازله عن العرش وبعد أيام وجد ميتاً ويقال انه انتحر ، ونودي بمراد الخامس سلطاناً جديداً الا ان فرصة الاحرار لم تدم طويلا فسرعان ماتبين لهم ان مراداً مصاب بانهيار عصبي وانه لايصلح للحكم ،فكان عليهم ان يفتشوا عن سلطان جديد وكان عبد الحميد أخو مراد هو أقرب المرشحين ،وبعد مفاوضات مفصلة وصريحة وسرية في قصر موصلي أوغلي بين الوزراء الاحرار وعبد الحميد وافق عبد الحميد على شروط الوزراء وابرزها أتباع سياسة اصلاحية متحررة واعلان الدستور . وقد اطلعه مدحت باشا على مسودة اعدها خليل شريف باشا منذ سنة ١٨٧٢م . وفي ٣١آب سنة ١٨٧٦م خلع مراد ونصب مكانه عبد الحميد سلطانا (١٨٧٦ — ١٩٠٩م) فأسرع لتعيين مدحت باشا رئيساً للوزراء ونتيجة لتأثير جماعة المصلحين نشر السلطان عبد الحميد بياناً اعلن فيه تأسيس مجلس للدولة مهمته تطبيق القوانين الجديدة ، ومراقبة واردات ومصروفات الدولة . ولم ينه تشكيل هذا المجلس كفاح المصلحين الاحرار اذ انهم اصروا على تشريع دستور للبلاد ، وعليه تشكلت هيئة مؤلفة من ثمانية وعشرين عضواً وظيفتها وضع دستور للبلاد العثمانية . وبعد مناقشات حادة اقرت الهيئة قانونا اساسياً يرتكز على الدستور البلجيكي . لقد تليت مقدمة الدستور ومواده وهي مئة وتسع عشرة مادة في حفل عام يوم ٢٣ كانون الاول سنة ١٨٧٦ م . وقد اعلن السلطان في المقدمة ان الدستور يستهدف «المساواة المدنية والسياسية لجميع العثمانيين ويحدد مسؤوليات وواجبات الوزراء والموظفين ، ويضمن استقلال المحاكم وينص على تثبيت ميزانية متقنة للدولة ؛ ويفرض تطبيق النظام اللامركزي في ادارة

(٢٣/١٢/١٨٧٦)

الولايات » ، اما خلاصة ما جاء في مواد الدستور فهي :

١ . ان الدولة العثمانية تشمل الممالك والخطط الحاضرة والولايات الممتازة وهي كجسم واحد لاتقبل الانقسام ابداً لاية علة كانت .

٢.ان السلطنة السنية هي بمنزلة الخلافة الاسلامية الكبرى وهي عائدة بمقتضى الاصول القديمة الى اكبر الاولاد في سلالة آل عثمان .

٣.ان حضرة السلطان مقدس وغير مسؤول .

٤.يطلق لقب عثماني على كل فرد من افراد التبعية العثمانية بغض النظر عن نوع دينه وقوميته .

٥.يتمتع جميع العثمانيين بالحرية الشخصية على الا يتجاوز اى فرد منهم حقوق غيره .

٦.ان دين الدولة العثمانية الرسمي هو الاسلام ، مع الاعتراف بحق كل فرد في ممارسة شعائر الدين الذي يعتقده .

٧.الاشتراط على العثمانيين الذين يرغبون الاشتغال في دواوين الحكومة معرفة اللغة التركية .

٨.ان التعليم وجميع المدارس تقع تحت نظارة الدولة وسيصير النظر بالوسائل التي من شأنها جعل تعليم التبعية العثمانية على نسق متحد وانتظام واحد لاتمس اصول التعاليم الدينية عند الملل المختلفة .

٩.ان العثمانيين جميعا متساوون امام القانون ، وتوزيع الضرائب بين جميع التبعة بحسب اقتدار كل منها وفقا لنظامها المخصوص .

١٠.تشكيل مجلس امة (برلمان) يتألف من هيئتين هما : مجلس المبعوثان (النواب) ومجلس الاعيان .وينتخب اعضاء مجلس المبعوثان من قبل الشعب لمدة اربع سنوات على ان يمثل العضو الواحد الف شخص ويعتبر نائباً عن جميع العثمانيين وليس عن المنطقة التي انتخبته فحسب اما اعضاء مجلس الاعيان فيعينون من قبل السلطان لمدى الحياة ولا يتجاوز عددهم ثلث اعضاء مجلس المبعوثان.

ان المساندين لحركة الاصلاح لم يؤلفوا الا أقلية من المثقفين وبعض موظفي الدولة وسكان المدن الكبيرة أما الاكثرية الساحقة من العثمانيين فكانت بعيدة عن تيار التجديد والاصلاح.وعلى أية حال لم تمض بضعة أشهر على اعلان الدستور حتى غير السلطان عبد الحميد رأيه في الحياة الدستورية . فقد عرف عنه أنه يميل الى الاستبداد ويكره الافكار التحررية والمبادىء الاصلاحية وما تظاهر بتأييدها والموافقة عليها الا لأنه رأى انها السبيل الوحيد الذي يمكنه من الوصول الى الحكم ، لذلك فقد حدث تصادم بين مدحت باشا ، الذي اراد تطبيق احكام الدستور ،والسلطان الذي شاء عدم التنازل عن السلطات المطلقة التي ورثها عن اسلافه .وفي الخامس من شباط سنة ١٨٧٧م،أقال السلطان عبد الحميد مدحت باشا من منصبه وامره بمغادرة البلاد الى أوربا حيث قضى فترة في المنفى استدعى بعدها الى استانبول ليحاكم بتهمة الاشتراك في قتل السلطان عبد العزيز.وبعد المحاكمة أرسل مدحت للسجن في الطائف بالحجاز حيث قضى بقية حياته حتى وفاته مسموماً سنة ١٨٨٣م وقيل ان ذلك تم بأمر من السلطان .

وللحد من النقمة التي كان عبد الحميد يخشى ان يثيرها عزل مدحت باشا ولخداع الشباب العثماني المتحرر وايهامه بانه بالرغم من قضية مدحت باشا مايزال متمسكاً بالمبادىء التحررية ومستعداً لتنفيذها كما وعد،أمر باجراء انتخاب اعضاء مجلس المبعوثان .وجرى الانتخاب في جو بعيد عن الحرية والنزاهة.وفي ١٩ آذار سنة ١٨٧٧م. إجتمع البرلمان بمجلسيه : الاعيان المؤلف من خمسة وعشرين عضواً عينهم السلطان والمبعوثان المؤلف من مئة وعشرين نائباً فنتخباً وألقى السلطان خطاباً بين فيه ضرورة بذل الجهود من أجل تقدم البلاد ورفاهها واشاد بقوانين التنظيمات .

وبالرغم من ضعف المجلس فأن بعض اعضائه برهنوا عن وعي كبير لمسؤولياتهم واظهروا شجاعة وصراحة في عرض مشاكل البلاد ومعالجتها

فكانوا يشيرون الى الفساد ويسمون المخالفين بأسمائهم مهما علت مراتبهم وقد ذهب فريق منهم الى حد الاصرار على استدعاء ثلاثة من الوزراء لاستجوابهم في بعض التهم المنسوبة اليهم الا ان عبد الحميد لم يتحمل ان يرى ممثلي الشعب يذهبون الى ابعد من ذلك . واخيرا فان اعلان روسيا الحرب على الدولة العثمانية في ٢٤ نيسان سنة ١٨٧٧ قدم للسلطان فرصة مناسبة لتحقيق مايبغيه حيث أعلن تأجيل اجتماع البرلمان لاجل غير مسمى ثم اصدر في ١٤ شباط ١٨٧٨ مرسوماً بحل البرلمان وتعليق الدستور مؤقتاً بسبب الظروف الاستثنائية التي تجتازها الدولة . ثم اتخذ من فكرة الجامعة الاسلامية ستاراً لسياسته الاستبدادية وكانت هذه الفكرة ذات وهج شديد ازاء التغلغل الاستعماري الاوربي في الولايات العثمانية كما سنرى .

كما قام بحملة ضد كل من احتج على عمله من النواب والمصلحين، وشتت الكثير منهم إلى خارج البلاد والتفت نحو الصحافة وفرض قيوداً شديدة عليها وصار يعطل الجرائد المعارضة واحدة تلو الأخرى ولم يبق سوى الجرائد الموالية له، وهكذا عاد السلطان عبد الحميد إلى حكمه الاستبدادي وظل يحكم مدة اثنتين وثلاثين سنة، حكماً استبدادياً اما المصلحون وجماعة تركيا الفتاة وغيرهم من الأحرار العثمانيين ، فقد بدأوا ينظمون صفوفهم، كما جعل بعضهم من باريس وجنيف والقاهرة مراكز لنشاطه الوطني ، وفي الوقت نفسه ظهرت في داخل الجيش العثماني ، وخاصة في القطعات المرابطة في مقدونيا ، حركة ثورية سرية ، وكان حصيلة العمل الوطني السري في داخل الدولة وخارجها قيام انقلاب ٢٣ تموز سنة١٩٠٨م الذي قادته جماعة حزب الاتحاد والترقي فاضطر السلطان عبد الحميد إلى اعادة العمل بدستور سنة ١٨٧٦م واجتمع البرلمان من جديد، وعلى اثر الثورة المضادة وتسمى في التاريخ العثماني (الفتنة الارتجاعية) التي حدثت في ١٣ نيسان سنة ١٩٠٩ بتشجيع من السلطان نفسه ، اجتمع البرلمان في ٢٧ نيسان من السنة نفسها واعلن خلع السلطان عبد الحميد بموجب فتوى من

شيخ الاسلام محمد ضياء الدين أفندي وتنصيب اخيه محمد رشاد بأسم السلطان محمد الخامس (١٩٠٩ – ١٩١٨) .

ثانياً : تأثير حركة الاصلاح في الاقطار العربية :

كانت مصر كما اشرنا سابقاً تتمتع باستقلال ذاتي فعلي منذ خضوعها لمحمد علي باشا وقد جعلت اصلاحات هذا الوالي، وقد ذكرناها. مصر اول دولة حديثة في المشرق العربي ويشير احد المؤرخين الالمان وهو انكلهاردت Engelhardt إلى ان اصدار العثمانيين لمراسيم الاصلاح لم يكن الا لتأكيد مسألة مهمة امام الدول الاوربية وهي ان الدولة العثمانية لا تقل عن مصر في ميدان الاصلاح والتقدم. ويعلق المؤرخ المصري عبد العزيز نوار على ذلك بقوله : ان هذا قد يكون سبباً في اسراع العثمانيين في عجلة التغيير واعادة تقوية الدولة والاقتداء بمصر وقطع الطريق امام اية محاولة انفصالية تقوم في ولايات الدولة الاخرى. الا ان الرغبة في الاصلاح كانت موجودة في العاصمة العثمانية من قبل ، وان الفرق بين الدولة العثمانية ومصر، فيما يتعلق بالاصلاحات، هو ان مصر كانت اكثر سرعة واقتداراً على تنفيذ الاصلاحات السياسية والاقتصادية والعسكرية.

ويرى المؤرخ اللبناني المغترب البرت حوراني ان السبب في ذلك يرجع إلى ان مصر كانت اصغر حجماً واكثر تماسكاً من الناحية الاجتماعية . اما المؤرخ المصري الدكتور محمد فؤاد شكري فيعتقد : ان الدولة العثمانية قصدت من وراء قيامها بالاصلاحات الغاء الامتيازات التي منحت لمصر سنة ١٨٤١م والعودة بها إلى وضع الولاية التابعة للدولة العثمانية الا ان ولاة مصر واولهم محمد علي باشا استطاعوا اجتياز الازمة بسلام واحتفظوا بالوضع المستقل لمصر بمقتضى تسوية ١٨٤٠ – ١٨٤١م الدولية. فحين ابلغ الباب العالي محمد علي في ٦ كانون الأول ١٨٣٩م بوجوب تطبيق التنظيمات العثمانية في ولايته صار محمد علي ينتحل مختلف المعاذير لعدم تطبيقها في باشويته. ومنذ ايار سنة ١٨٤١م اعترف الباب العالي بأن من حق محمد علي مراعاة

ظروف البلاد المحلية وحالة السكان عند تطبيق التنظيمات العثمانية ، فكان ذلك تسليماً في واقع الامر من جانب الباب العالي بعدم تطبيق التنظيمات العثمانية في مصر . ومهما يكن من امر ، فإن حركة الاصلاح في مصر لم تكن بوحي من الدولة العثمانية .

اما الجزيرة العربية فأنها كانت في ظروف خاصة بسبب النزاع الداخلي بين الامراء المحليين. فحائل بيد آل الرشيد ونجد بيد آل سعود الذين تحالفوا، مع آل عبد الوهاب واقاموا الدولة السعودية الاولى واستولوا على الحرمين الشريفين، وقد قام آل سعود بطرد الموظفين والجنود العثمانيين ومنع الدعاء للسلطان العثماني على المنابر لانه من البدع ، وحرمانه من لقب «خادم الحرمين الشريفين» .

لذلك بدأت الدولة العثمانية تلح الحاحاً شديداً على ولاتها في الشام والعراق وتستحثهم للتحرك ضد آل سعود، وبعد ان تولى السلطان محمود الثاني الحكم آلى على نفسه تخليص الحرمين الشريفين من ايدي ابن سعود، وكان السلطان يستعظم جيوش آل سعود ويحسب حسابها ولا يتصور ان محمد علي باشا يمكنه القيام بالعبء وحده. والحقيقة كما يرى الدكتور أحمد فؤاد متولي، ان كلا من والي الشام ووالي العراق تلكأ في القيام بالمهمة بحجة عدم قدرته على ذلك منفرداً، وكان كل منهما يتملص من المسؤولية ويزعم ان مصر وحدها هي القادرة على القضاء على آل سعود. خاصة وان جيشها سيعبر البحر في امان اما قوات الشام والعراق، فإنها ستجتاز صحراء واسعة مليئة بالمخاطر .

لذلك فقد ارسل السلطان محمود الثاني إلى محمد علي يحثه على اعداد جيشه وغزو الحجاز ويذكر له «انه حرم النوم والراحة على نفسه منذ ان تولى العرش، بسبب وجود الحرمين الشريفين في قبضة ابن سعود» . وكما اشرنا من قبل فإن محمد علي بعث بقواته إلى الحجاز بقيادة ابنه ابراهيم باشا

الذي تمكن من تدمير الدرعية عاصمة الدولة السعودية الاولى سنة ١٨١٨م.
ويرى الدكتور متولي : «كان الواجب يقتضي من السلطان العثماني ... ان يقف على حقيقة الدعوة السلفية الاصلاحية (الوهابية) بدلا من ان يحرض محمد علي لمحاربتها والقضاء عليها. فالسلطان اولى باتباع تعاليم هذه الدعوة فقد انتشر الفساد في داخل الامبراطورية العثمانية وخارجها وراجت فيها الرشوة وكثر الانحراف وعمت الفوضى، وعاث الانكشارية فيها فساداً ونهباً، واهتزت الثقة في أمور الادارة، واستولى علماء الدين على عقول الحكام والسلاطين واصبحت الدولة تسترضيهم في شتى المناسبات، وقد لعبوا دوراً مهماً في عزل الولاة وتنصيبهم» . ومعنى هذا ان الحركة الوهابية حركة اصلاحية لا تقل اهمية عن الحركات الاصلاحية التي قامت في الدولة العثمانية كما سنرى، وكان ينبغي على العثمانيين ان يبقوا على هذه الحركة او يتخذوا منها موقفاً ودياً .

اما الحجاز فقد ظل بيد الاشراف الذين كانوا يعدون نجد مشمولة بنفوذهم خاضعة لهم ، وكانوا يواصلون ارسال الحملات عليها لتأديبها وجباية الزكاة من اهلها. وقد تابع الاشراف سيرة الدعوة السلفية باهتمام وما كانوا يتوقعون لها نجاحا ،على ان نظرتهم اليها سرعان ما تبدلت بعد ان انتشرت وانشأت دولة جديدة وقد عد الاشراف الدعوة السلفية خروجاً على الدين الاسلامي وتعاليمه لذلك دخلوا معها في صراع ورأى الشريف غالب الا يكتفي بمنع النجديين من دخول الحجاز واداء فريضة الحج وانما اعد جيشاً من البدو والانصار زحف به من مكة نحو الدرعية وذلك سنة ١٧٩٠م فكان ذلك فاتحة الصراع بين آل سعود والاشراف .

وفي ١٨٠٣ هزم الشريف غالب امام الامير عبد العزيز بن سعود الذي دخل منتصراً فأدى فريضة الحج ولما آنس الشريف في نفسه الضعف ارسل وهو في جدة طالباً الصلح فأجابه الامير الى طلبه واعاده الى منصبه وترك

حامية قوية بمكة ثم قفل راجعاً الى الدرعية ولكن الشريف غالب سرعان ما بدأ يتصل بالعثمانيين ويرجوهم ان يطلبوا الامدادات العسكرية العاجلة من مصر للوقوف امام قوة آل سعود المتنامية ، مما سهل على المصريين ،كما سبق ان قدمنا مهمة القضاء على الدولة السعودية الاولى .

لقد ظل العثمانيون يتمتعون بنفوذ اسمي في الحجاز بيد انهم حتى في هذا الجزء من الجزيرة العربية لم يستطيعوا القيام بأصلاحات واسعة بسبب ضعف نفوذهم من جهة ولتعارض هذه الاصلاحات مع مصالح الاشراف الخاصة من جهة اخرى ،لهذا ليس غريباً ان لانرى مدارس حديثة في الجزيرة فالتعليم ظل في رعاية رجال الدين ، يضاف الى هذا ان النظام العثماني في الادارة والجمارك ، وكان قد طبق في الحجاز ،ظل بعيداً عن التطبيق في انحاء الجزيرة العربية .اما فيما يتعلق بالطباعة والصحافة ، فقد اسس والي الحجاز نوري باشا سنة ١٨٨٣ اول مطبعة بأسم مطبعة الولاية ، وكان من أولى ثمرات هذه المطبعة صدور الكتاب السنوي لولاية الحجاز «حجاز ولايتي سالنامة سي »كما تولت المطبعة كذلك سنة ١٨٨٤طبع الجريدة الرسمية «حجاز» وهي اول جريدة صدرت هناك .

اما اليمن ، فقد حاولت الدولة العثمانية اعادت حكمها المباشر عليه وتحقق ذلك سنة ١٨٧٢ . ومنذ ذلك الوقت قرر العثمانيون برنامجاً للعمل يقوم على تضييق الخناق على الائمة الزيديين الذين رفضوا ،منذ خضوع اليمن للحكم العثماني الاعتراف بالسيادة العثمانية الا أذا اعترف العثمانيون بزعامتهم الدينية. فحاول العثمانيون حصر نفوذ الائمة الزيديين في مناطق ضيقة ومحاربة دعاتهم، وجعلهم في عزلة تحول دون اتصالهم المباشر برؤساء القبائل وبالاهالي .كما اوقفوا دفع عوائد الزكاة للائمة وقصر دخلهم على راتب شهري بلغ ثلاثة آلاف ريال شهرياً تدفع للامام المتوكل الحسن بن أحمد (١٨٥٥ – ١٨٧٨م) ولاسرته .

وطبق العثمانيون قانون الولايات في اليمن وقسموه الى اربعة الوية هي: صنعاء والحديدة وعسير وتعز. واتخذ الوالي من صنعاء عاصمة للولاية. ولم يكن النفوذ العثماني نافذاً في المناطق النائية من اليمن، حتى ان كثيراً من الموظفين المكلفين بمهام ادارية أو مالية تعرضوا لصعاب جمة ولاخطار كادت تؤدي بهم. وبالنسبة للتشكيلات العسكرية فقد اصبح اليمن مقراً للجيش، الهمايوني السابع. وقد عرفت اليمن كذلك جنود الضبطية أو الجاندرمة من اليمنيين أنفسهم. إذا حاول الوالي العثماني اساعيل حقي باشا الذي تولى حكم حكم اليمن في سنة ١٨٧٨ ادخال اليمنيين في تشكيلات الجندرمة لمساعدة السلطة العثمانية في حفظ الامن وتبليغ الاوامر الى ابناء الشعب ونقل الرسائل والبرقيات الحكومية وحماية محصلي الضرائب ومرافقة المبعوثين، والمسافرين الذين تتعهد الادارة العثمانية بتأمينهم. وقد قام الجندرمة اليمانيون بدور مهم في أخماد حركات التمرد، مما ساعد الادارة العثمانية على أقرار الامور في الولاية.

أما في تونس فيمكن الاشارة الى محاولتين اساسيتين للاصلاح الداخلي وقد تمت اولى هاتين المحاولتين في عهد الباي أحمد (١٨٣٧ – ١٨٥٥م) وثانيتهما على يد خير الدين باشا التونسي الذي تولى رئاسة الوزارة بين سنتي (١٨٧٣ – ١٨٧٧) ولقد جاءت اصلاحاتهما مكملة لأصلاحات الباي حمودة باشا الحسيني الذي اشرنا اليها سابقاً.

ولقد كان الباي أحمد معجباً ومتأثراً بتجربة محمد علي باشا في مصر. لذلك بدأ عهده بأصلاح الجيش وبنائه على نمط جيش نابليون الذي كان يكن له الاحترام الشديد وقد أمر بترجمة التأريخ الفرنسي الى اللغة العربية. ولعل خطواته الاولى في اصلاح الجيش كانت تأسيس مدرسة الهندسة سنة ١٨٣٨م التي سعى من ورائها الى تدريب ضباط جيشه تدريباً حديثاً. وكان معظم اساتذتها من الفرنسيين، ثم حاول تصنيع البلاد لامداد الجيش بالاسلحة،

والمغدات اللازمة له. وكان يدرك ان البلاد التي لاتستطيع الاعتماد على نفسها في امداد الجيش بما يلزمه من المعدات والذخيرة ستضطر الى استجداء الدول الكبرى التي لاتعطي الا أقل مما تأخذ.وقد نجحت سياسة الباي في هذا المجال الى حد بعيد. وعرفت تونس في أيامه مصانع متنوعة للاسلحة والذخيرة والجلود والنسيج وغيرها وتطور الجيش وتأسست البحرية التونسية وانشىء المرفأ البحري اللازم لها.وقد رافق كل هذا المزيد من الاستقلالية التي ظهرت في علاقات الباي مع الدولة العثمانية وقناصل الدول الاوربية على حد سواء.

الا ان الباي أحمد أهمل الادارة ولم يعن بتحديث الاقتصاد كما فعل محمد على في مصر. فكانت نتيجة ذلك أن استطاع رئيس وزرائه مصطفى الخزنة دار الذي اشتهر بطمعه وجشعه ان يجني ثورة طائلة اثقلت كاهل الدولة الصغيرة فاضطر الى الاستدانة من المرابين الاوربيين وورط البلاد بديون كبيرة وفوائد فاحشة كانت تستنزف اقتصادها .

وقد اتخذت هذه الديون ذريعة للتدخل في اقتصاد تونس عن طريق تشكيل لجنة الديون الاجنبية سنة ١٨٦٩ .وقد التفت حول الخزنه دار عصبة من المستفيدين واستطاع ان يستمر في الوزارة حتى أقصى عن الحكم وصودرت أمواله في سنة ١٨٧٣ لتبنى بها المدرسة الصادقية المشهورة .

تولى خير الدين التونسي رئاسة الوزارة سنة ١٨٧٣م وخلال السنوات الاربع التي بقي فيها في الحكم اتيحت له الفرصة لتنفيذ برنامج الاصلاحات الواردة في كتابه المشهور «أقدم المسالك في معرفة الممالك» الذي نشر لاول مرة سنة ١٨٦٧م وتطرق فيه الى التنظيمات العثمانية وهاجم الرأي الذي يدعى انها مخالفة لشريعة الاسلام وقال انها «ليست خارجة عن النهج الشرعي وما هي الا ضبط للسياسات الشرعية التي كانت قد أهملت وان الداعي اليها ليس الا تحسين ادارة المملكة وحفظ حقوق الامة في النفس والعرض والمال وكف الايدي الجائرة» عنها .وخير الدين في موقفه الصريح من اصحاب المصالح الذين يعارضون الاصلاحات وموقفه من الدول الاوربية التي تتدخل في شؤون

الدولة العثمانية أسهم وبفعالية في الجدل الذي كان قائماً حول شرعية التنظيمات العثمانية أو عدم شرعيتها. والنقطة المهمة التي يعتمدها خير الدين هي ان الظروف تتغير ويتغير معها ماهو مفيد وضروري للمجتمع. أما ابرز انجازاته فهي : —

١. شق الطرق وتعبيدها وتوسيع رقعة المواصلات .

٢. تأسيس مكتبة حديثة على نمط المكتبات الاوربية .

٣. تحديث نظم التعليم في جامعة الزيتونة .

٤. العمل على حل مشكلة توطين العشائر واستقرارها وايقاف الحملات العسكرية السنوية لجمع الضرائب منها واشعارها بحماية الدولة وتقديم الخدمات اللازمة لها وتخفيض الضرائب المفروضة عليها .

٥. الغاء الضرائب على الاراضي الزراعية التي تباشر زراعة الزيتون والنخيل ولمدة عشرين سنة تشجيعاً لزراعة هاتين المادتين الاساسيتين للاقتصاد التونسي

٦. تأسيس نظام جديد لادارة الاوقاف واعادة تنظيم الضرائب على الاستيراد والتصدير .

٧. انشاء المدرسة الصادقية على نمط مدارس الليسية الفرنسية .

ان اوضح أثر لحركة الاصلاح العثماني كان في العراق وسوريا. ففي العراق قام الوالي داود باشا آخر المماليك (١٨١٦ — ١٨٣١م) باتخاذ اجراءات مماثلة لما حدث في استانبول في مجال الغاء الفيالق الانكشارية وذلك بأن جمعهم وقرأ عليهم الارادة السلطانية القاضية بألغاء الجيش الانكشاري فقابلها الجميع بالقبول والطاعة. ثم قرر السلطان محمود الثاني انهاء حكم المماليك في العراق واعادة الحكم المباشر. وعلى أثر ذلك عين في ولايات العراق عددا من الولاة حاول بعضهم أمثال رشيد باشا كوزلكي ونامق باشا القيام باصلاحات تستهدف تحسين اقتصاد البلاد .

وقد انشأ رشيد باشا شركة ملاحة واستورد باخرتين باسم بغداد

والبصرة من انتورب ببلجيكا . وتوسعت تلك الشركة في عهد نامق باشا واطلق عليها الأدارة العثمانية النهرية . وبنى لها معملا لتصليح البواخر حتى انها صارت تنافس شركة لينج الأنكليزية التي تأسست سنة ١٨٤٠م .

ولم تظهر آثار حركة الأصلاح العثماني في العراق بشكل واضح الا في عهد الوالي مدحت باشا الذي تولى حكم العراق بين سنتي ١٨٦٩و١٨٧٢م كان مدحت كما سبق ان قدمنا ، من اوائل المصلحين المتنورين الذين كافحوا في انشاء حكم دستوري يحل محل الحكم الأستبدادي القائم آنذاك في الدولة العثمانية . وقبل تعيينه في بغداد كان والياً على ولاية الدانوب في الفترة بين سنتي ١٨٦٠و١٨٧٩م. وقد وصل بغداد والياً عليها في ٣٠ نيسان سنة ١٨٦٩م. وجاء في الفرمان المتعلق بتعيينه بأن « بغداد هي من أهم ولايات امبراطوريتنا وان تربتها وموقعها يجعلانها تستحق كل أنواع التقدم وعليه فأن اعز رغبة لنا هي ان نرى الولاية تحظى بجميع الوسائل المؤدية إلى التطور » . وقد اعترف الفرمان انه بدون وجود حاكم فأن التقدم المنشود لايمكن تحقيقه وان مدحت هو الشخص الذي سيحقق اهداف السلطان . لذلك منح مدحت كلتا السلطتين المدنية والعسكرية في ولاية بغداد . كما زود بصلاحيات واسعة لتنفيذ اصلاحاته في الولايتين الآخريتين الموصل والبصرة . وقد تجلت اجراءاته في ادخال الأصلاحات الأدارية والأقتصادية وخاصة تطبيق قانوني الأراضي والولايات وكانت الغاية الرئيسة من وراء تلك الاصلاحات العمل على ربط الولايات العراقية الثلاث بعضها مع البعض الآخر ، وتقوية السلطة المركزية عليها .

ويعد نظام الطابو ابرز اعمال مدحت الأقتصاية . وكان الهدف الرئيس من هذا النظام محاولة أيجاد حل لمشكلة العشائر ، ووضع حد لثوراتها المستمرة وتحويل افرادها إلى مواطنين مستقرين وذلك بتوفير سبل العيش وتحسين وسائل الري . وقد أثمرت سياسته في أماكن متعددة ، لكنها أدت الى أن يتحول شيوخ العشائر إلى ملاكين للاراضي . ولم تعد العلاقات

داخل العشيرة تعتمد على المساواة بين افرادها ، بل اصبح مقدار مايملك الشخص المعيار الأساس للتمييز بينهم . واخذت الحكومة تستعين ببعض رؤساء العشائر لتحسين الضرائب ، وبذلك حققت الحكومة الهدف الرئيس الذي توخته من اجراءات توطين العشائر ، هو ان الحكومة تستطيع جباية الضرائب . وتفرض الجندية على القبائل المستمرة بشكل اسهل لفرضها عليها في حالة انتقالها .

وفي الميدان العسكري ، صار العراق منذ التشكيلات العسكرية لسنة ١٨٤٨م، مركزاً للجيش الهمايوني السادس كما أشرنا من قبل ، وعلى الرغم من أن هذا الجيش لم يكن يخلو من المتطوعين المحليين ، فأن اكثرية افراده كانت من غير العراقيين . كما كان جميع ضباطه من الاجانب .

وعليه فقد استهدف مدحت باشا في اصلاحه العسكري تبديل العناصر الأجنبية بأفراد عراقيين كي يحس السكان بشعور الولاء نحو الجيش وكي يكون بالمستطاع تلافي النقص في عدد الجنود الذين كانوا « لايمكثون الا فترات قصيرة في العراق يسرعون بعدها بالعودة إلى أوطانهم » ولهذا السبب باشر مدحت باشا بتطبيق نظام التجنيد الأجباري وقد حالفه النجاح في عدد من المدن العراقية لكنه باء بالفشل في منطقة الفرات الأوسط اذ رفض افراد العشائر بشدة كل محاولة ترمي إلى جعلهم جنوداً في جيش الحكومة . وقد نشبت ثورة عرفت بأسم ثورة الدغارة استمرت مدة شهرين ووجهت ضد مشروع التجنيد ونظام الضرائب ووقعت في اثنائها اصدامات عدة بين العشائر وجيش الحكومة وذهب نتيجتها الاف القتلى من الطرفين ولكنها انتهت بتفوق الجيش وبأعدام عدد من شيوخ العشائر الثائرة . وقد قام مدحت باشا بأجراء عسكري آخر ضد تمرد وغارات عشيرة شمر الجربا ، وهذه القبيلة كانت مسيطرة على منطقة الحدود بين سوريا والعراق وكذلك على الطريق الممتدة من تكريت إلى الموصل . ولم يكن باستطاعة قافلة ان تمر بأراضي شمر دون دفع ضريبة معينة إلى شيوخها تسمى (الخوة) . وقد نشب

قتال بين شمر وجيش الحكومة انتهى بالقبض على الشيخ عبدالكريم شيخ شمر ومحاكمته واعدامه في الموصل . وقد حل مكانه في مشيخة القبيلة اخوه فرحان الذي تصالح مع الحكومة وصار يتسلم منها راتباً شهرياً اما عشيرة المنتفك فقد استطاع مدحت حل مشكلتها دون اللجوء إلى عمليات حربية . اذ شجع شيوخها من آل السعدون على تفويض اراضي عشيرتهم والتزام ضرائب الميري فارتبط آل السعدون منذ ذلك الحين بالحكومة وصاروا اداة لتنفيذ سياسة الحكومة في المنتفك ومهما يكن من أمر ، ففي خلال ثلاث سنوات تضاعف عدد افراد الجيش وصار مؤلفاً من(١٦) كتيبة مشاة وكتيبتين من الخيالة وكتيبة من المدفعية ، وحتى يجهز هذا الجيش بالضباط العراقيين ، أسس مدحت مدرستين عسكريتين في بغداد ، كانتا طليعة معاهد الدراسة الحديثة في البلاد .

وفي ميدان المواصلات ، اعاد مدحت تشكيل الشركة الحكومية المسماة (الأدارة العثمانية النهرية) واصلح بواخرها القديمة ، ثم شرع بشراء بواخر جديدة ، ذات حمولات كبيرة كما أنه أسس لهذا الغرض محطات للوقود في مسقط وعدن وبندر عباس وبوشهر وبعد هذا صارت البواخر العثمانية تتحرك بين آونة واخرى بين البصرة واستانبول عبر قناة السويس التي افتتحت سنة ١٨٦٩م ، وفي خلال ولاية مدحت صار عدد البواخر التابعة للادارة العثمانية ثماني ، اربع منها تبحر بين البصرة واستانبول والأربع الأخرى تستخدم للملاحة النهرية في دجلة والفرات وشط العرب .

أما المشروع الثاني الذي انشأه مدحت في حقل المواصلات فهو ترامواي بغداد الكاظمية ،وقد شجع بهذا الخصوص الموسرين من أهالي بغداد للتعاون مع الحكومة وتأسيس شركة مساهمة، وفي غضون سنة انتهى العمل في سكة الترام ووصلت العربات اللازمة من انكلترا ثم افتتح المشروع سنة ١٨٧١م. وكانت الكلفة النهائية للترامواي (٢٤) الف ليرة تركية دفع منها ١٨ الف

ليرة من رأس مال الشركة المساهمة . المال المتبقي فقد تم دفعه من أرباح الشركة التي بلغت حوالي ٢٠ بالمئة في السنة .

وفي عهد مدحت باشا دخل التعليم الرسمي الحديث الى العراق ، وانشأت أولى المدارس الحديثة، وفي مقدمتها المدرسة الرشدية الملكية (المدنية) ومدة الدراسة فيها أربع سنوات بعد الابتدائية بالاضافة الى ذلك انشأ مدرسة الصناعة ومدة الدراسة فيها أربع سنوات بعد الابتدائية يتلقى الطلبة في اثنائها دوروساً تثقيفية عامة ويتخصصون في احدى المهن كالتجارة والخياطة والحدادة والطباعة.ويتلقى الطلبة في المدارس الحديثة مواضيع عديدة ابرزها اللغة التركية واللغة الفرنسية . والتاريخ . والجغرافية ، والجبر والفيزياء ، والدين والرسم. ان اهتمام مدحت باشا بنشر التعليم في العراق انعكس من خلال تزايد النسبة المئوية للمتعلمين ففي سنة ١٨٥٠م لم تكن نسبتهم تزيد عن نصف في المائة من سكان المدن، في حين اصبحت نسبتهم سنة ١٩٠٠م تتراوح بين الخمسة، والعشرة بالمائة .

لقد كان مدحت باشا في طليعة الولاة العثمانيين الذين اهتموا بأمور الطباعة ، والصحافة فقد اسس مطبعة حكومية بأسم مطبعة الولاية واصدر جريدة رسمية باسم الزوراء في ١٥ حزيران سنة ١٨٦٩م وهي أول جريدة ظهرت في العراق تبعتها بعد ذلك جريدة الموصل ١٨٨٥م والبصرة ١٨٩٥م. وكانت الزوراء تصدر مرتين في الاسبوع باللغتين العربية والتركية،وقد استمر صدورها حتى الاحتلال البريطاني لبغداد سنة ١٩١٧م.أما محتوياتها فقد كانت تتضمن البيانات الحكومية والاخبار المحلية والانباء العالمية ونصوص القوانين العثمانية وكذلك المقالات السياسية والادبية وحقلاً لرسائل القراء وانتقاداتهم.وفي عهد مدحت باشا كذلك ،تم بناء مدينتي الناصرية والرمادي ومن اعماله بناء المستشفيات ودور حديثة للحكومة ومزرعة نموذجية وارسل المهندسين

لتنظيم الري ، كما سعى لتأسيس المحاكم والبلديات ونظم قوة جديدة لحماية الامن الداخلي (الضبطية) واهتم بردم الكثير من المستنقعات وتحويلها الى اراض صالحة للزراعة ، وشجع على زراعة محاصيل جديدة وابدى التسهيلات اللازمة لزراعتها ، واظهر اهتماماً بأصلاح نظم الضرائب الزراعية واسس مصنعاً للحدادة ومعملاً لتقشير الرز ببغداد وكان من بين المنشآت الصناعية الاخرى التي اسسها مصفاة للنفط في بعقوبة . ومعملاً لاصلاح السفن في البصرة واقام متنزهاً عاما في بغداد ، وشجع العراقيين على ارتياده للراحة ، وحاول الوصول الى حل لمشكلة الحدود العراقية الايرانية مستفيداً من فرصة زيارة الشاه ناصر الدين القاجاري لبغداد التي استغرقت ثلاثة اشهر ، الا انه لم يصل الى نتائج مجدية بسبب تعنت الايرانيين واطماعهم في العراق. ولعل من المناسب الاشارة الى ان مدحت راقب بحذر! هذه الزيارة المريبة بوساطة عدد كبير من رجال الامن للحيلولة دون قيام الشاه ببعض الاتصالات مع الجالية الايرانية في العراق بقصد التخريب .

ان مدحت باشا بذل جهوداً كبيرة لتحديث العراق ، وقد نجحت جهوده في تحقيق تقدم شمل جميع ميادين الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية مما دفع الكثير من المؤرخين الى وصفه بابي الاصلاح ، لكن ذلك لم يحل من جهة اخرى دون اخفاق قسم من اصلاحاته او عدم توفر الفرصة أو الاموال الكافية لانجازها . ومن ذلك اخفاق بعض مشاريع الري واصلاح الانهار ، وعلاوة على ذلك فقد حفلت سجلات الطابو والتي سجلت فيها الاراضي المفوضة للملاكين الجدد باخطاء وغموض كبيرين ومما يجدر ذكره ان مدحت باشا استقال من منصبه ، احتجاجاً على قرارات لجنة الاصلاحات التي شكلها الصدر الاعظم محمود نديم باشا ، ومنها قرار بخصم مبلغ كبير من مصروفات ولاية بغداد وتحويله الى العاصمة وقد قبلت استقالته وانتهت ولايته لبغداد بعد ان دامت ثلاث سنوات .

اما في سوريا فقد كان لصدور قانون الولايات لسنة ١٨٦٤ اثر كبير في اعادة تنظيم ادارتها، اذ ضمت بيروت الى ولاية دمشق التي عرفت انذاك باسم (ولاية سوريا) ولكن في سنة ١٨٨٨ أعادت الدولة تشكيل ولاية مستقلة مركزها بيروت واصبح لكل ولاية مجلس ادارة، وحددت صلاحية المحاكم الشرعية، ومنعت من سماع القضايا الجنائية والحقوق واقتصرت على النظر في امور الاوقاف والزكاة والزواج والطلاق والنفقة وشكلت محاكم جديدة مستقلة للنظر في الامور التي ليست من اختصاص المحاكم الشرعية كما شكلت محكمة تجارية في حلب واخرى في بيروت، اضافة الى محاكم بداءة في الولايات واحتفظ القاضي الشرعي بمركزه السابق واصبحت سوريا مركزاً لقيادة الجيش الهمايوني الثامن وقائده الاعلى برتبة مشير. وبعد ١٩٠٨ جعلت مركزاً لقيادة الجيش الرابع وتميزت دمشق وحلب بمن نشأ من شبانها في المدارس العسكرية التي تأسست هناك.

وفي سنة ١٨٨٩ منح امتياز بأنشاء ميناء بيروت كما منحت الامتيازات لشركات اجنبية ببناء طرق ومد جسور حيث لم يكن في سوريا كلها قبل سنة ١٨٧٦ أي طريق معبد او سكة حديد باستثناء طريق العربات بين دمشق وبيروت.

وفي سنة ١٨٨٢ مد اول خط حديد في سوريا بين يافا والقدس وفي العقد الاول من القرن العشرين بدأ العمل بطريق سكة حديد الحجاز بين دمشق والمدينة المنورة، كما وصلت خطوط التلغراف الى حلب سنة ١٨٦٢ والى دمشق سنة ١٨٩٤ وبدأت سوريا تتمتع بخدمات بريدية منذ سنة ١٨٨٥ حين أنشات دائرة بريد حلب.

وتوالى خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر تأسيس البلديات في المدن السورية. وصدر سنة ١٨٧٥م قانون انتخاب المجالس البلدية وتلاه بعد سنتين قانون البلديات.

وعندما عين مدحت باشا والياً على سوريا في ٢٤ تشرين الثاني سنة ١٨٧٨ م وبقي في منصبه حتى ٣١ آب ١٨٨٠ م سعى لتنظيم الادارة والضرائب وعمل على تشجيع الحركة التعليمية. واليه يعود الفضل في انتشار التعليم الوطني. اذ لاحظ انه لم يكن للحكومة سوى بضعة مدارس ابتدائية تسمى (مكاتب الصبيان) يقرأ فيها الأطفال القرآن الكريم. بينما انتشرت مدارس الأرساليات التبشيرية الكاثوليكية والبروتستانتية وتقدمت كثيراً في مضمار التعليم الحديث .لذلك فكر مدحت باشا في اصلاح المدارس وقدمها على كل اصلاح. وشكل لذلك جمعية من العلماء اخذت على عاتقها جمع الاعانات من الاهالي .

وقد قام الشيخ طاهر الجزائري ، بدور بارز في هذا المجال وسرعان ما انتشرت فروع هذه الجمعية التي عرفت بأسم (جمعية المقاصد الخيرية) في جميع انحاء الولاية وقد استطاعت هذه الجمعية ان تنشئ (٨) مدارس بلغ عدد تلاميذها نحو (١٢٠٠) تلميذ . كما أنشأت مدرسة للبنات استوعبت حوالي (٥٠) تلميذة. لقد نالت سوريا نصيباً حسناً من الأصلاحات التعليمية العثمانية ولم تأت سنة ١٨٨٣ حتى كان فيهاأكثر من (٦٠٠) مدرسة ابتدائية في المدن وقرابة (٨٠٠)مدرسة في الريف يتلقى العلم فيها أكثر من ستين الف طالب يعلمهم (٢٣٣٤) معلماً ومعلمة فضلاً عن مدرسة للطب تأسست سنة ١٩٠٢م.

ولقد كان من اهتمام مدحت بالعلم ومكتباته اقدام الشيخ طاهر الجزائري على جمع الكتب الموقوفة على المساجد في قبة الملك الظاهـــر بدمشق فتألفت بذلك نواة المكتبة الظاهرية التي تضم اليوم بضعة آلاف من المخطوطات العربيـــة النفيسة وتتبع المجمع العلمـــي العربي بدمشق (مجمع اللغة العربية آلان) وفي اواخـــر سنــــة ١٨٨٢م صـــدرت ارادة سلطانيـــة بتعييـــن الشيخ الجزائري مفتشاً لدار الكتب. وقد تألفـــت من الشيـــخ وصفـــوة المتعلمين الذين كانوا يتحلقون حوله، اكبـــر ندوة ادبيـــة وثقافية كانت تدعو الـــى تعليم

العلوم الحديثة ودراسة تاريخ العرب ، وقد برز من أعضاء تلك الندوة ، فيما بعد عدد من رواد النهضة العربية منهم عبد الحميد الزهراوي ،ورفيق العظم ، ومحمد كرد علي وفارس الخوري وسليم الجزائري .

تأسست في الشام أول مطبعة رسمية في بيت الدين عاصمة متصرفية جبل لبنان . وقد أصدرت المطبعة جريدة لبنان الرسمية ، وكان أول كتاب نشرته المطبعة هو كتاب كليلة ودمنة وذلك سنة ١٨٦٨م . وفي دمشق اسست أول مطبعة سنة ١٨٦٤ صدرت عنها جريدة (سوريا) باللغتين العربية والتركية وهي أول جريدة رسمية تصدر في سوريا . وقد أسس والي حلب جودت باشا مطبعة حكومية اصدرت جريدة (الفرات) الأسبوعية سنة ١٨٦٧م باللغات العربية والتركية والارمنية . وقد توالى بعد ذلك صدور الصحف في سوريا وكثر عددها ، كما صدرت مجلات عديدة ساهمت في نشر الثقافة العامـة .

اما في عهد ناظم باشا ١٩١٠ – ١٩١٢م فقد جرت سلسلة من الاصلاحات في سوريا، منها جلب مياه عين الفيجه إلى دمشق، وتزويد المدينة بالكهرباء وبخطوط ترامواى وبناء الاحياء الحديثة وتبليط الشوارع. ويعد السوريون ناظم باشا خير من تولى ادارة ولاية سوريا، فكان بالاضافة إلى عدله وحزمه ونزاهته مثالاً حياً لانجاح العديد من المشاريع العمرانية

لقد عرفت سوريا منذ منتصف القرن التاسع عشر حركة مسرحية نشيطة. فظهرت فرق مسرحية لبنانية وسورية حظيت بدعم مدحت باشا ومن ابرزها فرقةاحمد ابو خليل القباني(١٨١٠–١٩٠٢)م.التي قدمت مسرحيات عديدة بدمشق منها مسرحية (ناكر الجميل) وقد ساعد على نجاح القباني حرصه على مشاهدة الفرق المسرحية التي كانت تفد إلى دمشق انذاك وما كان يطالعه باللغات الاوربية في دراسات حول فن المسرح حتى اكتملت لديه معلومات كافية للقيام بنفسه باعداد الديكور والاضاءة والمكياج ، فضلاً عن التأليف والاخراج وتلحين الاوبريتات والاغاني الجماعية .

وظل القباني وحده حتى سنة ١٨٧٨م حين انضم اليه اسكندر فرج فقدما معاً مسرحية (الشاه محمود) وقد ضمت فرقة القباني عناصر نسائية كذلك. الا ان السلطان عبد الحميد الثاني اصدر اوامره باغلاق مسرح القباني على اثر وشاية به تقول انه يهدم الاخلاق ويفسد الشباب «ويوقظ اعين اللذات في افئدة من حضر من الفتيان على مرأى من الناظرين وسمع المشاهدين». وعلى اثر ذلك اشتد خصوم القباني، ومنهم الشيخ سعيد الغبراء في ايذائه، فاضطر إلى ترك المسرح والهجرة إلى مصر سنة ١٨٨٤م حيث أكمل هناك رسالته .

لقد امتاز مسرح القباني باستلهام موضوعاته من التاريخ العربي الاسلامي وحكايات ألف ليلة وليلة والبطولات الشعبية العربية . ومن سمات مسرحه ادخال الرقص الايقاعي في بعض مشاهد المسرحية واهتمامه بالديكور والبساطة ومن اهم المسرحيات التي قدمها مسرحيات عنترة العبسي ، وهارون الرشيد ومجنون ليلى . ويبرز فضل مسرحه في عدة حقائق منها ان كبار الفنانين المسرحيين العرب اقتفوا اثره وتأثروا به امثال كامل الخلعي وعبده الحمولي وسلامة حجازي، وخاصة في مجال فن الاوبريت ، وترسموا خطاه واضافوا إلى عمله الكثير من القيمة التاريخية .

وبدأت في سوريا حركة علمية نشيطة، رافقت المدارس والمطابع. فقد جرت محاولات لترجمة الكتب الاجنبية الى اللغة العربية. وشارك في عملية الترجمة الشيخ يوسف الاسير (١٨١٤ - ١٨٨٩م)، وناصيف اليازجي (١٨٠٠ - ١٨٧١)م. وقد حظي التراث العربي بنصيب وافر من هذه النهضة. فظهر الاهتمام باللغة والادب، ونشرت دواوين المتنبي وابي فراس الحمداني وابي تمام وابن الفارض والمعري. كما نشرت حكايات الف ليلة وليلة وكتاب فقه اللغة للثعالبي ومقامات الحريري ورسائل ابي العلاء. وكان امراً طبيعياً ان يهتم الكاتب العربي في هذه المرحلة بالتاريخ. فبرز عدد من المؤرخين

الذين نشروا كتباً قيمة، لعل من اشهرهم طنوس الشدياق ونوفل عبد الله نوفل وميخائيل مشاقة وجرجي زيدان وسليم شحادة.

وخلال فترة الاصلاحات، ازدهرت النشاطات التبشيرية الاجنبية في مجال التعليم. فقد فتح المبشرون الامريكان البروتستانت مدارس مختلفة في بيروت والقدس، وحلب وزحلة ودمشق، وانشأوا الكلية السورية البروتستانتية التي اصبحت فيما بعد نواة الجامعة الامريكية في بيروت سنة ١٨٦٦م وضمت في سنتها الاولى كلية العلوم ثم افتتحت كلية الطبُ بعدها بسنة وكانت اللغة العربية لغة التدريس وسرعان ماتكاملت الجامعة حين انشأت سنة ١٨٧١ م كلية الصيدلة ، ومنذ سنة ١٨٨٢ م جعلت الانكليزية لغة التدريس فيها، وتبع انشاء كلية الطب، انشاء كلية للتجارة سنة ١٩٠٠م وكلية لطب الاسنان واخرى للزراعة سنة ١٩١٠م . وازاء هذا النشاط العلمي لمؤسسات التبشير الامريكية اتجهت البعثات الكاثوليكية ومنها اليسوعية الى انشاء جامعة مماثلة في بيروت بأسم (جامعة القديس يوسف) سنة ١٨٧٤ م، اضافوا اليها سنة ١٨٨٢م، كلية طب على نفقة الحكومة الفرنسية وغيروا لغة التدريس فيها من العربية الى الفرنسية ثم توالت البعثات التبشيرية لتؤسس المزيد من المدارس وسرعان ماحدث تسابق تبشيري واضح في سوريا ولبنان .

لقد اسهم نشاط الارساليات التبشيرية، كما سنرى في قيام حركة فكرية في بلاد الشام، ويمكن تقدير اهمية وجود هذه الارساليات اذا علمنا انها عملت على ادخال اللغة العربية و العلوم الحديثة ضمن مناهجها الدراسية المقررة. لهذا ازداد الاقبال عليها ولاسيما من قبل العوائل الثرية وكان من اسباب هذا الاقبال ان المدارس الرسمية كانت تدرس بالتركية .

هذا وبالرغم من بعض الجوانب السلبية لارساليات التبشير من حيث الارتباطات الاوربية السياسية، الا انها كانت اداة مهمة من حيث خدمتها للتراث العربي وخاصة اللغوي منه وهو الوسيلة الاساس في التعبير الفكري القومي.

مصادر الفصل الرابع

حركة الاصلاح العثماني وتأثيرها في الوطن العربي

(١) اباظة، فاروق عثمان: الحكم العثماني في اليمن ١٨٧٢– ١٩١٨ (القاهرة، ١٩٧٥م).

(٢) احمد، ابراهيم خليل: تطور التعلم الوطني في العراق ١٨٦٩–١٩٣٢ (البصرة، ١٩٨٢م)

(٣) احمد، ابراهيم خليل: اوضاع التعليم في العراق بين سنتي ١٨٦٩–١٩١٤، مستلة من مجلة التربية والعلم — الموصل — العدد ٣ شباط ١٩٨١م.

(٤) احمد، ابراهيم خليل: ولاية الموصل، دراسة في تطوراتها السياسية ١٩٠٨– ١٩٢٢ رسالة ماجستير غير منشورة قدمت لجامعة بغداد، ١٩٧٥م.

(٥) الامام، رشاد: سياسة حمودة باشا الحسيني في تونس ١٨٧٢–١٨١٤، المجلة التاريخية المغربية، تونس العدد ٦ تموز ١٩٧٦م.

(٦) امين، احمد: زعماء الاصلاح في العصر الحديث (القاهرة ١٩٦٥).

(٧) انطونيوس، جورج: يقظة العرب، تاريخ حركة العرب القومية ترجمة ناصر الدين الاسد، واحسان عباس، ط٣، (بيروت ١٩٦٣).

(٨) انيس، محمد: الدولة العثمانية والشرق العربي ١٥١٤–١٩١٤ م القاهرة (لا. ث).

(٩) البحراوي، محمد: عبد اللطيف: حركة الاصلاح العثماني في عصر السلطان محمود الثاني ١٨٠٨– ١٨٣٩ (القاهرة ١٩٧٨م).

(١٠) برو، توفيق: العرب والترك في العهد الدستوري العثماني، (القاهرة ١٩٦٠م).

(١١) بروكلمان ،كارل :تاريخ الشعوب الاسلامية ، ترجمه نبية امين فارس ومنير البعلبكي ، ط ٥(بيروت ١٩٦٨م) .
(١٢) البستاني ،بطرس :دائرة المعارف ،٨ مجلدات ،(بيروت ١٨٨٤م)
(١٣) البستاني ،سليمان :عبرة وذكرى الدولة العثمانية قبل الدستور وبعده تحقيق ودراسة خالدة زيادة ،(بيروت ،١٩٧٨م).
(١٤) بيهم ، محمد جميل :فلسفة التاريخ العثماني ،(بيروت ١٩٢٥م).
(١٥) التكريتي ،منير بكر :الصحافة العراقية واتجاهاتها السياسية والاجتماعية والثقافية ١٨٦٩ ــ ١٩٢١ (بغداد ١٩٦٩م) .
(١٦) التونسي ، خير الدين :مقدمة كتاب اقوم المسالك في معرفة احوال الممالك تحقيق ودراسة معن زيادة ، (بيروت ١٩٧٨م).
(١٧) جب وبوبون ،هاملتون وهارولد : المجتمع الاسلامي والغرب ، ترجمة احمد عبد الرحيم مصطفى ،جـ١ ــ ٢ القاهرة ١٩٧١م .
(١٨) جحا ،شفيق :التنظيمات او حركة الاصلاح في الدولة العثمانية ١٨٣٩ ــ ١٨٧٦ ،مجلة الابحاث ،بيروت ، السنة ١٨، الجزء ٢١ حزيران ١٩٦٥م .
(١٩) الجواهري ،عماد احمد : تاريخ مشكلة الاراضي في العراق ١٩١٤ ــ ١٩٣٢ (بغداد ١٩٧٨م).
(٢٠) حتي ،فيليب :تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ،جـ٢ترجمة كمال اليازجي (بيروت ١٩٥٩م) .
(٢١) حسن ،جاسم محمد :العراق في العهد الحميدي ١٨٧٦ ــ ١٩٠٩ ، رسالة ماجستير غير منشورة ، قدمت لجامعة بغداد ١٩٧٥م.
(٢٢) الحصري ، ساطع : البلاد العربية والدولة العثمانية ط٣ ، (بيروت ١٩٦٥م).

(٢٣) الحكيم ،يوسف :بيروت ولبنان في عهد آل عثمان ج٢ ،ط١ (بيروت ١٩٨٠م).
(٢٤) الحلاق ، احمد البديري : حوادث دمشق اليومية ، تحقيق أحمد عزت عبد الكريم (القاهرة ١٩٥٩م) .
(٢٥) حوراني ، البرت : الاسس العثمانية الشرق الاوسط الحديث، مجلة تاريخ العرب والعالم، بيروت السنة ٢ العدد ١٥ كانون الثاني/ ١٩٨٠م.
(٢٦) الدملوجي ، صديق : مدحت باشا ، (بغداد ، ١٩٥٣م).
(٢٧) رامزور ، ارنست : تركيا الفتاة وثورة ١٩٠٨، ترجمة صالح أحمد العلي، (بيروت ١٩٦٠م).
(٢٨) زيادة، خالد : اكتشاف التقدم الاوربي ، دراسة في المؤثرات الاوربية على العثمانيين في القرن الثامن عشر. (بيروت ١٩٨١م).
(٢٩) زيدان، جرجي : تراجم مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر ج١، ج٢ (بيروت لا ت).
(٣٠) زيدان ، جرجي : تاريخ آداب اللغة العربية ج٤ ، (القاهرة لات).
(٣١) ستودارد ، لوثروب : حاضر العالم الاسلامي، ترجمة عجاج نويهض ، (القاهرة ١٣٤٣هـ).
(٣٢) سراج الدين ، أحمد : الحركة التربوية وتطورها في سوريا ولبنان خلال القرن التاسع عشر، مجلة الابحاث، بيروت ، السنة ٤ الجزء ٣٠ أيلول ١٩٥١م.
(٣٣) سركيس ، يعقوب : مباحث عراقية ج٢ (بغداد ١٩٥٥م ح١)
(٣٤) سرهنك ، اسماعيل : حقائق الاخبار عن دول البحار ، ح١(القاهرة ١٣١٤هـ).
(٣٥) الشامخ ، عبد الرحمن : الصحافة في الحجاز ١٩٠٨-١٩٤١م. دراسة ونصوص (بيروت ١٩٧١م).

(٣٦) شرف، محمد بديع وآخرون: دراسات تاريخية في النهضة العربية الحديثة (القاهرة لا ت).
(٣٧) شكري، محمد فؤاد: مصر والسودان ١٨٢٠ – ١٨٩٩ (القاهرة ١٩٥٨م).
(٣٨) الشناوي، عبد العزيز محمد: الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها جـ١، جـ٢ (القاهرة ١٩٨٠م).
(٣٩) صفوت، محمد مصطفى: محاضرات في المسألة الشرقية ومؤتمر باريس (القاهرة ١٩٥٨م).
(٤٠) عبد الكريم، احمد عزت: التقسيم الاداري لسوريا في العهد العثماني، حوليات كلية الآداب بجامعة دمشق مجلد/ مايو/ ايار ١٩٥١.
(٤١) العزاوي، عباس: العراق بين احتلالين جـ٧ (بغداد ١٩٥٥م).
(٤٢) العطار، نادر: تاريخ سوريا في العصور الحديثة جـ١ (دمشق ١٩٦٢م).
(٤٣) عطية، غسان: التنظيم الحزبي في العراق قبل الحرب العالمية الأولى، مجلة دراسات عربية / السنة ٢ العدد ١٢/ تشرين الأول ١٩٧٢م.
(٤٤) عوض، عبد العزيز محمد: الادارة العثمانية في ولاية سوريا ١٨٦٤م، ١٩١٦م (القاهرة ١٩٦٩م).
(٤٥) عوض، لويس: تاريخ الفكر المصري الحديث جـ٢ (القاهرة ١٩٦٩م).
(٤٦) غرايبة، عبد الكريم: سوريا في القرن التاسع عشر، ١٨٤٠، ١٨٧٦م (القاهرة ١٩٦٢م).
(٤٧) غرايبة، عبد الكريم: العرب والاتراك (دمشق ١٩٦٩م).
(٤٨) غرايبة، عبد الكريم: مقدمة تاريخ العرب الحديث جـ١ (دمشق ١٩٦٠م).
(٤٩) فريد، محمد: تاريخ الدولة العلية العثمانية، طبعة بالاوفسيت (بيروت ١٩٧٧م).

(٥٠)الفياض، عبد الله: الثورة العراقية الكبرى (بغداد ١٩٦٣م) .
(٥١) قلعجي، قدري: مدحت باشا أبو الدستور العثماني وخالع السلاطين ط٣ (بيروت ١٩٥٨م) .
(٥٢) القيسي، عبد لوهاب: حركة الاصلاح في الدولة العثمانية وتأثيرها في العراق ١٨٣٩-١٨٧٧ مستلة من مجلة كلية الاداب، جامعة بغداد العدد ٣ كانون ١٩٦١م.
(٥٣) كرامز «تنظيمات» : دائرة المعارف الاسلامية، الطبعة العربية المجلد (١٠) ص ٧٨، ١٢٠٠ م.
(٥٤) كوثراني، وجيه: الاتجاهات الاجتماعية - السياسة في جبل لبنان والمشرق العربي (١٨٦٠- ١٩٢٠م) (بيروت ١٩٧٦م) .
(٥٥) لبيب، حسين: تاريخ الاتراك العثمانيين جـ١ جـ٢ (القاهرة ١٩٥٠م) .
(٥٦) لوتسكي، فلاديمير بور ميوفيتش: تاريخ الاقطار العربية الحديث ترجمة عفيفة البستاني (موسكو ١٩٧١م) .
(٥٧) لونكريك، ستيفن همسلي: اربعة قرون من تاريخ العراق الحديث ترجمة جعفر خياط ، ط٥ (بغداد، لا. ت) .
(٥٨) مؤنس، حسين: الشرق الاسلامي في العصر الحديث، (القاهرة ١٩٣٨)م.
(٥٩) مجموعة التنظيمات العثمانية المنشورة باسم (الدستور) ترجمه عن التركية نوفل نعمة الله نوفل، مجلد ١،٢ (بيروت١٣٠١ هـ ١٨٨٤م) .
(٦٠) مدحت باشا: مذكرات مدحت باشا، نشرها ابنه علي مدحت باشا تعريب يوسف كمال (القاهرة ١٩١٣م) .
(٦١) مصطفى ، احمد عبد الرحيم : حركة التجديد الاسلامي في العالم العربي الحديث (القاهرة ١٩٧١م) .

Ma'os, Mosha: Ottoman Reform in Syria and Palestin 1840-- ٧٥
1861, impact of the Tenyzinat on politics and society, (oxford 1968)

Miller, willam: The Ottoman Empire 1801-1913 (London ٧٦
1913)

Monro, Elizabith: Britain's Moment in the middle East 1914 ٧٧
-1956 (London 1963)

Polk, willam, R: and Richare L. chambers: Beginning of ٧٨
Modernizetion in the Middle Eest, the Nineteeth East; the Nineteeth Centnry; (Chigago 1968).

Qaysi, Abdal wahhab Abbas :The Impact of Mobernizction ٧٩
on Iraqi society during the ottoman Era. A. study of intellectual Development in Iraq, 1869-1917. Adisse-rtation submitted for the degree of Doctor philosop-hy in the university of michigan 1958, unpublished.

Shaw, stanford. and Ezel kural shaw: History of the otto- ٨٠
man Empire and Modeorn Turkey Vol. II, (Cambridge1977)

(٦٢) مصطفى ، سيد : نقد حالة الفن العسكري والهندسة والعلوم في القسطنطينية ١٨٠٣م تحقيق خالد زيادة (بيروت ١٩٧٩م) .

(٦٣) نورس ، علاء موسى كاظم : الاصلاح الاداري العثماني بين النظرية والواقع « مجلة دراسات في التاريخ والآثار » ، بغداد ، السنة (١) العدد (١٢) ، (١٩٨٢م) .

(٦٤) هرشلاغ ، زفي يهودا : مدخل الى التاريخ الاقتصادي الحديث للشرق الأوسط ترجمة مصطفى الحسيني ، (بيروت ١٩٧٧٣م) .

Bullard, Reader: Britain and the Middle East (London 1951) ٦٥

Davison, Roderic: Reform in the Ottoman Empire 1856-1876 (London, 1963) ٦٦

Edib, Halide: Conflict of East and west in Tureky (Lahore, 1933) ٦٧

Engelhardt, La Turquie et le Tanzimat. 2vols, (Paris 1882) ٦٨

Eversley, Lord : The Turkish Empire. Its Growth and Decay (London, 1959) ٦٩

Foster, Henry, A. : The making of Modern Iraq, (Oklahoma, 1933) ٧٠

Hurewits, J. C: Diplomaey in the Near and Middle East. 2.vols, (New. York. 1963) ٧١

Lybyer, A. H. : The Government of the Ottoman Empire, (New York 1966) ٧٢

Lewis, Bernard: The Emergence of Modern Turkey (London 1962) ٧٣

Lughad, Ibrahim Abu: The Islamic Infinence on khayr AL-Din of Tunis, in Donald, D. Little, (ed) Essays on Islamic Civilizaton; (Leiden 1976) ٧٤

Ma'os, Mosha: Ottoman Reform in Syria and Palestin 1840-- ٧٥
1861, Impact of the Tenyzinat on politics and society,
(oxford 1968)

Miller, willam: The Ottoman Empire 1801-1913 (London ٧٦
1913)

Monro, Elizabith: Britain's Moment in the middle East 1914 ٧٧
-1956 (London 1963)

Polk, willam, R: and Richare L. chambers: Beginning of ٧٨
Modernizstion in the Middle Esst, the Nineteeth East; the
Nineteeth Centnry; (Chigago 1998).

Qaysi, Abdal wahhab Abbas :The impact of Mobernizction ٧٩
on Iraqi society during the ottoman Era. A. study of
intellectual Development in Iraq, 1869-1917. Adisse-
rtation submitted for the degree of Doctor philosop-
hy in the university of michigan, 1958, unpublished.

Shaw, stanford. and Ezel kural shaw: History of the otto- ٨٠
man Empire and Modeorn Turkey Vol. II, (Cambridge1977)

الفصل الخامس

حركات التجديد في الوطن العربي

شهد الوطن العربي منذ النصف الثاني من القرن الثامن عشر حركات تجديدية ذوات طابع ديني عدها المؤرخون ردود فعل على سيطرة العثمانيين واحتجاجاً على عجزهم وفسادهم واستغلالهم ولعل السؤال الكبير الذي تولت تلك الحركات الاجابة عليه والذي كان يلوح في الافق العربي هو: لماذا تخلفنا وتقدم غيرنا ؟ ولقد تجاوزت تلك الحركات السياسية اسلوب الدعوة المحض الى الاصلاح لتتبنى شكل الثورة المسلحة ضد النظم الحاكمة المتهرئة المنحلة، وضد التغلغل الاستعماري الاوربي في الولايات العربية. أما ابرز تلك الحركات فهي: الوهابية، والسنوسية، والمهدية.

١- الحركة الوهابية

أ- اوضاع نجد السياسية والاقتصادية والاجتماعية

أشرنا فيما سبق الى ان نجد لم تشهد نفوذاً مباشراً للعثمانيين عليها قبل ظهور الدعوة الاصلاحية التي صارت تعرف باسم الدعوة الوهابية وذلك بسبب الصراعات بين القوى المحلية المتمثلة بأشراف مكة وزعماء قبيلة بني خالد وغيرهما كما لم تشهد نفوذاً قويا يفرض وجوده على سير الاحداث داخلها لأية جهة كانت الا ان الصراع بين القبائل والقوى النجدية المختلفة استمر جاداً وعنيفاً. الامر الذي ادى الى ظهور بعض الاسر الحاكمة النجدية فيها امثال آل معمر في العينة وآل سعود في الدرعية. ومن المعروف

ان الأولى ظلت اقوى اسرة في نجد قبل تحالف الشيخ محمد بن عبد الوهاب مع الامير محمد بن سعود ، وان الثانية اصبحت بفضل هذا التحالف اكبر قوة محلية في نجد وفتحت لها المجال لانشاء اقوى دولة في جزيرة العرب فيما بعد كما نرى الامراء يصلون الى الحكم بطرق مختلفة ، منها ماكان سلمياً ، ومنها ماكان عن طريق القوة او الاغتيال ، وكثيراً ما كانت الامارة وراثية الا اذا حدث خلاف داخل الاسرة نفسها وكان الصراع الاسرى حول السلطة ، كما سبق ان قدمنا ، امراً مألوفاً ، يحل في كثير من الاحيان بقوة السلاح .

وكانت الغالبية العظمى من سكان نجد تنتمي الى قبائل عربية معروفة النسب . ومن هنا فثبوت الانتماء العربي الاصيل كان مهماً جداً لتحديد مكانة الفرد او الاسرة في المجتمع . وانقسم المجتمع النجدي الى قسمين رئيسين : حضر وبدو ، وتعد الزراعة من ابرز مقومات الحياة الاقتصادية لدى حاضرة نجد . اما المقوم الثاني فكان التجارة . وكان النجديون يستوردون بعض الاطعمة والملابس والسلاح . ويصدرون بعض الحيوانات كالابل والخيل ، وكما كانت للزراعة مشكلاتها الخاصة فقد كانت هناك مشاكل خاصة بالتجارة ابرزها الناحية الامنية ، اذ كثيراً ماتعرضت القوافل التجارية للنهب . وتعد الثروة الحيوانية من اهم مرتكزات حياة البدو الذين تتأثر حياتهم بعاملين مهمين : اولهما نزول المطر وثانيهما الغزو. ويستفيد كل من حاضرة نجد وباديتها من قوافل الحج . كما كان هناك تبادل تجاري تدفع القوافل معه (الخوة) لروءساء العشائر .

لقد اعطت بعض المصادر المؤيدة لدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب صورة قاتمة عن حالة نجد الدينية خلال القرن الثامن عشر فبعضها يقول ان اهل نجد كانوا يأتون كل باب من ابواب الشرك ، وبعضها الاخر يقول: ان الشرك قد نشأ في المنطقة . وكثيراً مانعتت تلك الفترة بالجاهلية . وللتدليل على هذا الحكم ، اوردت تلك المصادر تفصيلات عما كان يمارس في

مناطق معينة من نجد من اعمال تدل على جهل كبير بالعقيدة الاسلامية الصحيحة . والى شيء من هذا القبيل يشير المؤرخ المصري احمد امين فيقول واصفاً المنطقة التي ظهر فيها محمد بن عبد الوهاب ، بان حالتها كانت تشبه ماكانت عليه ابان الجاهلية حيث اشرك المسلمون مع الله حتى النبات والجماد . ويرد احد المؤرخين السعوديين وهو الدكتور عبد الله الصالح العثيمين على ذلك فيقول : ان ماذكر كان واقعاً بالنسبة لطائفة معينة من النجديين، من المرجح انها كانت قليلة العدد ولكن هناك مشكلة لاتقل عن ذلك خطورة لم تتناولها المصادر ، وهي ان الكثيرين من سكان بوادي نجد كانوا جاهلين بالاسلام جهلاً تاماً ، وكانوا لايمارسون اركانه من صلاة وصوم وزكاة ، بل ان فريقا منهم كانوا لايؤمن بالبعث، ومع ذلك فهم يزاولون انواعاً من اعمال الصوفية وعقائدهم المذمومة . ويتضح من هذا ان الحالة الدينية في نجد لم تكن انذاك بالصورة القاتمة التي أشير اليها .
وانها كانت غير متفقة مع مبالغة من قال عن اهل المنطقة بانهم قد خلعوا ربقة الاسلام والدين . فتلك المصادر تبرز نجداً موطناً لعلماء، بعضهم كان يتحلى بالورع والتقى كما ان القصائد التي قيلت في تلك الفترة لاتحتوي على مايخالف العقيدة الاسلامية الصحيحة ، او يتنافى مع احكام الاسلام العامة . ولكن من ناحية اخرى،فان تلك الحالة الدينية لم تكن مشرقة ، فهناك جهلة يمارسون اعمالاً شركية ، وكان هناك من لايقوم بواجبات الاسلام نتيجة الجهل خاصة في البادية، لكن كان هناك علماء ، وكان هناك ملتزمون باحكام الشرع والدين .

ومهما يكن فقد كانت نجد بحاجة الى دعوة دينية اصلاحية توضح للجهال من الناس ماكان خافياً عليهم ، وتقضي على الوسائل التي تؤدي الى مايخل بعقائدهم ، وتلزم في الوقت نفسه من كانوا لايؤدون شعائر الاسلام بادائها . وكانت كذلك مكانا مناسباً لنجاح الدعوة الاصلاحية، وكانت في حاجة الى حركة سياسية تجمع شتات اماراتها واسرها الصغيرة

المتحاربة احيانا وقبائلها المختلفة المتصارعة حول موارد المياه ومواطن الكلأ وتكون منها دولة واحدة قوية يسودها الاستقرار والامن . ومن حسن الحظ كما يشير الدكتور العثيمين ، انها كانت كذلك بعيدة عن متناول السلطة المركزية العثمانية ومن هنا فقد لبى الناس دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب الاصلاحية لانها منسجمة مع المذهب الحنبلي السائد فيها ، وهو ، اكثر المذاهب محافظة على صحة العقيدة وصفاء الدين واشدها محاربة للبدع . فمن هو محمد بن عبد الوهاب وما افكاره الاساسية ومانتائج دعوته؟

ب. حياة محمد بن عبد الوهاب وتكوينه الفكري :

ينتسب الشيخ محمد بن عبد الوهاب الى اسرة تدعى آل مشرف ، وهي فرع من آل وهبة من بني حنظلة احدى بطون تميم . وكان ابوه عبد الوهاب بن سليمان الوهيبي قاضياً في قرية (العيينة) النجدية التي ولد فيها ولده محمد سنة ١٧٠٣م وتلقى دروسه الاولى بها على الحنابلة من رجال الدين . ومنذ صغره بدت عليه النجابة وعلو الهمة والكرم وشب على ذلك وكانت اسرته في وضع اقتصادي يسمح له بالتفرغ للدراسة . والسفر لطلب العلم ، ولقد ادى فريضة الحج في مقتبل حياته وطلب العلم في المدينة المنورة حيث بقي فيها مدة شهرين . وبعد رجوعه الى العيينة ، عاد الى المثابرة على التعلم ، وفي الوقت الذي واصل فيه دراسته للفقه الحنبلي واخذ يقرأ كتب التفسير والحديث والتوحيد . وعندما شعر بان المناخ التعليمي في بلدته كان قاصراً عن اشباع طموحه المتحفز الى المعرفة قام برحلاته العلمية الواسعة الى المدن العربية الكبرى ومنها البصرة وبغداد والموصل ودمشق . وقد استغرقت هذه الرحلات سنوات عديدة ، اطلع فيها على الاوضاع الدينية والاجتماعية والسياسية التي كانت سائدة انذاك . كما احتك بعدد كبير من العلماء والفقهاء والنحويين . وقد ساهمت تلك الرحلات في تكوينة الفكري من ناحيتين اولاهما تتعلق باطلاعه على اوضاع الوطن العربي والعالم الاسلامي انذاك . وثانيهما تتعلق بطبيعة المصادر التي استندت اليها دعوته فيما بعد .

لقد رأى محمد بن عبد الوهاب اثناء إقامته في الحجاز وخلال رحلاته ان الاسلام قد اكتنفه الضلال ، فتسربت اليه ، على مر القرون ، مبتدعات ليس لها سند في القرآن ولا في السنة، فشاعت البدع وانتشرت الخرافات حتى صار الامر في رأيه لايفترق عن الوثنية وعبادة الاصنام وابتعد الناس عن التوحيد الذي هو مزية الاسلام العظمى وصاروا يقيمون الاضرحة التي لاعداد لها ويشدون اليها الرحال ويتمسحون بها ، ويتذللون لها ،ويطلبون منها جلب الخير لهم ودفع الشر عنهم . هذا بالاضافة الى اقفال باب الاجتهاد ، واسفر ذلك عن ضياع الشخصية ، وشيوع الجمود والتقليد .

وفي الوقت نفسه وجد محمد بن عبد الوهاب في المناطق التي زارها مناخاً تعليمياً مختلفاً عما الفه في مسقط رأسه العيينة . فبينما كان الاهتمام في بلده منصباً تقريباً على الفقه الحنبلي ، كان في المدينة شاملاً لكثير من العلوم ، حيث كانت المدينة المنورة ملتقى العلماء وطلاب العلم من مختلف الاقطار الاسلامية . وقد اتصل محمد بن عبد الوهاب في المدينة بالشيخ محمد حياة السندي المحارب للبدع والتعصب والداعي الى الاجتهاد. اما في البصرة فقد اطلع عن كثب على اصول المذهب الجعفري ودخل في مناقشات وجدال مع بعض اربابه هناك . وفي الموصل اتيح له ان يلتقي بالشيخ احمد الجليلي المتوفي سنة ١٧٥٦م، وهو من العلماء الذين دعوا الى نبذ تقديس الاولياء وعاصر ازمة نبؤة جرجيس وهو من ذوي المقامات المقصودة في الموصل . فقد انقسم العلماء الموصليون الى فريقين، فريق سلفي ثائر يدعو الى مقاومة نفوذ المشايخ والحيلولة دون تقديس الأولياء وفريق يعارض ذلك. وكان من ابرز رجال الدعوة الجديدة في الموصل الملا احمد بن الكولة وهو فقيه زاهد ومتصوف جهر دعوته حين بحث في نبؤة جرجيس والمح الى انكارها فاثار بذلك موجه من الاحتجاج ضده وقد وصلت الازمة ذروتها حين تألب عليه المشايخ واصحاب الطرق الصوفية. ولاريب ان يكون لهذا الظرف اثره الكبير الفعال في نفس محمد بن عبد الوهاب.

ولقد ساعدته زيارته لدمشق التي كانت في يوم من الايام مكاناً لنشاط الامام تقي الدين بن تيمية (١٢٦٣ — ١٣١٧م) على التعمق في قراءة مؤلفات هذا الامام الجليل. ويذهب كثير من المؤرخين الى اعتبار دعوة ابن عبد الوهاب استئنافاً لاحتجاجات الحنبلية التي عبر عنها ابن تيمية وتحقيقاً عملياً لانتقادات المعارضة للبدع المستحدثة في الحياة الدينية والاجتماعية اليومية. فهي بالتالي في الوقت نفسه دعوة الى الرجوع الى (الشهادة) كما فهمها السلف الاسلامي. لقد دعا ابن تيمية في مؤلفاته واشهرها: «السياسة الشرعية في اصلاح الراعي والرعية» الى تنقية الاسلام في كل ما اصابه من بدع، والرجوع به الى نقاوته وحقيقته الصافية. رأى تخليص المجتمع من الفوضى الدينية والسياسية والاجتماعية التي اصابته لايكون الا بالرجوع الى الشريعة. ويربط ابن تيمية الاصلاح السياسي بالاصلاح الديني في قوله «ان فساد الراعي الذي ادى الى فساد الرعية مبعثه ابتعاد السياسة عن الركون الى تعاليم الشريعة الخلقية». ومن مبادىء ابن تيمية التي كان لها اثر كبير في تكوين ابن عبد الوهاب الفكري الدعوة الى فتح باب الاجتهاد ومحاربة التقليد. ولكن دعوة ابن تيمية التي اتسمت بطابع ديني بحت ابعدها عن النجاح في زمانه. قدرلها ان تتجدد مرة اخرى بعد مرور اربعة قرون من خلال دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب الى تخليص (التوحيد) من الشوائب التي علقت به والتي بدت في مظاهر متعددة اهمها:

١. دعاء غير الله او دعاء احد مع الله: كدعوة الاولياء.

٢. والاستغاثة بغير الله من الغائبين والمائتين، وبصورة خاصة عند قبورهم.

٣. التوسل بالنبي لمعنى غير التوسل بالطاعة او بالدعاء او بالشفاعة.

٤. الاستعاذة بغير الله واسمائه وصفاته، ومنه خرافات التعاويذ وما شاكل.

٥. الحلف بغير الله.

٦. زيارة القبور، اذا لم يكن المقصود منها الذكرى والاعتبار، واذا كانت مصحوبة ببدع او اذا كانت لطلب الحوائج او الشفاعة من اصحابها

عاد الشيخ محمد بن عبد الوهاب الى العيينة ورحب به اميرها عثمان بن معمر واكرمه، وشرح الشيخ للامير تفاصيل ماكان يدعو اليه، وما يمكن ان ينتج عنها من اثار دينية ودنيوية وازدادت علاقة الاثنين توطداً بزواج الشيخ من (الجوهرة) بنت عبد الله بن معمر. وقد اصبحت مهمة الشيخ الاصلاحية اثر ذلك سهلة الى درجة كبيرة، وازداد عدد المنظوين الى دعوته من العيينة وما حولها بسرعة، وبهذا اصبح في موقف يمكنه من تطبيق ماكان يدعو اليه، وكان اكثر شيء يضايقه انذاك بعض المظاهر التي يزاولها الجهال في المنطقة كالتماس البركة في بعض الاشجار، وتقديم النذور الى القبور. وقد قرر الشيخ القضاء على كل مايعتقد ان فيه خطراً على عقائد المسلمين. وقد قام انصاره بازالة تلك الامور المحشورة من منطقتهم وفي الوقت نفسه، كان الشيخ مصمماً على تكوين مجتمع تطبق فيه الشريعة الاسلامية في جميع المجالات، ومن ذلك انه امر بمعاقبة من لم يكونوا يؤدون الصلاة جماعة في المساجد. وبينما كان يقوم بالاجراءات السابقة، نشط في مراسلة العلماء والزعماء من غير بلده لاقناعهم بالدعوة وضمهم الى صفه. كما ارسل الدعاة الى البلدان القريبة منه لوعظ الناس وارشادهم. ويبدو ان فريقاً من العلماء كانوا غير معارضين للخطوط العريضة التي رسمها للتوحيد والشرك، لكنه ما ان ادخل في تفصيلات لها علاقة بهذين الموضوعين، وطبق عملياً ماكان يدعو اليه حتى اختلفوا معه ووقفوا ضده. ومهما كانت اسباب مواقف بعض علماء المنطقة من دعوة الشيخ فان هناك لعدد من العلماء كعبد الله بن عيسى قاضي الدرعية وعبد الله المويس قاضي حرمه وسليمان بن سحيم احد علماء الرياض وغيرهم دوز كبير في التأثير على بعض الزعماء السياسيين في الجزيرة العربية أمثال سليمان بن محمد بن غرير الحميدي حاكم بني خالد والاحساء والقطيف وقطر لكي يقفوا ضد الدعوة، على اساس انها قد تغير الوضع في المنطقة وتهدد نفوذهم السياسي والاجتماعي. وقد استطاع سليمان الضغط على امير العيينة عثمان بن معمر ليتخلى عن

تأييده للشيخ محمد بن عبد الوهاب لذلك اضطر الشيخ الى مغادرة العيينة التي شهدت بداية تطبيق دعوته وازدياد شهرته في المنطقة بدرجة كبيرة نحو الدرعية حيث آل سعود. وهناك سببان وراء اختياره الدرعية: اولهما ان قوة الدرعية كانت آخذة في الازدياد وان امراؤها استطاعوا صد هجمات زعماء بني خالد على بلدتهم، واصبحوا في موقف عسكري جعلهم يفكرون في مهاجمة العيينة نفسها. اما السبب الثاني فيرجع الى ان دعوة الشيخ كانت انذاك قد لقيت قبولاً كبيراً بين الشخصيات المهمة في الدرعية وفي مقدمتهم بعض الامراء السعوديين بل لقد رجح الدكتور منير العجلاني ان يكون انتقال الشيخ الدرعية بدعوة من اميرها انذاك محمد بن سعود.

ولقد اشرنا سابقاً الى ان الاتفاق بين الشيخ محمد بن عبد الوهاب والامير محمد بن سعود سنة ١٧٤٧م للعمل في سبيل الدعوة واظهارها يمثل مرحلة فاصلة في حياة الدعوة وتحولها الى حركة دينية سياسية. وقد عُد الاتفاق كذلك الاساس الذي قامت عليه الدولة السعودية وليس من شك في ان نصرة السعوديين للشيخ ابن عبد الوهاب وقبولهم حمايته قوى مركزهم وثبت استمرار قيادتهم. كما قام الشيخ محمد بدور بارز في توجيه الدولة السعودية الجديدة وادارتها «فكان يجهز الجيوش ويبعث السرايا، ويكاتب اهل البلدان» ويدير امور الاخماس والزكاة وما يجيء الى الدرعية. ويشير المؤرخون الى انسجام القادة السعوديين مع الشيخ في تدبير امور الدولة التي اتسعت بعد وفاته سنة ١٧٩٢م لتشمل الاحساء ومناطق كبيرة من الساحل الغربي للخليج العربي وعمان. كما تمكنت من صد حملتين عسكريتين وجهها اليها والي بغداد. واستطاعت الاستيلاء على الحجاز وما يقع الى الجنوب منه حتى اواسط اليمن. وبذلك فان دولة الدرعية اصبحت بعد اقل من عشرين سنة من وفاته تمتد الى الشام والعراق شمالاً حتى اواسط اليمن جنوبا ومن البحر الاحمر غربا حتى الخليج العربي واواسط عمان شرقاً. ولم يخرج عن نفوذها من جزيرة العرب الا اجزاء قليلة، وبالاضافة الى ذلك اصبحت

تشن الغارات داخل الاراضي العراقية والشامية حتى بات كثير من العشائر الموجودة هناك يدفع اليها الزكاة.

وادى هذا الامتداد الى ظهور احتمالات التدخل الخارجي ضد الدولة السعودية الاولى، وكان لأشراف مكة دور كبير في تحريض السلطة العثمانية عليها. وقد سبق ان اشرنا الى هذا الموقف، ويتساءل الدكتور عبد الله الصالح العثيمين عن الاسباب التي منعت اشراف مكة من التدخل العسكري ضد الدولة السعودية حتى سنة ١٧٩٠م، خاصة وان بعض العلماء افتى بوجوب قتال الشيخ واتباعه ان لم يعدل عن رأيه، وان الدولة العثمانية وافقت على اية خطوات يقوم بها اشراف مكة ضد دعوته. ويقول: ان ذلك يرجع الى ان الأشراف لم يكونوا في بداية الامر مقتنعين تماماً بخطورة الدعوة، وانهم كانوا يظنون ان المعارضة النجدية لها ستقضي عليها. وكانوا يرون، فيما يبدو، ان منع اتباعها من الحج سيقوى معارضيها من الناحية المعنوية، هذا فضلاً عن ان المنطقة التي قامت فيها الدعوة اولاً، كان النفوذ الاكبر فيها لزعماء بني خالد منذ اجلاهم العثمانيون عن الاحساء وكان الاشراف يعتقدون ان الدولة الدرعية، لو استفحل امرها سيقضي عليها من قبل اولئك الزعماء. ولكن حين اصبحت دولة الدرعية تضم نجداً كاملة، وباتت الاحساء قريبة من الوقوع تحت نفوذها فقد ادركوا ضرورة التحرك ضدها عسكريا. وقد فشلت اولى حملاتهم على الدرعية سنة ١٧٩٠م فاستنجدوا بعد ذلك، كما سبق ان قدمنا بالدولة العثمانية للقضاء عليها. الا أن الحركة سرعان مابعثت من جديد بعد انقضاء اقل من قرن من الزمان على ايدي عبد العزيز آل سعود.

ج. مرتكزات الحركة الوهابية :

استندت الحركة الوهابية الى عدد من الاسس ابرزها مايلي:

١.التوحيد والعودة الى الاصول والرجوع الى الشهادة: وقد اشرنا فيما سبق الى ما وصل اليه العرب والمسلمون في تلك الحقبة من التاريخ وانتهائهم بالاسلام

الى صورة متعددة الالوان من الشرك او على الاقل الى صورة من التوحيد والعبادة تشوبها الاكدار. فكانت دعوة ابن عبد الوهاب حرباً على كل ما ابتدع بعد الاسلام الاول من عادات وتقاليد فلا اجتماع لقراءة مولد، ولا أحتفاء بزيارة قبور، ولا خروج للنساء وراء الجنازة، ولا أقامة اذكار يغنى فيها ويرقص، فكل هذا مخالف للاسلام الحقيقي ويجب ان يزال ويعود المسلم الى الاسلام صورته الاولى وطهارته ونقائه ووحدانيته واتصال العبد بربه من غير وساطة ولا شريك، «فمن دعا غير الله طالباً منه ما لا يقدر عليه الا الله من جلب خير او دفع ضر اشرك في العبادة» كما قال تعالى «ومن اضل ممن يدعو من دون الله من لايستجيب له الى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون» وقد دعت احدى نشريات الدعوة الاولى الانصار الى محاربةالشرك. و«التشنيع »على المشركين وذلك بمعرفة خمسة قواعد: «...اولها ان تعلم ان الكفار الذين قاتلهم رسول الله يقرون ان الله هو الخالق الرازق المحيي المميت المدبرلجميع الامور ... ثم توجهوا الى غير الله يدعونه من دون الله ... القاعدة الثانية انهم يقولون مانرجوهم الا لطلب الشفاعة عند الله ، نريد من اللهلا منهم ولكن بشفاعتهم وهو شرك ... واذا عرفت هذه القاعدة فاعرف القاعدة الثالثة وهي : ان منهم من طلب الشفاعة من الاصنام ومنهم من تبرأ من الاصنام وتعلق بالصالحين مثل عيسى وامه والملائكة ... ورسول الله لم يفرق بين من عبد الاصنام ، ومن عبد الصالحين بل كفرّ الكل وقاتلهم حتى يكون الدين كله لله . واذا عرفت هذه القاعدة فاعرف القاعدة الرابعة وهي انهم يخلصون لله في الشدائد وينسون مايشركون ... واهل زماننا يخلصون الدعاء في الشدائد لغير الله فاذا عرفت هذا فاعرف القاعدة الخامسة وهي ان المشركين في زمان النبي اخف شركاً من عقلاء مشركي زماننا لان اولئك يخلصون لله في الشدائد وهؤلاء يدعون مشايخهم في الشدائد والرخاء ... » .

وعلى اية حال ، فان الاصول التي عادت اليها الحركة الوهابية في هذا المجال محدودة ولكنها مع ذلك ، كما يقول الباحث الاردني الدكتور فهمي جدعان بعيدة الخطر في اثرها النفسي والاجتماعي لدى الانسان المؤمن . فالشهادة «شهادة ان لااله الا الله» مفهوم على هذا النحو تبدو بالدرجة الاولى تحريراً للانسان من سلسلة الاشباح وتحريراً للعقل من سلطة الخرافات والاوهام وهي تعني كذلك استقلالاً انسانياً فريداً بازاء كل ماهو مخلوق ، اي انها تحرير للانسان من سلطة الانسان .

٢. **الاجتهاد** : ولقد كان من ابرز اعمدة الدعوة فتح باب الاجتهاد والتماس الحلول لمختلف قضايا المجتمع من المصادر الاصلية ، وهي القرآن والحديث النبوي واجماع المسلمين على حكم معين بحيث لايتعارض مع نصوص المصدرين الاساسيين للشريعة . وقد اساء بعض خصوم الدعوة فهم موقفها من الاجتهاد وظنوا ان الشيخ محمد يدعي حق الاجتهاد لنفسه . والواقع ، كما يشير الدكتور العثيمين ، ان الشيخ واتباعه يرفضون قول من ينادي بان العلماء المتأخرين لايحق لهم الاستنباط من المصادر الاصلية للشريعة ، وان ذلك الاستنباط من حق المجتهدين المطلقين وحدهم . وسبب رفضهم لهذا القول انه يعني استحالة انتفاع اي شخص ، سوى المجتهد ، بالقرآن واستحالة بحثه عن الهداية فيه ، وان القرآن بدلاً من كونه مصدراً لهداية جميع الناس ، كما هو المقصود منه ، سيصبح هادياً لقلة من هؤلاء فقط .

٣. **التكفير والقتال** : دعا الشيخ واتباعه الى ضرورة المحافظة على طهارة الاسلام ، والوقوف ضد من يخالف تعاليمه . وقد اثار هذا الموضوع جدلاً مع خصوم الدعوة ومناوئيها . ويشير محمد بن عبد الوهاب الى ذلك في احدى رسائله ويقول : ان معارضيه قبلوا رأيه في التوحيد والشرك ، لكنهم رفضوه في التكفير والقتال . وقال هو واتباعه ان جميع العلماء من مختلف المذاهب وفي كل العصور يؤيدونهم ، فهناك فصل معين في كتب الفقه يعرف بباب الردة يتناول ، بصفة خاصة ، اموراً تؤدي الى الكفر وتسوغ

تكفير أي انسان يقوم بها ، كما تبرر تسويغ اعلان ردته . ولايقتصر الشيخ واتباعه على ماذكره العلماء من الناحية النظرية فقط ، وانما يعملون على تطبيق مقتضاها . وبالرغم من ان موقفهم تجاه من يعتقدون انهم مشركون لايقبل التنازل فانهم يرون ان الانسان يجب الا يحكم بخروج اي مسلم عن الاسلام ما لم يكن مؤهلاً تأهيلاً جيداً بالعلم ومعرفة الدليل المبني على ماورد في القرآن والسنة واراء السلف الصالح من هذه الامة .

٤. الامـامـة : اتفقت اراء الشيخ واتباعه على ضرورة وجود امام ينفذ احكام الشريعة ويوحد المسلمين ويقودهم ضد الأعداء . والامام المثالي بنظرهم يجب ان يكون حراً ذكراً عادلاً يعرف الشريعة ويقدر على ادارة شؤون الامة . واذا توفرت هذه الصفات في واحد من قريش فانه اولى بها. وتعيينه يمكن ان يتم باتفاق اهل الحل والعقد ، او تعيينه من قبل الامام السابق له ، وقد يأتي الى الحكم بطريق القوة . وفي جميع الحالات يجب على رعاياه ان يطيعوه . ويرى الشيخ محمد نفسه ان طاعة الحاكم واجبة وان كان جائراً او فاسقاً ، وان امره يجب ان يتبع مادام لم يأمر بمعصية ، كما ان دعوته للجهاد يجب ان تلبي دون تردد . ويكرر اتباع الشيخ هذا المعنى في كتاب لهم ، وينصحون بالصبر على جور الحكام ، كما يذمون اية ثورة مسلحة ضدهم . ويرى الدكتور العثيمين ان الشيخ واتباعه يربطون بين وجوب طاعة الحاكم في غير معصيته وبين عظم مسؤولية الحكم ووجوب عدم تهاون الحاكم فيها . فيجب عليه ان يكون عادلاً ، والا يعين من يتحيز في ادارته او في تطبيقه لاحكام الشريعة . وان يعمل على حماية المسلمين ويجاهد لنشر الاسلام وباختصار يجب ان يكون هدفه اعلاء كلمة الله التي ينبغي ان تنعكس اثارها على حياة الناس دينياً ودنيوياً . ومما يلحظ ان الحاكم السعودي كان يسمى في بداية الدعوة الأمير ، ثم اصبح يلقب بالامام .

د. طبيعة الحركة الوهابية واثارها :

ان استعراضنا لاسباب الحركة الوهابية وظروف نشأتها وعناصر قيادتها واهدافها يقودنا الى معرفة طبيعتها وموقعها من حركات التجديد وآثارها السياسية والاجتماعية . وتنبغي الاشارة اولاً الى ان انصار هذه الحركة لايستسيغون تسميتها بالوهابية ، وان كانت النسبة ، من الناحية اللغوية ، صحيحة ، فهي لاتختلف ، مثلاً ، عن نسبة الحنبلية الى احمد بن حنبل . ويرى انصار الحركة ان معارضيهم هم الذين اطلقوا عليهم الاسم ، والقصد من ذلك تنفير الناس من الدعوة او اتهامهم بالدعوة الى دين جديد او مذهب جديد . لذلك يفضل انصار الدعوة ، ان يسموا بالموحدين ، وان يطلق على حركتهم اسم (الحركة السلفية) وعلى اية حال فان عددا من الباحثين المتعاطفين مع هذه الحركة ، بدأوا في السنوات الاخيرة لايتحاشون استعمال كلمة وهابية في كتاباتهم ولابد ان هذا الموقف ، جاء نتيجة اعتقاد هولاء بان ماتحمله هذه الكلمة من معان في الزمن الماضي اصبح في اذهان الكثيرين اضعف من ذي قبل .

ويرى المؤرخ المصري الدكتور احمد عبد الرحيم مصطفى بأن الوهابيين ، لم يمسوا الحياة العقلية ولم يعملوا على ترقيتها الا في نطاق التعليم الديني، ولم يستجيبوا لمطالب المدنية الحديثة. ويشير احمد امين إلى شيء من هذا القبيل فيقول « ان محمد بن عبد الوهاب لم ينظر إلى المدنية الحديثة وموقف المسلمين منها، ولم يتجه في اصلاحه إلى الحياة المادية كما فعل معاصره محمد علي باشا، وانما اتجه إلى العقيدة وحدها والروح وحدها، فعنده: ان العقيدة والروح هما الأساس وهما القلب ان صلحا صلح كل شيء، وان فسدا فسد كل شيء». لذلك فقد اتهمت الحركة الوهابية بالمغالاة والتزمت الشديد، ولربما كان مرجع ذلك إلى ان كثيراً من انصار الدعوة كانوا من البدو الذين اساؤا فهم مبادىء ابن عبد الوهاب فقالوا في تكفير من لم يعتنقوا مبادئهم ولوجبوا قتلهم وشنوا من اجل ذلك غاراتهم على المدن المقدسة في العراق سنة١٨٠١م

ثم اتجهوا نحو بلاد الشام وهددوا دمشق وحلب وكانوا لايزالون هناك في سنة ١٨١١م حين استجاب محمد علي باشا لنداء السلطان العثماني وارسل جيشه لقمع نشاطهم كذلك يرى المؤرخ المصري الدكتور احمد عبد الرحيم مصطفى انها تقف «في اقصى الجناح اليميني المحافظ» وهي تمثل برفضها للعلمانية والعصرية والاقتباس عن الحضارة الغربية وجريها «وراء سراب الحكومة الدينية الاسلامية في صحارى الحجاز واليمن» وبمعاداتها للغرب ... وماصدر عنه من افكار ومنجزات تقدمية ، اتجاهاً رجعياً.

وينتقد الدكتور فهمي جدعان زميله الدكتور مصطفى على رأيه هذا ويتهمه بتخطي الشروط الموضوعية للحكم، وجهل بقيمة المعطيات السوسيولوجية والتاريخية للمشكلة الوهابية. ويقول: ان الدكتور مصطفى يبسط الامور إلى درجة يظن معها ان مشكلة الحركة الوهابية نفسها كانت تكمن بالذات في ضرورة «الاقتباس» عن الغرب .وهذا، بكل تأكيد، هو آخر ماينبغي ان يطلب من اصحاب هذه الحركة في الظروف التي رافقت نشأتها وتطورها. فكل مايمكن قوله ان الوهابية لم تدفع، عملياً واجتماعياً، بعودها السلفي الى نتائجه المنطقية اللازمة ، فقد ظلت حبيسة اطر ثقافية عاجزة اصلاً عن استخدام الينابيع السلفية لاغراض العالم الحديث. وان الاسهام الذي قدمته الفكرة الاساسية في الوهابية قد كان ، على الرغم من خطورته واهميته ، محدوداً جداً وفي حاجة الى إغناء وتطور وخاصة في المناطق التي لم تكن تبعد عن قلب العالم الحديث بعد الجزيرة العربية عنه، اي في البقاع التي لم تكن للعقيدة الاسلامية فيها السيادة المطلقة، ولعل مصر في مقدمة تلك المناطق حيث برزت مسألة الاقتباس عن الغرب والموقف من الحضارة الاوربية والغزو الاوربي واضحة في آراء وافكار المصلح جمال الافغاني وتلامذته كما سنرى .

وبرغم مارافق الحركة الوهابية من مشاكل، وما اتصل بها من عنف، فقد هزت الركود الذي كان عليه المجتمع العربي على نحو ما فعلته حركة

الاصلاح الديني في اوربا، فانتشرت اصداءها في الولايات العربية ووفرت نموذجاً للثورة على الحكم الفاسد والمجتمع المنحل، ولو كان حكماً مسلماً. كما كانت مصدر الهام لكثير من الحركات والدعوات الاصلاحية في القرن التاسع عشر. فقد وصف جان ريمون، وكان قنصلا لفرنسا في بغداد سنة ١٨٠٦م وعاصر دخول الامير محمد بن سعود مكة رد فعل الجماهير بقوله: «ان روح الفتح استأثرت بقلوب الجماهير، فراحت تستعيد ذكرى تاريخ العرب المجيد القديم، واخذت الاحلام تراودها برؤية امرائها متربعين على كرسي الحكم. والفقرة التالية تدلل على صحة رأيي: امس قال احد الوهابيين وبلهجة نبي يتنبأ: «لقد اقترب الوقت الذي سنرى فيه عربياً على عرش الخلافة، وكم طال علينا الزمن الذي قاسينا فيه مرارة العيش تحت نير مغتصب». ولقد ظهر من الرسائل التي كان يرسلها الدعاة الوهابين إلى الولاة العثمانيين التركيز على الناحية العربية من الاسلام، اذ جاء في رسالة عليان الضبيني احد قادة سعود بن عبد العزيز إلى يوسف باشا كنج والي دمشق قوله: «ونحن اعراب، ونبينا محمد عربي، واصحابه اعراب». وقال احد الأئمة الوهابيين بفخر حين كان يتحدث عن الامامة: «انه اذا كان نوالها بالاختيار فالعرب احق بها من الاتراك». ولقد احدثت الحركة الوهابية صدمة في نفوس العرب، ودفعت الكثيرين إلى احياء ذكرى العهد العربي الاول، ومن ثم إلى اعمال الفكر في حاضرهم المتخلف وتلمس وسائل النهضة وسبل التغيير، مما ادى إلى اكتسابها كما يقول بعض المؤرخين «ملامح قومية جعلتها تمثل خطوة حاسمة في يقظة الوعي العربي القومي. وهناك مؤرخون آخرون يعدونها اول حادث جليل هز حبل الارتباط بين الدولة العثمانية والاقطار العربية. ويقارن الدكتور عبد العزيز نوار بين تأثير الحركة الوهابية والغزو الفرنسي لمصر ويرى ان هناك اوجه شبه وتناقضاً بينهما كذلك. فهما في نظره حدثين هزا الوطن العربي هزاً عنيفاً وكل منهما هدد كيان الدولة العثمانية وتحدى سلطتها، وايقظ في الناس روح التفكير والنقد واعادة

الفكر في المجتمع العربي وفي اساليب الحكم، وكل منهما دفع بالمنطقة إلى آفاق دولية جديدة، ولكن بينما كانت الحملة الفرنسية، حركة إستعمارية أجنبية كانت الحركة الوهابية اصلاحية ثيوقراطية دينية محلية.

ظهرت اثار الحركة الوهابية، قوة محركة ودافعة في كثير من مناطق الوطن العربي. فقد استلهمها محمد بن علي السنوسي مؤسس الحركة السنوسية في ليبيا وبعض دول افريقيا كما سنرى. وكانت مثالاً للحركة المهدية في السودان. وبلغ اعجاب سلطان مراكش مولاي محمد بن عبدالله ١٧٥٧ – ١٧٩٠م بها حداً جعله يردد في مجالسه «انني مالكي المذهب، وهابي المبدأ».

وكتب المؤرخ المصري عبد الرحمن الجبرتي، الذي عاصر الفترة المهمة في ظهور الوهابية، وتابع باهتمام وتعاطف من القاهرة الاخبار التي كانت ترد في الجزيرة، ان الوهابيين حين دخلوا المدينة المنورة «لم يحدثوا فيها غير منع المنكرات». وفي اليمن دعا الامام الشوكاني المتوفي سنة ١٨٣٤م في كتابه القيم «نيل الاوطار» إلى عدم زيارة القبور والتوسل بها، وحارب التقليد ودعا إلى الاجتهاد وخلف تلامذة كثيرين يدينون برأيه وفي مصر شب الشيخ محمد عبده فرأى تعاليم ابن عبد الوهاب تملأ الجو، فعاد إلى اصولها وادى اجتهاده وبحثه إلى الاساسين اللذين بنى عليهما محمد بن عبد الوهاب تعاليمه وهما: محاربة البدع وفتح باب الاجتهاد وجرد نفسه لخدمة هذين الغرضين كما سنرى ومن الذين تأثروا بالحركة الوهابية عدد من المفكرين الذين سنتحدث عن بعضهم فيما بعد منهم مفتي بيروت الشيخ عبد الباسط فاخوري ومفتي بغداد محمد شكري الآلوسي وعبد الرحمن الكواكبي ومحمد رشيد رضا وغيرهم وفضلا عن ذلك، فقد فتحت الحركة الوهابية برفضها البدع الباب للدراسة النقدية للجزئيات المتصلة بالسنة والشريعة.

الحركة السنوسية:

أ. بدء الدعوة السنوسية:

كانت الحركة السنوسية، في بدء نشأتها. طريقة صوفية تدعو إلى تقوى الله والعمل الصالح واحياء الاسلام في بساطته الاولى، وتخليصه من شوائب البدع والدعوة إلى العمل الصالح المنتج .ومؤسس هذه الحركة محمد بن علي السنوسي ، الذي ولد في قرية (الواسطة) قرب مستغانم بمقاطعةوهران الجزائرية في ١١كانون الاول سنة ١٧٨٧م. وترجع تسمية الاسرة بالسنوسية إلى جده الرابع الذي كان من كبار علماء المسلمين وكانت اسرته ذات سمعة علمية تحظى بالاحترام. وقد اقبل منذ حياته الاولى على العلم وادرك حاجة المجتمع العربي الاسلامي إلى الاصلاح، مما حفزه على الاستزادة من العلم، فانتقل إلى فاس حيث جامع القرويين واقام هناك سبع سنوات، يطلب العلم ويدرسه .وفي غضون ذلك صار له تلامذة عديدون، ونال شهرة كبيرة. وقد اهتم بدراسة الحركات الصوفية المنتشرة انذاك وخاصة القادرية والشاذلية وتألم لقلة الحماسة لدى علماء المسلمين وانصراف الحكام والمسؤولين في الاقطار العربية والاسلامية إلى الاهتمام بمصالحهم الخاصة. وتألم لما اصبح عليه العرب والمسلمون في تدهور في اوضاعهم العامة، وهزت في نفسه انباء الغزو الاستعماري الاوربي لبعض الاراضي العربية بحيث صارت «المقاطعات والخطط المعمورة تذهب من ايدي المسلمين في اي وقت وبسرعة البرق». ولقد اشعرته هذه الاوضاع بضعف العرب والمسلمين اقتصادياً ودينياً واجتماعياً، وبضعف الدولة العثمانية وعجزها عن مراجهة هذا التغلغل الاستعماري الذي احرز نجاحات متعددة وخاصة في المغرب العربي. لذلك، فقد قرر نشر دعوته الهادفة إلى اقامة مجتمع جديد قوى مقتدر على مواجهة التحديات فقام برحلات واسعة إلى بعض الاقطار العربية بهدف تكوين صورة واضحة لما كانت تمرّ به من ظروف انذاك ،وللاحتكاك برجال العلم والفقه منها. فترك فاس إلى لاغوات في جنوبي الجزائر وهي مركز مهم تتجمع فيه القوافل

الآتية من السودان الغربي . ثم توجه نحو فاس وطرابلس وبنغازي ، ووصل إلى القاهرة سنة ١٨٢٤م حيث اقام فيها فترة من الزمن، اتصل خلالها ببعض علماء الازهر ودخل معهم في حوار، حول اسس دعوته وطبيعة المنهج الذي يراه لاصلاح اوضاع المسلمين انذاك. ثم ذهب إلى الحجاز سنة ١٨٢٥م املا في الالتقاء باكبر عدد من المسلمين هناك. وحين قرر العودة الى بلاده ، لم يستطع ، وقد احتلها الفرنسيون سنة ١٨٣٠م، لذلك رحل وطاف بجنوب الجزائر حيث لم يكن قد سقط بعد في يد الفرنسيين .. ثم غادره الى القاهرة فالحجاز مرة ثانية، وفي الحجاز اقام زاويته الاولى فوق جبل ابن ابي قبيس بمكة سنة ١٨٣٧م .

ب. مؤسسة الزاوية السنوسية ووظائفها :

لقد أدرك السنوسي ، بعد أن وجد بلاده محتلة من قبل الفرنسيين ، عظم المخاطر وشدة التحديات التي كان يواجهها العرب والمسلمون انذاك ، ويأتي في مقدمتها الأستعمار الأوربي المسلح بحضارة حديثة والسلطنة العثمانية التي اصبحت قيداً على الأقطار العربية ، بحيث تعوق انطلاقها ، ومن ثم فقد غدت بما تمثله من ضعف وانحلال وجمود ، ثغرة واسعة تتيح للغرب الأوربي السيطرة على ولاياتها الواحدة بعد الأخرى . لذلك ، وامام مثل تلك التحديات ، لابد من اعداد الأنسان العربي ، اعداداً خاصاً . ومن (الرباط) الأسلامي الأول استلهم السنوسي فكرة الزاوية التي ارادها أن تكون مركز الحياة الجديدة التي كان يطمح إلى اقامتها وسط محيط قد رفضه وعزم على تغييره في المدى الطويل . وبعد ثلاث سنوات غادر الحجاز إلى مراكش ، واستقر في فاس ، يمارس التدريس ، ويدعو إلى طريقته الجديدة ، لكن حكومة مراكش خشيت من انتشار دعوته ، وضيّقت الخناق عليه ، فاضطر إلى مغادرتها متوجها إلى طرابلس الغرب سنة ١٨٤١م ومن طرابلس اخذ هو وانصاره يسهمون في بعض حركات المقاومة الجزائرية للاحتلال الفرنسي وخاصة في الفترة من ١٨٤٨ وحتى ١٨٦١م . وفي الزاوية

البيضاء على الساحل الليبي كانت الزاوية الثانية التي أقامها في برقة . وبعد ذلك عاد إلى الحجاز للمرة الثالثة . فاقام بها ثماني سنوات ، ومنها نشر طريقته في انحاء عدة من الحجاز واليمن . وتأسست لها الزوايا في المدينة والطائف والصفراء وينبع وجدة ورباح ووادي فاطمة والمضيق واصفان وابان .. ثم غادر الحجاز عائداً إلى الجبل الأخضر بليبيا ، فاستقر هناك منذ سنة ١٨٥٤م مؤسساً الكثير من الزوايا لتكون مراكز ليست للعبادة والتعليم فقط ، وانما لكي تضم كافة جوانب النشاط والأنتاج .

كانت الزاوية . بمثابة المؤسسة الحكومية . وكان على رأسها قائد يسمى (مقدم الزاوية) يوجه الأهالي ويحل مشاكلهم ويحثهم على مزاولة الأنتاج الزراعي . اما شيخ الزاوية ، فيتولى شؤون التعليم والقضاء ومع المقدم وكيل يشرف على الزراعة وشؤون الأدارة والمال والأقتصاد . وللزاوية مجلس يتألف من المقدم والوكيل والشيخ ورؤساء القبائل المجاورة للزاوية ووجوهها . وفي الزاوية مسجد للصلاة والتعليم . ومنزل لقائدها وللوكيل وللشيخ وفيها بيوت للضيوف وعابري السبيل ، وللفقراء الذين لا مأوى لهم ، وفيها مساكن للخدم . ومخازن للمؤن وأصطبل . ومتجر ، وفرن ، وسوق .. وتحيط بهذه المباني ، المساكن الخاصة بالقبائل التي تقوم الزاوية في منطقتهم . وللزاوية ارض زراعية خاصة بها . وابار جوفية وصهاريج لحفظ المياه . وتزرع أرض الزاوية جماعياً وبدون اجر ، اما انتاجها ، فينفق على احتياجات فقرائها وضيوفها ، غذاء وكساء وتعليماً وما شاكل . وما بقي يذهب إلى المركز الرئيس للطريقة .

لقد انتشرت حركة بناء الزوايا، واحصى المؤرخون منها مائة وثماني وثمانين زاوية، خمس وعشرون منها في شبه الجزيرة العربية وسبع وتسعون في ليبيا، وسبع واربعون في مصر، وسبع عشرة في السودان، واثنتان في تونس. وقد حولت تلك الزوايا. التي انتشرت في مناطق صحراوية الارض القاحلة الى واحات خضراء. ومن هذه الزوايا انطلق الدعاة السنوسيون الى

مناطق البدو والقبائل العربية في الصحراء وفي قلب افريقيا، ينشرون الاسلام ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ويحاربون البدع والعادات والتقاليد الجاهلية. ويدعون في الوقت نفسه الى محاربة المستعمرين والحيلولة دون تمكنهم من ارض العرب والمسلمين.

ج. تطور الحركة السنوسية :

اتخذ محمد بن علي السنوسي وعرف بالسنوسي الكبير لذلك (١٧٨٧ ـ ١٨٥٩م) من واحة الجغبوب الواقعة جنوبي واحة سيوه من الغرب بمقدار (٣٠) ميلاً مركزاً لحركته واتباعه. وقد اختار الجغبوب لانها كانت اكثر توسطاً واسهل اتصالاً بانحاء اخرى من برقة وطرابلس والسودان الغربي. كما كانت مركزاً كبيراً للقوافل وانشأ بها مدرسة دينية ومكتبة ضمت الاف المجلدات في الفقه والحديث والتاريخ والفلك والفلسفة والتصوف. وكانت المدرسة تضم كل سنة قرابة ثلاثمائة طالب يتحولون بعد تخرجهم الى قادة ودعاة للحركة. ولم يمض وقت طويل حتى اصبح للسنوسية اتباع كثيرون في شبه الجزيرة العربية وفي افريقيا من مراكش الى الصومال. وبفضل حركة الدعوة التي قادتها السنوسية دخل الاسلام واكتسب انصاراً في النيجر، والكونغو، والكاميرون، والداهومي، وحول بحيرة تشاد التي اصبحت مركزاً في اواسط افريقيا ودان بتعاليمه من حولها اربعة ملايين من السكان الافارقة، حتى ليقال ان السنوسيين هم الذين صنعوا الحزام الاسلامي لافريقيا جنوبي الصحراء. ويشير احد الرحالة وهو كوبولاني Copoulani الى اسلوب الدعاة السنوسيين فيقول انهم كانوا يدخلون المناطق تارة بهيئة تجار وتارة اخرى بهيئة دراويش. وبعد ذلك يبنون الزوايا، لينشروا الاسلام بين القبائل الوثنية التي كانت تستوطن قلب افريقيا وغربها. ولم تقتصر مهمتهم على ذلك، بل قاموا بالتوغل في المناطق التي شهدت محاولات الغرب الاستعماري في شمال ووسط افريقيا للسيطرة عليها ووقفوا الى جانب سكانها في نضالهم.

ويشكو السياسي الاستعماري جابرييل هانوتو Hanotaux (١٨٥٣ - ١٩٤٤م) وزير خارجية فرنسا من تفاقم نشاط السنوسيين ومعاداتهم للفرنسيين فيقول:

«لقد اسس الشيخ السنوسي، وفي جهة ليست بعيدة من الاصقاع التي تلي املاكنا في الجزائر مذهباً خطيراً، له اشياع وانصار. ومن مذهبهم التشدد في رعاية القواعد الدينية..وقد لبثوا زمنا مديداً لايرتبطون بعلاقة ما مع الدولة العلية (العثمانية) بسبب ما بينها من العلاقات وبين الدول المسيحية (الاوربية).. وهم يطرحون حبائل الدسائس التي اوقفت رجال بعثاتنا عن كل عمل مفيد لصالحها في افريقيا الجنوبية..فهناك... نرى درويشاً فقيراً، متدثراً بارديته البيضاء المعلمة بخطوط سوداء، يلهج لسانه بذكر الله والصلاة على نبيه، لايلوب عن ذلك شيء .. ينتقل من خيمة الى خيمة ومن قرية الى قرية... يبذر في القلوب، حيثما حل واينما توجه، بذور الحقد والضغينة علينا.. انهم يخترقون، بلا انقطاع ولاتوان مستعمراتنا الافريقية، فيستقبلهم اهلوها بالترحاب ...) ومما يستوجب العجب والدهشه انهم يجمعون من الاموال والصدقات مايزيد عن ضعف المبلغ الذي نجبيه من الضرائب كل سنة من اهالي الجزائـر ... ».

اخذت القوى الاوربية تتوجس خيفة من السنوسيين ونشاطاتهم المتعددة ولاسيما في مجال نشر الاسلام ومقاومة الغزاة. وقد قامت الارساليات التبشيرية الاوربية التي شكلت طلائع الغزو الاستعماري الاوربي بالضغط على حكوماتها، والتوسط لدى الدولة العثمانية للحد من نشاط السنوسيين الذين رفضوا منذ البدء الاعتراف بالسيطرة العثمانية واعلنوا ، بلسان شيخهم وقلمه ان الخلافة لابد وان تكون عربية قريشية لذلك فان السنوسيين واجهوا ضغوطا عديدة، فالعثمانيون بدأوا في ملاحقتهم مما اضطر زعيمهم المهدي السنوسي (١٨٤٤ - ١٩٠٢م)،الذي خلف اباه في قيادة الحركة، وكان له فضل تحويلها من حركة دينية الطابع الى حركة دينية - عسكرية سياسية قوية زادت من اهميتها وخطورتها،الى ترك الجغبوب في سنة ١٨٩٤م الى

واحة موغلة في الصحراء تدعى (الكفرة) بعد ان رفض محاولات اا
عبدالحميد الثاني، لاستقدامه الى استانبول والعيش فيها تحت رقابة ا
ولقد سبب انتقال السنوسيين الى الكفرة من اصطدامهم مع الفرنسيين المست
الذين كانوا يتوسعون حول بحيرة تشاد. وقد كانت نتيجة الصدام
حدث في سنة ١٩٠٠م ان انهزم السنوسيين وفي سنة ١٩٠٢م مات المه
السنوسي، فعاد اتباعه الى مقرهم في الكفرة في الوقت الذي بدأ فيه الايط
المستعمرون غزوهم لطرابلس فشكل السنوسيون انذاك عصب المقاومة
الغزاة كما سنرى.

د طبيعة الحركة السنوسية :

لم تكن الحركة السنوسية ، في حد ذاتها حركة سلفية محضة :
أنها كانت كما يرى المؤرخ الفلسطيني الدكتور احمد صدقي الدجاني ،
فعل مباشر ضد التغلغل الاستعماري الاوربي . كان السنوسي الكبير
ان تحرر العرب والمسلمين من ربقة السيطرة الأوربية والتسلط العثماني
لابد وان يسبقه تجدد في الجوانب الروحية (الفكرية) وهذا لايتم الا بالر
الى القرآن والسنة اى الى الاسلام الحقيقي وتطهيره ممّا لحق به من بد
لهذا كان القرآن والسنة لديه ،شأنه في ذلك شأن سلفه ابن عبدالوهاب ،
الاصلين اللذين يصح الاعتماد عليهما في فهم الاسلام دون الاجماع والق
المتأخرين . الا انه اجاز الاجتهاد للقادرين عليه ،وانتقد التقليد والجمو
لذلك واجه معارضة بعض العلماء المحافظين امثال شيوخ الازهر ،
لقد هم احدهم وهو الشيخ عليش (١٨٠٢ – ١٨٨٢) ان يقتله ؛
حين كان في القاهرة .

وفي الوقت نفسه فقد عملت السنوسية على تقديم النموذج العملي للمج
الجديد المنشود ، وتمثل ذلك بالزوايا التي اقامتها وجعلتها كما سبق ان ؛
مراكز للنشاط الاقتصادي والسياسي والاجتماعي . ومن هنا كان اهت

ة والتعليم والتدريب على الفروسية واستخدام السلاح . والمران
ون الحرب والقتال . الا انها ، كما يذكر الدكتور احمد عبدالرحيم
ي «تأثرت برواسب عصور الانحطاط ، فلم تهتم بالعلوم التطبيقية
ث تغييراً جذرياً في اساليب التفكير (الموروثة) ....» .هذا فضلا عن
للطرق السلمية الاصلاحية في إنتشارها ومهادنتها القوى الموجودة
تمع لتتفرغ للعمل في ارساء قواعدها ، وفي هذا تختلف عن الحركة
ة التي أنتهجت اسلوباً ثورياً في تغيير المجتمع .

المهديـة :

ع الحركة ومقدماتها :

كانت الحركة المهدية كنظيرتيها ، الوهابية والسنوسية في بدايتها
دينية تدعو الى العمل الصالح ومحاربة التقليد والخرافات والبدع
لت الاسلام في مراحل الركود والظلام ، لكن ظروفاً سياسية واقتصادية
عية متدهورة واجهها المجتمع العربي في السودان منذ مطلع القرن
عشر ،جعلتها تتطور الى حركة سياسية تجديدية . فهي رد فعل كبير
الادارة وتغلغل النفوذ الانكليزي في السودان وللعدوان الاجنبي
ر القرن التاسع عشر على شواطىء افريقيا الشرقية .

د مربنا في صفحات سابقة ان السودان دخل في حوزة الحكم
في عهد محمد علي باشا بين سنتي (١٨٢٠ – ١٨٢٢)مواشرنا الى ان
حققوا في السودان امرين مهمين : اولهما تحديثه . وثانيهما توطيد
فيه . الا ان اوضاع مصر السياسية والاقتصادية المتدهورة وخاصة
الخديوي اسماعيل (١٨٦٣ – ١٨٧٩م) والخديوي توفيق (١٨٧٩
١)مسرعان ما انعكست على السودان حيث اشتدت الضائقة الاقتصادية
ساد الاداري فيه . وقد نجم عن ذلك ازدياد استغلال موارد السودان
الموظفين المصريين الذين كانوا يرسلون الى الجنوب ،ومعظمهم

من العناصر السيئة ، في رقاب الناس وفرضهم ضرائب باهضة ناء السودانيون بحملها كثيراً . هذا بالاضافة الى ان جباة الضرائب كانوا من الطغاة المتعجرفين دأبهم النهب والسرقة ،ووسيلتهم العنف والضرب (بالكرباج) ، واحتقار الناس وكان وجودهم في السودان كافياً لتعطيل كافة الاصلاحات التي تصدر من (الخديوية) في القاهرة او من (الحكمداريين) في الخرطوم .

ومما زاد في ذلك ،سياسة الخديوي التوسعية في اثيوبيا وافريقيا الاستوائية واستعانته بعدد من المغامرين الاوربيين الذين اندفعوا الى هناك لتحقيق اهداف دولهم الاستعمارية . وليكونوا طلائع المد الاستعماري . وكان اولئك الاوربيون والبريطانيون في مقدمتهم ، يتدفقون على السودان بحجة الأسهام في الغاء ومنع تجارة العبيد .وكانت تلك الحجة وسيلة بريطانيا للتدخل في شؤون السودان وتغلغلها عن طريق مصر والسيطرة على مصوع وسواكن ومداخل البحر الاحمر حيث تؤسس هناك مراكز لمراقبة تفتيش تجارة العبيد . ومما هو جدير بالذكر ان بريطانيا اندفعت على مر السنوات التي اعقبت سيطرتها على مصر في احكام خططها التوسعية في افريقيا ودخلت في صراع طويل مع الدول الاوربية الاخرى وخاصة فرنسا التي كانت تتوسع افقيا في القارة الافريقية .

ان السير صموئيل بيكر Baker كان من اوائل المغامرين الانكليز الذين جاؤوا السودان . وقد عهد اليه الخديوي اسماعيل سنة ١٨٦٩م بادارة مديرية خط الاستواء وتولى بعده الجنرال كوردون Gordon منذ سنة ١٨٧٤م مهمة توطيد السيطرة المصرية وتوسيعها وهو في الواقع يوطد سيادة بلاده ونفوذها .ان السودان الذي كان رسمياً تحت السيطرة المصرية اصبح ملكاً لفئة من المغامرين الاوربيين الذين استحوذوا على تجارته وكرسوها لمصلحتهم فزادوا باعمالهم ومظالمهم روح الحقد والكراهية في نفوس الناس .

اما النشاط التبشيري الاوربي ـ الذي لم يكن الا جزءاً من الحركة الاستعمارية فقد اتسع اذ توافدت الارساليات التبشيرية البريطانية والفرنسية على السودان لتتخذ منه مدخلاً الى قلب القارة الافريقية. وقد ابدى الجنرال كوردون الذي عينته السلطات المصرية حاكماً على السودان سنة ١٨٧٧م عطفاً شديداً على نشاط المبشرين في الوقت الذي توجس فيه السودانيون خيفة من هذا النشاط لانه اقترن في اذهانهم بالادارة الاجنبية الاستعمارية.

كما شجع نشوب الثورة العرابية في مصر سنة ١٨٨١م، وانتشار الوعي القومي، السودانيين على ان يفعلوا فعل اخوانهم المصريين الذين تحدوا استبداد الخديوي وحكومته وقد مهد هذا الطريق لنجاح الحركة المهدية.

ج. مؤسس الحركة وتكوينه الفكري :

اصبح المجتمع السوداني يزخر بالعوامل التي تهيؤه للثورة والانقضاض على اسباب شكواه. وتاق الناس الى (منقذ) يخلصهم من الظلم والذل. وقد ساعدت الضغوط السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي تعرض لها المجتمع السوداني على ظهور رجل عربي سوداني اسمه محمد احمد بن عبدالله. ولد في ١٢ آب سنة ١٨٤٤م في جزيرة لبب التي تبعد عن دنقلة خمسة عشر كيلومترا، ولقب نفسه بالمهدي ليعلن للناس بانه جاء لتحريرهم سياسياً وفكرياً. وانه لذلك يسعى لنشر العدل والقضاء على الظلم، وانقاذ ديار الاسلام قاطبة من خطر الاستعمار والاتراك.

ان ثقافة المهدي الدينية، وماعرف عنه من انكباب على العلم والدراسة وبساطة في الحياة ونزوع الى الزهد، وقدرة على الاقناع، ساعدت على التفاف الالاف من العبيد والفلاحين والبدو والحرفيين والفقراء والدراويش حول دعوته، فاطلق عليهم اسم (الانصار) وهذا هو الاسم الحقيقي لجماعة المهدي. ويشير احد انصار المهدي الى شيء من هذا القبيل فيقول: « وتقاطرت الينا زرافات من الشعب البائس، وابتعد عنا الاثرياء والميسورون الذين لم

يكترثوا الا بثرواتهم، بهذه الاوساخ الدنيوية التي الهتهم عن معرفة وتذوق نعيم الفردوس الحقيقي». وكان للشعور القومي اثر كبير في التفاف الناس حول قيادة المهدي. اذ وجد الناس في السودان «ان حركته فيها رفعة لشأنهم ... وكانوا يفخرون بانه واحد منهم: ولم يكف المهدي عن ان يبث في نفوس انصاره الوعي القومي والاعتزاز بدينهم وجنسهم وتراثهم. كتب احد شهود العيان للحركة المهدية يقول: «زهت نفوس الجميع عزة وكرامة لان السوداني اصبح مهدياً وبالتالي لانه سيحكم البلاد لا الاجانب بل اولادها في المستقبل».

لقد تعرضت الحركة المهدية الى محاولات المؤرخين الاستعماريين والبرجوازيين تشويه تاريخها، وذلك بادعائهم انها جاءت رد فعل لالغاء تجارة العبيد، وقولهم ان تجار العبيد السودانيين كانوا يمثلون في بلادهم طبقة قوية وان حرمانهم من ممارسة هذه التجارة التي كانت تدر عليهم الارباح الوفيرة، سيفقدهم هذا المركز وتلك الارباح لذلك انقلبوا على الحكومة وانضموا الى الثوار.

ان هذا الادعاء بعيد عن الحقيقة. ذلك ان تجارة العبيد كانت ظاهرة قديمة ومقبولة من حيث كونها تمثل احدى النشاطات الرئيسة في اقتصاد السودان. لذا كان من الصعوبة بمكان القضاء على هذه التجارة بتلك السرعة دون اتباع الوسائل التدريجية لحلها بوصفها كمشكلة مستعصية تتصل بحياة عدد كبير من الناس لذلك فان ما اتبعته السلطات المصرية والبريطانية متمثلة باجراءات (بيكر) و(كوردن) ومن لف لفهما من سياسة قسرية في سبيل منع هذه التجارة كان أمراً بعيداً عن التصديق .ولعل هذا مايفسر تعاطف تجار العبيد مع حركة المهدي .بل ان عثمان دنقله اشهر قادة المهدي كان من ابرز تجار العبيد . اضافة الى ذلك أن السودانيين فسروا سياسة [بريطانيا لالغاء التجارة المذكورة على انها تدخل في شؤونهم الداخلية .ان هذا لم يمنع من ان يكون الفقراء والمسحوقين هم مادة الثورة ووقودها . وقد عبر عن ذلك احد المعاصرين بقوله «مهما تكن ادعاءات المهدي الدينية فـان قوتـه الرئيسة جاءت من بؤس ويأس السكان الوطنيين » .

د. مبادىء الحركة واهدافها :

تشبه الحركة المهدية ،الحركة الوهابية في ارتكازها على اسس رئيسة ابرزها التوحيد والاجتهاد والجهاد . فبالنسبة للتوحيد فان الحركة المهدية اكدت على اهمية التوحيد والعودة الى الشهادة .وتخليص الأسلام من البدع والعادات الضارة .وفيما يتعلق بالاجتهاد ،فقد رأت المهدية في توزيع المسلمين على مذاهب وطرق ،سببا في اضعاف الاسلام.لذلك اكد المهدي على القرآن والسنة على اساس انهما (مصدرا الضياء) ودعا الى العودة الى التشريع كما كان في عهوده الزاهرة .ودعا الى اقامة الحدود الشرعية وهاجم الفقهاء واحرق كل كتب التفسير والفقه(باستثناء الصحيحين واحياء علوم الدين للغزالي وغير ذلك من كتب سماها لانصاره) لاعتقاده انها «حجبت النور المنبعث من القرآن والسنة» وامر بترك الطرق الصوفية قائلا «ايها الفقراء والمهاجرون والانصار ان كل من كان عنده .مذهب أو نص أوشيخ فليتركه .لان هذا أخذ من هذا فقد ابعدوا من نور النبي محمد صلى الله عليه وسلم ونحن جئنا لنحيي هذا النور» كما أبطل جميع الاوراد. وصب جام غضبه على اعمال السحر والشعوذة وكتابة الاحجبة .

وبصدد الجهاد ،فقد دعا المهدي الى العمل على تخليص السودان من النير الاجنبي وعمل منذ البداية على استخدام العنف الثوري والحروب لتحقيق مبادئه واهدافه وعد النضال ضد السلطة الحاكمة وموظفيها الفاسدين ،بقياس الاسلام الحقيقي ،جهاداً في سبيل الله .وتحدث في مناشيره عن اغتصاب الاتراك للدولة والسلطة وحرض انصاره على قتالهم .

اعلن محمد أحمد بن عبد الله المهدي ثورته صيف سنة ١٨٨١م بغية وضع حد لتسلط الباشوات والموظفين الاتراك والجراكسة والاوربيين وللنهب الاستعماري للسودان وكان الظرف ملائماً للثورة. اذ تطورت في مصرازمة سياسية ونشأت في السودان امكانية للعمليات الحربية .ووصف شهود عيان معاصرون بداية الثورة قائلين :

وتحقيق الاستقلال. واقامة دولة جديدة تعمل على تطبيق العدل بالمقياس، الاسلامي. وقد سعى المهديون الى اعادة تنظيم المجتمع السوداني، بعد ان عبث الاجانب بمقدراته وحرموا النشاط التبشيري، واغلقوا مدارس الارساليات الاجنبية. وعلى الرغم من اهتمام المهديين بالتعليم الا ان الاولوية، بسبب الظروف العصيبة التي واجهتها دولتهم وخاصة العدوان الاجنبي المتمثل بالضغوط البريطانية والحبشية والفرنسية والايطالية للتوغل داخل حدود السودان، كانت للجهاد والنضال ضد المستعمرين.

وهي ثانياً حركة قومية ويتجلى ذلك في أمرين :

١. موقفها من الاتراك العثمانيين وعداؤها الواضح الشديد لهم متمثلاً بالدعوة الى رفض السلطة العثمانية، والتأكيد على ان السودانيين هم قوم غير الاتراك وهنا، ومن هذا الباب تدخل المهدية الى ساحة الفكر القومي الذي تصدى (للعثمانية) و(التتريك) فيما تصدى له من تحديات.

٢. موقفها من احداث الوطن العربي وفي مقدمة ذلك التعاطف الشديد بين المهديين والعرابيين. ويؤكد المؤرخون وجود ارتباط تاريخي بين الثورة المهدية والثورة العرابية. فاحمد عرابي الذي اندحر امام القوات البريطانية المحتلة سنة ١٨٨٢م لم يخف، وهو في منفاه في سيلان، تأييده وميله الى المهدي، واعلانه انه كان ينوي تعيينه حاكماً على السودان. وكان المهدي يعطف على الثورة العرابية. ويذكر انه امر رجاله اثناء حصار الخرطوم في كانون الثاني سنة ١٨٨٥م بالمحافظة على حياة الجنرال كوردون قائلاً: « اني اريد ان افتدي به احمد عرابي باشا ». وقد التحق عدد من ضباط وجنود عرابي مع الثوار في السودان.

ولم يتغافل المهدي عن مصر، وكان يتطلع الى تحريرها من حكم العثمانيين والاوربيين واليهود. وقد نعى على الخديوي توفيق تسلط الاجانب على مقدرات مصر وكان يفرق بين الحكومة المصرية التي تعمل بأوامر الانكليز والشعب

المصري . وقد ارسل رسالة بهذا المعنى الى الملكة فكتوريا ، ملكـة بر
، الا ان حكمـه لم يطـل حتى يحقق هدفـه في تحرير مصر من الا
البريطاني .

كما كتب الى اهالي مراكش وفاس وموريتانيا ودعا المهدي ال
في ليبيا للنهوض ضد الاجانب، واعجب بجهاد الامير عبد القادر ال
ضد الفرنسيين المستعمرين وتابع دعوة ابن عبدالوهاب في الحجاز
اشرنا الى ذلك من قبل ، وعقد صلة طيبـة مع جمال الدين الا
وبلغت اصداء دعوته ارجاء الوطن العربي وجاءته وفود من المغرب و
ومصر لمبايعته. كما تظهر دعوته القومية في فكرته القائمة على اسام
دولة عربية اسلامية تكون عاصمتها مكة المكرمة .

والحركة المهدية ، فوق هذا وذاك ذات طابع اجتماعي . حيث
النواة التي تبعت المهدي في البداية من عامة الناس وجمهور الفقرا
الذين تشبثوا بالثروات والوظائف والرواتب انهم كانوا اعداءه
دعوته . وقد عاب خصومه عليه ان انصاره هم الفقراء والمشايخ وال
وكان يرد عليهم مفاخراً بذلك ومقارناً في هذا بحال المسلمين الا
بواكير الدعوة الاسلامية .

ولقد اتضح الطابع الاجتماعي للحركة المهدية في فلسفته
على الغاء الفوارق الطبقية بين الناس وذلك عن طريق دعوة انصارها
بها إلى الانتفاع بالارض ومصادر الثروة بما يقف عند حدود ال
دون اسراف وتبذير ، والتنازل عما زاد عن ذلك القدر لمن يحتا
اخوانهم. ولقد قرر المهدي ان تكون ملكية مصادر الثروة ذا
المشتركة بين الناس ملكية عامة سلامة ترصد مواردها على الا
ومن ذلك الدكاكين والقيصريات والمعاصر والطواحين وما شاك
الرتب والالقاب، وساوى بين الاغنياء والفقراء وفرض على ا
خاصاً يمتازون به تمهيداً لتكتيلهم صفاً واحداً سعياً للتحرر ،

حضر في آب سنة ١٨٨١م من الخرطوم الى جزيرة آبا على النيل الابيض حيث مقر المهدي موظف من الحكومة المصرية قائلا للمهدي : «يتهمونك بانك تريد الشروع بالثورة ضد الحكومة ،اذهب الى الخرطوم واحظ بالمثول بين سيد البلاد لكي تبرىء ساحتك» فرد عليه محمد أحمد «أنا،بفضل الله ونبيه سيد هذه البلاد وسوف لاتطأ قدمي في يوم من الايام ارض الخرطوم اطلاقاً، لابرىء نفسي أمام أي انسان» فعاد الموظف الى الخرطوم خائباً .

ثم جاءت حملة عسكرية تمكن المهديون من ابادتها. وعندئذ قرر المهدي الانسحاب نحو جبل كردفان في محاولة لتركيز الحركة والاستفاده من مواقعها الحصينة وسرعان ماكثر اتباعه وتحولوا الى جيش يعد بالآلاف.

وفي ١٨ شباط ١٨٨٣ حرر المهديون (الابيض) عاصمة كردفان . واتسع نطاق ثورتهم في مناطق السودان الاخرى ،وانزلوا الهزائم بالقوات واقاموا دولتهم المهدية .

يعتقد بعض المؤرخين ان الانكليز تباطئوا في توجيه القوات العسكرية القضاء على المهدية وذلك لكي يشعروا المصريين بعجزهم عن أخماد الثورة وعندئذ يتسنى لهم تنفيذ سياستهم القائمة على الانفراد بالسودان وفصله عن مصر خاصة وانهم كانوا يواجهون تحدياً فرنسياً في منطقة فاشودة سنة ١٨٩٨م .ولقد تحقق لهم ما ارادوا أذ اتمت القوات البريطانية عملية اسقاط الدولة المهدية في ٢٥ تشرين الثاني سنة ١٨٩٩م واقامت نظام حكم جديد للسودان باسم Condiminium أي نظام الحكم الثنائي .ومنذ ١٨٩٩م عرف السودان رسمياً بالسودان الانكليزي — المصري .

هـ. طبيعة الحركة المهدية وآثارها :

ان استعراضنا لاسباب الحركة المهدية ومقدماتها وعناصر قيادتها واهدافها يقودنا الى نتيجة مهمة تتعلق بطبيعتها.فهي أولاً حركة وطنية استهدفت تحرير الانسان السوداني من العبودية،وتحرير البلاد من السيطرة الاجنبية

ومنع النساء من لبس الحلي الذهبية والفضية ، ويسر الزواج بتخفيف المهور ودعا إلى البساطة في الحياة والعيش وحرم الرقص والتدخين والشراب ، وابطل بدعة البكاء على الميت والمبالغة في الحزن وغير ذلك من المعايير والقيم الاجتماعية التي اعتقد انها تقوى من عود المجتمع السوداني كي يواجه الحكام الظالمين وتحدث كثيراً عن آداب الفروسية عند العرب ، ودعا إلى اعداد القوة المستطاعة لترهيب العدو الغاصب .

ان سمات الحركة المهدية وخصائصها تلك، تؤكد في كل جوانبها انها واحدة من ابرز حركات النهضة العربية الحديثة التي تصدت بها الامة في القطر السوداني للتحديات التي فرضها عليها اعداؤها في ذلك التاريخ. فقد تركت اثراً كبيراً في حياة السودان السياسية والاجتماعية، وفي مجرى الفكر السياسي والنهضة العربية . ومع انها فشلت عسكرياً (نتيجة لعوامل كثيرة تتعلق بعدم التكافؤ في النواحي الفنية والتنظيمية والادارية بينها وبين القوات الغازية، وكذلك في افتقادها إلى البرامج المنظمة ، وعدم قدرتها على تحقيق الارتباط مع غيرها من الحركات التجديدية، وكذلك في حجم التحديات التي واجهتها) الا انها بقيت فكراً وطريقة صوفية وحركة سياسية، وان يكن قد اصابها ما اصاب الحركة السنوسية من ابتعاد قليل احيانا أخرى، عن فكرها البكر وتطبيقات قادتها المؤسسين .

لقد اجابت المهدية ، كالحركة الوهابية والحركة السنوسية على السؤال المتعلق بعوامل النهضة والسقوط وكانت اجابتها تكمن في وجوب العودة إلى الاصل وحسبها انها حاولت الاجابة في ذلك العصر الذي كانت الولايات العربية تواجه فيه تحديات خطيرة ابرزها التغلغل الاستعماري . لذلك ففي الحركة المهدية توازنت ظاهرتا الصمود المشرف والمقاومة المسلحة العنيفة ضد الغرب . كما جرى في الحركات الاخرى . ولعل مقاومة الحركة المهدية هي اعنف مقاومة مدعمة بروح الجهاد اظهرها الاسلام في العصر الحديث، ولكنها اخفقت في تحقيق اي قدر من التحديث

او الاستيعاب لعناصر القوة المعنوية او المادية في الحضارة الغربية ، بخلاف التقليدية اليابانية مثلاً تلك التي ارتدت إلى جذورها، ولكن مع استيعاب فعال للتقنية الغربية والقدرة الحديثة على التعبئة وتحقيق النهضة ورد التحدي.

ومع ان الحركة المهدية، كغيرها من حركات التجديد العربية قد حررت الفكر العربي الاسلامي من السلبية والانعزال والجبرية التي فرضها مفهوم خاطىء، وكانت بمثابة عملية تلمس لحقيقة الوجود تماماً كما يفعل الناهض من نوم عميق مثقل بالكوابيس، وهي عملية استيقاظ وتذكر وشعور تنتهي إلى شكل نواة لوعي جديد ينطلق من استعادة الشعور بالاستمرارية التاريخية. الا انها ،كما يشير الدكتور الياس فرح، لم تستطع بسبب انطلاقتها من رد الفعل الغريزي المعبر عن الرفض للاخر (اي للاستعمار والاحتلال الاجنبي) عملياً واجتماعياً تجاوز اطرها الثقافية التقليدية المحدودة ، الامر الذي اعاقها عن التواصل والتفاعل الحي مع تقنيات العالم الجديد ومتطلباته الاقتصادية والاجتماعية والثقافية .

وهكذا وقعت السلفية العربية الحديثة، كما يقول الدكتور الياس فرح ، في ابهام تاريخي عندما فاتها التمييز بين الاستعمار الغربي الحديث (ومن ورائه حضارته الحية الجديدة) وبين الحملات الصليبية (وارثها الديني الوسيط) وهي التي نجحت السلفية في صدها ثم ركدت بعدها مطمئنة إلى انتصارها التاريخي. عندئذ انكشف عجزها، ليس في ايقاف تيار الاطماع الاستعمارية الاوربية الزاحفة لاقتطاع اجزاء من الوطن العربي وحسب، بل في فهم طبيعة المرحلة الجديدة للنهضة وذلك لافتقارها إلى منهج علمي ثوري ، وإلى منظور حضاري ، وكان عليها ان تخلي الساحة لتيارات ونزعات جديدة تقترب من فهم واستيعاب تناقضات المجتمع العربي ،شبكة العلاقات التي توحد تلك التناقضات والاهداف في هدف جامع شامل، ذلك هو هدف الانبعاث القومي، كما سنرى في الفصول التالية .

مصادر الفصل الخامس

حركـــات التجديد العربيـــة

(١) أمين ، أحمد : زعماء الاصلاح في العصر الحديث ، (القاهرة ، ١٩٦٥)

(٢) الأنصاري ، محمد جابر : تحولات الفكر والسياسة في الشرق العربي ١٩٣٠ – ١٩٧٠ (الكويت ، ١٩٨٠م) .

(٣) بروكلمان ، كارل : تاريخ الشعوب الأسلامية ، ترجمة نبيه أمين فارس ، ومنير البعلبكي ط ٥ (بيروت ، ١٩٦٨م) .

(٤) بشير ، محمد عمر : تطور التعليم في السودان ١٨٩٨ – ١٩٥٦ ترجمة هنرى رياض واخرون ، (بيروت ١١٧١م) .

(٥) الجبرتي ، عبدالرحمن : عجائب الآثار في التراجم والأخبار ، ٣ أجزاء (بيروت ، لات) .

(٦) جدعان ، فهمي : أسس التقدم عند مفكري الأسلام في العالم العربي الحديث (بيروت ١٩٧٩م) .

(٧) حوراني ، البرت : الفكر العربي في عصر النهضة ١٧٩٨ – ١٩٣٩ (بيروت ١٩٧٧م) .

(٨) خزعل ، حسين خلف الشيخ : حياة الشيخ محمد بن عبدالوهاب. (بيروت ، ١٩٦٨م) .

(٩) الخطيب ، عبدالكريم ، محمد بن عبدالوهاب ، العقل الحر والقلب السليم ، (القاهرة ، ١٩٦٠م) .

(١٠) الدجاني ، أحمد صدقي : الحركة السنوسية نشأتها . ونموها في القرن التاسع عشر ، (بيروت ١٩٧٦م) .

(١١) الرافعي ، عبدالرحمن : مصر والسودان في اوائل عهد الأحتلال (القاهرة ، ١٩٦٦م) .

(١٢) الريحاني . أمين : تاريخ نجد الحديث وملحقاته ، (بيروت ١٩٥٤م).
(١٣) الزركلي . خيرالدين : الأعلام (القاهرة . ١٩٥٥م) .
(١٤) زيادة . نقولا : ليبيا في العصور الحديثة . القاهرة ١٩٦٦م .
(١٥) السنوسي . أبو عبدالله : العقيدة السنوسية (الجزائر ، ١٩٠٨م).
(١٦) السوداني ، صادق حسن : العلاقات العراقية السعودية ١٩٢٠– ١٩٣١ دراسة في العلاقات السياسية . (بغداد ١٩٧٥م) .
(١٧) شبيكه ، مكي : السودان عبر القرون ، ط ٢ (بيروت ١٩٦٥م).
(١٨) شبيكه . مكي : السودان في قرن ، ط ٣ (القاهرة ، ١٩٦١م).
(١٩) شبيكه . مكي : السودان والثورة المهدية.) (الخرطوم ،١٩٧٨م).
(٢٠) شريف، محمد بديع واخرون: دراسات تاريخية في النهضة العربية الحديثة (القاهرة، ١٩٥٠)
(٢١) شكري، محمد فؤاد : مصر والسودان (القاهرة، ١٩٦٣م) .
(٢٢) شكري،محمد فواد: السنوسية دين ودولة (القاهرة، ١٩٤٨م) .
(٢٣) الشملي، المنجي: خير الدين باشا (تونس، ١٩٧٣م) .
(٢٤) الشيال، جمال الدين: محاضرات عن الحركات الاصلاحية ومراكز الثقافة في الشرق الاسلامي الحديث ، جا، (القاهرة ١٩٥٧) وج٢ (القاهرة ١٩٥٨م) .
(٢٥) الشيخ، رأفت غنيمي: في تاريخ العرب الحديث (القاهرة، ١٩٧٥)
(٢٦) العثيمين، عبد الله الصالح: الشيخ محمد بن عبد الوهاب حياته وفكره (الرياض، ١٩٧٩م) .
(٢٧) العثيمين ، عبد الله الصالح : موقف سليمان بن سحيم من دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، مستلة من مجلة كلية الاداب ،جامعة الرياض.المجلة (٥) ١٩٧٧ – ١٩٧٨م .

الفصل السادس

الغزو الاستعماري الاوربي للوطن العربي
وردود الفعل العربية

دوافع تزايد النفوذ الاستعماري الاوربي :

شهد العالم في القرن التاسع عشر نمواً وتوسعاً في حركة الأستعمار الحديث المعروف بالأمبريالية Imperialism فقد أدت الثورة الصناعية التي ظهرت في انكلترا اولا سنة ١٧٥٠م ثم انتشرت في بقية انحاء اوربا الى تزايد نفوذ الدول الأستعمارية الأوربية .

ان من ابرز نتائج زيادة الأنتاج في الدول الرأسمالية ظهور الحاجة الى أسواق جديدة لتصريف المواد المصنعة الفائضة عن حاجة هذه الدول . وفي الوقت نفسه ، برزت مسألة البحث عن المواد الأولية والغذائية ، خاصة بعد ازدياد السكان في اوربا ، وكثرة المصانع التي بدأت تطلب المزيد من المواد الأولية. هذا فضلاً عن ان تراكم رؤوس الأموال عند اصحاب المصانع والشركات والمصارف ، اوجد الرغبة لاستثمارها في مشاريع مربحة خارج الاقطار الجغرافية للبلدان الاوربية. ومن ذلك مد السكك الحديدية وتأسيس المصارف وما شاكل .

ورافق هذه الظاهرة الأستعمارية أنتشار النزعة القومية العدوانية والشوفينية في اوربا ، تلك التي اكدت على (التفوق القومي) و (الصفات القومية) والحاجة الى التوسع. ولقد عد التفوق، والاستغلال والسيطرة آنذاك من قبيل

(٢٨) عمارة، محمد: العرب والتحدي، (الكويت، ١٩٨٠م) .
(٢٩) غنام، حسين ابن: تاريخ نجد، (القاهرة، ١٩٦١م) .
(٣٠) لوتسكي، فلاد يمير بور يسوفتش : تاريخ الاقطار العربية الحديث، ترجمة عفيفة البستاني، (موسكو، ١٩٧١م) .
(١٣) متولي، أحمد فؤاد: جوانب من كفاح السعوديين الاوائل فجر الدولة السعودية الاولى، مجلة الدارة الرياض ١٩٧٩م .
(٣٢) محمد، فاضل زكي : الفكر السياسي العربي الاسلامي بين ماضيه وحاضره ط٢ (بغداد، ١٩٧٦م) .
(٣٣) محمود ، حسن سليمان : تاريخ السودان (الخرطوم، ١٩٥٧م).
(٣٤)مصطفى، أحمد عبد الرحيم: حركة التجديد الاسلامي في العالم العربي الحديث (القاهرة، ١٩٧١م) .
(٣٥) المهدي، محمد أحمد: منشورات المهدية، تحقيق محمد أبراهيم أبو سليم بيروت ١٩٦٩م .
(٣٦) المهدي، الصادق : يسألونك عن المهدية (القاهرة، ١٩٧٥م) .
(٣٧) النجم، غالب حامد : تطور الحركة الوطنية في السودان ١٩٢٢ — ١٩٥٦ (بغداد ١٩٨١م) .
(٣٨) نعوم شقير: تاريخ السودان الحديث وجغرافيته ج٣،(القاهرة ١٩٠٣م)
(٣٩) وهبة، حافظ: جزيرة العرب في القرن العشرين، ط٥، (القاهرة، ١٩٦٧م) .
(٤٠) يحيى ، جلال: الثورة المهدية واصول السياسة البريطانية في السودان (القاهرة، ١٩٥٩م) .
(٤١) P. M. Holt : the Mahdi state in Sudan (oxford , 1963)

افريقيا واسيا . وكثيرا ماتدخلت دولهم ، بحجة حماية ورعاية المبشرين والمؤسسات التبشيرية . وهكذا كانت حركة التبشير ، وسيلة من وسائل التغلغل الاستعماري . ويعبر القول الافريقي التالي عن هذه الحقيقة : «عندما جاء الرجل الابيض ، كان معه الكتاب المقدس وكنا اصحاب الارض ، اما الان فهو صاحب الارض والكتاب المقدس معنا نحن ».

حدد عدد من الكتاب والمؤرخين مركز الظاهرة الاستعمارية الحديثة في التاريخ ، ورأوا ان الامبريالية ليست الا رأسمالية الاحتكار ولهذه الرأسمالية مظاهر متعددة ابرزها مايلي :

١ - نشأ الاحتكار حين بلغ الانتاج مرحلة متقدمة من تطوره وقد تحقق هذا خلال الاتحادات الرأسمالية الاحتكارية المعروفة ب(الكارتلات) و (الترستات) .

٢ - لقد عجلت الاحتكارات عملية الاستحواذ على أهم مصادر المواد الخام ، وخاصة المواد اللازمة لصناعتي الحديد والفحم ، وقد زاد احتكار مصادر المواد الاولية من قوة رأس المال الكبير الى درجة هائلة . كما اشتد بسبب ذلك ، النضال بين الصناعة الداخلة في نطاق مؤسسات الاحتكار وزميلتها الخارجة عن هذه الدائرة .

٣ - نشأ الاحتكار عن المصارف التي تحولت من مشروعات وسيطة متواضعة الى محتكرة للرأسمالية المالية ومما يلحظ ان ثلاثة او خمسة من اعظم المصارف في البلدان الرأسمالية الرئيسية قد ركزت في ايديها التصرف بالمقدرات الاقتصادية لتلك البلدان . وابرز المظاهر التي يبدو فيها الاحتكار قيام اقلية حاكمة من رجال المال بالسيطرة على كافة المؤسسات السياسية والاقتصادية في المجتمع الرأسمالي وتوجهها نحو خدمة مصالحها ؛

٤ - تولد الاحتكار عن السياسة الاستعمارية . فالى جانب الدوافع القديمة للاستعمار ، اضافت الرأسمالية اليها باعثاً اخر هو الصراع من اجل

الرسالة الحضاريـــة ، حتى تغنى شعراء اوربـا الأستعماريون وفي مقدمتهم الشاعر الانكليزي ريتشارد كبلنك Kipling بما زعموا انه عبأ الرجل الأبيض « فالغرب غرب ، والشرق شرق وهما لن يلتقيا »

The west is west and East is East and the two will never meet.

وسرعان ماظهرت الجمعيات الأستعمارية في اوربا لتساعد على تعبئة العالم الاوربي وحث الحكومات هناك على السعي للحصول على المستعمرات. وكان الأعتقاد السائد انذاك في اوربا ، ان كل دولة عظمى لايمكنها العيش بدون مستعمرات ، خاصة اذا ما أرادت ان يكون لها صوت مسموع واثر خطير في السياسة الدولية. كما ان امتلاك المستعمرات سوف يؤدي بالضرورة إلى السيطرة على بعض النقاط الستراتيجية في العالم .

وثمة مسائل اخرى ساعدت على تنامي الظاهرة الاستعمارية وهـي جهود بعض السياسين المغامرين الجشعين المرتبطين باحزاب ومؤسسات ، استعمارية ، والذين كانوا يرون في الاستعمار مظهراً من مظاهر القوة اللازمة لحياة الامم العظيمة . وابرز مثال على اولئك الساسة جوزيـــف شمبرلن (١٨٣٦ — ١٩١٤م) وكان صاحب مصنع في برمنكهام وقد تولى وزارة المستعمرات البريطانية للفترة من ١٨٩٥ — ١٩٠٥م وسيسل رودس الذي سميت روديسيا باسمه ، وكان صاحب مناجم الذهب والماس فيها، وصار رئيساً للوزراء في جنوب افريقيا . وهناك بعض الرحالة والسياح والمغامرين الأوربيين الذين جابوا مناطق واسعة من العالم واكتشفوا بعض مجاهل افريقيا واسيا والفوا الكتب والمذكرات التي اشارت الى ثروة المستعمرات واهميتها ومن هؤلاء ستانلي ولفنكستون وغيرهما .

كما قام بعض الكتاب والمؤرخين بدور مهم في تعبئة الرأي العام الاوربي باتجاه الحصول على المستعمرات وكان للصحافة الاوربية ، اثر كبير في تنامي النزعة الاستعمارية هناك . ولايمكن ان نتغافل عن دور وجهود المبشرين الذين مهدوا السبل لدولهم في فرض السيطرة على مناطق واسعة من

الحصول على مصادر المواد الاولية وتصدير رأس المال والاستحواذ على مناطق النفوذ وفرض السيطرة السياسية والعسكرية والاقتصادية عليها . وقد ادى هذا الصراع الى بروز تناقضين رئيين هما :

أ ـ التنافس بين الدول الاستعمارية الاوربية للحصول على المستعمرات ومن ثم الوصول الى تسويات تقوم على اساس اقتسام مناطق النفوذ .

ب ـ بداية النهضة القومية في المستعمرات بفعل رفض ابنائها للهيمنة الامبريالية والقهر القومي والاستغلال الاقتصادي .

وهكذا ، فقد تعرضت الدولة العثمانية الى الظاهرة الاستعمارية ، وازدادت محاولات الدول الاوربية الحديثة للتدخل في شؤونها والتغلغل في ولاياتها بوسائل متعددة اشرنا الى بعضها فيما سبق ، ومنها تغلغل الرأسمال التجاري الاوربي في الولايات العربية خاصة ، وتدفق البضائع الاوربية الى اسواق الوطن العربي ، وتأثير ذلك على الصناعة المحلية . ومن المؤكد ان ضعف الدولة العثمانية وعقم اساليبها في حكم المجتمع العربي ، والتدهور الاقتصادي والاجتماعي الذي كانت تعانيه ، كان له اثره في بروز ظاهرتين جديدتين في حياة العرب هما محاولات الاستعمار الاوربي الحديث التغلغل في الولايات العربية ومن ثم السيطرة عليها ، وحركات المقاومة العربية المضادة لها من جهة اخرى .

وكان الاستعمار الاوربي هو الاقوى بفعل التقدم الصناعي الذي شهدته اوربا فقد اتجهت جهود المستعمرين خلال القرنين التاسع عشر والعشرين في خطين : الاول تطويق الدولة العثمانية والضغط عليها وخاصة الاراضي التي تسيطر عليها في الوطن العربي وانتزاع ما يمكن انتزاعه منها . والثاني تعزيز السيطرة الاستعمارية في الاجزاء التي تمكنوا من احتلالها كما سنرى .

لقد تقاسمت بريطانيا وفرنسا الدور الاستعماري في الوطن العربي وجاء مؤتمر برلين الذي حضرته الدول الاستعمارية الكبرى سنة ١٨٧٨م ليكرس هذا الاقتسام ، ففي الوقت الذي اتجهت فيه بريطانيا نحو اعتبار العراق والخليج العربي والجزيرة العربية ومصر والسودان ضمن مناطق نفوذها ، تركزت اطماع فرنسا في المغرب العربي وجزء من الصومال . غير ان الامر لم يقتصر على بريطانيا وفرنسا فقد اظهرت ايطاليا اطماعاً استعمارية في ليبيا وارتيريا وجزء من الصومال . كما شهدت هذه المرحلة ظهور الحركة الصهيونية العنصرية وتوجهها نحو استعمار فلسطين .

وفي الصفحات التالية سنحاول تتبع حركة الاستعمار الاوربي للتغلغل في بعض الاقطار العربية واحتلالها وما أحدثت تلك المحاولات من ردود فعل قوية تراوحت بين الاحتجاج السلمي والمقاومة المسلحة .

الاحتلال الفرنسي للجزائر ١٨٣٠ :

تمتد جذور المطامع الفرنسية في الجزائر الى العصور الوسطى حين قاد لويس التاسع ملك فرنسا المعروف بالقديس لويس (١٢٢٦ — ١٢٧٠م) حملة صليبية سنة ١٢٧٠م استهدفت السيطرة على اقطار المغرب العربي . الا انها سرعان ما ارتدت وأصابها الفشل الذريع بعد وفاة لويس نفسه اثناء حصاره لتونس . حتى ان العودة الى الجزائر والانتقام للويس التاسع ونشر المسيحية في هذه البلاد ظلت حتى القرن التاسع عشر تداعب مخيلة واحلام بعض الساسة الفرنسيين .

وترتبط محاولات التغلغل الفرنسي في الجزائر بالعلاقات الفرنسية الجزائرية على امتداد العصر الحديث ، ففي النصف الاول من القرن السادس عشر كان الفرنسيون يطلبون النجدة من الاسطول الجزائري لحماية الشواطىء الفرنسية ضد هجمات الاسبان وملكهم شارل الخامس انذاك . فقد تم عقد معاهدة بهذا الخصوص واستنجد الملك فرنسوا الأول بموجبها بداي

حادثة ١٤ومه
٢٩/ نيسان/ ١٩٨٧

الجزائر مرتين الاولى في سنة ١٥٣٦م والثانية في سنة ١٥٤٣م طالباً معاونة الاسطول الجزائري في رد هجمات شارل الخامس على السواحل الجنوبية لفرنسا .

كما بدأت فرنسا منذ سنة ١٥٦٤م تعيين قناصل لها في الجزائر، وقامت المؤسسة الفرنسية الافريقية المنشأة سنة ١٥٦٠م بدور كبير في التمهيد للتغلغل الفرنسي وذلك عن طريق قيامها ببعض المشاريع الاقتصادية في الجزائر. وقد ازدهرت بسبب ذلك تجارة القمح الجزائرية ، ويشير المؤرخون إلى ان (الدايات) كانوا يبيعون القمح بثمن بخس إلى وسطاء معظمهم من اليهود امثال بيت بكري وغيرهم نظير اقتراضهم الاموال من تلك البيوت المالية عند الحاجة ، ثم يبيع اولئك الوسطاء القمح لفرنسا باثمان باهظة لحاجتها الى المواد الغذائية واضطرارها للدفع على اجال طويلة . ثم دخل الداي مصطفى باشا بعد سنة ١٧٧٠م في عمليات التجارة مع فرنسا ، شأنه في ذلك شأن الوسطاء اليهود . وقد حرص الرأسماليون اليهود على توثيق علاقاتهم مع بعض الشخصيات البارزة في فرنسا امثال تاليران ، وذلك لضمان سداد ديونهم في مواعيدها ودفع الفوائد الباهظة عنها ، وفي سنة ١٧٩٨م بلغت ديون فرنسا للخزانة الجزائرية قرابة (١٨) مليون فرنك ذهبي، وفي مقابل ذلك عد نابليون الاول الجزائر سوقاً ضرورية لترويج المصنوعات الفرنسية وفي حديث له مع الاسكندر الاول قيصر روسيا في (تلست) سنة ١٨٠٧م، أفصح نابليون الاول عن استعداده ، في حالة تجزئة الدولة العثمانية لضم الجزائر الى مستعمرات فرنسا وقد اوفد في سنة ١٨٠٨م المهندس الحربي الميجر بوتين إلى الجزائر وذلك لاجراء مسح طوبوغرافي فيها ولأعداد مخطط الحملة عليها . ورغم ان نابليون الاول لم يتمكن من تحقيق اطماعه لهزيمته امام اسبانيا وروسيا ، الا ان المعلومات التي حصل عليها الميجر بوتين كانت ذات فائدة فيما بعد ابان الاستعداد لحملة سنة ١٨٣٠م.

عوامل الاحتلال

كانت هناك عوامل اخرى وراء الاطماع الفرنسية في الجزائر . فموقع الجزائر الجغرافي وطبيعتها الستراتيجية ، يهيء للاسطول الفرنسي قواعد صالحة للسيطرة على البحر المتوسط . كما انها بلاد واسعة تكثر فيها الثروات على مختلف انواعها . يضاف الى ذلك عوامل تتعلق بالوضع الداخلي لفرنسا نفسها . فبعد ان فقدت امبراطوريتها الاستعمارية خلال حرب السنوات السبع وحروب الثورة الفرنسية ونابليون وتنازلها لبريطانيا عن بعض المستعمرات سنة ١٨١٠م ارادت ان تبحث عن نصر خارجي يبعد انظار الشعب الفرنسي عن مشاكله الداخلية ، هذا فضلاً عن حاجة فرنسا إلى اسواق جديدة لمصنوعاتها ، ولم تكن رغبة الملاكين الفرنسين في الحصول على اقطاعيات جديدة أمراً يستهان به ، اذ انهم فقدوا اراضيهم ابان الثورة الفرنسية سنة ١٧٨٩م وقد وجد شارل العاشر ورئيس وزرائه بولينياك ان المغامرة العسكرية لابد من ان تزيد من موجة الشعور الشوفيني وان تعيق من اندلاع الثورة ضد ملكية آل بوربون . وقد ساندت روسيا القيصرية مشاريع الغزو الفرنسية ، ورغم احتجاج بريطانيا على غزو الجزائر الا انها لم تبد اية مقاومة .

اخذت الحكومة الفرنسية تبحث لها عن حجج تتذرع بها لاحتلال الجزائر ، وفي مؤتمر فينا الذي انعقد سنة ١٨١٥م أثارت فرنسا قضية حماية الجزائريين للقراصنة . ومنذ ذلك التاريخ اتخذ الفرنسيون من هذه المسألة حجة للتدخل في شؤون الجزائر ، ففي سنة ١٨٢٦م تأزمت العلاقات بين حكومة الداي الجزائرية وفرنسا . وتطور الامر إلى ضرب الحصار حول مدينة الجزائر في السنة التالية بعد افتعال حادث (المروحة) المعروف الذي وقع يوم ٢٩ نيسان سنة ١٨٢٧م لتتخذ منه ذريعة للاحتلال . وخلاصته ان فرنسا كانت مدينة للجزائر ، كما سبق ان قدمنا بمبلغ من المال ثمناً لقمح اشترته منها . وقد تقاعست عن دفعه عدة سنين ، فحدثت مشادة بين الداي حسين حاكم الجزائر والقنصل الفرنسي (بيير دافال) كانت

نتيجتها ان نهر الداي القنصل طالباً منه الخروج وأشاح بمروحة كانت في يده تعبيراً عن سخطه ، فمست وجه القنصل وقد عدت حكومة فرنسا هذا العمل اهانة لها وقررت غزو الجزائر مدعية انها تريد الانتقام للاهانة التي لحقت بالشرف الفرنسي ، وهيأت لذلك جيشاً كبيراً بقيادة المارشال (بورمون) وزير الحربية الفرنسي .

بدأ الانزال الفرنسي في حزيران سنة ١٨٣٠م في خليج يبعد (٢٥) كيلومتراً من مدينة الجزائر وفي موقع يسمى (سيدى فرج) . وقد تصدى الجزائريون للغزاة وخاضوا ضدهم سلسلة من المعارك ، ولفقدان التكافؤ بين القوات الفرنسية والقوات الجزائرية مـن النواحي الفنية والتنظيمية والادارية ، ولسقوط برج مولاي الحسن ، وهو مركز الدفاع عن مدينة الجزائر بيد الفرنسيين اثر كبير في اضطرار الداي حسين إلى الاستسلام والرحيل منفياً إلى نابولي بعد ان وقّع على وثيقة استسلام مع الجنرال بورمون في ٤ تموز سنة ١٨٣٠م ، ومما جاء في هذه الوثيقة :

١ ـ تسلم قلاع المدينة وابوابها للفرنسيين .

٢ ـ يتعهد القائد العام الفرنسي بترك الاموال الخاصة بالداي حسين

٣ ـ للداي مطلق الحرية في التوجه مع عائلته وامواله الى اية جهة يختارها وفي حال بقائه في مدينة الجزائر يكون تحت حماية القائد العام الفرنسي.

٤ ـ يمنح القائد العام الفرنسي الحماية المعطاة للداي لكافة القادة الجزائريين.

٥ ـ تطلق الحرية التامة للجزائريين في ممارسة طقوسهم الدينية وتكفل اموال الاهالي وتجارتهم وصناعتهم وتحفظ اعراضهم وحرمة نسائهم .

وحين دخل الفرنسيون مدينة الجزائر في ٥ تموز سنة ١٨٣٠م نزعوا الاعلام الجزائرية عن الحصون والابراج ودور الحكومة ورفعوا مكانها الاعلام الفرنسية . كما واستولت قواتهم على خزينة الدولة ووضعت يدها على الأملاك الاميرية وماتحويه مخازن الدولة من مواد غذائية وتجهيزات عسكرية .

لم يستطع المارشال بورمون التوغل داخل البلاد فعندما حاول احتلال (بليدة) مثلاً فاجأته قبائل المتيجة بحرب الانصار التي اشتهرت بها المقاومة العربية في الجزائر فتراجع إلى العاصمة مذعوراً .

مرت حركة المقاومة العربية في الجزائر بمراحل عديدة ووفقاً للظروف التي فرضها المستعمرون اثناء محاولتهم توسيع دائرة احتلالهم للجزائر. ومن هذه المراحل :

١ – المرحلة المبكرة وهي المرحلة الواقعة بين سنتي ١٨٣٠ و ١٨٣٢م ، وقد حاولت سلطات الغزو البحث عن رؤساء من القبائل الجزائرية يوافقون على الاعتراف بسيادتها في المناطق الداخلية ، لكنها فشلت وواجهت مقاومة شديدة وتصميماً كبيراً على طرد الغزاة من الارض الجزائرية .ويعترف أحد ضباط الحملة الفرنسية بقوة المقاومة الجزائرية بقوله «ان الفرنسيين ادركوا جلياً ان الاحتلال لم ينته باستسلام الداي ... وان الجزائريين مصممون على المقاومة ، وهم اقوياء وشجعان وخبيرون بشؤون القتال » . لذلك استعصت مناطق كثيرة من الجزائر على المحتلين الفرنسيين وظلت القيادة العليا الفرنسية في الجزائر في تغيير وتبديل مستمرين . ولم يستطع الغزاة اكثر من ان يحتلوا بمناطق محدودة على الساحل الجزائري وبقوا محاصرين ، حتى ان اصواتاً عديدة ارتفعت في فرنسا تطالب بالجلاء عن الجزائر لكن احد السياسيين الفرنسين المتنفذين آنذاك وهو البارون (منتلبير) اجاب على تلك الاصوات في ٩ آذار سنة ١٨٣١م بقوله :«ان احتلال الجزائر مهم جداً لفرنسا وان الوزير الذي يجرؤ على توقيع صك الجلاء يستحق ان يحاكم بتهمة الخيانة العظمى» وهذا القول تؤكده بدون شك ، الاطماع الاستعمارية في الجزائر .

المرحلة الثانية : وهي المرحلة التي برزت فيها شخصية الامير عبد القادر الجزائري الذي قاد حركة المقاومة حتى سنة ١٨٤٧م.وعبد القادر هذا ولد سنة ١٨٠٨م وهو ابن الشريف محيي الدين شيخ الطريقة القادرية من قبيلة

المناطق الخاضعة له امام التجارة الفرنسية . اما الفرنسيون فقد اعترفوا بأن كل غربي الجزائر باستثناء ثلاث مدن ساحلية هي اراضي تابعة للدولة العربية الجديدة ذات السيادة برئاسة عبد القادر الذي اتخذ آنذاك لقب امير المؤمنين.

لقد ركز الامير عبد القادر اهتمامه على الجيش ، فأنشأ جيشاً نظامياً قوامه عشرة آلاف مقاتل والحق به قواتاً غير نظامية من المتطوعين بلغ عددها قرابة (٧٠) الف مقاتل .وقد تولى قيادة الجيش الاغا العسكري .وقام بتنظيم هذا الجيش في وحدات مكونة من الف جندي (تسمى كتيبة) ومائة جندي وفصائل متعددة ، يقودها الاغا والسياف ورئيس الصف على التوالي وكان لدى الامير عبد القادر (٣٦) مدفعاً،كما استقدم المدربين من مراكش وتونس لتدريب وتنظيم وحدات جيشه . وقد استعان ببعض المدربين الاوربيين وخاصة الفرنسيين واستطاع اقامة علاقات وثيقة مع سلطان مراكش الذي جهزه بالسلاح والاموال . ولغرض تمويل جيشه، اعتمد على جباية الضرائب التقليدية كالعشر والزكاة هذا فضلاً عن الاعانات التي تصله من خارج الجزائر . وقد اجرى بضعة اصلاحات ادارية للحيلولة دون تعسف الملاكين وشيوخ القبائل ، فجزأ البلاد الى تسع مناطق ترأسها خلفاؤه وهم الولاة الذين كانوا ينوبون عنه في ادارة المنطقة . وقد الغى نظام بيع المناصب وكان شائعاً آنذاك ،وطارد مختلسي اموال الدولة وحاول حماية الفلاحين والبدو الرحل وتحسين اوضاعهم المعاشية .

لم تستمر الهدنة مع الفرنسيين طويلاً ،اذ سرعان ما أقتحم الجنرال (تريزل) حاكم وهران الذي خلف الجنرال دي ميشيل ، المنطقة الداخلية التي كان يسيطر عليها الامير عبد القادر في وادي المقطع ، وقد خسر الفرنسيون في هذه المعركة اكثر من ستمائة قتيل وجريح .اما الامير عبد القادر فقد تحرك باتجاه اقليم وهران ،فتمكن من تحريره بأستثناء المركزين الفرنسيين على الساحل وهما وهران ومستغانم .

بني هاشم العربية النازلة قرب مدينة معسكر عاصمة وهران القديمة .وقد بايعته قبائل بني هاشم وغربة وبنو عامر في وهران اميراً عليها في صيف سنة ١٨٣٢م، وكان له من العمر آنذاك اربع وعشرون سنة ، الا انه كان فارساً جريئاً وقائداً عسكرياً صلباً وخطيباً مصعقاً وكاتباً فذاً .وقد حصل على ثقافة دينية وقام برحلات واسعة إلى الحجاز والعراق ومصر ، حيث تركت اصلاحات محمد علي باشا في نفسه تأثيراً مهماً .ويمر تاريخ الامير عبد القادر بمرحلتين متميزتين الاولى تبدأ من مبايعته وتنتهي في سنة ١٨٣٩م حين بلغت ثورته ذروتها بعد ان حرر ثلثي الجزائر تقريباً والثانية تبدأ سنة ١٨٣٩م وتنتهي بسنة ١٨٤٧م حتى اضطره الفرنسيون إلى تسليم نفسه .

لقد ابدى الامير عبد القادر الجزائري استعداده لتحرير التراب الجزائري من دنس المستعمرين الفرنسيين .وواجهت في ذلك صعوبات عديدة كان عليه اجتيازها وفي مقدمتها التغلب على الانقسام القبائلي واخماد النزاعات القبلية وتوحيد الشعب الجزائري وراء قيادته بهدف الدفاع عن استقلال الوطن . وقد نجح الامير عبد القادر في ذلك والتف حوله الجزائريون وقد اظهر براعة في رسم الخطط العسكرية وتنفيذها ، وكان يعتمد على التكتيك التقليدي المتمثل بحرب الانصار وعدم مواجهة العدو في الميدان المكشوف واستخدام عنصر المباغتة . وقد اتخذ من مدينة معسكر عاصمة ونظم منها الادارة واقام بعض مصانع الذخيرة والسلاح واستطاع ان يحرر ميناء ارزو شمال شرق وهران ، وذلك للاستفادة منه في استيراد السلاح وايصال صوته إلى الدول الاجنبية .

لجأ الامير عبد القادر في بعض الاحيان إلى مهادنة الفرنسيين وذلك لكسب الوقت واستكمال قوته وتجهيز انصاره بالسلاح . وقد حدث ذلك حين وافق على عرض السلطات الفرنسية ، بعد ان تكبدت قواتها هزائم عديدة، باجراء المفاوضات ، ففي ٢٨ شباط سنة ١٨٣٤م وقع مع الفرنسيين هدنة رضي بموجبها بوقف القتال واطلاق سراح الاسرى الفرنسيين وفتح

واجه الغزاة في هذه المرحلة مقاومة عنيفة في جبهتين الاولى جبهة وهران التي قادها الامير عبد القادر وجبهة قسنطينة التي تزعمها احمد بك حاكم قسنطينة الذي استطاع الاحتفاظ باستقلال الاقليم الشرقي طوال هذه الفترة . لذلك حاول الفرنسيون احتلال مدينة معسكر الا أنهم فشلوا في ذلك ، ففكروا عندئذ في مهادنة عبد القادر مرة أخرى ، وقد وافق على ذلك رغبة منه في التفرغ لبسط سيطرته على الجزء الاكبر من الجزائر حتى الصحراء الكبرى . وقد انتهت المفاوضات بتوقيع معاهدة (تافنا) في ٣٠ ايار سنة ١٨٣٧م وبها تركت مدن الجزائر ووهران ومدن ساحلية اخرى للفرنسيين بينما ظلت بقية الاقاليم بيد الامير عبد القادر وتمثل ثلثي اراضي الجزائر تقريباً .

استفاد الأمير عبد القادر من تلك المعاهدة في تثبيت حكومته وتوحيد قوى الشعب العربي في الجزائر وتعبئته ضد الغزاة ،واخذ يستعد لخوض الجولة الجديدة .وفي الوقت نفسه ، فان الفرنسيين وافقوا على المعاهدة ، حتى يكونوا قادرين على تحشيد قواهم للهجوم على قسنطينة ، حيث توجد البؤرة الثانية للمقاومة ضد الفرنسيين .

شن المحتلون الفرنسيون حملة واسعة النطاق لأحتلال مدينة قسنطينة وقد تمكنوا في الاول من تشرين الاول سنة ١٨٣٧م من احتلال قسنطينة، بعد ان واجهوا مقاومة عنيفة من سكانها ،ثم تفرغوا بعد ذلك لمواجهة الأمير عبد القادر .

منحت السلطات الفرنسية المستوطنين الاجانب مساحات واسعة من الاراضي الزراعية في الجزائر . وقد زاد عدد هؤلاء حتى وصل سنة ١٨٣٩م إلى (٢٥,٠٠٠) نسمة معظمهم من الفرنسيين ، وعدد قليل من الاسبان والمالطيين . وكان توسع الفرنسيين في المنطقة المحيطة بمدينة الجزائر يعد نقضاً لاتفاقهم مع الامير عبد القادر الذي قرر بعد تموز سنة ١٨٣٩م اعلان الحرب الشاملة خاصة بعد ان شرعت قبائل منطقة شرقي الجزائر

بخوض حرب الانصار ضد الغزاة واعترفت بعبد القادر اميراً لها وفي نيسان سنة ١٨٤٠م حرر الامير عبد القادر مدينتي (مليانة) و(ميديه) ؛ وبدأت حرب مدمرة شنها الجنرال (بوجو) الذي عد السلب والنهب من وسائل الحرب المشروعة في الجزائر. وقد قدرت القوات الفرنسية التي حشدت ضد الامير عبد القادر بنحو (٧٠) الف جندي . كان الجيش الفرنسي يتزايد حتى بلغ سنة ١٨٤٤م (٩٠) ألفاً ووضع الجنرال (بوجو) شعاراً يتلخص باخضاع العرب وتركيز العلم الفرنسي في كل اقطار المغرب العربي وكان يدعو الى تثبيت سياسة الاستيطان في الجزائر، بيد ان الامير عبد القادر استطاع مواجهة القوات الفرنسية بفضل قوة ايمان مقاتليه بقدرتهم على تحرير بلادهم من جهة ، وللتكتيك الذي اعتمد حرب الانصار من جهة اخرى، والى شيء من هذا يشير الامير عبد القادر نفسه في رسالة وجهها الى القائد الفرنسي اذ يقول: «عندما يهجم جيشك نتراجع وعندما يضطر جيشك الى التراجع سنعيد الكرة، ونقاتل عندما نرى لزوم ذلك، وانت تعرف اننا لسنا جبناء الا أننا لسنا بالاغبياء لنعرض انفسنا لطعنات جيشك ، وسنحاول انهاكه وتمزيقه وتدميره قطعة فقطعة».

قرر الجنرال بيجو استخدام تكتيك جديد في حربه ضد الامير عبد القادر عرف باسم «الطوابير المتحركة» فاختار من (٩-١٢) طابوراً تتحرك في وقت واحد نحو الأهداف المرسومة لها . وكان همهم الوحيد بعد وصول امدادات عسكرية كبيرة اليهم في سنة ١٨٤٢م هو العثور على مركز المقاومة لذلك اتبعوا اساليب وحشية لأرهاب الشعب الجزائري، وابادوا القبائل الموالية لعبد القادر، وبشهادة بعض المشتركين من الفرنسيين في تلك الحملة، فان الفرنسيين قاموا بقطع آذان الاسرى وسبوا النساء وقتلوا الاطفال واستولوا على قطعان الماشية واستبدلوا النساء السبايا بالخيول او عرضوهن في المزاد العلني. وكتب احد المعاصرين قائلا: «ان قطع رأس الاسير علانية لتلقين العرب درساً في احترام السلطة كان أمراً هيناً لدى الفرنسيين» لذلك ساد

٢٤ محرم ١٢٨٠/٥/١٠

الخراب المناطق التي كان الغزاة يمرون بها.

وفي أيار سنة ١٨٤٣م توصل الفرنسيون الى معرفة مركز المقاومة الجزائرية وذلك قرب واحة بوغار جنوبي وهران وكان يضم اكثر من مائتي الف مقاتل ينتمون الى اثنتي عشرة قبيلة جزائرية. وبعد سلسلة من المعارك كان اخرها معركة سيدي يحيى، اضطر الامير عبد القادر الى الانسحاب في تشرين الثاني سنة ١٨٤٣م الى داخل اراضي مراكش، ومن هناك اخذ يوجه المعارك ضد المستعمرين الفرنسيين.

عاد الامير عبد القادر الى الجزائر سنة ١٨٤٥م وانتشرت الثورة مرة اخرى في جميع مناطق وهران الجنوبية. فقد اعلن (بومعزة) زعيم وادى الشلف تأييده للامير وفي ربيع سنة ١٨٤٦م قضى الفرنسيون على مقاومة بومعزة وعلى مقاومة نائبه في اقليم قسنطينة مصطفى بن سالم وانسحب الامير عبد القادر ثانية الى الاراضي المراكشية ، ولكن سلطان مراكش مولاي عبد الرحمن تردد في قبوله وبدأ يعمل على طرده بالقوة استناداً الى صلح طنجة الذي وقعه مع الفرنسيين في ١٠ ايلول ١٨٤٤م وتعهد فيه بالامتناع عن تقديم أية مساعدة للثوار الجزائريين . لذلك اضطر الامير الى القاء السلاح سنة ١٨٤٧م . وسلم نفسه للفرنسيين الذين اخذوه أسيراً الى باريس، وبقي هناك، ثم رحل الى دمشق وتوفي فيها سنة ١٨٨٣م .

لم يستسلم الشعب العربي في الجزائر نهائياً بعد اضطرار الامير عبد القادر على الاستسلام . اذ سرعان ماظهرت مراكز جديدة للمقاومة واشتهرت قبائل عديدة بمقاومة الفرنسيين لعل من اشهرها قبائل ولد سيدي شيخ جنوب وهران التي كان لها فضل الاستبسال في مقاومة الفرنسيين طيلة سنوات عديدة . ولكن من ابرز حركات المقاومة تلك التي قام بها العرب الجزائريون عندما رفض جماعة من المجندين الجزائريين النزول الى المراكب التي كان من المفروض ان تنقلهم الى فرنسا في ١٨ كانون الثاني سنة ١٨٧١م. وظهرت دلائل الثورة اولاً في موانى قسنطينة الشرقية ، مثا

بجاية وعنابة . وامتدت بعد ذلك الى تبسة في داخل الاقليم . ويبدوان هزائم الفرنسيين امام الالمان سنة ١٨٧٠م قد شجعت الجزائريين على الثورة .

تزعم ثورة سنة ١٨٧١م محمد بن احمد مقراني قائد بلدة ميجاني في اقليم قسنطينة . وحرر الثوار المنطقة الممتدة حتى وادي المتيجة شرقي مدينة الجزائر من المراكز الفرنسية العسكرية التي اقيمت فيها منذ سنة ١٨٥٧م ولكن الاميرال كيدون ، الحاكم العسكري الفرنسي الذي عين في نيسان سنة ١٨٧١م استخدم العنف والقسوة في قمع الثورة ، فسقط محمد مقراني شهيداً في معركة وادي سفلة وخلفه اخوه بومرزاق ، الذي اضطر الى نقل مركز القتال الى الواحات الجنوبية ، بعد ان اشتد الضغط الفرنسي عليه في صيف سنة ١٨٧١م. وحين واجه بومرزاق التفاف القوات الفرنسية خلف خطوط دفاعه في واحتي (ورغلة) و(توكرت) اضطر الى التسلم في مطلع سنة ١٨٧٢م .

تميزت الفترة التي اعقبت ثورة سنة ١٨٧١م بمحاولات المستعمرين الفرنسيين تشجيع الهجرة الجماعية الفرنسية الى الجزائر وذلك لترجيح كفة التوازن البشري لصالح المستوطنين الذين اخذوا يحصلون على الاراضي الخصبة . وقد نشطت حركة الهجرة بين سنتي ١٨٧١و١٨٨١م اذ ارتفع عدد المستوطنين من (٢٤٦) الف نسمة الى (٣٧٦) الف نسمة سنة ١٨٨١م اي بمعدل ١٣ الفاسنوياً . علماً بان نفوس الجزائر كانت تقدر سنة ١٨٧١م بـ(٢و٥) مليون نسمة . كما تحولت الجزائر الى سوق للبضائع الفرنسية ، ومصدر كبير للمواد الاولية والغذائية وكان جل اهتمام الرأسماليين الفرنسيين منصباً على بيع بضائعهم المصنعة بأبهض الاسعار وشراء المواد الاولية والغذائية بارخصها . ويبين الجدول التالي الخلل الذي اصاب الميزان التجاري الفرنسي في عهد الاحتلال الفرنسي والذي يعد مظهراً من مظاهر السياسة الاستعمارية فيها (المتوسط السنوي بمليون فرنك) .

السنوات	الوارد الى الجزائر	الصادر منها
١٨٣٠ — ١٨٤٠	١٥	٢,١
١٨٤١ — ١٨٥٠	٧١,٩	٣,٧
١٨٥١ — ١٨٦٠	٨٠,٨	٣١,٤
١٨٦١ — ١٨٧١	١٧٢,٦	٨١,٦

هذا وقد صادرت الادارة الفرنسية في الجزائر بموجب قوانين جائرة صدرت بين سنتي ١٨٦٣ و١٨٧٠ م مليون هكتار من الاراضي الزراعية الخصبة وزعت على المستوطنين الفرنسيين . هذا فضلا عن الاراضـــي الواسعة التي ابتاعها المستوطنين من مالكيها المحليين . وفي عهد نابليون الثالث جرى على نطاق واسع اغتصاب الاراضي الزراعية وتركيزها في ايدي الشركات الرأسمالية الفرنسية الكبيرة ذوات الامتيازات لاستثمارها ، فقد حازت شركة الجنفواز مثلا Compagnie Genevoise على (٢٠) الف هكتار من الارض الزراعية . وفي سنة ١٨٦٥م حصلت الشركة العامة الجزائرية Societe Generale Algerienne على (١٠٠) الف هكتار (الهكتار يساوي عشرة الاف متر مربع) .

كما استعملت الادارة الفرنسية سياسة عرفت بـ (الدمج) Assimillation اي : تطبيق النظم الفرنسية في الجزائر . وقد توجت هذه السياسة بصدور مرسوم سنة ١٨٨١م تم بموجبه الحاق الجزائر ادارياً بفرنسا . فشل المستعمرون الفرنسيون في التوغل داخل الاراضي الجزائرية بسبب تنامي قوة حركة المقاومة . وكانت عناصر المقاومة تتخذ من الواحات المراكشية امثال توكلت وفجيج قواعد لها ، وكثيرا ماحاول المستعمرون التوغل عسكرياً داخل الصحراء ومقاومة القبائل العربية الا انهم كانوا يضطرون الى التراجع . وكانت منطقة الجنوب الغربي الصحراوية من اكثر المناطق مقاومة للغزاة .

لم يتوقف الجزائريون عن النضال . وفي مطلع القرن العشرين ،

بدأ الوعي القومي العربي يتنامى بين الجزائريين وخاصة قبيل الحرب العالمية الاولى واثنائها . كما تعمقت روح النضال بين الشعب العربي هناك فصمم على الاستقلال وتحرير الارض من المستعمرين الفرنسيين . وترجع اول محاولة سياسية قام بها الجزائريون للمطالبة بحقوقهم المشروعة الى سنة ١٩١٢م حين قدم اربعة من الشبان المثقفين عريضة الى الحكومة الفرنسية يطالبون فيها برفع القوانين الاستثنائية واعطاء الجزائريين حقوقهم . كما تزعم احد احفاد الامير عبد القادر وهو خالد محيي الدين وكان ضابطاً في الجيش الفرنسي ، تنظيماً سياسياً عرف باسم (وحدة النواب الجزائريين) واصدر جريدة ناطقة بلسان هذا التنظيم ، وهي جريدة (الاقلام) . ومع هذا فقد ظلت هذه النشاطات السياسية محدودة حتى اندلاع الثورة الجزائرية الكبرى سنة ١٩٥٤م ، والتي اعتمدت اسلوب الكفاح المسلح لتحرير الجزائر وانقاذها من النير الفرنسي .

الاحتلال الفرنسي لتونس ١٨٨١ :

اخذ الفرنسيون بعد احتلالهم الجزائر يعملون من اجل السيطرة على تونس ، وقد اتخذوا من انتقال بعض القبائل العربية التونسية عبر الحدود الجزائرية ذريعة للغزو بحجة مساعدتها للثوار الجزائريين . ومما هو معروف فأن مصير تونس قد تقرر في مؤتمر برلين سنة ١٨٧٨ ، كما سبق ان قدمنا وذلك نتيجة المساومة التي تمت بين فرنسا وبريطانيا والمانيا ، اذ وعد البريطانيون بانهم لن يقفوا امام الفرنسيين في حالة استيلائهم على تونس وفي الوقت نفسه ، وافق الفرنسيون على قيام البريطانيين باحتلال قبرص وقد ساند الالمان مخططات الفرنسيين واطماعهم في المغرب العربي من اجل اضعاف مركز الايطاليين الذين ادعوا حقهم في السيطرة على تونس من جهة ولاجل ابعاد الفرنسيين عن التفكير في استعادة الالزاس واللورين أو التفكير في شن حرب انتقامية ضد المانيا بعد الهزيمة التي الحقها بهم الالمان سنة ١٨٧٠م .

عانت تونس من حالة ضعف كبيرة نتيجة لتدخل الدول الاجنبية في شؤونها وخاصة فرنسا التي استفادت من الحقوق التي حصلت عليها من خلال الاتفاقيات التجارية مع الدولة العثمانية . وسرعان ما ازدادت محاولات القناصل الاجانب للاهتمام برعاياهم وتمكين شركاتهم من الحصول على الامتيازات في تونس . وتوريط السلطات التونسية في الديون الباهظة وتحميها الفوائد الكبيرة لتستطيع من خلالها السيطرة على مقدرات البلاد الاقتصادية. ففي سنة ١٨٦١م حصل الفرنسيون على بعض الامتيازات الاقتصادية ومنها امتاز توسيع ميناء تونس وانشاء سكك الحديد واقامة خطوط التلغراف في البلاد. واثر ذلك منح الاجانب حق حيازة الارض في تونس وسرعان ما أخذت البنوك الاوربية تفرض على تونس قروضاً جائرة وقد حدث هذا في وقت واحد مع التغلغل الراسمالي الاجنبي في الدولة العثمانية. ففي سنة ١٨٦٢م بلغت سندات الدين المترتب على باي تونس مبلغاً باهظاً قدره ٢٨ مليون فرنك. وصارت البلاد على حافة الافلاس، فاستغل اتحاد البنوك الفرنسية هذا الوضع وعرض على الباي قرضاً مقداره ٣٥ مليون فرنك، فاستحسن الباي هذا العرض ، وابرمت إتفاقية اللازمة في ٦ أيار سنة ١٨٦٣. ومع ذلك فقد تبين بان اتحاد البنوك هذا قد حسم ١٠ ملايين فرنك من هذا القرض ودفع من الكمية الباقية التي بلغت ٢٥ مليون فرنك، حوالي ٢٠ مليون فرنك على شكل بضائع كاسدة . ولم يستلم الباي نقداً الا ٥٦٤٠ الف فرنك سلمت حالاً لتسديد دفع اقساط الديون الجارية والتزمت تونس لقاء ذلك بدفع (٦٣) مليون فرنك طيلة عشر عاماً وكذلك دفع عمولات مقدارها ١٣ مليون فرنك.

تدهورت الاوضاع الاقتصادية في تونس وتطلب تسديد القروض الاجنبية موارد جديدة ، لذلك اضطرت السلطات التونسية الى مضاعفة (جزية النفوس) او مايعرف بالمجبي وجعلتها ثلاثة اضعاف في بعض المناطق الامر الذي ادى إلى حدوث تذمر شديد تحول فيما بعد الى انتفاضة شعبية

سنة ١٨٦٣م بقيادة علي بن غذاهم الا ان السلطات تمكنت من قمع هذه الثورة سنة ١٨٦٤م،وقد تفاقم لذلك الوضع المالي فالتجأ الباي مرة ثانية الى البنوك الاجنبية ليقترض منها سنة ١٨٦٥م مبلغ (٢٥) مليون فرنك ولضمان هذا القرض. وضعت جمارك البلاد تحت ادارة المرابين الاجانب. وفي سنة ١٨٦٩م استغلت الدول الاوربية الافلاس المالي الذي حل بحكومة الباي، فألفت لجنة مالية دولية للاشراف على موازنة تونس وأسهم في هذه اللجنة ممثلون عن المرابين الفرنسيين والانكليز والمالطيين والايطاليين. ولعبت فرنسا دوراً قيادياً في هذه اللجنة. وقد حدد المبلغ الاجمالي للدين التونسي بمقدار (١٢٥) مليون فرنك، وكان على تونس ان تدفع لفرنسا (٥٪) منه اي مايوازي نصف نفقات تونس. كما وضعت جميع واردات الجمارك تحت تصرف اللجنة المالية الدولية وتعهدت السلطات التونسية باكمال المبلغ في حالة عدم كفاية تلك الواردات.

لقد حاول الباي محمد الصادق (١٨٥٩– ١٨٨٢م) وقف التغلغل الاقتصادي الفرنسي، والحيلولة دون وقوع تونس فريسة بيد الفرنسيين الا ان القنصل الفرنسي روستان قام بدورمهم في التمهيد لغزو تونس حين طالب حكومته باتخاذ موقف حازم من الباي واجباره على الرضوخ لارادة الفرنسيين ومنحهم تسهيلات مالية جديدة . وقد رأى روستان أن مصالح الفرنسيين تقضي استغلال الخلافات التي كانت تحدث على الحدود الجزائرية التونسية من جراء انتقال قبيلة بنوخمير التونسية عبر الحدود، فادعى بأن ذلك مُخل بالامن في الجزائر ، ولابد من ردع القبائل . وقام الفرنسيون باعلان ذلك في الصحف بالشكل الذي يناسبهم ، بهدف تضليل الراى العام وأخفاء أطماعهم وغاياتهم الحقيقية التي استهدفت احتلال تونس هذا فضلا عن تحريضهم الجاليات الفرنسية في تونس لرفع عريضة في ١٤ آذار سنة ١٨٨١م الى الحكومة الفرنسية ، يطالون فيها بتدخل فرنسا السريع لضمان حقوق الرعايا الفرنسيين وأموالهم . كل ذلك لاجل خلق

معاهدة باردو ٢٤/٥/١٨٨١

الحجج والذرائع للتدخل العسكري وفي ٢٤ نيسان سنة ١٨٨١م بدأت القوات الفرنسية باجتياز الحدود التونسية بعد أن جهزت تجهيزاً كاملا وقسمت الى ثلاث فرق كل واحدة منها بقيادة جنرال ، والجميع تحت قيادة الجنرال (فور جيمول) وبعد مقاومة ضارية وقعت بعض المناطق بيد الفرنسيين ومنها منطقة (فخ الكحلاء) و(حجر منقورة) و(كاف شراقه) ولم تمض فترة قصيرة حتى سقطت قلعة (الكاف) واستطاع الفرنسيون الانطلاق منها نحو مناطق اخرى داخل البلاد ، واثناء ذلك وصلت ميناء بنزرت في الاول من ايار سنة ١٨٨١م قوات بحرية فرنسية بقيادة بريار ، الذي توجه نحو تونس العاصمة على رأس قوة عسكرية ، والتقى بالقنصل الفرنسي روستان ودخلا قصر باردو في ١٢ ايار ١٨٨١ وتقابلا مع الباى محمد الصادق وقدما له نص معاهدة الخضوع التي عرفت بمعاهدة باردو وأعطياه مهلة قصيرة أمدها خمس ساعات لقبول المعاهدة أو رفضها . وبعد ساعتين خرج الباى محمد الصادق وقد وقع على المعاهدة التي قضت على استقلال تونس.

نصت المعاهدة المؤلفة من عشرة بنود على (١) أن الاحتلال مؤقت (٢) وأن القوات الفرنسية سوف تتركز في مناطق الحدود والسواحل ، (٣) وأنها سترحل حالما تصبح «الادارة المحلية قادرة على المحافظة على استتباب الامن العام» . (٤) وانه لايحق للباى عقد معاهدة مع اية دولة اجنبية الابموافقة فرنسا وعلى (٥) حكومة الباى «لاجل صيانة ممتلكات الجمهورية الفرنسية بالقطر الجزائري من تهريب الاسلحة والذخائر» ان تتعهد بمنع ادخال الاسلحة والمعدات العسكرية الى جزيرة جربة ومرسى قابس والمراسي الاخرى في تونس . (٦) وسينوب عن الحكومة الفرنسية وزير مقيم فرنسي يراقب تنفيذ المعاهدة . (٧) وفي مقابل ذلك فقد تعهدت فرنسا بحماية الباى واسرته . (٨) وبموجب هذه المعاهدة كذلك ، اعلنت فرنسا بانها الدولة الضامنة لتطبيق الاتفاقات المعقودة بين تونس من جهة وبين الدول الاوربية من جهة اخرى. (٩) كما ان ممثلي فرنسا الدبلوماسيين وقناصلها اصبحوا

مخولين بالمحافظة على مصالح الرعايا التونسيين في الدول الخارجية. وبذلك فان فرنسا بتوقيعها مع تونس بالقوة معاهدة ١٨٨١ جرّدت تونس من شخصيتها السياسية وحرمتها من ممارسة علاقاتها الخارجية بشكل مستقل، وهذا العامل بحد ذاته يفقد الدولة أهم مظهر من مظاهر السيادة .

قاوم الشعب العربي في تونس ، المعاهدة وتفجر غضباً على الباي واسرته الذين خانوا الوطن وباعوه للفرنسيين، وسجل الشعر الشعبي هذه المشاعر التي فاضت بها البلاد، وألهبت حماسة الجماهير ومن ذلك قصيدة من النوع المخمس انتشرت وذاعت في جميع انحاء تونس انذاك ومنها الابيات التالية:

الباي باع الوطن بيع الشوم   باعث علينا يلوم
قال افرحوا بامحالْ ولد الرومْ
باردوا تملّك بيهْ   يحوم على الابكار من ترضية
الباي باع الوطن باعه بيع   ماعاد له ترجيع
والكاف ولي في الكلام يطيع
لامن توقف فيه   بنزرت خالي وراحت اماليه
الباي باع الوطن بالتصحيح   ماعاد فيه مليح
واللي عينه في الجهاد يصيح
الجنة نفتحت ليه   يرفع سلاحه والوطن يفديه

ان ماجاء في القصيدة يدل دلالة واضحة على ان الشعب كان يتهم الباي بخيانة الوطن، وانه باع الوطن بثمن بخس ولم يكتف بذلك بل صار يلوم كل من يرفع سلاحه بوجه الاجنبي ويقول يجب ان تفرحوا بجيوش الفرنسيين (ولد الروم) والباي جالس في قصر باردو يبحث عن الفتيات الابكار، ليختار منهن من ترضيه كناية عن عدم اهتمامه بالشعب ، وقد

استجابت قلعة الكاف وبنزرت لدعوة الباي فاستسلمت للغزاة ، لذلك ، فعلى الشعب ان يناضل ضد الغزاة.

لقد تفجرت المقاومة الشعبية في وجه الاحتلال، وظهر زعماء شعبيون أبرزهم علي بن خليفة الذي ظل يقاتل الغزاة في قابس حتى استشهد سنة ١٨٨٤م، وعلي بن عمار قائد اولاد عيار في منطقة الكاف والقائد حسين بن مسعي في القيروان، والحاج حوات في القصرين، واحمد بن يوسف في قفصه ومحمد كمون في صفاقس .

* ومهما يكن من امر، فقد تبلور نتيجة الكفاح ضد الاحتلال الفرنسي موقفان: الاول موقف استسلامي مشين من جانب الباي وحاشيته . والثاني جانب المقاومة البطولية الشعبية للاحتلال. وقد ظل هذان الاتجاهان ملازمين للحركة الوطنية التونسية طوال فترة النضال الوطني. وسيفرز الاتجاه الاول الشكل المعروف تأريخياً للحركة الوطنية والذي تمثل في اسلوب المفاوضة والتصالح مع المحتلين والمطالبة بالاصلاحات الجزئية ويمثل هذا الاتجاه التونسيون الذين غلبت عليهم الثقافة الفرنسية .

* واصلت القوات الفرنسية زحفها لاحتلال بقية الموانيء والمدن التونسية فضرب اسطولها قابس وصفاقس بالمدافع، وتقدمت باتجاه القيروان التي تركزت فيها حالة المقاومة لتستخدم في السيطرة عليها ابشع أساليب التنكيل والبطش بالسكان ومما زاد من قبضتهم وسيطرتهم على البلاد فرضهم معاهدة المرسى على باي تونس الجديد على الثالث (١٨٨٢– ١٩٠٢م) في ٨ حزيران سنة ١٨٨٣م. وقد وضعت هذه المعاهدة مقدرات تونس الاقتصادية بيد المستعمرين الفرنسيين كما تم من خلالها فرض الحماية على تونس حيث التزم الباي بان يقوم بالاصلاحات الادارية والمالية والقانونية فقط، التي تعدها حكومة فرنسا مفيدة. كما منع الباي من عقد القروض مع الدول الاجنبية بدون الحصول على تفويض من الحكومة الفرنسية وقد حصلت فرنسا على صلاحيات واسعة في الحقل الداخلي منها تنظيم القضاء والادارة

والمالية مما حرم تونس حتى من الحقوق التي كانت تتمتع بها في تنظيم وادارة شؤونها الداخلية.

عارض الوطنيون التونسيون معاهدة المرسى التي حولت تونس الى مستعمرة فرنسية وتكونت حركة مقاومة قوية تزعمها الشيخ محمد بن عثمان السنوسي وعملت هذه الحركة على عقد مؤتمر شعبي في ٦ نيسان سنة ١٨٨٤م وقد قرر المؤتمر تشكيل وفد يقوم بجمع تواقيع الاحتجاج الشعبية وتقديمها الى الباي. الا ان السلطات الفرنسية سرعان ما انتبهت الى خطورة مثل هذه التحركات الشعبية، فلجأت الى اعتقال قادة الحركة ونفي بعضهم الى خارج تونس ومنهم الشيخ السنوسي نفسه، الا ان المقاومة لم تلبث ان ظهرت من جديد على يد مجموعة اخرى من شباب الزيتونة بقيادة المكي بن عزوز، وكان يعمل مدرساً في جامع الزيتونة وهو من المثقفين المتأثرين بحركة الاصلاح التي تمت في عهد خير الدين التونسي، وقد بدأ المكي بن عزوز يدعو لمحاربة الفرنسيين المستعمرين وينشر افكاره الوطنية والسياسية الرافضة للجمود والاستسلام، مما جعله يواجه مضايقة كبيرة من سلطات الاحتلال اضطرته للهجرة الى المشرق العربي. ولكنه ترك في تونس بضعة تلاميذ اكملوا خطته في المقاومة، لعل من ابرزهم الشيخ عبد العزيز الثعالبي (١٨٧٤ — ١٩٤٥م).

ينتمي الشيخ عبد العزيز الثعالبي الى مجموعة من الشباب الوطنيين التونسيين الذين تصدوا للاستعمار الفرنسي في اواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين ، وقد تعارف المؤرخون على تسميتها باسم (حركة الشباب التونسي) وتجمعت هذه المجموعة حول بعض الصحف الوطنية متخذة منها وسيلة لبلوغ اهدافها وغاياتها الوطنية ، ومن تلك الصحف جريدة (الحاضرة) التي اصدرها علي بوشوشه (١٨٥٩ — ١٩١٨م) في ٢ اب ١٨٨١م وجريدة (الزهرة) لصاحبها عبد الرحمن الصنادلي وجريدة (سبيل الرشاد) التي اصدرها عبد العزيز الثعالبي ، وقد كانت لهذه الصحف

بما تنشره من مقالات، دور كبير في بث الوعي الوطني والتنديد بالسياسة الاستعمارية. كما شعر الشباب التونسي بضرورة تأسيس جمعيات يستطيعون من خلالها نشر الوعي الوطني بين التونسيين، فتشكلت من خريجي جامع الزيتونة الجمعية الخلدونية سنة ١٨٦٩م بجهود البشير صفر (١٨٥٦- ١٩١٧م) ورفاقه. وقد اقامت هذه الجمعية علاقات مع طلبة جامع الزيتونة، واستطاعت بذلك خلق معارضة واضحة المعالم ضد الحماية بفضل العناصر الحية التي كانت تؤمن بالعمل والعلوم الحديثة وسيلة مكملة للنضال السياسي والوطني الموجه، واصبح بمقدورها مواجهة المستعمرين وقد تجسد ذلك في مواقف متعددة أبرزها احداث مؤتمر الجمعية الجغرافية الذي انعقد في تونس سنة ١٩٠٤م شاركت فيه مجموعة من الشباب العربي التونسي، والقى فيه البشير صفر كلمة وضح فيها قدرة الحضارة العربية واللغة العربية على التجديد والتطور ومجاراة روح العصر ورد على الادعاءات التي كان يروجها الفرنسيون، من ان العرب غير قادرين على مواجهة التقدم الاوربي، ومن النشاطات التي قام بها الشباب التونسي تشكيلهم لجميعة قدماء الصادقية في كانون الاول سنة ١٩٠٥م وقد استهدفت هذه الجمعية العمل على ادخال العلوم الحديثة وتأمين انتشارها في المدارس التونسية ولم تمض فترة على تأسيسها حتى التقى شبابها مع شباب الزيتونة والخلدونية وعملوا جميعاً على توحيد مسيرة كفاحهم السياسي والفكري وفق منهج يصبو الى حرية البلاد واستقلالها.

كما ظهرت تجمعات سياسية ضمت عدداً من قادة الحركة الوطنية، منهم البشير صفر، ومحمد العروي، وسالم بوحاجب، ومحمد باش حانبه وعبدالجليل الزاوشي وعلي بوشوشة ومحمد الاصرم وغيرهم. ومن هذه التجمعات (جمعية تونس الفتاة) التي تأسست سنة ١٩٠٩م، وقد تأثرت هذه الجمعية في نظامها واهدافها بحركة تركيا الفتاة التي قادت الانقلاب الدستوري سنة ١٩٠٨ على السلطان المستبد عبدالحميد الثاني وكان لهذه

الجمعية دور كبير في المقاومة العربية للمستعمرين الفرنسيين خاصة وانها كانت تتمتع بتأييد شعبي ، ومن نشاطاتها اصدارها جريدة باسم (التونسي) باللغتين العربية والفرنسية ، والتي أسهمت في دفع حركة النضال السياسي التونسي الى امام .

دخلت المقاومة العربية في القطر التونسي قبيل الحرب العالمية الاولى مرحلة جديدة، وهي مرحلة الصدام المباشر بقوات الاحتلال ، فحدثت بضع انتفاضات لعل من اهمها انتفاضة الجلاز ومقاطعة الترام .
وقعت الانتفاضة الاولى في ٧ تشرين الاول سنة ١٩١١م حين تجمعت الجماهير في مقبرة الجلاز للحيلولة دون مد سكة حديد للترام فيها بوصفها من الاوقاف الاسلامية . وقد فشلت قوات الشرطة في اخراج الجماهير من المقبرة ، واشتبكت مع المواطنين الذين فقدوا (١٤) شهيداً ، وسرعان مافرضت السلطات المحتلة منع التجول وعطلت جريدة (التونسي) الوطنية واعتقلت عدداً كبيراً من التونسيين احالت من بينهم (٧١) شخصا للمحاكمة وحكمت على سبعة منهم بالاعدام .

اما الانتفاضة الثانية فقد وقعت في العاصمة كذلك بعد مضي ثلاثة أيام على الانتفاضة الاولى ودامت قرابة شهرين وكان سببها احتجاج الشعب على شركة الترام الفرنسية وسلوكها الاستعماري العنصري البغيض تجاه عمالها التونسيين . وقد ساعدت احداث الغزو الايطالي لليبيا سنة ١٩١١م على تأجيج روح الكفاح ضد المستعمرين خاصة وان الموظفين الاداريين الفرنسيين للشركة عمدوا إلى ايذاء العمال العرب بالكلمات الجارحة والعبارات المشينة تحدياً لشعورهم القومي وسخرية من اخوانهم عرب ليبيا .

واغراقاً في التحدي كان بعض سائقي الترام يتعمدون السرعة الكبيرة في الاحياء العربية بهدف إقلاق المارة وادخال الخوف في نفوسهم . وقد بلغ غضب الشعب ذروته اثر حادثة ذهب ضحيتها طفل صغير مما أدى إلى

مقاطعة الترام مقاطعة جعلت الشركة مهددة بالافلاس ، فدفع تلك السلطات الاستعمارية إلى التدخل ووضع حد للأزمة .

تقدم قادة الحركة الوطنية بمطالبهم لانهاء المقاطعة وشكلوا لجنة ضمت علي باش حانبه ومحمد نعمان واحمد الصادق والشاذلي درغوثه ، ومحمد العروي ، وتتخلص تلك المطالب بما يلي :

١ـ طرد العمال الاجانب وابدالهم بتونسيين

٢ـ استعمال اللغة العربية إلى جانب الفرنسية في كتابة العناوين والمحطات والارشادات .

٣ـ الزام عمال السكة باحترام الركاب التونسيين .

ولكن السلطات الفرنسية، القت القبض على زعماء الحركة الوطنية وحملتهم مسؤولية المقاطعة، فتم اعتقال السيد المختار، وأبعد الصادق الزومي والشاذلي درغوثه إلى الجنوب التونسي، ونفي الشيخ عبد العزيز الثعالبي وعلي باش حانبه ومحمد نعمان وحسان قلاتي إلى باريس. وعلى اثر ذلك اشتدت حركة المقاطعة، ولم تنفرج الازمة إلا بعد تراجع السلطات الفرنسية عن قرارها وسماحها بعودة قادة الحركة الوطنية من منفاهم .

لقد اتضح بعد تلك الاحداث، أن الجماهير الشعبية وحدها هي القادرة على التصدي للأرهاب والعنف الاستعماريين بقوة ودون خوف أو تردد. كما اظهرت مدى تمسك الشعب بعروبته وقدرته على الدفاع عن حقوقه حتى الموت، وقد ظهر ذلك واضحاً في المقاومة السياسية والعسكرية للاحتلال فعلى الصعيد السياسي وقف التونسيون ضد محاولات الفرنسيين تشجيع تجنس العرب بالجنسية الفرنسية بصورة فردية وتقنين ذلك عن طريق البرلمان الفرنسي سنة ١٩١٤ . اذ وقف قادة الحركة الوطنية ضد هذا الاتجاه وأشار احدهم، وهو عثمان الكعاك إلى ان التجنس يقطع الصلة بين العربي ودينه ولغته ووطنه وان شعب تونس ظل طوال العصور محافظاً على عروبته. اما على الصعيد

ص ١٨ اشرح هذه الكلمة

العسكري فقد حدثت بضع انتفاضات في اماكن عديدة من تونس، ونعد من ابرزها، تلك التي حدثت في الجنوب مطلع سنة ١٩١٥ م وشاركت فيها قبائل بني زيد بقيادة الحاج سعيد بن عبد اللطيف ودامت سنتين كاملتين.

وفي اعقاب الحرب العالمية الاولى، إستأنف الوطنيون التونسيون نشاطهم الوطني، وشكلوا في شباط سنة ١٩٢٠ م الحزب الحر الدستوري، واوضحوا الغاية منه في «تبليغ الوطن رشده وتحريره من الاستعباد» وهكذا بدأت مرحلة جديدة في تاريخ الحركة الوطنية التونسية .

مراكش ١٨٣٠ – ١٩١٤ :

سعت فرنسا لاكمال سيطرتها على المغرب العربي وتحقيق اطماعها الاستعمارية فيه. ومع ان تاريخ التغلغل الفرنسي الاستعماري في شؤون مراكش يعود إلى ما قبل القرن التاسع عشر، الا ان هذا التدخل اتخذ صيغة استعمارية عقب الغزو الفرنسي للجزائر سنة ١٨٣٠م .فقد حاولت فرنسا التسلل إلى منطقة الصحراء الكبرى وارسلت حاميات صغيرة رابطت في واحاتها كما عملت على كسب ود بعض رؤساء القبائل، وكثيراً ما اتخذت من مشاكل الحدود وسيلة للتدخل في شؤون المغرب والضغط على حكامه.

لقد احس مولاي عبد الرحمن بن هشام سلطان مراكش «١٨٢٢ – ١٨٥٩م» بالخطر الفرنسي على مراكش، في حالة بقاء الفرنسين في الجزائر، لذلك قرر ان يمد المناضل الجزائري عبد القادر بالاموال والسلاح . فاحتج الفرنسيون على ذلك، وبلغت احتجاجات القنصل الفرنسي في طنجة منذ سنة ١٨٤٣م ذروتها عندما لجأ الامير عبد القادر الى الاراضي المراكشية . لذلك استعد الفرنسيون لمهاجمة مراكش، وحدث الاصطدام في معركة وادي أسلي، قرب مدينة وجدة في ١٤ آب سنة ١٨٤٤م. وقد اسفر الصدام عن توقيع اتفاقية تشرين الثاني سنة ١٨٤٤م التي نصت على تسريح جيش مراكش في منطقة الحدود والاعلان عن خروج الامير عبد القادر عن القانون. وفي حزيران سنة ١٨٤٥م وقعت اتفاقية اخرى تتعلق بالحدود وبموجبها عدت

الصحراء الكبرى أرضاً مشاعاً، ليست تابعة لأحد. ولكن فرنسا سرعان ما ادركت اهميتها بعد التوغل في السودان الفرنسي انذاك (مالي الحالية) وشروعها بمد خط حديدي بين الجزائر وتمبكتو وقيام ثورة (بوعمامه) في جنوبي وهران، ولجوء بعض الثوار الجزائريين إلى مراكش، فأخذت تتسلل إلى المنطقة اولاً عن طريق ادعائها حماية أحد انصارها وهو عبد السلام الوزاني، ثم ارسلت بعض الحاميات العسكرية الصغيرة للمرابطة في بعض الواحات امثال فجيج ١٨٧٠م وعين صلاح ١٨٩٩م وتوات ١٩٠٠م.

وكما حدث في تونس، فأن الفرنسيين اتخذوا من مشاكل الحدود حجة دائمة للتدخل في شؤون مراكش. ففي سنة ١٨٥٩ – ١٨٦٠م استغلوا فرصة هزيمة المراكشيين امام اسبانيا ليؤكدوا رغبتهم في دخول الاراضي المراكشية وملاحقة القبائل الجزائرية فيها ومنح بعض الزعماء المحليين الموالين لهم حق الحماية وتحريضهم على عصيان اوامر الدولة. ولم يكتفوا بذلك، بل فرضوا على سلطان مراكش الحسن بن محمد (١٨٧٣ – ١٨٩٤م) في سنة ١٨٧٧م بعثة عسكرية فرنسية بحجة تدريب الجيش المراكشي، ولكن السلطان المذكور حاول التقرب من بريطانيا اعتقاداً منه ان تقربه هذا سيحول دون تحقيق اطماع فرنسا في بلاده خاصة وأن بريطانيا عارضت منذ البداية إمتداد السيطرة الفرنسية الى مراكش كما وقفت بوجه الاطماع الاسبانية خوفاً من تحكم اسبانيا في مضيق جبل طارق.

توفي مولاي الحسن سنة ١٨٩٤م، وكان ابنه عبد العزيز قاصراً، لذلك تولى أحد الوزراء الوصاية على الابن، حتى سنة ١٩٠٠م حين باشر السلطان عبد العزيز واجباته الدستورية وكان لايزال صغير السن قليل التجربة ومع هذا شهد عهده بعض المحاولات الاصلاحية لتحديث مراكش. اذ أرسلت البعثات العلمية الى أوربا وتم انشاء مصنع للذخيرة في فاس كما تم توطيد الحكم المركزي وقمع بعض حركات القبائل سنة ١٨٩٤م ولكن سياسة الاصلاحية هذه أقترنت بتغلغل النفوذ الغربي، فقد فتحت الباب أمام المغامرين من جميع

الجنسيات الاوربية للقدوم الى البلاد ،وتدبير المؤمرات وجمع الثروات بأقصر وقت ممكن كما تسللوا الى قصر السلطان واخذوا يغرونه بمستحدثات اللهو والمظاهر البراقة من المدنية الاوربية. مما ادى الى اسرافه الشديد وتبذيره للاموال. هذا بالاضافة الى فشل النظام المالي الذي اتبعه وعدم قدرته على توفر الاموال المطلوبة للقيام بالاصلاحات ووقوف الفئات الرجعية ضد الاصلاحات وتهرب اصحاب الامتيازات من دفع الضرائب لذلك كله اضطر الى الاستدانة والوقوع في حبائل القروض الاجنبية وخاصة من المصارف الفرنسية. ففي كانون الاول سنة ١٩٠٣م وقع عقد قرضه الاول مع فرنسا ومقداره سبعة ملايين فرنك ونصف مليون وقد شجعت الحكومة الفرنسية اصحاب المصارف على اقراض حكومة مراكش. وفي سنة ١٩٠٤م حصل على قرض جديد مقداره (٦٢) مليون فرنك ولم تمض سنة ١٩٠٤م حتى بلغت قيمة القروض الفرنسية لمراكش قرابة (٧٠) مليون فرنك فرنسي.

أعدت فرنسا العدة لاحتلال مراكش وذلك حماية لمصالحها الاقتصادية والاستعمارية. فقد باتت تحتل مركزاً ممتازاً في مراكش في اعقاب ارتفاع نصيبها من تجارة مراكش الخارجية سنة ١٩٠٨م الى (٤٥٪). ومهدت بذلك بحل مشاكلها مع بريطانيا واسبانيا وهما من الدول الطامعة بمراكش فقد اعترفت للاولى باحتلالها لمصر وللثانية باحتلالها لمنطقة الريف المراكشي ولكن ظهور المصالح الالمانية في مراكش وتناميها اصبح يشكل عقبة كبيرة أمام احتلال الفرنسيين لها.

تعود المصالح الالمانية في مراكش الى اواخر القرن التاسع عشر. فقد نمت التجارة الالمانية مع مراكش ووصلت الى ٢,٥ مليون مارك سنة ١٩٠١م وفي سنة ١٩١١م وصلت قيمة الصادرات الالمانية حوالي (٢٥) مليون مارك. كما حاول السلطان عبد العزيز الاستفادة من التنافس الدولي الاستعماري فعقد صلات طيبة مع الامبراطور الالماني وليم الثاني، الذي توقف في طنجة في ٣١ اذار ١٩٠٥م والقى خطاباً اعلن فيه عن رغبته في تقوية العلاقات الاقتصادية

مع مراكش المستقلة وقد عدت فرنسا هذا الخطاب موجهاً ضد مصالحها هناك وتأزمت العلاقات الفرنسية الالمانية، ولكن سرعان ماتناست هذه الدول الاستعمارية خلافاتها، واتفقت لعقد مؤتمر دولي يتم فيه اجراء التسويات المطلوبة بشأن القضية المراكشية.

وفي كانون الثاني سنة ١٩٠٦م عقد المؤتمر الذي عرف بأسم مؤتمر الجزيرة الخضراء نسبة الى جزيرة صغيرة في ساحل اسبانيا الجنوبي وفي نيسان سنة ١٩٠٦م اصدر المؤتمر قراراته التي اعترفت ظاهرياً باستقلال مراكش لكنها اعطت للدول الاوروبية الحق في الحصول على امتيازات اقتصادية وعسكرية. وفي الوقت نفسه اخضعت جمارك مراكش للاشراف الدولي.

أثارت قرارات المؤتمر سخطاً شديداً في مراكش فكثرت الانتفاضات واعلن ماء العينين وهو زعيم ديني في جنوب مراكش، ثورة استهدفت تخليص البلاد من الضغوط الاجنبية. كما تصدى السكان للجاسوس الفرنسي الدكتور موشان في مدينة مراكش، وقتلوه في آذار سنة ١٩٠٧م وقدمت فرنسا احتجاجات شديدة الى حكومة مراكش وسارعت الى احتلال وجده، كما احتلت الدار البيضاء بسبب وقوع حادث مماثل فيها.

عندئذ عقد الوطنيون المراكشيون مؤتمراً سياسياً كبيراً في مدينة مراكش اعلنوا فيه الجهاد وخلعوا السلطان عبدالعزيز لعجزه عن حماية التراب الوطني ونودي بأخيه عبدالحفيظ بن الحسن سلطاناً سنة ١٩٠٨م، فأسرع هذا لتقديم احتجاج الى الحكومة الفرنسية للانسحاب من الاراضي المراكشية الا انها رفضت طلبه، فاضطر الى الخضوع لارادة المستعمرين وللاعتراف بكافة الامتيازات والقروض المعقودة مع السلطان عبد العزيز، وقد بدأت فرنسا بالضغط على السلطان الجديد مستغلة تردي أوضاع البلاد المالية فعرضت عليه قروضاً جديدة، ولكن بشروط قاسية في هذه المرة مثل وضع ايرادات الجمارك التي تجمع من موانئ مراكش ورسوم الشاي و ٥٠ ٪ من الضرائب العقارية بالمدن وايرادات الاملاك الاميرية تحت تصرفها

لتغطية هذه الديون . وحصلت اسبانيا على بعض الامتيازات الاقتصادية المماثلة للامتيازات الفرنسية في منطقة نفوذها فاضطر السلطان الى قبولها على مضض وبذلك فقد هيبته بسبب استسلامه لمطالب الاوربيين واطماعهم في بلاده .

اندلعت الثورة سنة ١٩١٠م ضد السلطان عبد الحفيظ وعجزت قواته بالرغم من المساعدة العسكرية التي حصل عليها من الفرنسيين ، عن أخمادها فقد دخل الجلاوي زعيم الاطلس مدينة مكناس بالتعاون مع قبائل بني مطير وامتدت الثورة الى قبيلة الشراردة وهي من القبائل القاطنة حول العاصمة فاس التي باتت مهددة منذ نيسان سنة ١٩١١م . وهنا تدخلت القوات الفرنسية لتحتل خلال شهري نيسان وايار ١٩١١م مدينتي الرباط وفاس وفي ايلول حدثت ازمة اغادير حين اعترضت المانيا على دخول سفن حربية فرنسية هذا الميناء الذي يعد داخلا ضمن منطقة نفوذها . ولكن فرنسا ساومت المانيا وتنازلت لها عن المنطقة الساحلية في الكونغوارضاء لها الامر الذي مكن فرنسا من اعلان حمايتها على مراكش في ٣٠ آذار سنة ١٩١٢م وفرضها معاهدة مهينة على السلطان عبد الحفيظ تضمنت موافقة على احتلال فرنسا لأي جزء من البلاد تراه ضرورياً للمحافظة على سلامة مصالحها الاقتصادية وقد تعهدت فرنسا بحماية السلطان ومساعدته في مواجهة أي خطر يتعرض له ويتولى المقيم العام الفرنسي مهمة تمثيل بلاده لدى السلطان وفي آب سنة ١٩١٢ م تنازل السلطان عبد الحفيظ عن الحكم لاخيه يوسف بن الحسن الذي اصبح اداة طيعة في يد المحتلين الفرنسين.

لم يكن دخول الفرنسيين فاس أو اعلان الحماية ليقف دون عزم الشعب العربي في مراكش على المقاومة والكفاح من اجل التحرير ايماناً منهم بالحرية والاستقلال لذلك لم يتحقق للفرنسيين اخضاع البلاد تماماً الا بعد مضي عشرين سنة ، استخدموا فيها اقسى اساليب البطش والتنكيل.

وخلال هذه الفترة حدثت ثورات عديدة ضد المستعمرين الفرنسيين ، لعل من اشهرها ثورة فاس في نيسان سنة ١٩١٢م أى بعد اعلان الحماية بأيام قليلة .ولكن الجنرال الفرنسي (موانييه) قمع هذه الثورة بقسوة شديدة

ومركزها الرباط والثانية منطقة نفوذ اسباني في الريف وهي المنطقة المطلة على مضيق جبل طارق ومركزها تطوان .اما منطقة طنجة فقد بقيت تحت الادارة الدولية .

المصالح البريطانية في الخليج العربي والعراق :

يرجع تاريخ التغلغل البريطاني في الخليج العربي الى العقد الاول من القرن السابع عشر وتلت ذلك مدة قرن ونصف من تاريخ البريطانيين في المنطقة قوامها الصراع المستمر مع قوى اوربية اخرى امثال البرتغاليين والهولنديين والفرنسيين ومع القوى المحلية ومنهم العرب والفرس والعثمانيون وفي بداية القرن السابع عشر نجح البريطانيون باقامة علاقات تجارية مباشرة مع فارس من خلال جهود السير انطوني شيرلي Sherely واخيه روبرت اللذين زارا بلاط الشاه عباس (١٥٨٥ – ١٦٢٩م) سنة ١٦٠٠م . الا ان جهودهما هذه كانت ضئيلة بجانب النشاط الذي بذلته شركة الهند الشرقية البريطانية في ترسيخ السيطرة البريطانية في الخليج العربي .

كانت نشاطات شركة الهند الشرقية البريطانية احد العوامل التي ادت الى التقليل من شأن موقع البرتغاليين في الخليج العربي وخلق تحالف انكليزي–فارسي. فقد تأسست هذه الشركة سنة ١٦٠٠م لتكون اداة للتوسع الاستعماري في المحيط الهندي وللمتاجرة مع المناطق المجاورة للهند ومنها الخليج العربي. وقد ارسلت الشركة بعد مدة وجيزة من تأسيسها مندوبيها الى بلاط الشاه عباس للحصول منه على تعهد بتوفير الحماية لتجارها فضلا عن تسهيلات خاصة لسفنها فكان للشركة ماارادت ،حين اظهر الشاه استعدادا للتعاون معها فأتخذت ميناء جاسك على الساحل الايراني ميناء لها . وفي ذلك الوقت نفسه ،كان الشاه عباس يفكر في طرد البرتغاليين من جزيرة هرمز التي كانت انذاك من المراكز التجارية المهمة في الخليج العربي .وحين وجد نفسه عاجزاً عن تنفيذ هذه المهمة بمفرده نظراً لافتقار بلاده الى الاسطول،

طلب من الانكليز مساعدته في ذلك ووعدهم بمقاسمتهم الغنائم في حالة تعاونهم معه في محاربة البرتغاليين . وتعهد بالسماح لهم باتخاذ هرمز مقراً لتجارتهم .. ولما كانت هذه العروض تلائم مطامع الانكليز في المنطقة . فقد تعاونوا معه واستطاعوا دحر البرتغاليين سنة١٦٢٢م وانتزاع هرمز من ايديهم. الا ان هرمز سرعان مافقدت اهميتها بعد ذهاب البرتغاليين ، وصار ميناء بندر عباس القريب منها المركز الرئيس للنشاط السياسي والتجاري في الخليج العربي مدة زادت على مئة وخمسين سنة . ثم توالت هزائم البرتغاليين ليضطروا سنة ١٦٤٣ الى الجلاء عن (الشحر) لقوة عربية عمانية وهم اليعاربة ثم عن مسقط سنة ١٦٥٠م. كما فقدوا نفوذهم في الخليج العربي.

استقر الانكليز ممثلوا شركة الهند الشرقية في بندر عباس وحصلوا على امتيازات جديدة تمنحهم الحق بشراء اية كمية من الحرير الفارسي وتصديره دون اية رسوم جمركية . وكان جل اهتمام الانكليز في تجارتهم مع الخليج العربي منصباً على جعل ايران سوقاً ملائمة لاقمشتهم الصوفية. الا ان الانكليز إضطروا الى مواجهة التنافس الهولندي في الخليج العربي وهزموا خلال الحرب التي اندلعت في اوربا بين سنتي ١٦٥٣ و ١٦٥٤م في العديد من المعارك في الخليج العربي على ايدي الهولنديين وبذا اصبحوا في موقف حرج وعانت تجارتهم في بندر عباس من التوقف التام . وقد ارتأوا ارسال الحرير الذي كانوا يشترونه من ايران عن طريق اصفهان حتى اصبح الخليج العربي برمته بايدي الهولنديين هذا فضلا عن تدهور علاقاتهم مع فارس لاسباب تتعلق بمسألة الرسوم الجمركية وتأخر الفرس عن دفع الديون المستحقة للشركة . وجاء رفض شركة الهند الشرقية البريطانية لطلبات الفرس المتكررة لتسخير الاسطول البريطاني ضد اعدائهم ليزيد من تدهور العلاقات بينهما ، وفي سنة ١٧٦٣م ترك الانكليز بندر عباس وذهبوا الى البصرة التي اصبحت المقر الرئيس للتجارة البريطانية في الخليج العربي .

لقد ادركت بريطانيا عندما تعرض نفوذها في شبه القارة الهندية للخطر بسبب حروب الثورة الفرنسية وغزو نابليون لمصر سنة ١٧٩٨م وتهديده

بعد ثلاثة ايام من نشوبها . وعندما ترامت انباء هذه الثورة الى المناطق الاخرى احتشد الالوف من المقاتلين في منطقة جبال الاطلس ، واتحدوا مع سكان الشاوية المزارعين لضرب حصار شديد حول فاس ، وقد بلغ الحصار أشده في اواخر شهر أيار .الا ان المحتلين بقيادة (بيير ليوتي) تمكنوا في حزيران ١٩١٢م من فكه .

تركزت المقاومة بعد ذلك في منطقتين الاولى في الجنوب والثانية في جبال الاطلس الاوسط ففي الجنوب حمل «هبة الله بن ماء العينين» دعوة ابيه في الجهاد والتف حوله اهل السوس .وفي ٥ آب ١٩١٢م حرر مدينة مراكش عاصمة الجنوب . وفي سنة ١٩١٣م حشد المحتلون قوات كبيرة ، استطاعت إجبار هبة الله على الانسحاب نحو موريتانيا ولم يتم للفرنسيين احتلال منطقة السوس احتلالاً كاملاً الا في سنة ١٩٣٤ م .

اما جبال الاطلس الاوسط ،وهي تقع بين الاطلس الكبير ونقاط الارتكاز في فاس والرباط فكانت اشد صموداً في المقاومة ، وساعدها على ذلك صعوبة مسالكها وقسوة مناخها . ففيها استمرت قبائل صنهاجة وزناته على المقاومة حتى سنة ١٩٣٣م.

وقد يكون من المناسب ان نشير الى ان حركة المقاومة العربية في مراكش عانت من بعض نقاط الضعف منها عدم التنسيق بين اطرافها المتعددة ، واتصاف كثير منها بالنزعة القبلية الضيقة ، وسقوط بعض القيادات الاقطاعية في الجنوب من الاطلس الكبير امثال الجلاوي والجندافي في اطار التعاون مع المحتلين . ومن هنا كانت هذه الحركات تختلف عن حركة المقاومة الكبرى التي تزعمها المناضل العربي محمد بن عبد الكريم الخطابي من سنة ١٩١٩م حتى ١٩٢٦م والتي بلغت باهدافها ومثلها مستوى الحركة القومية العامة .

ومهما يكن ، فان مراكش اصبحت قبيل الحرب العالمية الاولى مقسمة الى ثلاث مناطق ، الاولى منطقة نفوذ فرنسي وتشمل معظم مراكش

لطرق المواصلات البريطانية للشرق ،بأهمية الخليج العربي الستراتيجية ورأت فيه منذ ذلك الوقت طريقاً مهماً لسلامة امبراطوريتها في الهند . فاخذت تحاول بسط نفوذها السياسي عليه .وكان طبيعياً ان يتسلل الاستعمار البريطاني الى العراق بحكم موقعه على طريق الهند .

اخذت بريطانيا تبدي اهتماماً متزايداً بالعراق التابع للدولة العثمانية انذاك منذ النصف الثاني من القرن السابع عشر حماية للهند وتأميناً لطرق مواصلاتها وما كان يهددها .وظهر ذلك بشكل بعثات كشفية اولاً ومشاريع اقتصادية ثانياً واشتراك في لجان تحكيمية ثالثاً .تمثلت الاولى في بعثة جسني ١٨٣٠ - ١٨٣٧م وتوضحت الثانية في شركة لينج سنة ١٨٦١م ومعارضتها لمد الالمان الجزء الجنوبي من سكة حديد بغداد - برلين الى سواحل الخليج والاستئثار به اما النقطة الثالثة فقد عبرت عنها لجان التحكيم الدولية التي كانت مهمتها تثبيت الحدود العثمانية الفارسية وخاصة في الجهات العراقية من الشمال الى الجنوب .

ومهما يكن، فقد اتخذ العراق اهمية دولية خاصة في السياسة البريطانية قبل الحرب العالمية الاولى وفي اثنائها واثناء ما اعقبها من تسويات. وتتلخص تلك الاهمية في كل من القضايا الاقتصادية اولاً والقضايا السياسية والعسكرية ثانياً.

اولاً : القضايا الاقتصادية :

ويرجع نشوؤها إلى سنة ١٦٣٥م عندما وصلت اول سفينة انكليزية إلى ميناء البصرة، وفي سنة ١٧٣٣م اسس البريطانيون مقيمية دائمة لهم في المدينة المذكورة لتشرف على مصالحهم فيها. وقد ادى قيام الثورة الصناعية في اواخر القرن الثامن عشر إلى زيادة الصادرات البريطانية زيادة كبيرة مما دعا إلى البحث عن اسواق لتصريفها زيادة على ذلك فان فتح قناة السويس سنة ١٨٦٩م ادى إلى تقصير طرق المواصلات بين الشرق والغرب وتقليل

كلفة النقل البحري، واختصار المدة اللازمة لوصول البضائع إلى الاسواق وكان العراق يصدر الحبوب والرز والتمور والصوف والجلود والعفص والماشية إلى انكلترا ويستورد منها ومن الهند المنسوجات والاصباغ والمعادن والتوابل والاخشاب. وكانت لبريطانيا المنزلة الاولى في البضائع التي تصدر من العراق وتدخل اليه. فمثلا بلغت قيمة ما استورده العراق من البضائع البريطانية، عن طريق ميناء البصرة سنة ١٨٩٥ (٥٦٥ و٦٧٤) باوناً من مجموع وارداته عن طريق الميناء نفسه البالغة حوالي (١,١٤,٠٠,٠٠٠) باون استرلينياً، كما بلغت قيمة صادرات الموصل في الفترة من سنة ١٨٨٤ — ١٨٨٥ (١٥٠) الف دينار صدر ثلثاها او ما قيمته (١٧٥,٧٠٤) دنانير إلى بريطانيا. وقد اظهرت التقارير القنصلية البريطانية في الموصل للسنوات من ١٩٠٩ — ١٩١٢ ان هناك زيادة في صادرات ولاية الموصل إلى بريطانيا. ففي الوقت الذي بلغت فيه قيمة الصادرات السنوية في المتوسط تقريباً (٤٣٧,٠٠٠) باونا استرلينيا صدر منها ما قيمته (١٩٥,٠٠٠) باونا استرليني إلى بريطانيا وحدها. فقد بلغت النسبة المئوية لصادرات الموصل إلى بريطانيا في سنة ١٩١٠ (٢٨٪) وفي سنة ١٩١١ (٤٧٪) وفي سنة ١٩١٢ (٣٨٪) من مجموع الصادرات. اما النسبة المئوية لتجارة بريطانيا من مجموع تجارة بغداد سنة ١٩١٩ فقد بلغت (٣٣,٤٪) للصادرات و(٨٥,٨٪) للواردات. وكان ثمن البضائع التي صدرت من بغداد إلى بريطانيا ووردت إلى العراق سنة ١٩١٠ (٣٣٠٣٦١) جنيها استرلينيا للصادرات و (١,٣١٧,٧٦٢) جنيها استرلينياً للواردات .

وكان العراق، الى جانب كونه سوقا للبضائع الانكليزية ، طريقاً تمر به البضائع التي تستوردها ايران او تصدرها وقد قدرت المصادر الجمركية العثمانية في العراق قيمة تجارة الترانست بين العراق وايران في سنة ١٨٨٩م بـ (٥٤٠,٠٠٠) باوناً استرلينياً.

لقد اشتملت مصالح بريطانيا التجارية في العراق كذلك على رعاية مصالح الشركات التجارية البريطانية التي بلغ عددها في اواخر القرن التاسع

وقد علق الكاتب اندريه نوسشي في كتابه الذي يدور حول الصراعات النفطية في الشرق الاوسط على هاتين المحاولتين بقوله: ان البريطانيين لم يجدوا بدأ من اللجوء الى التعاون مع الالمان، بكل مايعنيه هذا التعاون من مفاوضات ومساومات صعبة وذلك لانه لم يكن في حوزتهم اى امتياز أو وعد بامتياز في اراضي الدولة العثمانية. وفي البداية كان رأسمال شركة النفط التركية (٨٠) الف باون استرليني موزعاً كما يلي:

٣٥٪ للبنك الاهلي العثماني.

٢٥٪ للبنك الالماني.

٢٥٪ لشركة النفط الانكلو – سكسونية .

١٥٪ لكولبنكيان.

وكان من اهم المواد التي احتوتها الاتفاقية هي تعهد الشركاء المؤسسين بعدم منافسة الشركة في المطالبة بامتياز للنفط في المنطقة التي تعمل فيها وعدم احقية اى من الشركاء في الحصول على امتياز خاص به ضمن منطقة امتياز الشركه. وفي اوائل حزيران سنة ١٩١٤م شرعت شركة النفط التركية بمفاوضة الحكومة العثمانية للحصول على امتياز للنفط في ولايتي بغداد والموصل.

وفي ١٩ حزيران وجدت الحكومتان البريطانية والالمانية ان توجيه الضغط الرسمي المباشر على الحكومة العثمانية اجدى من ترك الأمر الى اجتهاد الشركة وذلك لخطورة الموضوع وضخامة المصالح التي تنطوي عليها فتقدم السفيران البريطاني والالماني في استانبول بمذكرتين متماثلتين الى الصدر الاعظم سعيد حليم باشا طالبين منه منح شركة النفط التركية امتيازاً لاستثمار النفط في ولايتي الموصل وبغداد. وبعد تسعة أيام ارسل الصدر الاعظم مذكرتين بنص واحد الى كل من السفيرين البريطاني والالماني جاء فيه ان وزارة المالية العثمانية توافق على منح امتياز التنقيب الى شركة النفط التركية إلا أن عقد الامتياز او الاتفاقية النهائية الخاصة باستثمار النفط، كما جاء في

الوعد العثماني لم يوقع عليها وقد وقف الامر عند هذا الحد لان المفاوضات المتعلقة به انقطعت بسبب اندلاع الحرب العالمية الاولى. وقد استولى مراقب أموال الاجانب في بريطانيا على حصص البنك الالماني في شركة النفط التركية واخضعها للأدارة البريطانية فبدأت لذلك مرحلة جديدة من مراحل الصراع من اجل النفط العراقي بين القوى الامبريالية.

ثانياً : القضايا السياسية والعسكرية :

أشرنا فيما سبق إلى أن بريطانيا اهتمت اهتماماً كبيراً بالمحافظة على طرق مواصلاتها الأمبراطورية في الشرق وبخاصة الهند ، فوقفت بوجه المنافسة البرتغالية والهولندية والفرنسية خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر. ومن هنا جاءت مصالحها السياسية والعسكرية في العراق والخليج العربي .

لقد أضاف تقدم الملاحة النهرية في النصف الأول من القرن التاسع عشر أهمية جديدة للعراق اذ حاولت بريطانيا استخدام نهر الفرات في المواصلات بين البحر المتوسط والخليج العربي . لذلك عمدت في سنة ١٨٣٠م إلى ارسال الكابتن فرنسيس رودن جسني Chesny ليقوم بمسح نهر الفرات والتعرف على مدى صلاحيته للملاحة .

وصل جسني إلى حلب ليدرس الطريق المقترح الذي يوصل البحر المتوسط بالخليج العربي . وهبط مع نهر الفرات حتى الفلوجة ومنها ذهب إلى بغداد في نيسان ١٨٣١م. كان جسني يدرس خلال رحلته النهرية من اعالي الفرات حتى الفلوجة عمق النهر وشدة التيار فيه ويحدد مدى اتساع النهر من مكان لاخر ، والعقبات الطبيعية التي تعترض الملاحة فيه ، كما كان يجمع المعلومات التي على ضوءها يمكن استخدام البواخر في النهر .

قدم جسني ، بعد ذلك ، تقاريره الى السير ستراتفورد كاننك السفير البريطاني في استانبول والمسؤولين الأنكليز في لندن . وقد حدثت تطورات جوهرية في المنطقة جعلت كاننك يتشبث بضرورة تقوية النفوذ البريطاني

عشر (١٦) شركة. وقد سيطرت بريطانيا، عن طريق هذه الشركات على قرابة (٩٠٪) من تجارة العراق الخارجية. كما اسست في العراق فروع لعدة مصارف انكليزية لتسهيل المتاجرة واستثمار رؤوس الاموال البريطانية. وقد اسهمت تلك المصارف في تسهيل التعامل المالي. فكان في العراق فرع للمصرف الامبراطوري العثماني وهو مؤلف من رؤوس اموال انكليزية وفرنسية. وقد تأسس سنة ١٨٦٣م. وهناك كذلك المصرف الشرقي المسمى ايسترن بنك Eastern Bank ورأسماله مؤلف من اسهم انكليزية فقط. اما ادارته المركزية فهي في لندن وله فروع في بغداد والموصل.

كما اتجهت انظار العالم الرأسمالي الى العراق في اواخر القرن التاسع عشر، نتيجة لاكتشاف منابع غزيرة للنفط في ولايتي الموصل وبغداد. ونشطت الدول الاستعمارية وخاصة بريطانيا والمانيا للحصول على امتيازات من الدولة العثمانية تخولها حق التنقيب عن النفط واستخراجه وتسويقه. وبعد صراعات دولية استمرت زمناً طويلاً واتسمت بالعنف احيانا واتخذت صيغة المؤامرات الاستعمارية والمفاوضات الدبلوماسيه احيانا اخرى، اتفق الانكليز والالمان، خاصة بعد ظهور المحاولات الاميركية للتغلغل الاقتصادي في الدولة العثمانية والحصول على امتياز التنقيب عن النفط على تكوين جبهة واحدة نتيجة للجهود التي بذلها كالوست سركيس كولبنكيان، وهو مهندس أرمني الاصل عثماني الجنسية كان له دور كبير في اثارة الانتباه الى إمكانات العراق النفطية، وقد انعكست تلك الجهود في امرين اثنين اولهما تأسيس البنك الاهلي العثماني سنة ١٩١٠م برأسمال بريطاني لمعاضدة المشاريع البريطانية في الدولة العثمانية، واصبح كولبنكيان مديراً فيه وعضواً في لجنته التنفيذية. اما الأمر الثاني فقد تجسد في الاتفاق بين البنك الالماني Deutsche Bank والبنك الاهلي العثماني على تأسيس شركة الامتيازات الافريقية والشرقية المحدودة في كانون الثاني ١٩١١م والتي تحولت في ٢٣ تشرين الاول سنة ١٩١٢م الى شركة النفط التركية المحدودة Turkish Petroleum Co. Ltd

واخذتا في هبوط نهر الفرات رافعتين العلم البريطاني وفي بداية الرحلة غرقت الباخرة دجلة واستمرت الباخرة الفرات في سيرها جنوباً في وجه مقاومة عنيفة من بعض العشائر العربية التي كانت تنظر بسخط الى مثل تلك المشروعات الأجنبية . ومما يلحظ ان المسؤولين العثمانيين تجاهلوا أمر مطابقة النشاط الملاحي للبعثة مع نصوص الفرمان مار الذكر . فالفرمان لم يشر إلا الى نهر الفرات ومع هذا صعدت الباخرة في نهر دجلة حتى بلغت مدينة بغداد ثم تجاوزتها شمالاً وهبطت بعد ذلك الى مدينة القرنة . وهناك كانت سفينة انكليزية اخرى تنتظر الباخرة الفرات فتسلمت منها البريد الأنكليزي واتجهت الى نهر الفرات لتصعد فيه لأرسال البريد عبر سوريا الى الساحل ومنه الى بريطانيا ويتضح من هذا ان الأهداف الرئيسة من وراء هذا النشاط الملاحي لم تكن تجارية وحسب ، بل سياسية كذلك ، والواقع ان الانكليز قاموا بالأستفادة من كل فرصة لممارسة امتيازات لم يحصلوا عليها ، واذا ما اعترض عليهم احد إدعوا انها حقوق كانوا يمارسونها منذ وقت طويل دون اعتراض من جانب السلطان المحلية العثمانية . مما يدل على رغبتهم في وضع العراق ضمن منطقة نفوذهم الأستعماري .

كما ان هنرى لينج حصل ، كما سبق ان قدمنا ، من الحكومة العثمانية سنة ١٨٦١م على حق تسيير باخرة في المياة العراقية ، وسرعان ما اسست اسرة لينج شركة الملاحة التجارية في دجلة والفرات والتي لعبت دوراً مهماً في تثبيت المصالح البريطانية في العراق في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين .

هذا وقد بذلت بريطانيا جهوداً كبيرة لانشاء خطوط برقية تربطها بالهند عن طريق العراق والخليج العربي وفي نهاية القرن الثامن عشر ، انشأت شركة الهند الشرقية خطوطا بريدية منتظمة عبر العراق وكان البريد يحمل على ظهر السفن البحرية في بومباي إلى البصرة ومن هناك يمر ببغداد فحلب وكان ممثلوا الشركة المقيمون في بغداد والبصرة يبذلون جهوداً

كبيرة من أجل الحيلولة دون ظهور مشاريع أجنبية مماثلة لمشاريعهم في العراق .

لقد وجهت بريطانيا اهتمامها إلى تاسيس خطوط بريدية عبر العراق. اذ حفزت سيطرة الفرنسيين على قناة السويس كثيراً من الرأسماليين الانكليز على التفكير في إيجاد طريق منافس لها يكون خاضعاً للسيطرة البريطانية وقد نجح السير وليم اندرو Anderew مدير شركة السكك الحديد في الهند سنة ١٨٧١م في تأليف لجنة تضم اعظاء من مجلس العموم البريطاني، لدراسة مشروع سكة حديد الفرات، او بالأحرى لدراسة امكانات مد سكة حديد بين البحر المتوسط والخليج العربي واعدت اللجنة تقريراً اوضحت فيه أهمية المشروع وخطورته، ولكن المشروع لم يحظ بتأييد الحكومة البريطانية مما ادى إلى فشله. وكانت تكاليفه الباهظة سبباً في عدم مساندة الحكومة البريطانية له. ورغم ذلك استمر البحث في مشروع سكة حديد الفرات حتى العقد التاسع عشر ، حينما قضى عليه مشروع سكة حديد بغداد بصورة نهائية. وقد عارضت الحكومة البريطانية الامتياز الذي حصل عليه الالمان من الدولة العثمانية في اواخر القرن التاسع عشر ، لمد خط حديد بين برلين وبغداد والبصرة . ولم تتوقف معارضة المشروع الا بعد تحقيق تسوية ودية مع المانيا قبيل الحرب العالمية الاولى .

لقد بلغ ازدياد نفوذ بريطانيا في العراق حداً دفعها إلى التدخل في شؤونه الداخلية ،فعلى سبيل المثال اقترح القنصل البريطاني العام ببغداد في ١٧ حزيران سنة ١٨٨١م تدخل حكومته لاعادة تعيين ناصر باشا السعدون والياً على البصرة بحجة ان تعيينه سيضع حداً للاضطرابات التي كانت قائمة انذاك في جنوب العراق. كما تدخلت بريطانيا في شؤون ولاية بغداد، وبلغ من ازدياد مكانة بريطانيا ان صار القنصل البريطاني في بغداد، في اواخر القرن التاسع عشر، الرجل الثاني في الاهمية بعد والي بغداد.

واجه التغلغل البريطاني في العراق والخليج العربي صعوبات كبيرة ولم

في العراق بكافة الوسائل منها انتصارات محمد علي باشا في الشام ، وقد سبق ان اشرنا اليها . وقد تخوف الأنكليز من أن يصبح العراق جزءاً من الدولة العربية التي يقودها محمد علي باشا لذلك إقترح كانتك على حكومته في مذكرته المؤرخة في ١٩ كانون الأول سنة ١٨٣١م بضرورة الأسراع في الحصول على حق استخدام البواخر البريطانية في نهر الفرات . والتقط بالمرستون Palmerston وزير الخارجية البريطانية الأتجاهات الجديدة المتعلقة بأمكانية ارسال بواخر الى العراق ونقل المشروع الى أروقة البرلمان. وتشكلت لجنة من أعضاء مجلس العموم البريطاني سنة ١٨٣٤م اخذت على عاتقها دراسة الموضوع . واصدرت قراراً بارسال بعثة مؤلفة من باخرتين نهريتين إلى العراق لاختبار مدى صلاحية نهر الفرات عملياً للملاحة التجارية . واعتمدت البرلمان مبلغ (٢٠) الف باون استرليني لنفقات البعثة وتحملت شركة الهند الشرقية البريطانية مبلغ خمسة الاف باون استرليني مما يدل على تداخل المصالح السياسية والمصالح الأقتصادية . ولكي يسمح للباخرتين اللتين صنعتا خصيصاً للقيام بهذه المهمة كان لابد من استصدار فرمان من السلطان محمود الثاني بذلك ، فتقدم كانتك إلى الباب العالي طالباً الموافقة على مهمة هاتين الباخرتين مشيراً الى ان الغرض من هذه البعثة هو ربط الشرق بالغرب بخط تجاري في الفرات وترويج التجارة الدولية ولم ينس كانتك من التصريح بان بريطانيا ستستخدم الطريق عبر مصر اذا مارفض الباب العالي السماح لبعثة الفرات بالعمل ، وكان الباب العالي يخشى اتجاه بريطانيا إلى مصر ، حيث ان التفاهم البريطاني المصري يضعف من قوة الدولة العثمانية في مواجهة محمد علي باشا . لذلك أصدر السلطان في ٢٩ كانون الأول سنة ١٨٣٤م الفرمان الخاص بالسماح للباخرتين البريطانيين للعمل في نهر الفرات . وخلال ذلك تم اعداد الباخرتين ووضعتا مفككتين على ظهر السفينة جورج كانتك التي ابحرت بهما الى الساحل السوري . وفي بيرة جك اعيد تركيبهما فسميت الأولى بالفرات والثانية بدجلة .

تستطع بريطانيا بسط نفوذها السياسي والاقتصادي في هذه المنطقة بسهولة بل اصطدمت بقوى عديدة، وقد سبق ان اشرنا إلى اصطدام المصالح البريطانية بمقاومة سليمان باشا الصغير والي العراق المملوكي (١٨٠٨ – ١٨١٠م) الموالي لفرنسا، وتحت ضغط الانكليز وتأثيرهم في استانبول عزل الباب العالي الوالي المذكور بعد ان دخل في صراع شديد مع المقيم البريطاني كلوديوس جيمس ريج. اما الدولة العثمانية فقد حاولت في فترات مختلفة الوقوف بوجه التغلغل البريطاني، الا انها لم تاخذ تلك المسالة مأخذاً جدياً. فقد تخلت السلطات العثمانية، اكثر من مرة، عن متابعة مساعيها الرامية إلى كبح جماح المصالح البريطانية كما حدث مثلاً في سنة ١٨٧٤م عندما اقدمت على منع السفن البريطانية من الابحار شمال البصرة دون حصولها على موافقة منها اذ جرت في حينه مفاوضات بين السفارة البريطانية في استانبول اهملت متابعتها. وكان من عوامل فشل تلك المحاولات ضعف الحكومة العثمانية وعجزها عن مقاومة المطامع البريطانية بالقوة العسكرية.

اما في الخليج العربي، فقد اصطدم البريطانيون في البداية بالقبائل العربية ذات القوة البحرية المتميزة والحيوية العظيمة مثل قبائل القواسم على ساحل عمان وعرب مسقط وعمان وقبائل العتوب في البحرين وقطر والكويت.

لقد برز القواسم، وهم تكتل قبائل عربي استوطن المنطقة الواقعة بين رأس مسندم شمالاً وابو ظبي جنوباً ،قوة بحرية مهمة منذ اواسط القرن الثامن عشر. وقد دانت هذه القبائل بالولاء إلى الاسرة الحاكمة في راس الخيمة والشارقة. ويكتنف الغموض بدايات نشأة الاتحاد القاسمي واسماء زعمائه الاول الا ان الدراسات التاريخية الحديثة توصلت إلى ان الاتحاد القاسمي كان مؤلفاً من قبائل عديدة ابرزها بنوقتب الغفلة والخواطر والبوخريبان والمزاريع والحبوس . واهم الموانئ التابعة لهذا الاتحاد رأس الخيمة والشارقة وام القيوين وعجمان ودبي والحمرية . وتؤلف هذه المدن اليوم اتحاد الامارات العربية المتحدة. وتمثل راس الخيمة ذات الموقع الستراتيجي

المهم على الساحل العماني، قاعدة القواسم ومقر شيخهم الكبير. وقد اسهم القواسم في نقل تجارة الخليج العربي وفي بعض الاحيان كانوا يقومون برحلات تجارية إلى الهند وافريقيا .

وبالنظر لافتقار ساحل القواسم للمصادر الاساسية لقيام مستوى حياة مناسب فقد حاول القواسم الاستئثار بتجارة الخليج العربي ومنع اي قوة اخرى من مزاولة هذه المهنة او منافستهم في مواردها الامر الذي جعل المصادر الاوربية توصم نشاطهم الملاحي بالقرصنة بينما يعكس واقع الحال حيوية القواسم وروح الجرأة والشجاعة والمغامرة التي اتصفوا بها.

خضع القواسم خلال الفترة الواقعة بين سنتي (١٦٢٤ – ١٧٤٩م) إلى دولة اليعاربة في عمان وقد اشرنا فيما سبق إلى دور اليعاربة، وهم قبيلة من اصل قحطاني ، في تأكيد السيادة العربية على الخليج العربي وتحريره من النفوذ الاجنبي وذلك من خلال دولتهم التي أسهمت في طرد البرتغاليين من آخر معاقلهم في الخليج والبحار العربية . وفي بداية القرن الثامن عشر حكم اليعاربة منطقة واسعة شملت الاقسام الجنوبية من الخليج العربي وامتد نفوذهم من جنوب الجزيرة العربية وسواحل شرقي افريقيا في الغرب إلى سواحل وادي السند في الشرق، وحين ظهرت الدعوة الوهابية، تقبلها القواسم والتصقوا بها واستوعبوا مبادئها ووجدوا فيها فرصة لتوجيه ضربات قوية لسلطة حكام عمان البوسعيدين الذين آلت اليهم مقاليد الامور بعد زوال حكم اليعاربة كما ان الوهابية فيما قررته من التأكيد على (الجهاد) وجدت لها صدى ملائماً لطبيعة القواسم الحربية. اذ وجدت عملياتهم في اعتراض السفن الاجنبية مايبررها دينياً. ووفقا لذلك اصبحت مغامراتهم البحرية جزءاً من حركة النضال ضد المستعمرين الاوربيين وخاصة البريطانيين.

وقع اول تعرض قاسمي للبريطانيين في سنة ١٨٠٤م حين هاجموا بحارة بريطانيين واقتادهم اسرى إلى رأس الخيمة وفي سنة ١٨٠٥ هاجم القواسم سفينتين بريطانيتين هما شانون Shannon وتريمر Trimmer

وقد قام القواسم بتسليح السفينتين واستفادوا منها في عمليات حربية ناجحة. وفي اوائل كانون الاول ١٨٠٨م تمكن القواسم من اسر عشرين سفينة تجارية بريطانية. وخلال سنة ١٨٠٦م تزايدت جرأة القواسم حين هاجموا سفينة البحرية الملكية البريطانية لايون Lion ذات الخمسين مدفعاً، مما يدل على مبلغ استهانتهم بالقوة البريطانية.

كان لاتساع عمليات القواسم البحرية تأثير سلبي على هيبة بريطانيا وتجارتها في الخليج العربي . لذلك قرر الانكليز مواجهة القواسم وصدرت الاوامر من كلكتا في اواخر نيسان سنة ١٨٠٩م إلى الفرقاطة كورنواليس Cornwallis بالتمركـــز قرب راس مسندم ومهاجمة الاسطول القاسمي الذي قدرته المصادر البريطانية انذاك : ثلاث وستين سفينة كبيرة وثمانمائة وعشر سفن اصغر حجماً تحمل على متنها ثمانية عشر الف وسبعمائة رجل، وقد كان الامر الخطير الذي اقلق السلطات البريطانية مطالبة زعيم القواسم حسين بن علي (١٨٠٨ – ١٨١٤م) حكومة بومباي يدفع أتاوة من اجل السماح للسفن البريطانية بالمرور في الخليج بحرية .

عندئذ حشد الانكليز قوتهم وارسلوا حملة بحرية ضد القواسم في الاسبوع الاول من أيلول سنة ١٨٠٩م وقد حققت هذه الحملة انتصاراً عسكرياً على القواسم ودمرت لهم عشرات السفن وخربت ميناء راس الخيمة تخريباً تاماً لذلك اضطر شيوخ القواسم إلى التوقيع على معاهدة بوشهر سنة ١٨١٤م تعهدوا فيها بعدم التعرض للسفن البريطانية الا انهم سرعان ماعادوا الى نشاطهم البحري المضاد للمصالح البريطانية وشهدت الفترة ١٨١٧ – ١٨١٩م صراعاً عنيفاً بين القطع البحرية للطرفين امتد ميدانها من سواحل الهند الغربية حتى الخليج العربي وقد زادت الحكومة البريطانية من دورياتها المسلحة في الخليج . وقررت القيام بحملة جديدة ضد القواسم وباشرت بوضع الاستعدادات اللازمة لذلك منذ شباط ١٨١٧م مستندة إلى تقرير انجزه الكابتن روبرت تايلور Taylor مساعد الوكيل السياسي

البريطاني في العراق والذي سجل فيه بشكل مفصل موانئ القواسم وقوتهم البحرية وسفنهم القتالية وبحسب تقديرات تايلر ، كانت الموانئ القاسمية الرئيسة على الساحل العربي هي رأس الخيمة ورامس وجزيرة الحمراء وام القيوين والشارقة وعجمان ودبي وابو ظبي وبني ياس . وفي الاسبوع الاخير من تشرين الاول سنة ١٨١٩م كانت قوات الحملة المحتشدة في بومباي مستعدة للرحيل . لقد كانت هـذه القوات ، عـلى حـد وصف أرنولد ولسن ، Wilsen «اعظم تجمع لسفن بريطانية في الخليج العربـي شوهد حتّى ذلك الوقت» .

باشرت الحملة البريطانية فجر يوم ٣ كانون الاول ١٨١٩م انزالها في رأس الخيمة وتواصل القصف بعنف. وظهر للمهاجمين ان القواسم كانوا يعانون من نقص في الذخيرة وقد حاول القواسم القيام بهجوم مضاد انتحاري الا انهم فشلوا وتكررت هذه المحاولات حتّى يوم ٩ كانون الاول حين اعلن زعيم القواسم حسن بن رحمة (١٨١٤ ــ ١٨٢٠)م رغبته في التسليم على ان تضمن القوات البريطانية سلامته ، وقد اجيب على طلبته الا ان الجنرال كرانت كير Keir قائد الحملة أجبره على التوقيع على معاهدة ٨ كانون الثاني ١٨٢٠م التي وضعت حداً لنشاط القواسم. اذ وصل في اوائل شهر كانون الثاني جميع شيوخ الساحل البارزين الى معسكر كير عارضين استسلامهم وصداقتهم ، منهم سلطان بن صقر شيخ الشارقة وشخبوط بن ذياب والد طحنون بن شخبوط شيخ ابو ظبي ومحمد ابن هزاع شيخ دبي اضافة الى شيوخ عجمان وأم القيوين .

بادر الجنرال كير الى عقد اتفاقيات منفردة مع اولئك الشيوخ نصت على قيامهم بتسليم جميع سفنهم . وتبرز اهمية تلك الاتفاقيات بانها اصبحت وسيلة شرعية للانكليز لمواصلة تدمير قوى القواسم العسكرية والبحرية على طول الساحل العثماني الذي عرف في الوثائق البريطانية باسم ساحل القراصنة او الساحل المهادن. وعندما انتهى موعد الاتفاقيات في سنة ١٨٥٣م

١٨٨٠ البحرين
١٨٨٢ قطر
١٨٩٢ ساحل
١٨٩٩ كويت

رأس الحكم السلطان تركي بن سعيد (١٨٧١ – ١٨٨٨م) وكان موالياً لهم. وفي سنة ١٨٨٦م نشبت في عمان انتفاضة اخرى حاصر فيها الثوار مدينة مسقط ولكن السلطان تركي استنجد بالانكليز الذين سارعوا الى اخمادها.

لقد اثار خضوع حكام مسقط للانكليز موجة استياء واسعة في البلاد ففي سنة ١٩١٣م انتفض العمانيون بقيادة سالم بن راشد الخروصي والفوا حكومة مستقلة واتخذوا من نزوى عاصمة لهم وقد استطاع الثوار تحرير جميع اراضي عمان ماعدا مسقط والمناطق الساحلية التي ظلت تحت حماية الاسطول البريطاني.

اما في عدن فقد واجه الانكليز انتفاضات مماثلة ففي سنة ١٨٤٠م حدثت انتفاضة عارمة، لم يكد الانكليز يقضون عليها حتى نشبت انتفاضة اخرى في سنة ١٨٤٦م. وفي سنة ١٨٤٩م تسلم الحكم في لحج السلطان علي فأرسل قواته لمحاربة الانكليز في عدن سنة ١٨٥٨م الا ان قواته منيت بالهزيمة فاضطر الى الاعتراف بالنفوذ البريطاني في عدن.

وفي سنة ١٨٦٧م رفضت القبائل العربية الثائرة في جنوب الجزيرة العربية الاعتراف باستيلاء بريطانيا على عدن فارسل الانكليز حملات عديدة ضدهم وفي سنة ١٨٦٩م احتل الانكليز سلطنة لحج وسرعان ماخضعوا بعد ذلك جميع مشيخات الجنوب العربي المجاورة الى مستعمرة عدن، كما سبق ان قدمنا، وفي الوقت ذاته شرعت بريطانيا بالاستيلاء على حضرموت، وتحت فوهات المدافع البريطانية تخضع سلاطين وشيوخ حضرموت الواحد تلو الاخر.

وفي اواخر القرن التاسع عشر استطاعت بريطانيا بوسائل عديدة تقوية مواقعها في الخليج العربي. ففي سنة ١٨٨٠م فرضت معاهدة جديدة على البحرين وفي سنة ١٨٨٢م استولت على شبه جزيرة قطر وفي سنة ١٨٩٢م عقدت سلسلة من المعاهدات مع شيوخ الساحل العماني وفي ١٨٩٩م وجهت

اهتمامها الى الكويت بعد حصول الالمان من الدولة العثمانية على امتياز سكة حديد تمتد من قونية الى بغداد والخليج العربي وكانت مشكلة ايجاد ميناء مناسب على الخليج العربي يصلح كطرف شرقي لسكة حديد بغداد هي السبب في بروز ماعرف بالمشكلة الكويتية الى الوجود بين بريطانيا من جهة والمانيا والدولة العثمانية من جهة اخرى. ولما كانت اهمية الكويت بالنسبة لبريطانيا في دفاعها عن الهند توازي اهمية كل من جبل طارق ومالطة وقناة السويس وعدن بالنسبة للاتصالات الامبراطورية، فقد وقفت ضد المشروع وسارعت الى عقد معاهدة ٢٣ كانون الثاني ١٨٩٩م مع مبارك الصباح شيخ الكويت (١٨٩٦– ١٩١٥م). وفي هذه المعاهدة تعهد الشيخ مبارك وخلفاؤه بوضوح ، بالا ينقلوا اي جزء من اراضيهم تحت اي ظرف الى سيادة اية دولة اجنبية او أحد رعاياها دون الموافقة المسبقة من الحكومة البريطانية، وفي الوقت نفسه تعهدت الحكومة البريطانية بان تساندهم وتمنحهم وظائف مناسبة ، طالما تمسكوا (مبارك واولياء عهده وخلفاءه) . بالمعاهدة. كما تعهدت بريطانيا بعدم التدخل في شؤون الكويت الداخلية وقد نقلت هذه المعاهدة الكويت كما يرى المؤرخ الفلسطيني الدكتور أحمد حسن جودة من مجرد مشيخة صغيرة مجهولة الى دولة ذات كيان سياسي ، وعلاقات دولية وهكذا ساعدتها تلك المعاهدة والتنافس الدولي الذي نشب حولها بعد ذلك على الاحتفاظ بكيانها السياسي حتى نهاية الحرب العالمية الاولى .

الاحتلال البريطاني لمصر ١٨٨٢م والثورة العرابية :

اشرنا فيما سبق الى ان بريطانيا اصبحت اكثر ادراكاً لمصالحها الاستعمارية في مصر في اعقاب الغزو الفرنسي لها ومع أنها حاولت غزو مصر سنة ١٨٠٧م لكنها فشلت في ذلك ومن ناحية اخرى فان تقليص نفوذ محمد علي باشا بموجب معاهدة لندن ١٨٤٠م لم يلغ الخطط البريطانية لاحتلال مصر ذلك ان بريطانيا شعرت بأهمية مصر كقاعدة للمواصلات والتجارة والتوسع خاصة بعد فتح قناة السويس سنة ١٨٦٩م تلك القناة التي احتلت

ابرمت بريطانيا مع الشيوخ معاهدة عامة اكدت جميع بنود الاتفاقيات السابقة وقد جاء في معاهدة ١٨٥٣م مايؤكد على امن البحار وان «ينقطع الحرب والجدال فيما بين رعايانا والمتعلقين علينا وليستقيم بين الجميع منا ومن يعقبنا صلح تام في البحر على الدوام» وتقرر الاتفاقية انه اذا ماحدث اعتداء على اي فرد في البحر فلايحق للقبيلة المجني عليها الانتقام ، انما ترد الامر للسلطات البريطانية في الخليج العربي وقد ادت المعاهدة هذه إلى نتائج عديدة منها تدخل الانكليز في شؤون المشيخات العربية وتمزيقها وزيادة ضعفها وتفكك الاسر الحاكمة وعجزها عن مواجهة اطماع ايران في جزر ابو موسى وطنب الكبرى وطنب الصغرى والتي اصبحت خارج المنطقة التي تغشاها السفن العربية ، فبدأت الصلة تنقطع بين هذه الجزر والساحل الغربي للخليج العربي الامر الذي سهل للايرانيين فيما بعد (١٩٧٠) احتلال هذه الجزر العربية .

ان خوف بريطانيا من اشتداد المقاومة العربية لنفوذها في الخليج العربي وجنوب الجزيرة العربية وبظهور منافسة الدول الاوربية الاخرى لها في الخليج دفعها إلى عقد سلسلة من الاتفاقيات غير المتكافئة مع حكام مسقط (البوسعيد) والبحرين (ال خليفة) والكويت (ال صباح) وقطر (ال ثاني) الغرض منها المحافظة على (الوضع القائم) في المشيخات والحد من استقلال حكامها وتقييد سياستهم الخارجية وقد تعهد جميع الحكام بموجب تلك الاتفاقيات بعدم منح الامتيازات إلى اية دولة اجنبية الا بموافقة بريطانيا التي تعهدت هي كذلك بحمايتهم من اي عدوان خارجي .

ان تلك الاوضاع لم تمنع الشعب العربي في هذه المنطقة ان يقوم بالعديد من الانتفاضات. ففي عمان نشبت سنة ١٨٦٢م انتفاضة عربية استمرت قرابة عشر سنوات ضد سلطان مسقط الجديد ثويني بن سعيد (١٨٥٨ – ١٨٦٦م) الا أن الانكليز تمكنوا من قمعها سنة ١٨٧١م ولقى (عزان بن قيس) قائد الانتفاضة حتفه في المعارك واستولى الانكليز على مسقط ووضعوا على

اهمية كبيرة للتجارة البريطانية وبافتتاح القناة دخلت القضية المصرية مرحلة جديدة. اذ صار ينظر اليها كأنها هي قضية قناة السويس وهيأ حاكم مصر الخديوي اسماعيل (١٨٦٣ -١٨٧٩م) للبريطانيين الفرصة للتدخل في شؤون مصر بل لاحتلالها فقد كان مسرفاً، استدان مبالغ طائلة من المال من المصارف الانكليزية والفرنسية، وكان هدفه جعل مصر قطعة من اوربا، كما كان يقول، الامر الذي دفع الانكليز والفرنسيين كذلك للتدخل في شؤون مصر بحجة حماية مصالحها الاقتصادية

كان للحكومة المصرية مايقارب نصف مجموع اسهم شركة القناة والبالغة (١٧٧) الف سهم او (٤٤٪) من مجموع رأسمال الشركة مما جعل لها شيئاً من الهيمنة على الشركة وادارتها ولكن الخديوي اسماعيل كرر في اواخر سنة ١٨٧٥م بيع اسهم حكومته بغية تسديد المدفوعات الدورية المترتبة على القروض الاجنبية . لذلك وجدت بريطانيا فرصة سانحة لها لكي تهيمن على اقتصاد مصر وتخضعه لاحتكاراتها الراسمالية فاتخذت تدابير سريعة لشراء اسهم مصر.اذ اقترض بنيامين دزرائيلي رئيس الوزراء البريطاني من صديقه اللورد روتشليد (٤) ملايين باون استرليني وابتاع بها الاسهم المعروضة للبيع . وهكذا اصبح في حوزة الحكومة البريطانية (١٧٦) الف سهم من اسهم شركة القناة تم شراءها بأربعة ملايين باون لا أكثر مع ان مشروع القناة كلف مصر (١٦) مليون باون واغرقها بدين مقداره مائة مليون باون وحرم الشعب العربي في مصر من جرائه من (٣٠٠) مليون باون دفعت للمصارف الاجنبية كفوائد .

ان تلك الصفقة ، حققت لبريطانيا مكاسب كبيرة ، ليس من الوجهة الاقتصادية فحسب ، بل من الوجهة السياسية الخطط اللازمة لاحتلال البلاد ففي ٨ نيسان سنة ١٨٧٦م توقف الخديوي اسماعيل عن دفع سنداته المالية، واعلن عجز حكومته عن الوفاء بالتزاماتها المالية ، فاستغل الدائنون ذلك الوضع حتى يفرضوا على مصر رقابة مالية . والفت بالاشتراك مع فرنسا

لجنة في تشرين الاول سنة ١٨٧٦م لمراقبة شؤون مصر المالية . لكن الخديوي أصدر مرسوماً بتوحيد الدين و التزم بموجبة بجدول زمني لتسديده . وفي ٢٨ آب سنة ١٨٧٨م الف الخديوي وزارة جديدة برئاسة نوبارباشا ، وهو برجوازي كبير ومن اصحاب العلاقة بالاحتكارات الاجنبية وقد دخل في هذه الوزارة وزير بريطاني وآخر فرنسي . وبعد ان اشعر البريطانيون بأن الوقت قد حان لعزل اسماعيل اجبروه على التنازل لابنه الخديوي توفيق (١٨٧٩ – ١٨٩٢)م الذي كان اكثر استجابة للمطالب الأجنبية .

لقد كان من نتيجة التغلغل الاوربي ، وسوء الاوضاع الاقتصادية ، والسخط الشعبي من جراء الضرائب الفادحة وتدخل الاجانب في شؤون مصر وازدياد الوعي السياسي ان لجأ العسكريون القوميون إلى تأسيس تنظيم عسكري سري سنة ١٨٧٦م كان من ابرز مؤسسيه احمد عرابي ،وعلي فهمي ، وعبد العال فهمي ، ومحمد عبيد وانضم اليه عدد من المفكرين والكتاب أبرزهم عبد الله النديم الكاتب الاجتماعي والخطيب الموهوب، وأديب اسحق الكاتب والصحفي السوري ، والشيخ محمد عبده المصلح الديني . وقد استطاع هذا التنظيم في ١٨ شباط ١٨٧٩م من قيادة حركة مسلحة كان على راسها الاميرالاي أحمد عرابي باشا (١٨٣٩ – ١٩١١م) . وكانت في بدايتها ترمي إلى اعادة (٢٥٠٠) ضابطاً مصرياً إلى الخدمة العسكرية بعد ان تمت احالتهم على التقاعد (بدعوى الاقتصاد في النفقات) ، والعمل على انصاف المصريين في المناصب والرتب العسكرية ثم تطورت إلى انتفاضة مسلحة شاركت فيها كل قطاعات الشعب .

طلب أحمد عرابي في ٩ أيلول ١٨٨١م من الخديوي تشكيل وزارة جديدة ودعوة مجلس الشورى النواب الذي اسس سنة ١٨٦٦م إلى الانعقاد وتحويله إلى مجلس نيابي يتمتع بسلطات البرلمان في أوربا ، ولتكون الوزارة مسؤولة امامه . كما طالب بزيادة الجيش إلى (١٨) ألف جندي وعزل عثمان باشا رفقى رئيس اركان الجيش ، ووقف التدخل الاجنبي في شؤون مصر وتقييد

سلطة الخديوي المطلقة . وقد استجاب الخديوي إلى هذه المطالب ووافق على تأليف وزارة وطنية جديدة برئاسة شريف باشا . وقد اعقبتها وزارة وطنية اخرى في أواخر سنة ١٨٨١م برئاسة محمود سامي البارودي احد الزعماء الوطنيين ،وقد اصبح فيها احمد عرابي وزيراً للحربية والبحرية وقد اعلنت هذه الوزارة الدستور ودعت إلى انتخابات جديدة لمجلس النواب الذي افتتحه الخديوي في أواخر سنة ١٨٨١م.

استقبلت بريطانيا تلك الاحداث بالاستياء وادعت أن الوطنيين المصريين وعلى رأسهم احمد عرابي يهددون مصالحها في مصر .ويعرضون حياة الاجانب للخطر وعرضت على الخديوي توفيق مساعدتها في القضاء على الثورة العرابية وسارعت بتقديم مذكرة في اوائل سنة ١٨٨٢م الى الحكومة المصرية تدعي فيها تأييد سلطة الخديوي وتعارض في تخويل مجلس النواب المصري حق تقرير الميزانية بحجة ان ذلك يمس حقوق الدائنين ، مع ان الدستور الجديد تضمن مراعاة المجلس لكل العهود والاتفاقات المالية التي ارتبطت بها الحكومة المصرية وقد نشأت عن ذلك ازمة سياسية خطيرة واشتد الخلاف بين الخديوي المستنجد بالانكليز والثوار . عندئذ قدمت بريطانيا، بالاشتراك مع فرنسا انذاراً إلى الحكومة المصرية تطلب فيه استقالة الوزارة ونفي احمد عرابي إلى خارج مصر . لكن الوزارة رفضت الانذار واخذ الرعايا الاجانب يتجمعون في مدينة الاسكندرية بعد أن سمعوا بوصول بوارج حربية بريطانية إلى مياهها وفي حزيران سنة ١٨٨٢م استغز عدد من الاجانب بتحريض من القنصل البريطاني المواطنين المصريين في الاسكندرية واشتبكوا معهم بالعصي والهراوات وقد حضر رجال الامن واخمدوا الفتنة وقد اتخذ القناصل الاجانب هذا الحادث الذي سقط فيه عدد من القتلى الاجانب وسيلة لتوجيه اللوم إلى السلطات المصرية طالبين منها حماية الاجانب في البلاد وقد انتهز الخديوي توفيق الفرصة فسافر من العاصمة إلى الاسكندرية ليكون قريباً من الاسطول البريطاني .

عقدت الدول الاوربية الكبرى مؤتمراً في استنبول للنظر في المسألة المصرية. وقد القى ممثل بريطانيا في المؤتمر اللورد دوفرين خطاباً ادعى فيه ان الفوضى تمكنت من مصر نتيجة الثورة الشعبية هناك وان الادارة قد اختلت فيها وارتبكت أحوال التجارة وعجز الاهالي عن سداد الضرائب وامتنعت الحكومة عن الوفاء بتعداتها المالية ودعا الى وجوب التدخل في مصر واستخدام القوة لقمع الثورة .

ارسل السلطان عبد الحميد الثاني (١٨٧٦ -- ١٩٠٩م) كاتبه الخاص رشيد باشا خلال انعقاد المؤتمر في استنبول الى السفارة البريطانية لمعرفة النوايا البريطانية على حقيقتها ازاء مصر. فاجابه السفير ان رأي حكومته يتلخص بثلاث امور هي :

– يجب ان يصان ماللسلطان من حقوق سيادة على مصر ومالبريطانيا من مصالح فيها.

– يجب ان تضمن حرية الملاحة في قناة السويس.

– يجب ان لاتكون الادارة المصرية فاسدة الى حد يستوجب تدخل الدول الاجنبية فيها.

عندئذ قال له رشيد باشا أن السلطان عبد الحميد يكره فرنسا ويرحب بايداع ادارةً مصر الى الحكومة البريطانية على ان تبقى حقوق سيادة السلطنة على مصر محفوظة ثم سأله: هل توافق بريطانيا على ذلك فاجابه السفير بانه يشك في موافقة حكومته لما لهذه القضية من صبغة دولية تستوجب تفاهم الدول الاوربية وعندما اقترحت الدول الاوربية على السلطان العثماني ارسال جيش الى مصر وتوطيد الامن فيها بغية عدم افساح المجال لانفراد بريطانيا في هذا الامر قرر مجلس الوزراء العثماني العمل بهذا الاقتراح ورأى ان يعهد بهذه المهمة الى الجيش السادس. وقد وافق السلطان عبد الحميد على هذا القرار في بادىء الأمر ، لكنه تردد وعدل اخيراً عن قراره وترك المجال

امام الانكليز للانفراد في احتلال مصر بعد ان حملوا السلطان على اصدار بيان يستنكر فيه ثورة عرابي ويعده «عاصياً يجب تاديبه» قدم الامير سيمورد قائد الاسطول البريطاني في ٦ تموز سنة ١٨٨٢م انذاراً الى قائد موقع الاسكندرية يطلب فيه التوقف عن اعمال التحصين القائمة في حصون المدينة فاجابه هذا ان من حق المصريين الدفاع عن حدودهم وتشييد اية تحصينات ممكنة فوق اراضيهم وفي العاشر من تموز ارسل سيمور انذاراً اخر طلب فيه تسليم الحصون خلال اربع وعشرين سنة . وبعدما استلم رفضاً تاماً قام الاسطول البريطاني بقصف الاسكندرية في ١١ تموز سنة ١٨٨٢م وانزل قواته فيها وقد تفانى اهالي الاسكندرية في الدفاع عن مدينتهم التي تحولت بفعل القصف المدفعي البريطاني الى كومة من الانقاض. ثم زحفت القوات البريطانية باتجاه القاهرة لتواجه مقاومة مماثلة، ولكن تفوق القوات البريطانية وتوالي وصول الامدادات للبريطانيين من انكلترا ومالطة وجبل طارق والهند مكن الغزاة من دحر الثوار في معركة التل الكبير في ١٣ ايلول سنة ١٨٨٢م وقد استسلم احمد عرابي وحوكم هو وصحبه وحكم عليه بالاعدام ثم ابدل الحكم بالنفي المؤبد من مصر.

بالرغم من تكاتف جميع فئات الشعب العربي في مصر سوى شرذمة من الرجعيين والمعادين للتحرر التفوا حول الخديوي فان الثورة العرابية فشلت عسكرياً وكان من الممكن ان تنجح برأى المؤرخ الفلسطيني الدكتور محمود زايد لو توفر لها وضوح الروية وصلابة العزيمة وارادة القتال الى النهاية فلو ان المصريين استمروا في المقاومة لكان من الممكن ان يحرروا انفسهم من تلك «العقبات والاعباء... التي بقيت تعوق نمو مصر، وتفشل حيويتها طيلة جيل اخر من الزمن.» . ولكن الصراع بين العسكريين والمدنيين واهمال تعبئة القوى الشعبية وتسليحها وعدم الاقدام على تطهير الجيش من بعض عناصر الضعف والخيانة حال دون ذلك فضلاً عن عدم وجود تكافؤ بين القوات البريطانية وقوات الثورة من النواحي الفنية والادارية والتنظيمية.

لقد ادعت الحكومة البريطانية منذ اليوم الاول لدخول قواتها مصر بأن احتلالها سيكون مؤقتاً وانها لم تتدخل الا «لصيانة ارواح واموال رعاياها ، والدول الاوربيـة الاخرى» ولتوطيد الامن والنظام ، وانها لن تتأخر في الجلاء عن مصر مالم يستتب الامن فيها وقد حصلوا من الخديوي توفيق الذي عاد إلى القاهرة في ٢٤ ايلول سنة١٨٨٢م بحماية حراب الانكليز ، على رسالة شكر ، يعرب فيها عن امتنانه من المساعدة الثمينة التي قام بها الجيش البريطاني لاعادة الامن إلى بلاده تنفيذاً «لأرادة السلطان العثماني» وتلبية لرغبة الخديوي ، بينما ابقت بريطانيا على تبعية مصر للدولة العثمانية من الناحية القانونية فانها سيطرت على مقدراتها من الناحية الفعلية، واقامت فيها حكومة «العقول البريطانية والايدي المصرية» التي وصفها الفرد ملنر Milner سنة ١٨٩٩م بالمحمية المقنعة .

استهلت سلطات الاحتلال البريطاني سيطرتها على مصر بتسريح الجيش ، ونفي زعمائه وتشكيل جيش جديد من ستة الاف جندي يقودهم ضباط بريطانيون وكان هذا الأجراء اكبر لطمة وجهتها سلطات الاحتلال للحركة الوطنية المصرية وفي اول ايار ١٨٨٣م اصدرت سلطات الاحتلال القانون النظامي الذي نص على انشاء مجلسين هما مجلس شورى القوانين والجمعية العمومية ولم تكن لآراء المجلسين سلطة الزامية . كان مجلس شورى القوانين ينظر في مشروعات القوانين التي تعرض عليه . أما الجمعية العمومية فكانت تجتمع للتداول في الامور التي تهم البلاد وكان الحاكم الفعلي للبلاد المعتمد البريطاني واللورد كرومر Cromer (١٨٨٣ – ١٩٠٦م) اول معتمد عينته الحكومة البريطانية وساعده وزراء مصريون بجانب كل واحـد منهم مستشار بريطاني ومع كل محافظ مفتش بريطاني واستقطب الخديوي والمحتلون عدداً كبيراً من اصحاب المصالـح والموظفين والانتهازيين ليكونوا اعواناً للاحتلال . ومع هذا فان متاعب الانكليز في هذه الفترة كانت ناشئة من الامتيازات الاجنبية وصندوق الدين ، وعدم اعتراف الدول بقانونية مركز بريطانيا في مصر ومعارضة بعضها للاحتلال وخاصة

فرنسا وادراك بريطانيا ان وجودها كان يتوقف على مقدرتها في تمكين مصر من تحقيق ميزانية تفي بتغطية مصروفات الدولة .

بالرغم من تشتت الوطنيين وتنكيل المحاكم بقادة الثورة العرابية، فأن مصر لم تخل من وجود نشاط وطني فخلال السنوات الاولى من الاحتلال تم اكتشاف جمعية اطلقت على نفسها اسم جمعية الانتقام وغرضها طرد الانكليز من البلاد ومعاقبة اعوان الاحتلال. وفي وقت لاحق بدأ الوطنيون ينظمون صفوفهم لمقاومة الاحتلال .ففي سنة ١٨٨٩م قام الشيخ علي يوسف بتشجيع عدد من الوطنين بأصدار جريدة (المؤيد) لمقاومة الاحتلال والتصدي بالرد على الصحف الموالية له ، وخاصة جريدة (المقطم) التي كانت منبراً للمحتلين واعوانهم وظفر الوطنيون بتأييد الخديوي عباس الثاني الذي خلف توفيق في حكم مصر في سنة ١٨٩٢م. وقد طمح الخديوي عباس بمناصرة الوطنيين له في محاولته توسيع سلطاته ووقوفهم الى جانبه في وجه سلطان الاحتلال ويقول الكاتب الانكليزي اوكلند كولفن Colvin عن الأثر المباشر الذي احدثه تولي الخديوي عباس حكم مصر :

«لقد ظهر العداء للاجانب ، كما ظهرت المعارضة الشديدة للموظفين (الانكليز) واجراءاتهم في كل مكان على أثر تولي عباس الثاني للحكم . وشاعت الحرارة التي بثها القصر في نفوس الموظفين من كل الفئات ... واشتد الشعور بالقلق الى حد عززت معه الحامية البريطانية» .

اقتصر نشاط الحركة الوطنية المصرية في السنوات اللاحقة وحتى نشوب الحرب العالمية الأولى على تنوير الأذهان وشحذ المواطنين بحب الاستقلال والسخط على الاحتلال من خلال الصحف والمنشورات ونشاط الاحزاب السياسية المنظمة . ولم يتعد ذلك الى المقاومة الفعلية الا في النادر فقد كان العديد من الزعماء المصريين في الشطر الاكبر من هذه المرحلة

يعقدون الآمال على فرنسا والدولة العثمانية لاخراج الانكليز من بلادهم لكن الاتفاق الودي بين بريطانيا وفرنسا سنة ١٩٠٤م قضى على ما كان قد تبقى لدى بعض المصريين من الآمال المعقودة على فرنسا . وفي هذه الاثناء تجلى عجز الدول العثمانية وترددها عن النهوض بذلك العبء الجسيم . وعليه لم يبق امام المصريين سوى الاعتماد على انفسهم .

ان من ابرز الذين عملوا من اجل القضية المصرية ، مصطفى كامل وهو كاتب ومثقف مصري الف في سنة ١٨٩١م حلقة من الشباب المصري التفت حول جريدة (اللواء) التي اصدرها في سنة ١٩٠٠م واهتمت بفضح سياسة الانكليز في مصر وقد اقتصر نشاط مصطفى كامل حتى سنة ١٩٠٥م على التثقيف الوطني . وبعد مجزرة دنشواي الاستعمارية غدا مصطفى كامل زعيماً وطنياً لمصر .

١٩٠٦/٦/١٣

لقد كانت هذه الحادثة حافزاً لتطوير الحركة الوطنية التحررية في مصر وملخصها ان جماعة من الضباط الانكليز توجهوا في يوم ١٣ حزيران سنة ١٩٠٦م الى قرية دنشواى قرب مدينة طنطا لصيد الحمام . وكما كان يحدث دائماً في حالات مماثلة اتلف الضباط باقدامهم المزروعات فطلب اليهم الفلاحون مغادرة القرية عندئذ فتح الضباط الانكليز النار على الفلاحين فجرح بضعة منهم فاشتبك الفلاحون معهم واصيب ضابط انكليزى برضة بسيطة ، وعند نقله الى محطة القطار توفي في الطريق لارتفاع الحرارة فاتهم فلاحوا دنشواى بقتله وقدموا الى محكمة خاصة ترأسها بطرس غالي باشا فحكم على اربعة منهم بالشنق وعلى تسعة اخرين بالاشغال الشاقة المؤبدة .

لقد ثار المصريون لتلك المحاكمة الصورية وعمت البلاد التظاهرات وامتلأت الصحف بمقالات السخط واثار مصطفى كامل الرأي العام في اوربا ضد الاحتلال البريطاني . والهب الشعراء الوطنيون مشاعر الشعب بقصائد شجبت جريمة دنشواى فهذا حافظ ابراهيم ينشر قصيدة عن

دنشواي بعد ايام من تنفيذ الحكم يقول فيها :

ليت شعري .. اتسلك محكمة التفتيش عادت ام عهد نيرون عادا؟

كيف يحلو من القوي التشفي من ضعيف القى اليها القيادا

اما الشاعر أحمد شوقي فقد قال في هذه الحادثة قصيدته التي ذاعت وكانت بعنوان «دنشواي» منها الابيات التالية :

يادنشواي على رباك سلام ذهبت بأنسي ربوعك الايام

شهداء حكمك في البلاد تفرقوا هيهات للشمل الشتيت نظام

مرت عليهم في اللحود أهلة ومضى عليهم في القيود العام

ياليت شعري في البروج حمائم ام في البروج منية وحمام

نيرون لو ادركت عهد كرومر لعرفت كيف تنفذ الاحكام

لقد ادرك الانكليز نقمة الشعب في مصر حتى ان كرومر نفسه اعترف فيما بعد بأن الاحكام التي صدرت كانت قاسية جداً . فكان لبريطانيا ان تغير سياستها فأحالت اللورد كرومر على التقاعد في نيسان سنة ١٩٠٧م بعد أن حكم مصر حكماً ارهابياً قرابة ربع قرن وعينت محله السير الدون كورست Gorst الذي حاول استخدام سياسة التهدئة وقد استفاد الوطنيون من ذلك فألفوا في تشرين الاول سنة ١٩٠٧م حزباً بزعامة مصطفى كامل سمي بالحزب الوطني وكان من اهداف هذا الحزب الدعوة إلى المطالبة بجلاء الانكليز عن مصر وتحقيق وحدة وادي النيل (مصر والسودان). وفي ٢٧ كانون الاول ١٩٠٧م عقدت اول جمعية عمومية للحزب الوطني اجتماعاً موسعاً نوقش فيه منهاج الحزب الذي اكد على مايلي :

١ـ استقلال مصر ، كما قررته معاهدة لندن في سنة ١٨٤٠م.

٢ـ ايجاد حكومة دستورية في البلاد تكون مسؤولة امام مجلس نيابي كما هو الحال في اوربا .

٣ـ احترام المعاهدات الدولية والاتفاقات المالية التي ارتبطت بها مصر.

٤ـ العمل على نشر التعليم على اساس وطني صحيح وارسال البعثات العلمية إلى اوربا وتأسيس الكليات في البلاد وفتح المدارس الليلية للصناع والعمال.

٥ـ ترقية الزراعة والصناعة والتجارة وكل فروع الحياة ، والعمل والجد وراء نيل الاستقلال الاقتصادي .

٦ـ نشر الشعور الوطني بين الاهالي ودعوتهم إلى الاتحاد .

٧ـ بذل الجهود لتنمية علائق المحبة والارتباط والتعلق التام بين مصر والدولة العثمانية وانماء علائق المحبة والثقة بين مصر ودول اوربا ونفي كل تهمة عن مصر والعمل على ايجاد انصار لها في كل انحاء العالم حتى تكون لها قوة أدبية سامية تساعد على اعتراف الغير بحقوقها الشرعية .

حاول كورست شق صفوف الحركة الوطنية، فشجع بعض المصريين ومعظمهم من ملاك الاراضي ومن المرتبطين بالمحتلين ويرون في التعاون معهم سبيلا للنهوض بمصر، على تاسيس حزبي الامة والاصلاح على المبادىء الدستورية وذلك سنة ١٩٠٧م ويختلف الحزب الوطني عن هذين الحزبين في مبدأين أساسيين: اولهما هو عنفه في مهاجمة الاستعمار وتخصيصه حياته لغرض كره الاستعمار حالا في نفوس المصريين وثانيهما هو اقامة دعوته الجديدة الى الوطنية على اساس من الدين ومن الدعوة الى التضامن مع الدولة العثمانية والتمسك بمعاهدة ١٨٤٠م التي منحت مصر استقلالا داخليا وتعترف بالسيادة العثمانية . ومن جهة اخرى يتضح من برنامج الحزب الوطني خلوه من نظرة متكاملة الى مشكلات مصر الاقتصادية والاجتماعية . ويرجع ذلك الى ان تكوين الحزب الوطني والاحزاب السياسية الاخرى التي عرفتها مصر كان تكويناً برجوازياً بحيث ظلت وسائلها مقصورة على الاثارة وتنوير الاذهان. ومع ان مصطفى كامل استطاع ان يكسب الفئات المثقفة في مصر من الموظفين والطلبة والمحامين وذلك بقدرته الخطابية النادرة لكنه لم يكتسب تاثيرا قويا على الفلاحين في الريف المصري وظل نشاط الحزب مقتصراً على المدن .

لقد تألفت في مصر خلال الفترة من ١٩٠٧م الى ١٩٠٩م احزاب صغيرة لكن ابرزها كان الحزب الوطني الحر وحزب المصريين المستقلين وحزب مصر الفتاة . وكان الاختلاف بينها ينحصر في علاقات كل منها مع الخديوي والسلطان العثماني والاحتلال البريطاني. ولم تعن تلك الاحزاب بقضايا مصر الأساسية من رفاهية مادية واصلاح اقتصادي ونهضة اجتماعية وثقافية . ولم تؤثر في العلاقات بين القوى السياسية الكبرى بشكل جدي لانها في الواقع لم يكن لها جذور ضاربة في الارض المصرية . ولكنها كانت تمثل ، كما يشير الى ذلك المؤرخ المصري الدكتور عمر عبد العزيز عمر فكرا متخلفاً أو وضعاً مندثراً.

كان للانقلاب الدستوري العثماني في ٢٣ تموز سنة ١٩٠٨م صدى كبيراً في مصر . فقد نشطت الحركة الوطنية حينا من الزمن وجرت عدة تظاهرات ضد الاستعمار البريطاني وطالب الحزب الوطني بالدستور ولكن الحكومة البريطانية جاءت ببطرس غالي رئيس محكمة دنشواي لتجعله رئيساً للوزراء ، فاستخدم هذا القوانين الاستثنائية لسنة ١٩٠٩م والتي كانت موجهة ضد اعضاء الحزب الوطني كاساس شرعي لاضطهاد الوطنيين على نطاق واسع. وقد لجأ الوطنيون الى العمل السري. وفي ٢٠ شباط ١٩١٠م انطلقت ست رصاصات لتنهي حياة بطرس غالي . فاهتز سلطان الاحتلال بشدة. لقد اطلق تلك الرصاصات احد الوطنيين الشباب وهو إبراهيم الورداني الذي درس الصيدلة في لوزان بسويسرا وعاد إلى القاهرة ليسهم مع إخوانه في الحركة الوطنية. وكانت جمعية الورداني من الجمعيات السرية الفدائية التي ظهرت في مصر لمناهضة الاحتلال والموالين له .وإزاء ذلك إزداد الارهاب البريطاني وتفاقم حتى بلغ أشده عند إعلان بريطانيا الحماية رسمياً على مصر في ١٨ كانون الاول سنة ١٩١٤م مستغلة نشوب الحرب العالمية الاولى .

لم يحقق المصريون شيئاً يذكر من اهدافهم الوطنية الأساسية في تلك المرحلة الممتدة من ١٨٨٢ وحتى ١٩١٤م. فلم يتقدموا تقدماً

ملموساً في سبيل التدرب على حكم بأنفسهم بأنفسهم . فقد كان زمام الامور بيد المستشارين الانكليز أما التعليم الذي كان ينتظر منه الارتقاء بابناء البلاد ليؤهلهم لحكم بلادهم فقد تاخر في زمن الاحتلال . إذ لم يكن الهدف من التعليم خلال هذه الفترة إلا تخريج كتبة للدوائر الحكومة وموظفي صغار الدولة . وتدني عدد البعثات التعليمية إلى الخارج حتى أصبح المبعوثون يعدون على الاصابع وكان مستشار التعليم دنلوب Danlop لايعطف على المصريين وتقول مذكرة سرية كتبها أحد المسؤولين للحكومة البريطانية في ١٩ نيسان ١٩١٩م «ليس الطالب المصري من مخلوقات الله بل من خلق دنلوب يتخرج آلاف الشباب الصغار من المدارس فلا يجدون سبيلاً إلى الاستفادة من علمهم ...لقد علم محمد علي العدد الذي يفي بحاجات حكومته أما دنلوب فقد علم عدداً يكفي لخلق ثورة ». وبينما كان التعليم في عصر إسماعيل مجانياً، صار في ظل الاحتلال مقابل رسوم وتبين إحصائية لعدد الطلبة في مصر سنة ١٩١٣ – ١٩١٤م أن ٩٩٨,٧٤ طالباً أي (٧٠,٥٪) من جملة بالغي سن التعليم ،كانوا لايزالون محرومين من التعليم ، وإن المحرومات منه في تلك السنة كن ٩٩٤,٩٣٢ أي ٩٣,٥٪ من مجموع بالغات سن التعليم.

وزاد في تلك الفترة تغلغل النفوذ والنشاط الاجنبيين في مصر . فقد اصبح عددهم سنة ١٩٠٧م يصل إلى ١٥١٤١٤ في حين لم يكن عددهم في سنة ١٨٧٨م يزيد عن ٦٨٦٥٤ . وظل هؤلاء الاجانب يتمتعون بالامتيازات التي تجاوزت في مصر كل حد بلغته في أي ولاية تابعة للدولة العثمانية .وكانت هذه الامتيازات مبعث إستياء المصريين وحنقهم لانها تمنح الاجانب حق الاعفاء من بعض الضرائب ، وحق حماية قناصلهم لهم ومحاكمة الاجنبي في المحاكم القنصلية. وإستفحل نفوذ الاجانب في الحياة المالية والاقتصادية في البلاد تبعاً لتدفق رؤوس الاموال الاجنبية ويؤخذ من بيان لمصلحة الاحصاء المصرية ان الشركات الاجنبية التي تأسست في مصر من ١٨٨٣ وحتى ١٩٠٤م كانت ستين شركة مساهمة وإنها بلغت بعد ١٩٠٤م مئة وستين شركة مساهمة بلغ مجموع رأسمالها

٢٣٢٢٥٧ و١١١ باوناً إسترلينياً في سنة ١٩١٣م.هذا فضلاً عن البيوتات التجارية والمالية الأجنبية ومعنى هذا ان الأموال الاجنبية صارت تتحكم في حياة مصر الاقتصادية ووجد الدائنون والمرابون الاجانب في مصر مرتعاً خصباً فوقع قسم كبير من أصحاب الاراضي تحت طائلة الدين وإستمر إهمال الصناعة المحلية ويرجع تأخر الصناعة إلى عوامل عديدة منها المنافسة الاجنبية وعدم توفر الحماية وساد الاعتقاد بايحاء من بريطانيا ان مصر بلد زراعي وإنه لا مستقبل للصناعة فيها .وكان من أبعد التطورات الاجتماعية أثراً في مصر تزايد فئة الاثرياء والرأسماليين وكانت هذه الفئة تعرف بأصحاب المصالح الحقيقية في مصر وتقوم ثروتها في الأساس على ملكية الارض والزراعة وتكشف إحصائية تعود الى سنة ١٩١٠م عن أن ١٢٤١٤شخصاً من أهل مصر البالغ عددهم حوالي إثنى عشر مليوناً كانوا يملكون حوالي نصف أراضي مصر .وكان على المصريين أن ينتظروا إنتهاء الحرب العالمية الاولى ليبدأوا مرحلة جديدة من تاريخ نضالهم من أجل التحرر والأستقلال والتخلص من الاحتلال البريطاني قادها حزب الوفد وزعيمه سعد زغلول .

التدخل البريطاني في السودان ١٨٩٨م :

اشرنا فيما سبق إلى نجاح المهديين في تأسيس دولتهم في السودان ولقد اثار هذا العمل البريطانيين الذين قرروا إسقاط الدولة المهدية . فأخبروا الخديوي عباس حلمي سنة ١٨٩٦م بضرورة المساهمة في ذلك وتألفت حملة عسكرية بقيادة كتشنر القائد العام للجيش المصري .

واجهت الدولة المهدية في غضون السنوات ١٨٦٧ — ١٨٩٩م قوى عديدة في آن واحد فكان عليها ان تقاتل على الجبهة الشرقية ضد نجاشي الحبشة . وضد سلطان دارفور في الجبهة الغربية . وقد اقتحم الأيطاليون المستعمرون السودان سنة ١٨٩٣ — ١٨٩٤م واستولوا على منطقة كسلا بعد ان استقروا في ارتيريا العربية على ساحل البحر الاحمر . وبين سنتي ١٨٨٥ — ١٨٨٦م استمر القتال ضد القوات البريطانية التي احتلت منطقة سواكن ووادي حلفا.

لقد شهدت تلك الفترة مرحلة الصراع البريطاني الفرنسي من اجل اقتسام افريقيا . ففي الوقت الذي كانت فيه القوات البريطانية تزحف من الشمال اعتباراً من سنة ١٨٩٦م بقيادة كتشنر ، كانت قوة فرنسية بقيادة مارشال تتقدم من الجنوب وعند فاشودة وهي عاصمة قبائل الشلك جنوب السودان التقت القوتان وجها لوجه فحدث مايسمى بازمة فاشودة التي حسمت بموجب اتفاقية ٢١ اذار سنة ١٨٩٩م المعقودة بين بريطانيا وفرنسا على اساس توازن القوى لا في افريقيا فحسب بل على النطاق العالمي كذلك. وقد اصبح السودان بموجب هذه الاتفاقية من مناطق النفوذ البريطاني.

عندئذ لم يبق امام الانكليز سوى التقدم واحتلال السودان واسقاط الدولة المهدية . وبعد معارك دامية كان من ابرزها معركة ام درمان في ٢٤ تشرين الثاني سنة ١٨٩٩م والتي قتل فيها عبد الله التعايشي خليفة المهدي وكذلك اكثر قادته . وانتهت بذلك الثورة المهدية وتم احتلال البلاد. وقد وضع البريطانيون في ١٩ كانون الثاني ١٨٩٩م اتفاقية وقعها في القاهرة اللورد كرومر وبطرس غالي عن مصر ، وفيها جعلت ادارة السودان مشتركة بين بريطانيا ومصر على ان يكون الحاكم العام بريطانياً وان تتحمل الحكومة المصرية اعباء الاحتلال المالية برمتها وان تدفع سنويا الى الحكومة (الثنائية) في السودان (٧٥٠) الف باون استرليني لسد نفقاتها وعلى ضوء اتفاقية الحكم الثنائي هذه عرف السودان كما اشرنا من قبل ، منذ سنة ١٨٩٩م بالسودان الانكليزي المصري . وقد انتهجت بريطانيا سياسة التفريق بين شمال السودان وجنوبه كما شجعت البعثات التبشيرية المسيحية في جنوب وحرصت على محاربة اللغة العربية هناك بهدف اضعاف الوحدة الوطنية والقومية . وبذلك وضعت الاسس لكثير من المشاكل الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التي عانى منها السودان بعد ذلك .

عين اللورد كتشنر حاكماً عاماً للسودان وتقرر ان يقوم بحكم المديريات والمراكز ضباط من الجيش المصري معظمهم من الانكليز

ويساعد كل واحد منهم مفتشان انكليزيان وفي كل مركز مأمور مصري ومعه معاون او معاونان وقد اصدر كتشنر تعليماته بوجوب اطاعة القوانين واكد على حرية العبادة لكنه منع اقامة المساجد والتكايا الا بترخيص منه ، خوفاً من ان تتخذ مراكزاً للمقاومة ضد الاحتلال .

لقد ابدى السودانيون سخطهم على الاوضاع التي جاءت بها اتفاقية سنة ١٨٩٩م واعترضوا على اساليب الانكليز الادارية وخاصة في توزيع السكان حسب قبائلهم في المستندات الرسمية وتقريب بعض رؤساء القبائل بدعوى الادارة اللامركزية ولم يروا في تلك الاساليب سوى خطوة الهدف منها اثارة النعرة القبلية وتجاهل الرابطة القومية للسودانيين مع أخوانهم في مصر خاصة والعمل بعد ذلك لخلق طبقة حاكمة من الزعماء الموالين لهم . وقد اعترض السودانيون على قانون سلطان شيوخ البادية الذي اعطى سلطات محدودة لزعماء القبائل في المحيط القضائي وفي حدود محافظتهم على الامن . ولقاء ذلك يتقاضون نسبة مئوية من الضرائب المفروضة على الماشية وبمرور الزمن سمحت السلطات البريطانية باحلال المدنيين في الادارة . ففي سنة ١٩١٤م ارتفع عدد الحكام المدنيين إلى خمسة حكام من اصل (١٢) مديرية يحكمها العسكريون . وكان التعيين مقتصراً على الانكليز واعوانهم . وفي الفترة التي سبقت الحرب العالمية الأولى شكل الانكليز مجلس الحاكم العام ، لادارة البلاد ويتألف من السكرتير الاداري والقضائي والمالي والمفتش العام وعدد من رؤساء الدوائر ومنها المصارف والري والزراعة .

لقد تعرضت الاراضي العربية المطلة على البحر الاحمر من جهة الغرب اي الصومال وارتيريا للغزو الاستعماري الاوربي منذ بدء حركة الاستكشافات الجغرافية . فكان الصراع قوياً بين العثمانيين المسيطرين على مصر والسودان في الساحل الغربي للبحر الاحمر وعلى الساحل الشرقي للبحر نفسه والبرتغاليين ومن تلاهم من الايطاليين غير ان هذه المنطقة تم اقتسامها في اواخر القرن التاسع عشر بين فرنسا وايطاليا وبريطانيا واثيوبيا . وأقر هذا التقسيم في مؤتمر برلين سنة ١٨٧٨م .

بدأ التغلغل الايطالي في ساحل البحر الاحمر والسودان الشرقي منذ سنة ١٨١٩م . وفي سنة ١٨٨١م عينت ايطاليا مقيماً لها في منطقة عصب عند مضيق باب المندب . وبعد اربع سنوات ارسلت الحكومة الايطالية قوات عسكرية لاحتلال عصب . وقد راقب المستعمرون الايطاليون عن كثب استفحال الثورة المهدية . ففي اول كانون الثاني سنة ١٨٨٩م صدر مرسوم ملكي في ايطاليا بانشاء مستعمرة ارتيريا وبعد هزيمة المهديين احتل الايطاليون مدينتي اغوردات وكسلا . وقد سعى الايطاليون لتثبيت نفوذهم في ارتيريا بعقد بضع اتفاقات مع بريطانيا وحكومتي السودان واثيوبيا تتعلق بحدود المستعمرة .

أما فرنسا فقد احتلت جيبوتي وكان لايطاليا موضع قدم كذلك في الساحل الصومالي . وقد احتلت بريطانيا بقية اراضي الصومال وعلى هذا النحو اقتسمت الدول الاستعمارية الصومال فيما بينها فظهر ماسمي فيما بعد بالصومال الايطالي والصومال البريطاني الفرنسي كما احتلت اثيوبيا الصومال الغربي المعروف بمنطقة اوغادين . وقد رفض الصوماليون الاحتلال الاجنبي وقاوموا المستعمرين فحدثت انتفاضات عديدة ابرزها تلك التي قادها الامام احمد بن ابراهيم . وفي سنة ١٩٠١م بدأ الكفاح المسلح من اجل التحرر والاستقلال .

الاحتلال الايطالي لليبيا سنة ١٩١١م :

عززت ايطاليا منذ اواخر القرن التاسع عشر صلاتها الاقتصادية والثقافية بليبيا لعوامل اقتصادية استعمارية . فقد انشأ بنك دي روما فرعاً له في طرابلس واخر في برقة سنة ١٩٠٥م. واخذ يقدم القروض والتسهيلات المصرفية ويستثمر الاموال في ليبيا . كما انشأت في بنغازي مكتباً للبريد والبرق . وفتحت كذلك قنصلية في كل من برقة وطرابلس . وقد اسست بضع مدارس ايطالية في ليبيا اخذت على عاتقها نشر اللغة والثقافة

الايطاليين . وقد ارسلت الحكومة الايطالية بعثات مختلفة عن طريق (الجمعية الايطالية للاستكشافات الجغرافية والتجارة) بميلانو ، كان اخرها بعثة ضمت عدداً من الضباط برئاسة الكونت سفوزا قدمت لليبيا بحجة البحث عن الفوسفات ووضعت كثيراً من المصورات والخرائط العسكرية التي سهلت فيما بعد عملية الاحتلال .

وجهت ايطاليا انظارها إلى ليبيا في محاولة منها للتخلص من بعض مشكلاتها الاقتصادية . فهي دولة متأخرة في صناعتها بالنسبة للدول الاوربية الكبرى ، وتعاني من مشكلة تزايد السكان . كما انها صارت بعد تحقيق وحدتها القومية سنة ١٨٦١م تردد الذكريات عن ماضيها الامبراطوري وترى بانها خليقة بالوصول إلى مصاف الدول العظمى وان احتلال المستعمرات ضرورة لازمة لتأكيد هيبتها كدولة عظمى ومجالا لهجرة الزائدين من سكانها واستثمار رؤوس اموالها في مشاريع اقتصادية مربحة.

ومنذ افتتاح قناة السويس في سنة ١٨٦٩م بدأ التفكير في امكانية التدخل الايطالي في ليبيا لان هذا الحدث اخذ يقوى موضوع توازن القوى في البحر المتوسط. وفي سنة ١٨٧٨م نصح المستشار الالماني بسمارك فرنسا باحتلال تونس ودعا ايطاليا إلى احتلال ليبيا . وفي سنة ١٩٠١م اعلنت الحكومة الفرنسية بانه في حالة توسعها نحو مراكش فان بامكان ايطاليا تثبيت نفوذها في ليبيا ودفعت فيما بعد المانيا والنمسا (حليفات ايطاليا في الحلف الثلاثي) وانكلترا وروسيا على ان تضع ايطاليا يدها على ليبيا. وبدأت تنتشر في ايطاليا كتب ومقالات تنادى باحتلال طرابلس والتنويه باهميتها من الناحيتين الستراتيجية والاقتصادية . ثم جاء احتلال الفرنسيين لفاس سنة ١٩١١م ليقدم للايطاليين الفرصة لتحقيق اطماعهم في ليبيا ، فارسلوا في ٢٧ ايلول سنة ١٩١١م انذاراً إلى الحكومة العثمانية ادعوا فيها ان العثمانيين يعرقلون مصالحهم الاقتصادية في ليبيا ويضطهدون الرعايا الايطاليين وانهم غير قادرين على توطيد الامن وترقية ليبيا .

ردت الحكومة العثمانية على الانذار رداً ضعيفاً متخاذلا وحملت وزر تخلف ليبيا على الاسرة القرامنلية السابقة ، وتبرأت من تهمة عرقلة المصالح الاقتصادية الايطالية واعلنت عن استعدادها لمنح الايطاليين الامتيازات والتسهيلات التي يريدونها .

لم تقتنع الحكومة الايطالية بهذا الرد وسلم ممثلها مساء ٢٩ ايلول ١٩١١م إلى الصدر الاعظم ابراهيم حقي باشا بياناً باعلان الحرب . وظهر اسطولها امام مدينة طرابلس وطلبت تسليم المدينة خلال (٢٤) ساعة ،وبدأ الغزو الايطالي بقصف مدينة درنة يوم ٣٠ ايلول وطرابلس في يوم ٣ تشرين الاول وتم احتلالهما في الفترة من ١١–١٣ تشرين الاول ١٩١١م . كما هوجمت مدينتي طبرق وبنغازي وتم احتلالهما بعد خسائر كبيرة تكبدها الايطاليون نتيجة المقاومة الشديدة التي ابداها السكان العرب رغم تخاذل القوات العثمانية . ولم يحترم المحتلون الايطاليون شعوز الناس ومعتقداتهم الدينية، كما استخدموا اقصى اساليب الوحشية بحق العزل من النساء والاطفال فانتفضت البلاد انتفاضة مسلحة وتطوع الاهالي للقتال . ففي طرابلس كان للشيخ سليمان الباروني مبعوث (نائب) الجبل في مجلس المبعوثان العثماني وفرحات بك نائب طرابلس دوراً كبيراً في استنفار القبائل للمقاومة .وكان سكان السواحل من زواوة غربا إلى مصراته شرقا ، وفي منطقة الجبل من غريان إلى تالوت هم عماد حركة المقاومة المبكرة . كما لحق بهم بعض اهاليالجنوب وخاصة اولاد ابي سيف .

اما في برقة، فقد كتب الشيخ احمد العيساوي ممثل الحركة السنوسية ووكيل زاويتها إلى شيوخ الزوايا الغربية يطلب منهم دعوة المجاهدين للقتال. وقد خاض الوطنيون المجاهدون معارك عديدة مع الايطاليين المستعمرين اهمها معركة بوملبانه في ١٠ تشرين الثاني١٩١١م وعين زاره في ٨ كانون الاول١٩١١م وبير طرابلس في ١٩ كانون الاول ١٩١١م . وقد قدرت القوات الايطالية التي اشتركت في هذه المعارك بنحو (٢٥) الف جندي. في حين

معركة القرضابية ٢٩/٤/١٩١٥

لم يزد عدد المجاهدين عن (١٥٠٠) مقاتل وقد اضطرت الحكومة العثمانية ازاء ذلك الى ارسال عدد من الضباط الى ليبيا بهدف تنظيم حركة المقاومة منهم عزيز على المصري ومصطفى كمال وانور بك وغيرهم .

استمرت المرحلة الاولى من الحرب الطرابلسية حتى ١٨ تشرين الثاني سنة ١٩١٢م حين وقع الايطاليون والعثمانيون معاهدة الصلح في مدينة اوشي الكائنة على ساحل بحيرة ليمان بسويسرا وذلك بعد ان صعب على الايطاليين الوصول الى نصر حاسم ، فاقتصرت سيطرتهم على المناطق الساحلية ومنها راس مقابس ولـبده وسيدي سعيـد . وبمقتضى معاهدة اوشي اعترفت الحكومة العثمانية بالاحتلال الايطالي لليبيا على ان تبقى للسلطان العثماني السيادة الدينية . وقد سحبت القوات العثمانية قواتها وموظفيها من طرابلس وبرقة واصدر ملك ايطاليا مرسوماً في ٢٥ شباط سنة ١٩١٣م اعلن فيه وضع الولايتين : برقة وطرابلس تحت السيادة الايطالية . وهكذا وقع عبء المقاومة على عاتق الشعب العربي في ليبيا ، وحفز انسحاب العثمانيين الليبيين على بذل المزيد من العطاء والنضال من اجل تحرير وطنهم .

تركزت المقاومة العربية في منطقتين أولهما طرابلس وثانيهما برقة . ففي طرابلس عقد زعماء الحركة الوطنية إجتماعات في لواء الجبل ولواء فزان ورفله لدراسة الحالة وإتخاذ مايلزم من التدابير فقرروا اعلان إستقلال طرابلس وإنشاء حكومة وطنية برئاسة الشيخ سليمان الباروني . وقد عني بتنظيم شؤون الولاية وعين المتصرفين والقضاة وانشأ قوة من الشرطة ونظم البريد والبرق وارسل وفداً إلى أوربا لشرح القضية الليبية هناك ، كما أقام خطاً عسكرياً دفاعياً جديداً أمام القوات الايطالية يبدأ من ورفله مارا أمام غريان والزعترية ومنطروس وبير الخشب من جهة العزيزية وامام المعلالقة وزواوة في المناطق الساحلية . ولكن محاولة الاستقلال هذه سرعان ماتهاوت سنة ١٩١٣م تحت ضربات القوات الايطالية التي إستخدمت القسوة والعنف الشديديـن .

تزعم عزيز على المصري ، الضابط العربي المعروف في الجيش العثماني حركة المقاومة في برقة . وذلك باشراف الشيخ أحمد السنوسي وعندما أراد الايطاليون إحتلال الجبل الأخضر تصدى لهم رجال المقاومة العرب وحدثت معارك عنيفة بينهما في المنطقتين الوسطى والغربية .وعلى أثرها إحتل الايطاليون في ١٢ نيسان بضعة مواقع منها بنينه والمرج والرجمة وبومريم والابيار وتوكره .وفي ١٦ أيار حدثت معركة يوم الجمعة بالقرب من درنه ونتيجة للمقاومة الشديدة التي أبداها السكان هناك فقد إضطر الايطاليون إلى الانسحاب نحو درنة إلا أن المقاومة العربية في برقة سرعان ماتعرضت لخطر كبير تمثل بضغط إيطاليا على الحكومة العثمانية لسحب عزيز علي المصري ورفاقه من ليبيا. وكان لانسحاب المصري نحو الاراضي المصرية أثر كبير في ضعف حركة المقاومة .

وفي فزان واجهت القوات الايطالية بقيادة الكولونيل إنطونيومياني ، مقاومة عنيفة كان على رأسها السيد محمد بن عبد الله البوسيفي الذي إستشهد في القتال وإحتلت القوات الايطالية مدينة مرزوق ولكن قوات المجاهدين بزعامة سالم عبد النبي الزنتاني أخذت تتحين الفرص للانقضاض على الايطاليين . ففي ١٠ أيلول سنة ١٩١٤م إنسحبت القوات الايطالية تحت وطأة المقاومة وأخلت مرزوق وإتجهت نحو مصراته . وفي ٢٩ نيسان ١٩١٥م حدثت في مصراته معركة عنيفة بين المستعمرين الايطاليين والمجاهدين سميت بمعركة (القرضابية) . وكانت معركة حاسمة ذات أثر في حصر نفوذ الايطاليين على ساحل طرابلس وتشجيع رمضان بك السويحلي زعيم مصراته على إقامة حكومة محلية في مصراته وتنسيق حركة المقاومة المسلحة ضد المحتلين . ولكن عنفوان الحرب العالمية الاولى حال دون ذلك وقدر فيما بعد لعمر المختار أن يقود حركة المقاومة في ليبيا حتى سقط أسيراً بيد الايطاليين سنة ١٩٣١م :

عمد المستعمرون الايطاليون على قذف المواطنين الليبيين إلى الجنوب حيث الصحراء وحيث تكون الزراعة فقيرة بسبب قلة المياه واحلال الايطاليين

معرينة القرضابية / ٢٦ / شنيـة / ١٩١٥

محلهم على الشريط الساحلي لليبيا. فبعد أن تم إحتلال أهم المدن الرئيسية مثل طرابلس وبنغازي ودرنه وطرق والخمس وغيرها ، صدر مرسوم ملكي يقضي بتقسيم منطقتي طرابلس وبرقة إدارياً الى حكومتين منفصلتين تحت إشراف حاكم إيطالي في كل منها تعينه وزارة أفريقيا الايطالية وذلك للتفرغ في كل منطقة والقضاء على حركات المقاومة حسبما تقتضيه الظروف خاصة أن المسافة بين الولايتين كبيرة ويصعب الاتصال السريع وتنفيذ القرارات. كما فرضت السلطات المحتلة بعض الضرائب الغير مباشرة ومنها الرسوم الجمركية وبعض رسوم الدمغة وعوائد إحتكار التبغ والكبريت والملح وكان الهدف الاساس للسياسة المالية للحكم الايطالي العسكري هو الاعتماد على إيرادات ليبيا الذاتية لتمويل مشاريع الاستيطان الزراعي للايطاليين ولمواجهة النفقات الادارية والعسكرية .إلا أن ضعف الاقتصاد الليبي آنذاك من جهة وإستمرار الكفاح الوطني المسلح من جهة أخرى لم يمكن الحكم العسكري من تحقيق ذلك الهدف الامر الذي تطلب تغطية جزء كبير من الموازنة من المساعدات المستلمة من الحكومة الإستعماوية المركزية .ورغم أن كثيراً من المواطنين في ايطاليا يعتبرون ان حكومتهم قد وجهت اموالاً كبيرة للتنمية الاساسية في ليبيا ، الا انهم كما يقول المؤرخ الليبي الدكتور محمد مصطفى الشركسي غير مطلعين على الحقائق ذلك لان تلك الاموال قد قصد منها تسهيل الاستيلاء على ليبيا وليس تنميتها اقتصادياً هذا فضلاً عن توطين الفلاحين الايطاليين وتعبيد الطرق الزراعية لهم لتنمية زراعتهم خاصة بعد صدور المرسوم الملكي في تموز سنة ١٩١٤م والذي يسمح للسلطات بمنح الاراضي الاميرية في ليبيا للايطاليين الذين يرغبون الحصول على اراضي زراعية بغرض زراعتها . وقد قدرت مساحة الاراضي التي تم منحها حتى سنة ١٩٢٢م بنحو ٣٦١٢ هكتار وتقع في جهات مختلفة من ضواحي مدينة طرابلس وجرى التركيز فيها على زراعة اشجار الزيتون واللوز والفواكه وقد قام مصرف روما بدور كبير في تسهيل عمليات التسليف الزراعي

للمستوطنين وبهدف تنمية الأراضي الزراعية وتشجيع العائلات الايطالية على الاستقرار في ليبيا. ولتنفيذ سياسة الاحتلال لم يقتصر مصرف دى روما في اعماله على القطاع المصرفي، بل قام بنشاطات تشمل مجالات صناعية وزراعية . كما فتحت مصارف ايطالية اخرى ابوابها في ليبيا ومنها مصرف شيشيليا الذي باشر نشاطه في نيسان ١٩١٢م ومصرف نابولي الذي افتتح في اول كانون الاول ١٩١٣. وقد ساهمت هذه المصارف في منح القروض الزراعية واستثمار الاموال لتنمية التجارة والبناء والصناعة كما طبقت ليبيا النظم النقدية الايطالية وقواعد تداول العملة الايطالية وجرت كذلك عدة مسوحات للتأكد من طبيعة الاراضي الزراعية ومعرفة مدى استيعابها للمهاجرين الايطاليين. ومع ان الايطاليين انشأوا بضعة مراكز صناعية الا انها اعتمدت بشكل رئيس على استغلال الزراعة ومنتوجات البحر فقد تم انشاء مؤسسات لصيد سمك التون في برقة وطرابلس . واقيمت مصانع صغيرة لغرض استغلال ملح البحر وبذلت مجهودات كبيرة للتوسع في انتاج الزيتون والتبغ والجلود. كما تم انشاء اول مصنع للمكرونة في طرابلس وكان من اهم صناعات النسيج العاملة في ليبيا في عهد الاحتلال الايطالي هو مصنع برقة للنسيج . وفيما يتعلق بالشركات ، فقد وجدت في ليبيا بضعة شركات استعمارية ايطالية منها شركة الاشغال للمستعمرات بافريقيا والشركة الايطالية للطرق والشركة الايطالية للمقاولات في طرابلس وبنغازي .

ومهما يكن من امر فان السياسة الاستعمارية الايطالية قد ساهمت الى حد كبير في نهب ثروات ليبيا وتسخيرها في خدمة المصالح الايطالية والحيلولة دون رفع مستوى السكان من النواحي الاجتماعية والاقتصادية والسياسية .

مصادر الفصل السادس

الغزو الاستعماري الاوربي للوطن العربي

وردود الفعل العربية

(١) إباظة ،فاروق عثمان :عدن والسياسة البريطانية في البحر الاحمر ١٨٣٩ – ١٩١٨م، (القاهرة ،١٩٧٦م).

(٢) إبراهيم ،عبد العزيز عبد الغني: بريطانيا وإمارات الساحل العماني – دراسة في العلاقات التعاهدية ،(البصرة ،١٩٧٨م)

(٣) إبراهيم ،عبد الفتاح :على طريق الهند ،(بغداد،١٩٣٥م)

(٤) أحمد ، إبراهيم خليل .:ولاية الموصل :دراسة في تطوراتها السياسية ١٩٠٨ – ١٩٢٢م رسالة ماجستير قدمت لجامعة بغداد وهي غير منشورة .

(٥) أحمد ،عبد العاطي محمد :الأسلام والعروبة في المغرب العربي– مجلة قضايا عربية السنة (٦) العدد (٢) ، حزيران ،١٩٧٩م .

(٦) أحمد ، كمال مظهر :أضواء على قضايا دولية في الشرق الاوسط، (بغداد ،١٩٧٨م)

(٧) إشفورد، .دوجلاس أي : التطورات السياسية في المملكة المغربية، ترجمة عائدة سليمان (بيروت ،١٩٦٣م)

(٨) أمين ،عبد الامير محمد :القوى البحرية في الخليج العربي في القرن التاسع عشر ،(بغداد ،١٩٦٦م)

(٩) أمين ،.عبدالامير محمد: المصالح البريطانية في الخليج العربي ١٧٤٧ – ١٧٧٨ ترجمة هاشم كاظم لازم،(البصرة ،١٩٧٧م)

(١٠) إنطونيوس ،جورج :يقظة العرب، ترجمة ناصر الدين الاسد وإحسان عباس ،ط٣ (بيروت ،١٩٦٩م)

(١١) أنيس، محمد :الدولة العثمانية والشرق العربي ١٥١٤–١٩١٤م، (القاهرة ،١٩٦٣م)
(١٢) الباروني ،زعيمة سليمان :(جمع ونشر) صفحات خالدة من الجهاد، للمجاهد الليبي سليمان الباروني ج١-ج٢، (بيروت ، ١٩٦٨م)
(١٣) بروكلمان ، كارل :تاريخ الشعوب الاسلامية ،ترجمة نبيه أمين فارس ،ومنير البعلكي ،ط٥، (بيروت ،١٩٦٨م
(١٤) البهلوان ،علي: تونس الثائرة ،(القاهرة ،١٩٥٤م)
(١٥) بورقيبة ،الحبيب :بين تونس وفرنسا ،(تونس، ١٩٥٧م)
(١٦) بونداريفسكي :سياستان إزاء العالم العربي – ترجمة خيري الضامن، (موسكو، ١٩٧٥م)
(١٧) بركات ،علي محمد : السياسة البريطانية وإسترداد السودان ١٨٨٩– ١٨٩٩م (القاهرة ، ١٩٧٧م)
(١٨) تشايجي ، عبد الرحمن : المسألة التونسية والسياسة العثمانية ١٨٨١– ١٩١٣م ترجمة عبد الجليل التميمي ،(تونس ،١٩٧٣م)
(١٩) التميمي، حميد أحمد حمدان :البصرة في عهد الاحتلال البريطاني (بغداد ،١٩٧٩م)
(٢٠) التميمي ،عبد الجليل :بحوث ووثائق في التاريخ المغربي ،تونس، الجزائر وليبيا من ١٨١٦ إلى ١٩٧١ ،(تونس ،١٩٧١م)
(٢١) ثامر ،الحبيب :هذه تونس ،(القاهرة ،١٩٤٨م)
(٢٢) الجزائري ،أحمد ،كيف دخل الفرنسيون الجزائر، وصف شاهد عيان ،نشره وقدم له صلاح الدين المنجد (بيروت، ١٩٦٢م)
(٢٣) جلون ،عبد المجيد :هذه مراكش ،(القاهرة ،١٩٤٩م)
(٢٤) الجندي أنور: عبد العزيز جاويش – (القاهرة ،١٩٦٥م)

(٢٥) الجواهري ،عماد أحمد :الدور التاريخي للبصرة على الخليج العربي ١٥٠٠ ــ ١٦٠٠ مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية الكويت العدد (١٣) ١٩٧٩م .
(٢٦) جودة ، أحمد حسن : المصالح البريطانيا في الكويت حتى عام ١٩٣٩ (بغداد ،١٩٧٩م) .
(٢٧) حاكمة ، احمد مصطفى ابو : تاريخ شرقي الجزيرة العربية ١٧٥٠ ــ ١٨٠٠ وتطور الكويت والبحرين ترجمة انيس عبد الله، (بيروت لا ٠ ت) .
(٢٨) حامد ، رؤوف عباس : الحركة العمالية في مصر ١٨٩٩ و ١٩٥٢ (القاهرة ، ١٩٦٥م)
(٢٩) الحتة ،أحمد أحمد: تاريخ مصر الاقتصادي في القرن التاسع عشر (الاسكندرية ، ١٩٦٧م) .
(٣٠) حراز، السيد رجب : الدولة العثمانية وشبه جزيرة العرب ١٨٤٠ / ١٩٠٩ (القاهرة ، ١٩٧٠م) .
(٣١) حسن، حسن ابراهيم : المجمل في تاريخ المصري، (القاهرة، ١٩٤٢م) .
(٣٢) حسن، محمد سلمان : التطور الاقتصادي في العراق ١٨٦٤ ــ ١٩٥٨ (صيدا ، ١٩٦٥م) .
(٣٣) حسين ، فاضل ، واخرون : تاريخ العراق المعاصر ، (بغداد، ١٩٨٠) .
(٣٤) الحصرى، ساطع : البلاد العربية والدولة العثمانية ، ط ، (بيروت، ١٩٧٥م) .
(٣٥) حقي، احسان : تونس العربية ، (بيروت لا ٠ ت) .
(٣٦) حقي، احسان : ليبيا العربية ، (بيروت، ١٩٦٢م) .

(٣٧) حمدان، جمال : الاستعمار والتحرير في العالم العربي، (القاهرة، ١٩٦٤م) .
(٣٨) حوراني، هاني : التركيب الاقتصادي الاجتماعي لشرق الاردن: مقدمات التطور المشوه ١٩٢١ – ١٩٥٠ ،(بيروت، ١٩٧٨م).
(٣٩) خدوري، مجيد : ليبيا الحديثة في تطورها السياسي -، ترجمة نقولا زيادة، (بيروت، ١٩٦٦)
(٤٠) خدوري، مجيد : اسباب الاحتلال البريطاني للعراق ، (الموصل، ١٩٣٣م) .
(٤١) خميليونا ، ن. ك. : اعداد الحملة الفرنسية لاحتلال الجزائر في ١٨٣٠ ترجمة د. هاشم التكريتي،مجلة دراسات في التاريخ والاثار – بغداد – العدد (١) ، ١٩٨١ .
(٤٢) الداؤد ، محمود علي : تاريخ العلاقات الدولية في الخليج العربي ١٨٩٠ – ١٩١٤ ، (القاهرة ، ١٩٦١م) .
(٤٣) درمونة ، يوسف : تونس بين الحماية والاحتلال (القاهرة لا. ت) .
(٤٤) الرافعي ، عبد الرحمن : تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر ، حزيران ، (القاهرة ١٩٤٨ – ١٩٥٥) .
(٤٥) الرافعي ، عبد الرحمن : عصر محمد علي ، (القاهرة ، ١٩٣٠م).
(٤٦) الرافعي،عبد الرحمن : عصر اسماعيل– خزيران ، (القاهرة ١٩٤٨م) .
(٤٧) الرافعي ، عبد الرحمن : الثورة العرابية والاحتلال الانجليزي (القاهرة ، ١٩٤٩م) .
(٤٨) الرافعي عبد الرحمن، : مصطفى كامل ، باعث الروح الوطنية (القاهرة ١٩٤٩–١٩٥٠م) .

(٤٩) الرافعي ، عبد الرحمن : مقدمات ثورة ٢٣ يوليو / ١٩٥٢ ، (القاهرة ، ١٩٥٧م) .
(٥٠) الرافعي ، عبد الرحمن : محمد فريد رمز الاخلاص والتضحية تاريخ مصر القومي في ١٩٠٨ ـ ١٩١٩ (القاهرة ، ١٩٦٢م) .
(٥١) الرافعي ، عبدالرحمن : الزعيم أحمد عرابي ، (القاهرة ، ١٩٥٢م)
(٥٢) رزق ، يونان لبيب ، السودان في عهد الحكم الثنائي الأول ١٨٩٩ ـ ١٩٢٤ ، (القاهرة ، ١٩٧٦م) .
(٥٣) رزق ، يونان لبيب ، : الحياة الحزبية في مصر في عهد الاحتلال البريطاني ١٨٨٢ ـ ١٩١٤ (القاهرة ، ١٩٧٠م) .
(٥٤) رفاعي ، عبد العزيز : قضية الجلاء عن مصر بين سنتي ١٨٨٢ ـ ١٩٠٧ ، (القاهرة ، ١٩٦٦م) .
(٥٥) رفعت ، محمد : التوجيه السياسي للفكرة العربية الحديثة ، (القاهرة ، ١٩٦٤م) .
(٥٦) رمضان ، صالح : تغلغل النفوذ الأوربي واثره في الحياة الاجتماعية في مصر في عصر الخديوي اسماعيل ١٨٦٣ ـ ١٨٧٩ مجلة المؤرخ العربي ـ بغداد ـ العدد (١) ١٩٧٥م .
(٥٧) روز شتين ، تيودور : تاريخ المسألة المصرية من ١٨٧٥ ـ ١٩١٠ ترجمة عبد المجيد العبادي ومحمد بدران ، (القاهرة ، ١٩٣٦م) .
(٥٨) ريو ، جان بيير : الثورة الصناعية ١٧٨٠ ـ ١٨٨٠ ترجمة ابراهيم خوري ، (دمشق ، ١٩٧٥م) .
(٥٩) الزاوي ، الطاهر احمد : ولاة طرابلس من بداية الفتح العربي الى نهاية العهد التركي (بيروت ، ١٩٧٠م) .
(٦٠) الزاوي ، الطاهر احمد : جهاد الابطال في طرابلس الغرب ، (القاهرة ، بلا ت)

(٦١) زايد ، محمود : من احمد عرابي الى جمال عبد الناصر ، الحركة الوطنية ـ المصرية الحديثة (بيروت ، ١٩٧٣م) .
(٦٢) زيادة نقولا : تونس في عهد الحماية ١٨٨١ ـ ١٩٣٤ ،(القاهرة، ١٩٦٣م) .
(٦٢) زيادة نقولا : محاضرات في تاريخ ليبيا من الاستعمار الايطالي الى الاستقلال ، (القاهرة ، ١٩٥٨)
(٦٤) زيدان ، جرجي : تاريخ مصر الحديث جـ١ جـ٢ ، (القاهرة ، ١٩١١م) .
(٦٥) ستيوارت ، دزموند : تاريخ الشرق الاوسط الحديث ، (بيروت)
(٦٦) سعيد ، أمين : الدولة العربية المتحدة حـ٢ ،
(٦٧) سليمان ، حكمة سامي : نفط العراق : دراسة اقتصادية سياسية ط٢ (بغداد ، ١٩٧٩م) .
(٦٨) سعيد وني ، ناصر الدين ، الحصار البحري الفرنسي على السواحل الجزائرية ١٨٢٧ ـ ١٨٣٠م المجلة التاريخية ـ المغربية ، تونس ، عدد ٥ يناير ، كانون الثاني ١٩٧٦م .
(٦٩) السعيد ، رفعت : الأساس الاجتماعي للثورة العرابية ،(القاهرة، ١٩٦٦م) .
(٧٠) السيار ، عائشة : دولة اليعاربة ، في عمان وشرق افريقيا في الفترة من ١٦٢٤ ـ ١٧٤١ (بيروت ، ١٩٧٥م) .
(٧١) السيد ، أحمد لطفي : صفحات مطوية من تاريخ الحركة الاستقلالية في مصر ، (القاهرة ، ١٩٤٦م) .
(٧٢) الشافعي ، شهدي عطية : تطور الحركة الوطنية المصرية ١٨٨٢ ـ ١٩٣٦ ، (القاهرة ، ١٩٥٧م) .

(٧٣) شبر ، حكمة : الجوانب القانونية لنضال الشعب العربي من أجل الاستقلال ، (بغداد ، ١٩٧٤م) .
(٧٤) شبيكة ، مكي : العرب والسياسة البريطانية في الحرب العالمية الاولى جزءان ، بيروت ، ١٩٧١م) .
(٧٥) شريف ، ابراهيم : الشرق الاوسط ، (بغداد ، ١٩٦٥م).
(٧٦) شكري ، محمد فؤاد: السنوسية دين ودولة ، (القاهرة ، ١٩٤٨م).
(٧٧) شكري ، محمد فؤاد: مصر في مطالع القرن التاسع عشر ١٨٠١ ١٨١١، ٣ أجزاء ، (القاهرة ، ١٩٥٢م) .
(٧٨) شكري، محمد فؤاد : مصر والسودان تاريخ وحدة وادي النيل السياسية في القرن التاسع عشر ١٨٢٠ ـ ١٨٩٩ ، (القاهرة ، ١٩٥٧)
(٧٩) الشنيطي ، محمود : قضية ليبيا ، (القاهرة ، ١٩٥١م) .
(٨٠) صالح ، زكي : المجمل في تاريخ العراق الدولي في العهد العثماني (القاهرة ، ١٩٦٦م) .
(٨١) صالح ، زكي : بريطانيا والعراق حتى ١٩١٤ دراسة في التاريخ الدولي وللتوسع الاستعماري (بغداد ، ١٩٦٨م) .
(٨٢) صالح ، زكي : مقدمة في تاريخ العراق المعاصر ، (بغداد ١٩٥٣م) .
(٨٣) صالح ، محمد محمد : تاريخ اوربا الحديث ١٨٧٠ ـ ١٩١٤ ط٢، (الموصل ، ١٩٨١م) .
(٨٤) صايغ ، انيس: الفكرة العربية في مصر ، (بيروت ، ١٩٥٩م).
(٨٥) صفوة ، محمد مصطفى : الاحتلال الانجليزي لمصر وموقف الدول الكبرى ازاءه (القاهرة، ١٩٥٢م) .
(٨٦) صفوة ، محمد مصطفى: مؤتمر برلين سنة ١٨٧٨م واثره في البلاد العربية ، (القاهرة ، ١٩٥٧م)

(٨٧) طه، عبد الرحمن علي: السودان للسودانيين، (د.م، لا. ت)
(٨٨) العابد، صالح محمد: دور القواسم في الخليج العربي ١٧٤٧ - ١٨٢٠ بغداد ، ١٩٧٦).
(٨٩) عامر ، احمد بن: تونس عبر التاريخ، (تونس، ١٩٦٠).
(٩٠) عباس ، احسان: تاريخ ليبيا، (بيروت، لا.ت).
(٩١) عبد الكريم، احمد عزت: دراسات في تاريخ العرب الحديث (بيروت ، ١٩٧١م).
(٩٢) العبيدي، ابراهيم خلف: الحركة الوطنية في الجنوب اليمني ١٩٤٥ ١٩٦٧ ، (بغداد ، ١٩٧٩م) .
(٩٣) عرابي، احمد: مذكرات احمد عرابي، (القاهرة ، ١٩٥٣).
(٩٤) عز الدين، امين: تاريخ الطبقة العاملة المصرية منذ نشأتها حتى ١٩١٩ ، (القاهرة ، ١٩٦٧م).
(٩٥) العطار، نادر: تاريخ سوريا في العصور الحديثة، جزءان.
(٩٦) العقاد ، صلاح: المغرب العربي ، ٥ ط٢ (القاهرة ، ١٩٧٥)
(٩٧) العقاد صلاح: الاستعمار في الخليج العربي، (القاهرة، لا . ت)
(٩٨) العقاد صلاح: ليبيا المعاصرة، (د.م،لا.ت) .
(٩٩) العقاد ، صلاح : التيارات السياسية في الخليج العربي، (القاهرة، لا . ت).
(١٠٠) العقادصلاح: المغرب العربي ط٢ (القاهرة ، ١٩٦٦م) .
(١٠١) عمارة، محمد: الجامعة الاسلامية والفكرة القومية عند مصطفى كامل ، (بيروت ، ١٩٧٦م).
(١٠٢) عمر، عمر عبد العزيز: دراسات في تاريخ العرب الحديث والمعاصر (بيروت ، ١٩٧٥م) .
(١٠٣) عيسى، صلاح: الثورة العرابية ، (بيروت ، ١٩٧٢م).

(١٠٤) الفياض. عبد الله: الثورة العراقية الكبرى سنة / ١٩٢٠ (بغداد، ١٩٦٣م).
(١٠٥) قاسم، جمال زكريا : الخليج العربي ١٨٤٠ - ١٩١٤، (القاهرة، ١٩٦٦م).
(١٠٦) القهواتي، حسين محمد : دور البصرة التجاري في الخليج العربي ١٨٦٩ - ١٩١٤، (بغداد، ١٩٨٠م).
(١٠٧) كرابتس، بيير: اسماعيل المفتري عليه ، ترجمة فؤاد صروف، القاهرة ، ١٩٣٣م).
(١٠٨) كرومر، اللورد : الثورة العرابية - ترجمة عبد العزيز عرابي ، (القاهرة ، ١٩٥٨م).
(١٠٩) كرومر، اللورد: مصر الحديثة حـ١ - ترجمة اسكندر مكاريوس، (القاهرة ، ١٩٠٩م).
(١١٠) كريم، مصطفى : مسألة غزو ايطاليا الاستعماري لليبيا- المجلة التاريخية المغربية عدد (٥) يوليه / ١٩٧٦م.
(١١١) كلوت، أ . ب : لمحة عامة الى مصر ، جزءان ، ترجمة محمد مسعود ، (القاهرة ، لا . ت).
(١١٢) كوتلوف ، ل . ن : ثورة العشرين الوطنية التحررية، ترجمةعن الروسية عبد الواحد كرم ، (بغداد ، ١٩٧١م).
(١١٣) الكيالي، عبد الوهاب ، الجذور التاريخية للتحالف الامبريالي الصهيوني ، (بيروت، ١٩٧٧م).
(١١٤) كيلي، جي ، بي : الحدود الشرقية لشبه الجزيرة العربية، تعريب وتعليق خيري حماد (بيروت ، ١٩٧١م).
(١١٥) لاندز، دافيد : بنوك وباشوات - ترجمة عبد العظيم انيس، (القاهرة ، ١٩٦٦م).

(١١٦) لنشوفسكي، جورج : الشرق الاوسط في الشؤون العالمية ، جزءان ترجمة جعفر خياط (بغداد ، ١٩٦٤م).
(١١٧) لوتسكي ، فلاديمير بوريسوفتش : تاريخ الاقطار العربية الحديث ترجمة عفيفة البستاني ، (موسكو ، ١٩٧١م).
(١١٨) لينين، فلاديمير ايليتش : الاستعمار اعلى مراحل الرأسمالية — ترجمة راشد البراوي (القاهرة لا ٠ ت).
(١١٩) مؤنس ، حسين : الشرق الاسلامي في العصر الحديث ،القاهرة، ١٩٣٨م).
(١٢٠) مدثر ، عبد الرحيم : الامبريالية والقومية في السودان ١٨٩٩ — ١٩٥٦ ، (بيروت ، ١٩٧١م).
(١٢١) المرزوقي، محمد : صراع مع الحماية ، (تونس ، ١٩٧٣م).
(١٢٢) مسعود ، محمد : موجز تاريخ ليبيا الحديث، (بيروت، لا ٠ت)
(١٢٣) مصطفى ، احمد عبد الرحيم : تاريخ مصر السياسي من الاحتلال الى المعاهدة (القاهرة، ١٩٦٧)
(١٢٤) موسى، سليمان: (تحرير) المراسلات التاريخية ١٩١٤ـ ١٩١٨م.
(١٢٥) موسى، سليمان: الثورة العربية الكبرى ، (عمان ، ١٩٧٣م).
(١٢٦) النجار ، حسين فوزي : بريطانيا والجنوب العربي، (القاهرة، ١٩٦٧م).
(١٢٧) النجار، حسين فوزي: الشرق العربي بين حربين، (القاهرة، ١٩٦٣م).
(١٢٨) النجار ، مصطفى عبد القادر : التاريخ السياسي لمشكلة الحدود الشرقية للوطن العربي في شط العرب ، (البصرة ، ١٩٧٤م).
(١٢٩) النجار، مصطفى عبد القادر: التاريخ السياسي لامارة عربستان العربية ١٨٨٧ — ١٩٢٥ ، (القاهرة، ١٩٧١م).

نحو الولايات العربية، واتجاه التجار الاوربيين الى جعل هذه الولايات كلها منتجة للمواد الاولية والغذائية وسوقاً لتصريف بضائعهم المصنوعة ومجالاً لأستثمار اموالهم ، في اقامة المشروعات او تقديم القروض محاولين ربط اقتصادها بالسوق العالمية. وتحت تأثير ضغط الملاكين الجدد اتجه الاقتصاد في معظم الولايات العربية، من اقتصاد طبيعي يسد الحاجة المحلية الى اقتصاد التسويق القائم على الربح. وقد تفاوتت الولايات العربية في حجم التطور الذي حصل في العلاقات الاقتصادية والاجتماعية الجديدة ، لعوامل جغرافية وتاريخية. كما سبق ان قدمنا فقد اسهمت البنوك في تسهيل عملية التعامل المصرفي، ومعظم المصارف التي تأسست في الولايات العربية، كانت برؤوس اموال اجنبية. واصبح للتجار العرب فعاليات مهمة في مجال الاستيراد والتصدير. وكان لتلك النشاطات اثر كبير في نشوء فئات برجوازية تجارية جديدة ، واصبح لهذه الفئات وزن مهم في الحياة الاقتصادية والاجتماعية، وكان لهذه الفئات كذلك صلة قوية بالعوامل الاقطاعية المحلية. وقد اخذت تلك الفئات تثبت وجودها وتعبر عن واقعها بشكل او بأخر . وكان كل تغيير في ذلك التعبير يعتمد الى حد كبير على مدى تطورها ، خاصة في امكاناتها لايجاد مواقع ثابتة لها في الحياة الاقتصادية.

وبالرغم من المواقع الاقتصادية التي احرزتها الفئات البرجوازية تلك، الا أنها لن تستطع ان تتحول الى قوة مستقلة في البناء الاجتماعي، زيادة على ذلك ان شرائح عديدة من هذه الفئات امثال صغار التجار واصحاب الدكاكين الحرفية وغيرهم كانت تلاقي الكثير من اضطهاد رأس المال الاجنبي والبرجوازية الكبيرة. الا أنها بحكم واقعها لم تستطع التحرك باتجاه من شأنه فرض رياح التغيير على مجتمع المدينة . وربما كان المثقفون (الانتلجنتسيا Intelgentisia) ، وهم القطاع الديناميكي المتحرك داخل البرجوازية ، الوحيدين الذين بدأوا يتحركون بمثل ذلك الاتجاه. والمثقفون اساساً هم من ابناء العوائل الكبيرة، ومن البيوتات التجارية المعروفة انذاك.

(١٣٠) نوار، عبد العزيز: المصالح البريطانية في انهار العراق ١٦٠٠ –١٩١٤ (القاهرة ، ١٩٦٨م) .
(١٣١) نوسشي، اندرة : الصراعات البترولية في الشرق الاوسط، ترجمه عن الفرنسية اسعد محفل ، (بيروت ، ١٩٧١م) .
(١٣٢) ياخيموفتش ، ز . ب : الحرب التركية الايطالية ١٩١١ – ١٩١٢ ترجمة هاشم صاح التكريتي ، (بنغازي ،١٩٧٠م).
(١٣٣) يحيى ، جلال : السياسة الفرنسية في الجزائر ١٨٣٠ – ١٩٦٠
(١٣٤) يحيى والمرزوقي ، الجيلاني بن الحاج – ومحمد: معركة الزلاج، (تونس، ١٩٧٤م).

Earle,E.M–:Turkey, The Great powers, and the Baghdad(١٣٥)
Railway, (New York 1935)

Jastrow, Morris–:The War and the Baghdad Railway, (١٣٦)
London 1917)

Marlow, John–:Anglo–Egyption Relations 1800–1956(Lo- (١٣٧)
don, 1965)

Micaud,charles.A.–:Tunisia the politics of Madernization,(١٣٨)
(London, 1964).

Moore, Henry clement–: Tunisia since Independence, (١٣٩)
(Los Angeles, 1963)

Saleh, Zaki–: Mesoptamia, 1600–1914, (Baghdad,1957) (١٤٠)

Shibeika, M–:The Independent of sudan, Uewyork, 1959)(١٤١)

Zayid, Mahmud–:Egypts strggle forIndependence (Bei - (١٤٢)
rut 1964).

لقد رافق ظهور تلك التطورات في البنيان التحتي للمجتمع انعكاسات طبيعية في البناء الفوقي. وتحددت الظروف الموضوعية الجديدة التي حتمت تغيير المجتمع التقليدي القديم. واخذ الناس يفكرون باسلوب جديد، وينظرون الى الاشياء والمتغيرات في الحياة نظرة واقعية من السابق. وانتشرت بين الموظفين وضباط الجيش والمعلمين والتجار والكتاب افكاراً جديدة تتعلق بالمجتمع وكيفية تنظيمه، لاسيما فكرة تنظيم المجتمع على اساس وطني يقوم على اساس الولاء القومي والوحدة القومية وينضم تحت لواءها العرب على اختلاف اديانهم ومذاهبهم وطوائفهم. وطبيعي ان هذه القفزة حدثت بعد جمود استمر قروناً عديدة، بفعل التطور الاقتصادي — الاجتماعي. وساهم في صقلها الاحتكاك بالفكر الاوربي ومكتسبات الحضارة العلمية والتكنولوجية. ولم يجر ذلك ضمن الوطن العربي كله على مستوى واحد، بل تأثر بعوامل كثيرة منها عامل الموقع. وقد تجلى التغيير في مجالات عديدة منها الادب الذي بدأ منذ ذلك الوقت يبحث عن اشكال جديدة متميزة عن المفاهيم العثمانية الكلاسيكية التي كانت تسود العصر مثل الاستناد الى قدسية الخلافة العثمانية وسيادة الدين. وقد ربطت كثير من القصائد التي نظمت في اقطار عربية عديدة خلال هذه الفترة بين تأخر الامة العربية وسوء الادارة العثمانية، ولاقت بعض القصائد رواجاً كبيراً بين المثقفين لما تضمنته من نزعة عربية واضحة وتبرم ونفور من الحكم العثماني.

كما تجلى التغير في ظهور المدارس الحديثة على النمط الاوربي من حيث وجود منهج يتضمن مفردات المواد الدراسية واغراض تدريسها ويقوم بتدريس هذه المواد معلمون مؤهلون وفق كتب مؤلفة في ضوء محتوى المنهج المدرسي وبامتحانات منظمة وجداول دورس اسبوعية. لذلك فقدت المؤسسات التعليمية الدينية التقليدية اهميتها وقل اقبال الطلاب عليها وصار عددها يتناقص وتأثيرها يضعف في المجتمع.

الفصل السابع

اتجاهات حركة النهضة الحديثة في الوطن العربي ونشوء الحركة القومية العربية

شهدت الفترة من ١٩٠٨ـ ١٩٢٤م تنامي الوعي القومي العربي، وقد سبقت حركة الوعي القومي هذه، نهضة فكرية بدأت منذ منتصف القرن التاسع عشر، وشملت مختلف جوانب الحياة العربية: السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية. ولما كان لكل حركة قومية ان تضمن لنفسها واقعاً تعمل من خلاله، فقد اثمرت تلك النهضة الفكرية واخذ صداها يترك اثارة على الاوضاع السياسية. وسنتعرض اولاً لدوافع حركة النهضة العربية.

دوافع حركة النهضة العربية :

اشرنا فيما سبق الى التنظيمات العثمانية وما احدثته من تغييرات في الواقع الاقتصادي والاجتماعي، خاصة فيما يتعلق بحدوث انقلاب في طبيعة العلاقات الاجتماعية داخل القبيلة، وتعاون رؤساء العشائر واثرياء المدن في الاستحواذ على كثير من الاراضي الزراعية والقرى وظهور طبقة الملاكين (Landlords).

لقد ازداد الطلب على المنتوجات الزراعية والحيوانية نتيجة للتغلغل الاستعماري الاوربي في الوطن العربي وتدفق رؤوس الاموال الاجنبية

٢٠٠٢/٧/٢

وقد اسهم نشاط الارساليات التبشيرية التي وجدت طريقها الى بعض الولايات العربية منذ القرن السابع عشر، في قيام حركة فكرية ويمكن تقدير اهمية وجود هذه الارساليات اذا علمنا بانها عملت على ادخال اللغة العربية والعلوم الحديثة ضمن مناهج مدارسها. لهذا ازداد الاقبال على المدارس التبشيرية لاسيما من قبل ابناء العوائل الثرية. وكان من اسباب هذا الاقبال كذلك ان المدارس الرسمية العثمانية كانت تدرس باللغة التركية. هذا فضلا عن ان المدارس التبشيرية اخذت تهتم بقضايا اجتماعية كثيرة، كالموسيقى والمسرح مما جلب انظار الناس اليها. كما حدث عندما قدمت المدرسة الاكليريكية للاباء الدومنيكان في الموصل سنة ١٨٩١م اول مسرحية في تاريخ العراق الحديث، والتي كانت تدور حول حياة الفلاح وعلاقته بالارض.

لقد شهدت الولايات العربية، كما اشرنا الى ذلك من قبل، قيام عدد من المطابع. وعلى الرغم من ان نشاطها كان محدوداً، لكنها ساهمت في طريقة التطور نحو الوعي الثقافي بين طبقات السكان المختلفة، وتهيئة الاجواء القومية كذلك. فسرعان ماخرجت تلك المطابع العديد من الكتب والصحف والمجلات التي انتشرت بين المثقفين وادت عملها في ايقاظ الفكر وتنمية الثقافة.

وجه الفكر العربي منذ بدء حركة النهضة، تلك جملة من التسأولات ولقد قويت وتطورت تلك الاتجاهات بشكل خاص بعد انتصار الثورة الدستورية العثمانية في ٢٣ تموز ١٩٠٨م. اذ تأثر الوعي العربي القومي في هذه الفترة بالذات، وشهدت السنوات من ١٩٠٨ – ١٩١٤م تنامي الوعي القومي للعناصر التي تتألف منها الدولة العثمانية. ولم يشذ العرب عن ذلك. اذ بدأوا في تشكيل الجمعيات والاحزاب السرية والعلنية والتي قامت بدور مهم في العمل من اجل التخلص من النير العثماني. ومما يلحظ ان الحركة العربية القومية، كغيرها من الحركات القومية في العالم، قد تدرجت من اتجاهات ثقافية الى اخرى سياسية، وتطورت من تطلعات اقليمية محدودة

ضمن الاطار العثماني الى افاق اوسع كما سيتوضح من استعراضنا لنشأتها. وسنقف اولا عند اتجاهات حركة النهضة الفكرية الحديثة في الوطن العربي.

اتجاهات حركة النهضة العربية الحديثة :

ظهرت في الوطن العربي ، اواخر القرن التاسع عشر اتجاهات فكرية عديدة. وقد ذهب مؤرخو عصر النهضة العربية الحديثة مذاهب شتى في عرض تلك الاتجاهات وتوضيح مضامينها السياسية والاجتماعية الا انها لاتخرج ، برأينا عن الاتجاهات التالية :

١ — الاتجاه الديني — الاصلاحي : ويدعو هذا الاتجاه الى بعث نهضة اسلامية ، على غرار النهضة التي جرت في اوربا خلال حركة الاصلاح الديني المعروفة في اوربا بقيادة مارتن لوثر . ويقوم هذا الاتجاه على التوفيق بين الدين الاسلامي ومنجزات العلم الحديثة ، لتتمكن المجتمعات الاسلامية من التكيف مع متطلبات العصر الحديث . ويتمسك ممثلو هذا الاتجاه بالرابطة العثمانية . وهذا الاتجاه ، كما يقول الدكتور الياس فرح ، محاولة لتجاوز اتجاهين متعارضين أولهما الاتجاه الديني التقليدي الذي يمثل النظرة الشكلية غير الجوهرية للاسلام فيطمس جوهرة الحضاري ، ويأسر الفكر ضمن اطار التقليد والمحاكاة القديم ويغلق باب الاجتهاد ، ويبعد المجتمعات الاسلامية عن التفاعل مع التطور العلمي والحضاري الحديث اما الاتجاه الثاني فهو الاتجاه العقلاني العلماني الذي ينطلق من نظرة خارجية الى الواقع ويتجاهل الصلة الطبيعية بين الماضي والحاضر ، ويقفز الى مستقبل لاصلة له بهذه الديموية التاريخية الواقعية ، فتتخذ تصوراته الاصلاحية طابعاً طوباوياً مغرقاً في رد الفعل وفي الذاتية ويرتدي «اخلاماً تقدمية». ومن ابرز ممثلي الاتجاه الديني الاصلاحي جمال الدين الافغاني (١٨٣٨ — ١٨٩٧م) ومحمد عبده (١٨٤٩ — ١٩٠٥م) ومحمد رشيد رضا (١٨٦٥ — ١٩٢٥م).

جمال الدين الافغاني :

ولد جمال الدين الافغاني سنة ١٨٣٨م في مدينة سعد آباد بافغانستان وقد تلقى دراسته الاولى التي اقتصرت على اللغة العربية والعلوم الدينية والفلسفة والرياضيات على الطريقة التقليدية في التعليم انذاك . ثم سافر الى الهند واقام بها قرابة سنة درس فيها العلوم الاوربية الحديثة . وقد ادى فريضة الحج سنة ١٨٥٧ ثم عاد الى بلاده لينتظم في سلك الوظيفة الحكومية . لكنه ترك افغانستان قاصداً مصر لاول مرة سنة ١٨٧٠م وهناك تعرف على شاب ازهري هو الشيخ محمد عبدة وكان لهذا اللقاء اثر حاسم في حياتهما ، اذ اصدر الاثنان بعد ذهابهما الى باريس سنة ١٨٨٤م ثمانية عشر مجلداً من مجلة عربية تدعى (العروة الوثقى) خصصت معظم صفحاتها لتحليل سياسة الدول العظمى ومواقفها من العالم الاسلامي . كما عالجت موضوع تخلف المسلمين انذاك . وكانت لغة المجلة من اختصاص محمد عبده ، اما التفكير والتحليل فكان من نصيب الافغاني ، وهكذا اصبحت ، بفضل لغتها وفكرها معاً ، من اشد المجلات العربية تأثيراً على المثقفين انذاك .كما اسسا جمعية سرية من المسلمين المصممين على العمل من اجل وحدة الاسلام واصلاح شؤون المسلمين . لكن مدى انتشار هذه الجمعية مايزال غامضاً، مع انها كانت ذات فروع في تونس واقطار عربية اخرى .

كان الافغاني يميل بطبعه الى الرحلات ، واستطلاع اوضاع العالم الاسلامي . وقد صرف جزءاً كبيراً من حياته في القاء المحاضرات التي كرسها لفضح اثر الاستعمار على الجوانب المختلفة لحياة الشعوب الاسلامية. وكان العلاج الذي يقترحه دائماً هو تمسك المسلمين بأسلامهم ، وعلى وجه اخص الجهاد في سبيل الله والقيام به ،لانه كان يرى ضرورة الثورة على الاستعمار الاوربي باعتباره مصدراً للفساد والضعف في حياة المسلمين في آسيا وافريقيا . ومن ثم كان برنامجه ، كما اورده في العروة الوثقى :



ناصر الدين (١٨٣١ – ١٨٩٦م) مصراً على منحه الى شركة بريطانية المذلك طرد الافغاني وحمله الجند الايرانيين ليلقوه مريضاً على الحدود العراقية – الايرانية بالقرب من البصرة. وقد مكث في البصرة ريثما عادت اليه صحته وفي ١٨٩٢م، دعاه السلطان عبد الحميد الى استانبول . وهناك انهى الافغاني بقية حياته اشبه بسجين في بلاط السلطان وان احيط بالاكرام حتى توفى اواخر سنة ١٨٩٦م .

تعد حركة الافغاني ودعوته استمراراً للحركات الدينية الاصلاحية التي سبقتها ، وخاصة الوهابية والتي تشترك جميعها في الكفاح من اجل الحفاظ على سلامة الفكر واهله من التعديات والتشويهات التي اصابته من الداخل والخارج . الا ان مايميز حركة الافغاني عن غيرها من الحركات هي انها ، كما يقول الدكتور فاضل زكي محمد ، حركة سياسية اتخذت منهجاً اسلامياً حديثاً . ويتمثل هذا المنهج الاسلامي الحديث في التمييز مابين الاسلام الاصيل الذي لايقف امام التطور والتقدم ويتماشى مع احدث اساليب الحكم وبين الاسلام المفترى عليه الذي التصقت به خصائص مصطنعة لاتمت اليه بصلة والتي اظهرته بصورة الدولة والنظام المتصلب والمنعزل ، وتعاون على اظهار صورته المصطنعة هذه مفكرون غربيون اسموا انفسهم بالمستشرقين .

ان محور افكار الافغاني يدور حول بناء مجتمع اسلامي سليم متماسك موحد يأخذ بكل اساليب التقدم والحياة الحديثة التي لاتتعارض وروح الاسلام. فعلى الصعيد الداخلي، انتقد الافغاني الاوضاع السياسية في العديد من الاقطار الاسلامية ورأى ان وضع دستور يجدد العلاقة بين الحاكمين والمحكومين امر ضروري لتوفير حرية الشعب في القول والعمل. كما هاجم الافغاني المذهب المادي، شارحاً اخطاره ومضاره على المجتمع الاسلامي . لقد رأى ان الضعف الحقيقي للمسلمين بدأ بظهور المذاهب الطبيعية والدهرية والباطنية ووصف هذه المبادىء بانها هدامة تسعى لتفرقة المسلمين عن طريق التشكيك بعقيدتهم

وبالتالي افسادها .اما على الصعيد الخارجي فقد ربط الافغاني بين الاستعمار الاوربي والضعف الداخلي. لذلك فعلى المسلمين ان يعملوا على ان يكونوا سادة انفسهم في الداخل والخارج والسبيل إلى ذلك هو الالتفاف حول المبادىء الحقة للاسلام والتي توصلهم إلى تحقيق حريتهم وقوتهم ووحدتهم، ويقصد الافغاني بالوحدة، كل شعب اسلامي من الداخل واتحاد الشعوب الاسلامية مع بعضها في اهدافها وفي ظل وحدة اسلامية وبذلك فقط يستطيع المسلمون القضاء على التعصب المذهبي والسلبية والعنف وتسلط الأجنبي.

لم يدع الافغاني، كما أشار جرجي زيدان وجارلس ادامز، إلى توحيد كلمة الاسلام ولم شمل المسلمين في سائر اقطار العالم في حوزة دولة واحدة يقودها الخليفة الاعظم الذي لايشاركه في الحكم احد. وانما كان يدعو إلى ان اشراك الامة في حكم البلاد عن طريق الشورى وانتخاب نواب عن الامة هو البديل لاشكال الاستعباد الذي عرفه الشرق انذاك، فالقوة المطلقة تعني الاستبداد ولاحياة للدولة الا برجل قوى عادل يحكم الامة باهلها «على غير طريق التفرد بالقوة والسلطان».

حاول السلطان عبد الحميد الاستعانه باراء الافغاني المتعلقة بالوحدة في الدعوة إلى حركة الجامعة الاسلامية التي تبناها السلطان انذاك لتحقيق بعض المصالح السياسية على الصعيدين الداخلي والخارجي .فعلى الصعيد الداخلي سعى السلطان عبد الحميد للظهور بمظهر التقي الورع، فطهر قصوره من الخمور والمجون واولى الشؤون الدينية عناية كبيرة. فعلى سبيل المثال امر في سنة ١٨٩٨م بأن يتلى المولد النبوي الشريف في مدارس استانبول كافة واهتم بتشييد مساجد وتكايا كثيرة، كما كان من مظاهر تطبيق سياسة الجامعة الاسلامية تقريب العرب واستمالتهم. اذ اسند عبد الحميد مناصب كبيرة إلى بعض العرب، فمثال ذلك عين عزت باشا العابد سكرتيراً ثانياً للبلاط ونعوم باشا معاوناً لمستشار وزارة الخارجية، ونجيب ملحمه باشا رئيساً لجهاز الجاسوسية. كذلك زاد عدد الضباط العرب في الجيش العثماني، وفضلاً عن ذلك شكل

«خدمة الشرقيين على مافي الامكان من بيان الواجبات التي كان التفريط فيها موجباً للسقوط والضعف وتوضيح الطرق التي كان يجب سلوكها لتدارك مافات والاحتراس من غوائل ماهو آت . ويستتبع ذلك البحث في اصول الاسباب ومنا شيء العلل التي ذهبت بهم، إلى جانب التفريط والبواعث التي دفعت بهم إلى مهام وعرة عميت فيها السبل واشتبهت فيها المضارب ...وان الظهور في مظهر القوة لدفع الكوارث انما يلزم له التمسك ببعض الاصول التي كان عليها آباء الشرقيين واسلافهم ... ودفع مايرمي بهالشرقيون عموماً والمسلمون خصوصاً من التهم الباطلة التي يوجهها اليهم من لاخبرة لهم بحالهم ، ولا وقوف على حقائق امورهم وابطال زعم الزاعمين ان ان المسلمين لايتقدمون إلى المدنية مادامو على اصولهم التي فاز بها آباؤهم الاولون ».

أثارت شخصية الافغاني وآراؤه ، في اثناء اقامته بباريس كثيراً من الاهتمام بين الاوربيين المعنيين بشؤون العالم الاسلامي . وقد دخل في نقاش مع المستشرق ارنست رينان حول موقف الاسلام من العلم . كما استفاد من علاقته الشخصية بالفرد بلنت Blunt (وهو من السياسيين الانكليز ، زار مصر سنة ١٨٨٠م واستقر فيها برهة من الزمن)،لينقل وجهة نظره فيما يتعلق بمستقبل مصر والسودان السياسي . وكان بلنت الذي ألف كتاباً ضمنه ملاحظاته وافكاره نشر سنة ١٨٨٢مباسم «مستقبل الاسلام» يعطف على الحركات القومية في الهند ومصر وقد قضى الافغاني سنة ١٨٨٥م بعض الوقت في لندن ، حيث حل ضيفاً على بلنت، للبحث في مستقبل مصر مع السياسيين الانكليز . وقد اوفدت الحكومة البريطانية السر هنري درموند وولف الى استانبول للبحث في مستقبل مصر مع السلطان العثماني على ان يذهب الافغاني لمساعدته في المفاوضات غير ان هذه الخطة فشلت . وحين يئس الافغاني من امكانية ايجاد حل للقضية المصرية ذهب الى ايران ليساهم في حركة المعارضة ضد امتياز التبوغ الذي كان الشاه

من الجنود العرب وحدات عسكرية وضمها إلى حرسه الخاص. كما دعا قسماً من كبار رجال الدين العرب للاقامة في استانبول. واسس في استانبول مدرسة خاصة بأبناء رؤساء العشائر العربية وقيل انه فكر بجعل العربية لغة رسمية للدولة العثمانية. ومن جهة اخرى فقد استفاد عبد الحميد من سياسة الجامعة الاسلامية لقمع الانتفاضات في اجزاء عديدة من دولته والتلويح بخطر الاستعمار والتدخل الاجنبي. وكان هدفه من ذلك تخويف الدول الاوربية واشعارهم بتأييد المسلمين له في المستعمرات الواقعة تحت سيطرتهم لذلك فقد احيى لقب الخلافة وراح يؤكد مركزه كخليفة للمسلمين.

رأى عبد الحميد ان الاعتماد على اوربا وتطبيق نظمها في الدولةالعثمانية، ادى إلى تقلص مساحة الدولة العثمانية وضياع الكثير من ممتلكاتها، وان الانحطاط والتدهور الذي اصاب العالم الاسلامي عامة لم يكن مرده عوامل داخلية، بقدر ماكان بسبب التغلغل الاستعماري الاوربي، لذلك حاول عبد الحميد، استغلال حركة الجامعة الاسلامية، على الصعيد الخارجي لتحرير الولايات التي وقعت تحت النير الاستعماري الاوربي. فأنشأ مدرسة في استانبول لاعداد دعاة لحركة الجامعة الاسلامية وارسل اعداد كبيرة من خريجيها للدعاية له إلى الهند وتركستان وايران والصين واقطار المغرب العربي. كما سخر الصحافة كذلك في الدعاية لحركة الجامعة الاسلامية وطبع الاف من المصاحف الكريمة ووزعها في ارجاء عديدة. وقد كسب عبد الحميد تأييد الالاف من الحجاج بفضل انشائه سكة حديد الحجاز التي كان من اهدافها تسهيل اتصال المسلمين ببعضهم.

لقد عزا البعض من المؤرخين النجاح الذي حققته حركة الجامعة الاسلامية إلى مساندة جمال الدين الافغاني لها. لكن هذا لم يمنع من ان يبدي بعض الاحرار سواء في استانبول او في الولايات العربية ارتيابهم من نوايا عبد الحميد واستبداده. حتى ان الافغاني نفسه كاشف عبد الحميد بما كان يعتقده ويراه، وفي مقدمة ذلك ضرورة تعميم اللغة العربية في الدولة العثمانية وجعلها اللغة

الرسمية. وتوحيد العرب والاتراك بجعلهم «امة عربية بكل مافي اللسان من معنى وفي الدين الاسلامي من عدل، وفي سيرة افاضل العرب من اخلاق، وفي مكارمهم من عادات» لاان يعامل العرب ولغتهم بصورة تشجع على الفرقة والانقسام والانتفاض. لقد ادرك الافغاني ان عبد الحميد لم يكن جادا فيما يدعو له بدليل استبداده ورضوخه لمطالب الاوربيين مرات عديدة. لذلك كان يحذر باستمرار من عدم السماح للمصالح السياسية لحكام المسلمين ان تحول دون الوحدة الحقيقية. واراء الافغاني هذه تلقي الضوء على حياة الافغاني المضطربة وتنقلاته المستمرة ومواقفه تجاه الحكام المسلمين ومن سيرة علاقاته العاصفة معهم.

الشيخ محمد عبـده:

ولد الشيخ محمد عبده في قرية محلة نصر على ضفاف النيل سنة ١٨٤٩م وادخله ابوه كتاب القرية ثم ارسله إلى الجامع الاحمدي بطنطا لتلقي العلوم الدينية وبعد ذلك بعثه إلى القاهرة ليدخل الجامع الأزهر. وهناك التقى، كما سبق ان قدمنا، باستاذه جمال الدين الافغاني. لكن محمد عبده لم يبق طيلة حياته تلميذاً للافغاني، كما لم تكن سنوات التعاون بينهما اخصب سني حياته. فقد كتب له، كما يقول البروفسور البرت حوراني، ان يكون مفكراً نظامياً اكثر من معلمه، وان يحدث في الفكر العربي الاسلامي تأثيراً ابقى من تأثيره، وابعد مدى. لقد اوضح محمد عبده اراء استاذه ونظّمها وسجّلها وطوّرها في بعض المواضع. حتى ان الافغاني حين ترك مصر قال يوم وداعه لبعض مودعيه «قد تركت لكم الشيخ محمد عبده وكفى به لمصر عالماً».

مكث محمد عبده في الازهر بين سنتي ١٨٦٩و١٨٧٧م. وقد استهواه بنوع خاص، شيخ يدرس علم المنطق والفلسفة. وفي هذه الفترة كذلك نشر مجموعة من المقالات السياسية والاجتماعية في جريدة الاهرام. وبعد ان انهى دراسته بنيل شهادة (العالمية) اصبح مؤهلا للعمل في التدريس. فدرس في

الازهر كما كان يلقي دروساً خاصة في داره، ثم انتقل بعد قليل إلى دار العلوم التي انشئت انذاك لتزويد طلاب الازهر المعدين للقضاء او التعليم في المدارس الحكومية ، بالعلوم الحديثة . وقد اسهم الشيخ محمد عبده في تحرير جريدة الوقائع المصرية .واشترك في الثورة العرابية، ولما احتل الانكليز مصر، القي القبض عليه وحكم بالنفي لانه افتى بعزل الخديوي توفيق. وقد اختار بيروت للاقامة بها والتدريس في مدارسها. ثم التحق بالافغاني في باريس، حيث ساعده في تنظيم جمعيته السرية واصدار مجلة العروة الوثقى. وتمكن الشيخ محمد عبده اثناء اقامته بباريس من الاطلاع على جوانب من الحضارة الاوربية واتقن اللغة الفرنسية وقد جذبته، بقوة مشاريع الافغاني السياسة، فزار لندن في سنة ١٨٨٤م لاطلاع الرأي العام البريطاني على اوضاع بلاده، ثم سافر إلى تونس ومنها إلى مصر متنكراً على امل الالتحاق بالثورة المهدية. لكنه فشل في تحقيق طموحه فعاد إلى بيروت حيث بقي ثلاث سنوات، يدرس في مدرسة حديثة انشأتها جمعية اسلامية خيرية. وفي سنة ١٨٨٨م سمح له الخديوي بالعودة إلى مصر، بعد ان توسط له بعض اصدقائه وهناك امل ان يستأنف التدريس ،الا ان الخديوي لم يكن مستعداً لتركه حيث يمكنه التأثير مجددا في عقول الشباب، فعينه قاضياً في المحاكم الاهلية فمفتياً للديار المصرية سنة ١٨٩٩م وظل كذلك حتى وفاته سنة ١٩٠٥م .

لقد رأى محمد عبده، كما رأى استاذه الافغاني ، ان الطريق الى نهضة العرب والمسلمين لايتم الا بعد تحرير المجتمع من الداخل والخارج. ففي الداخل يتطلب العمل محاربة كل انواع الاستبداد المخيمة على حياته والسعي من اجل حرية الانسان. كما يتطلب اعطاء وزن للشورى في حياة المجتمع ، خاصة الجانب السياسي، هذا فضلا عن التآخي بالاخوة الاسلامية التي اذا مافهمت فهماً صحيحاً فانها ولاشك لاتعمل على وحدته العقلية والروحية فقط، وانما على وحدته الكلية كذلك. وتحرير المجتمع لايتم الا باصدار تشريعات عادلة تعكس عادات وتقاليد واخلاف وعقيدة المجتمع. ومعنى

هذا ان التحرير لايقتصر على جانب واحد وانما يمتد ليشمل كل جوانب الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية. وبجانب هذه النظرة الشاملة للتحرير يحاول الشيخ محمد عبده ان يكشف علة الضعف الحقيقية، اذ رأى انها تكمن في القضاء على التعصب والانانية التي مردها اما «الجهل المطلق او بسبب سوء فهم الاسلام والحياة».

اما بشأن تحرير المجتمع من الخارج، فلقد اتفق الشيخ محمد عبده في رسائله مع استاذه الافغاني على ضرورة السعي للتخلص من النفوذ الاستعماري الاجنبي الذي يعمل على توجيه حياة وفكر المجتمعات التي يسيطر عليها، الوجهة التي تنسجم ومصالحه. ومن هنا يلتقي هدف تحرير المجتمع من الداخل مع هدف تحريره من الخارج. ففي كل منهما تظهر الحاجة الى تماسك المسلمن لكي يسترجعوا قوتهم. وفي كل منهما تظهر الحاجة الى العمل من اجل القضاء على الضعف والتخلف.

اصبح الشيخ محمد عبده بفضل كتاباته وخطبه من اوسع الناس شهرة واحبهم الى القلوب في مصر والتف حوله عدد كبير من التلاميذ والاتباع، ولكن هذا لم يمنع من ان يصبح له معارضين كثيرين لارائه ومعتقداته، امثال بعض علماء الازهر من المحافظين والخديوي عباس حلمي وغيرهم من الذين يرفضون التغيير الذي يدعو اليه الشيخ محمد عبده ويحبذون بقاء القديم على قدمه. كانت المهمة التي اضطلع بها الشيخ محمد عبده ذات شقين رئيسين: الاول تنقية الدين الاسلامي من الشوائب التي طرأت عليه وتحديد ماهيته الحقيقية. والثاني تقريب المسلمين من مقتضيات التمدن الاوربي الحديث العلمية والسياسية والاقتصادية. وحين كان مفتياً، استطاع ان يضع بعض افكاره موضع التطبيق حين تشكلت لجنة برئاسته لوضع مقترحات لاصلاح الازهر، وادخال العلوم الحديثة الى مناهجه الدراسية. كما اصدر بعض الفتاوى المتعلقة بالفائدة ولبس القبعة وغير ذلك مما يسهل استفادة المسلمين من مقتنيات الحضارة الاوربية وانجازاتها التي لاتتناقض

والاسلام الحقيقي الذي يفسح صدره للعلم ويدعو اليه. لان العلم يكشف أسرار الكون وذلك يفضي الى معرفة الله واجلاله . والشيخ محمد عبده. في تفسيره هذا ، كما يقول الدكتور أحمد عبد الرحيم مصطفى ، يحاول التوفيق بين الاسلام ونظريات المدنية الحديثة ، ويتبع طرقا من التأويل للتوفيق بين الدين ونظريات العلم

لقد بدت في بعض الأقطار العربية خلال الربع الأخير من القرن التاسع عشر افكارا شبيهة بتلك التي دعا اليها الافغاني وبلورها الشيخ محمد عبده. اذ ظهرت نفس الاتجاهات الاصلاحية لدى بعض المفكرين العرب. وقد لايرجع ذلك وحده الى تأثير كل من الافغاني ومحمد عبده، بل ان افكارهما لم تكن لتلقى النجاح الكبير الذي لقيته لولا وجود تيارات مشابهة لما عبر عنه. ففي تونس كان زملاء وتلامذة المصلح خيرالدين التونسي: ومنهم محمد بيرم المتفقه في الدين الذي وضع عددا من المؤلفات عن اصلاح القانون وكتب تاريخا لعصره. وفي العراق ظهر محمود شكري الالوسي (١٨٥٦-١٩٢٤م) الذي وضع تفسيرا مستفيضا للقرآن: وممن عاصروا الشيخ محمد عبده في سوريا واحتكوا به الشيخ طاهر الجزائري (١٨٥١-١٩٢٠م) الذي سبق ان اشرنا اليه. حين تحدثنا عن دوره في تأسيس المدارس الحديثة في سوريا وانشاء المكتبه الظاهرية بدمشق. وقد أثر هذا الرعيل من الرجال المصلحين في تلامذة عديدين لعل محمد رشيد رضا في سوريا ابرزهم على الاطلاق.

محمد رشيد رضا :

ولد محمد رشيد رضا سنة ١٨٦٥م في قرية القلمون في طرابلس الشام من اسرة شبيهة باسرة الشيخ محمد عبده، من حيث انها فلاحية وذات مكانة وارث من العلم والتقوى. بدأ دراسته على النهج التقليدي من التعليم انذاك. الا انه استطاع وهو من الجيل اللاحق لجيل استاذه محمد عبده،

ان يستفيد من التعليم الحديث، اذ التحق بمدرسة رسمية في طرابلس، تعلم فيها العلوم الحديثة واللغة الفرنسية. والى جانب افادته من الحركة الفكرية الجديدة التي شملت سوريا انذاك بتأثير كل من الشيخ طاهر الجزائري والشيخ حسين الجسر (١٨٤٥– ١٩٠٩م) الذي ابدى في طرابلس، الاهتمام ذاته بالتوفيق بين الاسلام والعلم الحديث وتبني ما لا يهدم معتقدات الاسلام وقيمه من نزعات العالم الحديث، تأثر بكتاب احياء علوم الدين للامام ابو حامد الغزالي (١٠٥٨ – ١١١١م) وخاصة من حيث التوازن الذي يقيمه الغزالي بين الطاعة الخارجية للشريعة والتقوى الشخصية الداخلية التي كان محمد رشيد رضا يعلق عليها وعلى النوايا الحسنة اهمية كبرى ويعدها شرطاً ضرورياً لجعل الافعال مقبولة. الا أن هذا التوازن قد اختل لدى الاجيال اللاحقة، فتحولت التقوى الداخلية المنضبطة الى تمارين صوفية طليقة من قيود الشريعة اتخذت لنفسها طقوساً وعقائد خاصة بها. وقد تنبه رشيد رضا الى هذا الامر اثر انخراطه في الطريقة النقشبندية، لكنه سرعان ما اخذ يشعر بخطر الطرق الصوفية، فتركها بعد ان اطلع على افكار الافغاني وعبده من خلال قراءته لمجلة العروة الوثقى بين سنتي ١٨٨٤و١٨٨٥م اي في اوائل عهد صدورها، وكذلك التقى، بمحمد عبده في طرابلس سنة ١٨٩٤م وغدا، منذ ذلك الوقت حتى وفاته تلميذه الامين وشارح افكاره ومؤرخ حياته. وفي سنة ١٨٩٧م نزح الى القاهرة، وفي السنة اللاحقة، اصدر العدد الاول من مجلة (المنار) التي اصبحت منبراً للدعوة الى الاصلاح وفقا لمبادىء محمد عبده .ولكن بوثوقية اكبر ومنهجية اعظم ؛وقد استمر على اصدارها حتى وفاته سنة ١٩٣٥م.

كانت جريدة المنار منذ تأسيسها بمثابة مدرسة ،فكرية التف حولها عدد من الشباب المؤمن بالرابطة العثمانية والداعي الى اقامة مجتمع اسلامي تحت راية الخليفة العثماني قاعدته مكة وله فروع في كل بلد اسلامي واهدافه توحيد المسلمين واخضاعهم لنظام قانوني مشترك وعقيدة واحدة

ولغة مشتركة ومصادرة التعاليم الضارة ونشر الاسلام. وقد عدت (المنار) الخلافة جزءاً لا يتجزأ من برنامجها الاصلاحي. وحمل رشيد رضا العلماء ورجال الدين كثيراً من مسؤولية سيادة عدم الشرعية والخطأ طيلة ثلاثة عشر قرناً. فهم الذين جعلوا مساوىء السلطة تلبس ثوب الشرعية بدلا من محاربتهم لها. كان محمد رشيد رضا يقاوم الفكرة التي ظهرت انذاك والرامية الى الاستعاضة عن الخلافة العثمانية بخلافة جديدة، معداً هذه الفكرة وحياً اجنبيا من شأنه ان يخدم المصالح الاجنبية. وكان من الممكن في رأيه القبول بالخلافة العثمانية على انها «خلافة بالضرورة» مع انها لم تكن خلافة اصيلة، اذ كان العثمانيون يفتقرون الى احد الشروط الجوهرية للاجتهاد، وهو معرفة اللغة العربية. وقد شن حملة شعواء ضد الاستبداد وكان يردد بان سبب تخلف البلدان الاسلامية في كل ناحية من نواحي الحياة يرجع الى ان المسلمين قد فرطوا بحقيقة دينهم بتشجيع من حكام سياسيين فاسدين. فالاسلام الحقيقي ينطوي على امرين: القول بالتوحيد، والشورى في شؤون الدولة وقد حاول الحكام المستبدون حمل المسلمين على تناسي الامر الثاني بتشجيعهم على التخلي عن الاول. ويعتقد محمد رشيد رضا ان بامكان المسلمين اللحاق باوربا المتقدمة اذا ما اكتسبوا المهارة التقنية والحيوية التي اتصفت بها أوربا. فالسعي، كما يقول محمد رشيد رضا، هو العامل المشترك بين الاسلام والمدنية الحديثة. والجهد الايجابي هو جوهر الاسلام، وهذا هو معنى كلمة الجهاد في مفهومها الأعم. والاوربيون يتصفون بهذه الحيوية اكثر من سواهم في العالم الحديث، ولهذا تمكنوا من اكتساح العالم، فهم مستعدون لبذل حياتهم ومالهم في سبيل امتهم، لكن المسلمين كانوا هكذا، ويمكنهم العودة الى ماكانوا عليه وهذا لايعني تقليد الغرب تقليدا اعمى فرشيد رضا لم يكن معجباً باوربا، الا أنه كان يرى ان من مصلحة المسلمين اقتباس الجوانب النافعة من الحضارة الاوربية، ورغم اتخاذه موقفاً معادياً في أوربا المسيحية الاستعمارية، الا أنه ادرك تحديات العصر

الحديث ورأى ان من واجب المسلمين ان يتجهوا الى الحضارة الحديثة طالما انها لازمة لاستعادة قوة الاسلام.

٢ – **الاتجاه الديني – القومي** : ويدعو هذا الأتجاه إلى الرابطة الاسلامية والخلافة العربية وابرز من يمثله عبدالرحمن الكواكبي (١٨٤٨ – ١٩٠٢م) في كتابيه « طبائع الاستبداد ومصادر الأستعباد » و (ام القرى) .

ولد الكواكبي في حلب سنة ١٨٤٨م وفيها تلقى العلم ودروس العلوم القضائية والرياضية والتاريخية . ثم عمل في الصحافة وبدأ يكتب في جريدة الفرات الأسبوعية الرسمية التي صدرت في حلب سنة ١٨٦٧م وأسس في حلب جريدة الشهباء التي صدر عددها الأول في ١٠ أيار سنة ١٨٧٧م . كما أصدر جريدة الأعتدال في ٢٠ تموز ١٨٧٩م وبسبب افكاره التي كان يضمنها مقالاته التي كان ينشرها في هاتين الجريدتين فقد لاقى كثيراً من العنف والأضطهاد من السلطة العثمانية التي أدركت حقيقة اهداف الكواكبي فعملت على تعطيلها واحدة تلو الأخرى .

اتجه الكواكبي للعمل في التجارة ، واخذ يتصل بالتجـــار والمثقفين والسياح الذين كانوا يؤمون حلب ، كما شرع يتصل بالشعب ويفتح العيون. وقد شعرت السلطة العثمانية بخطره فحاولت ان «تشتريه» و «تقطع لسانه» فعينته في ٩ اذار سنة ١٨٧٩م عضواً فخرياً في لجنتي المعارف والمالية بولاية حلب . وتقلب بعد ذلك في وظائف حكومية عديدة . فعين في ديوان المعارف فكتابة العدل فمديرية التنفيذ ، فمديرية مطبعة الولاية ، فرئاسة بلدية حلب، فرئاسة كتابة المحكمة الشرعية ، فمفتشية حصر التبغ ، فرئاسة غرفة التجارة ، فرئاسة المصرف الزراعي في حلب .

كان الكواكبي معروفاً بالصراحة والنزاهة ، لذلك فقد أخذ الكثير من المسؤولين الاتراك يثيرون له المتاعب. واتهم مع مجموعة من وجهاء حلب بالتآمر على سلامة الدولة العثمانية والعمل على قلب نظام الحكم. ولكن المحكمة

برأته من هذه التهمة. وفي سنة ١٨٨٦م ، استقال الكواكبي من وظائفه الحكومية، ومارس مهنة المحاماة وكتابه (العرضحالات) و (الظلامات). وكان يعطف على الفقراء، ويدافع عن قضاياهم مجاناً، وتحول مكتبه إلى ندوة للنقد والتجريح. فانزعج والي حلب (جميل باشا) منه وتآمر عليه متهماً اياه بالسعي إلى تسليم حلب إلى دولة اجنبية، ولكن المحكمة في بيروت برأته كذلك. وبعد هذا توفي الوالي، وخلفه وال آخر هو عارف باشا فأسند إلى الكواكبي منصب نقيب الاشراف، ولكن الشيخ ابو الهدى الصيادي (١٨٤٩ ـ ١٩٠٩م) وهو من رجال الدين السوريين المقربين من السلطان عبد الحميد تآمر عليه وعمل على انتزاع نقابة اشراف حلب منه، فأضطر عندئذ إلى التوجه سراً إلى القاهرة فوصلها في منتصف تشرين الثاني سنة ١٨٩٨م وفي القاهرة، قوبل الكواكبي بالترحاب، من احد تلاميذه وهو عبد المسيح الأنطاكي الذي سبقه اليها وعمل صحفياً وداعياً للعرب ضد الاتراك. وقد دأب الكواكبي على التأليف ونشر المقالات الفكرية والسياسية التي كان يوقعها باسم مستعار هو (الرحالة كاف). وقد جمعها بعد ذلك في كتاب (طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد). ثم الف كتابه (ام القرى) بعد رحلة واسعة شملت جزيرة العرب ومصر والسودان والهند. وقد توفي الكواكبي في ١٤ حزيران سنة ١٩٠٢م بعد ان احتسى فنجاناً من القهوة في مقهى يلدز قرب حديقة الازبكية في القاهرة، شعر بعدها بآلام في معدته. وقيل أنه مات مسموما بأمر من السلطان عبد الحميد، لكن هذا القول تعوزه الادلة الكثيرة .

لقد عد الكواكبي في كتاباته، التي اشرنا اليها، العرب الامة الجديرة بحفظ الاسلام من الفساد. ودعا إلى خلافة عربية وإلى نقل ميزان القوة من الديار العثمانية إلى الجزيرة العربية. ووجه فكرة الاصلاح الديني بشكل يتفق مع الفكرة العربية القومية. وكان اساس هذه النزعة يعتمد على الصلة الداخلية (الرحمية) بين العروبة والاسلام. فالاسلام تجربة ثورية روحية

واجتماعية جسد حقيقة الامة العربية. كما ان العروبة من جهة اخرى تشكل في نظر الكواكبي الضمانة للمحافظة على جوهر الاسلام .

ان الدعوة إلى اقامة خلافة عربية تقوم مقام الخلافة العثمانية التي ظهرت باجلى مظاهرها في كتاب (ام القرى) الذي صدر في مصر باللغة العربية سنة ١٩٠٠م. ولم يخرج الكتاب باسمه مباشرة، بل باسم مسعار هو السيد الفراتي. ويشير الكواكبي الى انه الف هذا الكتاب بدافع البحث والتنقيب عن افضل الوسائل للنهضة الاسلامية. وقد تصور في هذا الكتاب جماعة من اشراف المسلمين حضروا مؤتمراً في مكة انعقد باسم النهضة الاسلامية لمناقشة اسباب انحطاط العالم الاسلامي وكيفية معالجة ذلك. وقد عقدوا عشرة اجتماعات ناقشوا فيها ذلك ووقفوا عند اسباب التخلف وابرزها تطرق الشرك إلى عقائد العامة، وفساد التعليم، والاستغراق في الجهل. وتفرق الامة إلى عصبيات، وحرمانها من حرية القول والعمل، وحماقة الحكام، وتقريبهم الدجالين والانتهازيين وحصر واجبات الدولة بجباية الضرائب وامور الجندية والتمسك باصول الادارة المركزية مع بعض اطراف العاصمة وعدم وقوف المسؤولين على احوال تلك المناطق المتباعدة وخصائص سكانها، والتزام تولية بعض المناصب لغير مستحقيها والتمييز الفاحش بين الرعية، والتساهل في اختيار الولاة والمواطنين وتفضيل الوظائف على الصنائع وفساد النظام المالي للدولة بحيث صارت مدينة للبنوك والمؤسسات الاجنبية واهمال طلب الحقوق وعدم توزيع الاعمال والحقوق بين الناس بالعدل واستمرار الحكام في الاستبداد وانغماسهم في الترف وسقوط الهمة واستيلاء اليأس على النفوس واهمال تعليم المرأة وترك السعي والاعتزال في الحياة والتواكل والزهد. وقد اورد الكواكبي الشروط التي يجب ان تقوم عليها الخلافة العربية ومنها ان يكون الخليفة قريشياً وله سلطة دينية فقط. وكان يريد ان يصل إلى الاصلاح السياسي عن طريق الاصلاح الديني، وهذا جعل بعض المؤرخين ومنهم الدكتور منير مشابك موسى، يتهمونه بالطوباوية، بيد ان مؤرخين اخرين،

وجدوا فيه رائداً من رواد الحركة العربية القومية، لانه دعا إلى اعادة نقل الخلافة إلى العرب وهذه الدعوة، هي دعوة إلى نهضة العرب، وإلى وحدتهم وتبؤهم مركزاً قيادياً قبل كل شيء . ويختلف الكواكبي عما سبقه من المفكرين من امثال الافغاني خاصة، بايمانه ان للعرب مكانة خاصة بين الشعوب، وان الامة العربية صاحبة رسالة، ليست دينية وانما هي رسالة مثل وفضائل تقوم على التسامح والاخوة .

شن الكواكبي في مقالاته وكتبه وخاصة في كتابه طبائع الاستبداد، حملة على الفساد والظلم والاضطهاد ودعا إلى مقاومة الاستبداد. وكان يعتقد أن التعليم وليس الثورة، هو الوسيلة المهمة للقضاء على الاستبداد وتعميق الوعي لدى الانسان العربي ويقول ان المستبد يخاف من العلوم التي توسع العقول وتعرف الانسان بانسانيته وحقوقه. ويرى الكواكبي «ان بين الاستبداد والعلم حرباً دائمة وطراداً مستمراً : يسعى العلماء في نشر العلم، ويجتهد المستبد في اطفاء نورة والطرفان يتجاذبان العوام» ولكن من العوام؟ «هم اولئك الذين اذا جهلوا خافوا، واذا خافوا استسلموا، وهم الذين متى علموا قالوا، ومتى قالوا فعلوا». ويؤكد الكواكبي ان «العوام هم قوت المستبد، وقوته بهم عليهم يصول، وبهم على غيرهم يطول». ويعالج علاقة الاستبداد بالمال، فيقول : «لو كان الاستبداد رجلاً واراد ان يحتسب وينتسب لقال : انا الشر، وابي الظلم، وامي الاساءة، واخي الغدر، واختي المسكنة، وعمي الضر، وخالي الذل، وابني الفقر وبنتي البطالة، ووطني الخراب، وعشيرتي الجهالة». ويشير الكواكبي إلى التفاوت الطبقي ويقول ان رجال البشر تقاسموا مشاق الحياة قسمة ظالمة، لان رجال السياسة والدين ومن يلتحق بهم، وعددهم لا يتجاوز الواحد في المائة، يتمتعون بنصف ما يتجمد من دم البشر او زيادة، ينفقونه في الرفه والاسراف ثم اهل الصنائع النفيسة والكمالية والتجار الشرهون والمحتكرون وأمثالهم، ويقدرون كذلك بواحد في المائة. يعيش احدهم بمثل ما يعيش به العشرات او المئات او الالوف

من الصناع والزراع «وهذه القسمة المتفاوتة بين ذرية آدم وحواء إلى هذه النسبة المتباعدة، وهي قسمة جاء بها الاستبداد السياسي». والمستبد السياسي ديدنه اتخاذ صفة قدسية فن صفات الله، ويتخذ بطانة من رجال الدين يعينونه في ظلم الناس بأسم الله، وكل هذا مناف بجوهر الاسلام الحقيق القائم على الحرية السياسية، الا ان زحف عليه الفساد ما زحف على كل من الاديان فما فرق المسلمين وجعلهم شيعاً واحزاباً وحول نظام الحكم من الشورى إلى الاستبداد .

٣ـ الاتجاه القومي ـ التاريخـي :

وقد انعكست ملامح هذا الاتجاه في كتابات الشيخ ناصيف اليازجي (١٨٠٠ ـ ١٧٨١م) وبطرس البستاني (١٨١٩ـ١٨٨٣م) اللذين استنهضا همم العرب عن طريق التذكير بماضيهم الحضاري وبعظمتهم الماضية، واشادا بالعزة القومية واعتزازهما بالحضارة العربية، وعملا على احياء وعي العرب لتأريخهم ولأهمية اراءهما ومواقفهما نورد شيئاً عن حياتهما ودورهما الفكري .

الشيخ ناصيف اليازجي :

ولد ناصيف اليازجي سنة ١٨٠٠م في قرية كفر شيما من قرى ساحل بيروت. تلقى تعليمه في البداية على احد القسس. وكان والده طبيباً يحب الادب ويميل إلى قول الشعر، لذلك نشأ على الميل إلى الادب والشعر واقبل على الدرس والمطالعة معتمداً على نفسه. ولما لم تكن الكتب انذاك ميسورة لقلة المطبوع منها، اذ لم يكن في لبنان الا مطابع نادرة قلما كانت تشتغل بطبع الكتب العلمية، كان جل معتمده على مخطوطات بعض الاديرة القديمة. فمنها ما يقرأها ومنها ما ينسخها بخطه المزخرف. وبهذه الطريقة الشاقة استطاع، بفضل ما اوتي من نباهة وطاقة على العمل، الكشف عن افضل مصادر الادب العربي. وقد تملكته رغبة جامحة في احياء امجاد التاريخ والادب العربيين، لذلك وقف حياته كلها على خدمة اللغة العربية وآدابها. وحين

قارب نهاية العقد الثالث من عمره عمل كاتباً في ديوان الامير بشير الشهابي حاكم جبل لبنان قرابة اثنتي عشرة سنة. وبعد سنة ١٨٤٠م وهي السنة التي اضطر فيها الامير إلى مغادرة لبنان، انتقل اليازجي إلى بيروت فاقام بها وتفرغ للمطالعة والتأليف والتدريس ونظم الشعر والاتصال بالادباء والشعراء المعروفين في الشام والعراق ومصر انذاك لذلك ذاعت شهرته وصار علماً من اعلام اللغة العربية . وقد استخدمه المبشرون الاميركان مصححاً في مطبعتهم لبعض الكتب المدرسية في الرياضيات والطبيعيات التي استعملت في المدارس التي اسسها الاميركان ومنها الكلية السورية الانجيلية (الجامعة الامريكية حالياً). كما عمل مدرساً للغة العربية في الكلية نفسها .

اصدر ناصيف اليازجي، بعد ان شعر بقلة الكتب المدرسية التعليمية باللغة العربية انذاك، كتباً في اللغة والنحو والصرف والمنطق والبلاغة، ذاع انتشارها بين المدرسين والطلبة. ومن هذه الكتب، كتاب «عقد الجمان» وهو في البلاغة العربية وكتاب «مجمع البحرين» وهو مجموعة من المقامات جمع فيها اخباراً وامثالاً وحكماً عربية قلد فيها مقامات الحريري من حيث الاسلوب والسجع. اما ابرز كتبه فهو «فصل الخطاب في اصول لغة الاعراب» وهو كتاب في الصرف والنحو الفه الشيخ ناصيف وسلمه للطبع في مطبعة الاميركان صيف سنة١٨٤٥م. ولعله اراد تسهيل مهمة المعلمين في مدارس الاميركان فيضع لهم كتابا اسهل من الالفية وايسر من الكتاب الذي كان عندئذ مستعملا في مختلف المدارس المسيحية وهو كتاب (بحث المطالب وحث الطالب) للمطران جبريل فرحات الحلبي المطبوع في مالطة سنة ١٨٣٦م. وفي سنة ١٨٤٧م الف المبشرون الاميركان لجنة برئاسة ايلي سمث Smith للبدء بترجمة التوراة ترجمة جديدة الى اللغة العربية، وقد استعانوا ببطرس البستاني وناصيف اليازجي وكان تعاون الثلاثة في ترجمة التوراة يقوم على تقديم البستاني مسودة للترجمة يراجعها مع سمث، ثم يحققها هذا مع اليازجي، الذي يُشذّبها ويحررها من الكلمات و العبارات التي لايقبلها الذوق العربي

السليم. ودامت مدة استخدام الشيخ اليازجي عند المبشرين الاميركان نحو عشر سنوات انتهت بموت سمث في سنة ١٨٥٧م. اذ اعتمد فانديك الذي خلف سمث في ترجمة التوراة على نفسه، وكان يتقن العربية. وبذلك استقل اليازجي عن الاميركان وعمل مدرساً للغة العربية في المدرسة الوطنية التي اسسها بطرس البستاني. وانصرف كذلك الى تأليف المزيد من الكتب المدرسية واللغوية وظل كذلك حتى اصيب بفالج عطله عن العمل والحركة في السنتين الاخيرتين من حياته، قبل ان وافاه الاجل في شباط سنة ١٨٧١م.

لم يقتصر اثر اليازجي على انتشار كتبه المطبوعة فقد اصبح بيته في بيروت، بمثابة ندوة يتردد عليها عدد من الشباب المهتم باحياء التراث العربي. وكانوا، على عادة العرب القديمة في جميع بقاعهم، يتحلقون حول اليازجي ويستمعون اليه وهو يحدثهم عن مواطن الجمال في اللغة العربية. ولم يكل قط عن دعوته إلى احياء الادب العربي حتى نجح في اقناع عدد كبير من طلابه بان ذلك هو السبيل الوحيد للخلاص. وكانت طرافة دعوته وجدتها تثيران انتباه الناس، لانه كان يتجه بها إلى العرب على اختلاف اديانهم: المسلمين والمسيحيين جميعاً. وكان يهيب بهم، في زمن برزت فيه الطائفية في لبنان بابشع صورها بحيث ادت، كما سبق ان قدمنا إلى مذابح سنة ١٨٦٠م، ان يذكروا تراثهم المشترك وان يشيدوا اسسه مستقبلاً يجمعهم اخواناً متآلفين. ونشأ اولاده الاثنىعشر، بنين وبنات، على هذه الاراء: حتى بلغ من تأثر احدهم بتعاليم ابيه، وهو ابراهيم اليازجي ان اصبح فيما بعد من ابرز دعاة الحركة العربية القومية كما سنرى.

بطرس البستاني :

ولد سنة ١٨١٩م في قرية الدبية القريبة من صيدا في اقليم الخروب بقضاء الشوف في جبل لبنان من عائلة عرفت بحب العلم والسعي من اجله. وقد تلقى علومه الاولى على يد الخوري ميخائيل البستاني. وقد استقدمه المطران عبدالله البستاني، مطرزاً صور صيدا، إلى بيت الدين. حين يقيم لما وجد

فيه من الذكاء والفطنة والاجتهاد وبعث به إلى مدرسة عين ورقة بلبنان فقضى فيها عشر سنوات حتى اتقن اللغة العربية وادابها. كما اخذ دروساً في المنطق والتاريخ والحساب والجغرافية واللغات السريانية واللاتينية والايطالية والفلسفة واللاهوت. ثم اصبح بعد تخرجه مدرساً في المدرسة نفسها. وفي سنة ١٨٤٠م ذهب إلى بيروت وتعرف إلى المبشرين الاميركيين ايلي سمث وكوزنليوس فانديك وقد اسهم معهما في تأسيس دار المعلمين في قرية عبيه، وقبل منصب مدرس اللغة العربية فيها. وأخذ بتأليف الكتب لتستعمل في المدارس التبشيرية الاميركية. وحين طلب اليه مساعدة ايلي سمث في ترجمة التوراة، إنهمك في تعلم اللغات العبرية والارامية واليونانية القديمة. والف معجماً ضخماً للغة العربية بعنوان «محيط المحيط» صدر في سنة ١٨٧٠م بمجلدين، وأصدر، بعد ذلك بقليل، مختصراً له بعنوان «قطر المحيط» وبدأ بتأليف موسوعة عربية، اصدر منها قبل وفاته سنة ١٨٨٣م ستة اجزاء، وتابع ابناؤه وبعض افراد اسرته عمله هذا باسم «دائرة المعارف» فاصدروها في احد عشر جزءاً.

أتجه البستاني إلى الصحافة ، وسيلة للدعوة إلى الأتحاد والتعاون والتوفيق بين الطوائف والفئات المتصارعة في لبنان ، فاصدر سنة ١٨٦٠م جريدة اسبوعية باسم (نفير سوريا) التي يعدها مؤرخوا الصحافة العربية أول جريدة عربية سياسية غير رسمية صدرت في الوطن العربي . وقد وقفت هذه الجريدة معظم جهدها لمحاربة الحقد الطائفي ونشر الثقافة ، لأن الثقافة تؤدي ، كما كان يرى البستاني إلى الاستنارة العقلية ، والاستنارة العقلية تؤدي إلى القضاء على التصلب ، وتحل محله المثل العليا المشتركة بين الطوائف المتعددة والمتناحرة والمتنابذة . وربما بدا لنا هذا الكلام الان تافهاً لا جديد فيه . كما يقول المؤرخ جورج انطونيوس ، ولكن بلاد الشام لم تكن قد سمعت بمثله من قبل . وكان يشتمل في طياته على نواة الفكرة القومية . وقد سار البستاني خطوات اخرى في هذا السبيل لتحقيق فكرته، فانشأ في سنة ١٨٦٣م مدرسة عالية في بيروت باسم (المدرسة الوطنية) كان

هدفها ان يتلقى فيها التلاميذ ، على اختلاف طوائفهم واديانهم ، تعليماً اساسه التسامح الديني والمثل العليا الوطنية . وقد ساعده في عمله التربوي هذا ناصيف اليازجي . وقد تقاطر عليها التلاميذ من سائر انحاء الشام ومصر والعراق وذاع صيتها حتى ان السلطان العثماني انعم عليه بوسام عالي تقديراً لخدماته وتشجيعها له . وقد تولى ولده سليم البستاني ادارة المدرسة بالنيابة عن والده وكان متضلعاً في العلوم الحديثة ويدرس اللغة الأنكليزية والتاريخ والطبيعيات . وكان البستاني يلقي على تلامذة المدرسة المحاضرات مرتين في الأسبوع . وقد كرس تلك المحاضرات للاشادة بالثقافة العربية ، وبدور العرب في بناء الحضارة الأنسانية .

كما أصدر البستاني سنة ١٨٧٠م مجلة علمية أدبية سياسية نصف شهرية سماها (الجنان) وجعل شعارها « حب الوطن من الايمان » وهو شعار لم يكن شائعاً في الوطن العربي انذاك . وكانت الغاية من هذه المجلة محاربة التعصب والدعوة الى التفاهم والأتحاد لخير الوطن . وقد شارك في تحريرها عدد من كتاب بلاد الشام والعراق. وفي اواسط سنة ١٨٧٠م استعان بابنه سليم في اصدار جريدة سياسية باسم (الجنة) ، وهي من أقدم الصحف العربية في بلاد الشام . ثم اصدر (الجنينة) وتولى تحريرها ابن عمه سليمان البستاني الذي اشتهر فيما بعد كأحد دعاة الدستور . وتكمن قيمة هذه الصحف والمجلات في انها كانت تعني عناية خاصة بعرض الاراء التي كان يدعو اليها مؤسسها ، وانها كانت حافزاً قوياً وجه الأفكار إلى التسامح الديني والنظرة الواسعة الى الأمور والوقوف ضد التعصب والدعوة إلى الوطنية . وقد حرص البستاني على صدور هذه الصحف والمجلات في أوقاتها المقررة صدورا يكاد يكون منتظما خلال المدة التي بقيت من عمره. وقد حرص البستاني في افتتاحيات الصحف التي اصدرها على التلويح بامجاد العرب الماضية وضرورة بعثها . ومن ذلك افتتاحية العدد الاول من مجلة الجنان التي جاء فيها ان الشرق كان مزدهراً ومتمدناً في

لماضي. ثم فقد مدينته وازدهاره بسبب الحكم الفاسد، وانه ليس من علاج لذلك الا الحكم الصالح، الذي لايمكن ان يقوم الا بفضل اشتراك الجميع فيه، وفصل الدين عن الدولة. وفصل السلطة القضائية عن السلطة التنفيذية، وفرض ضرائب نظامية، واجراء اشغال عامة ومفيدة، وجعل التعليم اجبارياً، واقامة العدل والاتحاد بين ابناء الاديان المختلفة، وتقوية الشعور الوطني الموحد بين جميع المواطنين العثمانيين. وكان البستاني يلح على تعليم المرأة، وهو اول من القى محاضرة في هذا الشأن من المثقفين العرب في العصر الحديث.

بالرغم من ان دعوة البستاني كانت دعوة قومية علمانية، وكان يعتز بانتماءه إلى العرب، لكنه بعد سنة ١٨٧٧م، اي بعد صدور الدستور العثماني، وانعقاد اول برلمان عثماني، قال في مقال نشرته مجلة الجنان: ان الامبراطورية العثمانية هي وطننا، ولكن بلادنا هي سوريا. كما نقلت مجلة الجنان وقائع ومناقشات البرلمان الاولى ونشرت خبراً ينبيء عن ظهور حزب معارض، لكن لم يمض وقت طويل حتى اختفت الاخبار عن صفحات المجلة، ولم يكن ذلك عرضاً، بل كان دلالة مبكرة على ان السلطان عبد الحميد الثاني قد استعاد القبض على زمام الحكم وقمع نشاط المعارضة وعلق الدستور واوقف البرلمان، مما انهى حياة المجلة نفسها في سنة ١٨٧٧م. عندئذ انتقل مركز الصحافة اللبنانية من بيروت إلى القاهرة، وبرز صحفيون عرب احرار اصدروا صحفاً، مثل الاهرام والمقطم، نددت بالاستبداد، وهاجمت السلطان ودعت إلى انتشار المفاهيم والافكار الدستورية . ولعل من ابرز اولئك الصحفيين مؤسس مجلة الهلال سنة ١٨٩٢م جرجي زيدان (١٨٦١–١٩١٤م) الذي كان من اكثر الذين عملوا على احياء وعي العرب لماضيهم، سواء بتواريخه (تاريخ العرب قبل الاسلام وغيره) او بسلسلة رواياته التاريخية (فتاة غسان وغيرها) التي نهج فيها نهج الكاتب الانكليزي وولتر سكوت، ورسم، على غراره كذلك، لوحة رومانتيكية عن الماضي.

لم يقتصر اثر البستاني على سعة انتشار كتبه المطبوعة، بل يرجع كذلك

إلى ان احاديثه وخطبه ومحاضراته وحياته نفسها، كانت نموذجاً حياً لما يدعو اليه. فقد كان يسير في ذلك، في ثبات عجيب كأنه لايتكلف له جهدا وفي طمأنينة المقتنع الذي لاتميل به الاهواء. فمع انه كان يرى بان الشرق لاينهض الا بالاطلاع على فكر اوربا الحديثة واكتشافاتها، الا انه لم يرض بالتقليد الاعمى الذي لايميز بين الصالح والطالح. فالقبول بالعادات الاجنبية لمجرد كونها اجنبية كان لايقل في نظره حماقة عن رفضها لمجرد كونها اجنبية، وهو ماكان يلمسه انذاك فالواجب هو ان تقبل هذه العادات اوترفض حسب قيمتها. وقد وجد، في ضوء هذه النظرة، كثيرا مما ينتقد في العادات الاوربية، ومنها حرية الرجال الزائدة في تصرفهم مع النساء مثلا . لكنه وجد فيها كذلك كثيراً مما هو جدير بالقبول والاقتباس ومن ذلك اهمية الوحدة الوطنية. فلكي تزدهر سوريا من جديد كما كانت ايام العرب الاولى، على ابنائها ان يحبوها وان يكونوا على علاقات ودية بعضهم مع بعض. وفي هذا يعطي البستاني الحرية الدينية والمساواة والاحترام المتبادل بين ابناء الاديان المختلفة اهتماماً اكبر من اهتمام رفاعة الطهطاوي وخير الدين التونسي. وقد يرجع ذلك إلى ظروف الواقع الذي كان يعيشه انذاك في بلاد الشام. وكان، بعد اخذه الظروف المحلية بعين الاعتبار ،يشارك دعاة الاصلاح العثماني نظرتهم. فاذا كان على سوريا أن تتمدن، فعلى حكامها ان يقوموا بأمرين: الاول اصدار قوانين عادلة متساوية تتفق مع روح العصر، وتقوم على الفصل بين حقلي الدين والدنيا، والثاني: انشاء تعليم وطني باللغة العربية. اما غرض هذا التعليم فيجب ان يكون فهم العلوم الحديثة ومايكمن وراءها من طريقة عقلية دقيقة للتفكير والعمل. وعند هذه القضية يلتقي جانبا نشاط البستاني في هدف موحد: تغيير عقول الناطقين بالضاد وقرائها وجعلهم مواطنين صالحين في عصر العلم والاختراعات الحديثة وذلك بجعل اللغة العربية اداة صالحة للتعبير عن المفاهيم الحديثة. وهو في هذا السبيل وضع موسوعته الكبرى آنفة الذكر والتي اشتملت على ابحاث تتعلق بالعلوم

الحديثة وبمفاهيم الحرية السائدة انذاك في اوربا. ومن هذا نتبين، كما يقول البرت حوراني ،مدى الشوط المتطور الذي قطعه الفكر العربي الحديث، منذ ان وطأت اقدام رفاعة الطهطاوي ارض فرنسا موفداً من قبل محمدعلي باشا للدراسة والاطلاع سنة ١٨٢٦م.

اتفق ناصيف اليازجي وبطرس البستاني خلال السنوات الاولى من نشاطهما العلمي والتربوي على انشاء جمعية علمية في بيروت باسم (جمعية الاداب والعلوم) تعد من اقدم الجمعيات العلمية في الوطن العربي كله خلال العصر الحديث. وقد افتتحت الجمعية ابوابها في كانون الثاني سنة ١٨٤٧م وانظم اليها عدد من الشبان المسيحيين كما انتسب اليها بعض المبشرين الاميركان منهم ايلي سمث وفانديك. ولم يمض عامان على تأسيسها حتى بلغ اعضائها خمسين عضوا. وكان تجتمع مرة كل اسبوعين يلقى فيها احد اعضائها بحثاً علمياً او سياسياً او دينياً او اجتماعياً واستمرت في العمل خمس سنوات. واصدرت في سنتها الاخيرة كتابا عن اعمالها حرره البستاني، الذي كان سكرتيراً للجمعية.

لقد كان الطابع الطائفي الذي ميز تلك الجمعية واقتصارها على الاعضاء المسيحين وحدهم ، ووجود بعض المبشرين فيها سببا في ضعف انتشارها وتوسعها ، ولم يمر وقت طويل على انشائها حتى انفرط عقدها. عندئذ تنادى اليازجي والبستاني ، ومعها عدد من المثقفين المسلمين لتشكيل جمعية عربية ،. لايكون للمبشرين فيها أي أثر . وهكذا انشئت (الجمعية العلمية السورية) في سنة ١٨٥٧م وبلغ اعضاؤها (١٥٠) عضوا . واشترك فيها العرب من مختلف الأديان والطوائف . وكان من أعضاء مجلس اذارتها الأمير محمد ارسلان الذي بقى عدة سنوات رئيسا لها . وحسين بينهم وابراهيم اليازجي . وكانت غاياتها ووسائلها ونظامها الداخلي تشبه غايات ووسائل ونظام جمعية الاداب والعلوم . وكان من الطبيعي ان تعوق احداث سنة ١٨٦٠م جهودها . فانحلت واعيد تأليفها بعد تلك الأحداث بوقت

قصير على أسس أوسع من أسسها السابقة ، ونالت اعتراف الحكومة العثمانية بها في سنة ١٨٦٨م وافسحت المجال للاشتراك فيها حتى ضمت اشخاصاً بارزين كانوا يقطنون خارج بلاد الشام ، وخاصة استانبول ومصر. وكان نشاط الجمعية منصباً منذ ذلك الحين على الأهتمام بتقديم البلاد على اساس الوحدة الوطنية ، والاعتزاز بالتراث العربي .

اتخذت الجمعية العلمية السورية ، بعد ذلك طابعاً عربياً واضحاً ، واصبحت مظهراً من مظاهر الوعي القومي العربي الجماعي . وترجع قيمتها التاريخية ، كما يرى جورج انطونيوس ، في انها كانت من بواكير الحركات السياسية العربية التي دعت إلى الاستقلال والتخلص من الحكم العثماني الاستبداذي . وقد ارتفع فيها أول صوت ظهر لحركة العرب القومية ، وكان ذلك في اجتماع سري عقدته الجمعية وحضرته ثمانية من اعضائها البارزين كرس لسماع قصيدة نظمها ابراهيم ناصيف اليازجي اتخذت فيما بعد صورة النشيد القومي . والقصيدة في جوهرها تحريض للعرب على الثورة . اذ تغنت بامجادهم وبمفاخر ادبهم وتراثهم وبالمستقبل الذي يستطيعون أن يضعوه لأنفسهم بأستلهام ماضيهم ، ونددت بفساد الحكم ، وبالمفاهيم الطائفية . وقد ذاعت القصيدة ذيوعاً واسعاً ، وكان الناس لا يأمنون على أنفسهم من أن يتهموا بالخيانة بسببها ، ولذلك لم يدونوها الا في ذاكرتهم وكان لها أثر بالغ في تغذية الحركة القومية وهي في بداياتها . وترجع اسباب شهرتها وانتشارها إلى سهولة بحرها وسلامة قوافيها ، وإلى سبب اخر أهم ، هو انها استطاعت ايقاظ العاطفة العميقة في الشعب الذي كانت تخاطبه . ومما جاء فيها :

تنبهوا واستفيقوا ايها العرب   فقد طمى الخطب حتى غاصت الركبُ
الله اكبر. ما هذا المنام فقد   شكاكم المهد واشتاقتكم الترب
فشمروا وأنهضوا للامر وابتدروا   من دهركم فرصة ضنت بها الحقب
كم تظلمون ولستم تشتكون وكم   تستغضبو فلا يبدو لكم غضب

اقداركم في عيون الترك نازلة	وحقكم بين ايدي الترك مغتصب
فيالقومي، وما قومي سوى عرب	ولن يضيع فيهم ذلك النسب
صبراً هيا، امة الترك التي ظلمت	دهراً فعما قريب ترفع الحجب
لنطلبن بحد السيف مأربنا	فلن يخيب لنا في جنبه ارب
ونتركن علوج الترك تندب ما	قد قدمته اياديها وتنتحب
ومن يعش ير الايام مقبلة	يلوح للمرء في احداثها العجبُ

٤ ـ الاتجاه الاجتماعي ـ التقدمي:

وقد تمثل هذا الاتجاه في كتابات رواد فكرة التقدم في الوطن العربي امثال شبلي الشميل (١٨٥٠ ـ ١٩١٧م) وقاسم امين (١٨٦٥ ـ ١٩٠٨م) واديب اسحق (١٨٥٦ ـ ١٨٨٤م)ويدعو هذا الاتجاه إلى حكم دمقراطي يتساوى فيه الجميع ويعطي لكل حسب كفاءاته وجهده، لاحسب دينه. ويفصل فيه الدين عن السياسة ويقوم على العلم الحديث، وإلى الوطنية والقومية. وقد اولى هذا الاتجاه، عناية كبيرة للمسألة الاجتماعية والتقدم الاجتماعي. ولاهمية هذا الاتجاه، تتحدث عن ابرز رواده، وهم شبلي شميل وقاسم امين واديب اسحق .

شبلي شميل:

ولد شبلي الشميل في قرية كفر شيما بلبنان سنة ١٨٥٠م.وتخرج من المعهد الطبي للكلية البروتستنتية السورية ببيروت سنة ١٨٧٠م.ثم تابع دراسته في باريس فاتصل بملامح الفكر التقدمي الاوربي مباشرة، ثم مارس المحاماة في مصر حيث اصبح على اتصال مباشر باحداث المجتمع اليومية مراقباً متغيرات الحياة والقوى المؤثرة فيها بفكر ثاقب . وقد اطلع منذ مرحلة مبكرة من حياته، على نظرية تشارلس داروين المتعلقة بالتطور وأصل الانواع. وتأثر بلودفيك بوخنر، الطبيب والفيلسوف الالماني الذي حاول المزج بين المادية والداروينية وبناء نوع من النظرية الاشتراكية على اساس الداروينية.

لذلك ترجم سنة ١٨٨٥م كتابه (ست محاضرات حول نظرية داروين) الى اللغة العربية وباسلوب موفق بعنوان (فلسفة النشوء والارتقاء) ونقل كثيرا عن كتابه (الداروينية والاشتراكية) فاليه يعود الفضل في نقل اصعب المسائل الداروينية في التطور إلى اللغة العربية

اصدر شبلي الشميل في القاهرة مجلة طبية سماها (الشفاء) لكنها لم تدم طويلا، اذ تعطلت لاسباب مالية. لكنه اتجه إلى كتابة المقالات العلمية في عدة صحف ومجلات مصرية ولبنانية، منها مصر الفتاة، وسركيس، والمقطم، والمقتطف، والمؤيد، والبصير، والمشير، والاخبار، والوطن، والهلال، والجريدة. وقد اثارت كتاباته عن فلسفة النشوء والارتقاء ردود فعل عنيفة في المحافل المثقفة الاسلامية والمسيحية على السواء، وكان على الشميل ان يرد على جميع هؤلاء ويدافع عن نفسه، لانه اتهم بالكفر والالحاد ومحاولة تهديم الدين.

كان يقول بان هدفه هو «ايقاظ الافكار من نومها العميق» لانه يؤمن بان «الحركة مهما كانت خير من السكون» وهو لايريد ، كما قال في مقدمة كتابة اكثر من خلق «هزة تصل فينا الى اعماقنا» بعد ان «تقادم علينا المماث حتى بتنا في رتبة في صف الاحياء لاهي بالميتة فتدفن ، جثة هامدة ، ولاهي بالحية فتبعث بشرا سويا » . وكان يرى العمل والجد محكاً اساسياً لتقويم الانسان فان «اليوم ، الذي ينصرف فيه الانسان فيه من تنميق الكلام الى اتقان العمل ، هو اليوم الذي تقوم فيه طباعة فتقل سخافاته ، ويكثر جده ، ويقل رياؤه وينشط من الذل ويرتقي ارتقاء حقيقيا ويحق له حينئذ ان يعد نفسه انسانا» .

كتب الدكتور شبلي الشميل عن الاشتراكية ، مقالات عديدة، لذا عد من روادها الاوائل في الوطن العربي . وقد اهتم بتبسيط المفاهيم الاشتراكيــة ونشــرها بيــن الناس . فهو يقول في مـقال له يحمـل عنوان الاشتراكية نشر في مجلة المقطم المصرية سنة ١٩٠٨م مانصه :

«ماقولك في نظام اجتماعي يهتم بشؤون الافراد وينشيء الادارات تهتم بوجود اعمال لكل العمال كل حسب طاقته ، وهذا ليس من الاحلام ، ويقيم المستشفيات على نسبة السكان ويوفر وجود الماء للجميع على حد سواء ويقدم الصابون والكساء الاول البسيط لكل معوز ... تيسيراً للنظافة التي هي اول دعائم الصحة . فهل افراد الاجتماع الذين يتكلفون بذلك كل حسب طاقته يغبنون من عمم هذا ؟ افلا تربو ارباحهم عموماً على خسارتهم مادياً وصحياً وادبياً من توفير وسائل العمل للعمال . الا يزيد هناوءهم في صحتهم وصفاوءهم في راحتهم ؟ الا يقل التذمر ... وهذا ليس الا في روءوس الذين تستثقل طباعهم الخروج عن المألوف ، وهذا النظام ولا ريب نظام ... المستقبل » .

لم يبق شميل في توجهاته الاشتراكية وحيدا في الميدان ، بل سرعان ماظهر في مصر اشتراكيون اخرون كانت اراوءهم ، كاراءه خليطاً من افكار الاشتراكية العلمية والفابيّة والطوباوية . ومن الذين تأثروا به وبكتاباته سلامة موسى (١٨٨٧– ١٩٥٨ م) واحمد لطفي السيد (١٨٧٢ –١٩٦٣م) وغيرهما ممن اعترفوا في مؤلفاتهم بذلك التأثير صراحـــة .

عالج شبلي الشميل في مقالاته قضايا اجتماعية كثيرة ، ومن ذلك عنايته بالتعليم والتربية الحديثة وهو في ذلك ، كما في غيره من الامور واقعي في تقويمه فيضع من المقترحات والمعالجات ماكان جديداً في بابه انذاك فقد اراد من المعلمين ان يكونوا «من الذين تربوا جيدا وبرعوا في علم الاخلاق حتى يدرسوا طبائع كل تلميذ ويعاملونه بحسب طبيعته. وينبغي ان يكونوا كذلك من النبهاء ليلاحظوا ميل كل تلميذ وقابليته العقلية ليرذعوه عن الفاسد وينشطوه في الاستعداد الحسي ، والاكثرون لايفهمون مقدار الضرر الناشيء عن عدم مراعاة ذلك ، فان عقولا كثيرة من اذكى العقول ينطفيء نورها كل سنة في المدارس في سوء المعاملة ومقاومة اميال العقل» وقد دعا الدكتور شميل ، الى نشر التعليم الالزامي وطالب بفتح

المدارس في كل مكان ليعلم فيها الاطفال مبادى العلوم البسيطة . كما عالج شميل وضع المرأة في المجتمع العربي ودعا الى اصلاح السجـون.

لم يقدم الشميل مذهباً سياسياً متسقاً ، بل بث بعض افكاره الاساسية في مقالاته وكتاباته . وقد وقع بسبب نقله عن مؤلفين مختلفي الاتجاهات في التناقض حيناً والتطرف حيناً اخر . ومن ذلك انه كان داروينياً اكثر من داروين نفسه ، اذ تمسك بتلابيب تلك النظرية واراد تطبيقها على معظم ماعالج من امور فهو يقول مثلا ان الحرب ضرورة لابد منها وناموس تنازع البقاء في الطبيعة هو قاعدة ناموس النشوء في المجتمع . وقد اوقعه التناقض والارتباك في خطأ التأييد للاحتلال البريطاني لمصر التي اصبحت حياتها منذ وقوع الاحتلال ، كما يقول ذات قيمة . ويبدو ان وهـج الحضارة العربية مع المعاناة من التخلف العثماني قد حجب عنه وضوح الروئيا السياسية . كما انه اثار المرأة المثقفة في مصر حين القى محاضرة في جمعية الاعتدال بالقاهرة سنة ١٨٨٦م، قال فيها ان ظروف المرأة الخاصة جعلتها دون مستوى الرجل . وهناك نقطة ضعف اخرى في افكار الشميل وهي انه يهاجم العلوم الانسانية ويعدها اشبه بهذيان ومماحكات لاطائل تحتها . لذا دعا الى الغاء مدرسة الحقوق واقامة مدرسة للكيمياء بدلهـا ورأى شميل في العلم والعدل والحرية امورا مهمة في تحديث الدولة . لهذا قدم برنامجاً مهماً لتحديث الدولة العثمانية الى السلطان عبد الحميد سنة ١٨٩٦م بعنوان (شكوى وامل) لخص فيه افكاره حول ماكانت تعانيه الدولة العثمانية وعد العلم شيئاً اساسياً في تطورها . و رغم بعض المآخذ على شميل ، فانه كان رائداً من رواد حركة النهضة العربيــة .

قاسـم أمـــين :

ولد قاسم امين سنة ١٨٦٥م. وكان ينتسب الى اسرة كردية من مدينة السليمانية بالعراق، اخذ ابوه امين بك بن احد الامراء الاكراد رهينة الى

استانبول اثر بعض الحركات الكردية التي نشبت انذاك ، ثم جاء الى مصر وانتظم في عهد الخديوي اسماعيل في الجيش المصري . ورقي الى رتبة اميرلاي وتزوج امرأة مصرية ولدت له اولادا كان قاسم اكبرهم . وقد دخل قاسم امين المدارس الرسمية، ولما اكمل دورسه، ارسلته الحكومة في بعثة علمية الى فرنسا لدراسة القانون. وعاد الى مصر صيف سنة ١٨٨٥م فتعين وكيلاً للنائب العام ثم مستشاراً في محكمة الاستئناف حتى توفي في ٢١ نيسان سنة ١٩٠٨م وعمره لم يتجاوز الثالثة والاربعين .

اطلع قاسم امين اثناء اقامته في فرنسا على اتجاهات الفكر الاوربي الحديث وخاصة المتعلقة منها بفكرة الحرية السياسية التي اتت بها الثورة الفرنسية اواخر القرن الثامن عشر وتطورها الى اديولوجية جديدة يعتنقها المجتمع ، فاصبحت حرية اجتماعية، حرية في الصحافة، وحقوقاً للعامل، والغاء للرق وانطلاقاً للمرأة. وقد استقر رأي المفكرين والفلاسفة الاوربيين على تأكيد مبدأ الفردية وكانت محاولة الاشتركيين منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، تهدف الى ادراك المساواة الاجتماعية والاقتصادية الى جانب المساواة السياسية التي اعترف بها القانون. وحين عاد قاسم امين الى مصر وجد ان ميدان الاصلاح الاجتماعي لم يجد مايستحقه من اهتمام رواد النهضة العربية فبدأ يكتب سلسلة مقاولات نشرت متتابعة في جريدة المؤيد حتى سنة ١٨٩٨م بعنوان «اسباب ونتائج واخلاق ومواعظ». وقد تضمنت هذه السلسلة تسعة عشر مقالاً تدور حول ثلاثة عناصر: اولها حول المال وثانيهما حول اسس التربية السليمة. اما العنصر الثالث فيدور حول الاصلاح الاداري. وقد عرض قاسم امين في مقالاته الاولى لفكرة انصراف المصريين عن حب المغامرة، في حين ان الحياة مجال تنافس حر من اجل حياة افضل ، فليس حب المال هو الدافع للصراع ولكنه حب الحياة الكريمة ، والبقاء

مجال صراع الدول الاوربية من اجل السيطرة علينا، ونحن نحول وجوهنا بعيدا عن الميادين الصراع، كاننا ابناء كوكب اخر حضرنا الى هذه الدنيا للنزهة والتسلي بالنظر الى اهلها اياماً ثم العودة الى اوطاننا بعد ذلك بسلام. ويتعمق قاسم امين في جذور المشكلة الاجتماعية فيجدها ترتد الى عاملين: اولهما سوء معاملة الحكومات السابقة، فانها بغدرها وظلمها افقدتنا ملكة الاقدام على العمل ثم بعد ذلك سوء التعليم. ويرى قاسم امين ان التربية الحديثة تقوم على ثلاثة اسس: هي الاساس الديني وتنمية المشاعر الوطنية ومراقبة الوازع النفسي او تنمية الضمير. ثم يقتنع قاسم امين بدور المرأة في تحقيق الانقلاب الاجتماعي المنشود، حتى ارتبط اسمه بعد ذلك باصلاح المرأة او تحريرها.

الف قاسم امين في هذا الصدد كتابين الاول بعنوان (تحرير المرأة) والثاني بعنوان (المرأة الجديدة) وقد ادرك قاسم امين مايعتور مشروعه من العقبات وماسيلقاه من مقاومة تيار الرأي العام، ولذلك كتب في الصفحات الاولى من كتاب تحرير المرأة يقول: «سيقول قوم ان ما انشره اليوم بدعة، فاقول نعم اتيت ببدعة ولكنها ليست في الاسلام» بل في العادات والتقاليد السائدة ويرى ان هناك تلازماً بين انحطاط المرأة وانحطاط الامة ويتساءل عن اسباب انحطاط المرأة ويجيب انه ليس للاسلام دخل في ذلك، لان الاسلام سبق كل الشرائع في تقرير مساواة المرأة للرجل، فاعلن حريتها واعتبر لها كفاءة شرعية يوم كانت في حضيض الانحطاط عند الامم الاوربية. ويضيف ان الحكومات الاستبدادية سبباً في استمرار تلك التقاليد القاسية، فالحاكم يستند بالمحكوم، والرجل يستند بالمرأة ودائرة الاستبداد تحيط المجتمع كله وتفسد كل جانب فيه، وهكذا بقيت حالة المرأة وبقي حال الرجل معها «له الحرية، ولها الرق، له العلم ولها الجهل، له العقل ولها البله، له الضياء والفضاء ولها الظلمة والسجن، له الامر والنهي، ولها الطاعة والصبر له لكل شئ في الوجود وهي بعض ذلك لكل الذي استوى عليه». وفي الكتاب الثاني (المرأة الجديدة) رجع الى الموضوع وزادة شرحاً وتعليقاً. فقد تكلم فيه عن «المرأة في حكم التاريخ» و «الواجب

على المرأة لنفسها » و«الواجب على المرأة لعائلتها» و«التربية والحجاب» وقد اتسم كتابه الجديد بالجرأة ، فبعد ان كان يطلب للمرأة تعليماً محدوداً، أصبح يطلب لها ثقافة اوسع في كل مراحل التعليم ، وبعد ان كان يطلب من الرجل السماح لنسائه بالحجاب الشرعي ، اذبه يطلب من المرأة نفسها تمزيق الحجاب بيديها ومحو اثاره . وبعد ان كان يتحفظ في حديثه عن عمل المرأة عند الضرورة ، يحاول ان يلفت نظر المرأة الى الوظائف التي يمكن اذا ماتعلمتها ان تحسنها ومنها التدريس والطب والتجارة والادب .

اثارت كتابات قاسم امين ، ضجة كبيرة ليس في مصر وحدها بل في اقطار اخرى من الوطن العربي ففي مصر اتهمه البعض بالمروق من الدين، وبتحريض النساء على الفساد ، وبلغ السفه باحدهم حد الايذاء ، فقد ذهب الى بيته وطلب ان يجتمع بزوجة قاسم على انفراد تطبيقياً لدعوته ، فكلمته من وراء ستار ،وافهمته ان قاسماً لم يدع الى السفور ولا الى الخلوة باجنبي وشنت جريدة اللواء على قاسم امين حملة شعواء شهوراطويلة،وقالت في احدى مقالاتها ان الحرية قد افسدت على المرأة الاوربية آدابها ، ومحت كثيراً من الاخلاق الفاضلة حتى عمت الشكوى هناك. اما جريدة المؤيد فقد افسحت صفحاتها للمعارضين والمؤيدين معاً. وتصل الصحف المصرية الى العراق والشام فينقسم هنا بين مؤيد لدعوة قاسم امين ومعارض لها كما حدث في مصر . ولم يكف دعاة الحجاب بمقالاتهم بل ألفوا الكتب التي تهاجم دعوة قاسم امين ، ومن تلك الكتب «نظرات في السفور والحجاب» لمصطفى الغلاييني و«تربية المرأة والحجاب» لمحمد طلعت حرب و«قولي في المرأة» لمصطفى صبري . ولم يعدم قاسم أمين من بعض المجددين الذين لاقوا دعوته بالاعجاب ونصروه . ولعل من ابرز هؤلاء ابراهيم رمزي الذي اصدر مجلة في القاهرة سماها (المرأة في الاسلام) كرسها للدفاع عن حرية المرأة، لكنها احتجبت بعد صدورها بسنة واحدة . اما في العراق ، فقد كان الشاعر جميل صدقي الزهاوي من اشد انصار دعوة قاسم امين . لكنه

واجه مثل قاسم عنت المتدينين والمحافظين الذين اتهموه بالتحامل على الاسلام . ومما شجعهم على هذا مطالبته المرأة بالثورة على الرجال ، ورجمهم ان لاموها شعورها ورغبتها . وفيما يلي بعض ابيات قصيدة مشهورة للزهاوي يقول فيها

اسفري فالحجاب ياابنة فهر	هو داء في الاجتماع وخيم
كل شيء إلى التجدد ماض	فلماذا يقر هذا القديم
انزعيه ومزقيه فقد أنكر	ه العصر ناهضاً والحلوم
وارجمي من يلومك فيه	ان شيطان اللائمين رجيم
لم يقل بالحجاب في شكله هذا	نبي ولا ارتضاه حكيم
لايقي عفة الفتاة حجاب	بل يقيها تثقيفها والعلوم

ولم يندفع المؤيدون في الشام بمثل اندفاع الزهاوي ، وانما هاجموا من رجال الدين من جهلوا يسره وسماحته ، فاثقلوا كاهل المرأة بهذه الحجب وحرموا ما حلله الله :

ظلموك ياحواء جهلاً مطبقا	والمرء مظلوم اذا لم يظلم
غلبوا نواميس الحياة فاثقلوا	عطفيك في عبأ الحجاب المؤلم
هم حرموا للناس كل محلل	هم حللوا للناس كل محرم

ومهما يكن من امر ، فإن بذور دعوة قاسم امين سرعان مانبتت في اماكن مختلفة من الوطن العربي ، حين ظهر اهتمام الناس شيئاً فشيئاً بتعليم بناتهم وانشاء المدارس لهذه الغاية .

اديب اسحق :

ولد اديب اسحق في دمشق سنة ١٨٥٦م وتلقى علومه في مدرسة الاباء العازرين فيها ، وقد ابدى منذ حداثته اهتماما كبيرا بالشعر ، وقبل انه اخذ ينظمه وعمره لم يتجاوز العاشرة . وقد اضطر الى العمل وهو في الحادية عشرة ، اذ اصبح كاتباً في الجمارك براتب يسير . ولم يكن ذلك ليصرفه

اسحق الى مغادرة مصر والسفر الى باريس سنة ١٨٨٠م، وهناك اصدر اول عدد من صحيفته مصر القاهرة في ٢٤ كانون الاول سنة ١٨٧٩م . وقد جاء في ترويستها انها تطبع في باريس تحت سماء الحرية ما يعود بالنفع على على البلاد العربية ...... حرية مساواة . اخاء «اللهم ايد بنا امر الحق وكلمة الصادقين ، وانصرنا على القوم الظالمين برحمتك ياارحم الراحمين» . ولكن صحته اعتلت واصيب بمرض السل بعد تسعة اشهر قضاها في باريس، ذلك عاد الى بيروت ليعمل في جريدة التقدم. وفي اواخر سنة ١٨٨٠م ذهب الى القاهرة وعين ناظرا لقلم الانشاء والترجمة بديوان المصارف ورخصت له الحكومة باستئناف نشر جريدته (مصر) وحين اشتد عليه المرض، نصحه الاطباء بالعودة الى بيروت ، ولم يمض عليه ثلاثون يوما حتى توفي في ١٢ حزيران سنة ١٨٨٤م ولم يتم التاسعة والعشرين من عمره.

كان اديب اسحق معجبا بالثقافة الفرنسية ويغرف منها في كل مقالاته وخطبه العديدة ويستند بشكل مستمر بأدباء ومفكري فرنسا المشهورين امثال راسين وهوكو وروسو ومونتسكيو وغيرهم..وكان معجبا بالثورة الفرنسية ومبادئها . وقد عالج في كتاباته كثيرا من الافكار السياسية ، ومنها نقد الاستبداد وفساد الادارة العثمانية والدفاع عن الحرية والمساواة بين الرجل والمرأة والتعليم الالزامي. كما بحث في مفاهيم الامة والوطن . وقد نقل الكواكبي عنه كثيرا من ارائه. كان اديب اسحق مصلحا اكثر منه ثوريا ، لقد كان يعبيء للاصلاح، لا للثورة. لهذا فقد طرح افكارا حول اصلاح المجتمع كله وسماه الاصلاح المطلق او الشامل ويتشعب هذا الاصلاح الى ثلاثة اوجه هي: السياسة والمدنية والاقتصاد الاجتماعي، وينقسم الوجه الاول الى مالية وادارة وقضاء، والثاني الى معارف ومساواة وحرية والثالث الى امن ووقاية وتوزيع اشغال. لايتم الابثلاث اولها : ان يتم بالتدرج وثانيهما ان يكون ضمن حدود الممكن وثالثها ان يجيء منسجماً مع حاجات

الزمان والمكان والناس فاحسن القوانين كما يقول ماكان مع متلائماً مع احوال البلاد. وهذا الاصلاح بعد ذلك له اساسان لاثالث لهما وهما مشاركة الامة، والعدل والعلم. وكان اديب اسحق يبشر بالاصلاح، ولم يكن غريباً ان تحتفل جريدته (مصر) بوصول مدحت باشا واليا على سوريا. والاصلاح السياسي الذي ينشده يقوم على اساس اقامة حياة دستورية. وتنطلق هذه الدعوة من انه لاقوة للحكومة «الا بالامة ولا ثبات الا بالشورى، ولا سطوة الا بالحرية ولا سلطة الا بالمساواة». ولكن هذه الحياة الدستورية لابد ان تتحقق عبر الانتخابات. وينتقد اديب اسحق الحياة البرلمانية العثمانية ويصف مجلس المبعوثان على «انه معدوم بصورة موجود» ويشير الى السبب ويقول ان ذلك يرجع الى خلل الانتخاب ورهبة النواب. وفي مقالاته التي تدور حول المسألة الطبقية يبدو اديب اسحق طوباويا ، لكنن دعوته الاصلاحية تجعلـه في عداء المفكرين العرب الذين دعوا الى التغيير السياسي والاجتماعي. وقد وقف اديب اسحق مع الاستقلال وهاجم التدخل الاجنبي في بلاده. ويركز هجماته على بريطانيا، ولم يسكت على غزو الفرنسيين للجزائر وانما هاجمهم مرات عديدة في مقالاته . وكان . مثل الافغاني مع الوحدة ضد الأنقسام ، ولقد أشرنا الى ان الافغاني فضل الذهاب الى استانبول او العيش في سجن ذهبي، داعيا الى التمسك بالوحدة العثمانية خشية ان تتمزق الدولة وتفترسها الدول الاجنبية. كذلك كان اديب اسحق عثمانيا، من حيث انتماؤه الاساسي فهو مع بقاء الدولة العثمانية متحدة، ومع درء الاخطار الخارجية عنها. ويتجلى ذلك في كتاباته كلها. واديب اسحق الحريص على الدولة العثمانية المدافع عن وحدتها المؤيد للاصلاح فيها لايستطيع ان يكتم اسفه احياناً «... على الدولة تأخذ بما يضر وتنبذ ماينفع... وينذرها بالهبوط والسقوط ولكن ابى من يسمع...» . لذلك فان اديب اسحق، كما يقول المؤرخ الفلسطيني ناجي علوش، هو من اوائل المفكرين العرب الذين دعوا الى الاتحاد العربي. وقد جاءت دعوته هذه في مقالة له عن الشرق تحدث فيها عن دولة العرب القديمة. وبعد ان

عن القراءة والكتابة ومراسلة المجلات. ثم انتقل الى بيروت سنة ١٨٧١م. وعمل في الصحافة. وقد اكسبته مقالاته التي كان ينشرها في جريدة التقدم شهرة واسعة ، فبدأ الناس يتحدثون عن قوة عبارته وطلاوة اسلوبه. وانكب في هذه الفترة على الكتابة والترجمة وتولى تحرير جريدة(ثمرات الفنون) . وقد انتسب الى جمعية (زهرة الاداب) ثم تولى رئاستها، وكان يلقي فيها الخطب والمحاضرات والقصائد. وقد ساعده ذلك على تنمية مواهبه الخطابية وقدرته على الحوار والجدل. وابتدأ منذ سنة ١٨٧٥م يتجه نحو التأليف، فألف كتاب «نزهة الاحداق في مصارع العشاق» كما انه ترجم لصاحب جريدة التقدم كتابين احدهما في العادات والاخلاق. وثانيهما في الصحة، وقد طبعا دون ذكر اسمه. وشارك سليم الخوري في تأليف كتاب «اثار الادهار» وتلبية لطلب القنصل الفرنسي في بيروت، ترجم رواية مسرحية اندروماك للشاعر الفرنسي راسين.. وقد جاء اديب اسحق الى القاهرة سنة ١٨٧٦م مدفوعا بدعوة صديقه سليم انقاش في تقديم برامج مسرحية. ولم يلبث ان انخرط في حلقة جمال الدين الافغاني في مقهى متاتيا. ويقول شبلي الشميل انه هو الذي عرف اديب اسحق بجمال الدين الافغاني. وكان جمال الدين يشجع «... بعض الموهوبين على احتراف الصحافة وتكريس الجهود لها». وذلك لمساعدته في نشر افكاره، وعلى التعبئة ضد التخلف والعلم والعدوان لذلك اصدر اديب اسحق جريدة مصر اوائل تموز ١٨٧٧م التي اقبل الناس على مطالعتها ثم اصدر سنة ١٨٧٨م جريدة يومية اخرى هي التجارة ، وحول مصر الى جريدة اسبوعية. وقد ساهمت جريدتا مصر والتجارة في الحركه الثقافية والسياسية وعبرتا عن خط افغاني ، وايدتا الشورى ضد الاستبداد، وهاجمتا السياسة البريطانية، ونقلتا افكار الثورة الفرنسية. ولم تتحمل السلطات المصرية هجوم الصحفيين على الاجانب، والرقيبين الانكليزي والفرنسي في وزارة رياض باشا التي تشكلت في الحادي عشر من ايلول سنة ١٨٧٩م. لذلك الغت الصحيفتين بعد ان انذرتهما مرات عديدة. وقد اضطر اديب

قارن عظمة الماضي ببؤوس الحاضر قال مخاطبا العرب في زمنه: «ألستم في الارض التي أقلتهم، وتحت السماء التي اظلتهم، أو أليس مأوكم هو الذي وردوه، وهواكم الذي انتشقوه، فما بكم تعجزون عما استطاعوه؟» ثم يمضي في التساؤل « والا فما للحجاز محجوز الانوار، وما للشام مشؤوم الاحوال، وما لمصر مقرونة الطالع بالعسر، وما للعراق مؤذن العز بانفراق، وما لحلب متوالية النوب، وما لليمن فاقد اليمن، وما لتونس عديمة الانس، وما للمغرب مهمل العرب؟!» ويضيف بعد ذلك ، وهنا بيت القصيد: «ألم يكن في كل هذه الاقطار نفر من اولي العزم تبعثهم الغيرة والحمية، على جمع الكلمة العربية ...» ويدعو بعد ذلك الى مؤتمر لزعماء الامة: « يتذاكرون فيه ويتحاورون» ثم ينادون باصوات متفقة المقاصد، كأنها من فم واحد... فهلم ننشد الضالة، ونطلب المنهوب، ولا نقوم في ذلك بأمر فئة دون فئة، ولا نتعصب لمذهب دون مذهب ..فنحن في الوطن اخوان تجمعنا جامعة اللسان..» وهكذا فقضية العرب، كانت واضحة لدى اديب اسحق، وقد أخطأ من عده مفكرا عثمانيا صرفاً لكن هذا لايمنع من القول ان قضية العرب هذه احتلت مكانة متقدمة من اهتماماته.

٥ ــ الاتجاه القومي الصرف :

ويتمثل في هذه المرحلة في اراء نجيب عازوري (١٨٨١ – ١٩١٦م) صاحب كتاب يقظة الامة العربية في اسيا التركية Le Reveil de Nation arabe dans l 'Asie Turque الذي صدر بباريس سنة ١٩٠٥م وترجم الى اللغة العربية من قبل الدكتور احمد ابو ملحم ونشر ببيروت سنة ١٩٧٨م ، فهو المفكر العربي الوحيد الذي دعا بوضوح الى بناء دولة عربية قومية عثمانية تمتد من دجلة والفرات الى قناة السويس ومن البحر المتوسط الى البحر العربي. ويكون اسلوب الحكم فيها دستوريا مبنيا على المساواة لكل المواطنين امام القانون. وقد تخطى الكواكبي كثيرا . فمن

العربية ، واثارة الاهتمام بتخليصها من الحكم العثماني . وقد توقفت عن الصدور في تموز سنة ١٩٠٨م بعد اعلان الدستور العثماني على يد الاتحاديين . وصدر منها (١٥) عدداً من نيسان ١٩٠٧م وحتى حزيران ١٩٠٨ .م ورحل عازوري بعد ذلك الى القاهرة ، وعمل سكرتيراً لحزب مصر الفتاة الذي كان يدعو الى حكم تمثيلي تدريجي بالتعاون مع الانكليز . وفي ١٩١٦م اصدر الاتراك بحقه حكماً غيابياً بالاعدام ، لكنه توفي في القاهرة في العام نفسه .

دعا عازوري في كتاباته الى امة عربية واحدة تضم المسلمين والمسيحين على السواء . وقال بان المشاكل الدينية (من تعصب وفتن ومذابح) التي تنشأ بين اديان مختلفة او بين ابناء الدين الواحد انما هي في الحقيقة مشاكل سياسية تثيرها قوى اجنبية خارجية لمصلحتها الخاصة . واضاف بان المسيحيين لايقلون عروبة عن اخوانهم المسلمين ، وبان من الضروري ان تقوم كنيسة عربية قومية ، تحل محل الطوائف المتعددة التي تمارس العبادة والتفكير باللغة العربية . وكما يظهر من عنوان كتابه : «يقظة الامة العربية في اسيا التركية» فان عازوري يرى ان حدود الامة العربية تشمل جميع البلدان الناطقة بالضاد في اسيا، دون بلدان مصر وشمالي افريقيا التي كانت واقعة خارج نطاق اهتمامه انذاك ، ويبدو ان ذلك يرجع الى ان هذه الاقطار وقعت تحت الاستعمار الاوربي ، لذلك فان طبيعة النضال فيها تختلف عما كانت عليه في اقطار المشرق العربي ، حيث يتوجه النضال ضد العثمانيين ، ويكتسب طابعا قومياً وليس دينياً . فعازوري يعتقد ان على الامة العربية ان تستقل عن الاتراك . وقد برزت النغمة المعادية للاتراك في كتاباته بشكل اوضح من بروزها في كتابات من سبقه. فالاتراك في نظره هم سبب خراب الاقطار العربية ، ولولاهم لكان العرب في عداد اكثر الامم تمدناً في العالم : وكان يردد بان هناك بضعة مئات من الموظفين الاتراك يضطهدون اثني عشر مليونا من العرب .

هو عازوري وما افكاره الرئيسة: ؟

نجيب عـازوري :

ليس ثمة معلومات تفصليلية عن حياة عازوري ، الا ان معظم مصادر الفكر العربي تشير الى انه مسيحي من جبل لبنان ، ولد ببيروت في ٢٥ كانون الاول ١٨٨١م، وتولى منصب وكالة متصرفية القدس ، ثم عزل من وظيفته وسافر الى باريس حيث عمل ضد الدولة العثمانية وسعى من اجل الاستقلال العربي . وقد بدأ حملته تلك حين اسس سنة ١٩٠٤م جمعية او حركة سياسية بأسم (جامعة الوطن العربي Ligue dela patrie Arabe) انظم اليها بعض العرب الاحرار المثقفين في باريس وكان هدفها الذي اعلنته ، تحرير بلاد الشام والعراق من السيطرة العثمانية. وقد وجهت الجمعية عدة نداءات الى الرأي العام الاوربي ، ابانت فيها مطالب العرب وجاء في اول بيان لها : ان العرب الذين لايستبد بهم الاتراك الا بفضل سياستهم القائمة على ابقائهم منقسمين باسباب واهية من المذهب او الدين قد وعوا وحدتهم القومية والتاريخية والجنسية . وانهم عقدوا العزم على الانفصال عن الدولة العثمانية وتكوين دولة مستقلة بهم .

اصدر عازوري سنة ١٩٠٥م كتابه آنف الذكر وقد ساعده عمله كموظف في الدولة العثمانية ، الاطلاع على اوضاعها بوجه عام ويلم بشؤون الولايات العربية ، لذلك فقد دعا في كتابه الى توحيد الكنائس العربية الكاثوليكية باسم (الكنيسة الكاثوليكية العربية) وانفصال الولايات العربية عن الدولة العثمانية ، على ان يكون الحجاز مقراً لخلافة اسلامية عربية وان تتكون من العراق وسوريا ولبنان وفلسطين دولة عربية موحدة عصرية. وفي سنة ١٩٠٧م استمال بعض الكتاب الفرنسيين المشهورين وكسب تعاونهم معه ، في اصدار مجلة شهرية باللغة الفرنسية بعنوان (الاستقلال العربي L ' Independance Arabe) ظهر العدد الاول منها في نيسان وكان شعارها (ارض العرب للعرب) وهدفها نشر المعلومات عن الاقطار

كتاب يقظة الامة العربية (١٩٠٥)

ولم يكن عازوري انذاك يتوقع ان ينصف العرب ، والسبيل الوحيد للخلاص هو الثورة على الاتراك من الداخل ومحاربة الدولة من الخارج بالتعاون مع الدول الاوربية . لذلك كان يتجنب في كل كتاباته اغضاب واثارة الفرنسيين والانكليز والايطاليين . كما هاجم الحركة الوطنية المصرية التي كان يمثلها انذاك مصطفى كامل ووصفها بانها (وطنية كاذبة) موالية للجامعة الاسلامية والرابطة العثمانية . وكان يرى ان المصريين غير جديرين بعد بان يحموا انفهسم بانفسهم فعليهم ان يكونوا شاكرين على تمتعهم بادارة بريطانية . وقد خصص عازوري قسماً كبيراً من كتابه لتحليل مصالح الدول الكبرى وسياستها تجاه الدولة العثمانية ، ثم ينتهي الى الاستنتاج بان روسيا تشكل الخطر الاكبر ، وان التغلغل الالماني في الدولة العثمانية يؤلف الخطر الثاني . لذلك لم يبق ، ، في نظره ، من امل الا في انكلترا وفرنسا صاحبتي التقاليد اللبرالية ، ويرى جورج انطونيوس ان اراء عازوري في هذا الصدد تقدم لنا مثلاعلى انحراف بعض الداعين الى الثورة العربية ضد العثمانيين ومدى ابتعادهم عن مصادر وحيها والهامها بسبب التعليم الاجنبي . لذلك ظل اثرها في الحركة العربية نفسها ضئيلاً بالرغم من انها اثارت شيئاً من اهتمام الرأي العام الاوربي، لكن ظهورها في عاصمة اوربية وبلغة اجنبية كان امراً في ذاته يدعو الى شلها والحد منها، ولم يقدر لها ان تنفذ الى الاعماق. اما المؤرخ السوفيتي لونسكي. فيرى في مشروع عازوري التحرري صدى للمطامح البرجوازية العربية الرامية الى الزعامة. فقد وعد عازوري باحترام مصالح الاجانب ، واعتمد على معاضدتهم في الكفاح ضد الاتراك.ولم يكن منهاجه يحتوي على مطالب الثورة البرجوازية — الديمقراطية وكانت جمعية الوطن العربي التي الفها في عزلة عن الجماهير الشعبية. كما انها لم تتقوى بقوى الشعب العربي. وكان هذا الانعزال عن الشعب وانقطاع الصلة بالجماهير السمة المميزة للاتجاه العربي القومي الصرف والعامل الاساس

لضعفهم في اواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين . فمعظمهم كان يعيش خارج الوطن العربي ، ونشاطهم اقتصر على الدعاية للافكار القومية ورغم جميع عيوبهم ونواقصهم ، فان نشاطاتهم كانت تمهيداً ليقظة العرب القومية.

ان ابرز اسهام فكري لعازوري، يكمن في تحليله لمطامع الحركة الصهيونية في فلسطين وخطرها على الامة العربية. ويبدو انه ادرك من خلال عمله في التدريس قبل سنة ١٩٠٤م، طبيعة النشاط الصهيوني، واخطاره على العرب. وقد عبر في مقدمة كتابه المشار اليه، ولاول مرة ، عن تلك المظاهر السياسية لمطامع اليهود حين تنبأ ببعد نظر فريد، عن امكانية الصراع بين الحركة العربية القومية والحركة العنصرية الصهيونية وفي ذلك يقول :

«تبرز في هذا الوقت ، وبشكل لم يثر الاهتمام سابقاً ، ظاهرتان خطيرتان متعارضتان، رغم تماثل طبيعتهما، هما يقظة الامة العربية، وجهود اليهود لاعادة تأسيس مملكة اسرائيل القديمة على نطاق واسع للغاية. انه مقدر لهاتين الحركتين ان تتصارعا باستمرار حتى تتغلب احداهما على الاخرى. ومصير العالم كله يعتمد على نتائج هذا الصراع بين الشعبين اللذين يمثلان مبدأين متناقضين» .

وفي مكان اخر من الكتاب ، يدرك عازوري مخطط العمل الصهيوني الذي يرسم لاعادة تأسيس مايسمونه وطنهم القديم، باحتلال الحدود الطبيعية لهذا الغرض «... هذه الحدود الطبيعية هي بالنسبة اليهم جبل الشيخ الذي يضم منابع نهر الاردن ووادي بردى في الشمال، مع الاراضي المحصورة بين راشيا وصيدا كمقدمة، وقناة السويس وشبه جزيرة سيناء، من الجنوب والجزيرة العربية في الشرق والبحر المتوسط في الغرب ...». ويذكر احد الكتاب ان عازوري كان يعد كتاباً يفضح فيه الخطر الصهيوني .ومع ان كتابات عازوري قد وصلت سراً إلى فلسطين آنذاك ووزعت بشكل محدود

العربية القومية التي تشكلت قبيل الحرب العالمية الاولى . وفي سنة ١٩٠٥م انتقل معظم اعضاء حلقة دمشق إلى استانبول للدراسة فألفوا هناك جمعية النهضة العربية التي قامت بدور كبير في بث الوعي القومي .وتوقفت عن العمل قبل اعلان الدستور ، وبعده تطورت الاتجاهات الفكرية وقويت بشكل خاص ونما الوعي القومي من مجرد مشاعر واحاسيس تجيش في صدور الاحرار من العرب إلى الحركة منظمة لها انصارها ومناهجها السياسية .ومما زاد في بلورة النواحي التنظيمية في الحركة العربية ، التطورات التي حدثت في الدولة العثمانية وكان من ابرزها الانقلاب العثماني لسنة ١٩٠٨م .

ان الانقلاب العثماني الذي تم في ٢٣ تموز سنة ١٩٠٨م قامت به مجموعة من الضباط تنتمي الى جمعية الاتحاد والترقي وعلى رأسها انور ونيازي . وقد تمخضت العملية الانقلابية عن تظاهر السلطان عبد الحميد باستجابتة لمطالب الانقلابين باعادة دستور سنة ١٨٧٦م المعطل منذ سنة ١٨٧٧م والسير بموجب شعارات الحرية والعدالة والمساواة . وسرت من جراء ذلك موجة من الفرح والابتهاج في معظم ارجاء الدولة العثمانية أملاً في بداية عهد جديد تترجم فيه شعارات الاتحاديين الى واقع ملموس . وقد نشط الاتحاديون في الدعاية لمبادئهم عن طريق التوعية السياسية وتمثلت هذه بمختلف فروع جمعية الاتحاد والترقي التي افتتحت في شتى ارجاء الدولة العثمانية . كما استعانت الجمعية بالصحف والمجلات لنشر اهدافها السياسية . وعمدت كذلك الى فتح النوادي والمدارس وعينت لها معلمين ودعاة من بين اعضائها يلقنون الطلاب اهداف ومبادىء الاتحاديين .

نشرت جمعية الاتحاد والترقي برنامجها السياسي في اواخر ايلول سنة ١٩٠٩م وقد نص على ان تدار الولايات على اصول توسيع المأذونية اي الصلاحيات التي نصت عليها المادة (١٠٨) من الدستور . مع مواصلة السعي في تقوية عرى الاتحاد والاخاء بين العناصر العثمانية . على ان تبقى اللغة التركية هي اللغة الرسمية ، وتتبع الدولة سياسة تعليمية ترمي الى تربية



إلا انها شدت انظار بعض الصهيونيين ، ودفعت احدهم إلى كتابة مقال بالعبرية بعنوان الحركة العربية واغراضها ، اشار فيه إلى هذه الحركة التي بدأت تبرز إلى الضوء ،وقد تهدد الصهيونية بالخطر ، الا ان الرأى الغالب لم يعر تلك الكتابات اهتماماً كبيراً ، ولم تكن في نظارهم سوى عداءاً جديداً للسامية عزوها إلى العرب المسيحيين .

نشـأة الحركة العربية القومية :

كانت جمعية بيروت السرية سنة ١٨٧٦م أول جهد منظم في الحركة السياسية العربية .فقد بدأت بلصق المنشورات التي تندد بمساوىء الحكم العثماني وتدعو إلى الثورة ووضعت اول بيان محدد عن منهاج العرب السياسي ، لكنها توقفت بسبب حملات القمع الحكومية : بين سنتي ١٨٨٢م و ١٨٨٣م. وانتقل ابرز مؤسيسها : فارس نمر ، وشاهين مكاريوس ويعقوب صروف ، إلى القاهرة سنة ١٨٨٥م ليؤسسوا هناك جريدة سياسية يومية هي جريدة المقطم ومجلة فكرية باسم المقتطف ،وليتابعوا من خلالها الدعوة إلى محاربة الظلم والاستبداد التركيين والعمل على تأليف جبهة عربية موحدة (من المسلمين والمسيحيين) تقوم على فكرة العروبة وتستطيع الوقوف في وجه الاتراك . كما تكونت في دمشق حلقة سياسية سرية باسم حلقة دمشق الصغيرة في دار الشيخ طاهر الجزائري (١٨٥٢ – ١٩٢٠م)وذلك سنة ١٩٠٣م. وكان لولب هذه الحلقة محب الدين الخطيب ،ومن اعضائها البارزين عارف الشهابي وعثمان مردم ولطفي الحفار وصالح قنباز وصلاح الدين القاسمي. ان الطروحات السرية لهذه الحلقة تسجل خطوة مهمة على طريق توسيع اهتمام الشيخ طاهر الجزائري الثقافية لتأخذ طابعاً سياسياً وذلك باتجاه الدعوة لمنهاج سياسي يقضي بمطالبة الدولة العثمانية باتخاذ الاجراءآت الكفيلة بمنح العرب حقوقهم المشروعة . وقد حققت الحلقة بعض الاتصالات مع شباب بيروت ، ومنهم عارف النكدي وعبد الغني العريسي ومحمد المحمصاني والامير عادل ارسلان وغيرهم ممن ستبرز اسمائهم اعضاءاً في الجمعيات

النشيء العثماني تربية موحدة والى فتح مدارس تضم عناصر الدولة المختلفة في تعليم مشترك للوصول الى التربية الموحدة .

مال الاحرار من العرب وغيرهم في استانبول في تلك الفترة الى تشكيل جمعيات تساند جمعية الاتحاد والترقي فظهرت في ٢ ايلول ١٩٠٨م جمعية الاخاء العربي ــ العثماني . وقد نصت المادة الاولى من المنهاج السياسي لهذه الجمعية على مساندة جمعية الاتحاد والترقي في سبيل المحافظة على احكام الدستور وجمع كلمة العناصر العثمانية المختلفة . وكان رئيسها صادق باشا العظم ، ضابطاً سابقاً في الجيش العثماني ومن اعضاء جمعية الاتحاد والترقي ، وقد عاش في المهجر مضطهداً من السلطان عبد الحميد ، وعاد الى استانبول بعد الانقلاب .

بالرغم من الجهود التي بذلها الزعماء العرب المعروفون انذاك ، ومنهم عبد الكريم الخليل وعبد الحميد الزهراوي ، ورفيق العظم ، ورشدي الشمعة ، لكي يظهروا اخلاصهم وتعاونهم مع الاتحاديين الا ان بوادر الخلاف سرعان مابدأت تلوح في الافق ، خاصة بعد ان ظهرت بعض المقالات في الصحف الموالية للاتحاديين ، تهاجم العرب وتتحامل ضدهم . وبدلاً من ان يحقق الاتحاديين للعرب مطامحهم المشروعة في تحسين اوضاع الولايات العربية وتشجيع التعليم باللغة العربية ، فانهم اتجهوا نحو تطبيق مركزية شديدة ، واعتمدوا سياسة التتريك وتمجيد النعرة الطورانية واستخدموا لتحقيق ذلك الارهاب ، خاصة بعد ان قمعوا الثورة الرجعية التي حدثت في ١٣ نيسان سنة ١٩٠٩م ، وخلع السلطان عبد الحميد على اثرها ونصب محله اخاه الاصغر محمد رشاد . وقد الغيت الجمعيات ، ومن ضمنها جمعية الاخاء العربي العثماني .

لجأ المثقفون الاحرار من العرب ، ازاء تلك السياسة القمعية الى تأسيس النوادي والجمعيات التي ظاهرها ثقافي ، وباطنها سياسي ،

/

ولعل من ابرز هذه النوادي «المنتدى الادبي» باستانبول الذي اسسه جماعة من الموظفين والنواب والادباء والطلاب في صيف سنة ١٩٠٩م ليكون مركزاً لالقاء المحاضرات والابحاث العلمية وتقديم المسرحيات والروايات العربية والاستفادة من ريعها في تمشية امور المنتدى. وقد اصدر المنتدى مجلة ادبية باسم (لسان العرب) وسرعان ما أصبح المنتدى ملتقى للعرب يتناقشون فيه ويبحثون في شتى المواضيع التي تهم مستقبل بلادهم . وكان من مؤسسيه عبد الكريم الخليل ، وعبد الحميد الزهراوي ، ورفيق رزق سلوم وصالح حيدر ، وجميل الحسني ، ويوسف مخيبر ، وسيف الدين الخطيب وشفيق العظم ، ورفيق العظم ، ورشيد رضا ، ورضا الصلح ، وطالب النقيب ، وعزيز علي المصري ، وندره المطران ، ونخلة المطران ، وعزة الجندي ، ورشدي الشمعة . وبلغ اعضائه الوفا ، كانوا باغلبيتهم من الطلاب ، وصارت له فروع عديدة في سوريا ولبنان والعراق . وظل المنتدى يعمل حتى سنة ١٩٠٥م حين اغلقته السلطات الاتحادية . وقد تعرض عدد من اعضائه للاعدام في سنتي ١٩١٥ و١٩١٦م بسبب نشاطهم القومي. ومن هؤلاء عبد الحميد الزهراوي ، وشفيق العظم ، ورفيق رزق سلوم وعبد الكريم الخليل ، ورشدي الشمعة ، وصالح حيدر ، وسيف الدين الخطيب ، وعزة الجندي ، وندرة مطران ، ونخلة مطران . وقد يكون من المناسب الاشارة الى ان شبان المنتدى الادبي ، رفعوا ، لاول مرة بين سنتي ١٩٠٩ — ١٩١١م ، العلم العربي القومي الذي يتألف من مثلث احمر اللون تلتصق به ثلاثة الوان افقية متوازية هي الاسود ويرمز للدولة العباسية من فوق ثم الاخضر ويرمز للدولة الفاطمية ثم الابيض ويرمز للدولة الاموية ، اما اللون الاحمر ، فهو رمز راية الاشراف في الحجاز . وهذا العلم بالذات هو الذي رفعه الشريف حسين ابان ثورته على الاتراك سنة ١٩١٦م ويرفعه الفلسطينيون وحزب البعث العربي الاشتراكي اليوم .

لقد خابت آمال العرب وضعفت ثقتهم بالاتحادين . وقد دلت

انتخابات اول مجلس للمبعوثان ، بعد اعلان الدستور سنة ١٩٠٨م على سيطرة اعضاء جمعية الاتحاد والترقي عليها بطريقة وتسمح لهم او لمؤيديهم ان يشكلوا اكثرية برلمانية . كما ان تمثيل العناصر غير التركية كان يقل كثيراً عن تمثيل العناصر التركية فالترك مثلا لم يكونوا اكثر الاجناس عدداً في الدولة وكان العرب في الواقع يفوقونهم عدداً بنسبة (٣ — ٢) وعلى هذا فقد كان مجموع اعضاء مجلس المبعوثان (٢٤٥) مبعوثاً ، مثل الاتراك (١٥٠) مبعوثاً ومثل العرب (٦٠) مبعوثاً . اي كان الترك متفوقين بنسبة (٥— ٢) على رأي جورج انطونيوس . وكان ليبير (Lybyer) يعتقد العكس من ذلك ، بان هناك تمثيلاً عادلاً لكل القوميات . فالمجلس مؤلف من (٢٦٠) مبعوثاً من بينهم حوالي (١٢٠) تركي و(٧٢) عربي و(٢٠) كردي والبقية من عناصر الدولة العثمانية الاخرى . وثمة احصائية اخرى تذكر ان المجلس ضم (٢٨٨) مبعوثاً منهم (١٤٧) مبعوثاً يمثلون الاتراك و(٦٠) مبعوثاً يمثلون العرب .

ليس هنا مجال مناقشة هذه الاحصائيات المتضاربة وذلك لعدم توفر الاحصائيات الدقيقة لمجموع السكان في الدولة العثمانية في ذلك الحين . وثمة احصائية تقديرية لمجموع السكان في الدولة العثمانية ترجع إلى سنة ١٩٠٨م، وفيها ان المجموع لايتجاوز ال(٢٢) مليوناً من بينهم (٧,٥) من الاتراك و (١٠,٥) من العرب والبقية من العناصر الإخرى .

حاول بعض المبعوثين العرب تشكيل كتلة برلمانية باسم الحزب العربي ، ووسمت لهذا الحزب بضعة اهداف ابرزها : طلب المساواة الحقيقية مع سائر العناصر ، وجعل اللغة العربية ، لغة التعليم في المدارس الابتدائية والثانوية ورعاية حقوق المواطنين في الولايات العربية وتعيين الموظفين في الاقطار العربية من الذين يتكلمون العربية وقد ساهم مبعوثا لواء الموصل داؤد يوسفاني ومحمد علي فاضل مع شفيق المؤيد مبعوث دمشق وعبد المهدي قاسم مبعوث كربلاء وشكري العسلي مبعوث دمشق وعبد

الحميد الزهراوي مبعوث حماة وغيرهم من اجل العمل على اخراج هذه الفكرة إلى حيز التنفيذ . وقد عهد إلى عبد الحميد الزهراوي وشكري العسلي بوضع نظام داخلي لهذا الحزب لتقديمه إلى رئاسة مجلس المبعوثان والحكومة على ان يباشر بافتتاح الفروع والاندية في العاصمة والولايات العربية بعد التصديق عليه مباشرة ولكن النواب العرب لم يستمروا في مساعيهم بعد ذلك وعدلوا فكرتهم في اللحظات الاخيرة وفضلوا البقاء ضمن الحزب الحر المعتدل الذي تألف في ٢١ تشرين الثاني سنة ١٩٠٩ م. وقد اعلن الحزب المذكور بانه سيعمل على استصدار قانون للولايات باقرب وقت مستطاع يكون من شانه ان يؤمن تطبيق قاعدة «توسيع المأذونية وتفريق الوظائف» حسبما نص عليه الدستور . كما سيبذل جهده لكي يؤمن للمجلس الاداري لكل ولاية حق الادارة والاشراف على الشؤون العامة للولاية .. وكان من اعضاء هذا الحزب كل من داؤد يوسفاني مبعوث الموصل الذي تولى ادارة جريدة الحزب «تنظيمات» سنة ١٩١١م ونافع الجابري مبعوث حلب ، وسليمان البستاني الرئيس الثاني لمجلس المبعوثان ورضا الصلح مبعوث بيروت الذي اشرف على اصدار جريدة الحزب الاخرى «اصلاحات» . اما سبب عدول النواب العرب عن تشكيل الحزب العربي ، فيرجع إلى اعتقادهم بان وجودهم داخل الحزب الحر المعتدل سيعمل على زيادة قوة المعارضة للاتحاديين وعدم بعثرتها . الا ان الحزب الحر المعتدل ، سرعان ماذبل وانحل بعد فترة قصيرة وذلك بعد تأسيس جمعية الحرية والائتلاف في ٨ تشرين الثاني سنة ١٩١١م دون الاتيان بعمل يذكر .

والائتلاف" في ٨ تشرين الثاني ١٩١١م والذي ضم عناصر الحزب الحر المعتدل وجماعة من الاتحاديين المنشقين عن جمعية الاتحاد والترقي. وقد ساهم بعض المبعوثين العرب في تشكيل هذا الحزب الذي ضم عناصر مختلفة تجمعهم فكرة معارضة الاتحاد والترقي والايمان باللامركزية. وقد نشر الحزب منهاجه السياسي الذي نص على توسيع المأذونية وتفريق الوظائف باستثناء مسائل الدفاع الخارجي او مسائل المنافع المشتركة بين الولايات مع بقاء الرابطة العثمانية على ان تمنح الولايات استقلالاً ادارياً على اساس اللامركزية.

تفاقم الصراع بين الاتحاديين والائتلافيين في مجلس المبعوثان. اذ ازدادت حدة المعارضة لجمعية الاتحاد والترقي، مما اضطر الاتحاديين الى استصدار ارادة سلطانية لحل مجلس المبعوثان في ١٨ كانون الثاني سنة ١٩١٢م على ان تجري الانتخابات خلال ثلاثة اشهر من تاريخ حل المجلس ليجتمع مجلس المبعوثان الجديد.

اختلفت الانتخابات التي بدأت اواخر كانون الثاني سنة ١٩١٢م عن سابقتها وذلك لان الصراع بين جمعية الاتحاد والترقي وحزب الحرية والائتلاف كان على اشده. وبالرغم من نجاح الاتحاديين في ان تكون لهم أكثرية برلمانية الا إنهم سرعان ماواجهوا مشاكل معقدة. وقد كان للجمعية العسكرية التي تألفت منذ ايار- حزيران سنة ١٩١٢م والتي عرفت باسم ضباط الانقاذ او "خلاص كار ضابطان" دور كبير في احداث تلك المشاكل. ومعظم هؤلاء الضباط من الالبان. وقد اعلنوا تمردهم في الروم ايلي. وتركزت معارضتهم حول عدم شرعية الحكومة ومجلس المبعوثان الجديد الذي اقحمت جمعية الاتحاد والترقي اعضائها فيه. فطالبوا بانتخابات حرة، ودعوا الى عدم تدخل الجيش في السياسة واوعزوا الى محمود شوكت باشا وزير الحربية بالاستقالة فاستجاب لدعوتهم في ٢١ تموز سنة ١٩١٢م. وتألفت وزارة ائتلافية جديدة برئاسة احمد مختار باشا (ثم كامل باشا من

بعده) وحل مجلس المبعوثان. واعلنت الحكومة الجديدة عن عزمها لتطبيق مبدأ اللامركزية.

لم تتمكن وزارة ضباط الانقاذ من تنفيذ منهاجها اذ اطاح بها الاتحاديون بانقلابهم العسكري الثاني في ٢٣ كانون الثاني سنة ١٩١٣م بقيادة انور باشا وحكم الاتحاديون منذ ذلك التاريخ وحتى نهاية الحرب العالمية الاولى بشعاراتهم الثلاثة المعهودة الا وهي: المركزية والطورانية والتتريك. وتقوم الطورانية على تمجيد القومية التركية والتركيز على قرابة الاتراك العثمانيين مع اخوانهم الطورانيين في اسيا الوسطى. واستندت الحركة الطورانية الى سياسة التتريك، وكان لسياسة التتريك والحركة الطورانية فلاسفتها منهم يوسف آق جوره أوغلي ومن ارائه في هذا الصدد: « ان الذين يرتبطون مع الاتراك بالدين فقط، وليس بالعرق، الا أنهم قد امتزجوا مع الاتراك الى درجة معينة، يسهل صهرهم في المجتمع التركي. اما الذين لم يتولد لديهم شعور قومي فيمكن تتريكهم».

اجرى الاتحاديون انتخابات جديدة لمجلس المبعوثان، فاعلنت نتائجها في ٤ كانون الثاني ١٩١٤م .وقد مارس الاتحاديون فيها اساليب مختلفة من الضغط ليضمنوا اجراء الانتخابات لصالحهم. ولم يمنع هذا من فوز بعض النواب العرب الذين يحملون اتجاهات مغايرة لاتجاهات الاتحاديين وقد ساهم هؤلاء النواب وغيرهم في اثارة بعض القضايا المتعلقة بالامور الاقتصادية والتعليمية والاجتماعية. ولكن انباء الحرب العالمية الاولى اخذت تطغى على اخبار مجلس المبعوثان، فاصدر السلطان محمد الخامس ارادة سلطانية في اب سنة ١٩١٤م تقضي بتعطيل المجلس نظراً لظروف الحرب.

لم تكن فروع جمعية الاتحاد والترقي في الولايات العربية هي المجال الوحيد الذي برز فيه الاتجاه الطوراني وسياسة التتريك، وانما كانت هناك مجالات اخرى، ومنها سياستهم تجاه التعليم. لقد حرص الاتحاديون على ان يكون التعليم في المدارس باللغة التركية وحدها تطبيقاً لسياسة التتريك

التي تجهوا اليها. وكان من مظاهر الاتجاه القومي التركي المتطرف كذلك، هو اهتمام الاتحاديين بالمناطق التي يسكنها الاتراك. كما تشدد الاتحاديون في ان يكون التدريس باللغة التركية بما في ذلك تدريس قواعد اللغة العربية واذا اضطر بعض المعلمين احيانا الى الشذوذ عن هذه القاعدة فانهم يمنعون من ذلك من قبل المسؤولين . وعلى اي حال لايتمكنون من استعمال اي كتاب مالم يكن تركياً . وكثيراً مايحدث ان المعلم للقواعد العربية كان يجهلها ومع هذا يلقي درسه باللغة التركية . وغالباً ماكان الطلاب العرب يرددون الاناشيد التركية دون ان يفقهوا كثيراً من معانيها .

ان سياسة الاتحاديين تجاه التعليم في الولايات العربية ، قادت إلى نفور قسم من الناس واعراضهم عن المدارس الحكومية حيث فضلوا ارسال ابنائهم إلى مدارس الارساليات التبشيرية او إلى الكتاتيب او المدارس الدينية. ولهذا فقد كانت المدارس الرسمية مقتصرة على اولاد الموظفين والضباط وبعض الوجهاء الذين كانوا على صلة مستمرة مع دوائر الدولة .

سار الاتحاديون منذ سنة ١٩١٣م وحتى نهاية الحرب العالمية الاولى بسياسة مركزية اثارت حفيظة القوميات الاخرى في ارجاء الامبراطورية . وقد انعكس ذلك بطبيعة الحال بردود الفعل القومي بين العرب عن طريق المؤسسات التي مارست نشاطاً ملحوظاً في التوعية القومية عن طريق المطالبة بالحكم المركزي . ومن ذلك نشاط حزب اللامركزية الادارية العثماني في القاهرة. اما بالنسبة للقومية العربية ، فقد تمثلت في التنظيمات الحزبية السرية وابرزها جمعيتي العهد العسكرية والعربية الفتاة . ولنقف عند هذه التنظيمات لنكشف طبيعتها وظروفها ومنهاجها ثم نحدد اهم السلبيات التي وقعت فيها الحركة القومية العربية عموماً . ولنبدأ اولاً بحزب اللامركزية الادارية العثماني .

حزب اللامركزية الادارية العثماني :

تأسس اواخر سنة ١٩١٢م في القاهرة . وهدفه السعي لتطوير اسلوب الحكم في اقطار الدولة العثمانية على اساس اللامركزية . وبعبارة اخرى منح كل ولاية قسطاً كبيراً من الاستقلال الاداري حتى تستطيع تنفيذ الاصلاحات الضرورية ومقاومة اي غزو اجنبي في حالة تعذر مساعدة الحكومة المركزية لها خشية ان يتكرر ماحدث في ليبيا وغيرها من اقطار المغرب العربي . وقد كان من اهداف هذا الحزب كذلك ان تكون في كل ولاية لغتان رسميتان : اللغة التركية واللغة المحلية . وان يؤدي شبان كل ولاية الخدمة العسكرية داخل ولايتهم في زمن السلم . وان تخصص واردات الولاية لسد احتياجاتها المحلية . وان توسع صلاحيات مجالس الولايات ، وان يستعان قدر الامكان بخبراء اجانب لاعادة تنظيم قوى الشرطة ودوائر العدل والمالية . وقد أكد الحزب على انتهاج الوسائل العلمية والسلمية لتحقيق اهدافه .

كما ظهرت في بيروت اواخر سنة ١٩١٢م ، بعد تأسيس حزب اللامركزية جمعية اصلاحية باسم «لجنة الاصلاح» تألفت من ستة وثمانين عضواً من جميع الأديان ، وكانت خطتها تهدف إلى التطبيق العملي للمبادئ التي نادى بها دعاة اللامركزية . وقد اعلنت لجنة الاصلاح منهجها في اواسط شباط سنة ١٩١٣م ونشرته على نطاق واسع في الشام والعراق . فعمدت السلطات المحلية الى مطاردة بعض اعضائها . غير انها اضطرت ، تحت ضغط المظاهرات التي عمت بلاد الشام ان تطلق سراح القادة المعتقلين وتعلن عزم الحكومة على القيام بالاصلاحات على اساس اللامركزية .

اصدر الاتحاديون في ٥ آيار سنة ١٩١٣م قانوناً جديداً للولايات . جاء على النقيض تماماً مما هدفت اليه مناهج لجنة الاصلاح وحزب اللامركزية الادارية العثماني . وقد عده الكثيرون خطوة مقنعة نحو المزيد من المركزية وزيادة وطأة استانبول على الولايات العربية وتقوية قبضتها على الحرية .

ركا مه ١ التفصيل

واجه القانون الجديد ، بعد نشرة مقاومة شديدة في الولايات العربية. فأخذت الصحف تندد به . وكتبت جريدة صدى بابل البغدادية في عددها الصادر في ٢٥ آيار سنة ١٩١٣م تقول : «أي قدرة تقدر على افهام اخواننا الاتراك ، ان العرب في الدولة هم اخلص العناصر واصدقها واشدهم تمسكاً بالجامعة العثمانية . ان اخواننا يعلمون ذلك ولكنهم لايريدون ان يعترفوا ، يريدون أن يتجاهلوا الاسباب ». وقد عقدت الاجتماعات في الولايات العربية ،وتقرر فيها الاحتجاج على القانون المجحف بحقوق الوطن والمواطن. وابرق عدد من المثقفين في الولايات العربية إلى استانبول يطالبون عدم تطبيق القانون باعتباره غير كاف لاصلاح ولاياتهم .

لقد ارتبطت الحركة الاصلاحية ، بصورة خاصة ، بحزب اللامركزية الادارية العثماني في القاهرة ، وكان من مؤسسيه رفيق العظم وحقي العظم ورشيد رضا واسكندر عمون ، وعبد الحميد الزهراوي وداؤد بركات . وقد ذكر عبد الغني العريسي احد القوميين العرب الذين اعدمتهم السلطات العثمانية فيما بعد ، في اعترافاته امام المجلس العرفي العثماني في عاليه بلبنان : ان رئيس الائتلافيين صادق بك كان يتردد على رفيق العظم وجرى بينهما شبه اتفاق بحيث يكون الحزبان عوناً على ازاحة الاتحاديين من الحكم .

اسست جمعيات اصلاحية مماثلة لجمعية الاصلاح في بيروت ، في الموصل وحلب ودمشق والبصرة . كان قسم منها فرعاً لحزب اللامركزية الادارية العثماني . اما القسم الآخر فكان جمعيات مستقلة نسقت نشاطاتها مع الحزب المذكور .

كانت حركة الوعي القومي في سوريا اقدم عهداً . واقوى تنظيما واكثر انصارا بالقياس الى الاقطار العربية الاخرى . ولقد سبقت ، كما رأينا ، حركة الوعي هذه نهضة فكرية ، ولما كان لكل حركة ان تضمن لنفسها واقعاً تعمل من خلاله ، فقد اثمرت تلك النهضة وبدأ صداها يترك اثره على الأوضاع السياسية . واذا كانت حركة الوعي القومي قد اتخذت

في سوريا شكلاً منظما جلب انتباه المؤرخين ، فليس معنى هذا انه لم تكن هناك في الولايات العربية الأخرى عوامل تعمل عملها في ظل ظروف اقتصادية واجتماعية وفكرية تفاعلت مع بعضها وادت الى ظهور الوعي القومي .

ان الاتحاديين بدلاً من ان يحققوا للعرب مطامحهم القومية ، اتجهوا منذ سنة ١٩١٣م وحتى نهاية الحرب العالمية الاولى الى انتهاج سياسة مركزية متطرفة اثارت حفيظة القوميات الأخرى ومنهم العرب ، هذا فضلاً عن اتباعهم سياسة تفضيل الاتراك على غيرهم من عناصر الدولة وقد استخدموا الارهاب في فرض سياستهم . كما الغيت الجمعيات العربية العلنية ، وكان لفشل الاتحاديين في الدفاع عن الاقطار العربية ضد الغزو الاوربي الاستعماري اثر في احساس العرب بضرورة بعث كيانهم الخاص المتميز ، فبدأوا يجهرون برفضهم للسيطرة العثمانية . ثم لجأوا الى تنظيم انفسهم في جمعيات واحزاب سياسة سرية لمواجهة الأخطار الجديدة . ولعل من ابرز تلك الجمعيات جمعيتي العهد العسكرية ، والعربية الفتاة.

جمعية العهد العسكرية :

اضطر الاحرار العرب الى العمل السري بعد أن ازداد اضطهاد الاتراك لهم ولعل من ابرز الجمعيات السرية التي تأسست خلال المرحلة التي سبقت الحرب العالمية الاولى . جمعية العهد العسكرية . تشكلت في استنابول بزعامة عزيز علي المصري وهو ضابط عربي في الجيش العثماني وبعض الضباط المتحمسين للقضية القومية العربية امثال سليم الجزائري وطه الهاشمي ونوري السعيد وجميل المدفعي وغيرهم . ولايوجد تاريخ دقيق لنشأتها. فقد ذكر عزيز علي المصري بانه في سنة ١٩١٢م اسس جمعية العهد العسكرية . بينما حدد جورج انطونيوس بداية سنة ١٩١٤م تاريخاً لنشأتها . اما أمين سعيد فقد وضع اليوم الثامن والعشرين من تشرين الاول ١٩١٣م تاريخا لتأسيس هذه الجمعية .

سميت الجمعية بهذا الاسم ، لان انتماء اي عضو اليها يعد بمثابة «عهد» بينـه وبين الله على خدمة الوطن . وكان هدف الجمعية الحصول علـى الاستقلال الداخلي للاقطـار العربية . ويقـول نوري السعيـد : « بـان هـدف الجمعيـة كـان منحصـراً في اصـلاح الحال على اساس النظام الاتحادي (فيدراسيون)... ولم يفكر احد منا في الانفصال عن الامبراطورية العثمانية، وانما كان تفكيرنا منصبا في الحصول على ادارة عربية محلية، ولغة عربية رسمية على ان نشترك والعنصر التركي في ادارة سياسة الدولة العامة...». كان منهاجها نفس منهاج الجمعية القحطانية التي كشفت السلطات الاتحادية امرها. والجمعية القحطانية اسست سنة ١٩٠٩م في استانبول بزعامة علي المصري ونص منهاجها على ان تؤلف الولايات العربية مملكة واحدة تصبح جزءاً من امبراطورية تركية عربية .

لقد حرص عزيز علي المصري على ان تقتصر جمعية العهد على العنصر العسكري وحده. لذلك لم يقبل فيها من المدنيين غير اثنين احدهما الامير عادل ارسلان احد الاعضاء الاوائل في الجمعية السابقة. وقد يكون من المناسب الاشارة الى ان الضباط العراقيين احتلوا مكانة مهمة في مجالس جمعية العهد وقد انشأوا بين اواخر سنة ١٩١٣م وبداية سنة ١٩١٤م فروعاً للجمعية في الموصل وبغداد. ولربما يرجع ذلك الى ان العراق شهد منذ اواخر القرن التاسع عشر، تأسيس العديد من المدارس العسكرية (الرشدية والاعدادية).

قررت السلطات العثمانية بعد ان اصبح لجمعية العهد نشاط كبير في استانبول وتسربت الاخبار عن نشوء فروع لها في بعض المدن العربية، وانها لقيت تأييداً من الضباط العرب، ان تقاوم ذلك كله، وتعمل على تفريق رجال الحركة وتبعثرهم قبل ان يشتد ساعدهم. لهذا عقدت في يوم ٢٤ كانون الثاني سنة ١٩١٤م اجتماعاً خاصاً في وزارة الحربية حضره الصدر الاعظم سعيد حليم باشا ومحافظ استانبول العسكري جمال باشا (قبل تعيينه وزيرا للبحرية). ومدير الامن العام عزمي بك. وقد درست في هذا الاجتماع

التدابير الواجب اتخاذها لمقاومة الحركة العربية عامة، وجمعية العهد خاصة واتخذت عدة قرارات اهمها: تولية القيادة في الولايات العربية الى الضباط الاتراك، واقصاء الضباط العرب، والاستغناء عن خدمات بعضهم، قدر الامكان وعهد الى جمال باشا تنفيذ ذلك. والى شيء من هذا القبيل اشار جمال باشا في مذكراته حين اتهم الضباط العرب، العاملين ضمن الفرقة العربية المرابطة في شبه جزيرة غاليبولي، بانهم صرفوا اهتمامهم عندما كانت الحكومة العثمانية مشغولة بالحرب البلقانية سنة ١٩١٣م الى «تعضيد وسائل الابتزاز السياسي التي قام بها (دعاة القومية من العرب) في استانبول بدلا من القيام بواجبهم العسكري». وقد يدل هذا على أن الاتحاديين علموا بوجود حركة عربية بين الضباط العرب، فقاموا في ٩ شباط ١٩١٤م باعتقال الرائد عزيز علي المصري. ثم جاءت الحرب العالمية الاولى لتقلل من نشاط الجمعية. فكان من الطبيعي ان يتناثر اعضاؤها.

جمعية العربيـة الفتاة :

وهي جمعية سرية اسسها في باريس سنة ١٩١١م مجموعة من الشبان العرب الذين كانوا يدرسون هناك، منهم عوني عبد الهادي وجميل مردم ومحمد المحمصاني وعبد الغني العريسي وتوفيق الناطور ورستم حيدر . وهدفها تحقيق استقلال الاقطار العربية وتحريرها من النير العثماني . وفي سنة ١٩١٣ نقل مركزها الى بيروت، ثم في السنة التالية نقل الى دمشق حيث بلغ عدد اعضائها المائتين . وهي ابرز الجمعيات السياسية العربية على الاطلاق، امتازت بوضوح اهدافها، ووعي اعضائها واخلاصهم ودقة نظامها . وقد بقي سر هذه الجمعية مكتوماً حتى النهاية، ولم يعرف سرها الا بعد ان اعلنت الحكومة العربية في دمشق سنة ١٩١٨ م . ومن آيات البطولة التي إتصف بها اعضاؤها ان احدهم فضل الانتحار على الاعتراف، وفضل آخر المشنقة على افشاء سر الجمعية . وقد كان لهذه الجمعية، كما سنرى، دور كبر في القضية العربية خلال الحرب العالمة الاولى . وتشير

المؤرخة الفلسطينية الدكتورة خيرية قاسمية الى انها عثرت بين اوراق محب الدين الخطيب على كراس يتضمن منهج الجمعية . ومما جاء فيه انها تأسست «من قبل فريق من النابتة العربية للقيام بما تفرضه عليهم الوطنية ليتعزز بهم مركزها الاجتماعي والاقتصادي والسياسي حسب ماتتطلبه طبيعة الوجود » وكذلك على منشور سياسي للجمعية بعنوان الصرخة الاولى يطالب بالاصلاح والاستقلال الاداري وعليه ختم الجمعية . كما اطلعت على رسالة من عارف الشهابي في ١٨ اذار سنة ١٩١٤م الى محب الدين الخطيب يعلمه بقرار الجمعية ان يكون شعارها الالوان الثلاثة التي تمثل التاريخ العربي : الاخضر والابيض والاسود .وقد اقترح محمد المحمصاني في رسالة اخرى في ٢٥ نيسان ١٩١٤ م بان يعمل ختم للجمعية يجمع النخلة والصقر

المؤتمر العربي الاول في باريس ١٩١٣م :

زاد الاتحاديون من تعسفهم واضطهادهم للحركة القومية العربية ، الامر الذي دفع قادة هذه الحركة إلى نقل نشاطهم إلى خارج الدولة العثمانية انطلاقاً من الحاجة في تعريف الرأي العالمي بمطالب العرب القومية ، ورغبة منهم في توحيد جهود الشباب العربي ونضالهم . لذلك انبثقت في ذهن فريق من المثقفين والطلاب العرب الذين يدرسون في باريس ، ومنهم عبد الغني العريسي وتوفيق فايد ، من بيروت وعوني عبد الهادي في نابلس ومحمد المحمصاني في بيروت وجميل مردم من دمشق ، وتوفيق السويدي من بغداد ، فكرة عقد مؤتمر في باريس لمحاولة توحيد كافة القوى القومية بغية ممارسة ضغط مشترك على الحكومة العثمانية والعمل على نشر اخبار القضية العربية خارج الولايات العربية . وقد تألفت لجنة تحضيرية للمؤتمر مؤلفة من عبد الغني العريسي وعوني عبد الهادي ومحمد طبارة وجميل

مردم ومحمد المحمصاني وندرة المطران وشكري غانم وشارل دباس وجميل المعلوف تأخذ على عاتقها الاتصال بالمنظمات القومية والشخصيات العربية البارزة .

لقد كانت اولى خطوات اللجنة التحضيرية اتصالها بحزب اللامركزية في القاهرة وعرضها عليه تبني المؤتمر ورئاسته لانه كان يضم رجالا بارزين في الحركة العربية القومية. كما ان الاصلاح الذي سيطالب به المؤتمر سيقوم على منهج الحزب . وقد كانت دعوة حزب اللامركزية تتردد انذاك في كل ارجاء الوطن العربي ورأت اللجنة ان ذلك من عوامل نجاح المؤتمر والوصول به الى نتائج ملموسة. استجاب كثير من قادة الحركة العربية للنداء وتوجهوا الى باريس وحضروا المؤتمر ومن ابرز الذين حضروا المؤتمر عن اللجنة العليا لحزب اللامركزية : اسكندر عمون ، وعبد الحميد الزهراوي نائب حماة في مجلس المبعوثان ، والشيخ احمد حسن طبارة صاحب جريدة الاصلاح اليومية في باريس ، والدكتور ايوب ثابت سكرتير الجمعية الاصلاحية في بيروت، وتوفيق السويدي طالب عراقي يدرس القانون في باريس وسليمان عنبر تاجر عراقي وجميل مردم، طالب سوري يدرس القانون في باريس.

اذاعت اللجنة التحضيرية للمؤتمر بياناً الى الامة العربية.جاء فيهان عقد المؤتمر جاء نتيجة لما يجري في الاقطار العربية من احداث ولكي«نثبت للعالم اننا امة متماسكة ذات وجود حي لاينحل ومقام عزيز لايضام وخصائص قومية لاتنزع ومنزلة سياسية لاتقرع ... اننا نصارح الدولة العثمانية بان اللامركزية قاعدة حياتنا، وان حياتنا اقدس حق من حقوقنا، وان العرب شركاء في هذه المملكة، شركاء في الحرية». ثم وجه البيان نداءه الى العرب قائلاً : اننا ندعو كل من يخفق قلبه لامة العرب صغيرا او كبيرا ان يلبي داعي الوطن لاسيما ارباب الزعامات في مقاعد الجمعيات فعليهم نعتمد واليهم نتجه...». وقد حددت اللجنة الموضوعات التي سوف يبحثها المؤتمر ومن ابرزها : مناقشة حقوق العرب في الدولة العثمانية وضرورة اصلاح اوضاعهم.

عقد المؤتمر اربع جلسات رسمية في قاعة الجمعية الجغرافية الفرنسية بين ١٨ ـ ٢٣ حزيران سنة ١٩١٣م، وانتخب عبدالحميد الزهراوي رئيساله. وقد حضر المؤتمر حوالي (٢٥٠) مندوبا يمثلون الاقطار العربية. وتلقى برقيات تأييد من شخصيات ومنظمات قومية عديدة في الوطن العربي. وقد اتخذ المؤتمر عددا من المقرارات، اكدت ضرورة الاعتراف بحقوق العرب السياسية الكاملة، وعلى ان يكون لهم دور في ادارة الدولة وان يفسح المجال لهم لتحقيق امانيهم القومية، وان تكون اللغة العربية لغة رسمية في الولايات العربية، وان تكون الخدمة العسكرية العربية محلية في الولايات العربية الا في الظروف الاستثنائية. كما اكدت ضرورة الدفاع عن الاقطار العربية من اي عدوان خارجي. وقد ناقش المؤتمرون قضية مستقبل الدولة العثمانية، واشتد الجدل حولها، ولكن المؤتمر اكد على وحدة الدولة، شرط الاعتراف بحقوق العرب الكاملة، كشركاء فيها، والحق بمقررات المؤتمر شروط نصت على ان الاعضاء المنتمين إلى الجمعيات العربية يمتنعون عن قبول اي منصب حكومي في الدولة العثمانية الا بموافقة جمعياتهم. كما ان مقررات المؤتمر ستكون بمثابة البرنامج السياسي للعرب القوميين في تعاملهم مع السلطات العثمانية. وسوف لا يسمح لاي عربي يرشح نفسه للانتخابات الا اذا تعهد بتأييد هذا البرنامج والسعي لتنفيذه .

ان مقررات المؤتمر المتعلقة بالدعوة الى الاصلاح والمساواة كانت من القوة، بحيث اجبرت الحكومة العثمانية على اعلان قبولها لتلك المقررات او التظاهر بقبولها. فقد ارسلت جمعية الاتحاد والترقي سكرتيرها العام مدحت شكري بك الى باريس للتفاوض مع رجال المؤتمر في مطالبهم، وفتحت ابواب المفاوضات ووقع مدحت شكري بك اتفاقا مع عبد الحميد الزهراوي وافق فيه تقريبا على معظم مقررات المؤتمر . وصادق السلطان محمد رشاد في ٨ آب ١٩١٣م على الاتفاق وصدر مرسوم سلطاني بذلك. ولكن اتضح للعرب بما لايقبل الشك ان الاتحاديين ماكانوا مخلصين في نواياهم.

اذ سلطوا على المؤتمر اقلام انصارهم من ذوى النزعة العثمانية، وخاصة الشيخ اسعد الشقيري والدكتور حسن الاسير وشكيب ارسلان ومحمد حبيب العبيدي والشيخ عبد العزيز جاويش وغيرهم. فهاجموا المؤتمر، واتهموا اعضائه بالخيانة، وقالوا ان غاية اولئك تسليم البلاد الى الاجانب والقضاء على الدولة والاسلام، وطالبوا بابقاء الحال في الولايات العربية على ماهي عليه. ولم يكتف الاتحاديون بذلك، بل اتخذوا جملة من المقررات السرية في كانون الثاني سنة ١٩١٤م منها: مقاومة دعاة الانفصال عن الدولة العثمانية والغاء الجمعيات العربية كلها ومراقبة نشاطاتها وابعاد الضباط العرب عن استانبول وعددهم انذاك يصل الى (٥٠٠) وتولية القيادة في الولايات العربية الى الضباط الاتراك والاسراع في تنفيذ سياسة التتريك وتعزيز نفوذ جمعية الاتحاد والترقي في الاقطار العربية ومطاردة العرب الذين يعملون ضد الاتحاديين.

دخلت الدولة العثمانية الحرب العالمية الاولى في ٤ تشرين الثاني سنة ١٩١٤م بجانب دول الحلف المركزي وذلك تنفيذا للمعاهدة السرية المعقودة بينها وبين المانيا في ٢ آب سنة ١٩١٤م. هذا مع العلم ان الاستعدادت العسكرية العثمانية قد بدأت قبل اربعة اشهر تقريبا من دخولها الحزب رسميا. اذ شرعت باعلان النفير العام في ٣ آب سنة ١٩١٤م. وقد خلقت حادثة ضرب الموانيء الروسية في البحر الاسود من قبل القطعات الحربية العثمانية في ٢٩ تشرين الاول سنة ١٩١٤م الموقف الذي ادى الى دخول الدولة العثمانية الحرب. فقد اعلنت روسيا الحرب عليها في ٤ تشرين الثاني وتلا ذلك اعلان حرب مشابهة من جانب بريطانيا وفرنسا بعد يوم واحد.

أرسلت السلطات الأتحادية بعد دخولها الحرب مباشرة ، جمال باشا وزير البحرية إلى سوريا وكلفته بمهمة عسكرية : على رأس الجيش الرابع تستهدف القيام بهجوم على القوات البريطانية في قناة السويس والقضاء على تحركات العناصر العربية القومية هناك . وقد كان لهزيمة الجيش التركي

من الحكم العثماني ، هذا فضلا عن سياسة الأتحاديين الأقتصادية والتي تمثلت بمصادرة المحاصيل وفرض الاعانات للجيش باسم التكاليف الحربية ونقل الكتائب العسكرية العربية إلى مناطق بعيدة في جبهات القتال ، وزاد الأمر سوءاً انتشار الأمراض والمجاعات في ولايات عربية عديدة .

الثورة العربيـــة الكبرى ١٩١٦م :

قرر قادة الجمعيات العربية القومية ، اعلان الثورة . وتحققت في دمشق اتصالات عديدة بين جمعيتي العربية الفتاة والعهد وتم التوقيع في ربيع سنة ١٩١٥م على ما يسمى ؛ (ميثاق دمشق) وكان الأمير فيصل بن الحسين شريف مكة ، طرفا في ذلك الميثاق نائبا عن والده الذي رشحه القوميون العرب زعيما للثورة المنتظرة . ولو أخذنا بنظر الأعتبار الظروف السياسية والأقتصادية والاجتماعية في الوطن العربي انذاك مع دراسة الشخصيات المرشحة للزعامة ، لوجدنا ، كما تقول الدكتورة خيرية قاسمية ، ان الحسين يتمتع بميزات كثيرة : فنسبه للرسول الكريم (محمد صلى الله عليه وسلم) ، وموقع الحجاز الستراتيجي البعيد عن مراكز احتشاد الجيوش وطرق المواصلات ومركزه شريفا لمكة ، وما له من قيمة كبرى في حماية الاماكن المقدسة مع اتصالاته عن طريق ابنائه بالمراكز المدنية جعله أفضل مُرشح لقيادة الثورة العربية في تلك الفترة التي لم تتمكن فيها من التخلص من التقاليد السائدة التي تسيطر عليها الزعامات القبلية والدينية . ومنذ أن أصبح شريفا لمكة سنة ١٩٠٨م ، فانه أخذ يسعى الى التأكيد على مركز الحجاز الممتاز ، فاصطدم بذلك مع الوالي العثماني وهيب باشا المعروف بصراحته وتحمسه لمبادىء جمعية الأتحاد والترقي وعزمه على تنفيذ قانون الولايات الجديد في الحجاز ، واضعاف ما للشريف من نفوذ ، والقبض عليه اذا استوجب الأمر ، وقد ازداد الموقف حرجا بنشوب الحرب وتلكؤ الشريف حسين في تأييد الدولة العثمانية بدعوتها إلى الجهاد المقدس وارسال المتطوعين . وهكذا تطلع الحسين إلى بريطانيا من أجل ضمان مركزه ازاء أي اجراء عثماني محتمل فكان يفاوضها باسم العرب ،

وخسائره الثقيلة في حملته على قناة السويس ، أثر كبير في ازدياد قلق جمال باشا وحذره وخوفه من ازدياد نشاط القوميين العرب . لذلك شكل في تموز ١٩١٥م الديوان العرفي في عاليه بلبنان لمحاكمة الدفعة الأولى من القوميين العرب بعد أن وجهت اليهم تهمة العمل ضد الدولة العثمانية بالتعاون مع فرنسا وبريطانيا . ومما ساعده على ذلك عثوره في القنصلية الفرنسية ببيروت على وثائق تدين بعض الشخصيات العربية بالتآمر على الدولة . وفي ٢١ آب سنة ١٩١٥م نفذ حكم الأعدام في ساحة البرج ببيروت بهؤلاء وهم عبدالكريم الخليل ومحمود المحمصاني ومحمد المحمصاني وعبدالقادر الخرساء ونور الدين القاضي وسليم أحمد عبدالهادي ومحمود نجا عجم ومحمد مسلم عابدين ونايف تللو وصالح حيدر وعلي الارمنازي وقد اتهم معظمهم بالانتساب إلى حزب اللامركزية ، وبعضهم بالعمل على الانفصال التام عن الدولة العثمانية . وفي ٦ أيار سنة ١٩١٦م قدم جمال باشا (وقد سمي بالسفاح منذ ذلك الوقت) القافلة الثانية من القوميين العرب إلى الاعدام في ساحة المرجة بدمشق وساحة البرج ببيروت . فالذين اعدموا في دمشق هم شفيق المؤيد العظم ، وعبد الحميد الزهراوي ، وعبدالقادر الجزائري ، وشكري العسلي ، وعبدالوهاب الانكليزي ، ورفيق رزق سلوم .ورشدي الشمعة . أما الذين اعدموا في بيروت فهم جرجي حداد ، سعيد عقل ، عمر حمد ، عبدالغني العريسي ، الأمير عارف الشهابي ، الشيخ أحمد طبارة ، محمد الشنطي اليافي ، توفيق البساط ، سيف الدين الخطيب ، علي الحاج عمر النشاشيبي ، محمود جلال سليم النجاري . سليم الجزائري ، أمين لطفي الحافظ ، هذا وقد أصدر الديوان العرفي حكم الأعدام الغيابي بحق اكثر من (٩٠) شخصية من اعضاء الجمعيات العربية منهم رفيق العظم ، حقي العظم ، شبلي شميل ، رشيد رضا ، نجيب عازوري ، يوسف البستاني ، داؤد بركات ، محمد ارسلان.

كان لسياسة القمع والأرهاب التي اتبعها الأتحاديون اثر كبير في ابتعاد العرب عن الدولة العثمانية ، وانصراف تفكيرهم إلى التخلص نهائياً

ويماطل الأتراك من أجل كسب الوقت ، ويتخذ الترتيبات والأحتياطات العسكرية والاقتصادية لتقليل أثار الحرب في الحجاز . وقد برر الملك عبدالله فيما بعد موقف والده من الدولة العثمانية بالاضطرار والخوف مما قد يصيب الكيان الأسلامي من آثار الحرب .

كانت الأتصالات الأولى بين الهاشميين والانكليز قد بدأت في شباط سنة ١٩١٤م في القاهرة . وكان الأمير عبدالله ، الذي كان في طريقه إلى استانبول ، ممثلا للشريف حسين . أما ممثل البريطانيين فكان اللورد كتشنر المعتمد السامي البريطاني . وفي تموز سنة ١٩١٥م اختتمت المفاوضات وتم الأتفاق النهائي لمباشرة العمل المشترك ضد الدولة العثمانية . ومما زاد في قناعة الحسين لمواصلة خطواته التفاوضية مع الأنكليز ، التقارب الذي تم مع ممثلي الحركة العربية القومية في دمشق . وكما أشرنا من قبل فان الجمعيات العربية، بحكم ظروفها الصعبة وامكاناتها القليلة ، لجأت إلى التعاون مع الشريف حسين للوقوف في وجه الأتحاديين وتحقيق الأهداف التي رسمتها . وقد أطلع القادة العرب على رأي الشريف حسين حول عدم ترجيحه لفكرة الثورة دون اسناد بريطانيا . فوافقوا على ذلك ، بشرط أن يكون اعتراف بريطانيا ببنود ميثاق دمشق الذي حمله فيصل إلى والده في ٢٠ حزيران سنة١٩١٥م ثمنا لدخول العرب الحرب بجانب بريطانيا . وقد بني الميثاق على بضعة أسس يهمنا منها ما يلي :

«اعتراف بريطانيا باستقلال البلاد العربية الواقعة ضمن الحدود التالية: شمالا: خط مرسين – اطنة الموازي لخط العرض ٣٧ درجة شمالا، ثم على امتداد حدود فارس إلى الخليج العربي،جنوبا المحيط الهندي (باستثناء عدن التي تظل على ماهي عليه في الوقت الحاضر) وغربا على امتداد البحر الاحمر ثم البحر المتوسط حتى مرسين ..... اعطاء بريطانيا العظمى الافضلية على غيرها من الدول في المشاريع الاقتصادية».

اعلن الشريف حسين الثورة العربية الكبرى في ١٠ حزيران سنة ١٩١٦م ، حينما اطلق الرصاصة الاولى من شرفة داره بمكة ايذانا ببدء العمليات العسكرية ضد القوات العثمانية. واعلن استقلال الحجاز ، وتكوين جيش عربي، واستمرت الثورة سنتين، اكتسحت فيها القوات العربية، تدعمها مساعدات بريطانية، معظم مواقع الجيش العثماني في الحجاز. واسهمت بشكل فعال إلى جانب قوات الحلفاء في تحرير الشام ودخول دمشق في الفاتح من تشرين الاول ١٩١٨م واعلان الحكومة العربية فيها برئاسة الامير فيصل بن الحسين .

اما العراق، فقد تعرض لغزو القوات البريطانية التي استفادت من اعلان الدولة العثمانية الحرب عليها في ٢٩ تشرين الاول سنة ١٩١٤م لتوسيع سيطرتها على المناطق التي كانت تتطلع اليها منذ وقت بعيد. ويعتقد الكاتب البريطاني ريدربولارد Bullard ان موقف الدولة العثمانية هذا اثار قلق بريطانيا على مصالحها الاقتصادية والسياسية في الشرق الاوسط خاصة بعد ان اظهر الاتحاديون ميلا شديدا نحو المانيا. لهذا اقدمت على تسيير حملة عسكرية احتلت البصرة في ٢٢تشرين الثاني سنة ١٩١٤م وبغداد في ١١اذار سنة ١٩١٧م والموصل في ١١تشرين الثاني سنة ١٩١٨.

لقد وجدت بريطانيا منذ بدء الحرب ، ان مطامعها في الاقطار العربية لابد وان تصطدم بمطامع فرنسا ، خاصة وان هذه الاقطار لاتمثل درعا واقيا لمستعمراتها في الهند فحسب، بل هي مقرا لحقول النفط الغنية. لذا بدأت بريطانيا مفاوضاتها، مع فرنسا في الوقت الذي كانت تتفاوض فيه مع الشريف حسين. وكانت تهدف من وراء ذلك الى امرين اثنين، اولهما محاولة تكوين دولة عربية او اتحاد عربي، وثانيهما تحديد المنافع الاقليمية التي يمكن ان تحصل عليها فرنسا وبريطانيا اذا ماانتهت الحرب بنجاح إلى جانب الحلفاء. ولاحاجة بنا إلى الدخول في تفاصيل المفاوضات ولكن يكفي القول بان الطرفين وقعا في ٢٦نيسان سنة ١٩١٦م اتفاقية سايكس — بيكو

في فلسطين. ونسب التصريح إلى ظروف كثيرة فقبل انه اعلن لكسب عطف اليهود في العالم نحو قضية الحلفاء ، او لاثارة المتاعب أمام المانيا، اولضمان تأييد العناصر اليهودية في الولايات المتحدة. ولكن مهما كانت قوة الدوافع من مالية او سياسية او دينية، كما يذكر البعض فان ضرورات الستراتيجية البريطانية هي التي اقتضت العمل لصالح الحركة الصهيونية خاصة وان اهمية فلسطين، كقاعدة وطيدة تحمي قناة السويس من ناحية الشرق، اخذت تزداد مع تطور الحرب.

ان المتتبع لما قدمناه في هذا الفصل، يرى ان الفكر القومي العربي كان لايزال طوال هذه الفترة في الطور الجنيني . ولم يكن المحرك الاساس الا في التنظيمات السرية التي أشرنا إلى بعضها. وقد وجدت تلك التنظيمات نفسها بحاجة إلى حماية المراتب الاجتماعية المتنفذة، مما اضعف من حرية تحركها. كما عرقل اعلان الحرب العالمية الاولى النمو الطبيعي للاتجاه القومي، وذلك بتحمله مسؤوليات لم يكن مهيئا لها الامر الذي اضطره كما يقول الدكتور غسان عطية إلى الدخول في مساومات مع قيادات علنية محافظة تقليدية معادية للاتراك كالشريف بن علي .

ونتيجة لضعف قيادة التنظيمات المشار اليها، ولقصر نفسها، ولتغليبها مصلحتها الخاصة، فانها سقطت في خطأ التحالف مع الانكليز الذين سرعان ماتنكروا لتلك القيادات وعملوا لاقتسام الاقطار العربية في المشرق مع الفرنسيين وفي الوقت ذاته، وضعوا الاسس لضياع فلسطين واقامة الوطن القومي اليهودي فيها.

ولم تمتلك تلك التنظيمات نظرية ثورية متبلورة كما اقتصرت عملها على المثقفين دون ان تنزل إلى الجماهير ولم يكن لديها برنامج للتغيير الاجتماعي والاقتصادي وذلك بسبب طبيعة قياداتها البرجوازية التي تعمل من اجل مصالحها الاقتصادية بالدرجة الاولى. كما ان الطبقة العاملة كانت انذاك

في مرحلة التكوين، ولم تكن منظمة، وبالتالي لم يكن لها اي دور مهم في حياة المجتمع العربي.

لقد تحولت بعض قيادات الحركة العربية، من صفوف الثوار والمناضلين من اجل الاستقلال إلى صفوف الطبقات التي استطاع المستعمرون كسبها إلى جانبهم. وقد حققت تلك النشاطات الطبقة البرجوازية النامية مجالات اكبر للنمو والتوسع، ورسخت في كثير من المواقع وجود طبقة اقطاعية ولكنها من جهة اخرى زرعت بذور الصراع الطبقي. وبعد انتهاء الحرب العالمية الاولى وحتى السنوات الاولى من العقد الخامس من هذا القرن واجهت الحركة العربية القومية مهام ذات طابع جديد وبذلك دخلت الحركة العربية في مرحلة جديدة حاسمة من مراحل تطورها .

(نسبة إلى السر مارك سايكس، الذي كان نائبا في البرلمان البريطاني والمسيوجورج بيكو القنصل الفرنسي العام في بيروت). وندرج ادناه اهم بنود الاتفاقية:

وان فرنسا وبريطانيا مستعدتان أن تعترفا (وتعاضدا) دولة عربية مستقلة او اتحادا من دول عربية تحت رئاسة زعيم عربي في المنطقتين (أ) و(ب) المبينتين في الخريطة المرفقة. على ان يكون لفرنسا في منطقة (أ) حق الافضلية في المشاريع والقروض المالية. وفي منطقة (ب) يكون لبريطانيا حق الافضلية نفسه. ويكون لفرنسا في المنطقة (أ) ولبريطانيا في المنطقة(ب) وحدهما الحق بتزويد الدولة او الاتحاد العربي المشار اليه بالمستشارين والموظفين الاجانب بناء على طلب منها او منه».

ومن فحص الخريطة المرفقة يتضح لنا بان المنطقة (أ) تمتد من دمشق حتى الموصل وتضم مناطق الموصل واربيل وحلب وحماه ودمشق. اما منطقة (ب) فتمتد من خليج العقبة حتى كركوك والسليمانية وتكريت وهيت وسامراء وشرق الاردن والنقب والعقبة.

تعد اتفاقية سايكس — بيكو ابشع صفقة استعمارية في التاريخ الحديث. وذلك باجماع معظم المؤرخين المنصفين اذ جزأت المشرق العربي إلى اقطار متعددة، هذا فضلا عن انها تتعارض مع وعود بريطانيا للشريف حسين. لكنها من جهة اخرى تنسجم مع الاهداف الستراتيجية والمصالح الاقتصادية لكل من فرنسا وبريطانيا.

هذا وقد اتاحت ظروف الحرب كذلك للصهيونية الاعتراف باهدافها السياسية الاستعمارية. اذ اثار اشتراك الدولة العثمانية في الحرب الاطماع الصهيونية في الحصول على وطن قومي لليهود في فلسطين. وبدأت في شباط ١٩١٧م مفاوضات بين الحكومة البريطانية والزعماء الصهيونيين، وبدعم من الولايات المتحدة الاميركية، حصل الصهاينة من بريطانيا على تصريح بلفور (وبلفور هذا وزير لخارجية بريطانيا آنذاك) في ٢تشرين الثاني سنة ١٩١٧م والذي يتضمن دعم المشروع الصهيوني بانشاء وطن قومي لليهود

وعد بلفور

مصادر الفصل السابع
اتجاهات حركة النهضة العربية الحديثة

(١) أحمد ، ابراهيم خليل : «الحركة العربية في الموصل قبيل الحرب العالمية الأولى » مجلة الخليج العربي ، البصرة ، العدد (٧) ، (١٩٧٧م)

(٢) أحمد، ابراهيم خليل: تطور التعليم الوطني في العراق، (البصرة ١٩٨٢م)

(٣) أحمد ، ابراهيم خليل : ولاية الموصل ، دراسة في تطوراتها السياسية ١٩٠٨ـ ١٩٢٢م، رسالة ماجستير غير منشورة ـ مقدمة لجامعة بغداد / ١٩٧٥م

(٤) أحمد ، كمال مظهر : « حول نشوء حركة التحرر العربي في دراسة سوفيتية جديدة » مجلة آفاق عربية ، العدد (٢) تشرين الأول /١٩٧٥م

(٥) ادامز ، جارلس : الأسلام والتجديد في مصر ، ترجمة عباس محمود (القاهرة / ١٩٣٥)م

(٦) اركون ، محمد : الفكر العربي ، ترجمة . عادل العوا، (بيروت ١٩٨٢م)

(٧) الأعظمي ، أحمد عزت : القضية العربية (بغداد / ١٩٣١م)

(٨) أمين ، أحمد : زعماء الاصلاح في العصر الحديث ، (القاهرة، ١٩٦٥م)

(٩) أمين ، جلال أحمد : المشرق العربي والغرب ، (بيروت ، ١٩٧٩م)

(١٠) أمين ، عثمان « جمال الدين الأفغاني في القاهرة » مجلة تاريخ العرب والعالم ، السنة (٢) العدد (٢٢) ـ آب ١٩٨٠م ص ٤٠ ـ ٤٥.

(١١) أمين ، قاسم : تحرير المرأة ، (القاهرة ، ١٨٩٩م)

(١٢) أمين ، قاسم : المرأة الجديدة ، (القاهرة . ١٩٣٦م)

(١٣) الأنصاري ، محمد جابر : الأمام محمد عبده « مطلوب اعادة اكتشاف هذا الرجل » مجلة العربي » الكويت ، العدد (٨٦) — أيلول ١٩٨٢م

(١٤) انطونيوس، جورج: يقظة العرب ،تاريخ الحركة القومية العربية ، ترجمة الدكتور ناصرالدين الاسد والدكتور احسان عباس (بيروت. ١٩٦٩م)

(١٥) أنيس وحراز ، محمد،رجب: الشرق العربي في التاريخ الحديث والمعاصر ، (القاهرة، ١٩٦٧م)

(١٦) برج، محمد عبدالرحمن: عبدالرحمن الكواكبي (القاهرة، ١٩٧٢م)

(١٧) برو، توفيق: العرب والترك في العهد الدستوري، (القاهرة، ١٩٦٠م)

(١٨) برو، توفيق: القومية العربية في القرن التاسع عشر، (دمشق، ١٩٦٥م)

(١٩) بروكلمان، كارل: الشعوب الاسلامية، ترجمة نبيه آمين — فارس، ومنير البعلبكي، ط٥، (بيروت، ١٩٦٥م)

(٢٠) البهي، محمد: الفكر الاسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي ط٣ (القاهرة ، ١٩٥٩م)

(٢١) تايبرو، نوربير . الكواكبي المفكر الثائر، اسهام في دراسة الاسلام الحديث، ترجمة علي سلام (بيروت، ١٩٦٨م)

(٢٢) الجبلاوي، محمد طاهر : جمال الدين الافغاني حياته واراؤه ، (القاهرة، ١٩٧١م)

(٢٣) جدعان، فهمي. أسس التقدم عند مفكري الاسلام في العالم العربي الحديث، (بيروت، ١٩٧٩م)

(٢٤) جمال باشا : مذكرات جمال باشا، تعريب علي احمد شكري، (القاهرة، ١٩٢٣م)

(٢٥) الجندي، أنور: يقظة الفكر العربي، مرحلة مابين الحربين، (القاهرة، ١٩٧٢)م
(٢٦) الجندي أنور : الفكر العربي المعاصر من معركة التغريب والتبعية الثقافية (القاهرة، لا. ت)
(٢٧) جورة، يوسف آق : اوج طرز سياست، (استنبول ، ١٣٢٧م)
(٢٨) حراز، السيد محمد رجب، التوسع الايطالي في شرق افريقيا وتأسيس مستعمرتي ارتيريا والصومال، (القاهرة، ١٩٦٠م) .
(٢٩) حسن، جاسم محمد : العراق في العهد الحميدي، ١٨٧٦ — ١٩٠٩، رسالة ماجستير غير منشورة، قدمت لجامعة بغداد ١٩٧٥م .
(٣٠) حسن، محمد عبد الغني : احمد فارس الشدياق، (القاهرة لا. ت)
(٣١) الحصري، ساطع : البلاد العربية والدولة العثمانية ط٢، (بيروت، ١٩٦١)م
(٣٢) حمزة، عبد اللطيف احمد : الصحافة المصرية في مائة عام، (القاهرة، ١٩٦١)م
(٣٣) حوراني، البرت : الفكر العربي في عصر النهضة/ ١٧٩٨ — ١٩٣٩، ط٣، (بيروت، ١٩٧٧م)
(٣٤) حوراني، البرت : الاسس العثمانية للشرق الاوسط الحديث مجلة تاريخ العرب والعالم، السنة الثانية، العدد (١٥) كانون الثاني ١٩٨٠م
(٣٥) خدوري ، مجيد : اسباب الاحتلال البريطاني للعراق، (الموصل، ١٩٣١)م
(٣٦) خدوري مجيد : الاتجاهات السياسية في العالم العربي : دور الافكار والمثل العليا في السياسة (بيروت، ١٩٧٣م)

(٣٧) الخطيب، عدنان : الشيخ طاهر الجزائري، رائد النهضة العربية في بلاد الشام (القاهرة، ١٩٧١م)
(٣٨) الخطيب، محب الدين : (جمع)، اللجنة العليا لحزب اللامركزية العثماني، المؤتمر العربي الاول، (القاهرة، ١٩١٣م)
(٣٩) خوري، رئيف : الفكر العربي الحديث، أثر الثورة الفرنسية في توجيهه السياسي والاجتماعي (بيروت، ١٩٤٣م)
(٤٠) داغر، أسعد : ثورة العرب، (القاهرة، ١٩١٧م)
(٤١) دروزه، محمد عزة : تركيا الحديثة، (بيروت، ١٩٤٦م)
(٤٢) دروزه، محمد: الحركة العربية والجمعيات العربية في الاستانة مجلة العرب، العدد (٣) القدس، أيلول/١٩٣٢م
(٤٣) الدوري، عبد العزيز : نظرات في الوعي القومي، (بغداد، ١٩٣٥م)
(٤٤) الرافعي، عبدالرحمن: الجذور التاريخية للقومية العربية، (بيروت، ١٩٦٠م)
(٤٥) الرافعي، عبدالرحمن: جمال الدين الافغاني، باعث نهضة الشرق ١٨٣٨ – ١٨٩٧ (القاهرة، ١٩٦٧م)
(٤٦) الرافعي، عبدالرحمن : مصر والسودان في اوائل عهد الاحتلال، ط٢، (القاهرة، ١٨٤٨م)
(٤٧) رزوق، أسعد: نجيب عازوري الوحدوى المجهول، مجلة المستقبل العربي، بيروت/العدد (١١)، ١٩٧٨م
(٤٨) رضا، محمد رشيد: الوحدة الاسلامية والاخوة الاسلامية، القاهرة، دار المنار، ١٣٦٧هـ
(٤٩) رضا، محمد رشيد : الجامعة الاسلامية واراء كتاب الجرائد بها، مجلة المنار، جزء ٢٢ :١٣١٧هـ = ١٨٩٩
(٥٠) رضا، محمد رشيد : الاصلاح الديني المقترح على حكام الخلافة الاسلامية، المنار، مجلد٢ جزء ٣٩، ١٣١٦هـ = ١٨٩٨م

(٥١) زيدان، جرجي: تراجم مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر ج١ ـ ٢ ط٣ (بيروت لا. ت)

(٥٢) زين، نورالدين: نشوء القومية العربية، (بيروت، ١٩٦٦) م

(٥٣) زين، نور الدين : التمثيل الشعبي وقوانين الأنتخاب في المقاطعات العربية من الامبراطورية العثمانية مجلة الابحاث ـ لسنة (١٦) . ج١ ـ آذار ١٩٦١ م

(٥٤) زين، نور الدين: العلاقات العربية التركية قبل الحرب العالمية الثانية، (بيروت، ١٩٦٥) م

(٥٥) سالم، السيد مصطفى: تكوين اليمن الحديث. الايمن والامام يحيى (١٩٠٤ ـ ١٩٤٨)، (القاهرة، ١٩٦٣) م

(٥٦) سعيد، أمين: الثورة العربية الكبرى، ٣ح، (القاهرة، ١٩٣٤)

(٥٧) السعيد، رفعت ـ واخرون: شبلي شميل رائد الفكر العلمي في مصر، مجلة الطليعة، القاهرة العدد (٧) ـ تموز ١٩٦٩ م

(٥٨) السعيد، رفعت ـ واخرون: طلائع الفكر الاشتراكي في مصر ، (بيروت، لا . ت)

(٥٩) السعيد ، رفعت ـ و آخرون : تأريخ الفكر الأشتراكي في مصر ، (القاهرة ، ١٩٦٩) م

(٦٠) السعيد ، نوري : محاضرات عن الحركات العسكرية للجيش العربي في الحجاز سوريا ١٩١٦ ـ ١٩١٨، (بغداد ، ١٩٤٧) م

(٦١) السيد ، أحمد لطفي : مبادىء في السياسة والاداب والاجتماع ـ تقديم وتعليق طاهر الطناحي (القاهرة لا . ت)

(٦٢) الشرباصي ، أحمد : شكيب ارسلان داعية العروبة والاسلام (القاهرة ، ١٩٦٣) م

(٦٣) شريف ، محمد بديع : وآخرون : دراسات تاريخية في النهضة العربية الحديثة ، (القاهرة / ١٩٥١) م
(٦٤) الشركسي ، محمد مصطفى : لمحات عن الأوضاع الأقتصادية في ليبيا أثناء العهد الايطالي ، (ليبيا- تونس ، ١٩٦٥) م
(٦٥) الشعر ، أمين أبو : (ناشر) مذكرات الملك عبد الله ط ٢ ، (عمان، ١٩٤٧) م
(٦٦) شميل ، شبلي : فلسفة النشوء والارتقاء ، المجلد ١ — ٢ ، (القاهرة ، ١٩١٠) م
(٦٧) شميل ، شبلي : مجموعة الدكتور شبلي شميل ج ١ ج ٢ ، (القاهرة ، ١٩٠٩م)
(٦٨) الشهابي ، مصطفى : القومية العربية ، (القاهرة ، ١٩٥٩) م
(٦٩) الشيال ، جمال الدين : الحركات الأسلامية ومراكز الثقافة في الشرق الأسلامي الحديث ج ١ ، (القاهرة ، ١٩٥٧) م
(٧٠) الصائغ ، أنيس : الهاشميون والثورة العربية ، (بيروت ، ١٩٦٦)م
(٧١) صبري ، محمد ، الأمبراطورية السودانية في القرن التاسع عشر ، (القاهرة ، ١٩٤٨) م
(٧٢) صابات، خليل : تأريخ الطباعة في الشرق العربي ، (القاهرة ، ١٩٥٨)م
(٧٣) صالح ، زكي : مقدمة في تأريخ العراق المعاصر ، (بغداد ، ١٩٥٣)م
(٧٤) طرازى ، فيليب دى : تاريخ الصحافة العربية ، ٤ أجزاء . (بيروت ١٩١٣ — ١٩٣٣) م
(٧٥) الطهطاوي، رفاعة رافع : تخليص الابريز في تلخيص باريز او الديوان النفيس بايوان باريس (القاهرة ١٣٢٣هـ = ١٩٠٥) م
(٧٦) الطهطاوي ، رفاعه رافع : مناهج « الالباب المصرية في مباهج الاداب العصرية، (القاهرة ١٣٣١هـ = ١٩١٢) م

(٧٧) الطهطاوي، رفاعه رافع : المرشد الامين للبنات والبنين ، (القاهرة ١٢٨٩هـ)

(٧٨) الطهطاوي، رفاعه رافع : مقدمة وطنية مصرية ، (القاهرة ١٢٨٣هـ = ١٨٦٦م)

(٧٩) الطيباوى، عبد اللطيف : «الشيخ ناصيف اليازجي بعض رسائله وقصائده التي لم تنتشر» مجلة جمع اللغة العربية بدمشق ج٢، المجلد ٤٣ نيسان/١٩٦٨ م

(٨٠) العابد، صالح : موقف بريطانيا من النشاط الفرنسي في الخليج العربي ١٧٩٨ — ١٩١٠ (بغداد ، ١٩٧٩) م

(٨١) عازورى، نجيب : يقظة الامة العربية، ترجمة احمد ابو ملحم، (بيروت ، ١٩٧٨) م

(٨٢) عالية ديوانه حرب عرفبسندة تدقيق اولونان مسئلة سياسية حقندة، ايضاحات دردنجي همايون طرفندن نشر ايدلمشدر، استانبول/١٣٣٢

(٨٣) عبده، محمد : الاسلام والرد على منتقديه، (القاهرة، ١٩٧٨)م

(٨٤) عبده، محمد : رسالة التوحيد، (القاهرة ، ١٩٧١) م

(٨٥) عبده، محمد : الاسلام بين العلم والمدينة ، (القاهرة / ١٩٦٠)م

(٨٦) عز الدين، يوسف : تطور الفكر الحديث في العراق (بغداد، ١٩٧٦)م

(٨٧) عطية، غسان : «التنظيم الحزبي في العراق قبل الحرب العالمية الاولى» مجلة دراسات عربية، بيروت، السنة ٢١ — العدد ١٢ تشرين الاول /١٩٧٣ م

(٨٨) عفاص، بهنام فضيل : تاريخ الطباعة العراقية، مجلة المورد — بغداد، المجلد ١٠ العدد ٣ — ٤ ١٩٨١ م.

(٨٩) العقاد، عباس محمود: محمد عبده . ط٢، (القاهرة، لا.ت)

(٩٠) علوش، ناجي: (جمع وتقديم)، اديب اسحق، الكتابات السياسية والاجتماعية، (بيروت، ١٩٧٨) م

(٩١) عمارة، محمد (تحقيق): الاعمال الكاملة لرفاعة رافع الطهطاوى (القاهرة، ١٩٧٣)م

(٩٢) عمارة ، محمد : (دراسة وتحقيق) : الاعمال الكاملة لجمال الدين والافغاني (القاهره ، ١٩٦٨)م

(٩٣) عمارة،محمد (تحقيق) : الاعمال الكاملة لعبد الرحمن الكواكبي، (بيروت ، ١٩٧٥) م

(٩٤) الغصين، فائز: المظالم في سوريا والعراق والحجاز، (العقبة ، ١٩١٨) م

(٩٥) فاخورى، عمر: كيف ينهض العرب، نشره عبداللطيف فاخورى، (بيروت، ١٩٨١) م

(٩٦) فخرى، ماجد: دراسات في الفكر العربي، (بيروت،١٩٦٨)

(٩٧) فرح، الياس: دراسات في الفكر الاشتراكي / حـ١، (بيروت ، ١٩٧٥) م

(٩٨) فرح،الياس: الابعاد الفكريةوالنضالية لتأسيس البعث،(بيروت، ١٩٧٥)

(٩٩) الفياض، عبدالله: الثورة العراقية الكبرى، (بغداد، ١٩٦٣)

(١٠٠) قاسمية، خيرية: الحكومة العربية في دمشق ١٩١٨ — ١٩٢٠، (القاهرة، ١٩٧١) م

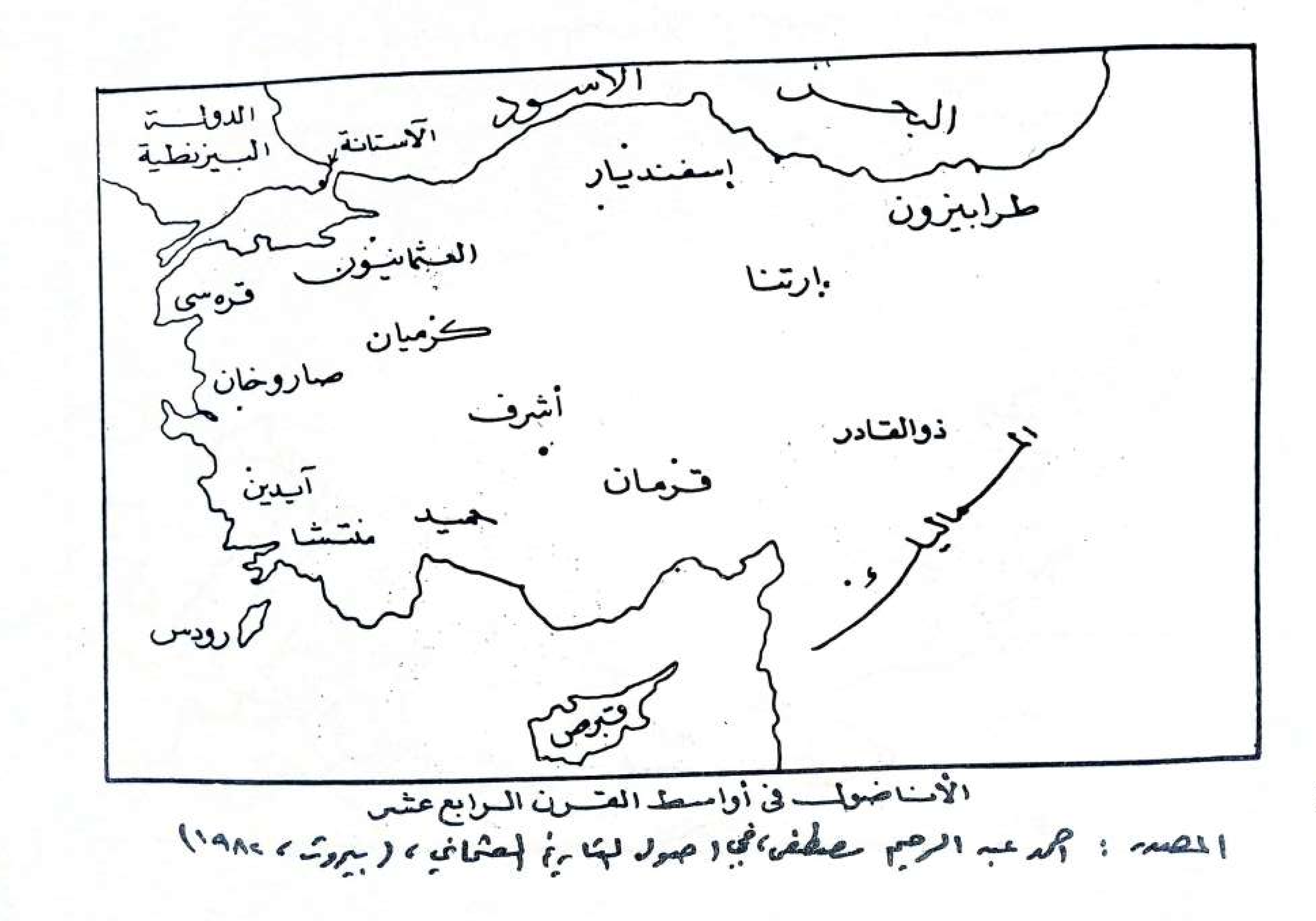
(١٠١) قاسمية،خيرية: النشاط الصهيوني في الشرق العربي وصداه١٩٠٨ — ١٩١٨، (بيروت / ١٩٧٣) م

(١٠٢) قلورة، زاهية: نجيب عازورى والقومية العربية، مجلة تاريخ العرب والعالم، السنة ١٣ العدد ٢٦ — ٢٧ كانون الاول ١٩٨٠، كانون الثاني ١٩٨١ م

(١٠٣) الكواكبي، عبدالرحمن : أم القرى (القاهرة ١٣٥٠هـ – ١٩٣١م)
(١٠٤) الكواكبي ، عبد الرحمن : طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، (القاهرة، ١٩٣١م)
(١٠٥) كوثراني، وجيه : الاتجاهات الاجتماعية والسياسية في جبل لبنان والمشرق العربي ١٨٦٠ – ١٩٢٠، (بيروت، ١٩٧٦م)
(١٠٦) لوتسكي، فلاديمير بوريسوفيتش : تاريخ الاقطار العربية الحديث – ترجمة عفيفة البستاني، (موسكو، ١٩٧١م)
(١٠٧) المؤمن، مكي حبيب : «قراءة في اراء نجيب عازورى»، مجلة مركز الدراسات الفلسطينية، بغداد، كانون الثاني ١٠ آذار ١٩٨٠م
(١٠٨) المؤمن ،مكي حبيب: ،وعلي عجيل منهل: من طلائع يقظة الامة العربية، (بغداد، ١٩٨١م)
(١٠٩) المحافظة، علي : «الاتجاهات الفكرية عند العرب في عصر النهضة ١٧٩٨ – ١٩١٤ (بيروت، ١٩٧٨م)
(١١٠) محمد، فاضل زكي : الفكر السياسي العربي الاسلامي بين ماضيه وحاضره، ط٢ (بغداد، ١٩٧٦م)
(١١١) المدرس، فهمي : مقالات، ح١ (بغداد، ١٩٣١م)
(١١٢) مصطفى، احمد عبد الرحيم : حركة التجديد الاسلامي في العالم العربي، (القاهرة، ١٩٧١م)
(١١٣) المفرجي، احمد فياض : الحياة المسرحية في العراق ١٨٨٠ – ١٩٢٠» مجلة السينما والمسرح – العدد (١) السنة ١٩٨١م
(١١٤) المقدسي، انيس : الاتجاهات الادبية في العالم العربي الحديث، (بيروت، ١٩٧٤م)
(١١٥) منسي، محمد صالح : حركة اليقظة العربية في الشرق الاسيوي (القاهرة، ١٩٧١م)

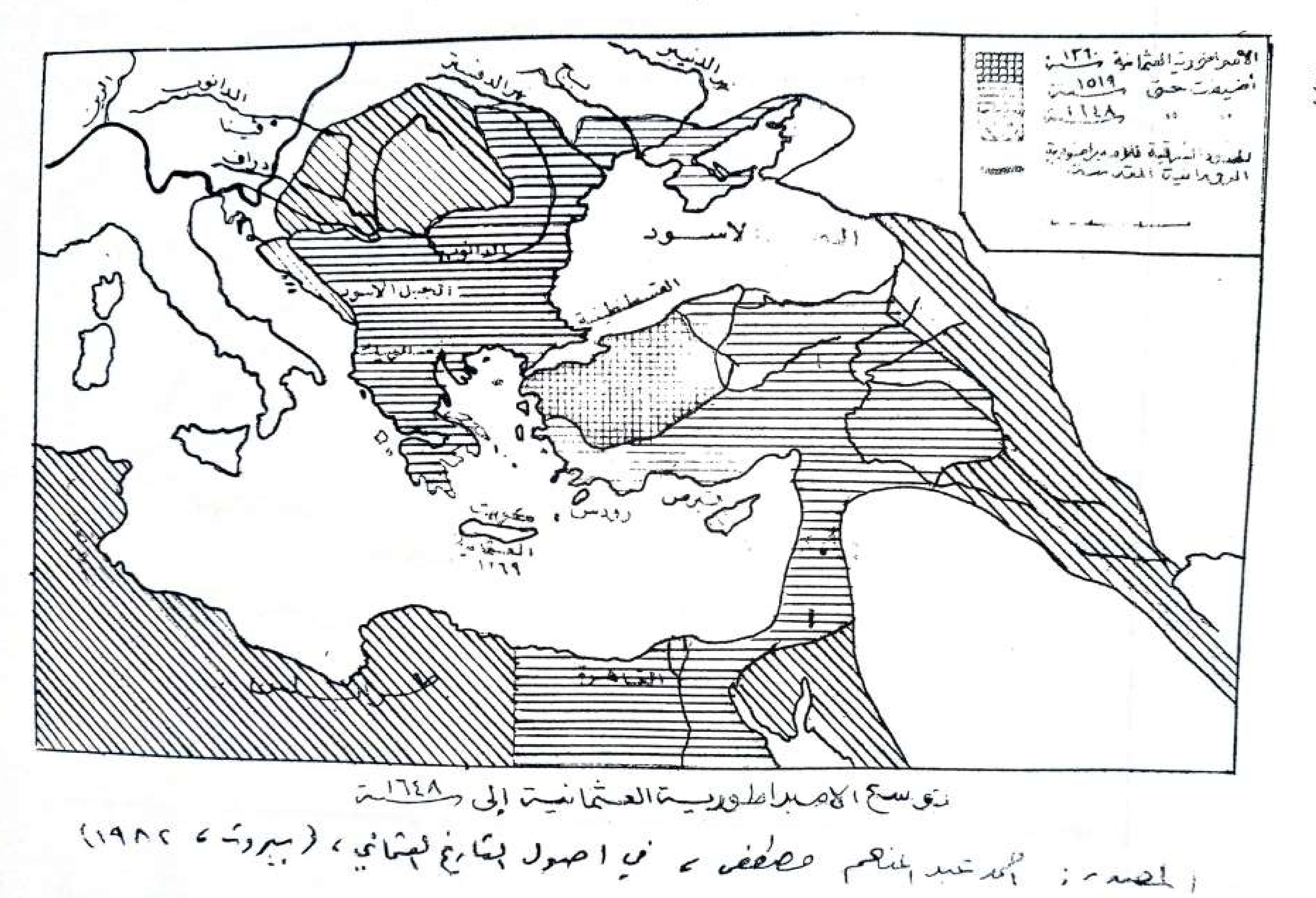
(١١٦) منهل، علي عجيل : شبلي شميل سياسياً ومفكراً ومصلحاً اجتماعياً. ملاحظات وتأملات» مجلة قضاية عربية، السنة (٥) العدد (٤) تموز آب أيلول /١٩٧٨م
(١١٧) موسى، سليمان : الحركة العربية سيرة المرحلة الاولى للنهضة العربية الحديثة ١٩٠٨ – ١٩٢٤، (بيروت، ١٩٧٠م)
(١١٨) موسى ، سليمان : « من الرعيل الأول، محب الدين الخطيب مجلة آفكار ، عمان العدد ٤٣ كانون الثاني / ١٩٧٩م
(١١٩) موسى ، منير : الفكر العربي في العصر الحديث ، سوريا في القرن التاسع عشر حتى العام ١٩٠٨ ، (بيروت ، ١٩٧٣م)
(١٢٠) نحاس ،ميخائيل : الدرر ، ط ٢ ، (بيروت ، ١٩٠٩م)
(١٢١) نسيبة ، حازم زكي : القومية العربية فكرتها ، نشأتها ، تطورها ترجمة قسطنطين زريق .، ط ٢ ، (بيروت / ١٩٦٢م)
(١٢٢) الهلالي ، عبدالرزاق : تاريخ التعليم في العراق في العهد العثماني (بغداد ، ١٩٥٩م)
(١٢٣) الوردي ، علي : لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث حـ٣ (بغداد ، ١٩٧٦م)
(١٢٤) وهيم ، طالب محمد : مملكة الحجاز ١٩١٦ – ١٩٢٥، دراسة في الاوضاع السياسية (البصرة / ١٩٨٢م)

125–Atiyyah, Ghassan. R. : Iraq 1908–1921, Apolitical study (Beirut, 1973)
126–Ahmad, Feroz: The Young Turks, (Oxford 1969)
127–Blunt, W. S. : The Future of Islam, london 1982.
128–Lewias, Bernard: The Emergence of Modern Turkey, (London, 1968)
129–Lybyer, Albert. H: The Turkish parliament, (Bultimore. 1910)
130–Miller, william : The ottoman Empire 1801–1913(London, 1913)
131–Saab, Hassan: The Arab Federalists of the ottoman Empire Amsterdam. 1958).
132–Thoas, David: The first Arab congress and the committee of Union and progress' 1913–1914–in Donald P. little (ed) Essays on Islamic Civilization, preseented t Niaz: Berkes. (Leiden, 1976)
133–Zeine, Zine. N. : The struggle for Arab Independence (Beirut 1960) .



الأناضول في أواسط القرن الرابع عشر

المصدر: أحمد عبد الرحيم مصطفى، في أصول التاريخ العثماني، (بيروت، ١٩٨٢)

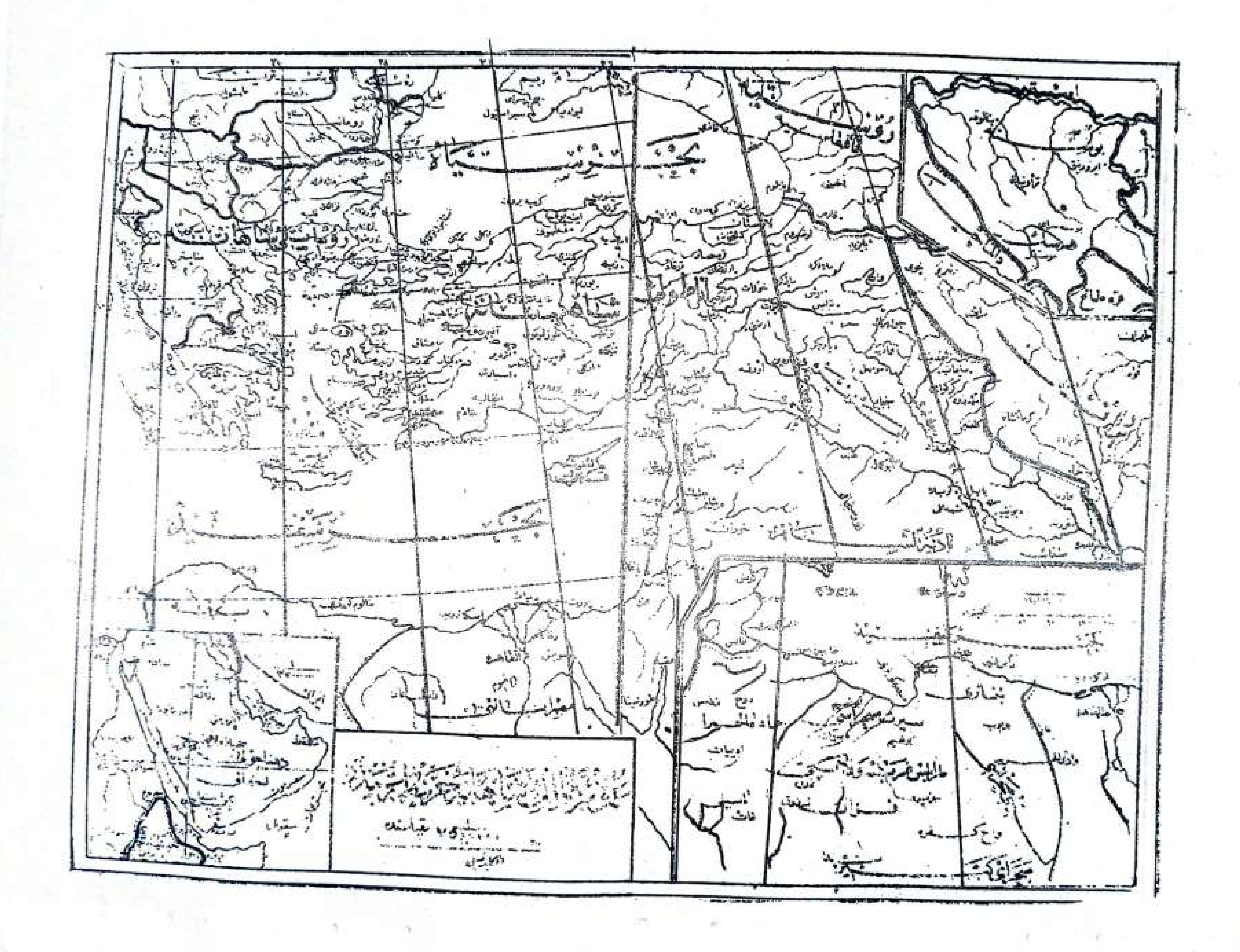


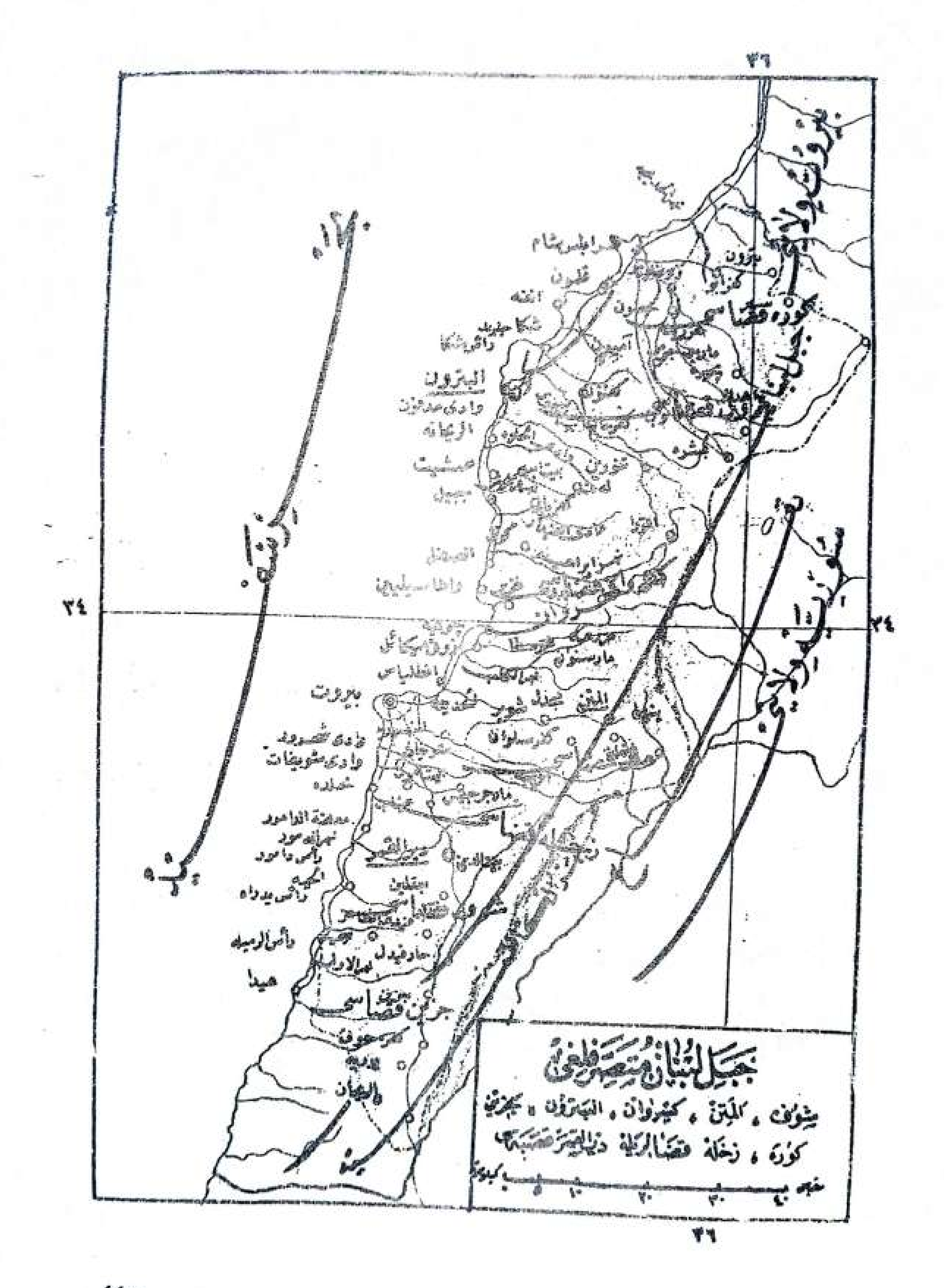
توسع الامبراطورية العثمانية إلى سنة ١٦٤٨

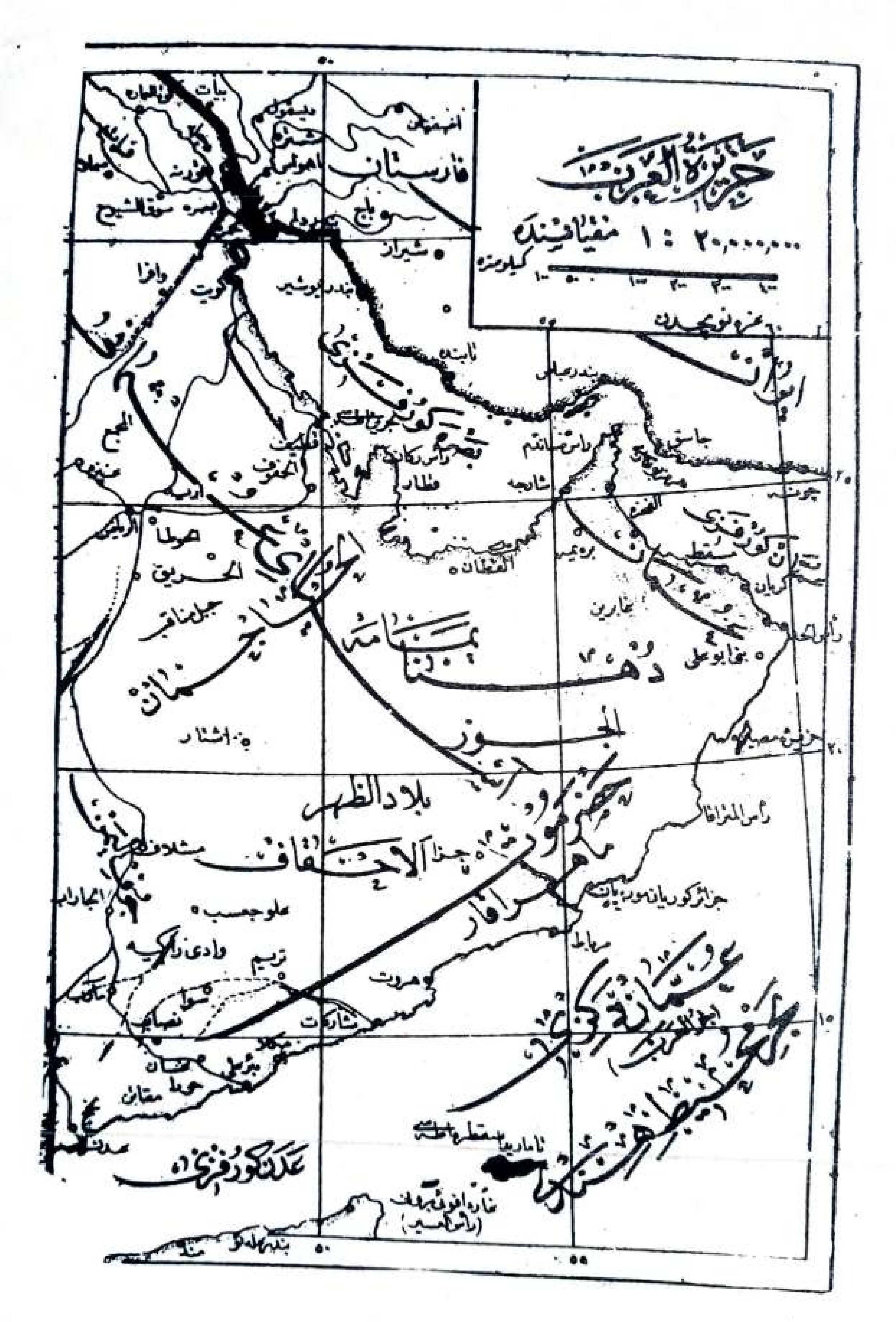
المصدر: أحمد عبد المنعم مصطفى، في أصول التاريخ العثماني، (بيروت، ١٩٨٢)

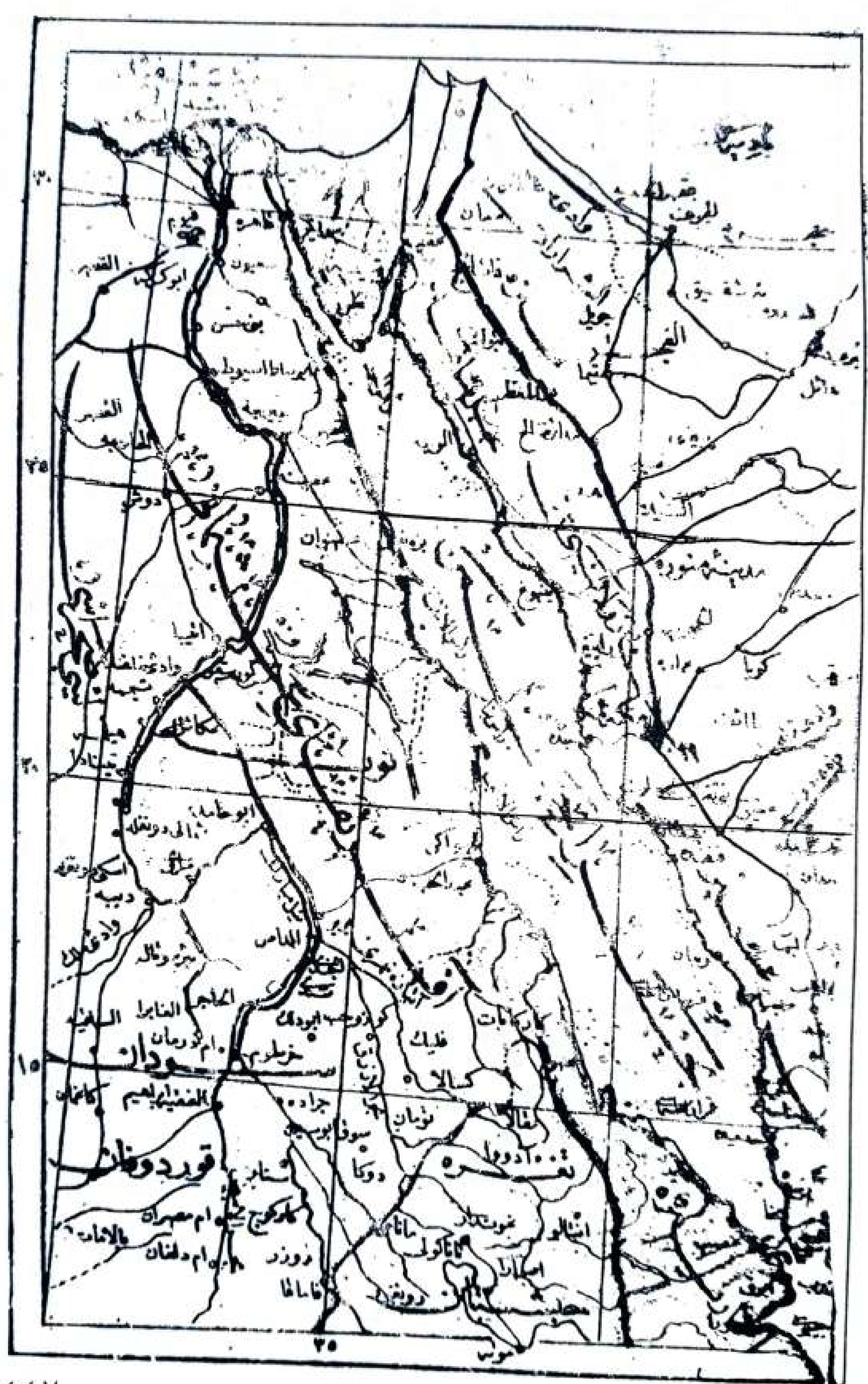
ضعف الامبراطورية العثمانية

المصدر : محمد عبد الرحيم مصطفى ، في أصول التاريخ العثماني ، (بيروت ، ١٩٨٢)

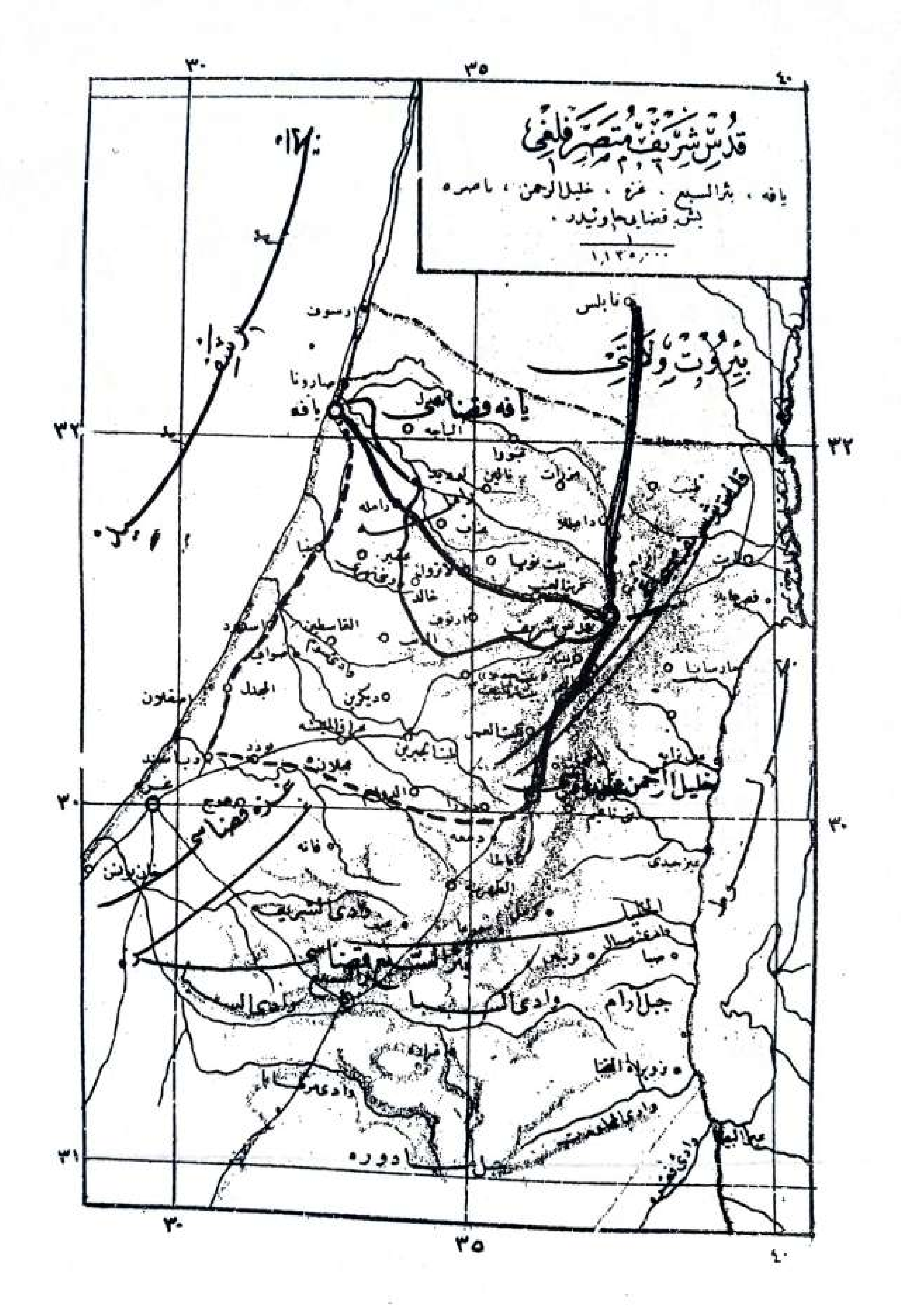



٣٦
٣٤
بیروت
صیدا
جبل لبنان متصرفلغی
شوف ، المتن ، کسروان ، البترون ، جزین
کوره ، زحله قضالرینه
١٠ ٢٠ ٣٠ ٤٠

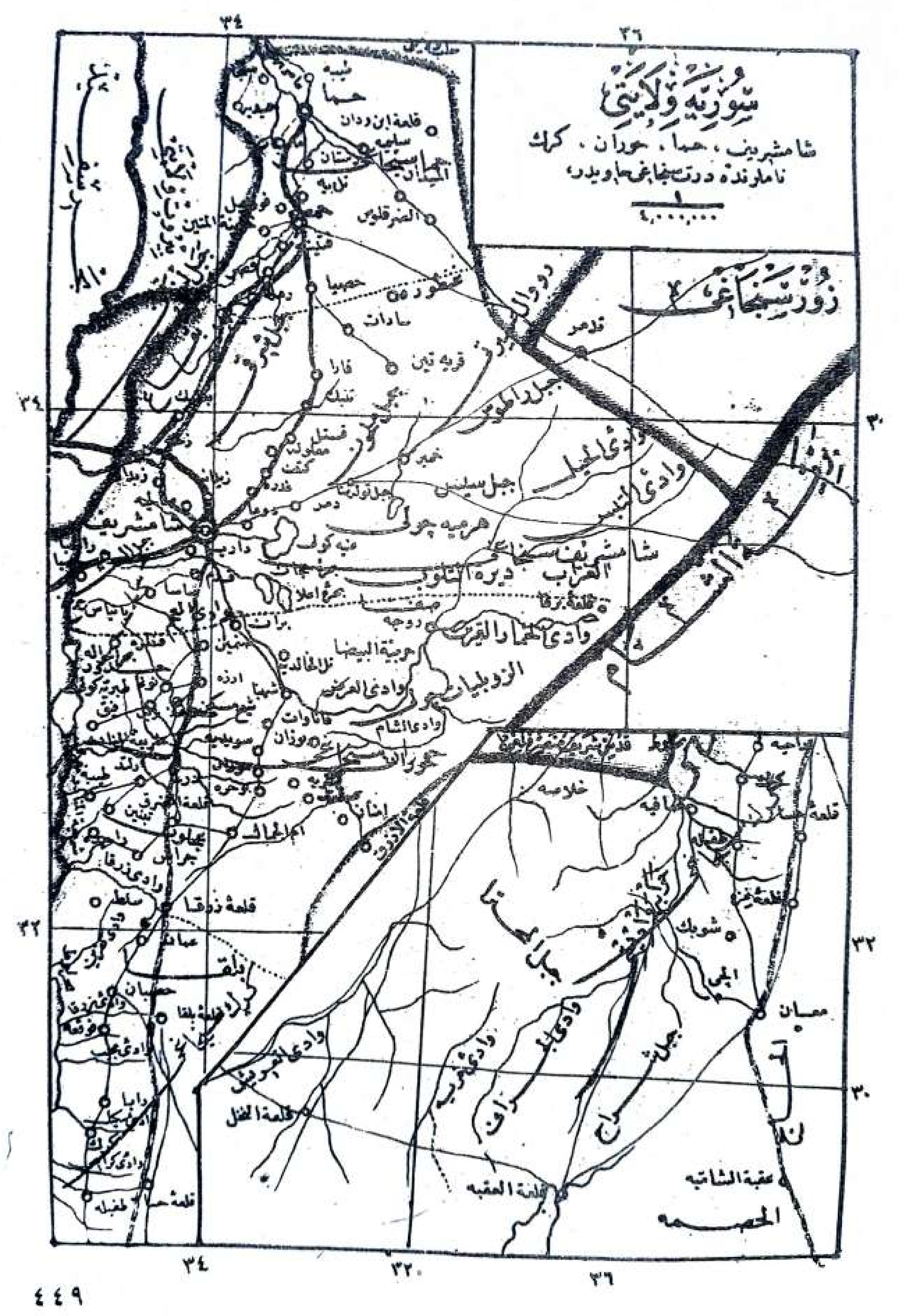

جزيرة العرب
مقياسيدر ١ : ٢٠,٠٠٠,٠٠٠
كيلومتره
فارستان
شيراز
كويت
بندر بوشهر
بندر عباس
قطار
شارجه
القطان
بريمى
الحريق
جبل مناقر
يمامه
دهنا
الجوز
بلاد الظهر
الاحقاف
جزائر كوريان موريان
رأس المزاقا
هروت
تريم
وادى دوعنيه
شحر
مكلا
عدن
بحر عمان



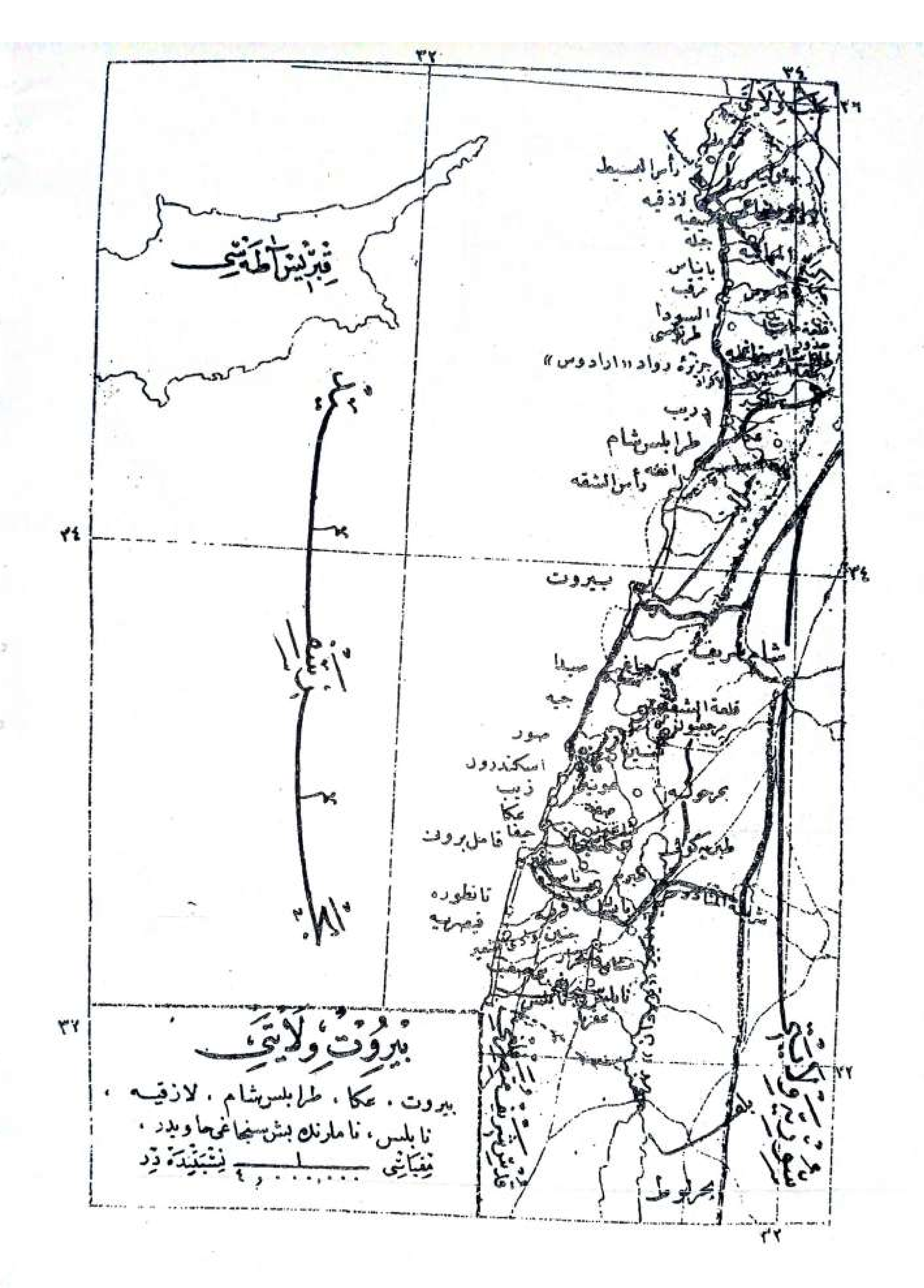
٣٠
٢٥
٢٠
١٥
٣٥
سودان
قوردوفان
ام درمان
خرطوم
كسلا
دبه
دوكا


قدس شريف متصرفلغى
يافه ، بئرالسبع ، غزه ، خليل الرحمن ، ناصره
بش قضايه آيريلير .
١
١,١٣٥,٠٠٠
نابلس
بيروت ولايتى
يافه قضاسى
يافه
خليل الرحمن
غزه قضاسى
بئرالسبع قضاسى
وادى الشريعه
جبل ادوره
٣٠
٣٥
٤٠
٣٢
٣١

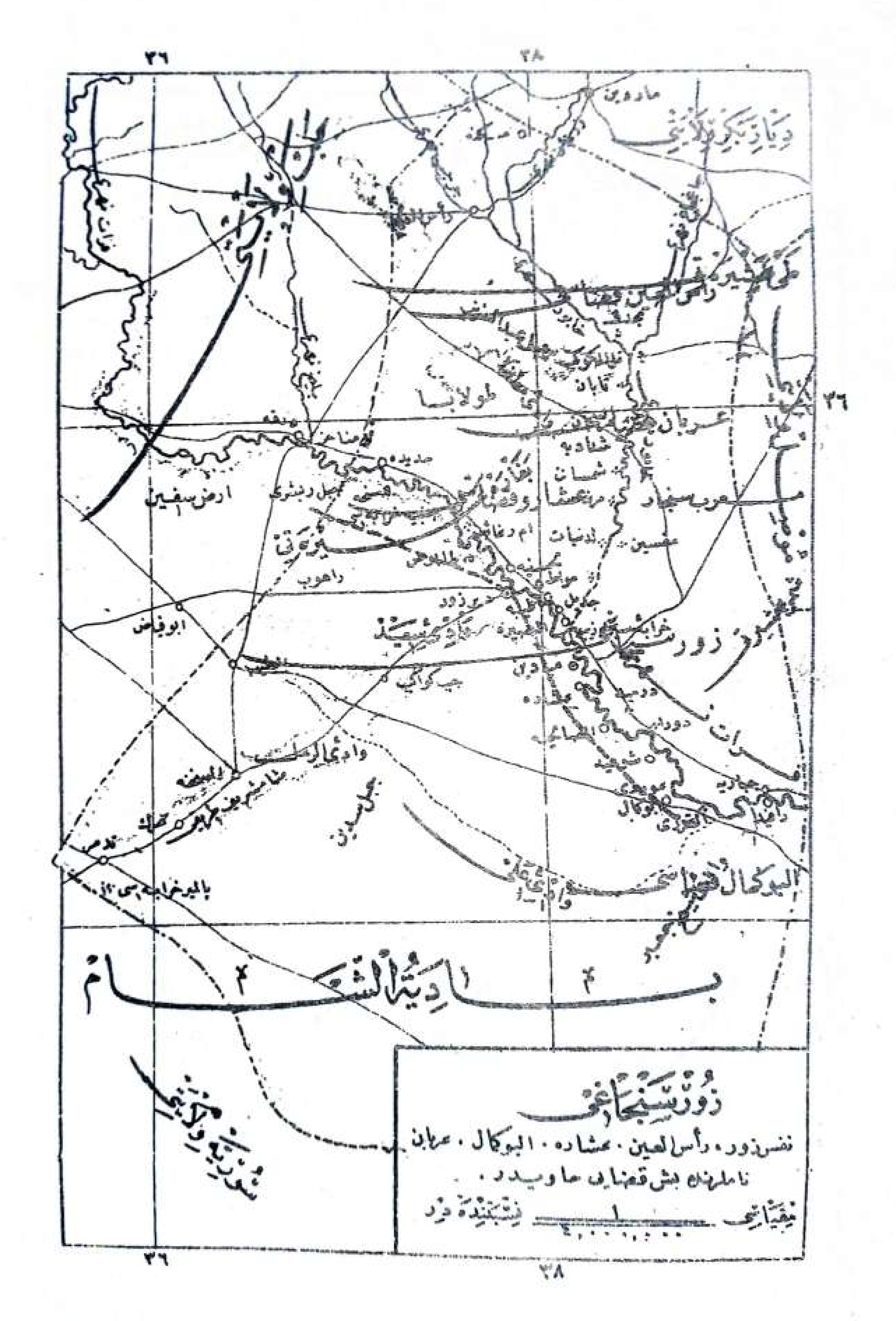
٨

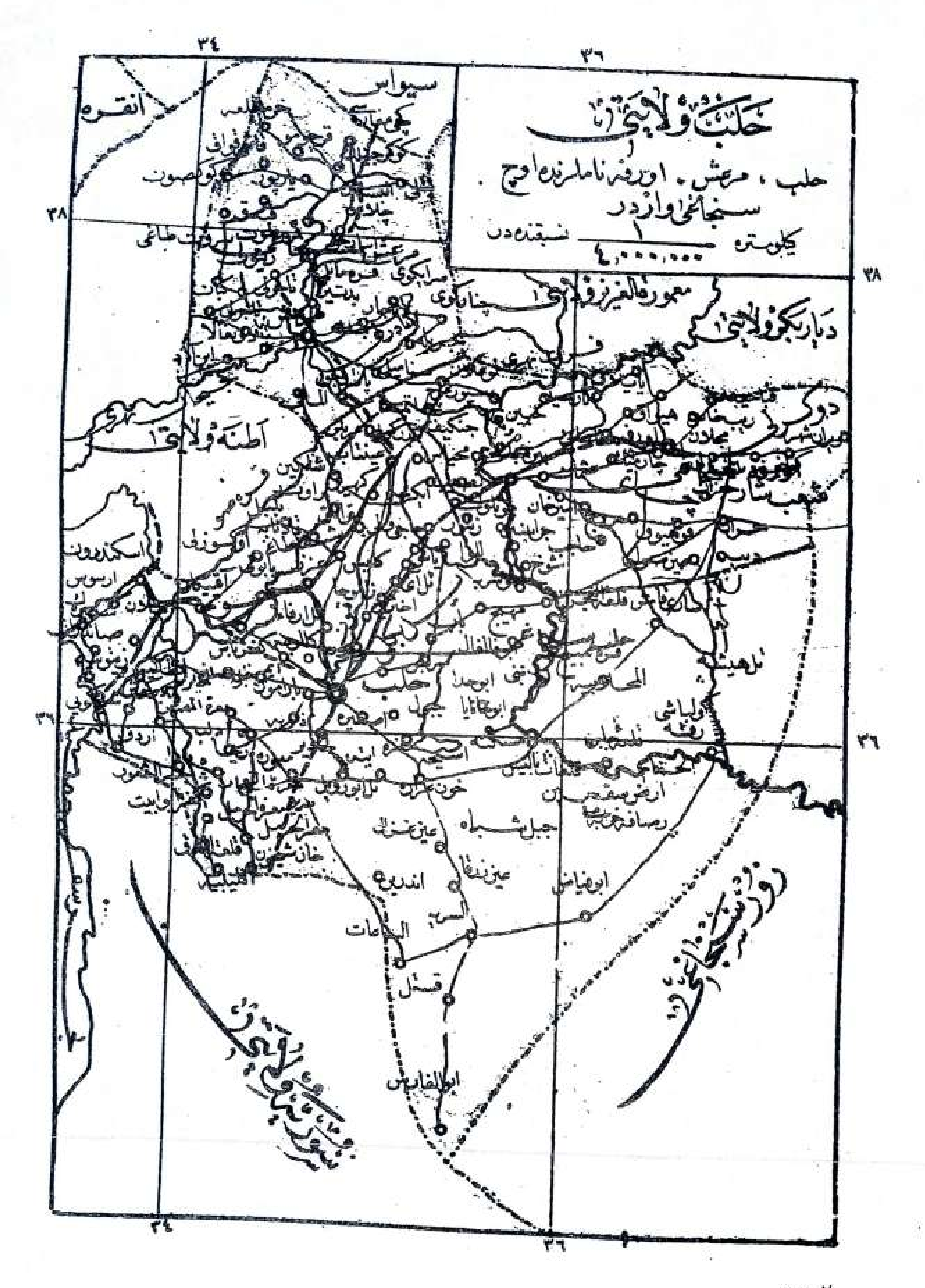


سوریه ولایتی
شام شریف، حما، حوران، کرك
ناملرنده درت سنجاغه آیریلیر
١
٤,٠٠٠,٠٠٠
٣٤
٣٦
٣٢
٣٠
حما
قلعه ابن وردان
سلمیه
حمص
حصیا
قریه تین
قارا
نبك
شام شریف
زور سنجاغی
دوما
قلعه زرقا
عمان
حسبان
معان
شوبك
قلعة العقبه
عقبة الشامیه
الحصمه

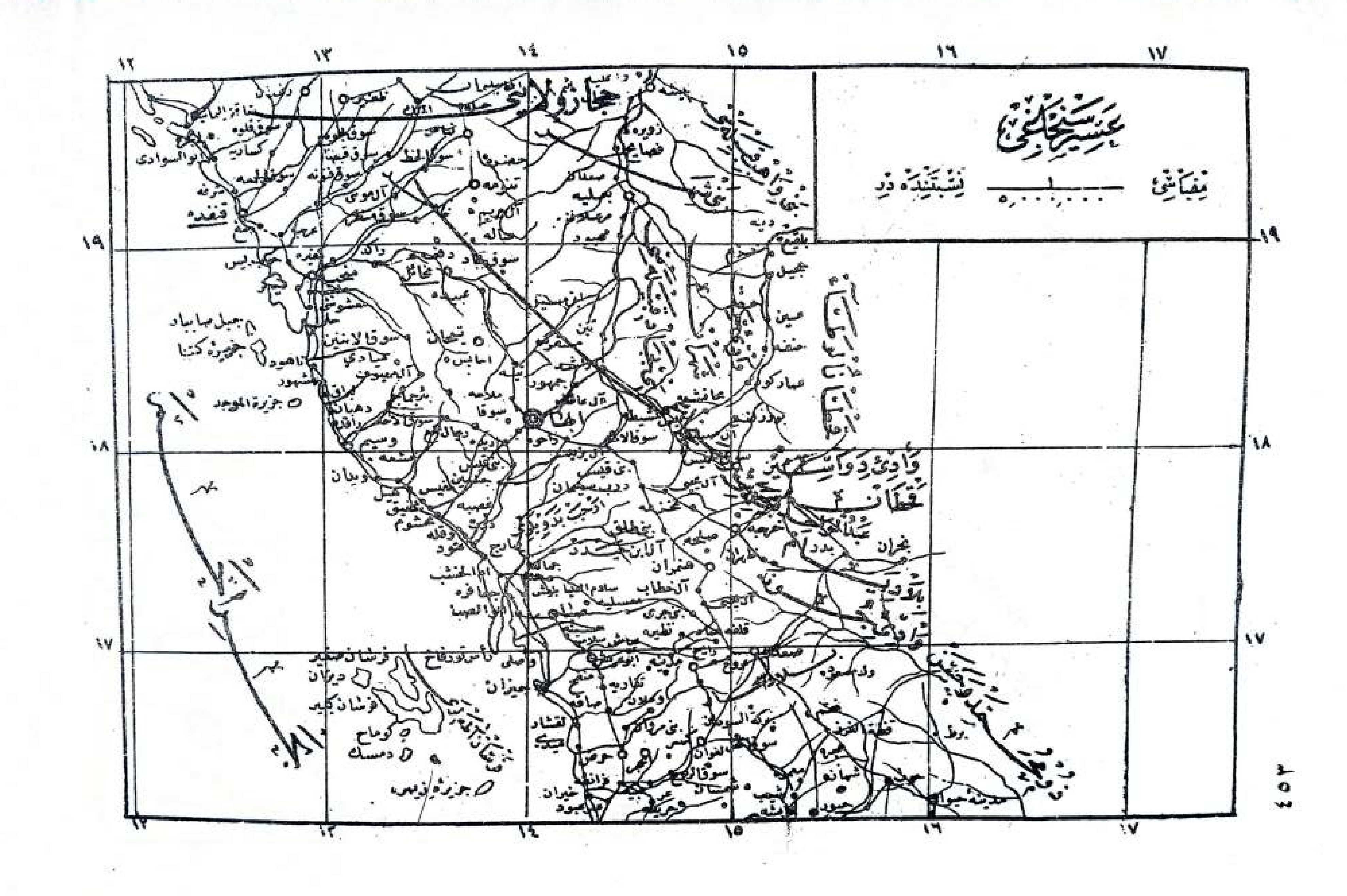


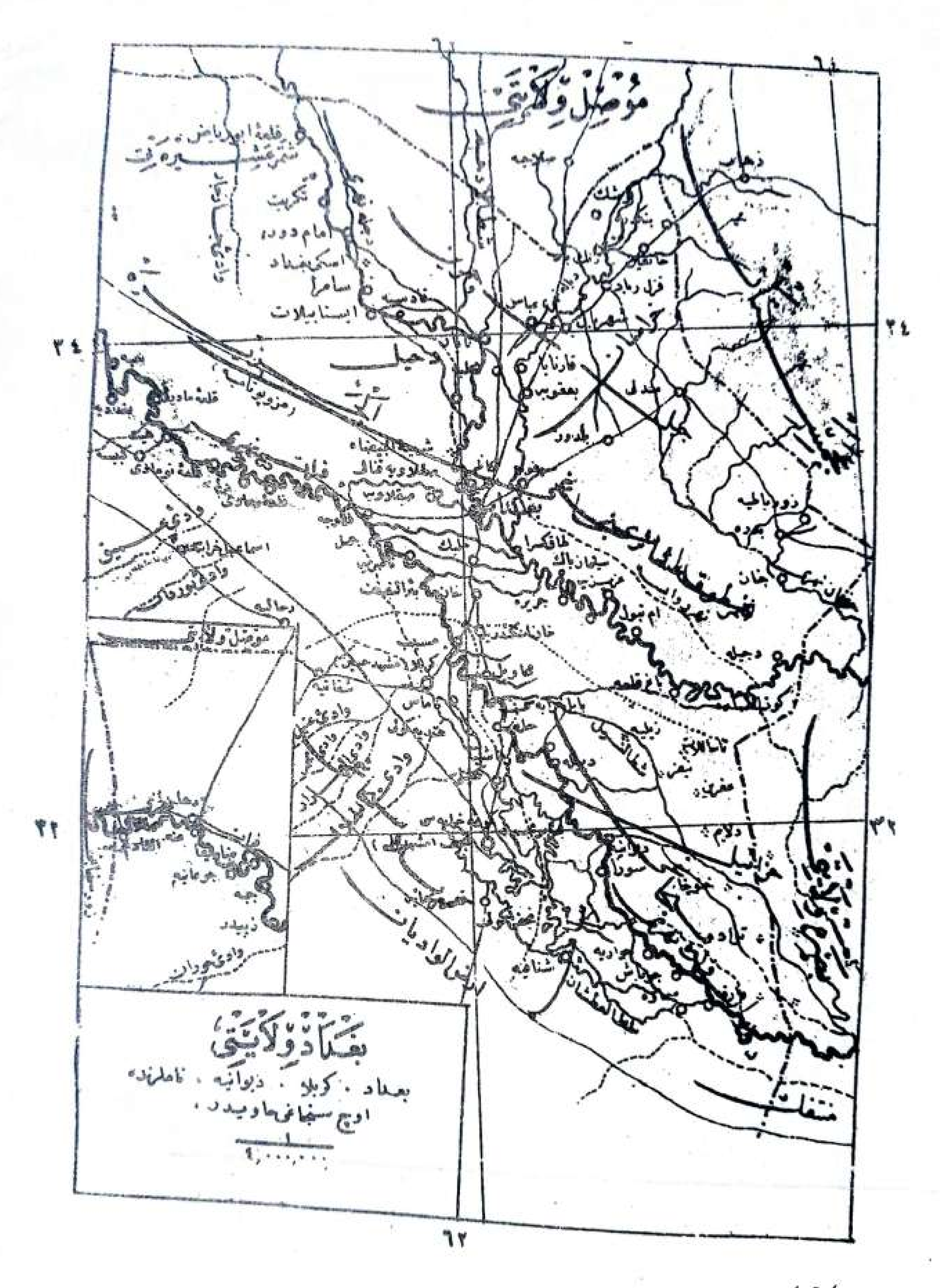
قبرس آطه‌سی
رأس البسیط
لاذقیه
جبله
بانیاس
السودا
جزیرهٔ رواد «ارادوس»
طرابلس شام
رأس الشقه
بیروت
صیدا
قلعة الشقیف
صور
زیب
عکا
حیفا
تانطوره
قیصریه
بحر لوط
بیروت ولایتی
بیروت ، عکا ، طرابلس شام ، لاذقیه ،
نابلس ، نام‌لرنده بش سنجاغی حاویدر ،
مقیاسی ۱ ؍ ۴٫۰۰۰٫۰۰۰ نسبتنده‌در

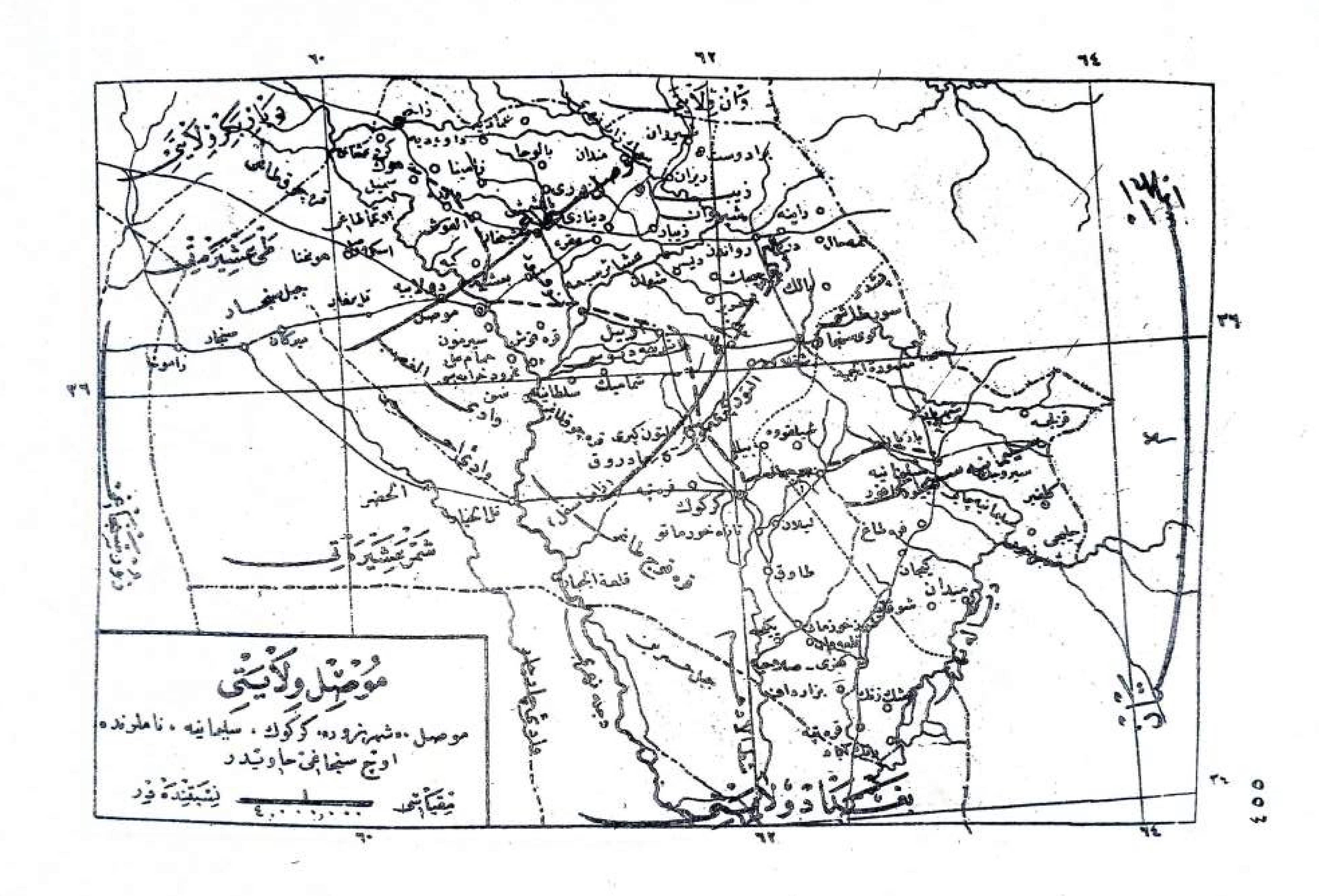

ديار بكر ولايتی
زور
بادية الشام
زور سنجاغی
نفس زور ، رأس العين ، عشاره ، البوكمال ، عربان
نامليله بش قضايی حاويدر .
مقياسی ۱ نسبتنده در
۲،۰۰۰،۰۰۰

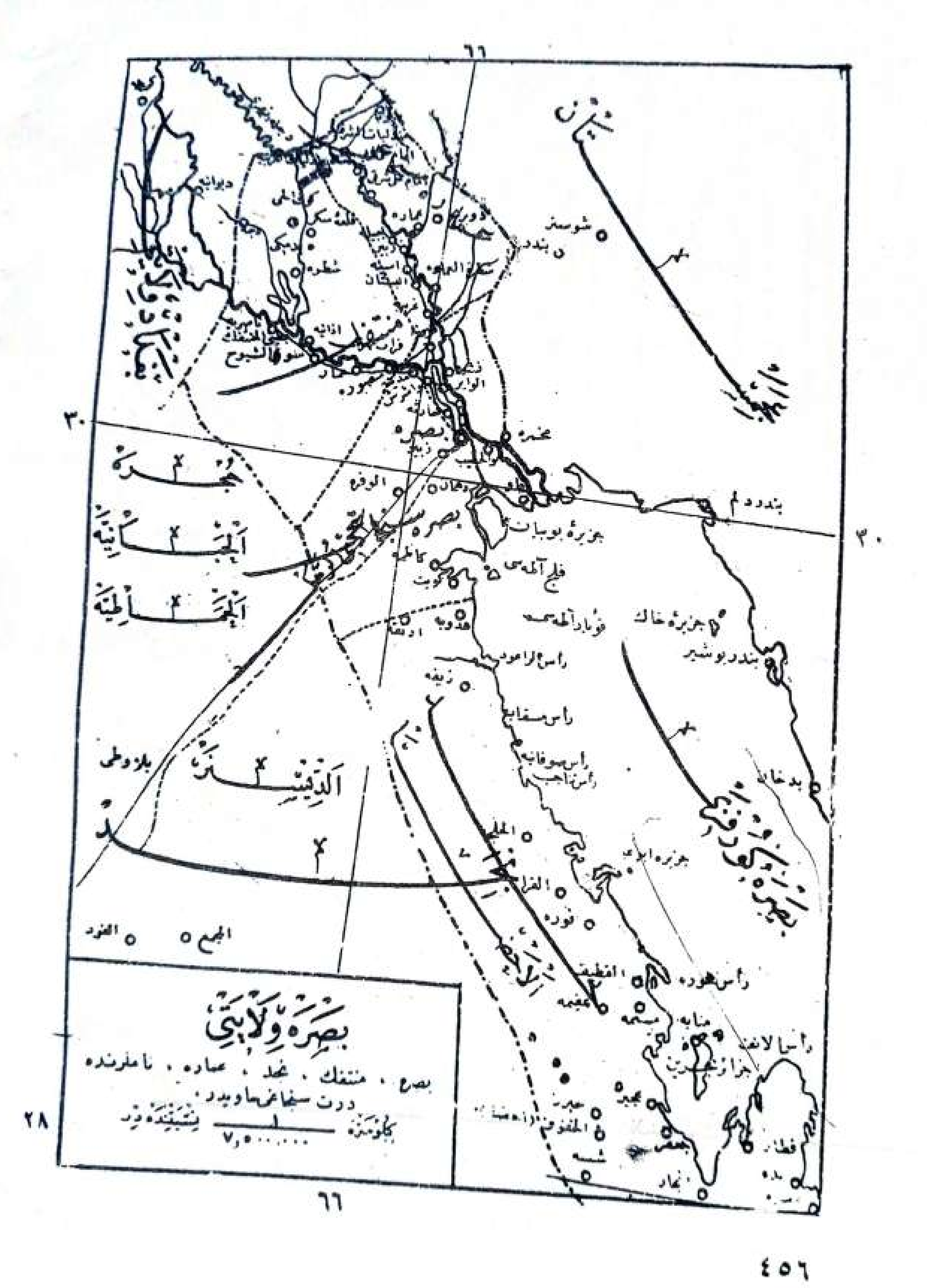


حلب ولايتی
حلب ، مرعش ، اورفه ناملرنده اوچ
سنجاغی واردر
كيلومتره 1/4,000,000 نسبتنده در
٣٤
٣٦
٣٨
سيواس
انقره
معمورة العزيز ولايتی
دياربكر ولايتی
آطنه ولايتی
اسكندرون
ارسوس
حلب

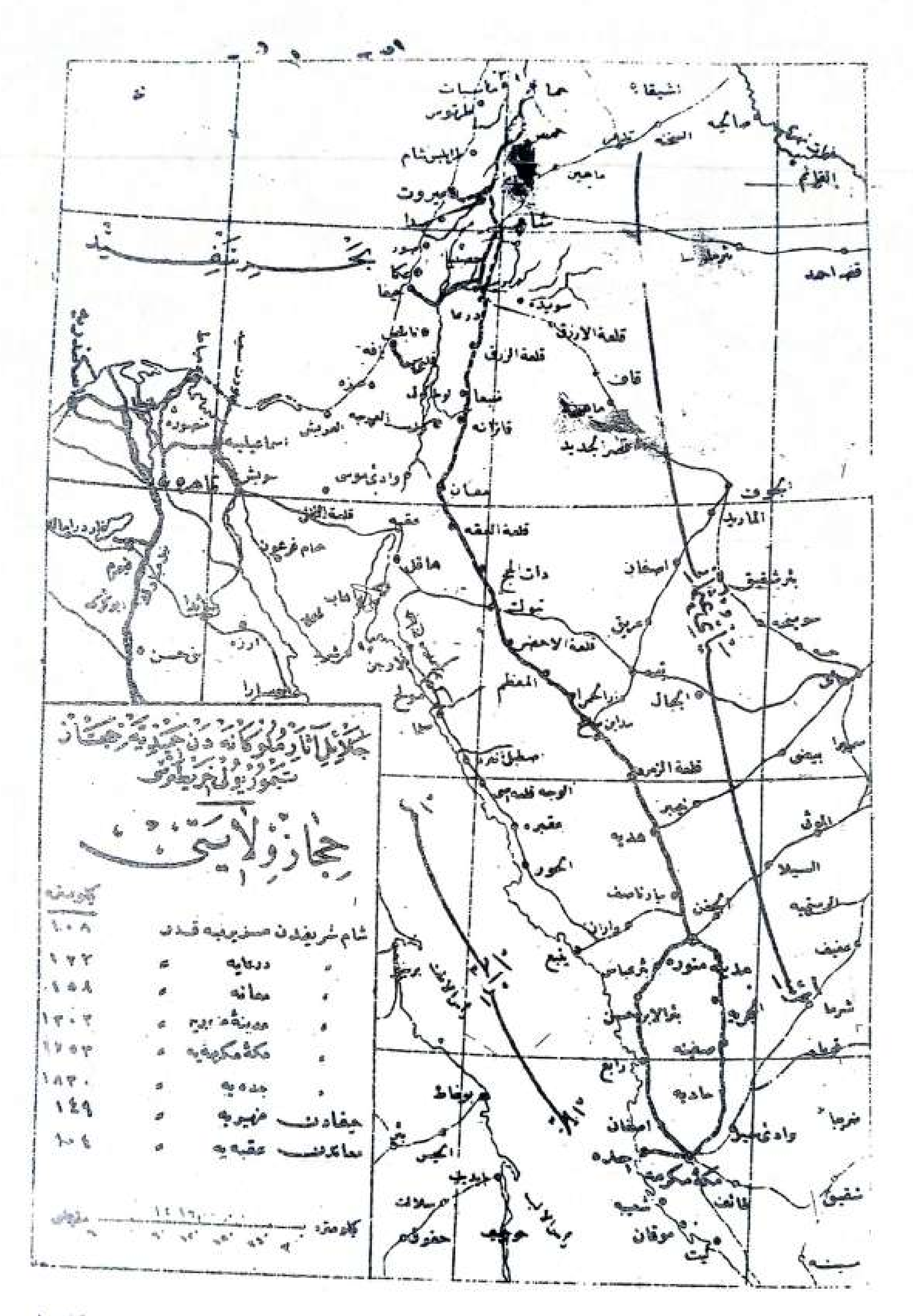

عسیر سنجاغی
مقیاسی ۱/۵۰۰۰۰۰ نسبتنده در
۱۲ ۱۳ ۱۴ ۱۵ ۱۶ ۱۷
۱۹
۱۸
۱۷


موصل ولايتي
تكريت
امام دور
اسكي بغداد
سامرا
اصطبلات
بعقوبه
قلعه
٣٤
٣٢
٦٢
بغداد ولايتي
بغداد . كربلا . ديوانيه . ناملرنده
اوج سنجاغي حاويدر .

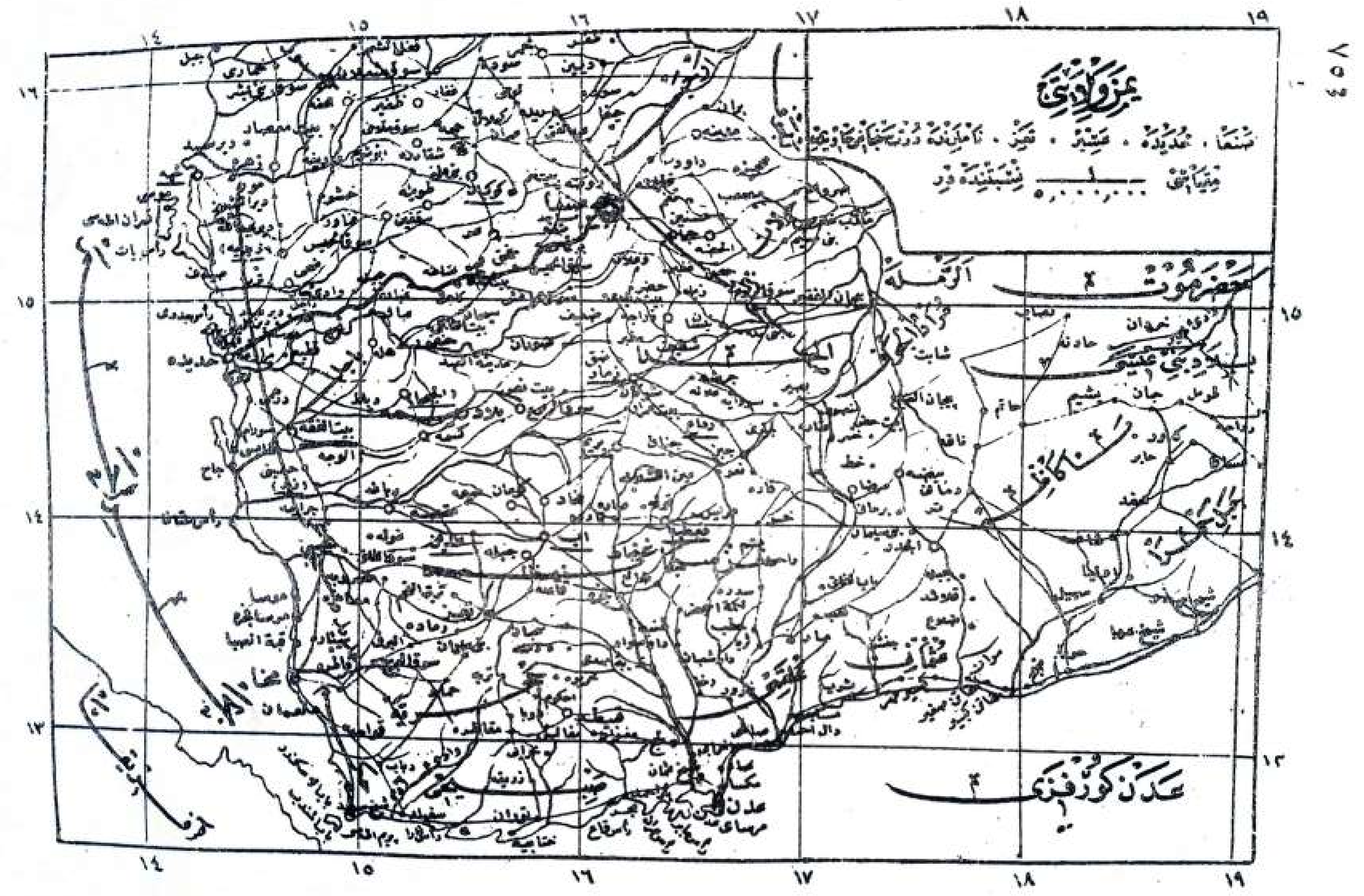

موصل ولایتی
موصل «شهرزور» كركوك . سلیمانیه . نامنده
اوچ سنجاغی حاویدر
مقیاسی ٤،٠٠٠،٠٠٠ نسبتنده‌در
وان ولایتی
دیاربكر ولایتی
بغداد ولایتی
ایران
موصل
كركوك
اربیل

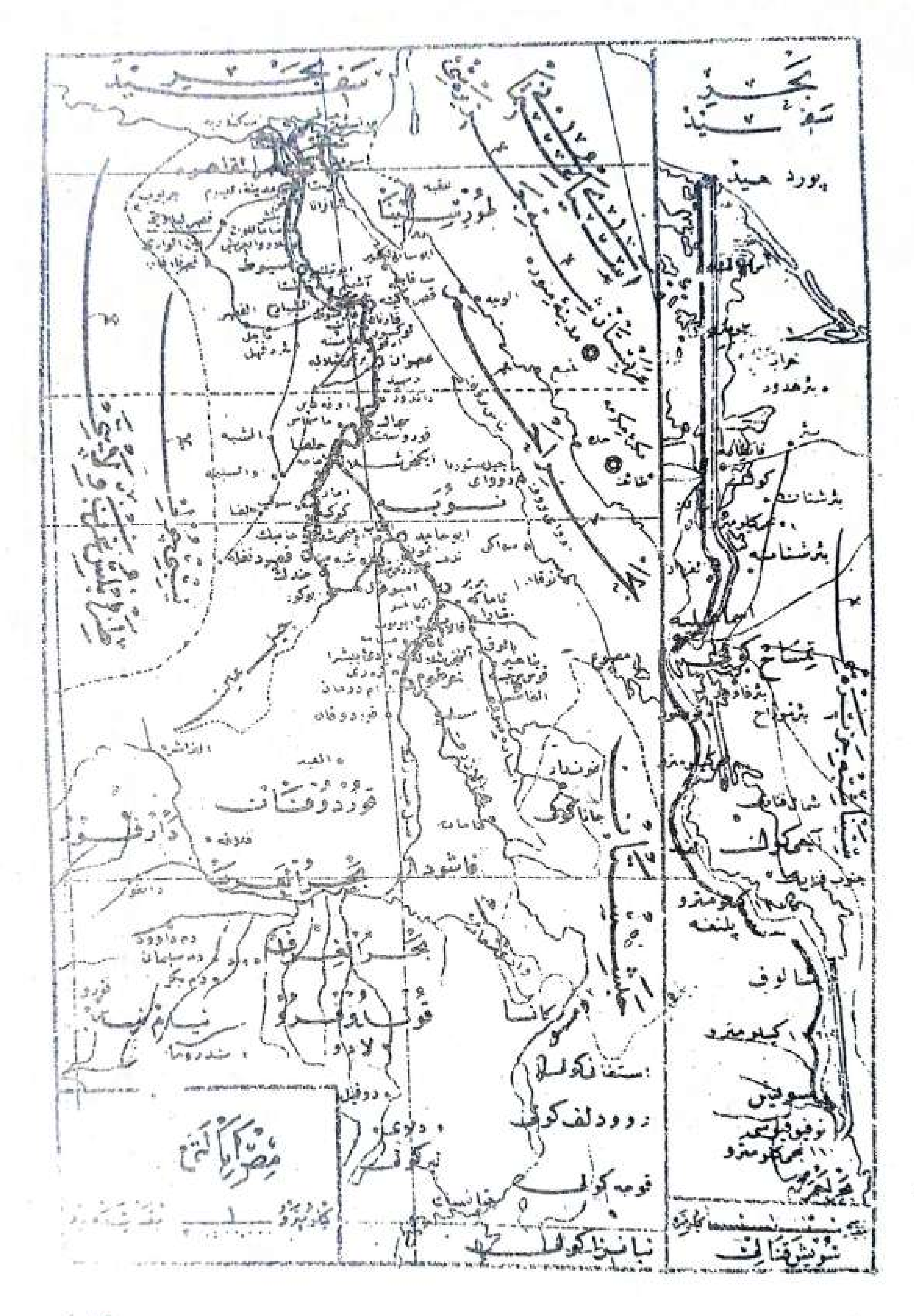


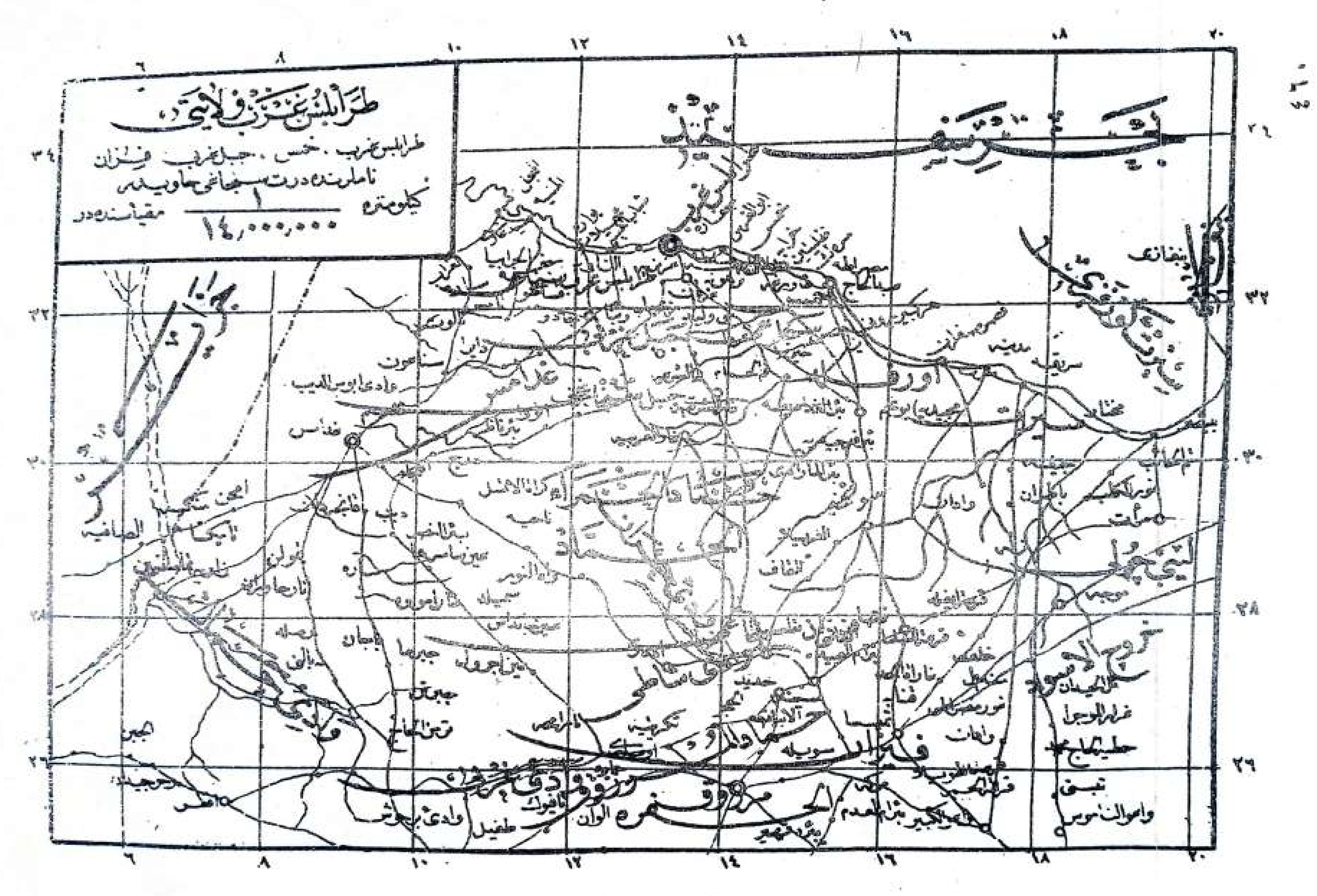
بصره ولايتى
بصره ، منتفك ، نجد ، عماره ، نام درت سنجاقدن عبارتدر.
كيلومتره
١
٧،٥٠٠،٠٠٠
نسبتنده در
٦٦
٣٠
٢٨
شوشتر
بصره
محمره
بندر دلم
جزيره بوبيان
كويت
جزيره خارك
بندر بوشير
الجبانية
الحماطية
الدهناء
الجمع
الفزد
فطر

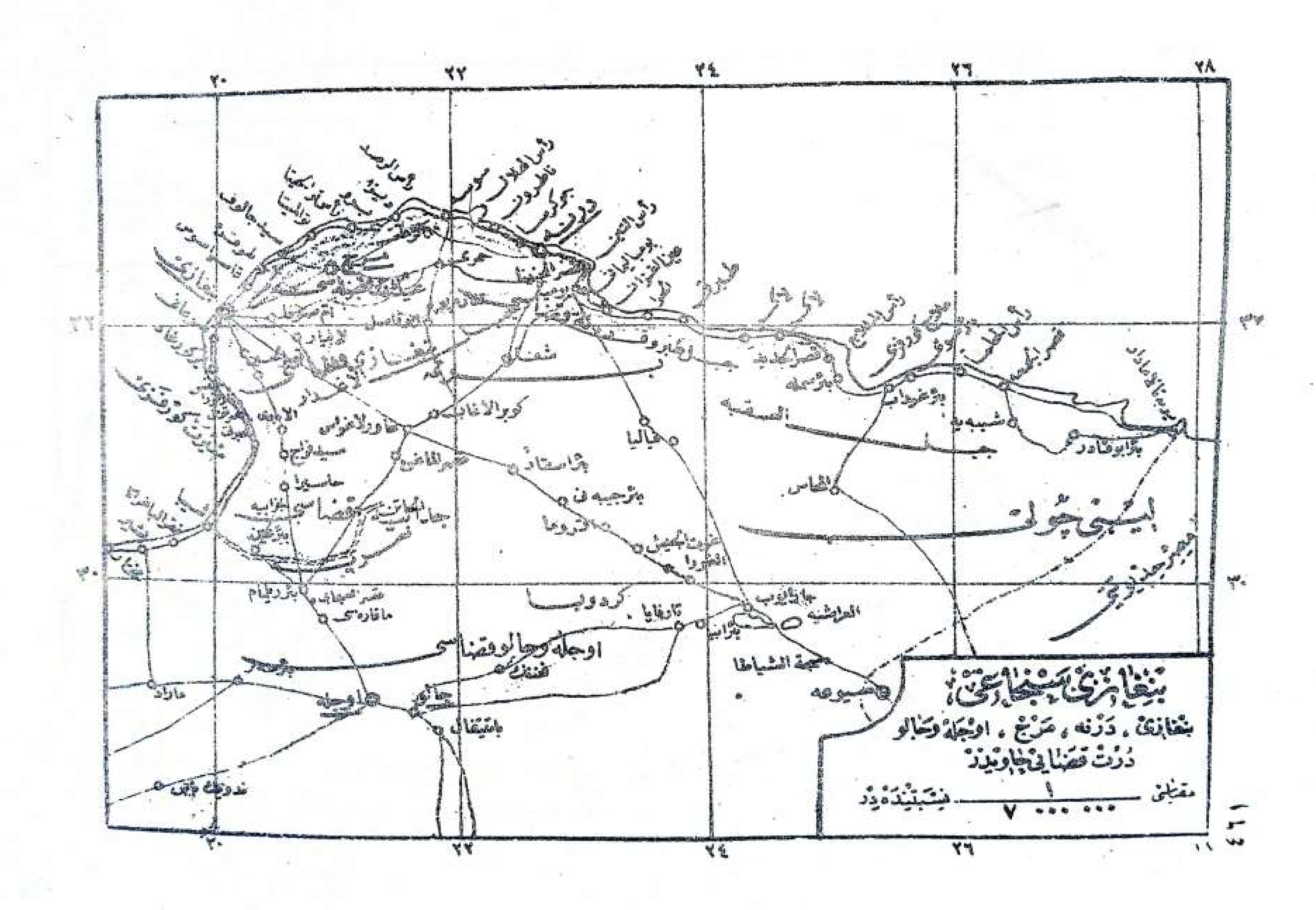


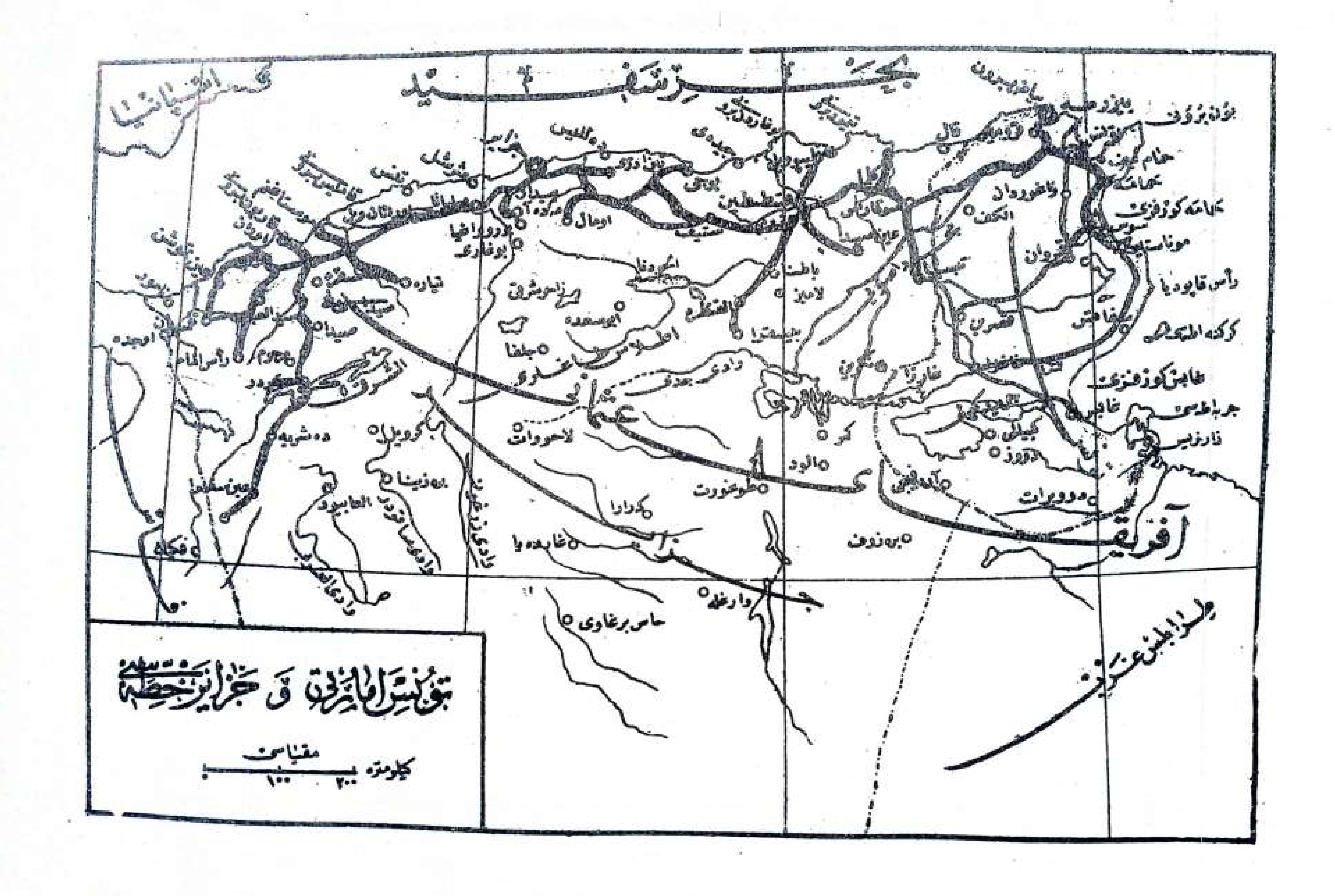
حجاز ولايتی
كيلومتره
شام شريفدن مزيريبه قدر ١٠٨
درعايه ١٢٣
معانه ٤٥٨
مدينهٔ منوره ١٣٠٣
مكهٔ مكرمه يه ١٧٥٣
جده يه ١٨٣٠
حيفادن مزيريبه ١٤٩
معاندن عقبه يه ١٠٤
بحر سفيد
حمص
بيروت
شام
عكا
حيفا
نابلس
غزه
قاهره
اسماعيليه
سويس
معان
عقبه
قلعة الزرقا
قلعة الازرق
تبوك
مدائن صالح
قلعة المعظم
الوجه
ينبع
مدينه منوره
رابغ
جده
مكه مكرمه
طائف
الجوف


يمن ولايتى
عدن كورفزى
عدن

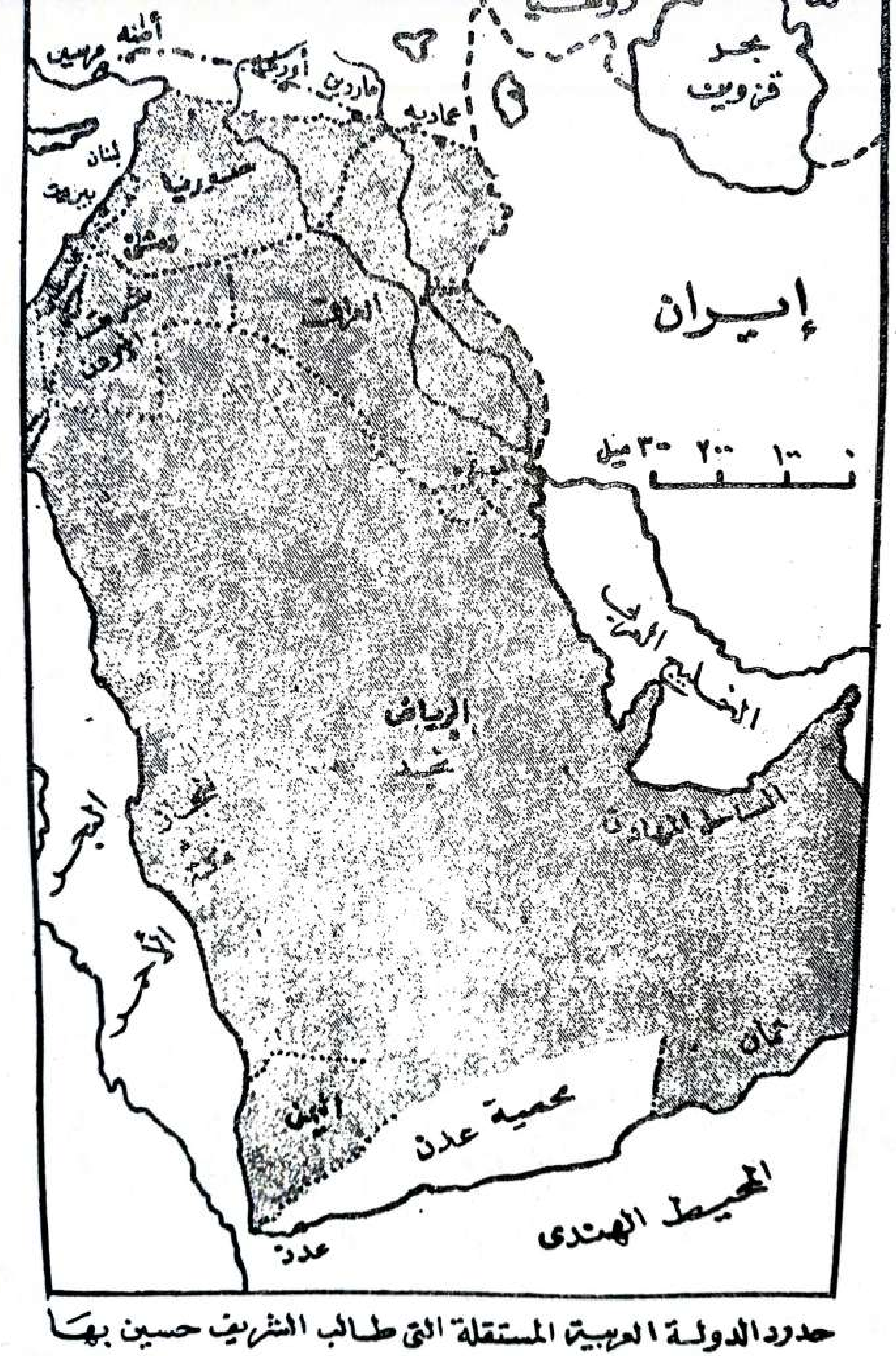

بحر سفید
القاهره
طور سینا
نوبه
قوردوفان
دارفور
بحر سفید
پورد سعید
سویش
سویش قنالی
مصر خریطه سی


طرابلس غرب ولايتى
طرابلس غرب، خمس، جبل غرب، فزان
ناملرنده درت سنجاغى حاويدر
كيلومترو ١/١٤,٠٠٠,٠٠٠ مقياسنده در


بنغازی سنجاغی
بنغازی ، درنه ، مرج ، اوجله وجالو
درت قضایی حاویدر
مقیاسی ۱/۷٬۰۰۰٬۰۰۰ نسبتنده‌در
٢٠
٢٢
٢٤
٢٦
٢٨
٣٢
٣٠

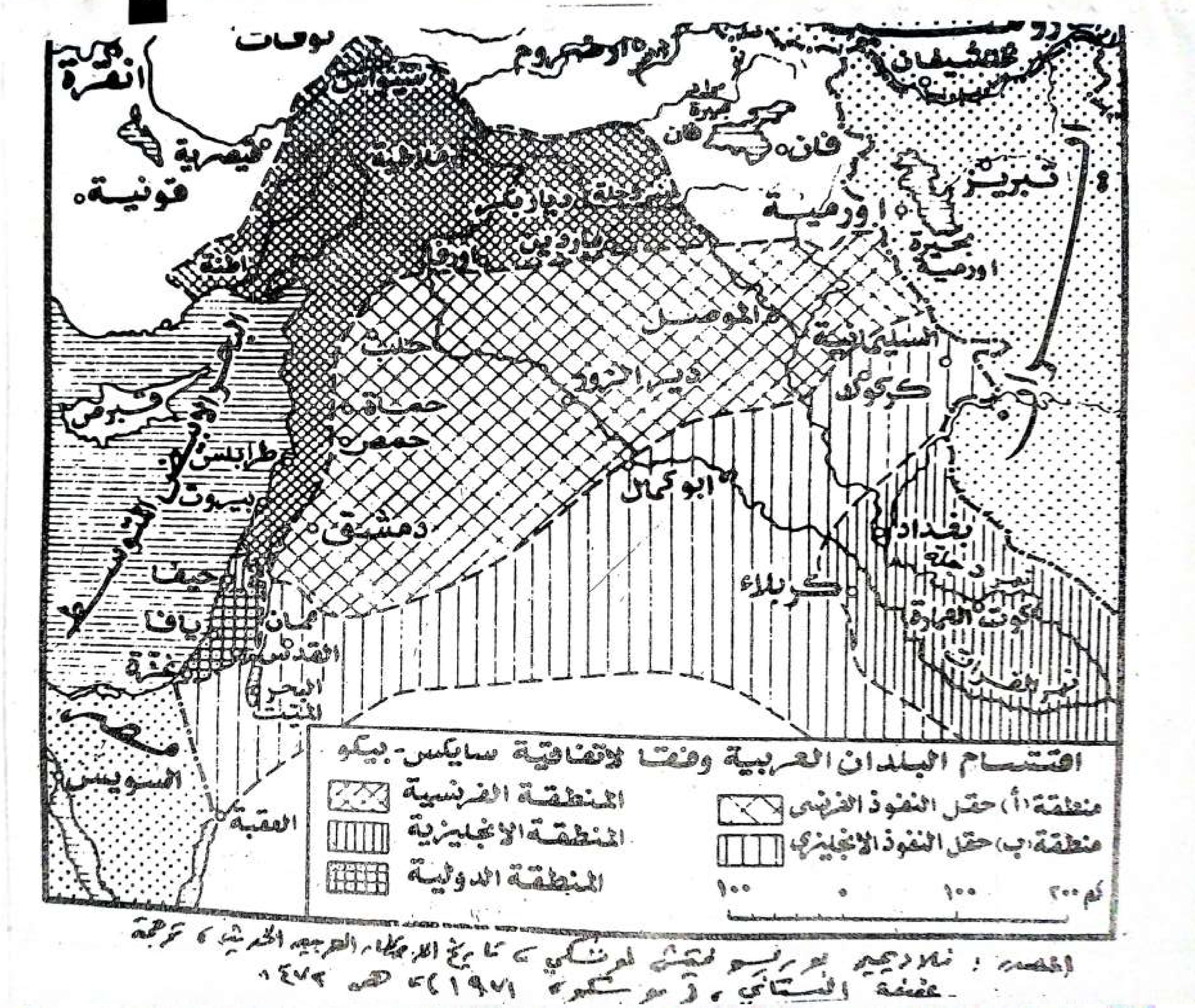


تونس امارتی و جزائر خطه سی
مقیاس
کیلومتره ۲۰۰ ۱۰۰
بحر سفید
اسپانیا
آفریقه
طرابلس غرب



حدود الدولة العربية المستقلة التي طالب الشريف حسين بها

المصدر: عمر عبد العزيز عمر، دراسات في تاريخ العرب



المصدر: فلاديمير بوريسوفيتش لوتسكي، تاريخ الأقطار العربية الحديث، ترجمة عفيفة البستاني، موسكو، ١٩٧١، ص ٤٧٣.

اباظة، فاروق عثمان: الحكم العثماني في اليمن ١٨٧٢ – ١٩١٨، (القاهرة ١٩٧٥م)

اباظة، فاروق عثمان: عدن والسياسة البريطانية في البحر الاحمر ١٨٣٩ – ١٩١٨، (القاهرة، ١٩٧٦م)

ابراهيم، حسن أحمد: محمد علي في السودان، (الخرطوم، لا. ت)

ابراهيم، عبد العزيز عبد الغني: بريطانيا وامارات الساحل العماني، دراسة في العلاقات التعاهدية، (البصرة، ١٩٧٨م)

ابراهيم، سعد الدين – (تحرير): مصر في ربع قرن، (بيروت، ١٩٨١م)

ابراهيم، عبد الفتاح –: طريق الهند (بغداد، ١٩٣٥م)

أحمد، ابراهيم خليل: تطور التعليم الوطني في العراق ١٨٦٩ – ١٩٣٢، (البصرة، ١٩٨٢م)

احمد، ابراهيم خليل: ولاية الموصل دراسة في تطوراتها السياسية ١٩٠٨ – ١٩٢٢ رسالة ماجستير غير منشورة قدمت لجامعة بغداد ١٩٧٥م

احمد، ابراهيم خليل: اوضاع التعليم في العراق بين سنتي ١٨٦٩ – ١٩١٤م مستل من مجلة التربية والعلم، الموصل، العدد (٣) شباط ١٩٨١م

احمد، ابراهيم خليل: الحركة العربية في الموصل قبيل الحرب العالمية الاولى مجلة الخليج العربي – البصرة – العدد (٧) ١٩٧٧م.

احمد، ابرهيم خليل: سياسة ايران الخارجية التوسعية، واطماعها في الارض والمياه العربية ١٥٠٠ – ١٩٨٠م مجلة جامعة الموصل السنة (١١) العدد (١٢) كانون الثاني ١٩٨١م.

أحمد، عبد العاطي محمد: الاسلام والعروبة في المغرب العربي، مجلة قضايا عربية، السنة (٦) حزيران ١٩٧٩م

أحمد، كمال مظهر: أضواء على قضايا دولية في الشرق الاوسط (بغداد، ١٩٧٨م)
احمد، كمال مظهر :حول نشوء حركة التحرو العربي في دراسة سوفيتية جديدة، مجلة أفاق عربية – العدد (٢)، تشرين الاول ١٩٧٥م
ادامز، جارلس: الاسلام والتجديد في مصر، ترجمة عباس محمود، (القاهرة، ١٩٣٥م)
اركون، محمد: الفكر العربي، ترجمة عادل العوا، (بيروت، ١٩٨٢م)
ارنولد، توماس: الخلافة، ترجمة حسن حيدر البناني، (بيروت، ١٩٦١م)
ارنولد،توماس :الدعوة الى الاسلام ، تعريب حسن ابراهيم حسن واخرون (القاهرة، لا.ت)
اشفورد، دوجلاس: التطورات السياسية في المملكة المغربية، ترجمة عائدة سليمان (بيروت، ١٩٦٣م)
الاعظمي، أحمد عزة: القضية العربية، (بغداد، ١٩٣١م)
الامام، رشاد : سياسة حمودة باشا التجارية مع أوربا، المجلة التاريخية المغربية، تونس، عدد ٦ تموز ١٩٧٦م
الامام،رشاد : سياسة حمودة باشا الحسيني بتونس ١٧٨٢ – ١٨١٤م المجلة التاريخية المغربية، تونس عدد ٦ تموز ١٩٧٦م
أمين، جلال احمد: المشرق العربي والمغرب، (بيروت، ١٩٧٩م)
أمين، أحمد: زعماء الاصلاح في العصر الحديث، (القاهرة. ١٩٦٥م)
أمين، عبد الامير محمد:القوى البحرية في الخليج العربي في القرن التاسع عشر، (بغداد، ١٩٦٦م).
امين،عبد الامير محمد : دور القبائل العربية في صد التوسع الاوربي في الخليج العربي خلال القرنين السابع عشر والثاني عشر، من بحوث المؤتمر الدولي للتاريخ، بغداد ١٥ – ٣٠ آذار ١٩٧٣م.

امين ، قاسم : المرأة الجديدة، (القاهرة، ١٩٣٦م)
أمين، قاسم: تحرير المرأة، (القاهرة، ١٨٩٩م)
امين،قاسم : المرأة الجديدة، (القاهرة، ١٩٣٦م)
أمين، عثمان: «جمال الدين الافغاني في القاهرة» مجلة تاريخ العرب والعالم لسنة (١٢) العدد (٢٢) آب ١٩٨٠م.
انطونيوس، جورج: يقظة العرب ، تاريخ حركة العرب القومية، ترجمة ناصر الدين الاسد، واحسان عباس ط٣، (بيروت، ١٩٦٩م)
الانصاري ، محمد جابر : « الامام محمد عبده مطلوب اكتشاف هذا الرجل» مجلة العربي، الكويت العدد (٨٦) أيلول، ١٩٨٢م
انيس وحراز، محمد — ورجب: الشرق العربي في التاريخ الحديث والمعاصر (القاهرة، ١٩٦٧م)
أنيس، محمد: الدولة العثمانية والمشرق العربي ١٥١٤ — ١٩١٤ (القاهرة لا. ت)
أياس،محمد بن احمد ابن: بدائع الزهور في وقائع الدهور، (القاهرة١٣١١هـ)
ايبش، يوسف(جمع وتحقيق) رحلات الامام محمد رشيد رضا، ط٢، (بيروت، ١٩٧٩م)
الباروني ، ابو القاسم سعيد: حياة سليمان الباروني (القاهرة، ١٩٤٨)م.
الباروني ، زعيمة سليمان: (جمع ونشر) صفحات خالدة في الجهاد للمجند الليبي سليمان الباروني ج١ ج٢. (بيروت، ١٩٦٨م)
البخيت، محمد عدنان: «احداث طرابلس الشام ١٦٠٦ — ١٦٠٧» مجلة مجمع اللغة العربية الاردنية — العدد (١١)كانون الثاني ١٩٧٨
البدليسي ، شرف خان: شرفنامة ٢ج: ترجمة الى العربية من الفارسية محمد علي عوني، (القاهرة ١٩٥٨، ١٩٦٢م)

برج، محمد عبد الرحمن: دراسة في التاريخ العربي الحديث والمعاصر (القاهرة، ١٩٧٤م)

برج، محمد عبد الرحمن: عبد الرحمن الكواكبي. (القاهرة، ١٩٧٢م)

برو، توفيق: القومية العربية في القرن التاسع عشر، (دمشق ١٩٦٥م)

برو، توفيق : العرب والترك في العهد الدستوري العثماني ، (القاهرة ١٩٦١م)

بروكلمان، كارل: تاريخ الشعوب الاسلامية، ترجمة نبيه امين فارس ومنير البعلبكي، ط٥ ، (بيروت، ١٩٦٨م)

البستاني، بطرس، دائرة المعارف، (٨) مجلدات، (بيروت، ١٨٨٤م)

البستاني سليمان: عبرة وذكرى، الدولة العثمانية قبل الدستور وبعده ، تحقيق ودراسة خالدة زيادة، (بيروت، ١٩٧٨م)

بشير، عثمان بن: عنوان المجد في تاريخ نجد، (الرياض لا. ت)

بشر، محمد عمر: تطور التعليم في السودان ١٨٩٨ - ١٩٥٦ ، ترجمة هنري رياض واخرون، (بيروت، ١٩٧٠م)

البصري، عثمان بن سند: مطالع السعود بطيب اخبار الوالي داؤد، اختصره أمين حسن الحلواني ، (بومبي، ١٨٨٧م)

البصير، عبد الرزاق: «كيف اتحد أهل الخليج لمقاومة الاستعمار البرتغالي» مجلة العربي.، الكويت - كانون الاول ١٩٨١م.

البطريق، عبد الحميد: محمد علي ومشروع غزو العراق، مجلة كلية الاداب الجامعة الاردنية عمان - المجلد (١) العدد (١) كانون الثاني ١٩٦٩م.

بن اشننهو، عبد الحميد بن ابي زيان، دخول الأتراك العثمانيين الى الجزائر، (الجزائر، ١٩٧٢م)

البهلوان ، علي: تونس الثائر، (القاهرة، ١٩٥٧م)

البهي . محمد: الفكر الاسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي، ط٣ (القاهرة، ١٩٥٩م)
بورقيبة، الحبيب: بين تونس وفرنسا، (تونس، ١٩٥٧م)
بوندار يفسكي : سياستان ازاء العالم العربي – ترجمة خيري الضامن (موسكو ١٩٧٥ م)
بيهم ، محمد جميل : فلسفة التاريخ العثماني ، اسباب انحطاط الامبراطورية العثمانية وزوالها ، (بيروت ، ١٩٥٤م)
تابيرو ، نوربير : الكواكبي المفكر الثائر ، اسهام في دراسة الاسلام الحديث – ترجمة علي سلام ، (بيروت ، ١٩٦٨م).
تشايجي ، عبد الرحمن : المسألة التونسية والسياسة العثمانية – ١٨٨١ – ١٩١٣م ، ترجمة عبد الجليل التميمي (تونس ، ١٩٧٣م).
التكريتي ، منير بكر : الصحافة العراقية واتجاهاتها السياسية والاجتماعية والثقافية ١٨٦٩ – ١٩٢١م، (بغداد ، ١٩٦٩م)
التكريتي ، هاشم صالح : «بريطانيا ومشروع قناة السويس ١٨٥٤ – ١٨٦٩م» مجلة الجمعية التاريخية العراقية ، بغداد ، العدد (٣) ١٩٧٤م
التميمي ، حميد أحمد حمدان : البصرة في عهد الاحتلال البريطاني ، (بغداد ، ١٩٧٩م) .
التميمي ، عبد الجليل :بحوث ووثائق في التاريخ المغربي ، تونس الجزائر وليبيا من ١٨١٦ الى ١٨٧١م ، (تونس ، ١٩٧٢م)
التميمي ، عبد الجليل : أول رسالة من أهالي مدينة الجزائر الى السلطان سليم الاول ١٥١٩ ، المجلة التاريخية المغربية – تونس العدد (٦) تموز ١٩٧٦م
التونسي ، خير الدين : مقدمة كتاب اقوم المسالك في معرفة الممالك تحقيق ودراسة معن زيادة ، (بيروت ، ١٩٧٨م)

ثامر ، الحبيب : هذه تونس ، (القاهرة ، ١٩٤٨م)
جب وبوبون ، هاملتون ، وهارولد: المجتمع الاسلامي والغرب جزءان — ترجمة أحمد عبد الرحيم مصطفى (القاهرة ، ١٩٧١م) .
الجبرتي ، عبد الرحمن : عجائب الاثار في التراجم والاخبار ، ٣ أجزاء (بيروت لاعمت) .
الجبلاوي، محمد طاهر: جمال الدين الأفغاني حياته واراؤه، (القاهرة ١٩٧١م)
جحا ، شفيق : « التنظيمات أو حركة الاصلاح في الدولة العثمانية ١٨٣٩ — ١٨٧٦م» مجلة الابحاث ، بيروت السنة (١٨) الجزء (٢١) حزيـــران ١٩٦٥م
جدعان ، فهمي : أسس التقدم عند مفكري الاسلام في العالم العربي الحديث (بيروت ، ١٩٧٩م)
الجزائري ، مسعود مجاهد : تاريخ الجزائر ، (القدس ، ١٩٦٢م)
جلون ، عبد المجيدبن : هذه مراكش ، (القاهرة ، ١٩٤٩م)
جمال باشا ، مذكرات جمال باشا ، تعريب علي احمد شكري (القاهرة ١٩٢٣).
الجمل ، شوقي : تاريخ كشف افريقيا واستعمارها ، (القاهرة ، ١٩٧١م)
الجندي ، أنور : عبد العزيز جاويش . (القاهرة ، ١٩٦٥م)
الجندي ، أنور : يقظة العرب ، مرحلة مابين الحربين ، (القاهرة، ١٩٧٢م)
الجندي ، أنور : الفكر العربي المعاصر من معركة التغريب والتبعية الثقافية ، (القاهرة ، لا . ت)
الجواهري ، عماد أحمد : تاريخ مشكلة الاراضي في العراق ١٩١٤ — ١٩٣٢، (بغداد ، ١٩٧٨م)

الجزاهري، عماد أحمد: «الدور التاريخي للبصرة على الخليج العربي، ١٥٠٠ ـ ١٦٠٠م» مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية الكويت العدد ١٣ ـ ١٩

جودت، أحمد بن اسماعيل: تاريخ جودت، ترجمة عبد القادر الدنا، ج١، (بيروت ١٣٠٨هـ = ١٨٩٠م).

جودة، أحمد حسن: المصالح البريطانية في الكويت حتى عام ١٩٣٩ (بغداد، ١٩٧٩م)

حاكمة، أحمد مصطفى ابو: تاريخ شرقي الجزيرة العربية ١٧٥٠ ـ ١٨٠٠ وتطور الكويت والبحرين، ترجمة محمد انيس عبد الله (بيروت. لا. ت).

حامد، رؤوف عباس: الحركة العمالية في مصر ١٨٩٩ ـ ١٩٥٢، القاهرة، ١٩٦٥م)

الحتة، أحمد: تاريخ مصر الاقتصادي في القرن التاسع عشر، (الاسكندرية، ١٩٦٧م)

حتي، فيليب: تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين، ج٢ ـ ترجمة كمال البازجي، (بيروت، ١٩٥٩م)

حجار، جوزيف: أوربا ومصير الشرق العربي، حرب الاستعمار على محمد علي والنهضة العربية، ترجمة بطرس الحلاق وماجد نعمة (بيروت، ١٩٧٦م)

حجاف، لطف الله بن أحمد: درر نحور الحور العين في سيرة الامام المنصور علي ورجال دولته الميامين، نشر وتحقيق سيد مصطفى سالم (القاهرة، ١٩٧٥م)

حجي، محمد: الحركة الفكرية في عهد السعديين ج١، (الرباط، ١٩٧٧م)

حمزة : عبد اللطيف أحمد : الصحافة المصرية في مائة عام. (القاهرة. ١٩٦١م)

الحمود، نوفان : العسكر في بلاد الشام في القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين ، (بيروت ، ١٩٨١م)

حوراني، البرت : «الاسس العثمانية للشرق الاوسط الحديث» ، مجلة تاريخ العرب والعالم بيروت السنة (٢) العدد (١٥) كانون الثاني ١٩٨٠م.

حوراني، البرت : الفكر العربي في عصر النهضة ١٧٩٨ - ١٩٣٩. (بيروت ١٩٧٧م)

الحوراني ، هاني : التركيب الاقتصادي - الاجتماعي لشرق الاردن مقدمات - التطور المشوه ١٩٢١ - ١٩٥٠ ، (بيروت ، ١٩٧٨م)

الخازن ، فيليب وفريد : (جمع ونشر) مجموعة المحررات السياسية والمفاوضات الدولية عن سورية ولبنان ١٨٤٠ - ١٨٦٠ ، (بيروت ١٩١١م)

خدوري، مجيد : اسباب الاحتلال البريطاني للعراق، (الموصل، ١٩٣١م)

خدوري، مجيد : الاتجاهات السياسية في العالم العربي ، دور الافكار والمثل العليا في السياسة : ، (بيروت ، ١٩٧٣م)

خدوري، مجيد : ليبيا الحديثة في تطورها السياسي - ترجمة نقولا زيادة ، (بيروت ، ١٩٦٦م)

الخربوطلي ، علي حسني : «الاسلام والخلافة . (بيروت ، ١٩٦٩م)

الخربوطلي، علي حسني : غروب الخلافة «الاسلامية ، (القاهرة، ١٩٦٧م)

خزعل، حسين خلف الشيخ : حياة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، (بيروت، ١٨٦٨م)

الخصوصي ، بدر الدين عباس : «محمد علي والخليج العربي ١٨٣٨ - ١٨٤٠ دراسة موثقة» مجلة كلية «اداب والتربية ، جامعة الكويت، العدد (٥) حزيران ١٩٧٤م .

الخطيب ،عدنان : الشيخ طاهر الجزائري، رائد النهضة العربية في بلاد الشام (القاهرة ، ١٩٧١م)

الخطيب، محب الدين: (جمع) ، اللجنة العليا للحزب اللامركزية العثماني، المؤتمر العربي الاول ، (القاهرة ، ١٩١٣م) .

الخطيب، عبد الكريم : محمد بن عبد الوهاب ، العقل الحر والقلب السليم ، (القاهرة ١٩٦٠م)

خوري،واسماعيل ، أميل ــ وعادل: السياسة الدولية في الشرق العربي ج٢ (بيروت ، ١٩٦٠م)

الخوري،رئيف: الفكر العربي الحديث ، أثر الثورة الفرنسية في توجيهه السياسي والاجتماعي (بيروت ، ١٩٤٣م)

خميليونا ، ن . ك : اعداد الحملة الفرنسية لاحتلال الجزائر في ١٨٣٠» ترجمة هاشم صالح التكريتي،مجلة دراسات في التاريخ والاثار ــ بغداد العدد : (١) ١٩٨١م .

داغر، أسعد : ثورة العرب ، (القاهرة، ١٩١٧م)

الداؤد ،محمود علي : تاريخ العلاقات الدولية في الخليج العربي ١٨٩٠ ــ ١٩١٤م (القاهرة ، ١٩٦١م)

الدجاني ، احمد صدقي: الحركة السنوسية ، نشأتها ونموها في القرن التاسع عشر ، (بيروت، ١٩٧٦م)

درمونة ،يوسف : تونس بين الحماية والاحتلال ، (القاهرة ،لا ،ت).

دروزة، محمد عزة : تركيا الحديثة ،(بيروت ، ١٩٤٦م)

الدملوجي، صديق : مدحت باشا ، (بغداد ، ١٩٥٣م)

الدوري، عبد العزيز : نظرات في الوعي القومي ، (بغداد، ١٩٣٠م)

الدوري،عبد العزيز : الجذور التاريخية للقومية العربية،(بيروت، ١٩٦٠م)

الحديثي ، نزار عبد اللطيف : نظرة على التوجه القومي في السياسة المصرية بين ١٨٠٥ - ١٩٥٢م جريدة الثورة - بغداد ٢٦ تشرين الاول ١٩٧٨م
حراز ، السيد رجب: الدولة العثمانية والجزيرة العربية ، ١٨٤ - ١٩٠٩م (القاهرة ، ١٩٧٠م)
حسن ، جاسم محمد : العراق في العهد الحميدي ١٨٧٦ - ١٩٠٩م، رسالة ماجستير غير منشورة ، قدمت لجامعة بغداد ١٩٧٥م
حسن ، حسن ابراهيم: المجمل في التاريخ المصري ، (القاهرة ، ١٩٤٢م)
حسن ، محمد عبد الغني : أحمد فارس الشرياق ، (القاهرة لا. ت)
حسن ، محمد سليمان : التطور الاقتصادي في العراق ١٨٦٤ - ١٩٥٨م (صيدا ، ١٩٦٥م)
حسين ، فاضل - واخرون : تاريخ العراق المعاصر ، (بغداد ، ١٩٨٠م)
الحصري، ساطع : البلاد العربية والدولة العثمانية ط٣ (بيروت ، ١٩٦٥م)
الحكيم ، يوسف : بيروت ولبنان في عهد ال عثمان ط٢ ، (بيروت ١٩٨٠م)
حمدان ، جمال ، ستراتيجية الاستعمار والتحرير (القاهرة ، ١٩٦٨م)
حقي ، احسان : تونس العربية ، (بيروت لا. ت)
حقي ، احسان : الجزائر العربية ، ارض الكفاح المجيد ، (بيروت ١٩٦١م)
حقي ، مملوح : ليبا العربية ، (بيروت ، ١٩٦٢م)
الحلاق ، أحمد البديري : حوادث دمشق اليومية ، تحقيق أحمد عزت عبد الكريم ، (القاهرة ، ١٩٥٩م) .
حمدان، جمال : الاستعمار والتحرير في العالم العربي ، (القاهرة ، ١٩٦٤م)

الدوري، عبد العزيز : مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي ، (بيروت : ١٩٦٩م)
رووف، عماد عبد السلام : الموصل في عهد الحكم المحلي، (النجف، ١٩٧٥م)
الرافعي ، عبد الرحمن : مصر والسودان في أوائل عهد الاحتلال ، جـ٢١ (القاهرة، ١٩٤٨م)
الرافعي، عبد الرحمن: تاريخ الحركة القومية وتطور نشوء الحكم في مصر جـ١ ، جـ٢ (القاهرة، ١٩٤٨م)
الرافعي، عبد الرحمن: عصر محمد علي ، جـ٢، (القاهرة، ١٩٤٧م)
الرافعي، عبد الرحمن: عصر اسماعيل – جزءان، (القاهرة ١٩٤٨م)
الرافعي، عبد الرحمن: الثورة العرابية والاحتلال الانجليزي، (القاهرة، ١٩٤٩م)
الرافعي، عبد الرحمن: مصطفى كامل ، باعث الروح الوطنية، (القاهرة ١٩٤٩، ١٩٥٠م)
الرافعي، عبد الرحمن: مقدمات ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢، (القاهرة ، ١٩٥٧م)
الرافعي، عبد الرحمن: محمد فريد رمز الاخلاص والتضحية ، تاريخ مصر القومي في ١٩٠٨– ١٩١٩، (القاهرة ، ١٩٦٢م)
الرافعي، عبد الرحمن: الزعيم احمد عرابي ، (القاهرة ، ١٩٥٢م)
الرافعي، عبد الرحمن: جمال الدين الافغاني ، باعث نهضة الشرق ، ١٨٣٨–١٨٩٧ (القاهرة ، ١٩٦٧م)
رافق، عبد الكريم : بلاد الشام ومصر منذ الفتح العثماني حتى حملة نابليون بونابرت، ط٢ ، (دمشق، ١٩٦٨م)

رافق، عبد الكريم: «مظاهر الحياة العسكرية العثمانية في بلاد الشام من القرن ١٦ حتى القرن ١٩، » مجلة دراسات تاريخية ــ العدد الاول جامعة دمشق ١٩٨٠م

الراقد، محمد عبد المنعم السيد : الغزو العثماني بمصر ونتائجه على الوطن العربي ، (القاهرة، ١٩٧٢م)

رامزور، ارنست : تركيا الفتاة وثورة ١٩٠٨، ترجمة صالح احمد العلي ، (بيروت، ١٩٦٠م) .

رزق، يونان لبيب : الحياة الحربية في مصر في عهد الاحتلال البريطاني ١٨٨٢ ــ ١٩١٤ (القاهرة، ١٩٧٠م)

رزق، يونان لبيب : السودان في عهد الحكم الثنائي الاول ١٨٩٩ــ ١٩٢٤ ــ (القاهرة، ١٩٧٦م) .

رزوق ،أسعد : «نجيب عازوري الوحدوي المجهول» ، مجلة المستقبل العربي ــ بيروت العدد (١١) ١٩٧٨م .

رستم،أسد : الاصول العربية لتاريخ سوريا في عهد محمد علي باشا ــ مجلد ١ ــ ٥ (بيروت لا. ت) .

رضا، محمد رشيد : الوحدة الاسلامية والاخوة الاسلامية ، (القاهرة ــ دار النار ، ١٣٦٧هـ) .

رضا، محمد رشيد : الجامعة الاسلامية واراء كتاب الجرائد بها ، مجلة المنار جزء ٢٢(القاهرة، ١٣١٧هـ = ١٨٩٩م)

رضا،محمدرشيد: الاصلاح الديني المقترح على محاكم الخلافة الاسلامية، مجلة المنار مجلد ٢، جزء ٣٩، (١٣١٦هـ = ١٨٩٨م)

رفعت، محمد : التوجيه السياسي للفكرة العربية الحديثة،(القاهرة ١٩٦٤م)

رمضان، صالح : «تغلغل النفوذ الاوربي واثره في الحياة الاجتماعية في مصر في عصر الخديوي اسماعيل ١٨٦٣م ــ١٨٧٩م » ، مجلة المؤرخ العربي ــ بغداد العدد (١) ــ ١٩٧٥

رمضان، محمد رفعت : علي بك الكبير ، (القاهرة، ١٩٥٠م) .
الريحاني، أمين : تاريخ نجد الحديث، وملحقاته، (بيروت ، ١٩٥٤م).
روتشتين، تيودور: تاريخ المسألة المصرية من ١٨٧٥ – ١٩١٠ – ترجمة عبد المجيد العبادي ومحمد بدران ، (القاهرة ١٩٣٦م) .
ديفتسيوغلو، سنجر : «النموذج الاقتصادي للمجتمع العثماني في القرنين الرابع عشر والخامس عشر » ، مجلة الطريق، بيروت السنة ٢٨ – العدد ٨/ ١٩٦٩م
رياض، زاهر : السودان المعاصر منذ الفتح المصري حتّى الاستقلال (١٨٢١ – ١٩٥٣) ، القاهرة، ١٩٦٦م) .
ريو، جان بير : الثورة الصناعية ١٧٨٠ – ١٨٨٠ / ترجمة ابراهيم خوري (دمشق/ ١٩٧٥م) .
الزاوي، الطاهر أحمد : ولاة طرابلس من بداية الفتح العربي الى نهاية العهد التركي (بيروت ١٩٧٠م).
الزاوي، الطاهر أحمد: جهاد الابطال في طرابلس الغرب، (القاهرة، ١٩٥٠).
زايد، محمود : من احمد عرابي الى جمال عبد الناصر ، الحركة الوطنية، المصرية الحديثة (بيروت، ١٩٧٣م)
الزبيري، محمد العربي :مدخل الى تاريخ المغرب العربي الحديث،(الجزائر، ١٩٧٥م)
الزركلي، خير الدين : الاعلام، (القاهرة ، ١٩٥٥م)
يادة، خالد : اكتشاف التقدم الاوربي ،دراسة في المؤثرات الاوربية على العثمانيين في القرن الثامن عشر ، (بيروت ، ١٩٨١م).
زيادة، نقولا : تونس في عهد الحماية ١٨٨١ – ١٩٣٤، (القاهرة ، ١٩٦٣م) .

زيادة ، نقولا : ليبيا في العصر الحديث ، (بيروت ، ١٩٦٦م) .
زيادة ، نقولا : ابعاد التاريخ اللبناني الحديث، (القاهرة ، ١٩٧٢م) .
زيادة ، نقولا: محاضرات في تاريخ ليبيا من الاستعمار الايطالي الى الاستقلال ، (القاهرة ، ١٩٥٨م)
زيدان، جرجي : تاريخ التمدن الاسلامي حـ١ ، (القاهرة ، لا. ت)
زيدان، جرجي: تاريخ مصر الحديث جـ١، جـ٢، ط٢ ، (القاهرة ، ١٩١١م)
زيدان، جرجي: تاريخ مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر جـ١ جـ٢ ط٣ (بيروت لا. ت) تاريخ اداب اللغة العربية حـ١ ـ ٤
زين ، زين نور الدين : نشؤ القومية العربية ، (بيروت، ١٩٦٦م) .
زين، زين نورالدين : «التمثيل الشعبي وقوانين الانتخاب في المقاطعات العربية من الامبراطورية العثمانية » مجلة الابحاث ، السنة(١٦) جـ١ . آذار ١٨٦١م .
سالم ، مصطفى السيد ، الفتح العثماني الاول لليمن ١٥٣٨ ـ ١٦٣٥ ، ط٢ (القاهرة، ١٩٧٤م) .
سالم،مصطفى السيد ،تكوين اليمن الحديث. اليمن والامام يحيى ١٩٠٤ ـ ١٩٤٨ ، (القاهرة ، ١٩٦٣م) .
ستودارد ، لوثروب : حاضر العالم الاسلامي، ترجمة عجاج نويهض. جزءان (القاهرة، ١٣٤٣هـ).
سراج، الدين احمد : «الحركة التربوية وتطورها في سوريا ولبنان خلال القرن التاسع عشر» مجلة الابحاث، بيروت السنة (٤) الجزء (٣٠) ايلول ١٩٥١م.
سركيس، يعقوب: مباحث عراقية، جـ٢ (بغداد، ١٩٥٥م).

سرهنك، اسماعيل: حقائق الاخبار عن دول البحر ج١، (القاهرة، ١٣١٤هـ).
سعيد امين: الدولة العربية المتحدة ج٢، (القاهرة،لا.ت)
سعيد امين : :الثورة العربية الكبرى ٣ أجزاء (القاهرة ١٩٣٤م)
السعيد، رفعت: «شبلي شميل رائد الفكر العلمي في مصر»، مجلة الطليعة، القاهرة العدد (٧) تموز ١٩٦٩م.
السعيد،رفعت واخرون: طلائع الفكر الاشتراكي في مصر،(بيروت ، لات)
السعيد ، رفعت :تاريخ الفكر الاشتراكي مصر ، (القاهرة، ١٩٦٩م)
السعيد ، رفعت الاساس الاجتماعي للثورة العربية ، (القاهرة ، ١٩٦٦م)
السعيد ، نوري : محاضرات عن الحركات العسكرية للجيش العربي في الحجاز وسوريا ١٩١٦ – ١٩١٨م، (بغداد بغداد ، ١٩٤٧) م
سليم ، محمود رزق : عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والادبي ج١، (القاهرة ، ١٩٤٧م).
سليمان ، حكمة سامي : نفط العراق دراسة اقتصادية سياسية ، ط٢ ، (بغداد ، ١٩٧٩م).
السنوسي ، ابو عبدالله : العقيدة السنوسية ، (الجزائر ، ١٩٠٨م) .
السوداني ، صادق حسن : العلاقات العراقية السعودية ١٩٢٠ ١٩٣١: دراسة في العلاقات السياسية ، (بغداد ، ١٩٧٥م).
سويد ، ياسين :«البعد الاستراتيجي لحملة محمد علي على بلاد الشام »،مجلة الفكر الاستراتيجي العربي ،بيروت، السنة (١) العدد (٢) كانون الثاني ١٩٨٢م.
السويدي : عبد الرحمن بن عبد الله البغدادي : تاريخ حوادث بغداد والبصرة ١٧٧٢ – ١٧٧٨: تحقيق عماد عبد السلام رؤوف) (بغداد ، ١٩٧٨م).

السيار ، عائشة : دولة اليعاربة في عمان وشرق افريقيا في الفترة من ١٦٢٤ ـ ١٧٤١، (بيروت ، ١٩٧٥م).
السيد ، أحمد لطفي : صفحات مطوية من تاريخ الحركة الاستقلالية في مصر ، (القاهرة ، ١٩٤٦م).
السيد، احمد لطفي: : مبادئ في السياسة والادب والاجتماع ، تقديم وتعليق طاهر الطناحي ، (القاهرة ، لا . ت)
شارب ، أحمد ابو : «وثيقة برتغالية جديدة تتعلق بواقعة المليحة التي انهزم فيها البرتغاليون سنة ١٤٨٩ بجزيرة باللكوس »، مجلة كلية الاداب والعلوم الانسانية ، جامعة محمد بن عبد الله ، فاس. المغرب العدد (٢ ـ ٣) لسنتي ١٩٧٩ ـ ١٩٨٠م.
الشافعي ، شهدي عطية : تطور الحركة الوطنية المصرية ١٨٨٢ ـ ١٩٣٦ (القاهرة ، ١٩٥٧م) .
الشامخ ، عبد الرحمن : الصحافة في الحجاز ١٩٠٨ ـ ١٩٤١: دراسة ونصوص (بيروت ، ١٩٧١م)
شبر ، حكمة : الجوانب القانونية لنضال الشعب العربي من اجل الاستقلال (بغداد ، ١٩٧٤م).
شبيكة ، مكي : العرب والسياسة البريطانية في الحرب العالمية الاولى ، جزءان ، (بيروت ، ١٩٧١م).
شبيكة، مكي: السودان في قرن ، ط٢ ، (القاهرة ، ١٩٦١م).
شبيكة، مكي: السودان والثورة المهدية (الخرطوم ، ١٩٧٨م).
شبيكة، مكي: السودان عبر القرون ، ط٢ ، (بيروت ، ١٩٦٥م).
شبيكة ،مكي: تاريخ شعوب وادي النيل (مصر والسودان) في القرن التاسع عشر الميلادي ، (بيروت ، ١٩٦٥م).

الشرباصي ، أحمد : شكيب ارسلان داعية العروبة والاسلام ، (القاهرة ١٩٦٢م).
الشركسي ، محمد مصطفى : لمحات عن الاوضاع الاقتصادية في ليبيا اثناء العهد الايطالي (تونس ، ١٩٧٦م).
شريف ، ابراهيم : الشرق الاوسط ، (بغداد ، ١٩٦٥م).
شريف ، محمد بديع واخرون : دراسات تاريخية في النهضة العربية الحديثة ، (القاهرة ، ١٩٥٠م).
الشعر ، أمين أبو : (ناشر) مذكرات الملك عبد الله ط٢ (عمان ، ١٩٤٧م).
شكري ، محمد فؤاد : مصر في مطلع القرن التاسع عشر (١٨٠–١٨١١م). ٣ أجزاء (القاهرة ، ١٩٥٢م).
شكري، محمد فؤاد: مصر والسودان ، تاريخ وحدة وادي النيل السياسية في القرن التاسع عشر ١٨٢٠ – ١٨٩٩ (القاهرة ، ١٩٥٧م).
شكري، محمد فؤاد : السنوسية دين ودولة ، (القاهرة ، ١٩٤٨م)
شكري، محمد فؤاد: اوربا في القرن التاسع عشر ، الصراع بين البرجوازية والاقطاع ١٧٨٩–١٩٤٨ ، ٣ مجلدات (القاهرة ، ١٩٥٨م).
شكري، محمد فؤاد: الحملة الفرنسية وخروج الفرنسيين من مصر ، (القاهرة لا .ت)
شكري، محمد فؤاد: مصر والسيادة على السودان ، (القاهرة ، ١٩٦١م).
شكري،محمد فؤاد: الحملة الفرنسية وظهور محمد علي (القاهرة،لات) .
شكري، محمد فؤاد: عبد الله مينو وخروج الفرنسيين من مصر (القاهرة ١٩٥٢م).
شكري، محمد فؤاد: وآخرون ، بناء دولة ، مصر محمد علي ، السياسة الداخلية (القاهرة ، ١٩٤٨م) .

الشملي ، المنجي : خير الدين باشا (تونس ، ١٩٧٣م).
شميل ، شبلي : فلسفة النشوء والارتقاء ، المجلد ١-٢ (القاهرة ، ١٩١٠م)
شميل ، شبلي: مجموعة الدكتور شبلي شميل ، جـ١-٢ ، (القاهرة ١٩٠٩م)
الشناوي ، محمد عبد العزيز : الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها جـ١ - ٢ ، (القاهرة ، ١٩٨٠م)
الشناوى، محمد عبد العزيز: عمر مكرم بطل المقاومة الشعبية، (القاهرة ، ١٩٦٧م).
الشنيطي ، محمود : قضية ليبيا ، (القاهرة ، ١٩٥١م).
الشهابي ،مصطفى : القومية العربية ، (القاهرة ، ١٩٥٩م).
الشيال ، جمال الدين : الحركات الاصلاحية ومراكز الثقافة في الشرق الاسلامي الحديث ،جـ١ (القاهرة ، ١٩٥٧م) ، حـ٢ (القاهرة ، ١٩٥٨م)
الشيال، جمال الدين: تاريخ الترجمة والحركة الثقافية في عصر محمد علي. (القاهرة ، ١٩٥١م).
الشيخ ، رأفت غنيمي ، في تاريخ العرب الحديث ، (القاهرة ، ١٩٧٥م).
الصائغ ، انيس : الهاشميون والثورة العربية (بيروت ، ١٩٦٦م).
الصائغ ،انيس : الفكرة العربية في مصر (بيروت ، ١٩٥٩م).
صابات ، خليل : تاريخ الطباعة في الشرق العربي (القاهرة ، ١٩٥٨م).
صالح ، زكي : مقدمة في تاريخ العراق المعاصر (بغداد ، ١٩٥٣م).
صالح، زكي : المجمل في تاريخ العراق الدولي في العهد العثماني (القاهرة ، ١٩٦٦م)
صالح، محمد محمد : بريطانيا والعراق حتى ١٩١٤ دراسة في التاريخ الدولي والتوسع الاستعماري (بغداد ، ١٩٦٨م) .

صالح ، محمد محمد : تاريخ اوربا الحديث ١٨٧٠ ــ ١٩١٤ ط٢ ، (الموصل ١٩٨١م) .
الصباغ ، ليلى : المجتمع العربي السوري في مطلع العهد العثماني ، (دمشق ، ١٩٧٣م) .
الصباغ ، ليلى : «نحو تقويم جديد للحياة الفكرية في البلاد العربية في المرحلة الاولى من الحكم العثماني » ، مجلة اوراق ، مدريد العدد (٣) ، ١٩٨٠م .
صفوة ، محمد مصطفى : محاضرات في المسالة الشرقية ومؤتمر باريس، (القاهرة ، ١٩٧٨م) .
صفوة، محمد مصطفى : الاحتلال الانجليزي لمصر وموقف الدول الكبرى ازاءه ، (القاهرة ، ١٩٥٢م) .
صفوة، محمد مصطفى : مؤتمر برلين سنة ١٨٧٨ واثره في البلاد العربية، (القاهرة ، ١٩٥٧م) .
الصليبي ، كمال سليمان : تاريخ لبنان الحديث ، (بيروت ، ١٩٦٧م) .
الصوفي ، احمد : المماليك في العراق، (الموصل ، ١٩٥٢م) .
الضابط ،شاكر صابر : العلاقات الدولية ومعاهدات الحدود بين العراق وايران ، (بغداد ، ١٩٦٦م) .
ضرار ، ضرار صالح ، تاريخ السودان الحديث ، (بيروت ، ١٩٦٥م)
طرازى، فيليب دى: تاريخ الصحفق العربية (٤) أجزاء (بيروت ١٩١٣ـ ١٩٣٣م).
طه، عبد الرحمن علي: السودان للسودانيين، (لا.م، لا.ت)

الطهطاوي، رفاعة رافع : تخليص الابريز في تخليص باريز، او الديوان النفيس بايوان باريس، (القاهرة، ١٣٣٣هـ=١٩٠م).

الطهطاوي، رفاعة رافع: مناهج الالباب المصرية في مباهج الاداب العصرية، (القاهرة =١٢٣٠هـ =١٩١٢م).

الطهطاوي، رفاعة رافع : المرشد الامين للبنات والبنين، القاهرة (١٢٨٩هـ=١٨٧٢م).

الطهطاوي، رفاعة رافع : مقدمة وطنية مصرية، (القاهرة ١٢٨٣=١٨٦٦م)

الطيباوي، عبد اللطيف: "الشيخ ناصيف اليازجي في بعض رسائله وقصائده التي لم تنشر"، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، جـ٢ الجلد(٤٣)نيسان، ١٩٦٨م.

العابد، صالح محمد: دور القواسم في الخليج العربي ١٧٤٧-١٨٢٠م (بغداد، ١٩٧٦م).

العابد، صالح محمد: موقف بريطانيا من النشاط الفرنسي في الخليج العربي، ١٧٩٨-١٩١٠، (بغداد، ١٩٧٩م).

عازوري، نجيب: يقظة الامة العربية، ترجمة أحمد ابو ملحم (بيروت ،١٩٧٨م)

عامر، احمد بن: تونس عبر التاريخ ، (تونس، ١٨٦٠م).

عباس، احسان: تاريخ ليبيا، (بيروت، لا.ت)

عبد الرحيم، عبد الرحيم عبد الرحمن: الدولة السعودية الاولى ١٧٤٥ هـ ١٨١٨ (القاهرة، ١٩٦٩م).

عبد الكريم، احمد عزت: التقسيم الاداري لسوريا في العهد العثماني حوليات كلية الاداب بجامعة دمشق، مجلد (١) مايو أيار ١٩٥١م.

عبد الكريم ، احمد عزت: دراسات في تاريخ العرب الحديث، (بيروت ١٩٧٠م).

عبد الله ، مصطفى : المجمل في تاريخ ليبيا ، (لا. م ١٩٤٧م) .
عبد الناصر ، جمال : فلسفة الثورة ، (القاهرة ، ١٩٥٣م) .
عبده ، ابراهيم : تاريخ الطباعة والصحافة في مصر خلال الحملة الفرنسية (القاهرة ، ١٩٤١م) .
عبده ، محمد : الاسلام والرد على منتقديه ، (القاهرة ، ١٩٢٨م) .
عبدة ،محمد: رسالة التوحيد ، (القاهرة ، ١٩٧١م) .
عبده، محمد : الاسلام بين العلم والمدنية ، (القاهرة ، ١٩٦٠م) .
عبد الوهاب ، حسن حسني : خلاصة تاريخ تونس ، (تونس ،١٩٧٦م).
عبد الوهاب ، سليمان بن عبد الله بن محمد بن : كتاب التوضيح عن توحيد الخلاف في جواب اهل العراق (القاهرة ، ١٩٠١م) .
العبيدي ، ابراهيم خلف : الحركة الوطنية في الجنوب اليمني ١٩٤٥ — ١٩٦٧ (بغداد ، ١٩٧٩م) .
العثيمين ، عبد الله صالح : الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، حياته ، وفكره (الرياض ، ١٩٧٩)
العثيمين، عبدالله صالح : «موقف سليمان بن يحيى من دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب »، مستلة من مجلة الاداب بجامعة الرياض، المجلد (٥)، ١٩٧٧ — ١٩٧٨م
العدول، جاسم محمد: العراق في العهد الحميدي، رسالة ماجستير غير منشورة قدمت لجامعة بغداد سنة ١٩٧٥م.
العدول، جاسم محمد: «عروج، دوره في احداث المغرب العربي»، وحوض البحر المتوسط الغربي»، مجلة التربية والعلم، الموصل العدد الثاني شباط ١٩٧٠م .
عرابي، احمد: مذكرات احمد عرابي (القاهرة ١٩٥٣م) .

العروي، عبد الله: تاريخ المغرب العربي، محاولة التركيب ترجمة ذوقان فرقوط، (بيروت، ١٩٧٧م).
العزاوي، عباس: تاريخ العراق بين احتلالين، ٨ أجزاء (بغداد، ١٩٥٥-١٩٥٦م).
عز الدين، امين: تاريخ الطبقة العاملة المصرية منذ نشأتها حتى ١٩١٩، (القاهرة ١٩٦٧م).
عز الدين، يوسف: تطور الفكر الحديث في العراق، (بغداد، ١٩٧٦م).
العطار، نادر: تاريخ سوريا في العصور الحديثة، جزءان، (دمشق، ١٩٦٢م).
عطية، غسان: «التنظيم الحزبي في العراق قبل الحرب العالمية الاولى»، مجلة دراسات عربية، بيروت، السنة (٢١) العدد (١٢) تشرين الاول ١٩٧٣م.
عفاص، بهنام فضيل: تاريخ الطباعة العراقية»، مجلة المورد، بغداد المجلد (١٠)، العدد ٣-٤، ١٩٨١م.
العقاد، صلاح: المغرب العربي ط٢، (القاهرة، ١٩٦٦م).
العقاد، صلاح: الاستعمار في الخليج العربي، (القاهرة، لا.ت)
العقاد، صلاح: ليبيا المعاصرة (القاهرة، لا.ت)
القعاد، صلاح: التيارات السياسية في الخليج العربي، (القاهرة، لا.ت)
العقاد، عباس محمود: محمد عبده، ط٢، (القاهرة لا.ت)
علوش، ناجي: (جمع وتقديم) اديب اسحق، الكتابات السياسية والاجتماعية (بيروت، ١٩٧٨م).
علي، علي شاكر: تاريخ العراق في العهد العثماني ١٦٣٨-١٧٥٠م. رسالة ماجستير غير منشورة، قدمت لجامعة بغداد سنة ١٩٧٦
علي، علي شاكر: «موقف الدولة العثمانية من الغزو الفارسي الثاني للعراق ١٦٢٣-١٦٣٨»، مجلة الجامعة، الموصل، العدد ٩-١٠ حزيران ١٩٨٢م.

عمارة، محمد: الجامعة الاسلامية والفكرة القومية عند مصطفى كامل، (بيروت، ١٩٧٦م) .

عمارة ، محمد : (تحقيق) الاعمال الكاملة لرفاعة رافع الطهطاوي ، (القاهرة، ١٩٧٣م) .

عمارة ، محمد : (دراسة وتحقيق) الاعمال الكاملة لجمال الدين الافغاني (القاهرة،١٩٦٨)

عمارة ، محمد : تحقيق) الاعمال الكاملة لعبد الرحمن الكواكبي ، (بيروت، ١٩٧٥)

عمارة ، محمد : العرب والتحدي ، (الكويت ، ١٩٨٠م) .

عمر، عمر عبد العزيز: دراسات في تاريخ العرب الحديث والمعاصر (بيروت ١٩٧٥م).

عمر،عمر عبد العزيز: :المشرق العربي من الفح العثماني حتى نهاية القرن الثامن عشر القاهرة. (القاهرة، ١٩٧١م).

عنان، محمد عبد الله: نهاية الاندلس وتاريخ العرب المنتصرين، ط٢ (القاهرة، ١٩٦٦م) .

عوض، احمد حافظ: فتح مصر الحديث: اوّ نابليون بونابرت في مصر ، (القاهرة، ١٩٢٥م).

عوض، عبد العزيز محمد: الادارة العثمانية في ولاية سوريا ١٨٦٤ - ١٩١٤) القاهرة، ١٩٦٩م) .

عوض، لويس: تاريخ الفكر المصري الحديث ج٢ (القاهرة، ١٩٦٩م)

عيسى، صلاح: «البرجوازية العربية واسلوب المفاوضة ، ايديولوجية المدن المفتوحة». مجلة افاق عربية، بغداد العدد (٤) كانون الاول ١٩٧٥ م.

عيسى، صلاح: :الثورة العرابية، (بيروت، ١٩٧٢م) .

غرايبة، عبد الكريم محمود: مقدمة في تاريخ العرب الحديث، ١٥٠٠-١٩١٨، (دمشق، ١٩٦٠م).

غرايبة، عبد الكريم محمود: العرب والاتراك (دمشق، ١٩٦١م).

غرايبة ،عبد الكريم محمود : سوريا في القرن التاسع عشر ١٨٤٠-١٨٧٦(القاهر ١٩٦٢م).

غربال، محمد شفيق: محمد علي الكبير (القاهرة، ١٩٤٤م).

الغصين، فائز : المظالم في سوريا والعراق والحجاز (العقبة، ١٩١٨م).

الغملاس، ابن: ولاة البصرة ومتسلموها من تأسيس البصرة، حتى نهاية الحكم العثماني، (بغداد، ١٩٦٢م).

غنام ، حسين بن : تاريخ نجد ، (القاهرة، ١٩٦١م).

الغنام، سليمان محمد: قراءة جديدة لسياسة محمد علي التوسيعية (جدة ١٩٨٠م).

فائق، سليمان: تاريخ المماليك (الكولة مند) ترجمة عن التركية محمد نجيب الارمنازي (بغداد، ١٩٦١م).

فاخوري، عمر: كيف ينهض العرب، نشره عبد اللطيف فاخوري (بيروت ،لا.ت).

فهمي، عبد السلام عبد العزيز: فتح القسطنطينية، (القاهرة ١٩٦٩م).

الفياض، عبدالله: الثورة العراقية الكبرى، (بغداد، ١٩٦٣م).

قازان، فؤاد: "الاقطاعية ومراحل تطورها في عهد المماليك"، مجلة الطريق، بيروت، السنة ٢٨ العدد (٨)، ١٩٦٩م.

قاسم، جمال زكريا: الخليج العربي ١٨٤٠-١٩١٤ (القاهرة، ١٩٦٦م).

قاسمية، خيرية : الحكومة العربية في دمشق ١٩١٨-١٩٢٠ (القاهرة ١٩٧١م).

قاسمية، خيرية: النشاط الصهيوني في الشرق العربي وصداه، ١٩٠٨-١٩١٨ (بيروت، ١٩٧٣)م.

قدورة، زاهية: ((نجيب عازوري والقومية العربية))، مجلة تاريخ العرب والعالم، السنة (١٣) العدد (٢٦و٢٧) كانون الاول ١٩٨٠ وكانون الثاني ١٩٨١م.

قرالي، الاب لويس: فخر الدين المعنى الثاني، امير لبنان، ادراته وسياسته (بيروت، ١٩٣٧)م.

قلعجي، قدري: مدحت باشا ابو الدستور العثماني وخالع السلاطين ط٣، (بيروت، ١٩٥٨)م.

القمودى، محمد صالح: ((نابليون هذا المهدي المنتظر وسموم الاستشراق)) مجلة العربي، الكويت ٢ آب، ١٩٨١م.

القهواتي، حسين محمد :دور البصرة التجاري في الخليج العربي ١٨٦٩-١٩١٤م (بغداد، ١٩٨٠)م.

القهواتي، حسين محمد: العراق بين الاحتلالين العثمانيين الاول والثاني ١٥٣٤- ١٦٣٨م رسالة ماجستير قدمت لجامعة بغداد سنة ١٩٧٥، وهي غير منشورة.

القيسي، عبد الوهاب: ((حركة الاصلاح في الدولة العثمانية وتأثيرها في العراق ١٨٣٩-١٨٧٧)) مستلة من مجلة كلية الآداب، جامعة بغداد، العدد (٣) كانون الاول ١٩٦١م.

كرابتس، بيير : اسماعيل المفتري عليه، ترجمة فؤاد صروف، (القاهرة، ١٩٣٣) .

كرامرز، ((تنظيمات)) دائرة المعارف الاسلامية الطبعة العربية، المجلد (١٠) ص٧٨-٨١.

كرومر ، اللورد : الثورة العرابية ، ترجمة عبد العزيز عرابي ، (القاهرة، ١٩٥٨).

كرومر ، اللورد : مصر الحديثة جـ١ ترجمة اسكندر مكاريوس ، (القاهرة ، ١٩٠٩) .

كريم ، مصطفى : «مسألة غزو ايطاليا الاستعماري لليبيا» ، المجلة التاريخية المغربية عدد (٥) يوليو ١٩٧٦ .

كلوت ، أ . ت : لمحة عامة الى مصر ، جزءان ، ترجمة محمد مسعود، (القاهرة لا . ت) .

الكواكبي ، عبد الرحمن : ام القرى ، (القاهرة ، ١٩٢١) م.

الكواكبي،عبدالرحمن : طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد ، (القاهرة ، ١٩٢١م) .

كوبرلي ، محمد فؤاد : قيام الدولة العثمانية ، ترجمة أحمد السعيد سليمان، (القاهرة ، ١٩٦٥) .

كوثراني ، وجيه (تقديم ودراسة) مختارات من مجلة المنار ، رشيد رضا، (بيروت ، ١٩٨٠) م.

كوثراني ، وجيه: : الاتجاهات الاجتماعية والسياسية في جبل لبنان والمشرق العربي ١٨٦٠ — ١٩٢٠ ، (بيروت ، ١٩٧٦)م.

كوثراني ، وجيه : (أعداد) وثائق من التاريخ «وضع السلطنة العثمانية ومشروع محمد علي باشا» ، مجلة تاريخ العرب والعالم ، السنة (٢) العدد (١٤) ، كانون الاول ١٩٧٩م، ص ٣٦ — ٤٤ .

كوتلوف ، ل . ن : ثورة العشرين الوطنية التحررية ، ترجمهُ عن الروسية عبد الواحد كريم ، (بغداد ، ١٩٧١)م .

الكيالي ، عبد الوهاب : الجذور التاريخية للتحالف الامبريالي الصهيوني، (بيروت ، ١٩٧٧)م .

كيلي ، جي ، بي : الحدود الشرقية لشبه الجزيرة العربية ، تعريب وتعليق خيري حماد ، (بيروت ، ١٩٧١) م.
لاشين ، عبد الخالق محمد : سعد زغلول ، (القاهرة ، ١٩٧٠م) .
لاندز ، دافيد : بنوك وباشوات ، ترجمة عبد العظيم أنيس (القاهرة ١٩٦٦)م .
لبيب ، حسين : تاريخ الاتراك العثمانيين ، ٣ أجزاء ، (القاهرة ، ١٩١٧م)
لنشوفسكي ، جورج : الشرق الاوسط في الشؤون العالمية ، جزءان ، ترجمة جعفر خياط ، (بغداد ، ١٩٦٤)م .
لوتسكي ، فلاديمير بوريسوفتش : تاريخ الاقطار العربية الحديث ، ترجمة عفيفة البستاني ، (موسكو ، ١٩٧١)م .
لوريمر ، ج . ح : دليل الخليج ، القسم التاريخي ج ١ ، ترجمة مكتب الترجمة بديوان حاكم قطر ، (الدوحة ، ١٩٦٧)م .
لونكريك ، ستيفن همسلي : اربعة قرون من تاريخ العراق الحديث ، ترجمة جعفر خياط ، ط ٥ ، (بغداد ، لا . ت).
لينين ، فلاديمير ايليتش : الاستعمار اعلى مراحل الرأسمالية . ترجمة ، راشد البراوى ، (القاهرة ، لا . ت) .
المؤمن ، مكي : قراءة في اراء نجيب عازورى ، مجلة مركز الدراسات الفلسطينية ، بغداد ، كانون الثاني ، ١٠ آذار ١٩٨٠م .
المؤمن ، مكي وعلي عجيل منهل : من طلائع يقظة الامــة العربيــة ، (بغداد ، ١٩٨١م) مؤنس ، حسين : الشرق الاسلامي في العصر الحديث (القاهرة ، ١٩٣٨م) متولي ، احمد فؤاد : «جوانب من كفاح السعوديين الاوائل ، فجر الدولة السعودية الاولى» ، مجلة الدارة الرياض ، (١٩) .
مجموعة التنظيمات العثمانية المنشورة باسم (الدستور) ترجمه عن التركية نوفل نعمة الله نوفل مجلد ١ ، ٢ (بيروت ١٣٠١هـ = ١٨٨٤م) .

محافظة . علي : الاتجاهات الفكرية عند العرب في عصر النهضة ١٧٩٨ ــ ١٩١٤ (بيروت . ١٩٧٨م) .

محمد . فاضل زكي : الفكر السياسي العربي الاسلامي بين ماضيه وحاضره ط ٢ (بغداد . ١٩٧٦م) .

محمود . حسن سليمان : تاريخ السودان ، (الخرطوم ، ١٩٥٧م)

مدثر . عبد الرحيم : الامبريالية والقومية في السودان ١٨٩٩ ــ ١٩٥٦ ، (بيروت ، ١٩٧١م) .

مدحت باشا : مذكرات مدحت باشا ، نشرها ابنه علي مدحت باشا ، تعريب يوسف كمال ، (القاهرة ، ١٩١٣م) .

المدرس ، فهمي : مقالات ، ح ١ ، (بغداد ، ١٩٣١م) .

المدني ، : حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر واسبانيا ١٤٩٢م ــ ١٧٩٢م (قسنطينه . لا . ت) .

المرزوقي ، محمد : صراع مع الحماية ، (تونس ، ١٩٧٣م) .

مسعود ، محمد : موجز تاريخ ليبيا الحديث ، (بيروت ، لا . ت)

مصطفى ، أحمد عبد الرحيم : تاريخ مصر السياسي من الاحتلال الى المعاهدة ، (القاهرة ، ١٩٦٧م) .

مصطفى، احمد عبدالرحيم : حركة التجديد الاسلامي في العالم العربي الحديث (القاهرة ، ١٩٧١) م.

مصطفى ، احمد عبد الرحيم ، في اصول التاريخ العثماني ،(بيروت،١٩٨٢)

مصطفى ، [illegible] : نقد حالة الفن العسكري والهندسة والعلوم في القسطنطينية ١٨٠٣ ، تحقيق خالد زيادة ، (بيروت ، ١٩٧٩م) .

المعلوف ، عيسى إسكندر : تاريخ الامير فخر الدين المعنى الثاني ، ط٢ (بيروت ، ١٩٦٦م) .

المفرجي ، احمد فياض : «الحياة المسرحية في العراق ١٨٨٠ ــ ١٩٢٠م»

مجلة السينما والمسرح، العدد (١) السنة ١٩٨١م.

المقدسي، انيس : الاتجاهات الادبية في العالم العربي الحديث (بيروت ١٩٧٤م) .

المنجد، صلاح الدين : ولاة دمشق في العهد العثماني، (دمشق، ١٩٤٩م) .

منسي، محمد صالح : حركة اليقظة العربية في الشرق الاسيوي (القاهرة ١٩٧١م) .

المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تقرير لجنة استراتيجية التربية في البلاد العربية، اعداد محمد أحمد الشريف واخرون، (بيروت ١٩٧٩م) .

منهل علي عجيل : "شبلي شميل سياسيا ومفكراً ومصلحاً اجتماعياً ملاحظات وتأملات"، مجلة قضايا عربية السنة (٥) العدد (٤) تموز آب ايلول ١٩٧٨م.

المهدي ، الصادق : يسألونك عن المهدية، (القاهرة، ١٩٧٥م) .

المهدي ، محمد أحمد : منشورات المهدية، تحقيق محمد ابراهيم ابو سليم (بيروت، ١٩٦٩م) .

موسى، سليمان : (تحرير) المراسلات التاريخية ١٩١٤– ١٩١٨ الثورة العربية الكبرى (عمان، ١٩٧٣) .

موسى، سليمان : الحركة العربية، سيرة المرحلة الاولى للنهضة العربية الحديثة ١٩٠٨ – ١٩٢٤ (بيروت، ١٩٧٠م) .

موسى سليمان : "من الرعيل الاول محب الدين الخطيب"، مجلة افكار، عمان العدد (٤٣) كانون الثاني ١٩٧٨م.

موسى، منير : الفكر العربي في العصر الحديث ، سوريا في القرن التاسع عشر حتى ١٩٠٨ (بيروت ، ١٩٧٣م) .

موير، وليم: تاريخ دولة المماليك في مصر ١٢٦٠ ـ ١٥١٧م، ترجمة عابدين سليم حسن، (القاهرة، ١٩٢٤م) .
النجار، حسين فوزي: بريطانيا والجنوب العربي، (القاهرة، ١٩٦٧م) .
النجار، حسين فوزي: :الشرق العربي بين حربين، (القاهرة، ١٩٦٤م).
النجار، مصطفى عبد القادر: التاريخ السياسي لمشكلة الحدود الشرقية للوطن العربي في شط العرب، (البصرة، (١٩٧٤م) .
النجار، مصطفى عبد القادر : : التاريخ السياسي لامارة عربستان العربية ١٨٩٧ — ١٩٢٥، (القاهرة، ١٩٧١م) .
النجم، غالب حامد: تطور الحركة الوطنية في السودان ١٩٢٢ ـ ١٩٥٦ (بغداد، ١٩٨١م) .
نحله، محمد يوسف، تطور الحركة الوطنية في تونس ١٨٨١ ـ ١٩٥٦م، رسالة ماجستير غير منشورة قدمت الى الجامعة المستنصرية ، ١٩٨١
النحاس، ميخائيل: الدور ط٢ (بيروت، ١٩٠٩م) .
نسيبة ، حازم زكي : القومية العربية فكرتها نشأتها تطورها ترجمة فلسطين زريق ط٢ (بيروت، ١٩٦٢م) .
نعوم،شقير: تاريخ السودان الحديث وجغرافيته ، ط٣ (القاهرة ،١٩٠٣م).
نوار، عبد العزيز سليمان: محاضرات في تاريخ الشرق الادبي الحديث ، القيت على طلبة كلية التربية/ جامعة بغداد / للسنوات ١٩٦٥ — ١٩٦٧م . وهي غير منشورة .
نوار ، عبد العزيز سليمان : مصر والعراق ، دراسة في تاريخ العلاقات بينهما حتى نشوب الحرب العالمية الاولى (القاهرة، ١٩٦٨م) .
نوار ، عبد العزيز سليمان : داود باشا والي بغداد (القاهرة، ١٩٦٨م).
نوار ، عبد العزيز سليمان : مصر والخليج العربي في القرن التاسع عشر ، مجلة

الهلال القاهرة نوفمبر ١٩٦٤م .
نوار ، عبد العزيز سليمان : وثائق اساسية من تاريخ لبنان الحديث ١٥١٧ — ١٩٢٠ (بيروت، ١٩٧٤م) .
نوار ، عبد العزيز سليمان : « بين العراق ومصر في القرن التاسع عشر » ، مجلة الهلال القاهرة، السنة ٧٢ العدد (٨) اول آب ١٩٦٤م .
نوار ، عبدالعزيز سليمان : تاريخ العراق الحديث، (القاهرة ، ١٩٦٨)م .
نوار ، عبد العزيز سليمان : المصالح البريطانية في انهاء العراق ، (القاهرة، ١٩٦٨م)
نوار ، عبد العزيز سليمان : التاريخ الحديث للشعوب الاسلامية، (بيروت، ١٩٧٠م)
نورس، علاء موسى كاظم: حكم المماليك في العراق. (بغداد ، ١٩٧٥م)
نورس ، علاء موسى كاظم : العراق في العهد العثماني ، دراسة في العلاقات السياسية ١٧٠٠ — ١٨٠٠ (بغداد، ١٩٨٥م) .
نورس، علاء موسى كاظم : «مدى مسؤولية الانكشارية في تدهور الدولة العثمانية» ، مجلة كلية الاداب ، بغداد، ، العدد (٣٠) تشرين الثاني ١٩٨١م .
نورس، علاء موسى كاظم: «الاصلاح الاداري العثماني بين النظرية والواقع مجلة دراسات في التاريخ والاثار ، بغداد ، السنة (١) العدد (١٢) ١٩٨٢م .
نوسشي ، اندره : الصراعات البترولية في الشرق الاوسط ، ترجمة عن الفرنسية اسعد محفل (بيروت ، ١٩٧١م) .
هرشلاغ ، زفي يهودا ، التاريخ الاقتصادي الحديث للشرق الاوسط ، ترجمة مصطفى الحسيني ، (بيروت ، ١٩٧٣م) .
الهشي ، سليم : «رسالة من اللورد بالمرستون الى الامير بشير الشهابي » مجلة دراسات عربية. السنة ١٨ العدد (٣) كانون الثاني ١٩٨٢م.

الهلالي، عبدالرزاق : تاريخ التعليم في العراق في العهد العثماني، (بغداد، ١٩٥٩م).

هيرلد ، كرستوفر : بونابرت في مصر، ترجمة فؤاد اندراوس، (القاهرة، ١٩٦٧م).

هولت، ب. م. المهدية في السودان، ترجمة جميل عبيد ، (القاهرة، لا . ت).

الوردي. علي : لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث، جـ١ – ٣ (بغداد ١٩٦٩ – ١٩٧٦م).

وهيب، طالب محمد : مملكة الحجاز ١٩١٦– ١٩٢٥ : دراسة في الاوضاع السياسية (البصرة ، ١٩٨٢م).

ويلسون، ارنولد تالبوت : الخليج العربي، ترجمة عبدالقادر يوسف، (الكويت ، لا . ت).

ياخيموفتش، ز . ب : الحركة التركية – الايطالية ١٩١١– ١٩١٢ ترجمة هاشم صالح التكريتي (بنغازي ، ١٩٧٠م).

يحيى ، جلال : السياسة الفرنسية في الجزائر ١٨٣٠ – ١٩٦٠، (القاهرة لا ت).

يحيى ، جلال : العالم العربي الحديث (القاهرة ، ١٨٦٥م).

يحيى ، جلال : الثورة المهدية واصول السياسة البريطانية ، (القاهرة ، ١٩٥٩م).

يحيى، و المرزوقي ، الجيلاني بن الحجاج – ومحمد : معركة الزلاج ، (تونس ، ١٩٧٤م).

بنكاكيا، انتوني جوز : ليبيا في العهد العثماني، ترجمة يوسف العسلي (بيروت ، ١٩٤٦م).

بنكاكيا، انتوني جوز : طرابلس الغرب تحت حكم اسرة القرمانلي ترجمة طه فوزي ، (القاهرة ١٩٦١م).

—Foster,Henry,A–:TheMaking ofModern Iraq,(oklahoma, 1935)
Gibbons, Herbet, The Foundation of the otto - man Empire, (london, 1960)

—Haslusk. F. W. –: Christanty and Islam under the sultan, Vol, I. (Oxford, 1929)

—Holt, P. M., (ed) political and social change in Modern Egypt, (London, 1968)

—Holt, P. M., Modern History of the Sudan, (London, 1973)

—The Mahdi state in sudan (Oxfod, 1963)

—Hurewits, J. C.,–: Diplomacy in the Near and Middle East. Vol. II. (New York 1963)

—Jastrow, Morris–: The War and the Baghdad Railway (London 1917)

—Lamartine .A. De. –: History of Turkey 2. Vols. (New York 1855)

—Lane–pool,Stanly.:History of the Nations Turkey, (London,n.d)

—Lewis, Bernard–: The Emergence of Modern Turkey (London, 1960)

—Inalcik, Halil, The ottoman Empire (London, 1973)

—Lughod, Ibrahim Abu–: The Islamic Influence on Khayr AL–Din of Tunis, In Donald. P. Little. (ed) Essays on Islamic Civilization. presented Niyazin Berkes, (London 1976) .

—Lybyer, Albert –: The Turkish Parliament (Bultimore, 1910).

—Lyber, Albert, The Government of ottoman Empire in the Time of Suleiman The Magnificent, (New York, 1966)

—Ma'os, Mosha–: Ottoman Reform in syria and palestin 1840 –1861, Impact of the Tenyzimat on politics and society, (Oxford. 1968)

—Ahmad, Feroz–: The Young Turks, (Oxford, 1969)

—AL Sayyid marsot, Áfaf Lutfi(The Beginings of Moderiniz-tion among the Rectors of al-Azhar 1798–1879):–in william. R. Polk. and Richard. L. Chambeers. (ed), Beginnings of modernnization inthe Middle East (C-higaace, 1963)

—Atiya, Ghassn. R.–: Iraq 1808–1921 Asocio–ploitical stu-dy (Beirut, 1973)

—Baer, Gabriel–: Social Change in Egypt 1800–1914. in P. M. Holt, (ed). Political, and socical change in Modern Egypt (london, 1968)

—Blunt, W. S–: The Future of Islam, (London 1882)

—Brig, John–: The Bektsahi order of Dervishes (Bristol,1-937)

—Bullard, Readar–: Britain and the Middle East (London, 1951)

—Creasy, Edward, History of the ottoman Turks (New Y-ork, 1877)

—Davison, Rodric–: Reform in the ottoman Empire 1856–1876 (London, 1963)

—Dohsson, mouradja–: Tableau general de Empire ottoman — (paris, 1788–1824)

—Earle, E. M. –: Turkey, the Great powers and the Baghdad Railway, Wewy York, 1935)

—Edib, Halide–: Conflict of East and west in Turkey (Lohare, 1933)

—Eliot, Charles, Turkey in Europ, (London 1965)

—Engelehardt, La Turquie et Le Tanzimat, 2vols (paris 1882)

—Eversley, Lord: The Turkish Empire, Its Growth and De-cay, (London 1959)

—Marlow, John–: Anglo – Egyption Relations 1800–1956) London 1965)

—Mazzaoui, Michel. M.– : (Global policies of sultan selim 1512– 1520," in Donald, P. little (ed) Esssys on Islamic civilization (Leden, 1976)

—Micaud, Charles, A–: Tunisia, the politics of Modernizar-ion, (Londan 1964)

—Miller, william–: The Ottoman Empire 1801– 1913 (London 1913)

—Monro, Elizabith–; Britain's Moment in the Middle East 1914– 1956 (London, 1963)

—Moore, Henry clement–: Tunisia since Independence, (Los Angeles, 1963)

—Muir, William, –: The Caliphate: Its rise, decline and full (Edimburgh, 1924)

—Olsen, Robert–: The Siege of Mosul and ottoman – persion Relation 1714– 1743 (Bloomington 1975)

—Polk, William. R. and Richare L Chambers: Beginnings of Modernization in the middle East, The Nineteeth Century, (Chigago, 1968) Pool, Stanly Lane–: life of stonford Caning. Vol. II

—Qaysi, Abdal wahhab Abbas–: The Impact of Modernization on Iraqi society during the ottoman Era. A. Study of intellectual Development in Iraq 1869– 1969 Adissertation snbmitted for degree of Doctor of Philosphy in the university of Michigan 1958, unpublished.

—Reis, Sidi Ali–: The Travels and Adventuress of the Turkkish Admiral, in India, Afghanistan, Central Asia and Persia, during the year 1533– 1556) Trans lated from the Turkish, by A. Vambery (London 1899)

—Saab, Hassan, the Arab federalists of the ottoman Empire (Amsterdam 1958)

— Saleh, Zaki–: Mesopotamia, 1600– 1914, Astudy in British Forsign Affairs, (Baghdad 1957)

—Shaw,. stanford. J. –: History of the ottoman Empire and Modern Turkey Vol. I. (Cambridgu 1977)

—Show, stanford and Ezel Kural shaw, History of Ottomon Empire and Modern Turkey, Vol, ii, (Cambridge, 1977)

—Shibeika. M. – Lndependent of sudan, (New York, 1959)

—Stripling, Georye, W. F, The Ottomon Tnrks and Arabs, (Urbana, Illinoi's 1942)

—Sykes, Mark–: The Caliphes Last Heritage (London, 1915)

—Thomas David –: The first Arab Congress and the committee of Union and progress 1913– 1914" in Donald. P. Little (ed) Essays on Islamic civilzation, presented to Niyazi Berkes (Leiden , 1976).

—Toynbee, Arnold–: Astudy of History , Vol. I., (Oxford, 1945)

—Wittek, paul –: The Rise of the ottoman Empire, (London, 1938)

—Zayid, Mahmud –: Egypt's struggle for Independence, (Beriut, 1960)

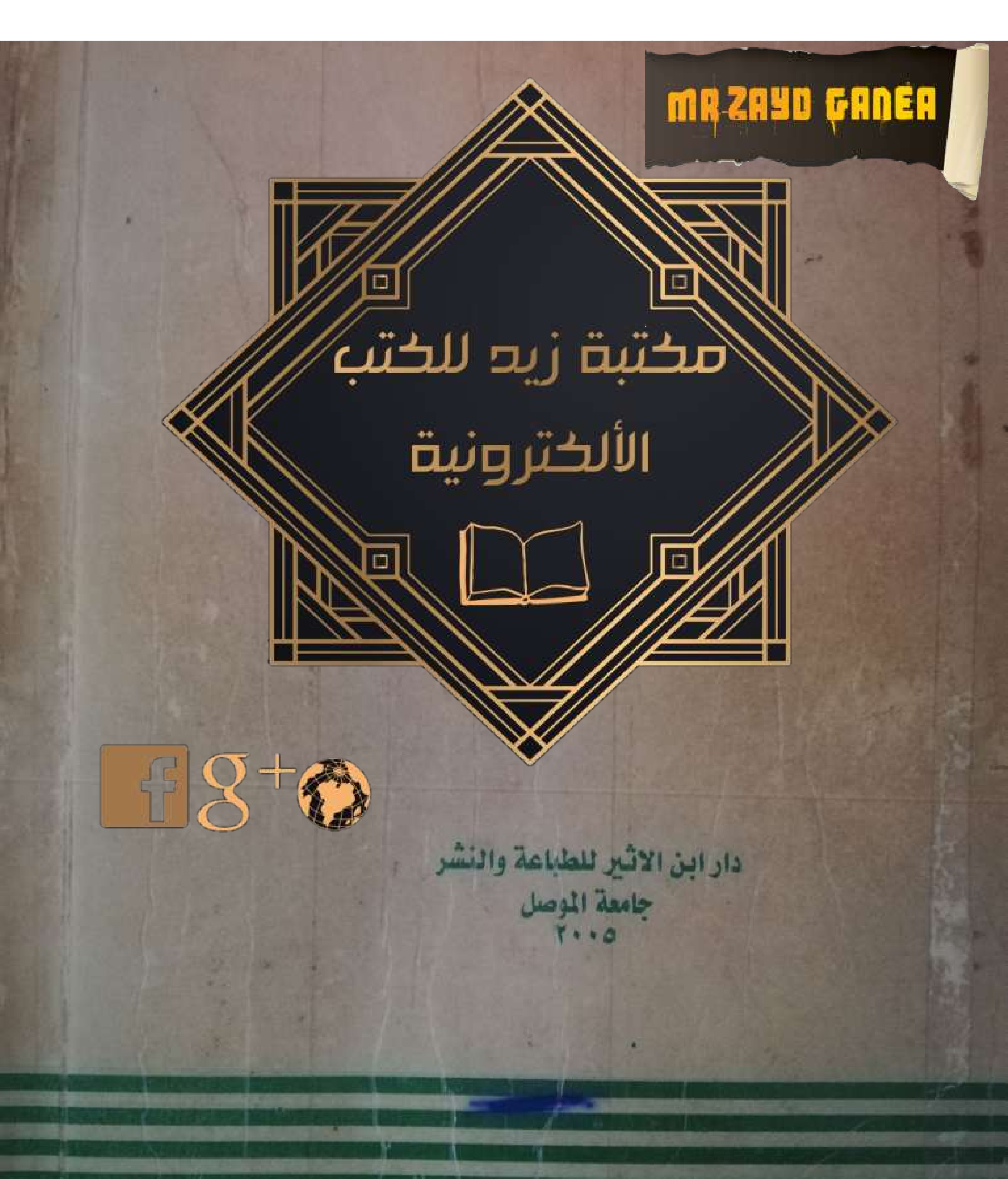
—Zeine, zeine. N. –. The straggle for Arab Independence, (Beirut, 1960)

—Zeine , Zeine . N.–: Arab – Turkish Relations and the Emergence of Arab Nationalism, (Beirut, 1958)

المحتويات



	الصفحة
المقدمة	٣
الفصل الاول: نشأة الدولة العثمانية وتوسعها في الاقطار العربية...	١١
الفصل الثاني: نظم الحكم والادارة العثمانية في الوطن العربي...	٦٣
الفصل الثالث: الغزو الفرنسي لمصر ومحاولة محمد علي باشا بناء الدولة العربية الحديثة...	١١٥
الفصل الرابع: محاولات الاصلاح العثمانية وانعكاساتها في الاقطار العربية..	١٧٧
الفصل الخامس: حركات التجديد في الوطن العربي...	٢٣٩
الفصل السادس: الغزو الاستعماري الاوربي للوطن العربي وردود الفعل العربية	٢٧٥
الفصل السابع: اتجاهات حركة النهضة الحديثة في الوطن العربي ونشوء الحركة القومية العربية...	٣٥٩
مصادر الكتاب ومراجعه	٤٦٣


MR ZAYD GANEA
مكتبة زيد للكتب
الألكترونية
دار ابن الاثير للطباعة والنشر
جامعة الموصل
٢٠٠٥